







مُقَدِّمَةٌ



العلامة ابن خلدون

كتابٌ قد حوى دَررَ المعاني ومجر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لها تيك المباني فان البحر كل الدر فيه

طُبعت برخصة مجلس معارف ولاية سوريا الخليفة

بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٧٩

وطُبعت ثانية سنة ١٨٨٦

ثم طُبعت الثالثة بالشكل الكامل سنة ١٩٠٠

الجزء الاول

من

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر

في

ايام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن ابن خلدون

المغربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْغَنِيِّ بِلُطْفِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ خَلْدُونَ
الْحَضْرَمِيِّ وَفَقَهُ اللَّهُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبْرُوتُ * وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَائِكَةُ * وَوَلَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى وَالنُّعُوتُ * الْعَالَمُ فَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ النَّجْوَى أَوْ يُخْفِيهِ السُّكُوتُ * الْقَادِرُ
فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ * أَنْشَأَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسَمًا * وَأَسْتَعْمَرْنَا
فِيهَا أَجْبَالَ وَأُمَّمًا وَيَسَّرْنَا مِنْهَا أَرْزَاقًا وَقَسَمًا * تَكَدَّفْنَا الْأَرْحَامُ وَالْبَيُوتُ * وَيَكْفُلُنَا
الرِّزْقَ وَالْقُوتَ * وَبَدَّلْنَا الْأَيَّامَ وَاللُّيُوتَ * وَتَعَوَّرْنَا الْأَجَالَ الَّذِي خَطَّ عَلَيْنَا كِتَابَهَا الْمَوْفُوتُ
وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثَّبُوتُ * وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ * وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْعُوتِ * الَّذِي تَخَصَّصَ لِفَصَالِهِ
السُّكُونُ قَبْلَ أَنْ تَنْعَاقِبَ الْأَحَادُ وَالسُّبُوتُ * وَتَبَيَّنَ زُحْلُ وَالْيَهْمُوتُ ^(١) * وَعَلَى الْهَوَا سَحَابِهِ
الَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ الْأَثَرُ الْبَعِيدُ وَالصَّيْتُ * وَالشَّمْلُ الْجَمِيعُ فِي مَظَاهِرَتِهِ وَلِعَدْوِهِمْ
السَّمْلُ الشَّتِيتُ * صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا أَتَّصَلَ بِالْإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمَنْجُوتُ * وَأَنْقَطَعَ
بِالْكُفْرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ * وَسَلَّمْ كَثِيرًا

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مِنَ التَّارِيخِ مِنَ الْفَنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُ الْأُمَمُ وَالْأَجْبَالُ وَتُشَدُّ إِلَيْهِ
الرِّكَائِبُ وَالرِّحَالُ * وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّرُوقُ وَالْأَعْفَالُ * وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ
وَالْأَقْيَالُ * وَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَالُ * إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارِ

(١) قوله الیهموت هر النون ای المحوت الذي على ظهره الارض السابئة ويسمى ایضاً لوتیا کایف
المزهر وروح البیان من اللہجة ومعلم ان ینہ و بین زحل الذي هر في الفلك السابع ہوتا ہمدآ وقال الشہاب
المخفاجی فی حاشیئہ علی البیضاوی اہ فی اول سورة نون الیہموت بفتح المنة النجیة وسکون الماء وما اشہر
من انه بالباء المرحدہ غلط علی ما ذکره الفاضل المحمئی ومثله فی روح البیان قوله نصر الہور بی اقره
المصحح النہ فی

عَنِ الْأَيَّامِ وَالذُّلُولِ * وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْفُرُونِ الْأَوَّلِ * تَنَمُّوْ فِيهَا الْأَقْوَالُ * وَتَضْرِبُ فِيهَا
 الْأَمْثَالَ * وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَةُ إِذَا غَضَبَهَا الْأَحْتِفَالُ * وَتُوَدِّي لَنَا شَأْنَ أَلْخَلِيقَةِ كَيْفَ
 نَقَلْتِ بِهَا الْأَحْوَالَ * وَانْتَسَعَ لِلذُّلُولِ فِيهَا النِّطَاقُ وَالنَّبْجَالُ * وَعَمَّرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى
 بِهِمُ الْأَرْتَجَالَ * وَحَانَ مِنْهُمْ الرُّوَالَ * وَفِي بَاطِنِهِ نَظْرٌ وَتَحْقِيقٌ * وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ
 وَمُبَادِرَةٌ دَقِيقٌ * وَعَلِمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوُقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ * فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ
 عَرِيقٌ * وَجَدِيرٌ بِأَنْ يَعْذَرَ فِي عُلُوبِهَا وَخَلِيقٌ * وَإِنْ فُحُولَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْأَسْلَامِ قَدْ
 اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا * وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الدَّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوهَا * وَخَلَطُوهَا
 الْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا وَابْتَدَعُوهَا * وَزَخَّافَ مِنَ الرَّوَايَاتِ الْمَضْعُفَةَ
 لَفَقُوهَا وَوَضَعُوهَا * وَأَقْتَنَى نِيكَ الْأَثَارَ الْكَثِيرَ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاتَّبَعُوهَا * وَأَدَّوَاهَا إِلَيْنَا كَمَا
 سَمِعُوهَا * وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ الْوُقَائِعِ وَالْأَحْوَالَ وَلَمْ يَرَاعُوهَا * وَلَا رَفَضُوا تَرْكَاتِ
 الْأَحَادِيثِ وَلَا دَعَوْهَهَا فَالتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ * وَطُرْفُ الْأَنْبِيحِ فِي الْغَالِبِ كَبِيلٌ * وَالْغَلَطُ وَالْوَهْمُ
 نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ * وَالْأَقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي الْأَدَمِيِّينَ وَسَائِلٌ * وَالنَّظْفُلُ عَلَى الْفُنُونِ
 عَرِضٌ طَوِيلٌ * وَمَرَعَى الْجَهْلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخَيْمٌ وَيِيلٌ * وَالْحَقُّ لَا يَقَاوِمُ سُلْطَانَهُ * وَالْبَاطِلُ
 يُقْدَفُ بِشِهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانَهُ * وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يَدْلِي وَيَنْقُلُ * وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيحَ
 إِذَا تَمَقَّلَ * وَالْعِلْمُ بِجَمَلِهَا صَفَحَاتُ الْقُلُوبِ وَيَصْقُلُ

هَذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا * وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالذُّلُولِ فِي
 الْعَالَمِ وَسَطَّرُوا * وَالذِّينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالْإِمَامَةِ الْمَعْتَبَرَةِ * وَأَسْتَفْرَعُوا دَوَاوِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ فِي صُحُفِهِمُ الْمَتَأَخَّرَةِ * هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ بِجَاوِزُونَ عَدَدِ الْأَنَامِ * وَلَا
 حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ * مِثْلُ أَبِي إِسْحَاقَ الرَّاطِبِيِّ وَأَبْنِ الْمَكْتَبِيِّ وَرَحْمَدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ
 وَسَيْفِ بْنِ عَمْرِو الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ * الَّتِي تَمَيَّزِينَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ * وَإِنْ كَانَ
 فِي كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ وَالوَاقِدِيِّ مِنَ الدُّعَايِ وَالنَّحْوِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَثْبَاتِ *
 وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الْحَنَظَلَةِ الثَّقَاتِ * إِلَّا أَنَّ الْمَكْتَبَةَ أَخْتَصَرْتُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ * وَأَقْتَنَاءَ
 سَائِرِهِمْ فِي التَّصْيِيفِ وَاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ * وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَسْطُاسٌ نَتَسَهُ فِي تَرْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ
 أَوْ أَعْتَبَرَهُمْ * فَلْيَعْمُرَنَّ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا الْأَخْبَارُ * وَتَحْمَلُ عَلَيْهَا الرَّوَايَاتُ

وَالْأَثَارُ * ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لَهُؤُلَاءِ عَامَةُ الْمَنَاجِحِ وَالْمَسَالِكِ * لِعُمُومِ الدَّلِيلَيْنِ
 صَدَرَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَفَاقِ وَالْمَمَالِكِ * وَتَنَاوَلَهَا الْبَعِيدُ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَاخِذِ وَالْمَتَارِكِ
 وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ اسْتَوْعَبَ مَا قَبِلَ الْمَلَّةَ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ * وَالْأَمْرَ الْعَمَمِ * كَالْمَسْعُودِيِّ
 وَمَنْ نَحَا مَنَاهُ وَجَاءَ مِنْ نَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَوَقَفَ فِي الْعُمُومِ
 وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأَوِ الْبَعِيدِ * فَفَقِيدَ شِوَارِدَ عَصْرِهِ * وَأَسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْهَقِهِ وَفُطْرِهِ *
 وَأَفْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ * كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالِدَوْلَةُ الْأُمَوِيَّةِ
 بِهَا وَابْنُ الرَّفِيقِيِّ مُؤَرِّخُ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالِدَوْلَةُ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ
 هَؤُلَاءِ إِلَّا مَقْلَدٌ * وَرَبِيدُ الطَّبَعِ وَالْعَمَلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ * يَنْسُجُ عَلَى ذَلِكَ الْمَنُوالِ * وَيَحْتَدِي
 مِنْهُ بِالْمِثَالِ * وَيُنْدَهُلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ * وَأَسْتَبَدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأُمَمِ
 وَالْأَجْيَالِ * فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ * وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأَوَّلِ * صَوْرًا
 قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا * وَصِنَاحًا أَنْتَضَيْتَ مِنْ أَعْمَادِهَا * وَمَعَارِفَ تُسَنِّكُ الْبُحْبُوحَ
 بِطَارِفِهَا وَزَلَدِهَا * إِنَّمَا هِيَ حَرَادِثٌ لَمْ تَعْلَمْ أَصْرُهَا * وَأَنْزَاعٌ لَمْ تَعْتَبِرْ أَجْنَاسَهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ
 فُصُولَهَا * يُكْرَزُونَ فِي مَوْضِعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمَتَدَوَّلَةَ بِأَعْيَانِهَا * أَنْبَاءً لِمَنْ عَنِ مِنَ
 الْمَتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا * وَيُغْنِيُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا * بِمَا أُعْزِزَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 تَرْجُمَانِهَا * فَتَسْتَحْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا * ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدُّوَلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسْقًا *
 مُحَاظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمًّا أَوْ صِنْفًا * لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا * وَلَا يَنْدُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي
 رَفَعَ مِنْ رَابِتِهَا * وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا * وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا * فَيَبْقَى النَّاطِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدَ
 إِلَى ائْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا * مُعْتَشًا عَنْ أَسْبَابِ تَرَاخُفِهَا أَوْ تَعَاقُفِهَا *
 بَاحِيًا عَنِ الْمُتَقَبِّحِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُفِهَا * حَسْبَمَا نَذَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ
 ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْأَخْتِصَارِ * وَذَهَبُوا إِلَى الْأَكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْإِفْتِصَارِ *
 مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ * مَوْضِعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ الْعُبَارِ * كَمَا فَعَلَهُ
 ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ * وَمَنْ أَقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ مِنَ الْهَمَلِ * وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لَهُؤُلَاءِ
 مَقَالٌ * وَلَا يَبْدُو لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ائْتِقَالٌ * لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ * وَأَخْلَوْا بِالْمَتَاهِبِ
 الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ

وَلَمَّا طَالَعْتُ كِتَابَ الْقَوْمِ * وَسَوَّيْتُ غُورَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ * نَهَيْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ

سنة الغفلة والنوم * وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم * فأنشأت
في التاريخ كتاباً * رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً * وقصته في
الأخبار والأخبار باباً باباً * وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً * ونبته
على أخبار الأمم الذين عمرُوا المغرب في هذه الأعصار * وملاوا أكناف الضواحي
منه والأمصار * وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار * ومن سلفت لهم من الملوك
والأنصار * وهما العرب والبربر * إذ هما الجبلان اللذان عرف بالمغرب ما وهما
وطال فيه على الأحقاب مئوهما * حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداهما * ولا يعرف
أهلُه من أجيال الأدميين سواهما * فهدت مناهية تهدياً * وقربته لأفهام العلماء
والخاصة نقيباً * وسأكت في ترتيبه وتبويه مسلكاً عربياً * وأخترته من بين
المناهي مذهباً عجيباً * وطريقة مبتدعة وأسلوباً * وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن
وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلى الكوائن
وأسبابها * ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها * حتى تنزع من التقليد يدك *
وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك ورثته على مقدمة وثلاثة كتب
المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمخاطب المؤرخين
الكتاب الأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من
الملك والسultan والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلال والأسباب
الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ خلقهم إلى هذا
العهد وفيه من الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط
والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والرؤم والترك والأفرنجية
الكتاب الثالث في أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليهم وأخيالهم
وما كان بيدار المغرب خاصة من الملوك والدول ثم كانت الرحلة إلى المشرق
لأجتناء أنواره * وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره * وأوقوف على آثاره في دواوينه
وأسفاره * فزدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار * ودول الترك فيما
ملكوه من الأقطار * وأتبعتها بما كتبت في تلك الأسفار * وأدرجتها في ذكر
الدعاصر بين تلك الأجيال من أمم النواحي وملوك الأمصار والضواحي * سالماً سبيل

الِاخْتِصَارِ وَالْتَلْخِصِ * مُفْتَدِيًا بِالْمَرَامِ السَّهْلِ مِنَ الْعَوِيصِ * دَاخِلًا مِنْ بَابِ الْاَسْبَابِ
 عَلَى الْعُمُومِ إِلَى الْاِخْبَارِ عَلَى الْخُصُوصِ فَاسْتَوْعَبَ اَخْبَارَ اَخْلِيْقَةِ اسْتِيعَابًا * وَذَلِكَ مِنْ
 الْحِكْمِ النَّافِرَةِ صَعَابًا * وَاعْطَى لِحَوَادِثِ الدُّوْلِ عَلَاً وَاَسْبَابًا * فَاَصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صِرَاثًا *
 وَالتَّلَايُخِ جِرَابًا

وَلَمَّا كَانَ مُشْتَمَلًا عَلَى اَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبِ * مِنْ اَهْلِ الْمَدْرِ وَالْوَبْرِ * وَالْاِئْتِمَاعِ
 مِنْ عَاصِرُهُمْ مِنَ الدُّوْلِ الْكَبْرِ * وَافْصَحَ بِاللِّدِّ كَرِي وَالْعَبْرِ * فِي مَبْتَدَاِ الْاَحْوَالِ وَمَا
 بَعْدَهَا مِنْ الْخَبْرِ * سَمِيئُهُ كِتَابُ الْعَبْرِ * وَدِيَوَانُ الْمُبْتَدَاِ وَالْخَبْرِ * فِي اَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
 وَالْبَرْبِ * وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْاَكْبَرِ * وَلَمْ اَتْرُكْ شَيْئًا فِي اَوَّلِيَةِ الْاَجْيَالِ
 وَالدُّوْلِ * وَتَعَاصُرِ الْاُمَمِ الْاَوَّلِ * وَاسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالْحَوْلِ * فِي الْقُرُونِ الْاَخْلَايَةِ وَالْمِلَالِ *
 وَمَا يَعْزِضُ فِي الْعُمُرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمَلَّةٍ * وَمَدِيْنَةٍ وَحِلَّةٍ * وَعَوْرَةٍ وَذِلَّةٍ * وَكَثْرَةِ وَقَلَّةٍ * وَعِلْمٍ
 وَصِنَاعَةٍ * وَكَسْبٍ وَاِضَاعَةٍ * وَاحْوَالٍ مُنْقَلَبَةٍ مُشَاعَةٍ * وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ * وَوَاقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ *
 اِلَّا * وَاسْتَوْعَبْتُ جَمَلَةً * وَوَضَحْتُ بَرَاهِيْنَهُ وَعِلَلَّهُ * فِجَاءَ هَذَا الْكِتَابِ فَذَا مَا ضَمَّنْتُهُ مِنْ
 الْعُلُومِ الْقَرِيْبَةِ * وَالْحِكْمِ الْحَجْوَبَةِ الْقَرِيْبَةِ * وَانَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ بِالْقُصُورِ * بَيْنَ اَهْلِ
 الْعُسْرِ * مُعْتَرِفٌ بِالْعِجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ * فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ * رَاغِبٌ مِنْ اَهْلِ الْيَدِ الْيَسَاءِ *
 وَالْمَعَارِفِ الْمُنْسَعَةِ الْفَضَاءِ * فِي النَّظْرِ بَعِيْنِ الْاِئْتِقَادِ لَا بَعِيْنِ الْاِزْنَاءِ * وَالْتَعَمُّدِ لِمَا
 يَعْتَرُونَ عَلَيْهِ بِالْاِصْلَاحِ وَالْاِغْضَاءِ * فَالْبِضَاعَةُ بَيْنَ اَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ جَاهٍ * وَالْاِعْتِرَافُ
 مِنَ اللُّؤْمِ مِنْجَاةٌ * وَالْحَسَنِي مِنْ الْاِخْوَانِ مِنْجَاةٌ * وَاللَّهِ اَسْأَلُ اَنْ يَجْعَلَ اَعْمَالَنَا خَالِصَةً
 لَوَجْهِهِ الْكَرِيْمِ وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ

وَبَعْدَ اَنْ اسْتَوْقَيْتُ عِلَاَجَهُ * وَانْرَتُ مَشْكَاةَهُ لِلْمُسْتَبْصِرِيْنَ وَاذْ كَيْتُ سِرَاَجَهُ *
 وَاَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيْقَهُ وَمِنْجَاةَهُ * وَاَوْسَعْتُ فِي فِضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَاَدْرَتُ
 سِيَاَجَهُ * اَتَخَذْتُ بِهَيْذِهِ النُّسْخَةَ مِنْهُ ^(١) خِرَاةً مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْاِيْمَامِ الْجِهَادِي * الْفَاتِحِ

(١) قوله تخفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله تخفت
 وبعد قوله وادرت سياجه ونصها التمس له الكف الذي يلج بعين الاستبصار فنونه . ويلفظ بداركو
 الشريفة معياره الصحيح وقانونه . ويميز رقبة في المعارف عما دونه . فسرحت فكري في فضا الوجود . واجلت
 نظري ليل النام واليهود . بين التهامم والعبود . في العلماء الركع والسجود . والحلفا اهل الكرم والمجد .
 حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الافكار بموقف الامال . وظفرت ابدي المساعي والاعتقال .

الماهدي * المتعجلي مندُ خلع التمام * ولوث العمائم * بجلى القانت الزاهد * المتوسخ
 بزكاء المنافب والحماد * وكرم الشائل والشواهد * بأجمل من القلائد * في محور
 أولاد * المتناول بالعزيز القوي الساعد * وأجد المواتي المساعد * والتجدي الطارف
 والتأدي * ذوابب ملكهم الراسي القواعد * الكريم المعالي والمصاعد * جامع
 أشتات العلوم والفوائد * وناظم شمل المعارف والشوارد * ومطوهر الآبآت الربانية *
 في فضل المدارك الإنسانية * يفكره الأنايب النافذ * ورأيه الصحيح المعانيد * التبر
 المذاهب والعقائد * نور الله الواضح المراشد * ونعمته العذبة الموارد * ولطفه الكامن
 بالمراصد للشدائد * ورحمته الكريمة المقاليد * التي وسعت صلاح الزمان الفاسد *
 واستقامة المائد من الأحوال والعوائد * وذهبت بالخطوب الأوابد * وخلعت على الزمان
 رونق الشباب العائد * ووجته التي لا يبطلها إنكار الجاحد ولا شبهات المعانيد * (أمير
 المومنين) أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان المعظم الشهيد الشهير أبي سالم
 إبراهيم ابن مولانا السلطان المقدس أمير المؤمنين * أبي الحسن ابن السادة الأعلام
 من ملوك بني مرين * الذين جددوا الدين * ونهجو السبيل للمهتدين * ومحو آثار البغاة
 المفسدين * آفاه الله على الأمة ظلاله * وبلغه في نصر دعوة الإسلام أماله * وبعثه
 إلى خزائهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم
 وكرسي سلطانهم * حيث مقر الهدى * ورباض المعارف خضلة الندى * وفضاء الأسرار

بمندي المعارف مشرفة فيه غر الجبال . وحقائق المعلم الوارفة الظلال . عن اليمن والشمال . فاتخذ
 مطي الأفكار في عرضاتها . وجلوت محاسن الانظار تلى مناصمها . وانحنت بدبولانها . فصر ابوانها . واطلمته
 كوكبا وقادا في انقى خزائنها وصابها . ليكون آية للعقلاء مهتدين بهار . و يعرفون فضل المدرك
 الانسانية في اناره . وهي خزانه مولانا السلطان الامام الجاهد . الفتح المائد . الى اخر النعوت المذكورة هنا
 ثم قال الخليفة امير المومنين المتوكل على رب العالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الظاهر المقدس
 ابي عبدالله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المومنين . ابي يحيى ابي بكر ابن الخلفاء ارشدين . من
 ائمة الموجدن الذين جددوا الدين . ونهجو السبيل للمهتدين . ومحو آثار البغاه المفسدين من الجسسية
 والمعندين . سلاه ابي المحض والفاروق . والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور
 المتلاهي من تلك الاشعة والبروق . فاوردته من مودعها الى النبي بحيث مقر الهدى . ورباض المعارف
 خضلة الندى . الى اخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية . لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه
 النسخة المنقولة من خزانه الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

الرَّبَانِيَّةَ فَسِيحُ الْمَدَى * وَالْإِمَامَةَ الْفَارِسِيَّةَ الْكُرَيْمَةَ^(١) الْعَزِيزَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِنَظَرِهَا
 الشَّرِيفِ * وَفَضْلِهَا الْعَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيفِ * تَبَسُّطُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مَهَادًا * وَتَفَسُّحُ لَهُ فِي جَانِبِ
 الْقَبُولِ آمَادًا * فَتَوْضُحُ بِهَا أدِلَّةٌ عَلَى رُسُوحِهِ وَأَشْهَادًا * فِي سَوْفِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ الْكُتَابِ
 وَعَلَى حَضْرَتِهَا تُعْكَفُ رَكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ * وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ تَنَاجُجُ
 الْقَرَائِحِ وَالْأَلْبَابِ * وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا * وَيُوفِّرُ لَنَا حَظُوظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا
 وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا * وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِيدَانِهَا الْعَلِيِّينَ فِي حَوْمَتِهَا * وَيُضْفِي
 عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا * وَمَا أَوْيَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَلَتِهَا * لِبُوسِ حَمَائِنِهَا وَحُرْمَتِهَا *
 وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وَجْهَتِهَا * بَرِيَّةً مِنْ شَوَائِبِ الْغَفْلَةِ
 وَشَهْرَتِهَا * وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين

من المغالط وذكر شي من اسبابها

اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوفينا
 على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانباء في سيرهم والملوك في دولهم
 وسياستهم حتى يتم فائدة الاقدياء في ذلك لمن يرؤمه في احوال الدين والدنيا فهو
 محتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبت بفضيان بصاحبهما الى
 الحق وينكبان به عن المزالات والمغالط لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد
 النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع
 الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من
 العتور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين
 وائمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غفلا
 او سمينا ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة
 والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق

(١) قوله الفارسية اي المنسوبة الى ابي فارس انقدم ذكره اه

وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ وَلَا سِيَمَا فِي إِحْصَاءِ الْأَعْدَادِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا
عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظَنَّةُ الْكَيْبِ وَمَطِيَّةُ الْهَدْرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى
الْأَصُولِ وَعَرَضَهَا عَلَى الْفَوَاعِدِ وَهَذَا كَمَا نَقَلَ الْمَسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي
جِيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي التَّيِّهِ بَعْدَ أَنْ أجازَ مِنْ يَطْبِيقِ
حَمَلِ السَّلَاحِ خَاصَّةً مِنْ أَبْنِ عَشْرِينَ فَمَا قَوْفَهَا فَكَانُوا سِتْمَانَةَ آفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ
فِي ذَلِكَ عَنِ نَقْدِيرِ مَضْرٍ وَالشَّامِ وَاتَّسَاعِهِمَا لِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجِيُوشِ لِكُلِّ
مَمْلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةً مِنَ الْحَامِيَةِ تَنْسَعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوِظَائِفِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا
تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَالُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجِيُوشِ الْبَالِغَةَ
إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ يُضِيقُ سَاحَةَ الْأَرْضِ عَنْهَا وَبَعْدَهَا
إِذَا اصْطَفَّتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ زَيْدًا فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ
أَوْ تَكُونُ غَلَبَةٌ أَحَدِ الصَّفَيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرَ وَالْحَاضِرُ
يَشْهَدُ لِذَلِكَ فَالْمَاضِي أَشْبَهَ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ . وَلَقَدْ كَانَ مَلِكُ الْفَرَسِ وَدَوْلَتُهُمْ
أَعْظَمُ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بَخْتَنْصَرٍ لَهُمْ وَالنَّبِيَامِهِ
بِلَادَهُمْ وَأَسْتِيلَانِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخَرُّبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَاعِدَةَ مَلْتَهُمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَهُوَ
مِنْ بَعْضِ عُمَلِ مَمْلَكَةِ فَارَسٍ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ الْمَعْرَبِ مِنْ تَخُومِهَا وَكَانَتْ
مَمَالِكُهُمْ بِالْعَرَاقِينَ وَخُرَّاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِكَثِيرٍ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جِيُوشُ الْفَرَسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا
كَانَتْ جَمُوعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةَ وَعَشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَبُوعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ صَيْفٌ قَالَ وَكَانُوا
فِي اتِّبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتِي آفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ فَإِنْ جَمَعُوا رُسُومَ الَّذِينَ زَحَفَتْ
بِهِمْ سَعْدُ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَبُوعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ
مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَأَتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ
فِي الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْفَائِزِينَ بِهَا فِي قَلْبِهَا وَكَثْرَتِهَا حَسِيمًا نَبِينِ فِي فَصْلِ
الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْقَوْمِ لَمْ تَنْسَعِ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأَرْدَنِ وَفِلَسْطِينَ
مِنَ الشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرَبٍ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَيْضًا فَالَّذِي بَيْنَ مُوسَى
وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عُمَرَ بْنِ يَضْرُ

بِن قَاهَتَ بَفْتَحِ أَلْمَاءِ وَكَسَرِهَا أِبْنَ لَأَوِي بِكَسْرِ أَلْوَاوِ وَفَتْحِهَا أِبْنَ يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ
 اللَّهُ هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْمَدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ دَخَلَ إِسْرَائِيلُ
 مِصْرَ مَعَ وُلْدِهِ الْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْسًا وَكَانَ مَقَامُهُمْ بِمِصْرَ
 إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى التِّيهِ مَائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَتَدَاوَلَهُمْ مَلُوكُ
 الْقِبْطِ مِنَ الْفَرَاعِنَةِ وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ وَإِنْ
 زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْأَجْيَاسِ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ بَعْدِهِ فَبَعِيدٌ أَيضًا إِذْ لَيْسَ
 بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدَ عَشَرَ أَبًا فَإِنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ يَسَّاءَ بْنِ عُوْفَيْدَ
 وَيُقَالُ أِبْنَ عُوْفَيْدَ أِبْنَ بَاعَزَ وَيُقَالُ بُوعَزَ بْنِ سَلْمُونَ بْنِ نَحْشُونَ بْنِ عَمِيْنُوذِبَ وَيُقَالُ
 حَمِيْنَادَابَ بْنِ رَمَّانَ بْنِ حَضْرُونَ وَيُقَالُ حَسْرُونَ بْنِ بَارَسَ وَيُقَالُ بَرَسَ بْنِ يَهُودَا بْنِ
 يَعْقُوبَ وَلَا يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ فِي أَحَدِ عَشَرَ مِنَ الْوُلْدِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الَّذِي زَعَمُوهُ اللَّهُمَّ
 إِلَى الْمِثْلَيْنِ وَالْآلَافِ قَرِيبًا يَكُونُ وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عُقُودِ الْأَعْدَادِ
 فَبَعِيدٌ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْحَاضِرِ الْمَشَاهِدِ وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ تَجِدُ زَعْمَهُمْ بَاطِلًا وَقَلَمَهُمْ
 كَاذِبًا وَالَّذِي ثَبَتَ فِي الْأِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا خَاصَّةً
 وَأَنَّ مَقْرَبَاتِهِ كَانَتْ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةٌ عَلَى أَبْوَابِهِ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ
 أَخْبَارِهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى خِرَافَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ وَفِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَمَلَكَهُ
 كَانَ عَنُقُوانُ دَوْلَتِهِمْ وَأَتَسَّاعَ مَلِكُهُمْ هَذَا وَقَدْ تَجِدُ السَّكَّافَةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا
 أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِي لِعَبْدِهِمْ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَتَفَاوَضُوا فِي الْأَخْبَارِ
 عَنْ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ النَّصَارَى أَوْ أَخَذُوا فِي إِحْصَاءِ أَمْوَالِ الْجَبَايَاتِ وَخَرَاجِ
 السُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتَرَفِينَ وَبِضَائِعِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُوَسَّرِينَ تَوَعَّلُوا فِي الْعَدَدِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ
 الْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوَسَ الْأَغْرَابِ فَإِذَا اسْتَبْكَشَفَ اصْخَابَ الدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ
 وَاسْتَنْبَطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ التَّرَوُّةِ فِي بِضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ وَأَسْتَجْلَيْتْ عَوَائِدَ الْمُتَرَفِينَ فِي
 نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مَعْشَارًا مَا يَبْدُونَهُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِوُلُوعِ النَّفْسِ بِالْغَرَائِبِ وَسَهْوَةِ التَّجَاوُزِ
 عَلَى اللِّسَانِ وَالْفُغْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُنْتَقِدِ حَتَّى لَا يَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطَاٍ وَلَا عَمْدٍ وَلَا
 يَطَالِبُهَا فِي الْخَبْرِ بِتَوْسُطٍ وَلَا عَدَالَةٍ وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيْشٍ فَيُرْسِلُ عَنَانَهُ وَيَسْمِي
 فِي مَرَاتِعِ الْكُذْبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هُزًا وَيَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثَ لِيَضِلَّ عَنْ

سَبِيلَ اللَّهِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفِيَّةٌ خَاسِرَةٌ وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةَ لِلْمَوْرِثِينَ مَا يَقُولُونَ كَافَّةً
فِي أَخْبَارِ التَّبَاعَةِ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْزُونَ مِنْ قُرَاهِمِ بِالْيَمَنِ
إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالْبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعْظَمِ
مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَتَمَّنَ فِي
الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمْ بِهَذَا الْأَسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَةُ فَأَخَذَ
هَذَا الْأَسْمَ عَنْهُ وَدَعَا بِهِ مِنْ حَيْثُ دُ وَأَنَّهُ لَمَّا أَنْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حَجَرَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ
مِنْ حَمِيرٍ فَأَقَامُوا بِهَا وَأَخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةٌ وَكِتَامَةٌ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبْرِيُّ
وَالْجُرْجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَأَبْنُ الْكَلْبِيِّ وَالْبَيْهَقِيُّ إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حَمِيرٍ
وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَا الْأَذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ
قَبْلَ أَفْرِيقِشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سَالِمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ
ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرِ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِي الرَّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ
فِيهِ مَسَاكًا لِكثَرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْأَخْرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبٍ
وَكَانَ عَلَى عَهْدِ إِسْتِاسَتِ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَسِ الْكَلْبِيَّةِ أَنَّهُ مَلَكَ الْمَوْصِلَ وَأَذْرَبِجَانَ
وَلَقِيَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَتَمَّنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْرَى ثَلَاثَةَ
مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصَّغْدِ مِنْ بِلَادِ أُمِّ التُّرْكَ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ
فَمَلَكَ الْأَوَّلَ الْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِيَّ الَّذِي
غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَخَذَهَا فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعًا بِالْغَنَائِمِ وَتَرَكُوا بِلَادَ
الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرٍ فَهَمُّ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَبَلَغَ الثَّلَاثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوَّخَ
بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصَّحِيحَةِ عَرَبِيَّةٌ فِي الْوَهْمِ وَالغَلَطِ
وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ الْبَعْضِ الْمَوْضِعِ. وَذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ التَّبَاعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ
وَقَرَارُهُمْ وَكَرْسِيَتُهُمْ بِصَنْعَاءِ الْيَمَنِ. وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَجَزْرُ
الْهُنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ
الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مُصَوِّرِ الْجُغْرَافِيَا
فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ وَالْمَسْلَكِ هُنَاكَ مَا
بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدْرُ مَرَحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا الْمَسْلَكِ

مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هَذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ
كَانَ بَتْلَكَ الْأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةَ وَكِنَعَانَ بِالشَّامِ وَالْقَبْطَ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلِكُ الْعَمَالِقَةَ بِمِصْرَ
وَمَلِكُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ وَلَا
مَلَكُوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَأَيْضًا فَالشَّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزُودَةُ
وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ أَحْتَا جُؤا إِلَى أَنْتِهَابِ الزَّرْعِ
وَالنَّعْمِ وَأَنْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمْرُونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ
نَقَلُوا كَمَا بَاتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَبِي لِيَوْمِ الرَّوْحِلِ بِنَقْلِهِ فَلَا بَدَّ وَأَنْ يَدْرُوا فِي
طَرِيقِهِمْ كَلْبًا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكُوهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ
الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهَيِّجَهُمْ فَتَحْصُلُ لِيَوْمِ الْمِيرَةِ بِالسَّلَامَةِ فَذَلِكَ
أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعًا فَدَلَّ عَلَيَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَّا وَادِي الرَّمْلِ الَّذِي يُجْزُ السَّلَاكُ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ دَلَى كَثْرَةِ
سَالِكِيهِ وَمَنْ يَقْصُ طَرِيقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْقُرَى فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ دَلَى مَا
ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَرَابَةِ تَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ التُّرْكِ
وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعُ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشَّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأَمَّ فَارِسَ وَالرُّومَ
مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ مَلَكُوا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ
وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِجْرَةِ
وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجَلَةَ وَالْفَرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْأَذْعَارِ
مِنْهُمْ وَكَيْكَاؤُسَ مِنْ مُلُوكِ الْكَيْبَانِيَّةِ وَبَيْنَ تَبَعِ الْأَصْفَرِ أَبِي كَرَبٍ وَيَسْتَأْسِفُ مِنْهُمْ
أَيْضًا وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكَيْبَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجَاوَزَةِ أَرْضِ فَارِسَ
بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ
وَالْحَاجَةَ إِلَى الْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشَّقَّةِ كَمَا مَرَّ فَلِأَخْبَارِ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ
وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً النَّقْلِ لِمَكَانِ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ
وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَ لَأَوْسَ وَالْخَزْرَجِ أَنَّ تَبَعًا الْآخِرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ
مَحْمُولًا عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَمَا بِلَادَ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهِ
لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تُنْقَلُ بِمَا يُبْلَغُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ وَتَأَمَّلِ الْأَخْبَارَ وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَائِدِ

الصَّحِيحَةَ يَقَعُ لَكَ تَخْيِصُهَا بِإِحْسَنِ وَجْهِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقُ فِي التَّوَعُّمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمَفْسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرْمَ اسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصَنَتِ
بِأَسْمَاءِ ذَاتِ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينٍ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عَوْصِ بْنِ إِرْمَ أَبْنَانُ هُمَا شَدِيدٌ
وَشَدَادٌ مَلَكًا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَاكَ شَدِيدٌ نَحْضًا الْمَلِكُ لَشَدَادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ
وَصَفَّ الْجَنَّةَ فَقَالَ لِأَبْنَيْنِ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرْمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةٍ ثَلَاثِينَ سَنَةً
وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعِينَ سَنَةً وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُرُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزَّبْرَجَدِ
وَالْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالْأَنْهَارُ الْمَطْرُودَةُ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ
مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَوَلِيَّةٌ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً مِنَ السَّمَاءِ
فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ. ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَالنَّعَائِيُّ وَالزَّمْخَشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ
وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَلَابَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلٌ
مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبْرَهُ مُعَاوِيَةَ فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ
عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرْمُ ذَاتِ الْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرٌ أَشَقْرٌ قَصِيرٌ
عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ التَفَّتْ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلَابَةَ فَقَالَ
هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ. وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبْرٌ مِنْ يَوْمئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ
وَصَحَارَى عَدَنَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بَنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمُرَانُهُ مُتَعَابًا
وَالْأَدْلَاءُ نَقَضُ طَرْفَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبْرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ
مِنَ الْأَخْبَارِيِّينَ وَالْأَمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرُسَتْ فِيمَا دُرُسَتْ مِنَ الْآثَارِ لَكَانَ أَشْبَهُ إِلَّا
أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءٍ عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا
وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَدْيَانُ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَعْتَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحْرِ مَزَاعِمٌ
كُلُّهَا أَشْبَهُ بِالْخَرِيفَاتِ وَالَّذِي حَمَلَ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الْإِعْرَابِ فِي
لَفْظَةِ ذَاتِ الْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةٌ إِرْمَ وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ يَكُونُ بِنَاءً وَرَشِيحٌ
لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ عَادُ إِرْمَ عَلَى الْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَبْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ
الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَفَاصِيصِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُذْبِ الْمَنْقُولَةِ

فِي عِدَادِ الْمُضْحَكَاتِ وَالْأَفَالِمَادِ هِيَ عِمَادُ الْأَخْبِيَةِ بَلِ الْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا
 الْأَسَاطِينُ فَلَا يَدْعُ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْعُمُومِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ
 لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مَعِينَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أَضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الرَّبِيرِ فَعَلَى
 إِضَافَةِ الْفَصِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا نَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ وَالْيَاسُ مُضَرٌّ وَرَبِيعَةٌ نِزَارٌ وَآيٌ
 ضَرُورَةٌ إِلَى هَذَا النُّحْمَلِ الْبَعِيدِ الَّذِي نُحْمَلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْتَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِمَةِ
 الَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصِّحَّةِ وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمَوْزُونِ
 مَا يَتَقَلَّبُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبِرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ
 يَحْيَى بْنِ خَالِدِ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مَعَارِقِهِ أَيَّاهُمَا الْخَمْرُ أَذِنَ لَهُمَا فِي
 عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوةِ حَرَصًا عَلَى أَجْمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّتْ عَلَيْهِ فِي
 النَّاسِ الْخُلُوةُ بِهِ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا (زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ) فَحَمَلَتْ وَوُشِي
 بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ فَاسْتَعْصَبَ وَهَيْبَاتُ ذَلِكَ مِنْ مَنَصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَبَوَيْهَا وَجَلَالِهَا
 وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةٌ رَجَالٌ هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعَظَمَاءُ
 الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدِ
 السَّجَّادِ ابْنِ عَلِيِّ أَبِي الْخُلَفَاءِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجَمَانَ الْقُرْآنِ ابْنَ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ (صَلَّمَ)
 ابْنَةُ خَلِيفَةِ أُخْتِ خَلِيفَةٍ مَحْفُوفَةٍ بِالْمَلِكِ الْعَزِيزِ وَالْخِلَافَةُ النَّبَوِيَّةُ وَنُجْبَةُ الرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ
 وَإِقَامَةُ الْمِلَّةِ وَنُورُ الْوَحْيِ وَمَهْبِطُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا قَرِيبَةٌ عَهْدٌ بِدَاوَةَ الْعَرُوبِيَّةِ
 وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَمَرَاجِعِ الْفَوَاحِشِ فَأَيُّ يَطْلُبُ الصُّونَ وَالْعِنَافُ
 إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوجَدُ الطَّهَارَةُ وَالذِّكَاةُ إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تَلْعَمُ سَمَّهَا
 بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدَسُّ شَرَفُهَا الْعَرَبِيُّ بِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي الْعَجْمِ بِمَلِكَةِ جَدِّهِ مِنَ الْفُرْسِ
 أَوْ بَوْلَاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ الرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَدَّتْ دَوْلَتُهُمْ بِضِعْبِهِ
 وَضَعِبِ أَبِيهِ وَاسْتَخَصَّتْهُمْ وَرَفَقَتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوعُ مِنَ الرَّشِيدِ أَنْ
 يُصَهَرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ عَلَى بَعْدِ هَمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَمَلِّقُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ
 الْمُنْصِفِ وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِأَبْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عَظَمَاءِ مَلُوكِ زَمَانِهِ لَأَسْتَنَكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ
 مَوْلَى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قُوَّتِهَا وَأَسْتَنَكَرَهُ وَحَجَّ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيُّنَ قَدَّرَ الْعَبَّاسَةَ
 وَالرَّشِيدَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّمَا نَكَبُ الْبِرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنْ أَسْتَبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَابِهِمْ

أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يَطْلُبُ الْيَسِيرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَعَلِبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ
 وَشَارَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مَلِكِهِ فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَبَعُدَ
 صِيَهُمْ وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخَطَطَهَا بِالرُّؤْسَاءِ مِنْ وُلْدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَأَحْتَارَوْهَا عَمَّنْ
 سِوَاهُمْ مِنْ وَزَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ . يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَدَارُ الرَّشِيدِ مِنْ
 وُلْدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَيْسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ زَاخُمَا فِيهَا
 أَهْلُ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَّاكِبِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِالرَّاحِ لِمَكَانٍ أَيْبَهُمْ يَحْيَى مِنْ كِفَالَةِ هَارُونَ وَوَلِيَّ
 عَهْدٍ وَخَلِيفَتِهِ حَتَّى شَبَّ فِي حَجْرِهِ وَدَرَجَ مِنْ عَشِيهِ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ
 فَتَوَجَّهَ الْإِثْبَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَعَظُمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَأَنْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَأَنْصَرَفَتْ
 نَحْوُهُمُ الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُمُ الرِّقَابُ وَفَصَّرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمَالَ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْصَى
 الْأَنْحُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ وَتَحَنَّنَ الْأُمَرَاءُ وَتَسَرَّبَتْ إِلَى خِزَانَتِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّلْزِفِ وَالِاسْتِمَالَةِ
 أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْخَةِ وَعَظَمَاءِ الْقِرَابَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمْ الْمَنِينَ وَكَسَبُوا
 مِنْ يَبُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمَعْدَمَ وَفَكَوُوا الْعَالِيَّ وَمَدَحُوا بِمَا لَمْ يَمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسْنَوْا
 لِعِفَاتِهِمْ الْجَوَائِزَ وَالصَّلَاتَ وَأَسْتَوْلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الضَّوَاحِي وَالْأَمْصَارِ فِي
 سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى أَسْنَوْا الْبَطَانَةَ وَأَحْفَدُوا الْخَاصَّةَ وَأَغْصُوا أَهْلَ الْوِلَايَةِ فَكَشَفَتْ
 لَهُمْ وُجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَدَبَّتْ إِلَى مَهَادِمِهِمُ الْوُثَيْرُ مِنَ الدَّوْلَةِ عَقَارِبُ السَّعَايَةِ حَتَّى
 لَقَدْ كَانَ بِنُوحِطْبَةِ أَخْوَالِ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَعْظُمِ لِمَا وَقَرَّ فِي نَفْسِهِمْ
 مِنَ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحْمِ وَلَا وَزَعَتُهُمْ أَوَاصِرُ الْقِرَابَةِ وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِيَّ
 الْغَيْرَةِ وَالِاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجْرِ وَالْإِنْفَةِ وَكَانَ الْحَقُودُ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَعَارُ الدَّالَّةِ
 وَانْتَهَى بِهَا الْإِضْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كِبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 حَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمَأْتَبِ بِالنَّنَسِ الزَّكِيَّةِ
 الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ
 عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَدَّلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَدَفَعَهُ
 الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ وَجَعَلَ أَعْتِقَالَهُ يَدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ حَبْسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى
 مَخْلَبَةِ سَبِيلِهِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِمَجَلِّ عِقَالِهِ حَرَمًا لِدِمَائِهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ
 فِي حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وَشِيَ بِهِ إِلَيْهِ فَفَظَنَ وَقَالَ أَطْلَقْتُهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَهُ

الاستحسان وأسرهما في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثلّ عرشهم
 وأقيمت عليهم سائرهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم
 ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك تحقّق الأثر من بعد الأسباب
 وأنظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جدّه داود بن عليّ في شأن نكبتهم
 وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاوراة الأعمى للرشيد وللفضل بن
 يحيى في سمرهم نتمهم أنه إنما قتلهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن
 دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على
 أسماء الخليفة وتحرّك حوائطهم لهم وهو قوله

لَيْتَ هُنْدًا أُنْجَرْنَا مَا تَعْدُ وَشَفْتِ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَحْدُ
 وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدُّ

وإن الرشيد لما سمعها قال إني والله إني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كما من غيرته
 وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال وأما ما ثمّوه
 به الحكاية من معاورة الرشيد الحمر وأقران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما
 علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من
 الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض
 وابن السماك والعمري ومكاتبته سفیان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه
 بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافضة على أوقات الصلوات وشهود
 الصبح لأول وقتها حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة
 نافلة وكان يغزو عاما ويحج عاما ولقد زجر ابن ابي مرجم مضمك في سمره حين تعرّض
 له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما
 أدري لم فما تملك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضبا وقال يا ابن ابي مرجم في
 الصلاة أيضا إياك إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وأيضا فقد كان من
 العلم والسداجة بمكان اقرب عهده من سلفه المستحلين لذلك ولم يكن بينه وبين
 جدّه ابي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاما وقد كان ابو جعفر بمكان من العلم والدين
 قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيهِ الْمَوْطَأِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ

أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ فَضَعَّ أَنْتَ لِلنَّاسِ
 كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبَ فِيهِ رُخْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ وَوَطْئَهُ لِلنَّاسِ تَوَطُّئَهُ
 قَالَ مَالِكٌ قَوْلًا لِلَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي الضَّصِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو الرَّشِيدِ
 هَذَا وَهُوَ بَتَوَرَّعٍ عَنِ كُسُوفِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِحَجَلِسِهِ
 بِأَشْرِ الْخِيَّاطِينَ فِي إِزْفَاعِ الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَاسْتَنْكَفَ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ
 وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كُسُوفٌ هَذِهِ الْعِيَالِ عَامِنَا هَذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ
 يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَخِحَ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ يَلِيْقُ بِالرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ
 الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخُلَيْفَةِ وَأَبُوْتِهِ وَمَا رُبِّي عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالْتِخَانِ
 بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ الْخُمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي
 اجْتِنَابِ الْخُمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنِ الْكُرْمُ شَجَرَتُهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَدْمَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ
 مِنْهُمْ وَالرَّشِيدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى تَبَجُّجٍ مِنْ اجْتِنَابِ الْمَدْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالْتِخَانِ
 بِالْحَمَائِدِ وَأَوْصَافِ الْكِمَالِ وَتَرْغَاتِ الْعَرَبِ وَأَنْظَرُوا مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ
 فِي قِصَّةِ جَبْرِيلَ بْنِ بَحْتِشُوعَ الطَّيِّبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ
 أَمَرَ صَاحِبَ الْمَائِدَةِ بِحَمَلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطَنَ الرَّشِيدُ وَأَرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى
 عَابَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ فَأَعَادَ ابْنُ بَحْتِشُوعَ لِلْإِعْتِزَالِ ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ
 إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمَعَالِجِ بِالْتَوَائِلِ وَالْبُقُولِ وَالْبُورَادِ وَالْحَلْوَى وَصَبَّ عَلَى الثَّلَاثَةِ مَاءً مُتَلَبِّجًا
 وَعَلَى الثَّلَاثَةِ خُمْرًا صِرْفًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ السَّمَكُ
 بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلُطْهُ وَقَالَ فِي الثَّلَاثِ هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَحْتِشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ
 حَتَّى إِذَا أَتَبَهُ الرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ أَحْضَرَ ثَلَاثَةَ الْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخُمْرِ
 قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَتَمَّتْ وَوَجَدَ الْآخَرِينَ قَدْ فَسَدَ وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ
 مَعْدِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ الْخُمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ
 وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بِحَسِّ أَبِي نُوَّاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنْ أَنَّهُمَا كِهَ فِي الدُّعَاةِ
 حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعُ وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يُشْرَبُ نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَفَتَاوَاهِمِهِمْ
 فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا الْخُمْرُ الصَّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدِ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا
 فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يَحْتِثُ بِمَحْتِثِ يَوَاقِعِ مَخْرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ

أُولَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَسْحَاةٍ مِنْ أَرْتِكَابِ السَّرْفِ وَالزَّرْفِ فِي مَلَائِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ
 مُتَنَاوَلَاتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُسُوفَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يَبَارِقُوهَا بَعْدَ فَمَا
 ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْأَبَاحَةِ إِلَى الْخَطَرِ وَعَنِ الْحِلَّةِ إِلَى الْخُرْمَةِ وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ
 الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَافَ مِنْ خُلَفاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ
 إِذْ كَانُوا يَرِيبُونَ بِالْحَيَاةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفُرْصَةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللُّجَمِ وَالسَّرُوجِ
 وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحَدَثَ الرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعَازُ بْنُ الْمُتَوَكَّلِ ثَامِنُ الْخُلَفاءِ
 بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَائِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ
 بِأَتَمِّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي
 مَسَائِلِ الْكُتُبِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ وَيُنَاسِبُ هَذَا
 أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يُقَالُ لَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمِ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ
 يُعَاقِرُ الْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكَّرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِبِهِ فُدْفِنَ فِي الرِّيحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ
 يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْفِينِي
 إِنِّي غَنَمْتُكَ عَنْ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي كَمَا تَرَانِي سَلِيمَ الْعَقْلِ وَاللِّدِينِ
 وَحَالَ ابْنِ أَكْثَمِ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَابِهِمْ إِنَّمَا كَانَ التَّبِيدَ
 وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ
 خَلَّةً فِي الدِّينِ وَلَقَدْ ثَبِتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَنُقِلَ فِي فِصَالِ الْمَأْمُونِ وَحُسْنِ
 عَشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانٌ فَنَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَأْتِمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يَوْقِظَ يَحْيَى
 بْنَ أَكْثَمِ وَثَبِتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا فَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْمَعَافَرَةِ وَأَيْضًا فَإِنَّ
 يَحْيَى بْنَ أَكْثَمِ كَانَ مِنْ عَلَيْهِ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَتَنَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
 وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ وَذَكَرَ الْمُزَنِيُّ الْخَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ
 رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ فَالْقَدْخُ فِيهِ فَدَحُّ فِي جَمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يُنْبِذُهُ النُّجَّانُ بِالْمِيلِ
 إِلَى الْعِلْمَانِ مَهْتَابًا عَلَى اللَّهِ وَفَرِيَّةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنِدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ
 الْأَوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ أَفْرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مُحْسُودًا فِي كَمَالِهِ وَخَلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَتْ
 مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَاللِّدِينِ مُنْزَهًا عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ
 النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَتَنَى

عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ
بِتَكْذِيبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ أَيضًا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ
مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْعُلَمَاءِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سِرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوَافِ
مِنَ اللَّهِ لِكَيْفَ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرَمِي بِمَا رَمِي بِهِ ابْنُ حَبَّانٍ فِي النِّقَاتِ
وَقَالَ لَا يُشْتَعَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ
مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعُقَدِ مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْلِ فِي سَبَبِ إِصْحَابِ الْمَأْمُونِ إِلَى
الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلِ فِي بَيْتِهِ بُوْرَانَ وَأَنَّهُ عَتَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّفِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادِ فِي
زُبَيْلِ مَدَلَّى مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقِ وَجَدَلَ مُعَارَةَ الْقَتْلِ مِنَ الْحَرِيرِ فَأَعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ
الْمَعَالِقَ فَأَهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعْدًا إِلَى مَجْلِسٍ سَأَنَهُ كَذَا وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرْشِهِ وَتَضَيَّدَ
ابْنَيْهِ وَجَمَالَ رُؤْيَيْهِ مَا يَسْتَوْفِقُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ وَأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَلِ
السُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَأَيْتُهَا الْجَمَالَ فَمَاتَانَةَ الْحَمَّاسِينَ فَحَيْتُهُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ فَلَمْ
يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْحُمْرَ حَتَّى الصَّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ أَنْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ
حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الْإِصْحَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَبْنِ هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ
وَعِلْمِهِ وَأَقْتِفَائِهِ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخِيهِ بِسَيْرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ
الْمِلَّةِ وَمَنَاطِرَتِهِ الْعُلَمَاءِ وَحِظِّهِ لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صُلُواتِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصِحُّ
عَنْهُ أَحْوَالُ الْفَسَاقِ الْمُسْتَهْتَرِينَ ^(١) فِي الطَّوُافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَغَشْيَانِ السَّمْرِ
سَبِيلِ عَشَاقِ الْأَعْرَابِ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَهْلِ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ
بِدَارِ أَبِيهَا مِنَ الصَّوْنِ وَالْعَنَافِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كِتَابِ الْمُؤَرِّخِينَ
مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثُ بِهَا الْإِنْتِهَاكَ فِي اللَّذَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَهَتَكَ فِتَاحِ
الْمُحَدَّرَاتِ وَيَتَعَلَّقُونَ بِالتَّأْسِيِّ بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لِدَائِمِهِمْ فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيرًا مَا
يَلْحَجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيَبْقَرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَحُّهِمْ لِأَوْزَاقِ الدَّوَابِّ وَلَوْ أَنْتَسُوا بِهِمْ
فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصَنَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَدَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأُمَرَاءِ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ
الْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيْقُ بِتَنْصِيكِ فَقَالَ لِي أَفَلَا

(١) المستهتر: لشيء بالغ الموضع ولا يبالي بما فعل فيه وشتم له والذي كثرت اباطيله اه قاموس

تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَرئيسِ الدُّعَاةِ فِي زَمَانِهِ
فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَا تَأْسَيْتَ بِأَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ
عَنْ مَنَاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ مَا
يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْأَثْبَاتِ فِي الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءِ الشَّيْخَةِ بِالْقَيْرَوَانَ
وَالْقَاهِرَةَ مِنْ تَقِيهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالطَّعْنَ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ
الْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرٍ الْأَصْدَقِ يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لُفَّتَ لِلْمُسْتَضْعَنِينَ مِنْ
خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَزَلُّفًا لِيَتَمَّ بِالْقُدْحِ فِيمَنْ نَاصَهُمْ وَتَفَنَّنًا فِي الذَّمِّاتِ بَعْدُؤِهِمْ حَسَبًا
نَدَّ كَرُّ بَعْضِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيَعْمَلُونَ عَنِ التَّنْفِطِ شَوْهَادِ الْوَأَقْعَاتِ وَأَدَلَّةِ
الْأَحْوَالِ الَّتِي أَقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَارْتِدِّ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ مَتَّفِقُونَ
فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْخَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُحْسِنِ لَمَّا دَعِيَ بِكِتَابَةِ الرَّزِيِّ
مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَاشْتَهَرَ خَبْرَهُ وَعُلِمَ تَحْوِيمُهُ عَلَى عِبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ
خَشِيًا عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلَّ الْخِلَافَةِ وَأَجْتَازَا بِمِصْرَ وَأَنْهَمَا خَرَجَا مِنَ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي زِيَةِ التُّجَّارِ وَنَجِي خَبْرُهُمَا إِلَى عَيْسَى النُّوْشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ
وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِمَا الْخِيَالَةَ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَا خَفِيَ حَالَهُمَا عَلَى تَابِعِيهِمَا بِمَا
لَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْأَسَارَةِ وَالزِّيِّ فَافْتَلَوْا إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّ الْمَعْتَضِدَ أَوْعَرَ إِلَى الْأَغَالِبَةِ أُمَرَاءَ
أَفْرِيقِيًا بِالْقَيْرَوَانَ وَبَنِي مِدْرَارٍ أُمَرَاءَ سِجْلِمَاسَةَ بِأَخْذِ الْأَفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْ كَاءَ الْعِيُونَ
فِي طَلَبِهِمَا فَعَثَرَ الْيَشْعُ صَاحِبُ سِجْلِمَاسَةَ مِنْ آلِ مِدْرَارٍ عَلَى خَفِيِّ مَكَانِهِمَا بِبَلَدِهِ وَأَعْتَقَلَهُمَا
مَرَضَاةً لِلْخَلِيفَةِ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْخَةُ عَلَى الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانَ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا
كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ
وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شِقَ الْأَبْلَمَةِ وَكَادُوا يَلْحِقُونَ
عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ وَيُزِيلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بِبَغْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرُ
الْبَسَاسِيرِيُّ مِنْ مَوَالِي الدَّبَلَمِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مِغَاضَاةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
أُمَرَاءِ الْعَجَمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَغْضُونَ بِمَكَانِهِمْ
وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكِ بَنِي أُمِيَّةٍ وَرَاءَ الْبَحْرِ بِنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ
لِدَعْيٍ فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي أَنْجَالِ الْأَمْرِ وَأَعْتَبِ حَالَ الْفَرَمَطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًا فِي

أَنْتَسَابِهِ كَيْفَ تَلَا شَتَّ دَعْوَتُهُ وَتَنَزَّهَتْ أَتْبَاعُهُ وَظَاهَرَ سَرِيعًا دَلِي خُبْرَتَهُمْ وَمَكْرَهُمْ فَسَأَتِ
 عَاقِبَتَهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعَبِيدِ بَيْنَ كَذَلِكَ أَعْرِفْ وَلَوْ بَعْدَ مَهْلَةٍ
 وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالُوا نَحْنِي عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ
 فَقَدْ أَتَّصَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَبَعَثُوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَمَصْلَاهُ وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدْفَنَهُ وَمَوْفِقَ الْحَجَّاجِ وَمَهَبَطَ الْمَلَائِكَةِ
 ثُمَّ أَنْقَرَضَ أَمْرَهُمْ وَشَيَّعْتَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أُمَّةٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ
 فِيهِمْ وَأَعْتَقَادِهِمْ بِسَبِّ الْأَمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَلَقَدْ خَرَجُوا مَرَارًا بَعْدَ
 ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدَرُوسِ أَثَرِهَا دَاعِينَ إِلَى بَدْعَتِهِمْ هَانِئِينَ بِأَسْمَاءِ صِنْيَانٍ مِنْ أَعْقَابِهِمْ
 بِرِعْمُونَ اسْتَحْقَاقِهِمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَدْعُبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِنْ سَلَفِ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَيْمَةِ
 وَلَوْ أَنْزَلُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَّا رَكِبُوا أَعْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الْأَنْصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا
 يُلْبَسُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَبَّهُ فِي بَدْعَتِهِ وَلَا يُكْذَبُ نَفْسُهُ فِيمَا يَتَحَدَّثُ بِهِ وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَازِي
 أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ شَيْخِ النُّظَارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ كَيْفَ بَجَّحَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمَرْجُوحَةِ
 وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْهَادِ فِي الدِّينِ وَالتَّعَمُّقِ
 فِي الرِّافِضِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ وَأَيْسَ إِثْبَاتِ نَسَبِهِمْ الَّذِي يُغْنِي
 عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ إِنَّهُ لَيْسَ
 مِنْ أَهْلِكَ أَنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِفَاطِمَةَ بَعْظَهَا يَا فَاطِمَةُ أَعْمَلِي فَلَنْ أُغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَمَتَى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوْ
 اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدَعَ بِهِ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا
 فِي تَجَالٍ لظُنُونِ الدُّوَلِ بِهِمْ وَتَحْتَ رِقَبَةٍ مِنَ الطَّعَاةِ لِتَوْفُرِ شَيْعَتِهِمْ وَأَنْتِشَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ
 بِدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرُّرِ خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَاذَتْ رِجَالَتُهُمْ بِالْإِخْتِفَاءِ وَلَمْ يَكَادُوا
 يُعْرِفُونَ كَمَا قِيلَ

فَلَوْ تَسَّأَلَ الْأَيَّامَ مَا أَسْمِي مَا دَرَّتْ وَأَيْنَ مَكَّنِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِيَا
 حَتَّى لَقَدْ سَمِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَمَامِ جَدِّ عَبْدِ اللَّهِ الْهَدْيِيِّ بِالْمَكْنُومِ سَمَّتهُ بِذَلِكَ
 شَيْعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْتِائِهِ حَذَرًا مِنَ الدُّعَابِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ شَيْعَةُ بْنُ
 الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطَّعْنِ فِي نَسَبِهِمْ وَأَزْدَلُّوا بِهِذَا الرَّأْيَ الْقَائِلَ لِلْمُسْتَضْعِفِينَ

مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأَمْرَاءُ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَلُّونَ حُرُوبِهِمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ يَدْفَعُونَ
 بِهِ عَنِ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعْرَةً الْعَجْزَ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ عَلَيْهِمْ عَلَى الشَّامِ
 وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبَرْبَرِ الْكُتَّامِينَ شِيعَةَ الْعَبِيدِيِّينَ وَأَهْلَ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ اسْتَجَلَّ
 الْقَضَاءُ بِبَغْدَادَ بِنَفْسِهِمْ عَنِ هَذَا النَّسَبِ وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
 الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْمُطْحَاوِيِّ وَمِنْ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ
 وَالْقُدُورِيُّ وَالصِّمَرِيُّ وَابْنُ الْأَكْفَانِيِّ وَالْأَبُو زُرْدِيُّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النُّعْمَانَ فَمِيقَةُ
 الشَّيْعَةِ وَعَازِلُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ الْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ
 فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمَاعِ لَمَّا اسْتَشْهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ
 بِبَغْدَادَ وَعَالِبَهَا شِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ فَنَقَلَهُ الْأَخْيَارُ يَوْمَ مَا سَمِعُوهُ
 وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوَهُ وَاحْتَقُ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عَمِيدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ
 الْأَعْلَبِ بِالْقَبْرِوَانِ وَابْنِ مِذْرَارٍ بِسَجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ
 فَأَلْمَعْتَضِدُ أَقْعَدُ نَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَالِدَوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ سَوْقًا لِلْعَالَمِ تَجَلَّبُ إِلَيْهِ
 بِضَائِعِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَتَلْتَمَسُ فِيهِ ضَوْلَ الْحُكْمِ وَتُحْدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ الرِّوَايَاتِ
 وَالْأَخْبَارِ وَمَا نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ الْكِفَايَةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتْ الدَّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمِيلِ وَالْأَفْنِ
 وَالسُّفْسُفَةِ وَسَلَكَتْ التَّهَجُّجَ الْأَمَمَ وَلَمْ تَجْرُ (١) عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ نَفَقَ فِي سَوْفَهَا الْإِبْرِيذُ
 الْخَالِصُ وَاللُّجَيْنُ الْمُصَفَّى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَغْرَاضِ وَالْحُقُودِ وَمَاجَتْ بِسَامِرَةَ الْعَرَبِ
 الْبَغْيِ وَالْبَاطِلِ نَفَقَ الْبَرْجُ وَالزَّرَائِفُ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ نَظَرُهُ فُسْطَاسٌ بَحْثُهُ وَمِيزَانٌ وَمُلْتَمَسُهُ
 وَمِثْلُ هَذَا وَأَبَعْدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) الْإِمَامِ
 بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَيَعْرِضُونَ تَعْرِيبُ الْحَدِّ بِالْتَّظَنُّنِ فِي الْحِمْلِ الْخُلْفِ عَنْ
 أَدْرِيسَ الْأَكْبَرِ إِنَّهُ لَرَأِشِدُ مَوْلَاهُمْ فَجَبَّهُمُ اللَّهُ وَأَبَعْدَهُمْ مَا أَجْهَلَهُمْ أَمَّا يَعْلَمُونَ أَنَّ
 أَدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِصْهَارُهُ فِي الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ
 عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ وَإِنْ حَالَ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِينَ لَهُمْ
 يَتَأْتَى فِيهَا الرَّيْبُ وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ بَرَأَى مِنْ جَارَاتِهِمْ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِبَارَتِهِمْ
 لِتَلَاصِقِ الْمَجْدِرَانَ وَتَطَامُنِ الْبَيَانِ وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَأِشِدُ يَتَوَلَّى

(١) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جاراي لم تمل اه

خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِهِمْ وَشِيَعَتِهِمْ وَمُرَاقِبَةٍ مِنْ كَاتِبَتِهِمْ
 وَقَدْ اتَّفَقَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى عَامَةً عَلَى بَيْعَةِ أَدْرِيسَ الْأَصْغَرَ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ وَآتَوْهُ
 طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضَى وَإِصْنَاقٍ وَبِأَعْوُهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارِ الْمَنَايَا فِي
 حُرُوبِهِ وَعَزَّوَاتِهِ وَلَوْ حَدَّثُوا أَنَّنَسُّهُمْ بِدَثْلِ هَذِهِ الرِّبِّيَّةِ أَوْ قُرَعَتِ أَسْمَاعُهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوِّ
 كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ كَكَلِّ وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ
 الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَقْبَالِهِمْ وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عُمَالِهِمْ كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةَ وَوَلَاتِهِمْ
 وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ أَدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلْخِ الْأَوْعَزِ الْهَادِي إِلَى الْأَغْلَابِيَّةِ
 أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ وَيُدْ كُوا عَلَيْهِ الْعَيُونَ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَتَمَّ
 امْرُؤُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ مَوْلَاهُمْ وَعَمَلِهِمْ
 عَلَى الْأَسْكَندَرِيَّةِ مِنْ دَسِيْسَةِ التَّشْيِيعِ الْعُلُوِّيَّةِ وَإِدْهَانِهِ فِي نَجَاحِ أَدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ
 فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ أَدْرِيسَ فَأَظْهَرَ الْحَقَّ بِهِ
 وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيهِ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ أَدْرِيسُ وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَاوَلَهُ الشَّمَاخَ فِي
 بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سَمَا اسْتَهْلَكَهُ بِهِ وَوَقَعَ خَبْرُ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الدَّوَاقِعِ
 لِمَا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلُوِّيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَأَقْتِدَاعِ جُرْثُومَتِهَا وَلَمَّا تَادَى
 إِلَيْهِمْ خَبْرُ الْحَمْلِ الْخُلْفِ لِأَدْرِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلَاوَلًا وَإِذَا بِالْدَّعْوَةِ قَدْ
 عَادَتْ وَالشِّيْعَةَ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ وَدَوَّلْتُهُمْ بِأَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ
 ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ وَكَانَ الْفَسْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلَا بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ
 أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِبَةِ فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى أَدْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ
 قَاصِبَةِ الْمَغْرِبِ وَاسْتَمَالَ الْبُرْبُرَ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحْيِيلَ فِي إِهْلَاكِهِ بِالشُّمُومِ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَرَعُوا
 إِلَى أَوْلِيَاءِهِمْ مِنَ الْأَغْلَابِيَّةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ فِي سِدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ وَحَسَمَ الدَّاءَ
 الْمَتَوَقَّعَ بِالْدَوْلَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ وَأَقْتِدَاعَ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَ مِنْهُمْ يُخَاطَبُهُمْ بِذَلِكَ
 الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خُلَفَائِهِمْ فَكَانَ الْأَغْلَابِيُّ عَنْ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَعْجَزَ
 وَلَمْثَلِيهَا مِنَ الزُّبُونِ عَلَى مَلُوكِهِمْ أَحْوَجَ لِمَا طَرَقَ الْخِلَافَةَ مِنْ أَنْتَزَاعِ مَمَالِكِ الْعَجَمِ عَلَى
 سُدَّتِيهَا وَأَمْتِطَائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَتَضَرُّفِهِمْ أَحْكَامَهَا طَوَّعَ أَعْرَاضِهِمْ فِي رِجَالِهَا
 وَجَبَائِئِهَا وَأَهْلَ خِطَطِهَا وَسَائِرِ نَقْضِهَا وَإِبْرَامِهَا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ

خَلِيفَةٌ فِي قَفْصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبَعَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا نَقُولُ السَّبَا

خَشِي هَوْلَاءُ الْأَمْرَاءِ الْأَعَالِمَةَ بُوَادِرَ السَّعَايَاتِ وَتَلَوُا بِالْمَعَاذِيرِ فَطَوَّرًا بِأَحْقَارِ الدَّغْرِبِ
وَأَهْلِهِ وَطَوَّرًا بِالْأَزْهَابِ بِشَأْنِ أَدْرِيسَ الْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ عَقَابِهِ بِخَطِيبُونَهُمْ
بِتَجَاوُزِهِ حُدُودِ النُّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ وَيُنْفِدُونَ سَكَنَهُ فِي تَحْفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمَرْتَفِعَ جِبَابَاتِهِمْ
تَعْرِضًا بِاسْتِفْحَالِهِ وَتَهْوِيلًا بِأَشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ وَتَعْظِيمًا لِمَا دَفَعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَابَتِهِ وَمِرَاسِهِ
وَتَهْدِيدًا بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أُجِئُوا إِلَيْهِ وَطَوَّرًا يَطْعَنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ
الطَّعْنَ الْكَاذِبِ تَخْفِيزًا لِشَأْنِهِ لَا يَبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ وَأَقْنِ عَقُولَ
مَنْ خَافَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمَمَالِكِهِمْ الْعَجْمِ فِي الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ وَالسَّمْعِ لِكُلِّ
نَاعِقٍ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَأْبَهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الْأَعَالِمَةِ فَفَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءُ
أَسْمَاعَ الْغَوْغَاءِ وَصَرَ عَلَيْهَا بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أَذْنَهُ وَأَعْتَدَهَا ذَرِيعَةً إِلَى الْبَيْتِ مِنْ خَلْفِهِمْ
عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ وَمَا لَهُمْ فَبِحُجَّتِهِمْ اللَّهُ وَالْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ
الْمَقْطُوعِ وَالْمَطْنُونِ وَأَدْرِيسُ وَوَلِدُ عَلِيٍّ فِرَاشُ أَبِيهِ وَالْوَالِدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنْ تَنْزِيهِ أَهْلَ
الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الرَّجْسَ
وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا فِرَاشُ أَدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ الدَّنَسِ وَمَنْزَرُهُ عَنِ الرَّجْسِ بِحُجَّتِهِمُ الْقُرْآنَ
وَمَنْ أَعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِيْمِهِ وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هَذَا
الرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ الرَّيْبِ وَدَفَعًا فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ لِمَا سَمِعْتَهُ أَذْنَابِي مِنْ قَائِلِهِ الْمُعْتَدِي
عَلَيْهِمُ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفَرِيقَتِهِ وَيَنْقُلُهُ بِرِغْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ بِمَنْ
أَخْرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَأَرْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلْفِهِمْ وَإِلَّا فَالْحَمْلُ مَنْزَرُهُ عَنْ ذَلِكَ
مَعْصُومٌ مِنْهُ وَتَنَبَّى الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبُ الْكُتُبِ جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّعَلَّمُ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا
هُمُ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ أَدْرِيسَ هَذَا مِنْ مُنْتَهَى إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنْ أَدَّعَا
هَذَا النَّسَبَ الْكَرِيمَ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى الْأَمْرِ وَالْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الْأَفَاقِ
فَتَعْرِضُ الشُّهْمَةَ فِيهِ وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي أَدْرِيسَ هَوْلَاءُ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارِسَ وَسَائِرِ
دِيَارِ الْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبَاعًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي

ذَكَرَهُ إِذْ هُوَ تَقُولُ الْأُمَّةَ وَالْجَلِيلَ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْجَلِيلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيْتُ جَدِّهِمْ
 أَدْرِيسَ مَحْتَضِرًا فَاسَ وَمُؤَسَّسِيهَا مِنْ يَوْمِهِمْ وَمَسْجِدَهُ لَصِقَ مَحَلَّتِهِمْ وَدَرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ
 مِنْضَى بِرَأْسِ الْمَأْذَنَةِ الْعَظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا
 حُدُودَ النَّوَابِرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى
 مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَضَدَ شَرَفُهُمُ النَّبِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ
 بِالْمَغْرِبِ وَأَسْتَيْقِنُ أَنَّهُ بَمَعْرُوفٍ عَنِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ
 أَمْرِ الْمُنتَشِمِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ بِمَنْ لَمْ يَخْضُلْ لَهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ أَنْ يَسْلِمَ
 لَهُمْ حَالَهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَبَيْنَ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالْتِسْلِيمِ
 فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَضَّ بِرَبْقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ
 سَوْفَةً وَوُضْعَاءً ^(١) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْعِنَادِ وَأَرْتَكَبُ الْجَبَاحِ
 وَالْبُهْتِ يُمَثِّلُ هَذَا الظَّنُّ الْفَائِلُ وَالْقَوْلُ الْمَكْدُوبُ تَعَلُّلًا بِالْمَسَاوِإِ فِي الظَّنِّ وَالْمَشَاهِبَةِ
 فِي تَطَرُّقِ الْأَحْتِمَالِ وَهَيْبَاتِ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ
 الْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صِرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ أَدْرِيسَ هَذَا مِنْ آلِ
 الْحَسَنِ وَكِبَرِ أَوْهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ بِنُوعْمَانَ بِنِيفَاسَ مِنْ وَدَيْعِي الْحُوَطِيِّ بِنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى
 الْعَوَامِ بِنِ الْقَاسِمِ بِنِ أَدْرِيسَ بِنِ أَدْرِيسَ وَهُمْ نَقَبَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ وَالسَّاكُونَ بِبَيْتِ
 جَدِّهِمْ أَدْرِيسَ وَلَهُمْ السِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَقَدِّحِ حَسْبَمَا فَذَكَرْتُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ
 الْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَيَلْحَقُ بِهَذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْفَائِلَةِ مَا
 يَتَنَاوَلُهُ ضَعْفَةُ الرَّأْيِ مِنَ فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدْحِ فِي الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ
 الْمَوْجِدِينَ وَنَسَبَتِهِ إِلَى الشَّعْوَذَةِ وَالتَّبَلِيسِ فِيمَا آتَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيدِ الْحَقِّ وَالْبَغْيِ
 عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيعِ مُدْعِيَاتِهِ فِي ذَلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ الْمَوْجِدُونَ
 إِبْتِغَاءً مِنْ أَنْسَابِهِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَمَلَ الْفُقَهَاءُ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كُنَّ فِي نَفْسِهِمْ
 مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَنَافِضَتَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْفِتْيَانِ وَفِي الدِّينِ
 بِرَعْمِهِمْ ثُمَّ أَمْتَارَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مُتَّبِعُ الرَّأْيِ مَسْمُوعِ الْقَوْلِ مَوْطُؤُ الْعَقِبِ نَفَسُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ
 وَغَضُّوا مِنْهُ بِالْقَدْحِ فِي مَذَاهِبِهِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُدْعِيَاتِهِ وَأَيْضًا فَكُنَّا يُؤْتَسُونَ مِنْ

(١) قوله ووضعا بضم الواو جمع وضع اء

مُلُوكِ الْمُتُونَةِ أَعْدَائِهِ نَجَلَةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّدَاجَةِ
 وَاتِّخَالِ الدِّيَانَةِ فَكَانَ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ الْوَجَاهَةِ وَالْإِنْتِصَابِ لِلشُّوَرَى
 كُلِّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدْرِهِ فِي قَوْمِهِ فَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ شِيَعَةً لَهُمْ وَحَرَبًا لِعَدُوِّهِمْ وَتَقَمُّوا عَلَى
 الْمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِهِمْ وَالتَّرْيِيبِ عَلَيْهِمْ وَالْمُنَاصِبَةِ لَهُمْ تَشِيَعًا لِلْمُتُونَةِ وَتَعْصِبًا
 لِدَوْلَتِهِمْ وَهَكَانَ الرَّجُلُ غَيْرُ مَكَانِهِمْ وَحَالُهُ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَمَا ظَنَنْكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ
 عَلَى أَهْلِ الدَّوَلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَخَالَفَ اجْتِهَادَهُ فُقَهَاؤُهُمْ فَنَادَى فِي قَوْمِهِ وَدَعَا إِلَى
 جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَأَقْتَلَعَ الدَّوَلَةَ مِنْ أُصُولِهَا وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلِيهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ
 شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصَارًا وَحَامِيَةً وَسَاقَطَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نَفُوسٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا خَالِقُهَا
 قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِاتِّتْلَافِ
 مُهْجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى السَّلَامِ وَدَالَتْ
 بِالْعُدُوِّتَيْنِ مِنَ الدُّوَلِ وَهُوَ بِجَاهِلَةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْحَصْرِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَسْكَرَةِ وَالتَّقَلُّبِ مِنَ
 الدُّنْيَا حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحُظِّ وَالْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى الْوَالِدِ الَّذِي
 رَبَّمَا تَجَنَّحَ إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَتَخَادَعَ عَنْ تَمَنِّيهِ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ
 يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حُظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي عَاجِلِهِ وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ
 صَالِحٍ لِمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ
 نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبِتَ أَنَّهُ أَدْعَاهُ وَأَنْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا
 دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى بَطْلَانِهِ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنَّ الرِّئَاسَةَ لَا
 تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي الْفُضْلِ الْأَوَّلِ
 مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ الْمَصَامِدَةِ وَدَانُوا بِأَتْبَاعِهِ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَيْهِ وَإِلَى
 عَصَابَتِهِ مِنْ هِرْعَةَ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي دَعْوَتِهِ فَأَعْلَمَ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ
 الْمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا أَتْبَعَهُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ أَتْبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصَبِيَّةِ الْهَرِغِيَّةِ
 وَالْمَصْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا وَرُسُوخِ شِعْرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الْفَاطِمِيَّ خَفِيًّا قَدْ
 دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ النَّسَبُ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ
 أَسْلَخَ مِنْهُ وَلَيْسَ جِلْدَةٌ هُوَ لَاءٌ وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَبْضُرُهُ الْإِنْتِسَابُ الْأَوَّلُ فِي عَصَبِيَّتِهِ إِذْ هُوَ
 مَجْهُولٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعَصَابَةِ وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ كَثِيرًا إِذَا كَانَ النَّسَبُ الْأَوَّلُ خَفِيًّا وَانْظُرْ

فِصَّةَ عَزَّجَةٍ وَجَرِيرٍ فِي رِئَاسَةِ بَحِيْلَةٍ وَكَيْفَ كَانَ عَزَّجَةٌ مِنَ الْأَزْدِ وَلَسَ جِلْدَهُ بَحِيْلَةً
 حَتَّى تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرٍ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ يُتَقَرَّبُ مِنْهُ
 وَجَهَ الْحَقِّ وَاللَّهُ الْهُدَايَ لِلسَّوَابِ وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نُخْرِجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ
 فِي هَذِهِ الْمَعَالِطِ فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْخَطَّاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ
 الْأَحَادِيثِ وَالْآرَاءِ وَعَلَقَتْ أَفْكَارُهُمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمْ الْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفَةِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ
 عَنِ الْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رُويَةٍ وَأَنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ
 حَتَّى صَارَ فَنُّ التَّارِيخِ وَهَابًا مُخْتَلِطًا وَنَاطِرُهُ مَرْتَبِكًا وَعَدَّ مِنْ مَنَاحِي الْعَالِمَةِ فَإِذَا يُحْتَاجُ
 صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ وَخْتِلَافِ الْأُمَمِ
 وَالْبِقَاعِ وَالْأَعْصَارِ فِي السَّيْرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنَّجْلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ
 وَالْإِحْاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمِمَّا تَلَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ بُونَ مَا بَيْنَهُمَا
 مِنَ الْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ الْمَتَمَقِّ مِنْهَا وَالْمُخْتَلِفِ وَالْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ وَمَبَادِيءِ
 ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ
 مُسْتَوْعِبًا لِلسَّبَابِ كُلِّ خَبْرِهِ وَحَيْثُ يَنْدِي بِعَرَضِ خَبَرِ الْمَتَمَقُّولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ
 وَالْأَصُولِ فَإِنَّ وَافِقَهَا وَجَرَى عَلَى مَقْضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَالْإِزْفَهُ وَأَسْتَغْنَى عَنْهُ وَمَا
 اسْتَكْبَرَ الْقَدَمَةَ عِلْمَ التَّارِيخِ إِلَّا لِذَلِكَ حَتَّى انْتَحَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالتَّجَرِيُّ وَابْنُ اسْتِحْقَاقِ
 مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَلَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَقَدْ ذَهَلُ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا السَّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ
 انْتِحَالَهُ مَجْهَلَةً وَأَسْتَغْنَى الْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمَلَهُ وَأَخْلَوْضَ
 فِيهِ وَالتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْمَلَمَلِ وَاللُّبَابِ بِالْقَشْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَذِبِ وَإِلَى
 اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ الْغَلَطِ الْخَطِيءُ فِي التَّارِيخِ الذُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ فِي الْأُمَمِ
 وَالْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ الْأَعْصَارِ وَمُرُورِ الْأَيَّامِ وَهُوَ دَاءٌ دَوَى شَدِيدُ الْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا
 بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَتَفَطَّنُ لَهُ إِلَّا الْأَحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ
 أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنَجَلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتَبْرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجِ مُسْتَقَرٍّ
 إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ
 فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَعْصَارِ فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَفْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَدْوَلِ
 سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمُّ الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسَّرِيَّانِيُونَ

وَالنَّبَطُ وَالتَّبَاعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبِطُ وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دَوْلَتِهِمْ
وَمَا لِكُلِّهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَتِلْكَ أَسْمَاءُ أَصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرُ مَشَارِكِهِمْ مَعَ آبْنَاءِ
جَنَسِهِمْ وَأَحْوَالُ أَعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفَرَسُ الثَّانِيَّةُ
وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ فَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالَ وَأَنْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَاسِمُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا
وَإِلَى مَا يُبَيِّنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرَّةٍ فَأَنْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ
أَنْقَلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِوَدَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخُلْفَاءُ عَنِ السَّلَفِ
ثُمَّ دُرِسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَبَدُوا عِزَّهُمْ وَمَهْدُوا
مُلْكُهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلَ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ
بِالْمَغْرِبِ وَالْفَرَنْجِيَّةِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَّمٌ وَأَنْقَلَبَتْ أَحْوَالُ وَعَوَائِدُ لِسِي سَائِرِهَا
وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا وَالسَّبَبُ الشَّاعِرُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ
لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلُ الْمَلِكِ
وَالسُّلْطَانُ إِذَا اسْتَوَلَا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرَ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْرَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ
وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفَلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ
بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ
عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأَوَّلَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ
التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْهَبَائِنَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا دَامَتِ الْأُمَّمُ وَالْأَجْبَالُ
تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً وَالْقِيَاسُ
وَالْحِكَاكَةُ لِلإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ الْغَلْطِ غَيْرُ مَا مَوْنَةٌ تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْغَفْلَةِ
عَنْ قَصْدِهِ وَتَوَجُّهُ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا
يَتَفَتَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَأَنْقَلَابِهَا فَيُخْرِجُهَا لِأَوَّلِ وَهَلَّةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيمُهَا
بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاتٍ مِنَ الْغَلْطِ فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا
يُنْقَلُهُ الْمَوْرُخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْعَجَاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ مَعَ أَنَّ الْعَلِيمَ لِهَذَا
الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الْمَنَائِعِ الْعَاشِيَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ اعْتِرَازِ أَهْلِ الْعَمِيدِيَّةِ وَالْعَالِمِ مُسْتَضْعَفٍ
مُسَكِّنٍ مُنْقَطِعِ الْجِذْمِ ^(١) فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلَ الْحِرْفِ وَالصَّنَائِعِ

الْمَعَاشِيَةَ إِلَى نَيْلِ الرَّتَبِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعُدُّونَهَا مِنَ الْمُمَكِّنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ
 بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ أَهْلِكَ
 وَالتَّفَلُّفِ وَلَا يَعْلَمُونَ اسْتِحْلَالَهَا فِي حَقِّهِمْ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرْفٍ وَصَنَائِعٍ لِلْمَعَاشِ وَأَنَّ التَّعْلِيمَ
 صَدْرُ الْأِسْلَامِ وَالِدَوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ
 تَقْلِيدًا لِمَا سَمِعَ مَعَ الشَّارِعِ وَتَعَلِيمًا لِمَا جُرِبَ مِنَ الدِّينِ عَلَى جَبِيَةِ الْبَلَاغِ فَيَكُنْ أَهْلُ
 الْأَنْسَابِ وَالْعَصَبِيَّةِ الَّذِينَ قَامُوا بِالْمِلَّةِ هُمْ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبْرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمْ
 الْمَنْزِلُ عَلَى الرَّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هُدَايَاتُهُمْ وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ فَاتَلَوْا عَلَيْهِ وَقَتَلُوا وَأَخْتَصُوا
 بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَشَرَفُوا فَيَجْرُصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلْأُمَّةِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لِأَيْمَةِ
 الْكِبَرِ وَلَا يَزَعُهُمْ عَاذِلُ الْأَلْفَةِ وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارَ
 أَصْحَابِهِ مَعَ وَفُودِ الْعَرَبِ يَعْلَمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ
 بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْعَشْرَةَ فَمَنْ بَعَدَهُمْ فَمَا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ وَوَسَّجَتْ عُرُوقُ
 الْمِلَّةِ حَتَّى تَنَاوَلَهَا الْأُمَّةُ الْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَأَسْتَحَالَتْ بِمَرُورِ الْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا
 وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ الْوَقَائِعِ وَتَلَاخُفِهَا فَاحْتِجَّاجُ
 ذَلِكَ لِقَانُونٍ يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَايَا وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى التَّعَلُّمِ فَأَصْبَحَ مِنْ جُمَلَةِ
 الصَّنَائِعِ وَالْحِرْفِ كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَأَشْتَغَلَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِالْقِيَامِ
 بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَدَفَعُوا لِعِلْمٍ مِنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَمَخَتْ
 أَنْوْفُ الْمُتَرَفِّينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّيِّ لِلتَّعْلِيمِ وَأَخْتَصَّ اتِّخَالُهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ
 وَصَارَ مُنْتَحَلَةً مُخْفَرًا عِنْدَ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُلْكِ وَالْحِجَابِ بْنِ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَادَاتِ
 ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَوَكَاؤُهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةً فُرَيْشٍ فِي الشَّرْفِ مَا عَلِمَتْ وَلَمْ
 يَكُنْ تَعْلِيمُهُ الْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعَاشِ وَإِنَّمَا
 كَانَ عَلَى مَا وَصَّنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ وَهِيَ هَذَا الْبَابُ أَيْضًا مَا يَتَوَهَّمُهُ
 الْعَتَصِفِيُّونَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّئَاسَةِ فِي
 الْحُرُوبِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ فَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ الْعَمَلِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرَّتَبِ يُحْسِبُونَ أَنَّ
 الشَّانَ خِطَّةَ الْقَضَاةِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ بِأَبْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ

هشامُ المُسَنِّدِ عَلَيْهِ وَابْنُ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِاشْتِيبَالِيَّةٍ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ أَبَاءَهُمْ
كَانُوا قَضَاءً أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَتَفَطَّنُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ الْقَضَاءِ مِنْ
مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ كَمَا نَبِيئُهُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنُ عَبَّادٍ
كَانَا مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَهْلُ عَصِيْبَتَيْهَا وَكَانَ مَكَانُهُمْ
فِيهَا مَعْلُومًا وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوهُ مِنَ الرَّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ بِخِطَّةِ الْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ
بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْأَمْرِ الْقَدِيمِ لِأَهْلِ الْعَصِيْبَةِ مِنْ قَبِيلِ الدَّوَلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ
الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ وَأَنْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِالْعَسَاكِرِ فِي الطَّوَائِفِ وَتَقْلِيدَهُمْ عِظَامَ
الْأُمُورِ الَّتِي لَا تُقَلَّدُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ الْغِنَى فِيهَا بِالْعَصِيْبَةِ فَيَغْلُظُ السَّامِعُ فِي ذَلِكَ وَيَحْمِلُ
الْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْغَلْظِ ضَعْفَاءُ الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ
لِهَذَا الْعَهْدِ لِقُدْرَانِ الْعَصِيْبَةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مِنْذُ أَعْصَارِ بَعِيدَةٍ بَيْنَاءِ الْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا
وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَمْلَكَةِ أَهْلِ الْعَصِيْبَاتِ ^(١) مِنَ الْبَزْبَرِ فَبَقِيَتْ أُنْسَابُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مُحْفُوظَةً
وَالذَّرِيْعَةُ إِلَى الْعَرَبِ مِنَ الْعَصِيْبَةِ وَالنَّصَاحَةِ مَفْقُودَةٌ بَلْ صَارُوا مِنْ جُمَّةِ الرَّعَايَا الْمُتَخَذَلِينَ
الَّذِينَ تَعْبَدُهُمُ الْقَهْرُ وَرَبِّمُوا لِلْمَدْلَةِ يَحْسَبُونَ أَنَّ أُنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَظَةِ الدَّوَلَةِ هِيَ الَّتِي يَكُونُ
لَهُمْ بِهَا الْغَلْبُ وَالْتِحَاكُمُ فَتَجِدُ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّقِينَ لِذَلِكَ سَاعِينَ
فِي نَيْلِهِ فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصِيْبَةِ وَدَوْلَتِهِمْ بِالْعُدْوَةِ الْغُرَيْبَةِ وَكَيْفَ يَكُونُ
الْتِغْلَبُ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلُظُونَ فِي ذَلِكَ وَيَحْطِئُونَ فِي اعْتِبَارِهِ . وَمِنْ هَذَا
أَلْبَابُ أَيْضًا مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ الدُّوَلِ وَسَقَى مُلُوكَهَا فَيَدَّ كُرُونَ اسْمَهُ
وَسَبَّهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلِقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ كُلُّ ذَلِكَ تَقْلِيدٌ
لِمُؤَرِّخِي الدَّوَلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفَطُّنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُونَ

(١) العصبية بفتح العين التعصب وهو ان يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشهر عن اناج المجد في
نصره منسوبة الى العصبه محرکه وهم اقارب الرجل من قبل ابيه لانهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم
وهي بهذا المعنى ممدوحه واما العصبية المذمومه في المحدث الحجاج الصغير ليس منا من دنا لي عصبه وليس
منا من قاتل على عصبية فهي تعصب رجل لقبيلة على رجال لقبيلة اخرى لغير دينانه كما كان يقع بين قيام
سعد على حرام نسبة الى العصبه بمعنى قوم الرجل الذين ينصبون له ولو من غير اقاربه طالما كان او
مظلوما وفي الفتاوي الخيرية من موانع قبول الشهادة العدمية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني
فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم في الحديث ليس منا من دعي الى عصبية
وهو مرجح للفسق ولا شهاده لمرکبه . قاله الاستاذ ابو الوفاء اه

تَوَارِيخَهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَاؤَهَا مُنْتَوِفُونَ إِلَى سَيْرِ أَسْلَابِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا
آثَارَهُمْ وَيَنْسَجُوا عَلَى مَنَاطِعِهِمْ حَتَّى فِي أَصْطِنَاعِ الرِّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ
الْخَطِّطِ وَالْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَالْقَضَاةِ أَيْضًا كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ الدَّوْلَةِ
وَفِي عِدَادِ الْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَا لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ
الدُّوْلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصْرِ وَوَقَّتِ الْعُرُضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنَسَبِ
الدُّوْلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَعِلْبَتِهَا وَمَنْ كَانَ يَنَاهِضُهَا مِنَ الْأُمَمِ أَوْ يُقَصِّرُ عَنْهَا فَمَا
الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَتَقَشِ أَخَاتِمُ وَاللُّقَبِ وَالْقَاضِي
وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أَصْلَهُمْ وَلَا أَسْمَاءَهُمْ وَلَا مَقَامَتَهُمْ
إِنَّمَا سَمَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ التَّقْلِيدِ وَالْفَنَلَةَ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ الْأَقْدَمِينَ وَالذُّهُولِ عَنْ تَحْرِي
الْأَغْرَاضِ مِنَ التَّارِيخِ اللَّهُمَّ إِلَّا ذَكَرَ الْوُزَرَاءَ الَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَفَّتْ عَنِ الْمُلُوكِ
أَخْبَارُهُمْ كَالْحِجَّاجِ وَبَنِي الْمُهَلَّبِ وَالْبِرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوَيْحٍ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ
وَأَبْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَلِهِمْ فَبَدِّلْ نِكْبَةَ الْأَلْمَاعِ بِأَبَائِهِمْ وَالْإِشَارَةَ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لِأَنْتِظَامِهِمْ
فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ . وَلَنْذَكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَعْتَمُّ كَلَامَنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ بِهَا وَحَيْثُ أَنْ التَّارِيخِ
إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرِ أَوْ جِيلٍ فَمَا ذَكَرَ الْأَحْوَالَ الْعَامَّةَ لِلْأَفَاقِ
وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ فَهُوَ أَسْهُلُ الْمُؤَرِّخِ تَشْبِيهِ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَشْبِيهِ بِهِ أَجْبَاهُ
وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفْرِدُونَهُ بِالْتَأْلِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مَرْوَجِ الذَّهَبِ شَرَحَ
فِيهِ أَحْوَالَ الْأُمَمِ وَالْأَفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الثَّلَاثِينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ غَرْبًا وَشَرْقًا وَذَكَرَ
فَحْلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَالدُّوْلَ وَفَرَّقَ شُعُوبَ
الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلًا يُعَوَّلُونَ فِي تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ
مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ الْبُكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ
خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الْأُمَمَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ تَنْقَالِ
وَلَا عَظِيمٌ تَغْيِيرٌ وَأَمَّا هَذَا الْعَهْدُ وَهُوَ آخِرُ الْمِائَةِ الثَّمَانَةِ فَقَدْ أَتَقَلَّبَتْ أَحْوَالَ الْمَغْرِبِ
الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمَّلَةِ وَأَعْتَاضَتْ مِنْ أَجْيَالِ الْبُرَيْرِ أَهْلُهُ عَلَى الْقَدَمِ بِمَا
طَرَأَ فِيهِ مِنْ لُدُنِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَعَلَبُّهُمْ وَأَنْتَزَعُوا مِنْهُمْ
عَامَّةَ الْأَوْطَانِ وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْبُلْدَانِ لِمَلِكِهِمْ هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمَرَانَ

شَرْقًا وَعَرَبًا فِي مُتَّصَفٍ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّمَانَةِ مِنَ الطَّاعُونِ الْجَارِفِ الَّذِي تَحَيَّفَ الْأُمَّمَ
 وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيلِ وَطَوَى كَثِيرًا مِنْ مُحَاسِنِ الْعُمَرَانِ وَمَحَاهَا وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ
 هَرَمِهَا وَبُلُوغِ الْعَالِيَةِ مِنْ مَدَاهَا فَقَلَّصَ مِنْ ظِلَالِهَا وَقَلَّ مِنْ حَدِّهَا وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا
 وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلَاشِي وَالْأَضْمَحَالِلِ أَمْوَالُهَا وَانْتَقَضَ عُمَرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ الْبَشَرِ
 نَحَرَتِ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ وَدُرَسَتْ السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ وَخَلَّتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ وَضَعُفَتِ
 الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ وَكَانِي بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ
 لَكِنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمِقْدَارِ عُمَرَانِهِ وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الْكُؤُونِ فِي الْعَالَمِ بِالْمُحْمُولِ
 وَالْإِنْتِمَاضِ فَبَادَرَ بِالْإِجَابَةِ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ
 جُمْلَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ وَكَأَنَّهُ خَلَقُ جَدِيدٌ وَنَشَأَةٌ
 مُسْتَأَنَفَةٌ وَعَالَمٌ مُحْدَثٌ فَاحْتِاجُ لِهَذَا الْعَبْدِ مِنْ يَدُونِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ وَالْأَفَاقِ وَأَجْيَالِهَا
 وَالْعَوَائِدِ وَاللَّحْلِ الَّتِي تَبَدَّلَتْ لِأَهْلِهَا وَيَقْفُو مَسَلَكَ الْمَسْعُودِيِّ لِعَصْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلًا يَقْتَدِي
 بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَا ذَا كَرٍّ فِي كِتَابِي هَذَا مَا أَمْكَنِي مِنْهُ فِي هَذَا
 الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ إِمَّا صَرِيحًا أَوْ مُنْدَرَجًا فِي أَخْبَارِهِ وَتَلَوِيحًا لِإِخْتِصَاصِ قَصْدِي فِي
 التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأُمَمِهِ وَذَكَرَ مَمَالِكِهِ وَدَوَلِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنْ
 الْأَقْطَارِ لِعَدَمِ أَطْلَاعِي عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمِهِ وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَاقِلَةَ لَا تَقِي كُنْهَ
 مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ وَالْمَسْعُودِيُّ إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ لِبُعْدِ رِحْلَتِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ
 فِي كِتَابِهِ مَعَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
 عَلَيْهِ وَمَرَدُّ الْعِلْمِ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ وَالْبَشَرِ عَاجِزٌ قَاصِرٌ وَالْإِعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ وَمَنْ كَانَ
 اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تَسَرَّتْ عَلَيْهِ الْمَدَاهِبُ وَأُنْجِحَتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ وَتَحْنُ أَخْذُونَ
 بِعَوْنِ اللَّهِ فِيمَا رُمِنَاهُ مِنْ أَعْرَاضِ التَّأْلِيفِ وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ
 وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ
 إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا هَذَا

إَعْلَمَنَّ أَنَّ الْحُرُوفَ فِي النُّطْقِ كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدُ هِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْخَارِجَةِ
 مِنَ الْحَنَجْرَةِ تَعْرِضُ مِنْ نَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرَعِ اللَّهَاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ الْحَنَكِ وَالْحَنْقِ
 وَالْأَضْرَاسِ أَوْ بِقَرَعِ الشَّقْمَتَيْنِ أَيْضًا فَنَتَغَايِرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ بِتَغَايِرِ ذَلِكَ الْقَرَعِ

وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ مُتَمَايِزَةً فِي السَّمْعِ وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْعِكِمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الْأَصْنَافِ
 وَلَيْسَتْ الْأُمُّ كُلُّهَا مُتَمَايِزَةً فِي النُّطْقِ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ فَقَدْ يَكُونُ لِأُمَّةٍ مِنَ الْحُرُوفِ مَا
 لَيْسَ لِأُمَّةٍ أُخْرَى وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا الْعَرَبُ هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفَتْ
 وَتَجِدُ لِلْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا وَفِي لُغَتِنَا أَيْضًا حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ وَكَذَلِكَ
 إِلَّا فَرَجَ وَالَّتَرْكُ وَالْبَرْبُرُ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْعَجَمِ ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ
 أَصْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمْ الْمَسْمُوعَةَ بِأَوْضَاعِ حُرُوفِ مَكْتُوبَةٍ مُتَمَايِزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا
 كَوْضَعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَرَاءٍ وَطَاءٍ إِلَى آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ
 الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ مُهْمَلًا عَنِ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُغْفَلًا عَنِ الْيَأْنِ
 وَرُبَّمَا يَرْتَمُهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ بِشَكْلِ الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَفِيهِ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ
 وَلَيْسَ يَكْفِي فِي الدَّلَالَةِ بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ لِلحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ وَلَمَّا كَانَ كِتَابَنَا مُشْتَمَلًا عَلَى
 أَخْبَارِ الْبَرْبُرِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ وَكَانَتْ تَعْرُضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ
 لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا أَصْطِلَاحِ أَوْضَاعِنَا أَضْطَرَرْنَا إِلَى بَيَانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرِسْمِ
 الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا لَهُ لِأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ فَأَصْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا
 عَلَى أَنْ أَضَعَّ ذَلِكَ الْحَرْفَ الْعَجَمِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتَفِيَانِهِ لِيَتَوَسَّطَ
 الْقَارِئُ بِالنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ تَخَرُّجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ فَجُضِلَ تَأْدِيبُهُ وَإِنَّمَا أَقْبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ
 رِسْمِ أَهْلِ الْمُصْحَفِ حُرُوفِ الْأَشْجَامِ كَالصِّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلْفٍ فَإِنَّ النُّطْقَ بِصَادِهِ
 فِيهَا مُعْجَمٌ مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّيِّ فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّيِّ
 وَدَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ
 حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسَّطَةِ عِنْدَ الْبَرْبُرِ بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيحَةِ عِنْدَنَا
 وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ مِثْلَ اسْمِ بَلْ كَيْنِ فَأَضَعَهَا كَمَا وَاقَفْتُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْئَلِ
 أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقِ أَوْ اثْنَتَيْنِ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ الْكَافِ
 وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرْبُرِ وَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَى
 هَذَا الْقِيَاسِ أَضَعُّ الْحَرْفَ الْمُتَوَسَّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعًا لِيَعْلَمَ الْقَارِئُ
 أَنَّهُ مُتَوَسَّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ فَتَكُونُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرِسْمِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ
 عَنْ جَانِبِهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ تَخَرُّجِهِ إِلَى تَخَرُّجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ لُغَتِنَا وَغَيْرِنَا

لُغَةِ الْقَوْمِ فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَوْقِيُّ لِلصَّوَابِ بِمَنْهِ وَفَضْلِهِ

الكتاب الاول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب
والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من الملل والاسباب

اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو
عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتانس
والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك
والدول ومراتبها وما يتحمله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم
والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الاحوال. ولما كان الكذب
مُتَطَرِّقًا لِلخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ اسبابٌ تَقْتَضِيهِ . فَمِنْهَا التَّشَبُّهُ بِالاراءِ وَالْمَدَاهِبِ فَإِنَّ
النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْأَعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّحْقِيقِ وَالنَّظَرِ
حَتَّى تُنَبِّئَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِذَا حَامَرَهَا تُشَبُّهُ لِأَيِّ أَوْ نَحَلَهُ قَبِلَتْ مَا يُؤَافِقُهَا مِنْ
الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهَلَّةٍ وَكَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ وَالتَّشَبُّهُ غَطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الْاِتِّقَادِ
وَالْتَمَحِصِ فَتَقَعُ فِي قَبُولِ الْكُذِبِ وَنَقْلِهِ . وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي الْأَخْبَارِ
أَيْضًا التَّقَهُ بِالنَّاقِلِينَ وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّجَرُّبِ . وَمِنْهَا الذُّهُولُ عَنِ
الْمَقَاصِدِ فَكثيرٌ مِنَ النَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَيْنٌ أَوْ سَمِعَ وَنَقَلَ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي
ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي الْكُذِبِ . وَمِنْهَا تَوَهُمُ الصِّدْقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي الْأَكْثَرِ
مِنْ جِهَةِ التَّقَهُ بِالنَّاقِلِينَ وَمِنْهَا الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ عَلَى أَوْقَاعٍ لِأَجْلِ مَا يَدْخُلُهَا مِنْ
التَّكْلِيسِ وَالتَّصْنَعِ فَيَنْقَلِبُ الْخَبَرَ كَمَا رَأَاهَا وَهِيَ بِالتَّصْنَعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ . وَمِنْهَا
تَقَرُّبُ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ لِاصْحَابِ النُّجَلَةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ
وَإِشَاءَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَيَسْتَفِيضُ الْأَخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَالْنَّفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ
الثَّنَاءِ وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرَوَةٍ وَلَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ بِرَاضِعِينَ
فِي الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى
جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الْأَحْوَالِ فِي الْعُمُرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ

دَاتَا كَانَ أَوْ فِعْلًا لَا بَدَلَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخْصُهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا
 كَانَ السَّامِعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْوُجُودِ وَمَقْتَضِيَاتِهَا أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي
 تَمْحِصِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ وَهَذَا أَنْبَغُ فِي التَّمْحِصِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
 يَعْرِضُ وَكَثِيرًا مَا يَعْرِضُ لِلسَّامِعِينَ قَبُولُ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَبِنَقْلِهَا وَتَوَثُّرُ عَنْهُمْ كَمَا
 نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنِ الْأَسْكَندَرِيِّ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ الْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَكَيْفَ
 اتَّخَذَ صُنْدُوقَ الزُّجَاجِ وَعَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي
 رَأَاهَا وَعَمِلَ تَمَاثِيلَهَا مِنْ أَجْسَادِ مَعْدِنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ الْبُنْيَانِ فَفَرَّتْ تِلْكَ الدَّوَابُّ حِينَ
 خَرَجَتْ وَعَابَتْهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةِ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قَبْلِ
 اتَّخَاذِهِ النَّابُوتَ الزُّجَاجِيَّ وَمُضَادَّةِ الْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ بِجُرْمِهِ وَمِنْ قَبْلِ أَنَّ الْمَلُوكَ لَا تَحْمِلُ
 أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغُرُورِ وَمَنْ اعْتَمَدَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكَةِ وَانْتِقَاضِ
 الْعُقْدَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ إِتْلَافُهُ وَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ
 ذَلِكَ طَرَفَةٌ عَيْنٌ وَمِنْ قَبْلِ أَنْ الْجَنُّ لَا يَعْرِفُ لَهَا صُورًا وَلَا تَمَاثِيلَ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ
 قَادِرَةٌ عَلَى الشُّكْلِ وَمَا يُدْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ الرُّثُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ اللَّشَاعَةُ
 وَالتَّهْوِيلُ لِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَالْقَادِحُ الْحَمِيلُ لَهَا مِنْ
 طَرِيقِ الْوُجُودِ أَبِينُ مِنْ هَذَا كَلِمَةٌ وَهُوَ أَنَّ الْمُنْعَمَسَ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ
 يَضِيقُ عَلَيْهِ الْهُوَاءُ لِلنَّفْسِ الطَّبِيعِيِّ وَتَسْخُنُ رُوحَهُ بِسُرْعَةٍ لِقَاتِلِهِ فَيَفْقَدُ صَاحِبُهُ الْهُوَاءَ
 الْبَارِدَ الْمَعْدِلَ لِمَزَاجِ الرِّتَّةِ وَالرُّوحِ الْقَلْبِيِّ وَيَهْلِكُ مَكَانَهُ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي هَلَاكِ
 أَهْلِ الْحُمَامَاتِ إِذَا أُطِيقَتْ عَلَيْهِمْ عَنِ الْهُوَاءِ الْبَارِدِ وَالْمُتَدَلِّينَ فِي الْأَبَارِ وَالْمَطَامِيرِ
 الْعَمِيقَةِ الْمَهْوَى إِذَا سَخِنَ هَوَاؤُهَا بِالْعَضُوبَةِ وَلَمْ تَدْخُلْهَا الرِّيحُ فَتَخْلُجُهَا فَإِنَّ الْمَتَدَلِّ
 فِيهَا يَهْلِكُ لِحَمِيهِ وَبِهَذَا السَّبَبِ يَكُونُ مَوْتُ الْحَوْتِ إِذَا فَارَقَ الْبَحْرَ فَإِنَّ الْهُوَاءَ لَا يَكْفِيهِ
 فِي تَعْدِيلِ رِئَتِهِ إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ وَالْمَاءُ الَّذِي يُعَدُّ لَهُ بَارِدٌ وَالْهُوَاءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ
 حَارٌّ فَيَسْتَوِلِي الْحَارُّ عَلَى رُوحِهِ الْحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً وَمِنْهُ هَلَاكُ الْمَصْعُوقِينَ وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي مِثَالِ الزَّرْزُورِ الَّذِي بِرُومَةِ
 تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الزَّرَازِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّيْتُونَ وَمِنْهُ يَخْذُونَ زَيْتَهُمْ
 وَأَنْظُرُ مَا أَعْبَدَ ذَلِكَ عَنِ الْعَجْرِيِّ الطَّبِيعِيِّ فِي اتَّخَاذِ الزَّيْتِ . وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الْبَكْرِيُّ

فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الْمَسْمُورَةِ ذَاتِ الْأَبْوَابِ مُحِيطٌ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرْحَلَةً وَتَشْتَمِلُ عَلَى
 عَشْرَةِ آلَافِ بَابٍ وَالْمَدِينُ إِنَّمَا اتَّخَذَتْ لِلتَّحْصَنِ وَالْإِعْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي وَهَذِهِ خَرَجَتْ
 عَنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا حِصْنٌ وَلَا مَعْصَمٌ وَكَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي حَدِيثِ
 مَدِينَةِ النُّحَاسِ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ كُلُّ بِنَائِهَا نُحَاسٌ بِصَحْرَاءِ سِجْلَمَاسَةَ ظَفَرَ بِهَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ
 فِي غَزْوَتِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَنَّهَا مُعَلَّقةُ الْأَبْوَابِ وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ سَوَارِهَا إِذَا أَشْرَفَ
 عَلَى الْحَائِطِ صَفَقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ فَلَا يَرْجِعُ آخِرَ الدَّهْرِ فِي حَدِيثِ مُسْتَعِيلٍ عَادَةً مِنْ
 خُرَافَاتِ الْقُصَاصِ وَصَحْرَاءِ سِجْلَمَاسَةَ قَدْ نَقَضَهَا الرُّكَّابُ وَالْأَدْلَاءُ وَلَمْ يَقِفُوا لِهَيْدِهِ الْمَدِينَةَ
 عَلَى خَبَرٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلَّهَا مُسْتَعِيلٌ عَادَةً مُتَأَمِّنًا لِلْأُمُورِ
 الطَّبِيعِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْمَدِينِ وَأَخْطَاطِهَا وَأَنَّ الْمَعَادِنَ غَايَةَ الْمَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصْرَفَ فِي
 الْأَنِيَّةِ وَالْحُرْتِي (١) وَأَمَّا تَسْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا تَرَاهُ مِنَ الْإِسْتِحْجَالَةِ وَالْبُعْدِ وَأَمثالُ
 ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَتَحْصِيصُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْعُمَرَانِ وَهُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ وَأَوْثَقُهَا
 فِي تَحْصِيصِ الْأَخْبَارِ وَتَمْيِيزِ صِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا وَهُوَ سَابِقٌ عَلَى التَّسْخِيسِ بِتَعْدِيلِ الرُّوَاةِ
 وَلَا يَرْجِعُ إِلَى تَعْدِيلِ الرُّوَاةِ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْخَبَرَ فِي نَفْسِهِ مُمَكِّنٌ أَوْ مُمْتَنِعٌ وَأَمَّا
 إِذَا كَانَ مُسْتَعِيلًا فَلَا فَائِدَةَ لِلنَّظَرِ فِي التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيعِ وَلَقَدْ عَدَّ أَهْلُ النَّظَرِ مِنَ
 الْمَطَاعِنِ فِي الْخَبَرِ اسْتِحْجَالَ مَدْلُولِ اللَّفْظِ وَتَأْوِيلَهُ بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَإِنَّمَا
 كَانَ التَّعْدِيلُ وَالتَّجْرِيعُ هُوَ الْمَعْتَبَرُ فِي صِحَّةِ الْأَخْبَارِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا تَكَالِيفُ
 إِنشَائِيَّةٌ أَوْجَبَ الشَّارِعُ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى حَصَلَ الظَّنُّ بِصِدْقِهَا وَسَبِيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ الثَّقَّةِ
 بِالرُّوَاةِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنِ الْوَاقِعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ
 اعْتِبَارِ الْمُطَابَقَةِ فَلِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي إِمْكَانِ وَوُجُوهِ وَصَارَ فِيهَا ذَلِكَ أَهْمَ مِنَ
 التَّعْدِيلِ وَمُقَدِّمًا عَلَيْهِ إِذْ فَائِدَةُ الْأَشْيَاءِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطْ وَفَائِدَةُ الْخَبَرِ مِنْهُ وَمِنْ الْخَارِجِ
 بِالْمُطَابَقَةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِالْإِمْكَانِ
 وَالْإِسْتِحْجَالَةِ أَنْ نَنْظُرَ فِي الْأَجْمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي هُوَ الْعُمَرَانُ وَتَمْيِيزَ مَا يَلْتَقِيهِ مِنَ
 الْأَحْوَالَ لِذَاتِهِ وَبِمُقْتَضَى طَبِيعِهِ وَمَا يَكُونُ عَارِضًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرْضَى
 لَهُ وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَنَا قَانُونًا فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ وَالصِّدْقِ

مِنَ الْكُذِبِ بَوَجهِ بُرْهَانِي لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنْ
 الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمُرَانِ عَلِمْنَا مَا تَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا تَحْكُمُ بِتَرْكِهِ وَكَانَ ذَلِكَ
 لَنَا مَعْيَارًا صَحِيحًا يَجْرِي بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصِّدْقِ وَالصَّوَابِ فِيمَا يَقْلُونَهُ وَهَذَا هُوَ
 غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ مِنَ تَالِفِينَا وَكَانَ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضِعٍ
 وَهُوَ الْعُمُرَانُ الْبَشَرِيُّ وَالْإِجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ وَذَو مَسَائِلٍ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعَوَارِضِ
 وَالْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضِعًا كَانَ أَوْ
 عَقْلِيًا. وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْغَرَضِ مُسْتَعَدَّتْ الصَّنْعَةُ غَرِيبُ الزَّرْعَةِ عَزِيزُ الْفَائِدَةِ
 اعْتَرَفَ عَلَيْهِ الْبَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ الْغَوْصُ وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ الْخَطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمُنْفَعَةُ
 النَّافِعَةُ فِي اسْتِنَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدِّهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ
 الْمَدِينِيَّةِ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدِينِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ الْمَنْزِلِ أَوْ الْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمَقْصَدِ الْأَخْلَاقِ
 وَالْحِكْمَةِ لِيُجْمَلَ الْجُمْهُورُ عَلَى مَنَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ التَّنَوُّعِ وَبِقَاوُهُ فَقَدْ خَالَفَ
 مَوْضِعَهُ مَوْضِعَ هَدْيِ الْفَتَى الْإِسْلَامِيِّ رُبَّمَا يُشْبِهَانِهِ وَكَانَهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطٌ لِلنِّسَاءِ وَالْعَمْرِي
 لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنَاجٍ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ مَا أَدْرِي أَعْفَلْتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ
 الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلِ إِلَيْنَا فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ
 وَالْحِكْمَاءُ فِي أَمْرِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلِ إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرُ
 مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومِ الْفَرَسِ الَّتِي أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَمْلِهَا عِنْدَ الْفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومِ
 الْكِلْدَانِيِّينَ وَالسَّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَتَنَاجِيهَا وَأَيْنَ عُلُومِ
 الْقَبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ خَاصَّةً لِكُلِّ الْمَأْمُونِ
 بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ وَأَقْتِدَارِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرْجِمِينَ وَبَدَلِ الْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ
 تَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ مُتَعَلِّقَةً طَبِيعِيَّةً بِصَلْحٍ أَنْ يُبْحَثَ
 عَمَّا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجَبَّ أَنْ يَكُونَ بِأَعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ
 مِنَ الْعُلُومِ يَخْصُهُ لَكِنِ الْحِكْمَاءُ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ الْعِنَايَةَ بِالثَّمَرَاتِ وَهَذَا
 إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي أَحْصَاصِهَا
 شَرِيفَةً لَكِنِ ثَمَرَتُهُ تَصْحِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ فَلِهَذَا هَجَرُوهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَمَا أُوْتِيتُمْ
 مِنَ الْعِلْمِ الْأَقْلِيَاءِ. وَهَذَا الْفَرْقُ الَّذِي لَاحَ لَنَا النَّظْرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِالْعَرَضِ

لِأَهْلِ الْعُلُومِ فِي بَرَاهِينِ عُلُومِهِمْ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَسَائِلِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالطَّلَبِ مِثْلَ مَا
 يَذْكُرُهُ الْحُكَمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ فِي اثْبَاتِ النُّبُوَّةِ مِنْ أَنَّ الْبَشَرَ مُتَعَاوِنُونَ فِي وُجُودِهِمْ
 فَيَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى الْحَاكِمِ وَالْوَالِيِّ وَمِثْلَ مَا يَذْكُرُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ فِي بَابِ اثْبَاتِ
 اللُّغَاتِ أَنَّ النَّاسَ مُتَحَاوِرُونَ إِلَى الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ بِطَبِيعَةِ التَّعَاوُنِ وَالْإِجْتِمَاعِ وَتَبْيَانِ
 الْعِبَارَاتِ أَخْتِ وَمِثْلَ مَا يَذْكُرُهُ الْفُقَهَاءُ فِي تَعْلِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْمَقَاصِدِ
 فِي أَنَّ الزَّنَا مَخْطُؤٌ لِلْأَنْسَابِ مُسَدِّ النَّوْعِ وَأَنَّ الْقَتْلَ أَيْضًا مُسَدِّ النَّوْعِ وَأَنَّ الظُّلْمَ
 مُؤَذِّنٌ بِخِرَابِ الْعُمْرَانِ الْمُفْضِي لِفَسَادِ النَّوْعِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ
 فِي الْأَحْكَامِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْحِفَاظَةِ عَلَى الْعُمْرَانِ فَكَانَ لَهَا النَّظَرُ فِيهَا يَعْرِضُ
 لَهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامَتِنَا هَذَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمُشْتَبِهَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَقَعُ الْبَيِّنَاتُ الْقَلِيلُ
 مِنْ مَسَائِلِهِ فِي كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ لِحُكَمَاءِ الْخَلِيقَةِ لِكُنْهِمْ لَمْ يَسْتَوْفُوهُ مِنْ كَلَامِ
 الْمَوْبِدَّانِ بَهْرَامِ بْنِ بَهْرَامٍ فِي حِكَايَةِ الْبُيُوتِ الَّتِي نَقَلَهَا الْمَسْعُودِيُّ . أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ
 الْمَلِكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَتَنْهِيهِ وَلَا
 قِوَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْمَالِ
 وَلَا سَبِيلَ لِلْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ
 الْمَنْصُوبُ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَصَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ . وَمِنْ كَلَامِ أَوْشُرَوَانَ
 فِي هَذَا الْمَعْنَى بَعَيْنَهُ الْمَلِكُ بِالْجُنْدِ وَالْجُنْدُ بِالْمَالِ وَالْمَالُ بِالْخِرَاجِ وَالْخِرَاجُ بِالْعِمَارَةِ
 وَالْعِمَارَةُ بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ بِإِصْلَاحِ الْعَمَالِ وَإِصْلَاحُ الْعَمَالِ بِاسْتِقَامَةِ الْوُزَرَاءِ
 وَرَأْسُ الْكُلِّ بِإِفْتِقَادِ الْمَلِكِ حَالَ رَعِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى تَأْدِيبِهَا حَتَّى يَمْلِكَهَا
 وَلَا تَمْلِكُهُ . وَفِي الْكِتَابِ الْمَنْسُوبِ لِأَرْسَطُو فِي السِّيَاسَةِ الْمُتَدَاوِلِ بَيْنَ النَّاسِ جُزْءٌ
 صَالِحٌ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْفٍ وَلَا مُعْطَى حَقَّهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَمُخْتَلِطٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ أَشَارَ
 فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنِ الْمَوْبِدَّانِ وَأَوْشُرَوَانَ وَجَعَلْنَا
 فِي الدَّائِرَةِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي أَعْظَمَ الْقَوْلَ فِيهَا هُوَ قَوْلُهُ . الْعَالَمُ بَسْتَانٌ سِيَاحَةُ الدَّوْلَةِ الدَّوْلَةُ
 سُلْطَانٌ تَحِيًا بِهِ السَّنَةُ السَّنَةُ سِيَاسَةٌ يَسُوسُهَا الْمَلِكُ الْمَلِكُ نِظَامٌ يَعْبُدُهُ الْجُنْدُ
 الْجُنْدُ أَعْوَانٌ يَكْفُلُهُمُ الْمَالُ الْمَالُ رِزْقٌ تَجْمَعُهُ الرِّعِيَّةُ الرِّعِيَّةُ عَمِيدٌ يَكْتَفِيهِمُ الْعَدْلُ
 الْعَدْلُ مَا لَوْفَ وَبِهِ قِوَامُ الْعَالَمِ الْعَالَمُ بَسْتَانٌ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ . فَهَذَا ثَمَانُ

كَلِمَاتٍ حَكِيمَةٍ سِيَاسِيَّةٍ أَرْبَطَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَأَزْدَتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا وَاتَّصَلَتْ
فِي دَائِرَةٍ لَا تَبْعَيْنُ طَرْفَهَا نَفْرًا بَعُثُورُهُ عَالِيَهَا وَعَظَمَ مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ
كَلَامَنَا فِي فَصْلِ الدُّوَلِ وَالْمَلِكِ وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ التَّمْصِيحِ وَالتَّفَهْمِ عَثَرْتَ فِي أَثْنَانِهِ
عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى يَتِيًّا بِأَوْعِبِ بَيَانٍ وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ
وَبُرْهَانَ أَطْمَعْنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ أَرَسَطُوا وَلَا إِفَادَةَ مَوْبَدَانَ وَكَذَلِكَ تَجِدُ فِي
كَلَامِ أَبْنِ الْمُقَفَّعِ وَمَا يَسْتَطْرِدُ فِي رِسَالَتِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِ
كِتَابِنَا هَذَا غَيْرَ مَبْرَهَنَةٍ كَمَا بَرَهَنَاهُ إِنَّمَا يُجْلِيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنَحَى الْخَطِاطَةِ فِي أُسْلُوبِ
الْتَّرْسُلِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ حَوَمَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِي فِي كِتَابِ
سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابٍ تَقْرُبُ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هَذَا وَمَسَائِلُهُ لَكِنَّهُ لَمْ
يُصَادَفْ فِيهِ الرِّمِيَّةُ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةَ وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا أَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا
يُؤَبِّبُ الْبَابَ لِلْمَسْئَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْتَفِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً
لِحُكَمَاءِ الْفَرَسِ مِثْلَ بَزْرَجْمَهَرٍ وَالْمَوْبَدَانَ وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْتُورِ عَنْ دَانِيَالٍ
وَهَرْمِسٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكْبَارِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ فَنَاعًا وَلَا يَرْفَعُ بِالْبُرَاهِينِ
الطَّبِيعِيَّةِ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ وَتَرْكِيبٌ شَبِيهُ بِالْمَوْاعِظِ وَكَانَهُ حَوَمَ عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ
يُصَادَفْهُ وَلَا تَحَقَّقْ قِصْدَهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ أَلْهَمْنَا اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْهَامًا وَأَعَزَّنَا
عَلَى عِلْمٍ جَعَلْنَا بَيْنَ نُكْرَةٍ وَجُوبِنَةٍ خَبْرَهُ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ اسْتَوْفَيْتَ مَسَائِلَهُ وَمَيَّزْتَ عَنْ
سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْجَاهَهُ فَمُتَوَقِّقٌ مِنَ اللَّهِ وَهِدَايَتِهِ وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَانِهِ
وَأَسْتَبْتُ بِغَيْرِهِ فَلِنَاظِرِ الْمُتَحَقِّقِ إِصْلَاحُهُ وَلِي الْفَضْلُ لِأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ
لَهُ الطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بُنُورَهُ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ الْآنَ نَبِينُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَعْزُضُ
لِلْبَشَرِ فِي أَجْمَعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ فِي الْمَلِكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ يُوْجُوهُ
بُرْهَانِيَّةً يَتَضَحُّ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتَرْفَعُ
الشُّكُوكُ . وَنَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصِّ أَخْصَصَ بِهَا
فِيهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشَرَفَ بِوَصْفِهِ عَلَى
الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانَ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ
دُونَ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ النَّخْلِ وَالْجُرَادِ وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا

مِثْلُ ذَلِكَ فَطَرِيقُ الْهَامِي لَا يَفْكَرُ وَرَوِيَّةٌ وَمِنْهَا السَّعْيُ فِي الْمَعَاشِ وَالْإِعْتِمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَأَكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْإِفْتِقَارِ إِلَى الْغِنَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَدَاهُ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَقَالَ تَعَالَى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا الْعُمْرَانُ وَهُوَ التَّسَاكُنُ وَالتَّنَازُلُ فِي مَضْرُوءٍ أَوْ حَلَّةٍ لِلْأَنْسِ بِالْعَشِيرِ وَاقْتِنَاضِ الْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ كَمَا نَبِيْنُهُ وَمِنْ هَذَا الْعُمْرَانُ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي الضَّوَاهِي وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْحِلَالِ الْمُنْتَجِمَةِ فِي الْقِفَارِ وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضْرِيًّا وَهُوَ الَّذِي بِالْأَمْصَارِ وَالْقُرَى وَالْمَدَنِ وَالْمَدَرِّ لِلْإِعْتِصَامِ بِهَا وَالتَّحْصَنِ بِجُدْرَانِهَا وَهُوَ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ أَمُورٌ تَعْرُضُ مِنْ حَيْثُ الْأَجْتِمَاعُ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ أَنْ حَصَرَ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . الْأَوَّلُ فِي الْعُمْرَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ الْأَرْضِ . وَالثَّانِي فِي الْعُمْرَانِ الْبَدَوِيِّ وَذَكَرَ الْقَبَائِلَ وَالْأُمَمَ الْوَحْشِيَّةَ . وَالثَّلَاثُ فِي الدُّوَلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ وَذَكَرَ الْمَرَاتِبَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالرَّابِعُ فِي الْعُمْرَانِ الْحَضْرِيِّ وَالْبُلْدَانَ وَالْأَمْصَارِ . وَالْخَامِسُ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ . وَالسَّادِسُ فِي الْعُلُومِ وَأَكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا . وَقَدْ قَدِّمْتُ الْعُمْرَانَ الْبَدَوِيَّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نَبِيْنُ لَكَ بَعْدُ وَكَذَا تَقْدِيمُ الْمَلِكِ عَلَى الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعَاشِ فَلِأَنَّ الْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كَمَا لِي أَوْ حَاجِيٌّ وَالطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ الْكَمَا لِي وَجَعَلْتُ الصَّنَائِعَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ بَعْضُ الْوُجُوهِ وَهِيَ حَيْثُ الْعُمْرَانُ كَمَا نَبِيْنُ لَكَ بَعْدُ وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ لِلصَّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ

*—

الفصل الاول

من الكتاب الاول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الاولى في أَنَّ الْأَجْتِمَاعَ الْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيَعْبُرُ الْحُكْمَاءُ عَنْ هَذَا يَقُولُهُمُ الْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبَعِ أَي لَا يَدُلُّهُ مِنَ الْأَجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي أَصْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى الْعُمْرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصْحُحُ

حَيَاتِهَا وَبِقَاوَمِهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ وَهَدَاهُ إِلَى النَّمَاسِهِ بِفِطْرَتِهِ وَبِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى
 تَحْصِيلِهِ إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ
 غَيْرُ مُؤَيَّدَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَفَلَّ مَا يُمَكِّنُ فَرَضَهُ وَهُوَ قُوَّةٌ يَوْمٌ مِنْ
 الْخِطَّةِ مِثْلًا فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّعْنِ وَالنَّجْنِ وَالطَّبْخِ وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
 هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَحْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينِ وَالْآتِ لَا أَنْتُمْ إِلَّا بِصِنَاعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ
 حَدَادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاحُورِيِّ وَهَبَّ أَنْهُ يَا كُلُّهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ فَرُبُّوا أَيْضًا يَحْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ
 أَيْضًا حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ مِنَ الزَّرْعَةِ وَالْحِصَادِ وَالدَّرَاسِ الَّذِي
 يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ غِلَافِ السُّنْبُلِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآتِ مُتَعَدِّدَةً وَصِنَائِعَ
 كَثِيرَةً أَكْثَرَ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَعِجِلُ أَنْ تَبِي بِذَلِكَ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ
 وَلَا بُدَّ مِنْ أَجْتِمَاعِ الْقُدْرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِيَحْصَلَ الْقُوَّةُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ
 بِالْتَعَاوُنِ قُدْرَةُ الْكَيْفِيَّةِ مِنَ الْحَاجَةِ لَا كَثَرِ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ
 مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْأَسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ
 الطَّبِيعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقُدْرَةَ بَيْنَهَا جَعَلَ حُطُوطَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ
 مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مِثْلًا أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ قُدْرَةِ
 الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا
 كَانَ الْعُدْوَانُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَضْوًا يَخْصُصُ بِمُدَافَعَتِهِ مَا
 يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةِ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عَوْضًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ فَالْيَدُ مَبْنِيَّةٌ
 لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ وَالصَّنَائِعُ تَحْصُلُ لَهُ الْآلَاتُ الَّتِي تَنْوُبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ
 الْمَعْدَةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تَنْوُبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِحَةِ وَالسُّيُوفِ
 النَّائِبَةِ عَنِ الْخَطَّابِ الْجَارِحَةِ وَالْتِرَاسِ النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
 وَغَيْرِهِ يَمَا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا يُقَاوِمُ
 قُدْرَتَهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ سِيمَا الْمَفْتَرَسَةَ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ مُدَافَعَتِهَا وَحَدَهُ
 بِالْجَمَلَةِ وَلَا تَبِي قُدْرَتَهُ أَيْضًا بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمَعْدَةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ
 التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا غِذَاءٌ وَلَا
 نَمُّ حَيَاتِهِ لِمَا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا

دَفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفَقْدَانِ السَّلَاحِ فَيَكُونُ فَرِيْسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ وَيُعَاجِلُهُ اَلْهَلَاكُ عَنْ مَدَى
 حَيَاتِهِ وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلغِدَاءِ وَالسَّلَاحِ لِلْمُدَافَعَةِ
 وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ وَحِفْظِ نَوْعِهِ فَإِذَنْ هَذَا اَلْاجْتِمَاعُ صَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ اَلْإِنْسَانِيِّ
 وَإِلَّا لَمْ يَكْمُلْ وُجُودُهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ اَعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَأَسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ وَهَذَا
 هُوَ مَعْنَى اَلْعُمْرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعًا لِهَذَا الْعِلْمِ وَفِي هَذَا اَلْكَلَامِ نَوْعٌ اِثْبَاتٌ
 لِلْمَوْضُوعِ فِي فَنِّهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لِمَا
 تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ اِثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ
 فَلَيْسَ أَيْضًا مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ اِثْبَاتُهُ مِنَ اَلتَّبَرُّعَاتِ وَاللَّهُ الْمُؤْتَقُّ بِفَضْلِهِ
 ثُمَّ إِنَّ هَذَا اَلْاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمْرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ
 وَاِزَاعٍ يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ اَلْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ اَلْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَلَيْسَتْ
 السَّلَاحُ الَّتِي جُعِلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ اَلْحَيَوَانَاتِ اَلْعَجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ اَلْعُدْوَانِ
 عَنْهُمْ لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لِحَمِيْعِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَلَا
 يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيْعِ اَلْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَإِلْهَامَاتِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ اَلْوِازِعُ
 وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ اَلْغَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى
 غَيْرِهِ بَعْدُوَانٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى اَلْمَلِكِ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ لِلْإِنْسَانَ خَاصَّةً طَبِيعَةً
 وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوْجَدُ فِي بَعْضِ اَلْحَيَوَانَاتِ اَلْعَجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ اَلْحُكْمَاءُ كَمَا فِي
 اَلْبَحْلِ وَالْجُرَادِ لِمَا اسْتَقْرَى فِيهَا مِنَ اَلْحُكْمِ وَاَلْاِتْقَادِ وَاَلْاِتِّبَاعِ لِرَبِّيسٍ مِنْ اَشْخَاصِهَا
 مُتَمَيِّزٌ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجِثَانِهِ اَلْإِنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِعَبَرِ اَلْإِنْسَانِ بِمَقْتَضَى اَلْفِطْرَةِ
 وَاَلْهَدَايَةِ لَا بِمَقْتَضَى اَلْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ اَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَتَرَى اَلْفَلَاسِفَةَ
 عَلَى هَذَا اَلْبُرْهَانِ حَيْثُ يَحْوُلُونَ اِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ بِاللِّدْلِيلِ اَلْعَقْلِيِّ وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ
 لِلْإِنْسَانِ فَيَقَرُّوْنَ هَذَا اَلْبُرْهَانَ إِلَى غَايَةِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ اَلْحُكْمِ اَلْوِازِعِ
 ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ اَلْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرَعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ
 مِنَ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ هِدَايَتِهِ
 لِيَقَعَ اَلتَّسْلِيمُ لَهُ وَاَلْقَبُولُ مِنْهُ حَتَّى يَتِمَّ اَلْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ اِنْكَارٍ وَلَا تَرْيَفٍ
 وَهَذِهِ اَلْقَضِيَّةُ لِلْحُكْمَاءِ غَيْرِ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ إِذِ اَلْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ نَبَغَتْ مِنْ

دُونَ ذَلِكَ بِمَا بَفَرَّضَهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْعَصِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمَلِهِمْ عَلَى جَادَتِهِ فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَبُوسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْأَثَارُ فَضْلاً عَنِ الْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ هَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِمِ الْمُنْحَرَفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْجُنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوُضِيَ دُونَ وَارِزَعِ لَهُمُ الْبَتَّةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُهُمْ فِي وَجُوبِ النُّبُوتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِي وَإِنَّمَا مُدْرِكُهُ الشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه

من الاشجار والانهار والاقاليم

إِعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرْوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعَنْصُرِ الْمَاءِ كَانَهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَأَتَحَسَّرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمُرَانِهَا بِالنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يَتَوَقَّعُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَاحِبٍ وَإِنَّمَا التَّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسَطُ كُرْبَتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَالْكُلُّ يُطَلَبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَمَا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَمَا الَّذِي أَتَحَسَّرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرْبَتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةِ حَاطِطِ الْعَنْصُرِ الْمَائِيِّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بِجَمْرًا يُسَمَّى الْجَبْرُ الْمُحِيطُ وَيُسَمَّى أَيْضًا لَبْلَابِيَةً بِتَفْخِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أَوْفِيَانُوسَ اسْمَاءً عَجْمِيَّةً وَيُقَالُ لَهُ الْجَبْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشَفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمُرَانِ فِيهِ الْقِفَارُ وَالْخِلَافَةُ أَكْثَرُ مِنْ عُمُرَانِهِ وَالْخِلَالِي مِنَ جِهَةِ الْجُنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمِيلٌ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحِ كُرْوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجُنُوبِ إِلَى خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرْوِيٍّ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْعَنْصُرِيِّ الَّذِي

بَيْنَهُمَا سِدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَتَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ
 وَالْمَغْرِبِ إِلَى عُنُقِ الْمَاءِ أَيْضًا يَقْطَعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ وَهَذَا الْمُنْكَشِفُ مِنَ
 الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقَلُّ وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ
 الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَخَطُّ الْأَسْتِوَاءِ يَقْسِمُ الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى
 الْمَشْرِقِ وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ وَأَكْبَرُ خَطِّ فِي كُرَّتِهَا كَمَا أَنَّ مَنْطِقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ
 وَدَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطِّ فِي فَلَكِ وَمَنْطِقَةُ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثَةِ وَسْتَيْنِ
 دَرَجَةً وَالدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَخًا وَالْفَرْسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ
 ذِرَاعٍ وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إصْبَعًا وَالْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتٍ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٍ مُلْصِقَةٍ
 بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّتِي تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتَسَامَتْ
 خَطُّ الْأَسْتِوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنَّ
 الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خِلَافٌ لَا
 عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالْجُمُودِ كَمَا كَانَتْ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خِلَافًا كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا
 بَيَّنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ الْخُبْرَيْنِ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا
 فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمَدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْقَفَارِ وَالرِّمَالِ مِثْلَ بَطْلِيمُوسَ فِي
 كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ زَخَارٍ مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ
 يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَهَمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ
 مُخْتَلِفَةٍ فِي الطُّولِ فَأَلْفِ قَلِيمٍ الْأَوَّلُ أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ
 السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضَعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ انْحِسَارِ الْمَاءِ عَنِ كُرَّةِ الْأَرْضِ
 وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعِشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
 عَلَى النَّوَالِي وَفِي كُلِّ جُزْءٍ الْخُبْرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمَرَانِهِ . وَذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ
 الْمُحِيطَ يُخْرِجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْأَقَالِيمِ الرَّابِعِ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ الْمَعْرُوفَ بِبَدَا
 فِي خَلِيجٍ مُتَضَابِقٍ فِي عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا أَوْ نَحْوَهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى
 الرُّزَاقَ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشْرَقًا وَيَنْفَسِحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَنَهَائَتُهُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ
 الرَّابِعِ مِنَ الْأَقَالِيمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ وَمِائَةِ وَسْتَيْنِ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدَأِهِ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ
 سَوَاحِلُ الشَّامِ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ أُولَئِكَ طَنْجَةُ عِنْدَ الْخَلِيجِ ثُمَّ

افریقیة ثم بركة إلى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخلیج
 ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى
 هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أفریطس وقبرص
 وصقلية وميورقة وسردانية قالوا ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من
 خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية بدأ من هذا البحر متضابقا في عرض رمية
 السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينسحق في عرض أربعة أميال
 ويمر في جزبه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة
 أميال فيمد بحر نيطس وهو بحر يخرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر
 بأرض هرقله وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من
 الجانبين أمم من الروم والترک وبزجان والرؤس والبحر الثاني من خليجي هذا البحر
 الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى
 سمت الجبل انخرق في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد انكلاية
 على ألف ومائة ميل من مبداه وعلي حافته من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى
 خليج البنادقة قالوا وينسحق من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق وعلى ثلاث عشرة
 درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلا حتى ينتهي
 إلى الأقليم الأول ثم يمر فيه مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد
 الحبشة والزينج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبداه
 ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزينج وبلاد
 مؤبر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب
 ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وأرض الوفواق وأمم آخر ليس بعدهم إلا الففار وأخلاقه
 وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبداه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من
 الأحقاف وزيد وغيرها ثم بلاد الزينج عند نهايته وبعدهم الحبشة قالوا ويخرج من
 هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ
 متضابقا ثم يمر مستنجرا إلى ناحية الشمال ومغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى القلزم في
 الجزء الخامس من الأقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبداه ويسمى بحر

الْقَلْزُومَ وَبَحْرَ السُّوَيْسِ وَبَيْنَ فِسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَاكَ ثَلَاثَ مَرَاحِلَ وَعَلَيْهِ مِنْ
 جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجَدَّةٌ ثُمَّ مَدِينُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ نَهَائِهِ وَمِنْ
 جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الصَّعِيدِ وَعَيْدَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيْلَعُ ثُمَّ بِلَادُ الْحَبْشَةِ عِنْدَ مَبْدَآءِ
 وَآخِرِهِ عِنْدَ الْقَلْزُومِ يُسَمَّى الْبَحْرُ الرَّومِيَّ عِنْدَ الْعَرِيشِ وَبَيْنَهُمَا تَحْوُسَتْ مَرَاحِلُ وَمَا
 زَالَ الْمُلُوكُ فِي الْأَسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ
 هَذَا الْبَحْرِ الْحَبْشِيِّ وَيُسَمَّى الْخَلِيجَ الْأَخْضَرَ يُخْرِجُ مَا بَيْنَ بِلَادِ السِّنْدِ وَالْأَحْقَافِ مِنْ
 الْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَبْلَةِ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ
 فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَنْ بَعْدَئِهِ فَرَسَخٌ وَأَنْ بَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدَآءِ
 وَيُسَمَّى بَحْرَ فَارِسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ السِّنْدِ وَمَكْرَانَ وَكُرْمَانَ وَفَارَسُ
 وَالْأَبْلَةُ وَعِنْدَ نَهَائِهِ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَالشَّحْرَ وَالْأَحْقَافُ
 عِنْدَ مَبْدَآءِ وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارِسَ وَالْقَلْزُومِ وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ كَانَتْهَا دَاخِلَةٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ
 يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْحَبْشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ الْقَلْزُومِ مِنَ الْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ
 وَتَقْضِي إِلَى الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ مِيلَ بَيْنَهُمَا وَهَذَاكَ الْكُوفَةَ
 وَالْقَادِسِيَّةَ وَبَغْدَادَ وَإِيوَانَ كِسْرَى وَالْحَيْرَةَ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمُّ الْأَعْلَمِ مِنَ التَّرْكِ
 وَالْخَزَرَ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ
 وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلَى
 الْبَحْرِ الْحَبْشِيِّ قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرٌ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبِحَارِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ
 بَارِضُ الدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ طُولُهُ أَلْفُ مِيلٍ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةٍ مِيلٍ
 فِي غَرْبِهِ أَذْرَبِيجَانَ وَالدَّيْلَمِ وَفِي شَرْقِيهِ أَرْضُ التَّرْكِ وَخَوَازِمَ وَفِي جَنُوبِيهِ طَبْرِسْتَانَ
 وَفِي شَمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرَ وَاللَّانَ . هَذِهِ جَمَلَةٌ الْبِحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ
 الْجُغْرَافِيَا . قَالُوا وَفِي هَذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ النَّيْلُ
 وَالْفُرَاتُ وَدَجَلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ الْمُسَمَّى جِيمُونَ . فَأَمَّا النَّيْلُ فَبَدَأَهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ حُطِّ
 الْأَسْتَوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلُ
 الْقَهْمَرِ وَلَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ تَخْرُجُ مِنْهُ عَيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي
 بَحِيرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بَحِيرَةٍ

وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلٍ مِنَ الْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ نَهْرَانِ
 يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِيَلَادِ النَّوْبَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا
 جَاوَزَهَا تَسَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَابِرَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَائِجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ عِنْدَ الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ الصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيهِ وَالْوَأْحَاتُ
 مِنْ غَرْبِيهِ وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي
 الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانَ وَأَمَمَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفْتِيهِ . وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ
 بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ
 وَمَلَطِيَّةٍ إِلَى مَبِجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصَفِينٍ ثُمَّ بِالرِّقَّةِ ثُمَّ بِالْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ
 الَّتِي بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوَأَسِطٍ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَتَنْجَابُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ
 أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهَا أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ . وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدَأُهَا عَيْنٌ
 بِبِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْجَنُوبِ بِالْمُوصِلِ وَأَذْرَبِيحَانَ وَبَعْدَ ذَلِكَ
 إِلَى وَاسِطٍ فَتَنْفَرِقُ إِلَى خِلْجَانَ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْبَصْرَةِ وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارَسٍ وَهُوَ
 فِي الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ وَيَنْجَابُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا
 بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةٌ الْمُوصِلِ قِبَالَ الشَّامِ مِنْ عُدُوتِي الْفُرَاتِ وَقِبَالَ
 أَذْرَبِيحَانَ مِنْ عُدُوتِ دِجْلَةَ . وَأَمَّا نَهْرُ جَيْخُونَ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بَلْخِ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
 الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ عِيُونِ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ وَتَنْجَابُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عَظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ الْجَنُوبِ
 إِلَى الشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَّاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوَارِزْمَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
 الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ مَسِيرَةٌ شَهْرٍ فِي
 مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرَعَانَةَ وَالشَّاشِ الْآتِي مِنَ بِلَادِ التُّرْكِ وَعَلَى غَرْبِي نَهْرٍ جَيْخُونَ
 بِبِلَادِ خُرَّاسَانَ وَخُوَارِزْمَ وَعَلَى شَرْقِيهِ بِلَادُ بَخَارَى وَنُرْمُدُ وَسَمَرْقَنْدُ وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا
 وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرَعَانَةَ وَالْحَزَلِيَّةَ وَأَمَمَ الْأَعَاجِمِ وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِظُلْمِئِمْسٍ
 فِي كِتَابِيهِ وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ زَخَارٍ وَصَوَّرُوا فِي الْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ
 الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ وَأَسْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطَوْلِهِ وَلِأَنَّ عَيْنَانَا فِي
 الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ النَّبِيِّ وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ
 الْمَشْرِقِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمرا نأ من الربع الجنوبي

وذكر السبب في ذلك

وَمَعْنُ نَرَى بِالْمُشَاهِدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ
الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمُرَانَا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وَجِدَ مِنْ عُمُرَانِهِ فَيَتَحَلَّلُهُ الْخِلَاءُ وَالْفَقَارُ وَالرِّمَالُ
وَالْبَجَرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأَمُّ هَذَيْنِ الْأَقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيَهُمَا لَيْسَتْ لَهُمْ
الْكثَرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ وَالثَّلَاثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ
فَأَلْفَقَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرِّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأَمْمَهَا وَأَنَاسِيَهَا تَجُوزُ الْخُدَّ مِنَ الْكثَرَةِ
وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تَجُوزُ الْخُدَّ عِدَدًا وَالْعُمُرَانُ فِيهَا مَنْدَرَجٌ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالسَّادِسِ
وَالْجَنُوبُ خَلَايَا كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ
مِيلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلَنُوضِحَ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَبَيِّنُ مِنْهُ سَبَبَ كَثَرَةِ
الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ . فَنَقُولُ إِنَّ
قُطْبِي الْفَلَكَ الْجَنُوبِيِّ وَالشَّمَالِيِّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأَفْقِ فَمِنَاكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ
بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَكَارَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُسَمَّى دَائِرَةً مَعْدَلِ
النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى
الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يَحْرُكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاكِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ
وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ الْكَوْكَبَ فِي أَفْلَاكِهَا حَرَكَةً مُخَالَفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ
إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوْكَبِ فِي الشَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَتَمَرَّاتِ
هَذِهِ الْكَوْكَبِ فِي أَفْلَاكِهَا تُوَازِيهَا كَلِمًا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُ
بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكَ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِأَثْنِي عَشَرَ بُرْجًا وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ
مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مَعْدَلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ
الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مَعْدَلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنِ مَعْدَلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ
وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ
الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأَفْقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ

عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خَطُّ وَاحِدٌ يُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ الدَّغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ
 وَيُسَمَّى خَطَّ الْأَسْتَوَاءِ وَوَقَعَ هَذَا الْخَطُّ بِالرَّصَدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَأِ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ
 مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَالْعُمُرَانُ كَلَّةٌ فِي الْجَنَّةِ الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هَذَا الْعَمُورِ
 بِالْتَدْرِجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ أَرْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَهَذَا الْخَطُّ يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانَ
 وَهُوَ آخِرُ الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَإِذَا أَرْتَفَعَ عَلَى الْأَفْقِ سَعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ
 وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَلَى الْأَفْقِ وَبَقِيَ سِتَّةٌ مِنَ الْبُرُوجِ فَوْقَ الْأَفْقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ
 سَمَتْ الْأَفْقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ وَالْعِمَارَةُ فَمَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالسَّتِّينَ إِلَى السَّعِينَ مَمْنَعَةٌ لِأَنَّ
 الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حَرِيئِدًا لَا يَحْضَلَانِ مُتَرَجِّجِينَ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْضَلُ التَّكُونُ فَاذًا
 الشَّمْسُ تُسَمَّى الرَّؤُوسَ عَلَى خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ فِي رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ
 الْمُسَامَةِ إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانَ وَرَأْسِ الْجُدِيِّ وَيَكُونُ نِهَائِيَّةً مِيلًا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ
 النَّهَارِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا أَرْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْأَفْقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدَّلِ
 النَّهَارِ عَنِ سَمْتِ الرَّؤُوسِ بِمِقْدَارِ أَرْتِفَاعِهِ وَأَخْفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمِقْدَارِ
 مَيْسَاوٍ فِي الثَّلَاثَةِ وَهُوَ الْمَسْمُومِيُّ عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِيتِ عَرْضَ الْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ
 مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَنِ سَمْتِ الرَّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا
 إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانَ وَأَخْفَضَتْ الْبُرُوجَ الْجَنُوبِيَّةَ مِنَ الْأَفْقِ كَذَلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجُدِيِّ
 لِأَنَّهَا فِي الْجَنُوبِ فِي أَفْقِ الْأَسْتَوَاءِ كَمَا فَلَنَاهُ فَلَا يَزَالُ الْأَفْقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى
 يَصِيرَ أَعْبَدَ الشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ السَّرْطَانَ فِي سَمْتِ الرَّؤُوسِ وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ
 الْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي الْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهَذَا هُوَ الْمِيلُ الَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرْطَانَ
 عَنْ مُعَدَّلِ النَّهَارِ فِي أَفْقِ الْأَسْتَوَاءِ أَرْتَفَعَ بِأَرْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامَةً
 فَإِذَا أَرْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ نَزَلَتْ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ وَلَا تَزَالُ
 فِي الْأَخْفَاضِ إِلَى أَنْ يَكُونَ أَرْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ وَيَكُونُ الْأَخْفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ
 الْمُسَامَةِ كَذَلِكَ وَالْأَخْفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عَنِ الْأَفْقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ التَّكُونُ لِإِفْرَاطِ
 الْبَرْدِ وَالْحَمْدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُتَرَجِّجٍ بِالْحَرِّ ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا
 يَقَارِبُهَا تَبَعَتْ الْأَشْعَةَ قَائِمَةً وَفِيهَا دُونَ الْمُسَامَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ وَإِذَا كَانَتْ
 زَوَايَا الْأَشْعَةَ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوْءُ وَانْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرِجَةِ وَالْحَادَّةِ فَلِهَذَا يَكُونُ

الْحَرُّ عِنْدَ الْمَسَامَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ لِأَنَّ الصَّوْمَ سَبَبُ الْحَرِّ وَالسَّخِينِ
 ثُمَّ إِنَّ الْمَسَامَةَ فِي خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ عِنْدَ تَقَطُّبِي الْحَمَلِ
 وَالْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مِيلَيْهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرَطَانِ
 وَالْجُدِيِّ إِلَّا أَنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمَسَامَةِ فَتَبْقَى الْأَشْعَةُ الْقَائِمَةُ الزَّوَايَا تَلُحُّ عَلَى ذَلِكَ
 الْأَفْقِ وَيَطْوُلُ مُكْثَرًا أَوْ يَدُومُ فَيَسْتَعِلُّ الْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيَفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا
 دَامَتْ الشَّمْسُ نَسَامَتْ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنَّ
 الْأَشْعَةَ مُلْحَةً عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ يَقْرِبُ مِنَ الْحَاحِيهَا فِي خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ وَإِفْرَاطُ الْحَرِّ
 يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَجْنِيفًا وَيَسَا بَمَنْعٍ مِنَ التَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا افْرَطَ الْحَرُّ جَنَّتِ الْمِيَاهُ
 وَالرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ التَّكْوِينُ فِي الْمَعْدِنِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ إِذِ التَّكْوِينُ لَا يَكُونُ
 إِلَّا بِالرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنِ الرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ
 فَمَا بَعْدَهُ تَزَلَّتْ الشَّمْسُ عَنِ الْمَسَامَةِ فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الْإِعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مِيلًا
 قَلِيلًا فَيَكُونُ التَّكْوِينُ وَيَتَزَايِدُ عَلَى التَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَفْرِطَ الْبُرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقَلَّةِ
 الصَّوْمِ وَكَوْنِ الْأَشْعَةِ مَذْفُوجَةً الزَّوَايَا فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ بِيَدِ انْفِسَادِ التَّكْوِينِ
 مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبُرْدِ لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعَ تَأْثِيرًا فِي التَّجْنِيفِ
 مِنْ تَأْثِيرِ الْبُرْدِ فِي الْجَمْدِ فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ قَلِيلًا وَفِي
 الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِإِعْتِدَالِ الْحَرِّ بِنُقْصَانِ الصَّوْمِ وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ
 كَثِيرًا لِنُقْصَانِ الْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبُرْدِ لَا تَوَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا
 يَفْعَلُ الْحَرُّ إِذْ لَا تَجْنِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْضُ لَهَا حَيْثُ نَدِي مِنَ الْيَبَسِ كَمَا بَعْدَ
 السَّابِعِ فَلِذَا كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الرَّبْعِ السَّمَاوِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ
 الْحَكَمَاءُ خِلَافَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالشَّاهِدَةِ
 وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يَرِيدُوا امْتِنَاعَ
 الْعُمُرَانِ فِيهِ بِالْكَلِمَةِ إِنَّمَا أَدَّاهُمُ الْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فِسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ
 الْحَرِّ وَالْعُمُرَانُ فِيهِ إِمَّا مُسْتَبَعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقْوَمُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ خَطَّ الْأَسْتَوَاءِ وَالَّذِي
 وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمُرَانٌ كَمَا نَقِلُ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا . وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ
 الْأَسْتَوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ بِمِثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

عمر من هذا والذي قاله غير ممنوع من جهة فسار الكونين وإنما امتنع فيما وراء
 خط الاستواء في الجنوب من جهة أن الغنصر المائي عمر وجه الأرض هناك إلى
 الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للكونين ولما امتنع المعتدل لغيبة
 الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج وياخذ في التدرج من جهة الوجود لا من
 جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيردّه النقل المتواتر والله
 أعلم. وانزسّم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زخار ثم
 ناخذ في تفصيل الكلام عليهما إلى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة اقسام من
 الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليماً فانقسم المعمور من الأرض كله على
 هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها أخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول
 منها ما من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحدّه من جهة الجنوب وليس
 وراءه هناك إلا القفار والرّمال وبعض عمارة إن صحّت فهي كلاً عمارة ويكفيه من
 جهة شمالية الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع
 وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن
 ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن
 الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . ثم إن أزمينة
 الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار
 وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول
 الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي ليل
 وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر
 الإقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان
 وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها
 الشتوي برأس الجدي ويبقى للأفصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف
 من جملة أربع وعشرين الساعة الزمانية لجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وَكذلكَ فِي آخِرِ الْأَقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِمَّا بَلِي الشَّمَالِ أَيْضًا يَنْتَهِيانِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي
 آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ سَاعَةٍ وَفِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ
 سَاعَةً وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ وَإِلَى آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ
 عَشْرَةَ سَاعَةً وَهَذَاكَ يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ فِي الْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا
 وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ يَتَزَايَدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي
 نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُوزَعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هَذَا الْبُعْدِ . وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقْلِيمِ وَهُوَ
 عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ الْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ خَطِّ
 الْأَسْتِوَاءِ وَبِمِثْلِهِ سِوَاهُ يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ عَنْ أَفْقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَيَرْتَفِعُ الْقُطْبُ
 الشَّمَالِيُّ عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَبْعَادٍ مُتَسَاوِيَةٍ تُسَمَّى عَرْضُ الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ .
 وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذِهِ الْجِغَرَفِيَا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ السَّبْعَةِ فِي طُولِهِ
 مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَيَذَكُرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ
 جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ وَتَحْنُ
 الْأَنْ نُوجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَنَذَكُرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا
 وَنَحَازِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِّ الَّذِي أَلْفَهُ الْعَلَوِيُّ الْأَدْرِيسِيُّ الْحَمُودِيُّ
 إِمْلِكِ صِقْلِيَّةَ مِنَ الْأَيْفَرَنْجِ وَهُوَ زَخَارُ بْنُ زَخَارٍ عِنْدَ مَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقْلِيَّةَ بَعْدَ
 خُرُوجِ صِقْلِيَّةَ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةَ وَكَانَ تَأْلِيفَهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ
 وَجَمَعَ لَهُ كِتَابًا جَمَّةً لِلْمَسْعُودِيِّ وَأَبْنِ خَرْدَازِيهِ وَالْحَوْفَلِيِّ وَالْقَدْرِيِّ وَأَبْنِ إِسْحَاقَ
 الْمَنْجَمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرِهِمْ وَنَبَدَأُ مِنْهَا بِالْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى يَعِصَمُنَا بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ * وَنِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِيهِ الْجَزَائِرُ الْخَالِدَاتُ الَّتِي مِنْهَا بَدَأَ بَطْلِيمُوسُ
 بِأَخْذِ أَطْوَالَ الْبِلَادِ وَوَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ الْأَقْلِيمِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جُزْءٌ
 مُتَكَبِّرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا ثَلَاثٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنْ
 الْأَيْفَرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوَاسِطِ هَذِهِ الْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَغَنِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَّوْا وَبَاعُوا بَعْضَ
 أَسْرَاهُمْ بِسُوحِلِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا اللِّسَانَ
 الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ وَأَمْنِهِمْ يَحْفَرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرْعَةِ بِالْقُرُونِ وَأَنَّ

الْحَدِيدُ مَفْقُودٌ بَارِزُهُمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَاشِيَتُهُمُ الْمَعَزُ وَقِتَالُهُمْ بِالْحِجَارَةِ يَزْمُونَهَا
 إِلَى خَلْفِ وَعِبَادَتُهُمُ السُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَا تَبْلَغُهُمْ دَعْوَةٌ
 وَلَا يُؤَفِّقُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرُ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَفَرَ السُّنَنِ فِي الْبَحْرِ
 إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَّاحِ وَمَعْرِفَةُ جِهَاتِ مَهَابِهَا وَإِلَى أَيْنٍ يُوصَلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ مِنَ
 الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَمَرِ ذَلِكَ الْمَهَبِّ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُّ وَعُلِمَ حَيْثُ يُوصَلُ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ
 حُودِي بِهِ الْفُلُجُ مَحَادَاةً يَحْمِلُ السَّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَائِنٍ فِي ذَلِكَ نَحْصَلَةٌ عِنْدَ النَوَائِبِ
 وَالْمَلَاحِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ السُّنَنِ فِي الْبَحْرِ وَالْبِلَادِ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 وَفِي عُدُوتِهِ مَكْتُوبَةٌ كَلِمًا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا
 فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابُ الرِّيَّاحِ وَمَمَرَاتُهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ
 الصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا الْكَنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ
 الْخَاطِطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ السُّنُنُ لِأَنَّهَا إِنِ غَابَتْ عَنْ مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ
 إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوْهَرِ هَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَبْجَرَةِ الْمَمَانِعِ
 لِلْسُّنَنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الدَّنْعِكِسَةُ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ
 فَتَحْلَلُهَا فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْأَهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعِبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ
 هَذَا الْأَقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُ النَّيْلِ الْآتِي مِنْ مَبْدَأِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَسْمَى
 نَيْلَ السُّودَانَ وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْخَاطِطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أَوْلَيْكَ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ
 مَدِينَةٌ سَلَا وَتَكْرُورٌ وَعَانَةٌ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكٍ مَالِيٍّ مِنْ أُمَّةِ السُّودَانَ وَإِلَى
 بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تِجَارَةُ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِهَا بِلَادٌ لِمَتُونَةٍ وَسَائِرُ
 طَوَائِفِ الْمَشْرِيقِيِّينَ وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِي هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانَ يُقَالُ لَهُمْ
 الْمَلَمُّ وَهُمْ كُنَّازٌ وَيَكْتُمُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ عَانَةٍ وَالتَّكْرُورُ يُغِيرُونَ
 عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونُهُمْ وَيَبِعُونُهُمْ لِلتَّجَارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ عَامَّةٌ رَقِيقُهُمْ وَلَيْسَ
 وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عَمْرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنْاسِيٌّ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانَ الْعُجْمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُونُ
 الْفَيْفِيَّ وَالْكَهْوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَالْحَبُوبَ غَيْرَ مِهْيَاةٍ وَرَبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
 وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَآكِهِ بِلَادِ السُّودَانَ كَلِمًا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلُ
 تَوَاتٍ وَتَكَدَّرَارِينَ وَوُزْكَالَانَ . فَكَانَ فِي عَانَةٍ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ

يُعْرَفُونَ بِبَنِي صَالِحٍ وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ زَخَّارٍ إِنَّهُ صَالِحٌ بَنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
 الْحَسَنِ وَلَا يُعْرَفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وُلْدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةَ لِسُلْطَانِ مَالِي وَفِي شَرْفِي هَذَا الْبَلَدِ فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ بَلَدٌ
 كُوْكُو عَلَى نَهْرٍ يَنْسُجُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَاكَ وَيَمْرُ مَعْرَبًا فَيَعُوضُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي
 وَكَانَ مَلِكُ كُوْكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ
 وَخَرَبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذْرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ مَالِي فِي مَحَلِّهَا
 مِنْ تَارِيخِ الْبَرْبَرِ وَفِي جَنُوبِي بَلَدِ كُوْكُو بِلَادُ كَاتَمٍ مِنْ أُمَّمِ السُّودَانِ وَبَعْدَهُمْ وَنَغَارَةُ
 عَلَى ضِفَّةِ النَّيْلِ مِنْ شَمَالِيهِ وَفِي شَرْفِي بِلَادِ وَنَغَارَةُ وَكَاتَمِ بِلَادُ زَغَاوَةَ وَتَاجِرَةَ الْمُتَّصِلَةَ
 بِأَرْضِ النَّوْبَةِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِيهِ يَمْرُ نَيْلٍ مِصْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدَأِهِ
 عِنْدَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرَّومِيِّ فِي الشَّمَالِ وَمَخْرُجُ هَذَا النَّيْلِ مِنْ جِبَلِ الْقَمَرِ
 الَّذِي فَوْقَ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَاسْتَوَاءًا فِي ضَبْطِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَضَبَطَهَا
 بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْؤِهِ وَفِي
 كِتَابِ الْمُشْتَرِكِ لِيَأْقُوتِ بَضْمِ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ
 وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجِبَلِ عَشْرُ عِيُونٍ يَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بَحِيرَةٍ
 وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أَمْيَالٍ وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ يَجْتَمِعُ كُلُّهَا
 فِي بَطِيخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَسْفَلِهَا جِبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبَحِيرَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا
 بِقِسْمَيْنِ فَيَمْرُ الْعَرَبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُعْرَبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَيَخْرُجُ
 الشَّرْفِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحُبْشَةِ وَالنَّوْبَةِ وَفِيهَا بَيْنَهُمَا وَيَنْقَسِمُ فِي أَعْلَى
 أَرْضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةً مِنْ جَدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ عِنْدَ الْأِسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدِ
 وَدَمِيَاطٍ وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بَحِيرَةٍ مُلْحَةٌ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ فِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ
 الْأَوَّلِ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ النَّوْبَةِ وَالْحُبْشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ الْوَأَحَاتِ إِلَى أُسْوَانَ وَحَاضِرَةَ
 بِلَادِ النَّوْبَةِ مَدِينَةُ دَنْقَلَةَ وَهِيَ فِي غَرْبِي هَذَا النَّيْلِ وَبَعْدَهَا عَلَوَةُ وَبَلَاقُ وَبَعْدَهُمَا جِبَلُ
 الْجِنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاحِلٍ مِنْ بَلَاقٍ فِي الشَّمَالِ وَهُوَ جِبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ
 مِنْ جِهَةِ النَّوْبَةِ فَيَنْفُذُ فِيهِ النَّيْلُ وَيَصُبُّ فِي مَهْوِيٍّ بَعِيدٍ صَبًّا هَائِلًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ
 تَسْلُكَهُ الْمَرَآكِبُ بَلْ يَحُولُ الْوَسْقُ مِنْ مَرَآكِبِ السُّودَانِ فَيَحْمَلُ عَلَى الظُّهْرِ إِلَى بَلَدِ

أسوان فاعدة الصعيد إلى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة
 وأواحاح في غريبها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة. وفي وسط
 هذا الإقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد ياتي من وراء خط الاستواء
 ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهايط إلى مصر وقد وهم فيه كثير من
 الناس وزعموا أنه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه
 ليس من هذا النيل. وإلى وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس ينهي بحر الهند الذي
 يدخل من ناحية الصين ويعمر عامة هذا الإقليم إلى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه
 عمران إلا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي إلى ألف جزيرة
 أو فيما على سواحلها من جهة الشمال وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من
 بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن. وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما
 بين البحرين الهايطين من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال وهما بحر فلزم وبحر
 فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشجر في شرفها
 على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما كما نذكره في
 الإقليم الثاني وما بعده فأما الذي على ساحل هذا البحر من غريبه فبلد زالغ من
 أطراف بلاد الحبشة وبحالات البجة^(١) في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي
 الصعيد وبين بحر الفلزم الهايط من البحر الهندي وتحت بلاد زالغ من جهة الشمال
 في هذا الجزء خليج باب المندب يصبق البحر الهايط هناك بمزاحمة جبل المندب
 المائل في وسط البحر الهندي ممتداً مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في
 طول اثني عشر ميلاً فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال
 أو نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريباً
 من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودملك وقبائنه من غريبه بحالات البجة
 من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرفه في هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحله
 بلد علي بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلد زالغ وعلى ساحل هذا البحر من غريبه قري
 بربر يتلو بعضها بعضاً وينعطف من جنوبيه إلى آخر الجزء السادس ويليهما هناك من

(١) ويقال أيضاً اجاه واما زالغ فهي زبلع ١٠

جِهَةٌ شَرْقِيًّا بِلَادَ الزُّنَجِ ثُمَّ بِلَادَ سَفَالَةَ مِنْ سَاحِلِهِ الْجَنُوبِيِّ بِلَادَ الْوُفُوقِ مُتَّصِلَةً إِلَى
 آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْحَمِيطِ . وَأَمَّا
 جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ . مِنْ أَعْظَمِهَا جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبَ مَدُورَةٌ الشَّكْلِ . وَبِهَا
 الْجَبَلُ الْمَشْهُورُ يُقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ
 جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرَفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى
 أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالِي الصِّينِ وَيَحْتَفُّ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِهَا جَزَائِرُ الْوُفُوقِ
 وَمِنْ شَرْقِهَا جَزَائِرُ السِّيْلَانِ إِلَى جَزَائِرِ آخَرَ فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدِ وَفِيهَا أَنْوَاعُ
 الطَّيِّبِ وَالْأَفَاوِيهِ وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرُودِ وَعَامَةٌ أَهْلِهَا عَلَى دِينِ الْجَبُوسِيَّةِ
 وَفِيهِمْ مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْجَزَائِرُ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانَ عَجَائِبُ ذِكْرُهَا أَهْلُ الْجُغْرَافِيَا
 وَعَلَى الضَّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْيَمَنِ كُلُّهَا
 فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقَنْزُومِ بَلَدُ زَيْدٍ وَالْمَهْجَمِ وَتِهَامَةُ الْيَمَنِ وَبَعْدَهَا بَلَدُ صَعْدَةَ مَقَرِّ الْإِمَامَةِ
 الرَّيْدِيَّةِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَفِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ
 وَفِي شَمَالِهَا صَعَاءُ وَبَعْدُهَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَحْقَافِ وَظَفَّارَ وَبَعْدَهَا أَرْضُ
 حَضْرَمُوتَ ثُمَّ بِلَادُ الشَّحْرِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارَسَ . وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ هِيَ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْوُسْطَى وَيَنْكَشِفُ
 بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي بِلَادِ الصِّينِ وَمِنْ مَدِينَةِ
 الشَّهِيرَةِ خَانِكُو وَقِبَالَتُهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السِّيْلَانِ وَقَدْ نَقَدَمَ ذِكْرُهَا وَهَذَا آخِرُ
 الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِي التَّوْفِيقَ بِمَنْهِ وَفَضْلِهِ
 الْإِقْلِيمُ الثَّانِي * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَقِبَالَةُ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ
 الْحَمِيطِ جَزَيْرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْهُ
 فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنْوَرِيَّةَ وَبَعْدَهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ مَجَالَاتُ
 زَغَاوَةَ مِنَ السُّودَانِ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ نِسْتَرِ مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّرْقِ
 ذَاتُ مَفَاوِزَ تَسْلُكُ فِيهَا الشَّجَارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِلَادِ السُّودَانِ وَفِيهَا مَجَالَاتُ
 الْمَلْتَمِينَ مِنَ صَنْهَاجَةَ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ كَرْوَلَةَ وَلِمْتُونَةَ وَمَسْرَاتَةَ وَلِمَطَّةَ
 وَوَرِيكَةَ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فِرَّانَ ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَارَ مِنْ قِبَالِ

الزبر ذاهبة إلى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء الثالث
 وهي جهة الشمال منه بقية أرض وذان وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية وتسمى الواحات
 الداخلة وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباهويين ثم يعترض في وسط هذا
 الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبدإه في الإقليم الأول إلى مصبه في
 البحر فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل
 المقطم من شرقيه وعليه من أعلاه بلد أسنا وأزمنت ويتصل كذلك حافاته إلى
 أسبوط وقوص ثم إلى صول ويتفرق النيل هنالك على شعبين ينتهي الأيمن منهما في هذا
 الجزء عند الأهون ولأيسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر وفي الشرق من
 جبل المقطم صحارى عذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر السويس
 وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال وفي عدوته
 الشرقية من هذا الجزء أرض النجاز من جبل يلمم إلى بلاد يرب في وسط النجاز
 مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عذاب في العدو الغربية من هذا
 البحر وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش إلى
 عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض النجاز وعلى سمتها في الشرق
 بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبا ومأرب
 ثم أرض السحر وينتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي
 إلى الشمال كما مر ويذهب في هذا الجزء بالبحر إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه
 وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلات وهي ساحل السحر ثم تحتها على ساحله
 بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء وفي الجزء السابع في الأعلى من
 غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس ويعمر بحر الهند جانبه
 الأعلى كله وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوران وهي من
 السند أيضاً فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحوّل المفاوز بينه
 وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي
 في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقاً بلاد بلهرا وتحتها
 في الجانب الأسفل أرض كابل وبعدها شرقاً إلى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين

قَسْمِيرَ الدَّاخلَةِ وَقَسْمِيرَ الخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الإِقليمِ وَفِي الجُزءِ التَّاسِعِ ثُمَّ فِي الجَانِبِ
الغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ الهِنْدِ الأَقْصَى وَبِتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الجَانِبِ الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى
العَاشِرِ وَتَبْقَى فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِيهَا مَدِينَةٌ شِعُونَ ثُمَّ تَنْتَهِلُ
بِلَادَ الصِّينِ فِي الجُزءِ العَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى البَحْرِ المُحيطِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِهِ سُبْحَانَهُ
التَّوْفِيقُ وَهُوَ وَلِيُّ الفَضْلِ وَالكَرَمِ

الإِقليمُ الثَّلَاثُ * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي الجُزءِ الأوَّلِ مِنْهُ وَعَلَى
نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنٌ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ عِنْدَ البَحْرِ المُحيطِ إِلَى الشَّرْقِ
عِنْدَ آخِرِهِ وَيَسْتَكُنُّ هَذَا الجَبَلُ مِنَ البَرَبْرِ أُمَّمٌ لَا يُخْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسْبَمَا يَأْتِي
ذِكْرُهُ وَفِي القِطْعَةِ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الجَبَلِ وَالإِقليمِ الثَّانِي وَعَلَى البَحْرِ المُحيطِ مِنْهَا رِبَاطُ
مَاسَةَ وَبِتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سُوسٍ وَنَوَلٌ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرَعَةَ ثُمَّ بِلَادُ سِجْلَمَاسَةَ
ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَحْرَاءِ نِسْتَرِ المَقَارَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا فِي الإِقليمِ الثَّانِي وَهَذَا الجَبَلُ مُطَّلٌ
عَلَى هَذِهِ البِلَادِ كُلِّهَا فِي هَذَا الجُزءِ وَهُوَ قَلِيلٌ الثَّنَائِيَا وَالْمَسَالِكُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ الغَرْبِيَّةِ
إِلَى أَنْ يُسَامَتِ وادي مَلَوِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَائِيَاهُ وَمَسَالِكُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ
مِنْهُ أُمَّمٌ المَصَامِدَةُ ثُمَّ هِنْتَانَةُ ثُمَّ تَيْنَمَلَكُ ثُمَّ كَدَمِيوَةٌ ثُمَّ مَشْكُورَةٌ وَهِيَ آخِرُ المَصَامِدَةِ
فِيهِ ثُمَّ قِبَائِلُ صِنهَاكَةَ وَهِيَ صِنهَاجَةٌ وَفِي آخِرِ هَذَا الجُزءِ مِنْهُ بَعْضُ قِبَائِلِ زَنَانَةَ وَبِتَّصِلُ
بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيهِ جَبَلُ أُوْرَاسٍ وَهُوَ جَبَلٌ كَتَامَةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُمَّمٌ أُخْرَى مِنَ البَرَابِرَةِ
نَدَّ كُرْهُمُ فِي أَمَاكِيهِمْ ثُمَّ إِنْ جَبَلٌ دَرَنٌ هَذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِيهِ مُطَّلٌ عَلَى بِلَادِ المَغْرِبِ
الأَقْصَى وَهِيَ فِي جَوْفِيهِ فِي النَّاحِيَةِ الجُنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَكَشَ وَأَعْمَاتُ وَتَادَلَا وَعَلَى
البَحْرِ المُحيطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْفَى وَمَدِينَةُ سَلَا وَفِي الجُوفِ عَنَ بِلَادِ مَرَكَشَ بِلَادُ فَاسٍ
وَمَكْنَسَةَ وَتَاوَا وَقَصْرُ كَتَامَةَ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى المَغْرِبَ الأَقْصَى فِي عَرَفِ أَهْلِهَا
وَعَلَى سَاحِلِ البَحْرِ المُحيطِ مِنْهَا بِلْدَانُ أُصَيْلَا وَالْعَرَايشُ وَفِي سَمْتِ هَذِهِ البِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ
المَغْرِبِ الأَوْسَطِ وَقَاعِدَتُهَا تَلْمَسَانُ وَفِي سَوَاحِلِهَا عَلَى البَحْرِ الرُّومِيِّ بِلْدُ هِنِينَ وَوَهْرَانُ
وَالجُزَائِرُ لِأَنَّ هَذَا البَحْرَ الرُّومِيَّ يُخْرُجُ مِنَ البَحْرِ المُحيطِ مِنْ خَلِيجِ طَنْجَةَ فِي النَّاحِيَةِ
الغَرْبِيَّةِ مِنَ الإِقليمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُشْرَقًا فَيَنْتَهِيَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنَ
الْخَلِيجِ المُتَضَائِقِ غَيْرَ بَعِيدٍ انْفَسَجَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الإِقليمِ الثَّلَاثِ وَالخَامِسِ

فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثُ الْكَثِيرُ مِنْ بِلَادِهِ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلَادِ
 الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْفِهَا بِلَادُ بَجَايَةِ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسْطَنْطِينِيَّةُ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا وَفِي آخِرِ
 الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَعَلَى مَرْحَلَةٍ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَمُرْتَفَعًا إِلَى جَنُوبِ
 الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بَلَدٌ أَشِيرٌ ثُمَّ بَلَدُ الْمَسِيلَةِ ثُمَّ الزَّابُ وَقَاعِدَتُهُ بِسُكْرَةَ تَحْتَ جَبَلِ أُوْرَاسَ
 الْمَتَّصِلِ بِدَرَنْ كَمَا مَرَّ وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ
 هَذَا الْإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنْ عَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِبًا فِيهِ
 مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقَطْعَتَيْنِ وَيَعْمُرُ الْبَحْرُ الرُّومِيَّ مَسَافَةً مِنْ شِمَالِهِ فَالْقِطْعَةُ
 الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ غَرْبُهَا كُلُّهُ مَنَازِلُ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدٌ عُدَامِسُ وَفِي سَمْتِهَا شَرْفًا
 أَرْضُ وَدَانَ الَّتِي بَقِيَّتْهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي كَمَا مَرَّ وَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ مَا
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْغَرْبِ مِنْهَا جَبَلُ أُوْرَاسَ وَتَسَّةُ وَالْأَوْبَسُ وَعَلَى سَاحِلِ
 الْبَحْرِ بَلَدٌ بُونَةُ ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْفًا بِلَادُ أْفْرِيقِيَّةَ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ
 تُونِسَ ثُمَّ السُّوسَةُ ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنْ بِلَادُ الْجُرِيدِ
 تَوَزُرُ وَقَفْصَةُ وَنَفْرَاوَةُ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ السُّوَاكِلِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ وَجَبَلٌ وَسَلَاتٌ وَسَيْطِلَةُ
 وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا شَرْفًا بَلَدٌ طَرَابُلُسُ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَبِأَرْضِهَا فِي الْجَنُوبِ
 جَبَلٌ دُمُرٌ وَتَقْرَةُ مِنْ قَبَائِلِ هَوَاةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ وَفِي مُقَابَلَةِ عُدَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذَكَرُهَا
 فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيقَةُ ابْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ
 وَفِي جَنُوبِهَا بَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَانَ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ يَمْرُأٌ يَصُغَّرُ
 فِيهِ جَبَلُ دَرَنْ إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ
 فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنَاكَ طَرْفَ أُوتَانَ وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شِمَالِهِ يَعْمُرُ طَائِفَةً
 مِنْهُ إِلَى أَنْ يَضَاقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ
 مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَانَ وَبَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ثُمَّ زَوِيلَةُ ابْنِ خَطَّابٍ ثُمَّ رِمَالٌ وَقِفَارٌ إِلَى
 آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْغَرْبِ مِنْهُ بَلَدٌ سَرْتٌ عَلَى الْبَحْرِ ثُمَّ
 خَلَاةٌ وَقِفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ ثُمَّ أَجْدَابِيَّةٌ ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ مُنْعَطِفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلْمَسَةُ عَلَى
 الْبَحْرِ هُنَاكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطِفِ مِنَ الْجَبَلِ بَجَالَاتٌ هَيْبٌ وَرُوحَاةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِهِ صَحَارَى بَرْفِيْقٍ وَأَسْفَلُ مِنْهَا

بلادُ هَيْبٍ وَرَوَاحَةَ ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ فِي هَذَا الْجُزْءِ فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ
 حَتَّى يَزَاحِمَ طَرَفَهُ الْأَعْلَى وَيَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قِفَارٌ مُجُولٌ فِيهَا الْعَرَبُ وَعَلَى سَمْتِهَا
 شَرْقًا بِلَادُ الْقَيْومِ وَهِيَ عَلَى مَصَبِ أَحَدِ الشَّعْبَيْنِ مِنَ النَّيْلِ الَّذِي يَمُرُّ عَلَى الْأَهْوَانِ مِنْ
 بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الثَّانِي وَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ قَيْومٍ وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا
 أَرْضُ مِصْرَ وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشَّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدِلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَيَفْتَرِقُ هَذَا الشَّعْبُ اقْتِرَافَةً ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شِعْبَيْنِ
 آخَرَيْنِ مِنْ شَطْنُوفٍ وَزَفِّي وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قَوْمِ بَشْعَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُبُّ
 جَمِيعًا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فَعَلَى مَصَبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ بَلَدُ الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَعَلَى
 مَصَبِ الْوَسْطِيِّ بَلَدُ رَشِيدٍ وَعَلَى مَصَبِ الشَّرْقِيِّ بَلَدُ دِمِيَاطٍ وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ وَبَيْنَ
 هَذِهِ السَّوَاخِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كَثِيرًا مَحْشُورَةٌ عُمُرَانًا وَقَلِحًا وَفِي الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَحْرَ الْقَلْزَمِ
 يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ لِأَنَّهُ فِي مَمَرِهِ مُبْتَدِيٌّ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ
 إِلَى الشَّمَالِ يَنْعَطِفُ أَخِذًا إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ فَيَكُونُ قِطْعَةً مِنْ أَنْعَاطِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ
 طَوِيلَةً فَيَنْتَهِي فِي الطَّرَفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ
 فَارَانٌ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَدِينِةٍ تَمَّ الْحُورَاءُ فِي آخِرِهَا وَمِنْ هُنَاكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ
 إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْأَقْلِيمِ الثَّانِي فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي
 النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ غَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرْبِيَّةِ
 عَالِمِهَا الْفَرَمَا وَالْعَرِيشَ وَقَارَبَ طَرَفَهَا بَلَدُ الْقَلْزَمِ فَيَضَاقُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَاكَ وَيَبْقَى شِبْهُ
 الْبَابِ مُضْضِيًّا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَفِي غَرْبِيَّةِ هَذَا الْبَابِ فَحْصُ الْتَيْهِ أَرْضٌ جَرْدَاءٌ لَا تَنْبُتُ
 كَانَتْ بِجَلَالِ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ
 سَنَةً كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ
 جَزِيرَةِ قُبْرُصَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا نَذَرْتُهَا وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ
 الطَّرَفِ الْمُتَضَاقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَعَسْقَلَانُ
 وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ ثُمَّ تَحْطُ هَذِهِ الْقِطْعَةُ فِي أَنْعَاطِهَا مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْأَقْلِيمِ
 الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلسَ وَعَرَّزَةَ وَهُنَاكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَعَلَى هَذِهِ

الْقِطْعَةَ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي شَرْقِهِ غَزَّةٌ ثُمَّ عَسْقَلَانُ وَبِأَنْحِرَافٍ يَسِيرٍ عَنْهَا إِلَى
 الشَّمَالِ بَلَدٌ قِبَسَارِيَّةٌ ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدٌ عَكَاةٌ ثُمَّ صُورٌ ثُمَّ صَيْدَاءُ ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّمَالِ
 فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ
 عَظِيمٌ يُخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنَ بَحْرِ الْقَزُومِ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ
 إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلِ اللَّكَّامِ وَكَانَهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ
 فِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ الْعَقْبَةَ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحِجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي
 نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مَدِينُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ
 جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَدْكُورِ مِنْ شَمَالِ الْعَقْبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي
 شَرْقِهِ هُنَاكَ بَلَدُ الْحَجْرِ وَدِيَارُ نَمُودٍ وَتِمَاءُ وَدَوْمَةُ الْجُنْدَلِ وَهِيَ أَسْفَلُ الْحِجَازِ وَفَوْقَهَا
 جَبَلُ رِضْوَى وَحِصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَزُومِ
 صَخْرَاهُ تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ اللَّكَّامِ ثُمَّ الْأُرْدُنُّ ثُمَّ
 طَبْرِيَّةٌ وَفِي شَرْقِيهَا بِلَادُ الْغُورِ إِلَى أَدْرَعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا دَوْمَةُ الْجُنْدَلِ آخِرُ هَذَا
 الْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ الْحِجَازِ . وَعِنْدَ نَعَطْفِ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ
 مَدِينَةُ دِمَشْقُ مُقَابِلَةَ صَيْدَاءَ وَبَيْرُوتُ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ اللَّكَّامِ يَعْضُرُ بَيْنَهَا
 وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكْ ثُمَّ مَدِينَةُ حَمَصَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرُ
 الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ جَبَلِ اللَّكَّامِ وَفِي الشَّرْقِ عَنِ بَعْلَبَكْ وَحَمَصَ بَلَدٌ تَدْمُرُ وَبَجَالَاتُ
 الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ بَجَالَاتُ الْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدِ
 وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعُرْجِ وَالصَّمَانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرٌ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا
 هَذَا الْجُزْءِ تَحْتَ الْبَجَالَاتِ بَلَدُ الْحَيْرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَابِضُ الْفُرَاتِ . وَفِيمَا بَعْدَهَا شَرْقًا
 مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عَبَادَانَ وَالْأَبْلَةَ مِنْ أَسْفَلِ الْجُزْءِ
 مِنْ شَمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عَبَادَانَ نَهْرٌ رِجَالَةٌ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِمَجْدُولٍ كَثِيرَةٍ وَتَخْلُطُ
 بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرَاتِ ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهَذِهِ
 الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَّسِعَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَضَاقِقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِيهِ وَضِيقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ
 مُضَاقِقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى عُدُوتِهَا الْغَرِيبِيَّةُ مِنْهُ أَسْفَلُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرٌ وَالْإِحْسَاءُ وَفِي
 غَرْبِهَا أَخْطَبُ وَالصَّمَانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ

أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقاً
 ووراءه إلى الجنوب في هذا الجزء جبال الفئص من كرمان وتحت هرنز بلاد فارس
 مثل سابور ودارا بجزد ونسا وإصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد
 فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الأهواز وتستر وصدى وسابور
 والسوس ورام هرنز وغيرها وأرجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان جبال الأكراد
 متصله إلى نواحي أصهبان وبها مساكنهم وبجالاتهم ووراءها في أرض فارس وتسمى
 الرسوم وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال الفئص ويليها من
 الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودن والشيرجان وجيرفت ويزد شير
 والبهرج وتحت أرض كرمان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصهبان ومدينة
 أصهبان في طرف هذا الجزء ما بين غزبه وشماله ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد
 فارس أرض سجستان وكوهستان في الجنوب وأرض كوهستان في الشمال غرباً ويتوسط
 بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان وفي وسط هذا الجزء الفاوز العظمى
 القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست والطاق وأما كوهستان فهي من بلاد
 خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء وفي الجزء الثامن من غزبه
 وجنوبه بجالات النجف من أمم الترك متصله بأرض سجستان من غزبها وأرض كابل
 الهند من جنوبها وفي الشمال عن هذه الجبال جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزبه
 فرضة الهند وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباد ثم في الشمال غرباً إلى آخر
 الجزء بلاد هرات وأوسط خراسان وبها أسفراين وقاشان وبوشنج ومرؤ الروذ والطالقان
 والجوزجان وتنهي خراسان هنالك إلى نهر جيحون وعلى هذا النهر من بلاد خراسان
 من غزبه مدينة بلخ وفي شرقيه مدينة ترمذ ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك
 وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وجار في حدود بدخشان مما يلي الهند ويخرج
 من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغرباً إلى وسط الجزء
 ويسمى هنالك نهر خرئاب ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمتهِ
 إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الأقليم الخامس كما نذكره ويمده عند انعطافه
 في وسط الجزء من الجنوب إلى الشمال خمسة أشهر عظيمه من بلاد الختل وأونش

مِنْ شَرْفِيهِ وَأَنْهَارُ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مِنْ شَرْفِيهِ أَيْضًا وَجَوْفِي الْجِبَلِ حَتَّى يَتَسَعَ
 وَيَعْظُمُ بِمَا لَا كِنَاءَ لَهُ وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمَمْدُودَةِ نَهْرٌ وَخَشَابٌ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ
 التَّبْتِ وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ مَغْرِبًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى
 أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ يَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ
 يَمُرُّ مِنْ وَسَطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ مُشْرِقًا بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى
 الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبْتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَعُولُ بَيْنَ التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخُتَلِ وَلا يَسُفُّ فِيهِ إِلَّا سَمَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسَطِ
 الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَعَلَ فِيهِ الْفُضْلُ بْنُ يَعْجَى سُدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدٌ بِأَجْرَجٍ وَمَأْجُوجٌ
 فَإِذَا خَرَجَ نَهْرٌ وَخَشَابٌ مِنْ بِلَادِ التَّبْتِ وَاعْتَرَضَهُ هَذَا الْجِبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدَى بَعِيدٍ
 إِلَى أَنْ يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوُخْشِ وَيَصُبُّ فِي نَهْرِ جَيْمُونٍ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخِ ثُمَّ يَمُرُّ هَاطِطًا
 إِلَى التُّرْمُذِ فِي الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ وَفِي الشَّرْقِ عَنِ بِلَادِ الْغُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ
 نَهْرِ جَيْمُونٍ بِلَادُ النَّاسَانِ مِنْ خُرَّاسَانَ وَفِي الْعُدُوتِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَاكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ الْخُتَلِ
 وَكَثْرَتُهَا جِبَالٌ وَبِلَادُ الْوُخْشِ وَيُحْدِثُهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جِبَالُ الْبَتَمِ تَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ
 خُرَّاسَانَ غَرْبِي نَهْرِ جَيْمُونٍ وَتَذْهَبُ مُشْرِقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا بِالْجِبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي
 خَلَقَهُ بِلَادُ التَّبْتِ وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ كَمَا قُلْنَا هُوَ يَتَّصِلُ عِنْدَ بَابِ الْفُضْلِ بْنِ يَعْجَى
 وَيَمُرُّ نَهْرٌ جَيْمُونٍ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَأَنْهَارُ أُخْرَى تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ الْوُخْشِ يَصُبُّ
 فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التُّرْمُذِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَنَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مَبْدَأُهُ عِنْدَ
 الْجُوزْجَانِ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ أَمِدٍ مِنْ خُرَّاسَانَ وَفِي
 شَرْفِي النَّهْرِ مِنْ هُنَاكَ أَرْضُ الصَّغْدِ وَأَسْرُوشَنَةُ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَفِي شَرْفِيهَا أَرْضُ
 فِرْغَانَةَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ بِلَادِ التُّرْكِ تَمُوزُهَا جِبَالُ الْبَتَمِ إِلَى شَمَالِهَا وَفِي
 الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ التَّبْتِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ وَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَفِي
 شَرْفِيهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ شَمَالًا عَنِ بِلَادِ التَّبْتِ بِلَادُ
 الْخَزْجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِهَا أَرْضُ
 فِرْغَانَةَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَمِنْ شَرْفِيهَا أَرْضُ التَّغْرُغْرِ مِنَ التُّرْكِ إِلَى الْجُزْءِ شَرْقًا
 وَشَمَالًا . وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعًا بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسْفَلُهُ وَفِي الشَّمَالِ بَقِيَّةُ

بلاد التفرغ ثم شرقاً عنهم بلاد خرخير من الترك أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً وفي
 الشمال من أرض خرخير بلاد كتمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة
 الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه إليها ولا مسالك والصعود إلى أعلاه من
 خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل
 تلك الناحية بما يلهمهم الله إليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما
 وراء خراسان والجمبال كلها بحالات للترك أم لا تحصى وهم ظواغن رحالة أهل ابل
 وشاء وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم إلا
 خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويعزون الكفار منهم الدائنين
 بالحبوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان والهند والعراق
 الأقليم الرابع * يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الأول منه في غربيه
 قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوباً إلى آخره شمالاً وعليها في الجنوب
 مدينة طنجة ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي في خليج
 متضيق بمقدار اثني عشر ميلاً ما بين طرف وجزيرة الخضراء شمالاً وقصر النجاش
 وسبته جنوباً ويذهب مشرقاً إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الأقليم
 وينفسح في ذهابه بتدرج إلى أن يعمر الأربعة الأجزاء وأكثر الخامس من هذا
 الأقليم الثالث والخامس كما سند كره ويسمى هذا البحر الشامي أيضاً وفيه
 جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم ما يرفه ثم مرفقة ثم سردانية ثم صقلية
 وهي أعظمها ثم بلونس ثم أقرطس ثم قبرص كما ندكرها كلها في أجزاءها التي وقعت
 فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من
 الأقليم الخامس خليج البنادقة يذهب إلى ناحية الشمال ثم يتعطف عند وسط الجزء
 من جوفه ويمر مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج منه أيضاً في
 آخر الجزء الرابع شرقاً من الأقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال
 متضيقاً في عرض رمية السهم إلى آخر الأقليم ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الأقليم
 السادس ويتعطف إلى بحر نبطس ذاهباً إلى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف
 السادس من الأقليم السادس كما ندكر ذلك في أماكنه وعند ما يخرج هذا البحر

الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةَ وَيَنْسَحُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْأَلْتِ بَقِيَّ فِي الْجَنُوبِ
عَنْ الْخَلِيجِ قِطْعَةً صَغِيرَةً مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةٌ طَنْجَةَ عَلَى جَمْعِ الْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا
مَدِينَةٌ سَبْتَةٌ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوْنُ ثُمَّ بَادَيْسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هَذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ
شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّلَاثِ وَكَثُرَ الْعِمَارَةُ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شِمَالِهِ وَشَمَالَ الْخَلِيجِ مِنْهُ
وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ أَوْلَاهَا طَرِيفُ
عِنْدَ جَمْعِ الْبَحْرَيْنِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ ثُمَّ
مَالِقَةٌ ثُمَّ الْمَنْقَبُ ثُمَّ الْمَرْيَةَ وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ
شَرِيشُ ثُمَّ كَبَلَةٌ وَقِبَالَتُهَا فِيهِ جَزِيرَةٌ فَادَسَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشَ وَكَبَلَةَ إِشْبِيلِيَّةٌ ثُمَّ
أَسْتَجَةٌ وَقَرْطُبَةٌ وَمَدِيلَةٌ ثُمَّ غَرْنَاطَةٌ وَجِيَانٌ وَابْدَةٌ ثُمَّ وَاْدِيَاشُ وَبَسْطَةٌ وَتَحْتَ هَذِهِ
شَنْتَمَرِيَّةٌ وَشَابُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَفِي الشَّرْقِ عَنْهُمَا بَطَايُوسُ وَمَارِدَةٌ وَيَابِرَةٌ
ثُمَّ غَافِقُ وَبَرْجَالَةٌ ثُمَّ قَاعَةٌ رِيَاخُ وَتَحْتَ هَذِهِ أَشْبُونَةٌ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ
بَاجَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينُ وَمَوْزِيَّةٌ عَلَى النَّهْرِ الْمَذْكَورِ ثُمَّ فَنْطَرَةُ السِّيفِ وَيَسَامَتْ
أَشْبُونَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَبَلُ الشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ الْمَغْرِبِ هُنَاكَ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا مَعَ
آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ شِمَالِهِ فَيَنْتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ فِيمَا بَعْدَ النِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هَذَا الْجَبَلِ
طَلْبِيرَةٌ فِي الشَّرْقِ مِنْ فُورَنَةٍ ثُمَّ طَلِبَالَةٌ ثُمَّ وَاْدِيِ الْحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ
هَذَا الْجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةَ بَلَدُ قَلْمَرِيَّةٍ وَهَذِهِ غَرْبِيَّ الْأَنْدَلُسِ . وَأَمَّا شَرْقِيَّ الْأَنْدَلُسِ
فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْهَا بَعْدَ الْمَرْيَةِ قَرْطَاجِنَةٌ ثُمَّ لَفْتَةٌ ثُمَّ دَانِيَّةٌ ثُمَّ بَلَنْسِيَّةٌ إِلَى
طَرْطُوشَةَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَتَحْتَهَا شِمَالًا لِيُورَقَةُ وَشَقُورَةُ نَتَاخِمَانَ بَسْطَةٌ وَقَاعَةُ رِيَاخُ
مِنْ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ مَرْسِيَّةٌ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِبَةٌ تَحْتَ بَلَنْسِيَّةَ شِمَالًا ثُمَّ شَقْرُ ثُمَّ طَرْطُوشَةُ
ثُمَّ طَرْكُونَةُ آخِرِ الْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شِمَالًا أَرْضُ مُنْجَالَةٍ وَرِيدَةٌ مُتَاخِمَانَ لَشَقُورَةَ
وَطَلِبَالَةَ مِنَ الْغَرْبِ ثُمَّ أَفْرَاعَةُ شَرْقًا تَحْتَ طَرْطُوشَةَ وَشِمَالًا عَنْهَا ثُمَّ فِي الشَّرْقِ عَنْ مَدِينَةِ
سَالِمٍ قَاعَةُ أَيُوبِ ثُمَّ سَرْقِطَةَ ثُمَّ لَارِدَةَ آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشِمَالًا . وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا
الْإِقْلِيمِ غَمْرُ الْمَاءِ جَمِيعُهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ الْبُرْنَاتِ وَمَعْنَاهُ
جَبَلُ الثَّنَائِيَا وَالسَّلَاكِ يُخْرَجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخُمَاسِ يَبْدَأُ مِنَ
الْطَّرْفِ الْمُنتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عِنْدَ ذَلِكَ الْجُزْءِ جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ

بأخراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى
هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثماياها إلى البر المتصل وتسمى أرض
عشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة
مدينة برسولونه ثم أربونة وفي هذا البحر الذي عمر الجزء جزائر كثيرة والكثير
منها غير مسكون لصغرها ففي غزيبه جزيرة سردانية وفي شرفيه جزيرة صقلية متسعة
الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرفوسة
وبلزم وطرايعه ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيها بينهما جزيرة
أعدوش ومالطة والجزء الثالث من هذا الإقليم معمور أيضاً بالبحر إلا ثلاث قطع
من ناحية الشمال الغربية منها أرض فلورية والوسطى من أرض أبكيدة والشرقية
من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الإقليم معمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره
كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية
الغربية الشمالية وجزيرة أفرطس مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق
منه والجزء الخامس من هذا الإقليم عمر البحر منه مائة كبيرة بين الجنوب والغرب
ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى
نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمد الشمالي
منها إلى الغرب منقطعاً مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام
ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف
من هنالك ذاهباً إلى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن
هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى
جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى
أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال
وبين هذه الجبال ثمايا تسمى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن وفي هذا الجزء
قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها
أسافل الشام وإن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من
الجنوب إلى الشمال فعلى ساحل البحر بلد أنطروتوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة

لِعَزَّةَ وَطَرَابُلسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ فِي شَمَالِ أَنْطَرطُوسَ جَبَلَةٌ ثُمَّ اللَّادِقِيَّةُ
ثُمَّ إِسْكَندَرُونَةُ ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالًا بِلَادُ الرُّومِ وَأَمَّا جَبَلُ الْأَكْكَامِ الْمَعْتَرِضُ
بَيْنَ الْبَحْرِ وَآخِرِ الْجُزْءِ بِحَافَاتِهِ فَيَصَاقِبُهُ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ مِنْ أَعْلَى الْجُزْءِ جَنُوبًا مِنْ غَرْبِيَّةِ
حَضْنِ الْحَوَانِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَيَعْرِفُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْفِدَاوِيَّةِ وَيُسَمَّى مَصِيَّاتٍ
وَهُوَ قِبَالَةُ أَنْطَرطُوسَ وَقِبَالَةُ هَذَا الْحَضْنِ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ بَلَدٌ سَلْمِيَّةٌ فِي الشَّمَالِ عَنِ
حَمصَ وَفِي الشَّمَالِ وَفِي مَصِيَّاتٍ بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ بَلَدٌ أَنْطَاكِيَّةٌ وَيُقَالُ بِهَا فِي شَرْقِ الْجَبَلِ
الْمَعْرَةَ وَفِي شَرْفِهَا الْمَرَاغَةَ وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَّةِ الْمَصِيصَةَ ثُمَّ أَذَنَةٌ ثُمَّ طَرَسُوسُ آخِرُ
الشَّامِ وَيَحَازِيهَا مِنْ غَرْبِ الْجَبَلِ قَتْسَرِينَ ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ وَقِبَالَةُ قَتْسَرِينَ فِي شَرْقِ
الْجَبَلِ حَلْبُ وَيُقَابِلُ عَيْنَ زُرْبَةَ مَنبِجُ آخِرِ الشَّامِ . وَأَمَّا الدَّرُوبُ فَعَنْ يَمِينِهَا مَا
بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بِلَادُ الرُّومِ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ لِلتُّرْكَمَانَ وَسُلْطَانِهَا
أَبْنُ عُثْمَانَ وَفِي سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْهَا بَلَدٌ أَنْطَاكِيَّةٌ وَالْعَلَايَا . وَأَمَّا بِلَادُ الْأَرَمَنِ الَّتِي بَيْنَ
جَبَلِ الدَّرُوبِ وَجَبَلِ السَّلْسِلَةِ فَفِيهَا بَلَدٌ مَرْعَشُ وَمَلَطِيَّةٌ وَالْمَعْرَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ
وَيَخْرُجُ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ فِي بِلَادِ الْأَرَمَنِ نَهْرٌ جِيحَانُ وَنَهْرٌ سِيحَانُ فِي شَرْقِيَّةِ فَيَمُرُّ بِهَا
جِيحَانُ جَنُوبًا حَتَّى يَتَجَاوَزَ الدَّرُوبَ ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ ثُمَّ بِالْمَصِيصَةِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ هَاطِطًا
إِلَى الشَّمَالِ وَمُغْرَبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةِ وَيَمُرُّ نَهْرٌ سِيحَانُ
مُؤَاذِيًا لِنَهْرِ جِيحَانٍ فَيَحَازِي الْمَعْرَةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ الدَّرُوبِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ
ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ وَيَجُودُ عَنْ نَهْرِ جِيحَانٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ مُغْرَبًا فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ
جِيحَانٍ عِنْدَ الْمَصِيصَةِ وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادُ الْجُزَيْرَةِ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا مَنعَطُفُ جَبَلِ الْأَكْكَامِ
إِلَى جَبَلِ السَّلْسِلَةِ فَفِي جَنُوبِهَا بَلَدُ الرَّافِضَةِ وَالرَّقَّةُ ثُمَّ حُرَّانُ ثُمَّ سَرُوجُ وَالرَّهَاءُ ثُمَّ نَصِيبِينَ
ثُمَّ سَمِيَسَاطُ وَأَمْدٌ تَحْتَ جَبَلِ السَّلْسِلَةِ وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شِمَالِهِ وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ
شَرْقِيَّةِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ نَهْرُ الْفُرَاتِ وَنَهْرٌ دِجَلَةٌ يَخْرُجَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ وَيَمْرَانِ فِي بِلَادِ الْأَرَمَنِ جَنُوبًا إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلِ السَّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ الْفُرَاتِ
مِنْ غَرْبِيَّةِ سَمِيَسَاطُ وَسَرُوجُ وَيَعْرِفُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الرَّافِضَةِ وَالرَّقَّةِ وَيَخْرُجُ
إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجَلَةٌ فِي شَرْقِ أَمْدٍ وَيَنْعَطِفُ قَرِيبًا إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيبًا
إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيَّةِ بِلَادُ الْجُزَيْرَةِ وَفِي

الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى قُرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ
 مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَاكَ جَبَلٌ أَصْبَهَانَ هَابِطًا مِنْ جَنُوبِ الْجُزْءِ مُنْحَرِفًا إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا
 أَنْتَهَى إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغْرِبًا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ
 السَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السَّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ
 بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فِي الْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِهَا تَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنَ الْخَامِسِ وَفِي شَمَالِهَا
 تَخْرُجُ دِجْلَةٌ مِنْهُ أَمَّا الْفُرَاتُ فَأَوَّلُ مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْفَيْسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ
 هُنَاكَ جَدُولٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ
 قَرْفَيْسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ
 مِنْهُ جَدَاوِلٌ مِنْ هُنَاكَ يَمُرُّ جَنُوبًا وَيَبْقَى صَفَيْنِ فِي غَرْبِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقًا وَيَنْقَسِمُ
 بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هَبِيرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعًا فِي
 جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثُ فَيَغُوصُ هُنَاكَ فِي شَرْقِ الْحَيْرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ
 الْفُرَاتُ مِنَ الرَّحْبَةِ مُشْرَقًا عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتٍ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ
 جَنُوبِهَا ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةٍ عِنْدَ بَغْدَادٍ وَأَمَّا نَهْرٌ دِجْلَةٌ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ
 إِلَى هَذَا الْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْتَهِي
 إِلَى الْحُدَيْثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَتَبْقَى الْحُدَيْثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ
 وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادٍ وَيَخْتَلِطُ بِالْفُرَاتِ
 ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَرَجَرِيَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثِ فَتَنْتَشِرُ
 هُنَاكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ عِنْدَ عِبَادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ
 نَهْرِ أَدِجْلَةٍ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ جَمْعِهِمَا بِبَغْدَادِ هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةٍ بَعْدَ
 مُفَارَقَتِهِ بِبَغْدَادِ نَهْرٌ آخَرٌ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرَوَانَ
 قِبَالَةَ بَغْدَادِ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةٍ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّلَاثِ وَيَبْقَى
 مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بِلَدِ جُلُولَاءَ وَفِي شَرْفِهَا عِنْدَ أَجْبَلِ بِلَدِ حُلُوانَ
 وَصَيْمِرَةَ وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرَقًا
 إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرُزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
 الصُّغْرَى بِلَدُ خُونَجَانَ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ عَنَ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بِلَدِ الْهَلُوسِ

وَفِي وَسْطِهَا بَلَدٌ مَهَاوِنْدٌ وَفِي شِمَالِهَا بَلَدٌ شَهْرُ زُورٍ غَرْبًا عِنْدَ مَلْتَقَى الْجَبَلَيْنِ وَالِدَيْنُورُ شَرْقًا
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ طَرْفٌ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ قَاعِدَتُهَا الْمَرَاخَةُ
 وَالَّذِي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِنٌ لِلْأَكْرَادِ وَالزَّابِ الْكَبِيرِ
 وَالصُّغَيْرِ الَّذِي عَلَى دِجْلَةٍ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بِلَادٌ أُذْرُبِيحَانٌ
 وَمِنْهَا تَبْرِيْزُ وَالْبَيْدْقَانُ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نَيْطَشَ
 وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَرِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ
 وَفِيهَا هَمْدَانٌ وَقَزْوِينٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْهَانَ وَيُحِيطُ بِهَا مِنْ
 الْجَنُوبِ جَبَلٌ يُخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي شَرْقِيهِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ مُحِيطٌ
 بِبِلَادِ الْهَلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَهْبِطُ هَذَا الْجَبَلُ الْخَمِيسُ بِأَصْهَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 الثَّلَاثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا
 وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانَ ثُمَّ قُمْ وَيَنْعَطِفُ فِي قُرْبِ النُّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ غَرْبًا بِعُضِّ الشَّيْءِ ثُمَّ
 يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَدْهَبُ مُسْتَرْقًا وَمُنْحَرَفًا إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ
 وَيَشْتَمِلُ عَلَى نَعِطْفِهِ وَأَسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرَّيِّ فِي شَرْقِيهِ وَبَدَأُ مِنْ نَعِطْفِهِ جَبَلٌ
 آخَرٌ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَزْوِينٌ وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ
 وَجَانِبِ جَبَلِ الرَّيِّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى
 الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادِ طَبْرَسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ
 وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النُّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِضُ
 عِنْدَ جَبَلِ الرَّيِّ وَعِنْدَ أَنْعَاطِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا وَبِالْمُحْرِافِ
 قَلِيلٍ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرَّيِّ وَهَذَا
 الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِهَا بِلَادُ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامٌ وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ
 قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارَسَ وَخُرَّاسَانَ وَهِيَ فِي شَرْقِي قَاشَانَ
 وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدٌ أَسْتَرَابَادُ وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 بِلَادُ نَيْسَابُورَ مِنْ خُرَّاسَانَ فِي جَنُوبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نَيْسَابُورَ ثُمَّ مَرُّوا الشَّاهِجَانَ
 آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شِمَالِهِ وَشَرْقِي جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ وَخَازَرُونَ وَطُوسٌ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا

وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادٌ نَسَا وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجَزَيْنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ
 مَفَاوِزٍ مَعَطَلَةٌ. وَفِي الْجَزءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيهِ نَهْرٌ يُسَمُّونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى
 الشَّمَالِ فِي عُدُوتِهِ الْغَرْبِيَّةِ رَمَمٌ وَأَمَلٌ مِنْ بِلَادِ خِرَاسَانَ وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْمَجْرَجَانِيَّةِ مِنْ بِلَادِ
 خُوَارِزْمٍ وَيُحِيطُ بِالزَّاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ اسْتَرَابَادُ الدَّعْرَضِ فِي الْجَزءِ السَّابِعِ
 قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجَزءِ مِنْ غَرْبِيهِ وَيُحِيطُ بِهِذِهِ الزَّاوِيَةَ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هِرَاةَ وَالْجَوْزَخَانَ
 حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبَتَمِ كَمَا ذَكَرْنَا هُنَاكَ وَفِي شَرْقِي نَهْرٍ جَيحُونَ مِنْ هَذَا الْجَزءِ وَفِي الْجَنُوبِ
 مِنْهُ بِلَادٌ بِخَارَى ثُمَّ بِلَادُ الصَّغْدِ وَقَاعَدَتُهَا سَمَرْقَنْدٌ ثُمَّ سَرْدَارَا وَأَشْنَهُ وَمِنْهَا جَبَدَةُ آخِرُ الْجَزءِ
 شَرْقًا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدِ وَسَرْدَارَا وَأَشْنَهُ أَرْضٌ إِيْلَاقٌ ^(١) ثُمَّ فِي الشَّمَالِ عَنْ إِيْلَاقِ أَرْضُ
 الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجَزءِ شَرْقًا وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجَزءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ
 فَرَعَانَةَ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجَزءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجَزءِ
 الثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَ فِي نَهْرٍ جَيحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجَزءِ الثَّامِنِ فِي شِمَالِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ
 الْخَامِسِ وَيَتَخْتَلَطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيْلَاقِ نَهْرٍ يَأْتِي مِنَ الْجَزءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ مَخُومِ
 بِلَادِ التَّبَّتِ وَيَتَخْتَلَطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجَزءِ التَّاسِعِ نَهْرُ فَرَعَانَةَ وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ
 جَبَلٌ جَبْرَاغُونَ يَبْدَأُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْحَرَفًا إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى
 يَخْرُجَ إِلَى الْجَزءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي الْجَزءِ التَّاسِعِ فَيُحِيطُ
 بِالشَّاشِ وَفَرَعَانَةَ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَبَيْنَ نَهْرِ الشَّاشِ رَطْرَفِ
 هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِ هَذَا الْجَزءِ بِلَادُ فَارَابَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ بِخَارَى وَخُوَارِزْمِ مَفَاوِزٍ مَعَطَلَةٌ
 وَفِي زَاوِيَةِ هَذَا الْجَزءِ مِنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ أَرْضٌ حَجَنْدَةَ وَفِيهَا بَلَدٌ اسْمُهُ جَبَابُ وَطَرَازُ
 وَفِي الْجَزءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيهِ بَعْدَ أَرْضِ فَرَعَانَةَ وَالشَّاشِ أَرْضُ الْخَزَلِيَّةِ
 فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الشَّمَالِ وَفِي شَرْقِ الْجَزءِ كُلِّهِ أَرْضُ الْكَيْمِيَّةِ وَيَتَّصِلُ
 فِي الْجَزءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلٍ فَوْقًا آخِرُ الْجَزءِ شَرْقًا وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
 هُنَاكَ وَهُوَ جَبَلٌ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهَلِيهِ الْأُمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ التُّرْكِ. انتهى
 الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ * الْجَزءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَعْمُورٌ بِالْمَاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ
 وَشَرْقِهِ لِأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِهِذِهِ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ

(١) في المشترك اهل بلق ابلق متصل باقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكر المهزلة وسكون الباء بعد ما

وَالسَّابِعُ عَنِ الدَّائِرَةِ الحَيِطَةِ بِالْاِقْلِيمِ فَأَمَّا الْمُنْكَشَفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ
 مِثْلِكَ مُتَّصِلَةٌ مِنْ هُنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَالِيهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَمَا ضَاهَا
 مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمِثْلِكَ فِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَعِيورٌ عَلَى الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ
 مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَامَنُكَةٌ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُورَةٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلْمَنُكَةَ
 أَيْلَةُ آخِرِ الْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَسَالِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةٌ شَقُونِيَّةٌ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونِ
 وَبَرْغَشْتٌ ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيقِيَّةٍ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الحَيِطُ
 فِي آخِرِ الضَّلَعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدٌ شَتِيَاقُو وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةٌ
 شَطِيبِيَّةٌ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ وَشَرْقًا عَنْ قَسَالِيَّةٍ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقْمَةٌ وَبَنْبَلُونَةٌ
 عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشَمَالًا وَفِي غَرْبِ بَنْبَلُونَةٍ قَسَطَالَةٌ ثُمَّ نَاجِرَةٌ فِيهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتِ
 وَبَعْتَرِضُ وَسَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ نَحَاذُ لِلْبَحْرِ وَالضَّلَعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى
 قُرْبٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبَطْرِفِ الْبَحْرِ عِنْدَ بَنْبَلُونَةٍ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَتَّصِلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْاِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرُ حَجْرًا عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ
 مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَتَنَائِيًا لَهَا أَبْوَابٌ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ عَشْكُونِيَّةٍ مِنْ أُمَّمِ الْفَرَنْجِ فَمِنْهَا مِنْ
 الْاِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةٌ وَأَرْبُونَةٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةٌ وَقَرْشُونَةٌ وَرَاءَهُمَا
 فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْاِقْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالًا عَنْ خَرِيدَةٍ . وَأَمَّا الْمُنْكَشَفُ فِي
 هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مِثْلِكَ مُسْتَطِيلٌ زَاوِيَتُهُ الحَادَّةُ وَرَاءَ
 الْبَرْزَانِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الحَيِطُ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ الْبَرْزَانِ بَلَدٌ
 نِيُونَةٌ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضٌ بَنْطُو مِنْ
 الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضٌ عَشْكُونِيَّةٌ وَفِي
 شَمَالِهَا أَرْضٌ بَنْطُو وَبَرْغَشْتٌ وَقَدْ ذَكَرْنَا هُمَا وَفِي شَرْقِ بِلَادِ عَشْكُونِيَّةٍ فِي شَمَالِهَا
 قِطْعَةٌ أَرْضٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالضَّرْسِ مَائِلَةٌ إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا
 وَصَارَتْ بِلَادُ عَشْكُونِيَّةٍ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةٌ فِي جُودِ مِنَ الْبَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
 شَمَالًا بِلَادُ جَنْوَةٌ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلٌ نَيْتِ جُونِ وَفِي شَمَالِهَا وَعَلَى سَمْتِهَا أَرْضٌ
 بَرْغُونَةٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرْفِ جَنْوَةِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ طَرْفٌ آخَرَ خَارِجٌ
 مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِهِ نَيْشٌ وَفِي شَرْقِهِ مَدِينَةٌ رُومَةٌ

الْعُظْمَى كُرْسِيِّ مَلِكِ الْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكِنِ الْبَابَا بَطْرِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي
 الصَّخْمَةِ وَأَهْمَا كُلِّ الْهَائِلَةِ وَالْكِنَاسِ الْعَادِيَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفُ الْأَخْبَارِ وَمِنْ مَجَانِبِهَا
 النَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسْطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَفْرُوشُ قَاعُهُ بِبِلَاطِ النُّحَاسِ وَفِيهَا
 كَنِيسَةٌ بَطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ الْخَوَارِجِيِّينَ وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ
 رُومَةَ بِلَادُ أَفْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَعَلَى هَذَا الطَّرْفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنُوبِهِ
 رُومَةُ بِلَادُ نَابِلِ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ قَلُورِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَفِي شَمَالِهَا
 طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مَغْرَبًا وَمُحَازِيًا لِلشَّمَالِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَأَتَتْهُ إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا
 الْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكَلَابَةَ فِي الْإِقْلِيمِ
 السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بِلَادُ قَلُورِيَّةٍ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ
 وَالْبَحْرِ الرَّومِيِّ يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيهِ يَصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ
 فِي جُودِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِي بِلَادِ
 قَلُورِيَّةٍ بِلَادُ أَنْكَبَرِدَةَ فِي جُودِ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرَّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ مِنْ
 هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجُودِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيهِ خَلِيجُ
 الْبِنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرَّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمْتِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَرْبِ مُحَازِيًا لِآخِرِ
 الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُؤَارِيهِ وَيَدْهَبُ مَعَهُ
 إِلَى الشَّمَالِ ثُمَّ يَغْرِبُ مَعَهُ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فَبَالَةَ خَلِيجِ فِي شَمَالِهِ
 فِي بِلَادِ إِنْكَلَابَةَ مِنْ أُمَّمِ اللَّمَّانِيِّينَ كَمَا نَذَكُرُ وَعَلَى هَذَا الْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا
 الْجَبَلِ مَا دَامَا ذَاهِبِينَ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادُ الْبِنَادِقَةِ فَذَا ذَهَبَا إِلَى الْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ
 حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ الْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيجِ . وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ
 وَقِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرَّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مُضْرَسَةً كُلُّهَا بِقِطْعٍ مِنَ
 الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ ضَرْسَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْجُودِ بَيْنَهُمَا
 وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا قِطْعٌ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ خَلِيجُ الْفُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ
 مِنْ هَذَا الطَّرْفِ الْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ
 وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ عَنْ قُرْبِ مُشْرِقًا إِلَى بَحْرِ نِيطَشَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضُ الرَّابِعِ

قَبْلَهُ وَالسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنَ الْاِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذَرْنَا وَبَلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِي هَذَا
 الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيَّ الْقِيَاصِرَةِ
 وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَالصُّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ
 الرَّومِيِّ وَخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادٌ مَقْدُونِيَّةٌ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ
 وَمِنْهَا ابْتِدَاءُ مُلْكِهِمْ وَفِي شَرْقِي هَذَا الْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ
 وَأَظْنَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتٌ لِلزُّكُمَانِ وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بَرَصَةٌ وَكَانَتْ
 مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَعَالِمُهُمْ عَلَيْهَا الْأُمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلزُّكُمَانِ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
 مِنْ هَذَا الْاِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيهِ وَجَنُوبِيهِ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 بِلَادٌ عُمُورِيَّةٌ وَفِي شَرْقِي عُمُورِيَّةٍ نَهْرٌ قَبَائِبُ الَّذِي يُمِدُّ الْفَرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَاكَ
 وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يَخَالِطَ الْفَرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ إِلَى مَرِّهِ فِي الْاِقْلِيمِ
 الرَّابِعِ وَهُنَاكَ فِي غَرْبِيهِ آخِرُ الْجُزْءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سِيحَانَ ثُمَّ نَهْرُ جِيحَانَ غَرْبِيهِ الْذَّاهِبِينَ
 عَلَى سَمْتِهِ وَتَمَّ ذِكْرُهُمَا وَفِي شَرْقِيهِ هُنَاكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دَجَلَةَ الذَّاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ وَفِي
 مُؤَاوَزَتِهِ حَتَّى يَخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ وَفِي الزَّوَايَةِ الَّتِي بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
 وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دَجَلَةَ بَلَدٌ مِيْقَارِيَيْنَ وَنَهْرُ قَبَائِبُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ
 هَذَا الْجُزْءَ قِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَا وَسَافِلَهَا
 إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قَبَائِبُ أَرْضُ عُمُورِيَّةٍ كَمَا
 قُلْنَا وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَّةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى الثُّلْثِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دَجَلَةَ وَالْفَرَاتَ وَفِي
 الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلِقَانَ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عُمُورِيَّةٍ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَائِبُ وَهِيَ عَرِيضَةٌ وَفِي
 آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَأِ الْفَرَاتِ بَلَدٌ حَرَشْنَةُ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ
 نِيطِشِ الَّذِي يَمِدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْاِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ
 وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةٍ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ تَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ وَفِيهَا بِلْدَانُ
 أَرْدَنَ فِي الْجَنُوبِ وَالغَرْبِ وَفِي شَمَالِهَا تَفْلِسُ وَدَيْبِلُ وَفِي شَرْقِ أَرْدَنَ مَدِينَةُ خَلَاطُ ثُمَّ
 بَرْدَعَةُ فِي جَنُوبِهَا بِأَنْحَرِافٍ إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةٍ وَمِنْ هُنَاكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةِ
 إِلَى الْاِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِيهَا هُنَاكَ بَلَدُ الْمَرَّانَةِ فِي شَرْقِي جَبَلِ الْاِكْرَادِ الْمَسْمُومِ بِأَرْمِي
 وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَيَتَاخَرُ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْاِقْلِيمِ

الرَّابِعَ قِبَلَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَدْرَبِجَانَ وَآخِرُهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ شَرْقًا بِلَادُ أَرْدَابِيلَ
عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَيُسَمَّى بَحْرَ
طَبْرَسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شِمَالِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمْ التُّرْكَمَانُ وَيَبْدَأُ
مِنْ عِنْدِ آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يُتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ
إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةٌ وَمُحِيطَةٌ بِبَلَدِ مِيَاْفَارِقِينَ وَيَخْرُجُ إِلَى الْأَقْلِيمِ
الرَّابِعِ عِنْدَ أَمْدٍ وَيَتَّصِلُ بِجِبَالِ السَّلسَلَةِ فِي آسَافِلِ الشَّامِ وَمِنْ هُنَاكَ يَتَّصِلُ بِجِبَالِ اللَّكَّامِ
كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَابِتًا كَلَّأَبْوَابٍ تُفْضِي مِنَ الْجَبَانِينَ
فِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ
مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَبْوَابِ فِي الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَّةِ
وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلَادِ أَدْرَبِجَانَ أَجْنُوبِيَّةِ بِلَادِ الزَّابِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ
وَفِي شِمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةٌ السَّرِيرِ فِي الزَّاوِيَةِ
الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ نِيطِشِ الَّذِي يُمَدُّ
خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَيَحْفُ هَذِهِ الْقِطْعَةَ مِنْ نِيطِشِ بِلَادِ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا
مِنْهَا بَلَدٌ أَطْرَابَرِيدَةَ وَتَتَّصِلُ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جِبَالِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جَبَلِ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُولِ
وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَآخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا . وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ
غَرْبِيَّةٌ كُلُّهُ مَعْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي
ذَكَرْنَا هُنَاكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبْرَسْتَانَ وَجِبَالِ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ وَفِي غَرْبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ
مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شِمَالِهَا
الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهَا أَيْضًا وَيُنْكَشِفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ
الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ أَثَلٌ فِي هَذَا الْبَحْرِ وَيَبْقَى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ
الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي مَجَالَاتِ الْغُرِّ مِنْ أُمَّمِ التُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ
الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى
الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَلْقَى بَحْرَ طَبْرَسْتَانَ فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ

ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيَفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ جَبَلِ سِيَاهٍ وَيَذْهَبُ مُغْرَبًا إِلَى الْجُزْءِ
 السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ
 وَهَذَا الطَّرْفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِي اعْتَرَضَ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ
 وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلِ
 سِيَاهٍ كَمَا سَيَأْتِي. وَالْجُزْءُ الثَّامِنُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كُلُّ مَجَالَاتِ الْغَزُّ مِنْ أُمَّ
 التُّرْكِ وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بَحِيرَةٌ خَوَارِزْمِ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ يَجْمَعُونَ دَوْرَهَا
 ثَلَاثُمِائَةَ مِيلٍ وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ
 الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بَحِيرَةٌ عَرُوعُونَ دَوْرَهَا أَرْبَعُمِائَةَ مِيلٍ وَمَاوَهَا حُلُوٌّ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ مَرِغَارٌ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ التَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَدُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجُزْءِ
 وَفِي الْجَنُوبِ عَنِ بَحِيرَةِ عَرُوعُونَ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ لَا يُنْبِتُ شَيْئًا يُسَمَّى عَرُوعُونَ وَبِهِ
 سُمِّيَتِ الْبَحِيرَةُ وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مَرِغَارِ شَمَالِي الْبَحِيرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَخْصُرُ عَدْتَهَا فَتَصُبُّ
 فِيهَا مِنْ الْجَانِبَيْنِ. وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكَسَ مِنْ أُمَّ التُّرْكِ فِي
 غَرْبِ بِلَادِ الْغَزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكِيمَا كِيَّةِ وَيَحُفُّ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرُ الْجُزْءِ
 جَبَلٌ قُوقِيَا الْحَيْطِ بِأَجُوجِ وَمَأْجُوجِ يَعْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ
 أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
 الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَأَحْتَفَّ هُنَالِكَ بِالْبَحْرِ الْحَيْطِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ ثُمَّ انْعَطَفَ مُغْرَبًا
 فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ
 الْكِيمَا كِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَذَهَبَ فِيهِ مُغْرَبًا إِلَى آخِرِهِ
 وَبَقِيَ فِي جَنُوبِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكِيمَا كِيَّةِ
 ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيهِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْهُ وَأَنْعَطَفَ قَرِيبًا إِلَى الشَّمَالِ وَذَهَبَ
 عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِيهِ السُّدُّ هُنَالِكَ كَمَا نَذَرْتُهُ
 وَبَقِيَ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلٌ قُوقِيَا عِنْدَ الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
 مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجِ وَمَأْجُوجِ وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ
 أَرْضٌ يَأْجُوجِ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهَا إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ عَمَّرَتْ طَرَفًا فِي شَرْقِيهِ مِنْ جَنُوبِهِ
 إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا الْقِطْعَةَ الَّتِي يَفْضُلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلٌ قُوقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا

سَوَى ذَلِكَ فَارْضُ يَا جُوجَ وَمَا جُوجَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
الْإِقْلِيمِ السَّادِسُ . فَالْجُزءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ عَمْرُ الْبَحْرِ أَكْثَرُ مِنْ نِصْفِهِ وَأَسْتَدَارَ شَرْقًا
مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجُنُوبِ وَأَنْتَهَى قَرِيبًا مِنَ النَّاحِيَةِ
الْجَنُوبِيَّةِ فَأُنْكَشِفَ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ وَفِي
الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ كَالْجُونِ فِيهِ وَيَنْفَسِحُ طَوِيلًا وَعَرْضًا وَهِيَ
كُلُّهَا أَرْضُ بَرِيطَانِيَّةٍ وَفِي بَابِهَا بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
الْجُزءِ بِلَادُ صَاقِسَ مَتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ بَنْطَوَالِيٍّ مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ . وَالْجُزءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ دَخَلَ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ فَمِنْ غَرْبِهِ
قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِ الشَّمَالِيِّ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَّةٍ فِي الْجُزءِ الْأَوَّلِ
وَأَتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الْأُخْرَى فِي الشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَأَنْفَسَحَتْ فِي النِّصْفِ
الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضَ الشَّيْءِ وَفِيهِ هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكَاتَرًا وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ
مُسْتَمْلَةٌ عَلَى مَدُنٍ وَبِهَا مَلِكٌ ضَخْمٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
وَحَزِيرَتِهَا فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزءِ بِلَادُ أَرْمُنْدِيَّةٍ وَبِلَادُ أَفْلَادَشَ مُتَّصِلِينَ بِهَا
ثُمَّ بِلَادُ أِفْرَنْسِيَّةٍ جَنُوبًا وَعَرَبًا مِنْ هَذَا الْجُزءِ وَبِلَادُ بَرَعُونِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا وَكُلُّهَا لِأَمْرِ
الْأَفْرَنْجِيَّةِ وَبِلَادُ اللَّمَانِيِّينَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزءِ جَنُوبَهُ بِلَادُ أَنْكَالِيَّةٍ ثُمَّ
بِلَادُ بَرَعُونِيَّةٍ شَمَالًا ثُمَّ أَرْضُ لَهْوِيكَةَ وَشَطُونِيَّةَ وَعَلَى قِطْعَةِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي الزَّوَايَةِ
الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أَفْرِيَّةٍ وَكُلُّهَا لِأَمْرِ اللَّمَانِيِّينَ . وَفِي الْجُزءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا
الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ مَرَاتِيَّةٍ فِي الْجُنُوبِ وَبِلَادُ شَطُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ
الشَّرْقِيَّةِ بِلَادُ أَنْكُوِيَّةٍ فِي الْجُنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلُوطِ
دَاخِلًا مِنَ الْجُزءِ الرَّابِعِ وَيَمُرُّ مَعْرَبًا بِأَنْحَرَاةٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ
شَطُونِيَّةٍ آخِرَ النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ . وَفِي الْجُزءِ الرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجُنُوبِ أَرْضُ جَثُولِيَّةٍ وَتَحْتَهَا
فِي الشَّمَالِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلُوطِ مِنْ أَوَّلِ الْجُزءِ غَرْبًا إِلَى أَنْ
يَقِفَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَّةِ بِلَادُ جَرْمَانِيَّةٍ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَعِنْدَ
مَدْفَعِهِ فِي بَحْرِ نِيطَشَ فَيَقَعُ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ فِي أَعَالِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا

الْجُزءُ وَبُعدُهَا اَلْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي الزَّوَايَةِ بَلَدٌ مَسِينَاهُ وَفِي الْجُزءِ اَلْخَامِسِ مِنَ الْاِقْلِيمِ
 السَّادِسِ ثُمَّ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نَيْطِشٍ يَتَّصِلُ مِنَ اَلْخَلِيجِ فِي آخِرِ الْجُزءِ
 الرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ سَمْتِهِ مُشْرِقًا فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزءِ كَلَّهُ وَفِي بَعْضِ السَّادِسِ عَلَى طُولِ
 اَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ مِيلٍ مِنْ مَبْدَاهِ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةٍ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ فِي
 النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرْقَلِيَّةٌ عَلَى
 سَاحِلِ بَحْرِ نَيْطِشٍ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ اَلْبَيْلِقَانِ مِنَ الْاِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ الْاَلْبَانِيَّةِ
 وَقَاعِدَتُهَا سَوْتَلِي عَلَى بَحْرِ نَيْطِشٍ وَفِي شِمَالِ بَحْرِ نَيْطِشٍ فِي هَذَا الْجُزءِ غَرْبًا أَرْضُ تَرْخَانَ
 وَشَرْقًا بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ وَبِلَادُ الرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ
 مِنْ شَرْقِهَا فِي هَذَا الْجُزءِ مِنْ شِمَالِهَا فِي الْجُزءِ الْخَامِسِ مِنَ الْاِقْلِيمِ السَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا
 فِي الْجُزءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْاِقْلِيمِ . وَفِي الْجُزءِ السَّادِسِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نَيْطِشٍ
 وَيَنْحَرِفُ قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَاكَ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزءِ شِمَالًا بِلَادُ قَمَانِيَّةٍ وَفِي
 جَنُوبِهِ مُنْقَسِمًا إِلَى الشَّمَالِ بِمَا اُنْمَعِرْفُ هُوَ كَذَلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ الْاَلْبَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ
 جَنُوبِهِ فِي الْجُزءِ الْخَامِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْخَزَرِ وَفِي
 شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسٍ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَلْغَارَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلْجَرٍ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلٍ سِيَاكُوهُ الْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ
 فِي الْجُزءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ مَغْرِبًا فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى
 الْجُزءِ السَّادِسِ مِنَ الْاِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِجَبَلِ الْاَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَاكَ
 نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ . وَفِي الْجُزءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْاِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَا جَارَهُ
 جَبَلٌ سِيَاهُ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ بَحْرُ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ إِلَى آخِرِ الْجُزءِ غَرْبًا
 وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشِمَالِهَا وَوَرَاءَ
 جَبَلِ سِيَاهُ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسٍ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزءِ
 أَرْضُ شَحْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهِيَ أُمَّةُ التُّرْكِ . وَفِي الْجُزءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كَلِّهَا
 أَرْضُ الْجُورْخِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا وَالْأَرْضُ الْمُنْتَهَى وَشَرْقُ الْأَرْضِ الَّتِي
 يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَّباها قَبْلَ بِنَاءِ السُّدِّ وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُنْتَهَى مَبْدَأُ نَهْرٍ
 الْأَثَلِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ وَنَمْرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصْبُهُ فِي بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ فِي الْاِقْلِيمِ

الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ الْأَنْعَاطِ يُخْرَجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ الْأَرْضِ الْمُنْتَهَةِ
 مِنْ ثَلَاثَةِ بِنَايِعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا
 الْأَقْلِيمِ فَيَنْعَطُ شَمَالًا إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ
 الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَغْرِبًا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ
 يَنْعَطُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ
 جَدُولٌ يَذْهَبُ مَغْرِبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ بِنِطَاشٍ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ
 وَالشَّرْقِ فِي بِلَادٍ بَلْعَارٍ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطُ ثَالِثَةً
 إِلَى الْجَنُوبِ وَيَنْفِذُ فِي جَبَلٍ سِبَاهَ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ الْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ
 فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي أَنْكَشَتْ مِنْ
 الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَالْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ
 مِنْهُ بِلَادٌ خَفْشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ فَبَجَاقُ وَبِلَادُ السَّرْكَسِ مِنْهُمْ أَيْضًا وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ
 بِلَادٌ يَأْجُوجُ يَفْضُلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ فَوْقِيًّا أَلْحَيْطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ بَدَأَ مِنَ الْبَحْرِ أَلْحَيْطِ
 فِي شَرْقِ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْأَقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ وَيَفَارِقُهُ مَغْرِبًا
 وَيَأْتِيهِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى
 سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ
 بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ وَفِي وَسْطِهِ هُنَا السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْأَسْكَندَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ
 إِلَى الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ النَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ
 أَلْحَيْطِ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مَغْرِبًا إِلَى الْأَقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ أَلْحَيْطِ فِي غَرْبِهِ وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ
 النَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْأَسْكَندَرُ كَمَا قُلْنَا وَأَصْحِيحٌ مِنْ خَبَرِهِ فِي الْقُرْآنِ
 وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَرْدَاذِبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغْرَافِيَا أَنَّ الْوَاتِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ
 كَانَ السُّدُّ انْفَتَحَ فَاتَّبَعَهُ فَرَعًا وَبَعَثَ سَلَامًا أَلْتَرَجْمَانَ فَوَتَّفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصَّاهُ
 فِي حِكَايَةِ طَوْلِيَّةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ
 بِلَادٌ مَأْجُوجٌ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ الْبَحْرِ أَلْحَيْطِ أَحَاطَتْ بِهِ
 مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ

الإقليم السابع * وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ قَدْ عَمَّرَ عَامَتَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجِبَلٍ فَوْقَهَا الْمُحِيطُ بِبَاجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ . فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي
 مَعْمُورَانِ بِالْمَاءِ إِلَّا مَا أَنْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكَشَفَتِهَا اللَّيْلُ مُعْظَمَهَا فِي الثَّانِي وَفِي الْأَوَّلِ
 مِنْهَا طَرَفٌ أَنْعَطَفَ بِأَحْرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٌ عَلَيْهِ
 فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَالْحِجَازُ مِنْهَا إِلَى الْبَرِّ فِي
 هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةٌ اثْنِي عَشَرَ مِيلاً وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةٌ
 رَسَلَانْدَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ . وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَعْمُورٌ
 أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا وَفِيهَا هُنَاكَ مَتَّصِلٌ أَرْضِ
 فَلُونِيَّةٍ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّلَاثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَأَنْهَا فِي شَمَالِهَا وَفِي الْقِطْعَةِ مِنَ
 الْبَحْرِ الَّتِي تَعْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ ثُمَّ فِي الْجَنَابِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ
 بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُضَيُّ إِلَى بِلَادِ فَلُونِيَّةٍ وَفِي شَمَالِهَا جَزِيرَةٌ بَرَعَايِبَةٌ (وَفِي نَسْخَةِ بَوَاقِعَةٍ)
 مُسْتَطِيلَةٌ مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ شَمَالُهُ
 كُلُّهُ مَعْمُورٌ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَجَنُوبُهُ مُنْكَشَفٌ وَفِي غَرْبِهِ
 أَرْضٌ قِيَازُكَ مِنَ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادٌ طُسْتٌ ثُمَّ أَرْضٌ رَسَلَانَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا
 وَهِيَ دَائِمَةٌ التَّلُوجِ وَعَمَّرَ أَنْهَا قَلِيلٌ وَتَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي
 الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ
 بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَتَنْتَهِي فِي الشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جِبَلٌ
 فَوْقَهَا كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مَتَّصِلٌ أَرْضِ الْقِمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى
 قِطْعَةٍ بَحْرٍ نِيطِشَ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَتَنْتَهِي إِلَى بَحِيرَةٍ طَرَفِي
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ
 وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ مِنَ التُّرْكِ (وَفِي نَسْخَةِ التُّرْكِ)
 إِلَى آخِرِهِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَتَّصِلٌ بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ وَفِي
 وَسَطِ النَّاحِيَةِ بَحِيرَةٌ عَثُورٌ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِي النَّوَاهِي الشَّرْقِيَّةِ
 وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِسُدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَفِي شَرْقِ بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ بِلَادٌ

الرُّوسِيَّةُ الَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
 الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرِ الَّتِي كَانَ
 مَبْدَأُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ
 وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرِ مُنْعَطَفٌ نَهْرٌ أَثَلُ الْقِطْعَةِ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ
 كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شِمَالِهِ جَبَلٌ فَوْقِيًّا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ
 وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ يَحْنَاكُ مِنْ أُمَّمِ التُّرْكِ وَكَانَ
 مَبْدَأُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ قِبَلَهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
 الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَبِ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُنْتَهَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ
 جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ فَوْقِيًّا مُحِيطٌ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا
 الْإِقْلِيمِ فِي الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ الْأَرْضِ الْمُنْتَهَةِ وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمَحْفُورَةُ
 وَهِيَ مِنَ الْعُجَابِ خَرَقٌ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى فَيَسِيحُ الْأَفْطَارُ مُمْتَنِعٌ الْوُصُولِ
 إِلَى قَعْرِهِ يَسْتَدِلُّ عَلَى عُمُرَانِهِ بِالِدُخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنَّبْرَانِ فِي اللَّيْلِ تَضِيءُ وَتَخْفَى وَرُبَّمَا
 رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يُشْقِيهَا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ
 الْخَرَابُ الْمُتَاخِةُ لِلسُّدِّ وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ فَوْقِيًّا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ
 وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِالَادُ خَفْشَاخُ وَهُمْ فَفَجَحُّ
 يَجُوزُهَا جَبَلٌ فَوْقِيًّا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شِمَالِهِ عِنْدَ النَّجْرِ الْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى
 الْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ
 مُعْتَرِضًا فِيهِ وَفِي وَسْطِهِ هُنَالِكَ سُدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضَ يَأْجُوجُ وَرَاءَ جَبَلٍ فَوْقِيًّا عَلَى النَّجْرِ قَلِيلَةَ الْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ
 بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشِمَالِهِ . وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ عَمَرُ النَّجْرِ جَمِيعُهُ . هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغْرَفِيَا
 وَأَقْلِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِبَابِ الْعَالَمِينَ

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر

والكثير في احوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَشَفِ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ
الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ . وَلَمَّا كَانَ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ
مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَنْدَرِّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونُ
مُعْتَدِلًا فَأَلَا قَدِيمُ الرَّابِعِ أَعَدَلَ الْعُمَرَانَ وَالَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى
الْإِعْتِدَالِ وَالَّذِي يَلِيهِمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ الْإِعْتِدَالِ وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ
أَبْعَدُ بكَثِيرٍ فَلِهَذَا كَانَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلْ
وَالْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتِمُّكَوْنُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِالْإِعْتِدَالِ
وَسُكَّانِهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعَدَلَ أَجْسَامًا وَالْوَانَا وَأَخْلَاقًا وَأَدْبَانًا حَتَّى الثُّبُوتِ فَإِنَّمَا تَوْجَدُ
فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ تَقْفَ عَلَى خَبَرِ بَعْثَةِ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ
الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى كُنْتُمْ
خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاهْلُ
هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لَوْجُودِ الْإِعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ
وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ الْبَيْوتَ الْمَخْدُودَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمَنْمُقَةِ بِالصَّنَاعَةِ
وَيَتَنَاقَشُونَ فِي اسْتِجَادَةِ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتَوْجَدُ لَدَيْهِمْ
الْمَعَادِنَ الطَّبِيعِيَّةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ وَالرِّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ
وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَعَامَلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْخِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ
وَهُؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِينَ وَالْمِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصَّرِيرِ
وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قُرْبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجِيَّةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ
مَعَ هَؤُلَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعَدَلَ
هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِبَاتِ . وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ مِثْلَ الْأَوَّلِ
وَالثَّانِي وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاؤُهُمْ بِالطِّينِ

وَالْقَصَبَ وَأَقْوَامَهُمْ مِنَ الذَّرَّةِ وَالْعُشْبِ وَمَلَابِسَهُمْ مِنْ أَوْزَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ
أَوْ الْجُلُودَ وَكَثُرَتْهُمْ عَرَايَا مِنَ اللَّبَاسِ وَفَوَاكِهِ بِأَدَمِهِمْ وَأَدَمَهَا غَرِيْبَةُ التَّكْوِينِ مَائِلَةٌ
إِلَى الْأَنْحِرَافِ وَمَعَامَلَاتِهِمْ بَغَيْرِ الْحَجْرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ
يَقْدِرُوهَا لِلْمَعَامَلَاتِ وَأَخْلَاقَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ حَتَّى لَيُنْقَلُ
عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكَهْفَ وَالْغِيَاضَ
وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَكَذَا الصَّقَالِبَةُ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْأَعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْرِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ
عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ وَيَعْدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي
الدِّيَانَةِ أَيْضًا فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةِ إِلَّا مَنْ قَرَّبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ
الْأَعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الْأَقْلَى النَّادِرِ مِثْلَ الْحَبَشَةِ الْجَوَارِينِ اللَّيْمِنِ الدَّائِنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ
فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَالتَّكْرُورِ الْجَوَارِينِ
لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ
وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَّةِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشَّمَالِ وَمَنْ سَوَى
هُؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُنْعَرَفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَالَّذِينَ مَجْهُولٌ عِنْدَهُمْ وَالْعِلْمُ مُفْقُودٌ
بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ وَيَخْلُقُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ وَلَا يُعْتَرِضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بُوْجُودِ الْيَمْنِ وَحَضْرَمُوتِ وَالْأَحْقَافِ وَبِلَادِ
الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالتَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ
الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْبَحَارُ مِنْ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي
رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَنَقَصَ ذَلِكَ مِنَ الْيَبْسِ وَالْأَنْحِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ
الْأَعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ النِّسَابِيْنَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ
الْكَاثِمَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمُ وُلْدُ حَامٍ بِنِ نُوْحٍ اخْتَصَمُوا بِلَوْنِ السُّودِ لِدَعْوَةِ كَانَتْ عَلَيْهِ
مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرِّقِّ فِي عَقْبِهِ وَيَنْقُلُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَةَ
مَنْ خُرِفَاتِ الْقَصَاصِ وَدَعَا نُوْحٌ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ فَدَوَّقَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ
السُّودِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وُلْدُهُ عَمِيدًا لَوْلَدِ إِخْوَتِهِ لِأَنَّ غَيْرَ وَفِي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ
السُّودِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنِ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي الْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ

مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ مَزَاجِ هَوَائِهِمْ
 لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةً
 إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى فَيَطُولُ الْمَسَامَتَةُ عَامَةً الْفُصُولِ فَيَكْثُرُ الضَّوْءُ لِأَجْلِهَا وَيُلْحِقُ
 الْقَيْظُ الشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْأَقْلِيمَيْنِ مِمَّا يَقَابِلُهُمَا
 مِنَ الشَّمَالِ الْأَقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أَيْضًا الْبَيَاضُ مِنَ مَزَاجِ هَوَائِهِمْ
 لِلبُرْدِ الْمَفْرُطِ بِالشَّمَالِ إِذِ الشَّمْسُ لَا تَزَالُ بِأَفْقِهِمْ فِي دَائِرَةِ مَرَأَى الْعَيْنِ أَوْ مَا قَرَّبَ
 مِنْهَا وَلَا تَرْتَبِعُ إِلَى الْمَسَامَتَةِ وَلَا مَا قَرَّبَ مِنْهَا فَيَضَعُفُ الْحَرُّ فِيهَا وَيَشَدُّ الْبُرْدُ عَامَةً
 الْفُصُولِ فَيَبْيُضُّ الْوَأْنُ أَهْلُهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الزُّعُورَةِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ مَزَاجُ الْبُرْدِ
 الْمَفْرُطِ مِنْ زُرْقَةِ الْعْيُونِ وَبَرَشِ الْجُلُودِ وَصُهُوبَةِ الشُّعُورِ وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقْلِيمُ
 الثَّلَاثَةُ الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّلَاثُ فَكَانَ لَهَا فِي الْأَعْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مَزَاجُ الْمَتَوَسِّطِ
 حَظٌّ وَافِرٌ وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الْأَعْتِدَالِ غَايَةَ لِنَهَائَتِهِ فِي التَّوَسُّطِ كَمَا قَدَمْنَاهُ فَكَانَ لِأَهْلِهِ
 مِنَ الْأَعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَا أَفْتَضَاهُ مَزَاجُ هَوَائِهِمْ وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ الثَّلَاثُ
 وَالْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ لِمِيلِ هَذَا قَلِيلًا إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ وَهَذَا قَلِيلًا إِلَى
 الشَّمَالِ الْبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى الْأَنْحِرَافِ وَكَانَتِ الْأَقْلِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُنْحَرَفَةً وَأَهْلُهَا
 كَذَلِكَ فِي خَلْقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ فَلِأَوَّلِ وَالثَّانِي لِلْحَرِّ وَالسَّوَادِ وَالسَّابِعُ لِلْبُرْدِ وَالْبَيَاضِ وَيُسَمَّى
 سُكَّانَ الْجَنُوبِ مِنَ الْأَقْلِيمَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي بِأَسْمِ الْجَبَشَةِ وَالزَّرْنَجِ وَالسُّودَانَ سَمَاءً
 مُتَرَادِفَةً عَلَى الْأَمْرِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسَّوَادِ وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْجَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تَجَاهَ
 مَكَّةَ وَالْيَمَنَ وَالزَّرْنَجِ بِمَنْ تَجَاهَ بَحْرَ الْهِنْدِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْتِسَابِهِمْ
 إِلَى أَدَمِي أَسْوَدٍ لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانَ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ
 الرَّبْعَ الْمُعْتَدِلِ أَوْ السَّابِعَ الْمُنْحَرِفِ إِلَى الْبَيَاضِ فَيَبْيُضُّ الْوَأْنُ إِعْقَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ
 مَعَ الْأَيَّامِ وَبِالْعَكْسِ فَيَمَنْ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ أَوْ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ فَتَسْوَدُ
 الْوَأْنُ إِعْقَابَهُمْ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمَزَاجِ الْهَوَاءِ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي
 أَرْجُوزَتِهِ فِي الطَّبِّ

بِالزَّرْنَجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادِ حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادًا
 وَالصِّقْلُ أَكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَ حَتَّى غَدَّتْ جُلُودَهَا بَيَاضًا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِأَعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللَّغَةِ
 أَوْ أَوْضَاعِ الْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمَلُ عَلَيَّ أَعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُؤَافَقَتِهِ وَعَاقِبَاتِهِ
 وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ الثُّرُكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغْرُغُرِ وَالخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكُتَيْبِ مِنَ الْأَفْرَنْجَةِ
 وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءَ مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءِ مُتَوَعَّةٍ وَأَمَّا أَهْلُ
 الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْأَعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ وَسَيْرِهِمْ وَكَافَّةِ الْأَحْوَالِ
 الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرَّئِيسَاتِ
 وَالْمَلِكِ فَكَانَتْ فِيهِمْ النُّبُوَاتُ وَالْمَلِكُ وَالذُّوْلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ
 وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي
 وَفَّقْنَا عَلَيَّ أَخْبَارَهُمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانَ وَأَهْلَ السِّنْدِ
 وَالْهُنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذَلِكَ
 لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمْ السُّودَانَ مِنْ وُلْدِ حَامٍ وَأَزْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ
 فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وُلْدِ
 يَافِثَ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُتَمَخِّلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمَلِكِ
 وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمَلِكِ مِنْ وُلْدِ سَامٍ وَهَذَا الزَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقُّ فِي أَنْسَابِ
 هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَوَّرٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ
 بِالسُّودَانَ وَالْحَبْشَانَ مِنْ أَجْلِ أَنْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الْأَسْوَدِ . وَمَا آدَاهُمْ إِلَى هَذَا الْعَلْطِ
 إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَبْعُجُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ
 لِلْجِيلِ أَوْ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفَرَسِ وَيَكُونُ
 بِالْجِهَةِ وَالسَّمَةِ كَمَا لِلزُّنُجِ وَالْحَبْشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانَ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشُّعَارِ
 وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ يَغْيَرُ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِرِهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ
 فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ
 لَمَّا شَمَلَهُمْ مِنْ نَخْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وَجِدَتْ لِنِزَالِ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغْلِيظِ الَّتِي أَوْقَعَ
 فِيهَا الْعَقْلُ عَنْ طِبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَتَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ
 اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ
 وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعَمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخِفَةَ وَالطِّيشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ فَجَدُّهُمْ
 مَوْلَعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ مَوْصُوفِينَ بِالْحَمَقِ فِي كُلِّ فُطْرٍ وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي
 ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ
 الْحَيَوَانِيِّ وَتَشْيِيدُ طَبِيعَةِ الْحُزْنِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَانُفُهُ . وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ
 مُفْسِدَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالْبَخَارِ مُخْلِجَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَيْتِهِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُنْتَشِي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ
 مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ وَذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ بَخَارُ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعَثُهَا
 سُورَةُ الْحُمُرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مَزَاجِهِ فَيَنْفَسِي الرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ وَكَذَلِكَ يَجِدُ
 الْمُنْتَعِمِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّتْ
 لِذَلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ وَرَبَّمَا أَنْبَعَتْ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ النَّاشِئِ عَنِ السُّرُورِ . وَلَمَّا
 كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ وَاسْتَوَلَى الْحَرُّ عَلَى أَمْزَجَتِهِمْ وَفِي أَصْلِ
 تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحِهِمْ
 بِالْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَمُوتُ كَثِيرٌ تَفْسِيًّا فَتَكُونُ
 أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ انْسِطَاطًا وَيَجِيءُ الطِّيشُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ وَكَذَلِكَ يَلْقَى بِهِمْ
 قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَائُهَا مُتَضَاعَفِ الْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ
 أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشْعَتِهِ كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَارَةِ فِي الْفَرَحِ وَالْخِفَةِ مَوْجُودَةً
 أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ التَّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ وَقَدْ يَجِدُ سَيْرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ
 مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ لِتَوَفُّرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْأَرْيَافِ
 وَالتَّلُولِ وَاعْتَبَرْنَا ذَلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا
 كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخِفَةُ وَالْعَقْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى انْتَهَمُوا لَا يَدْخُرُونَ أَقْوَاتِ
 سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ وَعَامَةً مَا كَلِمَتُهُمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ . وَلَمَّا كَانَتْ فَاسٌ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ
 بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوَعُّلِ فِي التَّلُولِ الْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرَقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزْنِ
 وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدْخُرُ قُوْتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ

الْحَنِظَةَ وَيَبَاكِرُ الْأَسْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوْتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةَ أَنْ يُرْزَأَ شَيْئًا مِنْ مَدْخَرِهِ وَتَتَّبِعُ ذَلِكَ فِي الْأَقَالِمِ وَالْبُلْدَانِ تَجِدُ فِي الْأَخْلَاقِ أَثْرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلتَّبَحُّثِ عَنِ السَّبَبِ فِي خِفَّةِ السُّودَانِ وَطَيِّبِيهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيمَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيَّ أَنَّ ذَلِكَ لِعُضْفِ أَدْمَعَتِهِمْ وَمَا نَسَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ وَهَذَا كَلَامٌ لَا مَحْصَلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك

من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إِعْلَمَنَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِمَ الْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يُوْجَدُ بِهَا الْخِصْبُ وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَعْدٍ مِنَ الْعَيْشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوْجَدُ لِأَهْلِ خِصْبِ الْعَيْشِ مِنَ الْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ وَالْحَنِظَةِ وَالْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ الْمَنَابِتِ وَأَعْتِدَالِ الطَّيْبَةِ وَوُفُورِ الْعُمُرَانِ وَفِيهَا الْأَرْضُ الْحَرَّةُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعًا وَلَا عَشْبًا بِالْجُمْلَةِ فَسُكَّانُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ الْعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ وَمِثْلِ الْمُتَمَثِّمِينَ مِنْ صَنْهَاجَةِ الْأَسَّاكِينِ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَفْقَدُونَ الْحُبُوبَ وَالْأَدَمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمْ الْأَلْبَانُ وَاللَّحْمُ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فِي الْقَفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُبُوبَ وَالْأَدَمَ مِنَ التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحْيَانِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى الْأَقَالِمِ لِقَلَّةِ وَجْدِهِمْ فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ الْخَلَّةِ أَوْ دُونِهَا فَضِلًّا عَنِ الرَّغْدِ وَالْخِصْبِ وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الْأَلْبَانِ وَتَعَوَّضَهُمْ مِنَ الْحَنِظَةِ أَحْسَنَ مَعَاذٍ وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ التَّنَاقُذِينَ لِلْحُبُوبِ وَالْأَدَمِ مِنْ أَهْلِ الْقَفَارِ أَحْسَنَ حَالًا فِي جَسُودِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّلُولِ الْمُتَمَثِّمِينَ فِي الْعَيْشِ فَأَلْوَانُهُمْ أَضْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقى وَأَشْكَالُهُمْ أتمُّ وَأَحْسَنُ وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الْأَنْحِرَافِ وَأَذْهَانُهُمْ أَثْقَبُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْإِدْرَاكَاتِ هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجَرُّبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَّنَاهُ وَبَيْنَ الْمُتَمَثِّمِينَ وَأَهْلِ التَّلُولِ يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ خَبِرَهُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِنَّ كَثْرَةَ الْأَعْيِدِيَّةِ وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفْنِيَّةِ
 وَرُطُوبَاتِهَا تَوْلَدُ فِي الْجِسْمِ فَضَلَاتٍ رَدِيَّةً تَنْشَأُ عَنْهَا بَعْدَ إِفْطَارِهَا فِي غَيْرِ نَسَبَةٍ وَتَبَعُ
 ذَلِكَ أَنْكَسَافُ الْأَلْوَانِ وَفُجُحُ الْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا فَلَمَّاهُ وَنَعَطِي الرُّطُوبَاتِ
 عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنْ أُبْحَرَتِهَا الرَّدِيَّةِ فَتَحِيهُ الْبِلَادَةُ
 وَالْعَفْنَةُ وَالْإِنْخِرَافُ عَنِ الْأَعْتِدَالِ بِالْجُمَّلَةِ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي حَيَوَانِ الْقَفْرِ وَمَوَاطِنِ
 الْجُدْبِ مِنَ الْغَزَالِ وَالنَّعَامِ وَالْمَهَا وَالزَّرَافَةِ وَالْحَمْرُ الْوَحْشِيَّةِ وَالْبَقْرُ مَعَ أَهْلِهَا مِنْ
 حَيَوَانِ الثَّلُوبِ وَالْأَرْيَافِ وَالْمَرَاعِي الْخُصْبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا
 وَحُسْنِ رَوْتِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَحَدِيدِهَا فَالْغَزَالُ أَخْوَالُ الْمَعَزِ وَالزَّرَافَةُ
 أَخْوَالُ الْبَعِيرِ وَالْحِمَارُ وَالْبَقْرُ أَخْوَالُ الْحِمَارِ وَالْبَقْرُ وَالْبُونُ بَيْنَمَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَجْلِ
 أَنَّ الْخُصْبَ فِي الثَّلُوبِ فَعَلَ فِي أَيْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيَّةِ وَالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ مَا
 ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ وَالْجَمُوعُ لِحَيَوَانِ الْقَفْرِ حَسَنٌ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي
 الْآدَمِيِّينَ أَيْضًا فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْخُصْبَةِ الْعَيْشِ الْكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ
 وَالْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِبًا بِالْبِلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْحَشُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ وَهَذَا
 شَأْنُ الْبَرِّ الْمُنْعَمِّينَ فِي الْآدَمِ وَالْحَنِطَةِ مَعَ الْمُتَقَشِّينَ فِي عَيْشِهِمْ الْمَقْتَصِرِينَ عَلَى
 الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ مِثْلَ الْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلُ غِمَارَةِ وَالسُّوسِ فَتَجِدُ هُوَلاءِ أَحْسَنَ
 حَالًا فِي عَقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمَّلَةِ الْمُنْعَمِّينَ فِي الْآدَمِ
 وَالْبَرِّ مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الْمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمْ السَّمْنِ جُمَّلَةً وَغَالِبِ عَيْشِهِمْ الذَّرَّةَ فَتَجِدُ
 لِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَا الْعُقُولِ وَخَفَةِ الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لَا يَجُودُ لِغَيْرِهِمْ
 وَكَذَا أَهْلُ الضَّوَاحِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمَّلَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ فَإِنَّ الْأَمْصَارَ
 وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْآدَمِ وَخُصَّيْبِينَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا أَنْ اسْتَعْمَلْتُمْ إِيَّاهَا
 بَعْدَ الْعِلَاجِ بِالطَّبَخِ وَالتَّلَطُّفِ بِمَا يَخْطُؤْنَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِدَاكِ غَلْظُهَا وَيَبْرُقُ قَوَامُهَا وَعَامَةً
 مَا كَلِمَتُهُمْ لِحَوْمِ الضَّأْنِ وَالذَّجَاجِ وَلَا يَغْبُطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْآدَمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقُلُّ
 الرُّطُوبَاتُ لِدَاكِ فِي أَعْيِدَتِهِمْ وَيَخْفُ مَا تَوَدَّ بِهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيَّةِ
 فَلِذَلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ الطَّيِّفِ مِنَ جُسُومِ الْبِلَادِيَّةِ الْخُشْبِيَّةِ فِي الْعَيْشِ وَكَذَلِكَ
 تَجِدُ الْمَعُودِينَ بِالْجَمُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِيَّةِ لِأَفْضَلَاتِ فِي جُسُومِهِمْ غَايِظَةً وَلَا لَطِيفَةً. وَأَعْلَمُ

أَنَّ أَثْرَ هَذَا الْخُصْبِ فِي الْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَجَدُّ
 الْمُتَمَشِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوْ الْحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ وَالْتَجَانِّيِّ عَنِ الْمَلَاذِ
 أَحْسَنَ دِينًا وَإِقْبَالًا عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ وَالْخُصْبِ بَلْ نَجِدُ أَهْلَ الدِّينِ قَلِيلِينَ
 فِي الْمَدِينِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا يَعْهَدُ مِنَ الْقَسَاوَةِ وَالْغَفْلَةِ الْمُتَمَلِّكَةِ بِالْأَكْثَارِ مِنَ الْخَمَانِ
 وَالْأَدَمِ وَبَلَابِ الْبُرِّ وَيَخْتَصُّ وَجُودَ الْعِبَادِ وَالزُّهَادِ لِذَلِكَ بِالْمُتَمَشِّقِينَ فِي غَدَائِهِمْ مِنْ
 أَهْلِ الْبُؤَادِي وَكَذَلِكَ نَجِدُ هُوَلَاءَ الْخُصْبِينَ فِي الْعَيْشِ الْمُنْمَغَمِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ
 الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْخَوَاصِرِ وَالْأَمْصَارِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السَّنُونُ وَأَخَذَتْهُمُ الْحِجَاعَاتُ
 يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْهَلَاكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلَ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسٍ وَمِصْرَ
 فِيمَا يَبْتَغُنَا لَا مِثْلَ الْعَرَبِ أَهْلِ الْقَفْرِ وَالصَّحْرَاءِ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الدِّينِ غَالِبُ
 عَيْشِهِمُ التَّمَرُ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ أْفْرِيقِيَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الشَّعِيرُ وَالرِّبْتُ
 وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الْأَذْرَةُ وَالزُّبْتُ فَإِنَّ هُوَلَاءَ وَإِنْ أَخَذَتْهُمُ السَّنُونُ
 وَالْحِجَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلَادِكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الْهَلَاكُ بِالْجُوعِ بَلْ وَلَا
 يَنْدُرُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُنْمَغَمِينَ فِي الْخُصْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأَدَمِ
 وَالسَّمْنِ خُصْرًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْمَرَاجِيَّةِ
 حَتَّى تَجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقَلَّةِ الْأَفْوَاتِ وَفَقْدَانِ الْأَدَمِ وَاسْتِعْمَالِ
 الْخُشْنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمَعَايِيسِ وَالْإِتْكَاشِ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي
 الْغَايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَمَهْلِكٌ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَاتِلِ فَالْهَالِكُونَ فِي
 الْحِجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّبَعُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لِالْجُوعِ الْحَادِثِ الْأَلْحَقِ. وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ
 لِقَلَّةِ الْأَدَمِ وَالسَّمْنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقْفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ
 وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقَعُ فِي مَعَاهِمُ يَتَبَدَّلُ الْأَعْدِيَّةُ بِيَسْرٍ وَلَا الْخِرَافُ
 فَيَسْلُمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي يَعْزُضُ لِعَيْرِهِمْ بِالْخُصْبِ وَكَثْرَةِ الْأَدَمِ فِي
 الْمَاكِلِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَةَ وَأَتْتِلَافَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ
 فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَا مَمَّةً تَنَاوَلَهُ كَانَ لَهُ مَأْلُوفًا وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً
 مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِذَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُوعِ (١) وَمَا أَفْرَطَ فِي الْإِتْخِرَافِ

١ قال في القاموس الينوع كصور او تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمنهور منه سبعة

فَأَمَّا مَا وَجَدَ فِيهِ التَّغْدِي وَالْمَلَأَمَةَ فَيَصِيرُ غَدَاءً مَا لَوْفًا بِالْعَادَةِ فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ
نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عِوَضًا عَنِ الْخِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَنًا فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ
غَدَاءً وَاسْتَعْنَى بِهِ عَنِ الْخِنْطَةِ وَالْحُبُوبِ مِنْ غَيْرِ شَكِّ وَكَلِمًا مِنْ عَوْدِ نَفْسِهِ الصَّبْرَ عَلَى
الْجُوعِ وَالْاسْتِعْنَاءِ عَنِ الطَّعَامِ كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ نَائِيًا لَسَمِعَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ
أَخْبَارًا غَرِيبَةً يَكَادُ يُنْكِرُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ الْعَادَةُ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَلْفَتْ
شَيْئًا صَارَ مِنْ جِبَلَتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ التَّلَوُّنِ فَإِذَا حَصَلَ لَهَا اعْتِيَادُ الْجُوعِ
بِالتَّدْرِيجِ وَالرِّيَاضَةِ فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبِيعِيَّةً لَهَا وَمَا يَتَوَهَّمُهُ الْأَطِبَاءُ مِنْ أَنَّ
الْجُوعَ مِهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ إِلَّا إِذَا حُمِلَتِ النَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً وَقُطِعَ عَنْهَا الْغَدَاءُ
بِالْكَيْلِيَّةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْسِمُ الْمَعَاءَ وَيَبَالُغُ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ الْهَلَاكُ وَأَمَّا إِذَا
كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ تَدْرِيجًا وَرِيَاضَةً بِإِقْلَالِ الْغَدَاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا كَمَا يَعْلَهُ الْمُتَصَوِّفَةُ
فَهُوَ بِمَعزِلٍ عَنِ الْهَلَاكِ وَهَذَا التَّدْرِيجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي الرَّجُوعِ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ
فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغَدَاءِ الْأَوَّلِ دَفْعَةً خِيفَ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا
بَدَأَ فِي الرِّيَاضَةِ بِالتَّدْرِيجِ وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَصَلَاً
وَأَكْثَرَ. وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ أَمْرَانِ مِنَ أَهْلِ
الْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ وَرَنَدَةَ حَبَسْتَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ الْأَكْلِ حُمْلَةً مُنْذُ سَنِينَ وَسَاعَ أَمْرُهُمَا
وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا فَصَحَّ شَأْنُهُمَا وَاتَّصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَا وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ
أَصْحَابِنَا أَيْضًا مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الدَّعْرِ يَلْتَمِمْ تَدْيِهَا فِي بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ
الْإِفْطَارِ وَيَكُونُ ذَلِكَ غَدَاءَهُ وَاسْتَدَامَ عَلَى ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ
وَلَا يُسْتَنْكَرُ ذَلِكَ. وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجُوعَ أَصْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الْأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهِ لِمَنْ
قَدَّرَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى الْإِقْلَالِ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَأْتُرْ فِي الْأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِي صَفَائِهَا وَصَلَاحِهَا
كَمَا قُلْنَا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَثَارِ الْأَغْذِيَةِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْهَا فِي الْجُسُومِ فَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَغَدِّينَ
بِلُحُومِ الْحَيَوَانَاتِ الْفَاحِشَةِ الْعَظِيمَةِ الْجُثْمَانِ تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي أَهْلِ
الْبَادِيَةِ مَعَ أَهْلِ الْخَاضِرَةِ وَكَذَا الْمُتَغَدِّونَ بِالْبَانِ الْأَيْلِ وَلُحُومِهَا أَيْضًا مَعَ مَا يُؤْتَرُ فِي

الشبرم واللاعبة والبرطنشيا والماودانة والمازربون والفجلشت والعرش وكل البومعات اذا استعملت في
خير وجهها هلكت ١٠

أَخْلَافَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الْأَنْقَالِ الْمَوْجُودِ ذَلِكَ لِلْإِبِلِ
وَتَشَأُ أَمْعَاؤُهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ الْإِبِلِ فِي الصَّحَّةِ وَالْعَالِظِ فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلَا
يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ فَيَشْرَبُونَ الْبُتُوعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بَطُونِهِمْ غَيْرَ
مَحْجُوبَةٍ كَلْحَنْظَلٍ قَبْلَ طَبْعِهِ وَالْدَّرِيَّاسِ وَالْقَرْيُونِ وَلَا يَنَالُ أَمْعَاءُهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ
تَنَالُهَا أَهْلُ الْحَضَرِ الرَّفِيقَةِ أَمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ
اسْتِرْعَاقَهُمْ مِنْ طَرَفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّمِيَةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا
ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفَلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجْرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا عُدَّتْ بِالْحُبُوبِ الْمَطْبُوخَةِ
فِي بَعْرِ الْإِبِلِ وَاتَّخَذَ يَبْضُهَا ثُمَّ حَضَنْتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ
يَسْتَعْنُونَ عَنْ تَعْدِيَّتِهَا وَطَبَخَ الْحُبُوبَ بِطَرَحِ ذَلِكَ الْبَعْرِ مَعَ الْبَيْضِ الْمَحْضَنِ فَيَحْيِيهِ
دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ الْعَظْمِ وَأَمثالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْتَ هَذِهِ الْأَنْارَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ فِي
الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْجُوعَ أَيْضًا آثَارًا فِي الْأَبْدَانِ لِأَنَّ الضِّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي
التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ
الْمُخْتَلِطَةِ الْخُلَّةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغَدَاءُ مُؤَثِّرًا فِي وُجُودِ ذَلِكَ الْجِسْمِ
وَاللَّهُ حَيِّطٌ بِعِلْمِهِ

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالنظرة او الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرويا

إِعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَصْطَفَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ بِحُطَابِهِ وَفَطَّرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ
وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيَحْرِضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ
وَيَأْخُذُونَ بِحُجْرَانِهِمْ عَنِ النَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُنْقِضُ إِلَيْهِمْ مِنَ
الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَسْنَنِتِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمَغِيبَةِ عَنِ الْبَشَرِ
الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بِوَسْاطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَعَلِمَهُ أَنْ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ
خَاصِيَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصِّدْقُ لِمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وَعَلَامَةِ هَذَا الصِّنْفِ

مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تُوَجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبُهُ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَانَتْهَا
 غَشِيَةٌ أَوْ إِعْمَاءٌ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِعْرَاقٌ
 فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرَّوحَانِيِّ بِإِذْرَاكِهِمُ الْمُنَاسِبَ لَهُمُ الْخَارِجَ عَنِ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكَلِمَةِ
 ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيِّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ بِتَمَثُّلٍ لَهُ
 صُورَةٌ شَخْصٌ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا
 الْوَقِيَّ إِلَيْهِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوَحْيِ أَحْيَانًا يَا بُنَيَّ مِثْلَ صَلَاحَةِ
 الْجُرْسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَفْضُمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا
 فِي كَلِمَتِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ وَيُدْرِكُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنَ الشَّدَّةِ وَالغَطِّ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ فِي
 الْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالَجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ
 الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْضُمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِنَهُ لِيَتَفَصَّدَ عَرَفًا وَقَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقْبَلًا
 وَلَا جُلَّ هَذِهِ الْغَايَةِ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ كَانَ الْمَشْرُكُونَ يَرْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجُنُونِ وَيَقُولُونَ
 لَهُ رَبِّي أَوْ تَابِعٌ مِنَ الْجِنِّ وَإِنَّمَا لَيْسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ وَمَنْ
 يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ عَلَّمَهُمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقُ الْخَيْرِ
 وَالرِّكَاءِ وَمِجَانِبَةِ الْمَدْمُومَاتِ وَالرِّجْسِ أَجْمَعٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعَصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ
 عَلَى التَّنْزِهِ عَنِ الْمَدْمُومَاتِ وَالْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّمَا مَنَافِيَةٌ لِحَبْلَتِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ
 الْحِجَارَةَ وَهُوَ غَلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَأَنكَشَفَ فَسَقَطَ
 مَغْشِيًا عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعٍ وَلَيْمَةٌ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ
 غَشِيَةُ النَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يُخْضِرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ تَرَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ
 كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجَبْلَتِهِ يَنْزَهُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ لَا يَقْرُبُ الْبَصَلَ وَالثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي أَنُجِجِي مَنْ لَا تَنَاجُونَ وَأَنْظُرُ
 لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَّأَتْهُ
 وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ فَقَالَتْ اجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ
 إِنَّهُ مَلِكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ التِّيَابِ
 إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ الْبَيَاضُ وَالْخَضْرَاءُ فَقَالَتْ إِنَّهُ الْمَلِكُ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخَضْرَاءَ
 مِنَ الْوَانِ الْخَيْرِ وَالْمَلَانِكَةِ وَالسُّوَادُ مِنَ الْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ .

وَمِنْ عَلَامَتِهِمْ أَيْضًا دَعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَنَافِ وَقَدْ
 اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي
 أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنِ حَالِهِ وَخَلْقِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرْقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ يَبْلُغُهُ مِنْ فُرَيْشٍ وَفِيهِمْ
 أَبُو سَفْيَانَ لَيْسَا لَهُمْ عَنِ حَالِهِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ يَمُ بِكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ
 بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعَنَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا نَقُولُ
 حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمُوكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ وَالْعَنَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرْقَلُ ^(١) هُوَ الْعِصْمَةُ
 فَانظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالِدُعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ
 يَحْتَجْ إِلَى مُعْجِزَةٍ قَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ عَلَامَتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا
 ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ
 أُخْرَى فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ اسْتَدْرَكَهُ الْخَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحِينَ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرْقَلِ لِأَبِي
 سَفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ
 هِرْقَلُ وَالرُّسُلُ تَبْعَتْ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِصْبَةٌ وَسُوكَةٌ تَمْنَعُهُ
 عَنِ أَدَى الْكُفْرَانِ حَتَّى يَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيَتِمَّ مُرَادُ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ
 عَلَامَتِهِمْ أَيْضًا وَفُوعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَعْمَالُ عَجْزِ الْبَشَرِ عَنْ مِثْلِهَا
 فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعْجِزَةً وَوَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا نَفَعُ فِي غَيْرِ مَحَلٍّ قُدْرَتِهِمْ
 وَالنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وَفُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافَ مَا لَمْ تَكْمَلُونَ بِنَاءً عَلَى
 الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا يَنْعَلُ النَّبِيُّ وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَالُ
 الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَرِثَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجِزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ وَلَيْسَ
 لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحَدِّيُّ بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا
 الَّذِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَفُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مَدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنْزَلَتْ مَنزِلَةَ الْقَوْلِ
 الصَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجِزَةُ الدَّالَّةُ
 بِمَجْمُوعِ الْخَارِقِ وَالتَّحَدِّيِّ وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحَدِّيُّ جُزْأً مِنْهَا وَعِبَارَةٌ الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةً
 نَفْسَهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِي عِنْدَهُمُ وَالتَّحَدِّيُّ هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكِرَامَةِ

(١) قوله الذي اشار اليه هرقل الظاهر ابو سفيان

وَالسَّخَرِ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصَدِيقِ فَلَا وُجُودَ لِلتَّحَدِّيِ إِلَّا إِنْ وُجِدَ اتِّفَاقًا وَإِنْ
 وَقَعَ التَّحَدِّيُّ فِي الْكِرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُحِيزُهَا وَكَانَتْ لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوَلَايَةِ وَهِيَ
 غَيْرُ النَّبُوءَةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأُسْتَاذُ أَبُو اسْحَقَ وَعَبِيدَهُ وَفُوعَ الْخَوَارِقِ كِرَامَةً فَرَارًا مِنْ
 الْإِلْتِبَاسِ بِالنَّبُوءَةِ عِنْدَ التَّحَدِّيِ بِالْوَلَايَةِ وَقَدْ أَرَيْنَاكَ الْمَغَايِرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَحَدَّى
 بِغَيْرِ مَا يَتَحَدَّى بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لَيْسَ عَلَى أَنْ النَّقْلَ عَنِ الْأُسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحًا
 وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى انْكَارِهِ لِأَنَّ نَفْعَ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مَنْ
 الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا الْمُعْتَزَلَةُ فَالْمَانِعُ مِنْ وُفُوعِ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ
 لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَفْعَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلَا فَرْقَ وَأَمَّا وَفُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْيِيسًا
 فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمُعْجِزَةِ التَّصَدِيقَ وَالْهُدَايَةَ فَلَوْ وَقَعَتْ
 بِخِلَافِ ذَلِكَ أُنْقَلَبَ الدَّلِيلُ شِبْهَةً وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةً وَالتَّصَدِيقُ كَذِبًا وَأَسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ
 وَأُنْقَلَبَتْ صِفَاتُ النَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضِ وَفُوعِهِ الْحُمَالُ لَا يَكُونُ مُمَكِّنًا وَأَمَّا عِنْدَ
 الْمُعْتَزَلَةِ فَلِأَنَّ وُفُوعَ الدَّلِيلِ شِبْهَةً وَالْهُدَايَةَ ضَلَالَةً فَيَبْحُ فَلا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ . وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ
 فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي
 الْأَيْجَابِ الذَّائِقِ وَوُفُوعِ الْحَوَادِثِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَفِّقٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ
 الْحَادِثَةِ مُسْتَنَدَةٌ أَخِيرًا إِلَى الْوَأَجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ
 عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ الْعُنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ
 وَالنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ فِي الْأَكْوَانِ مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَاسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ
 اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاهُ كَانَ لِلتَّحَدِّيِ أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ شَاهِدٌ
 بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَّاهُ عَلَى تَصْرِيفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ
 النَّبَوِيَّةِ لَا بَأَنَّهُ يَنْزَلُ مِنْزَلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصَدِيقِ فَذَلِكَ لَا يَكُونُ دَلَالَةً عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ
 قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا يَكُونُ التَّحَدِّيُّ جُزْأً مِنَ الْمُعْجِزَةِ وَلَمْ يَصِحَّ
 فَارِقًا لَهَا عَنِ السَّخَرِ وَالْكَرَامَةِ وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السَّخَرِ أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى أَفْعَالِ
 الْخَيْرِ مَصْرُوفٌ عَنْ أَفْعَالِ الشَّرِّ فَلَا يَلُمُ الشَّرَّ بِخَوَارِقِهِ وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا
 شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ وَفَارِقُهَا عَنِ الْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَحْصُورَةٌ كَالصُّعُودِ إِلَى
 السَّمَاءِ وَالنُّفُوزِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَالطَّيْرَانِ

فِي الْهُوَاءِ وَخَوَارِقِ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَثِيرٌ الْقَلِيلِ وَالْحَدِيثِ عَنِ بَعْضِ الْمُسْتَقْبَلِ
 وَأَمثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَائِمٌ عَنْ تَصْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي النَّبِيَّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ
 عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمَتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَلَقْنُوهُ عَمَّنْ
 أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَفَرَّرَ ذَلِكَ فَأَعْلَمُ أَنَّ أَعْظَمَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دَلَالَةُ الْقُرْآنِ
 الْكَرِيمِ الْمُنزَلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي الْعَالَمِ نَفْعٌ
 مُغَايِرَةٌ لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ الَّذِي يُوَيَّاتِي بِالْمُعْجِزَةِ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِ وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ
 الْوَحْيُ الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجِزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ
 كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةً لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَذَا
 مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَاتِي مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ
 أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحِيًّا أُوحِيَ إِلَيَّ فَإِنَّا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ
 تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجِزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهِيَ الْمِثَابَةِ فِي الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ
 الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ الْوَحْيِ كَانَ الصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحًا فَكَثُرَ الْمَصْدَقُ
 الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابِعُ وَاللَّامَةُ

ولنذكر الان تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرويا ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

اعْلَمْ . أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَا نُشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْخَلْقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ
 مِنَ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ وَرَبَطِ الْأَسْبَابِ بِالسَّبَبَاتِ وَأَتَّصِلِ الْأَكْوَانَ بِالْأَكْوَانِ
 وَاسْتَحَالَةَ بَعْضِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأْ
 مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ الْجُذْمَانِيِّ وَأَوَّلًا عَالَمِ الْعُنَاصِرِ الْمَشَاهِدَةِ كَيْفَ تَدْرُجُ صَاعِدًا
 مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ إِلَى الْهُوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
 مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا وَيَسْتَحِيلُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ وَالصَّاعِدُ
 مِنْهَا الْطَفُّ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ الْأَفْلَاكِ وَهُوَ الْطَفُّ مِنَ الْكُلِّ عَلَى
 طَبَقَاتٍ أَتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطُّ وَبِهَا

يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا
هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا ثُمَّ أَنْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ
الْحَيَوَانَ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدْرِيجِ آخِرُ أَفْقِ الْمَعَادِنِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ
الْحَشَائِشِ وَمَا لَا يَبْدُرُ لَهُ وَآخِرُ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ النَّخْلِ وَالْعُكْرَمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ
الْحَيَوَانَ مِثْلَ الْحَزْزُونِ وَالصَّدْفِ وَلَمْ يَوْجَدْ لِهَمَا إِلَّا قُوَّةَ اللمسِ فَقَطُّ وَمَعْنَى الْإِتِّصَالِ
فِي هَذِهِ الْمُكُونَاتِ أَنَّ آخِرَ أَفْقِ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ بِالْأَسْتِعْدَادِ الْغَرِيبِ لِأَنَّ يَصِيرَ أَوَّلُ
أَفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ وَاسْتَسَعَّ عَالَمُ الْحَيَوَانَ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاءُهُ وَانْتَهَى فِي تَدْرِيجِ التَّكْوِينِ
إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوْيَةِ تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْحِسُّ
وَالْإِدْرَاكُ وَلَمْ يَنْتَهَ إِلَى الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقِ مِنَ الْإِنْسَانِ
بَعْدَهُ وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا آثَارًا مُتَنَوِّعَةً فِي عَالَمِ الْحِسِّ
آثَارٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلاكِ وَالْعُنَاصِرِ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ آثَارٌ مِنْ حَرَكَةِ الشَّمْسِ وَالْإِدْرَاكِ
تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا مَوْثِرًا مُبَايِنًا لِلْأَجْسَامِ فَهُوَ رُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمُكُونَاتِ لَوْجُودِ
إِتِّصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا وَلِذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْمَحْرُكَةُ وَلَا يَدْفُوقُهَا مِنْ
وُجُودِ آخِرٍ يُعْطِيهَا قُوَّةَ الْإِدْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ وَيَتَّصِلُ بِهَا أَيْضًا وَيَكُونُ ذَاتَهُ إِدْرَاكًا
صِرْفًا وَتَعْقَلًا مُخَصَّصًا وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ
لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكِيَّةِ لِيَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقْتًا مِنْ
الْأَوْقَاتِ فِي لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحَظَاتِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمُلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةَ بِالْفِعْلِ كَمَا
تَدْكُرُهُ بَعْدُ وَيَكُونُ لَهَا إِتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا شَأْنُ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا
قَدَّمْنَاهُ فَلَهَا فِي الْإِتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفُلِ وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهَا وَتَكْتَسِبُ
بِهِ الْمَدَارِكَ الْحِسِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعْقُلِ بِالْفِعْلِ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى
مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَهِيَ تَكْتَسِبُ بِهِيَ الْمَدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعَيْنِيَّةَ فَإِنَّ عَالَمَ الْخَوَادِثِ
مَوْجُودٌ فِي تَعَقُّلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَهَذَا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ الْمُحْكَمِ فِي الْوُجُودِ
بِإِتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقُوَّاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةٌ عَنِ الْعِيَانِ
وَآثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ فَكَانَتْهُ وَجَمِيعُ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُفْتَرِقَةٌ لِأَنَّ النَّفْسَ وَلِقَوَاهَا
أَمَّا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرِّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكَلِمِيَّةُ

بِالْبَدَنِ مُتَدَاعٍ وَأَمَّا الْمُدْرَكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْأِدْرَاكِ مَرْتَبَةً وَمُرْتَبَةً إِلَى الْقُوَى
 الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنَ الْمَفْكُورَةِ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقِيَّةِ فَقُوَى الْحَسَنِ الظَّاهِرَةِ بِالْإِتِهَانِ مِنَ
 السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ الْحَسَنِ الْمَشْتَرِكُ وَهُوَ قُوَى تَدْرِكُ
 الْحَسُوسَاتِ مُبْصِرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَى
 الْحَسَنِ الظَّاهِرِ لِأَنَّ الْحَسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحَسَنِ
 الْمَشْتَرِكُ إِلَى الْخَيَالِ وَهِيَ قُوَى تُمَثِّلُ الشَّيْءَ الْحَسُوسَ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ
 الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطُّ وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَتَيْنِ فِي تَصَرُّفِهِمَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ
 مُقَدَّمُهُ لِلأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي الْخَيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةُ فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ
 الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعِدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْآبِ وَافْتِرَاسِ
 الذُّبِّ وَالْحَافِظَةُ لِإِيْدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُخَيَّلَةً وَهِيَ لَهَا كَالخِزَانَةِ تَحْتَفِظُهَا لَوْفَتْ
 الْحَاجَةُ إِلَيْهَا وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَتَيْنِ فِي تَصَرُّفِهِمَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ وَأَوَّلُهُ لِلأُولَى
 وَمُؤَخَّرُهُ لِلْآخَرَى ثُمَّ يَرْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَى الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ وَهِيَ الْقُوَى
 الَّتِي يُفْعَلُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّوِيَّةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ الْعَقْلِ فَتَحْرُكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِبَ فِيهَا
 مِنَ النُّزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَى وَالْإِسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ
 فِي تَعْمَلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي
 إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْأَلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فِيهِ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْسَلِخُ
 بِالْمَكِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابِ
 بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجَبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِي ذَلِكَ وَالتَّمُوسُ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ
 اصْنَافٍ صَنَفٌ عَاجِزٌ بِالتَّطَبُّعِ عَنِ الْوُصُولِ فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ
 الْمَدَارِكِ الْحَسِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِبُ الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى فَوَائِنٍ مَحْصُورَةٍ
 وَتَرْتَبُ خَاصًّا يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصَدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ وَكُلِّهَا
 خَيَالِيٌّ مُنْخَصَّرٌ نَطَاقُهُ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةٍ مُبْدَاهِ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ
 فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي الْأَعْلَابِ نَطَاقُ الْأِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي
 مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسُخُ أَقْدَامِهِمْ وَصَنَفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ الْعَقْلِ
 الرُّوحَانِيِّ وَالْإِدْرَاكِ الَّذِي لَا يَنْتَقِرُ إِلَى الْأَلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ

لِذَلِكَ فَيَسَّعُ نِطَاقُ إِدْرَاكِهِ عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ
وَيَسَّرَحُ فِي فِضَاءِ الْمَشَاهِدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وَجْدَانُ كُلِّهَا نِطَاقُ لَهَا مِنْ مَبْدَاهَا وَلَا مِنْ
مُنْتَهَاهَا وَهَذِهِ مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ وَهِيَ
الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرْزَخِ وَصِنْفٍ مَقْطُورٍ عَلَى الْإِنْسِلَاخِ مِنَ
الْبَشَرِيَّةِ جَمَلَةٌ جِسْمَانِيَّتَيْهَا وَرُوحَانِيَّتَيْهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِي لَحْمَةٍ
مِنَ الْأَلْحَمَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ وَيَحْصُلُ لَهُ شَهْرِدُ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى فِي أَفْقِهِمْ وَسَمَاعِ الْكَلَامِ
النَّفْسَانِيِّ وَالْخُطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَهِيَ لَوْلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ
جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَهِيَ حَالَةُ الْوَحْيِ فِطْرَةٌ فَطَرَهُمُ اللَّهُ
عَلَيْهَا وَجَبَلَهُ صَوْرَهُمْ فِيهَا وَنَزَّهَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ وَعَوَانِقِهِ مَا دَامُوا مُلَابِسِينَ لَهَا بِالْبَشَرِيَّةِ
بِمَا رُكِبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَصْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَادُونَ بِهَا تِلْكَ الْوَجْهَةَ وَرُكُزَ فِي
طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تَكْشِفُ بِتِلْكَ الْوَجْهَةِ وَتُسَبِّغُ نَحْوَهَا فَيُتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ
الْأَفْقِ بِذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ الْإِنْسِلَاخِ مَتَى شَاءَ وَابْتَلَاكَ الْفِطْرَةَ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا لِأَبَا كِتْسَابِ
وَلَا صِنَاعَةٍ فَلِذَا تَوَجَّهُوا وَاسْتَلْخَوْا عَنْ شَرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى مَا يَتَلَقَّوْنَهُ
عَاجِبًا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْزَلَانِي فُؤَادًا لِحِكْمَةِ التَّبْلِيغِ لِلْعِبَادَةِ فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا
كَأَنَّهُ رَزَمَ مِنَ الْكَلَامِ يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِي الْوَحْيِ إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوِيَّ إِلَّا وَقَدْ
وَعَاهُ وَفَرِمَهُ وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُلْقَى إِلَيْهِ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَيُعِي مَا يَقُولُهُ
وَالْتَلْقَى مِنَ الْمَلَكِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَرِمَهُ مَا الْوَحْيِ عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي
لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَحْمٍ الْبَصَرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ بَلْ كُلُّهَا نَفْعٌ جَمِيعًا فَيُظْهِرُ
كَأَنَّهَا سَرِيعَةٌ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ وَحْيًا لِأَنَّ الْوَحْيَ فِي الْأَعْتَةِ الْإِسْرَاعُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَوَّلَى وَهِيَ
حَالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَّةُ وَهِيَ حَالَةُ تَمَثُّلِ
الْمَلَكِ رَجُلًا يُخَاطَبُ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الْأَوَّلَى وَهَذَا
مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فَسَّرَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ لَمَّا سَأَلَهُ الْخَارِثُ بْنُ
هَشَامٍ وَقَالَ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ فَقَالَ أَحْيَانًا يَأْتِيَنِي مِثْلَ صَلَاةِ الْجُرْسِ وَهُوَ أَشَدُّ
عَلَيَّ فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأُعِي مَا يَقُولُ
وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأَوَّلَى أَشَدَّ لَانْتِبَاهِهَا مَبْدَأُ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ

فَيَعْسُرُ بَعْضَ الْعُسْرِ وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَتْ بِالسَّمْعِ وَصَعِبَ
 مَا سِوَاهُ وَعِنْدَ مَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَيَكْثُرُ التَّلَقِّيُّ يَسْهَلُ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَعِنْدَ مَا يَمْرُجُ
 إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصًا الْأَوْفَعُ مِنْهَا وَهُوَ إِدْرَاكُ الْبَصَرِ وَفِي
 الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَحْيِ فِي الْأَوَّلَى بَصِيغَةَ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَةِ بَصِيغَةَ الْمَضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنَ
 الْبَلَاغَةِ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ مَجْجِيءٌ التَّمْثِيلِ لِحَالَتِي الْوَحْيِ فَمَثَلُ الْحَالَةِ الْأَوَّلَى
 بِالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ فِي الْمُتَعَارَفِ غَيْرُ كَلَامٍ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَحْيَ يَتَّبِعُهُ غِبُّ انْقِضَائِهِ
 فَنَاسَبَ عِنْدَ تَصَوُّرِ انْقِضَائِهِ وَأَنْفِصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَحْيِ بِالْمَاضِي الْمَطَابِقِ لِلِانْقِضَاءِ
 وَالْإِنْقِطَاعِ وَمَثَلُ الْمَلَكِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ بِرَجُلٍ يَخَاطَبُ وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلامُ يُسَاوِفُهُ
 الْوَحْيُ فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمَضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كَلِمًا
 صُعُوبَةً عَلَى الْجُمْلَةِ وَشِدَّةً قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ قَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا
 وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ
 الشَّدِيدِ الْبُرْدِ فَيَنْصَمُّ عَنْهُ وَإِنْ جَمِينَهُ لِيَتَفَصَّدُ عِرْقًا . وَلِذَلِكَ كَانَ يُحَدِّثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ
 الْحَالَةِ مِنَ الْعَيْبَةِ وَالْعَطِيطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَرْنَا مُفَارَقَةً
 الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَائِكِيَّةِ وَتَلَقَّى كَلَامَ النَّفْسِ فَيُحَدِّثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ
 الذَّاتِ ذَاتِهَا وَأَنْسِلَاحِهَا عَنْهَا مِنْ أَفْقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخَرَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعَطْفِ الَّذِي
 عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ فَعَطَّيْتُ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي أَحْجَدُ ثُمَّ أَرْسَانِي فَقَالَ أَوْرَأُقُلْتُ
 مَا أَنَا بِقَارِيٍّ وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ بَفِضِي الْأَعْتِيَادُ بِالْتَدْرِيجِ فِيهِ
 شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ تَنْزِيلُ نَجْمِ الْقُرْآنِ
 وَسُورِهِ وَآيِهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ وَأَنْظُرْ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ
 سُورَةِ بَرَاءَةَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَأَنَّهَا نُزِلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى نَاقَتِهِ
 بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يَنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَنْصِلِ فِي وَفْتٍ وَيَنْزَلُ الْبَاقِي
 فِي حِينَ آخَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نُزِّلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّولِ بَعْدَ
 أَنْ كَانَتْ الْآيَةُ تَنْزَلُ بِمَكَّةَ مِثْلَ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُدَّثَّرِ وَالضُّحَى
 وَالْفَلَقِ وَمِثَالِهَا وَأَعْتَبَرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُمَيِّزُهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدِينِيِّ مِنَ السُّورِ
 وَالْآيَاتِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ . هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَأَمَّا الْكُهَانَةُ فَهِيَ أَيْضًا

مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ النَّفْسَ
 الْإِنْسَانِيَّةَ اسْتَعْدَادًا لِلِانْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ
 ذَلِكَ لَحْمَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ
 غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ
 الْبَدَنِيَّةِ كَلَامًا أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاحٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ
 بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَحْمِ الْبَصْرِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتَعْدَادُ
 مَوْجُودًا فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطَى التَّقْسِيمَ الْعَقْلِيَّ وَإِنَّ هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصًا
 عَنْ رُتَبَةِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ نَقْضَانِ الضَّمِّ عَنْ ضِدِّهِ الْكَمَالِ لِأَنَّ عَدَمَ الْاسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ
 الْإِدْرَاكِ ضِدُّ الْاسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَتَانٌ مَا بَيْنَهُمَا فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا
 آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ مَقْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الذِّكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ
 عِنْدَمَا يَبْعَثُهَا النَّزْوِعَ لِذَلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجَبَلَةِ عِنْدَمَا يَعْرِقُهَا الْهَجْزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّهُ
 بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مَخَيَّلَةٍ كَأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ
 الْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ أَوْ التَّخَيُّلُ مُسْتَعِينًا بِهِ
 فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاحِ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَيَكُونُ كَالشَّبَعِ لَهُ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأُ
 لِذَلِكَ الْإِدْرَاكِ هِيَ الْكُهَانَةُ وَلَكِنْ هَذِهِ النَّفُوسُ مَقْطُورَةٌ عَلَى النِّقْصِ وَالْقُصُورِ عَنِ
 الْكَمَالِ كَانِ إِدْرَاكِهَا فِي الْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْكَمَالِيَّاتِ وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْخَيْلَةُ فِيهِمْ
 فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا أَلَّةُ الْجُزْئِيَّاتِ فَتَنْفِذُ فِيهَا نُفُوزًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ بَقِظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا
 حَاضِرَةٌ عَتِيدَةٌ تُحَضِّرُهَا الْخَيْلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى الْكَاهِنُ
 عَلَى الْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ الْمَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَرْزَعُ أَحْوَالِ
 هَذَا الصَّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْكَلامِ الَّذِي فِيهِ السَّبْعُ وَالْمُوزَانَةُ لِشَغْلِهِ بِهِ عَنِ الْحَوَاسِ
 وَيَقْوَى بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ النَّاقِصِ فَيَهْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَالَّذِي
 يُشِيرُهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ مَا يَقْدِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ
 لِأَنَّهُ يُتَمِّمُ نَقْصَهُ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيِّ عَنْ ذَاتِهِ الْمُدْرِكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مُلَائِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ
 الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مَوْثُوقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَنْزِعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخَيُّمَاتِ
 حِرْصًا عَلَى الظَّنِّ بِالْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَمُؤْمِنًا عَلَى السَّائِلِينَ وَأَصْحَابِ هَذَا السَّبْعِ هُمْ

الْخَصُوصُونَ بِأَسْمِ الْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فِي مَثَلِهِ هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ لَجَعَلِ السَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ
 صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِالْأَخْبَارِ كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ قَالَ يَا بُنَيَّ صَادِقًا
 وَكَاذِبًا فَقَالَ خُلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ النَّبُوَّةَ خَاصَّتْهَا الصِّدْقُ فَلَا يَعتَرِبُهَا الْكُذِبُ
 بِحَالٍ لِأَنَّهَا اتَّصَلَ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشْعِعٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِأَجْنَبِيٍّ
 وَالْكُهَّانَةُ لَمَّا أَحْتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ كَانَتْ
 دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ وَالتَّبَسُّتُ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَفَةٌ
 الْكُذِبِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نَبُوَّةً وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعُ مَرَاتِبِ الْكُهَّانَةِ
 حَالَةَ السَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السَّجْعِ أَخْذٌ مِنْ سَائِرِ الْمُغْيِبَاتِ مِنَ الْمَرَيَّاتِ وَالْمَسْمُوعَاتِ
 وَتَدُلُّ خَفَّةُ الْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ وَالْبَعْدُ فِيهِ عَنِ الْعَجْزِ بَعْضُ
 الشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكُهَّانَةُ قَدِ انْقَطَعَتْ مِنْذُ زَمَنِ النَّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ
 مِنْ شَأْنِ رِجْمِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهْبِ بَيْنَ يَدَيْ الْبَعَثَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَيْرِ
 السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ وَالْكُهَّانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتْ
 الْكُهَّانَةُ مِنْ يَوْمِئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ الْكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ
 تَكُونُ مِنْ نَفْسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضًا فَالْآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ
 نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ الْبَعَثَةِ وَلَمْ يَمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَأَيْضًا
 فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْانْقِطَاعَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبُوَّةِ فَقَطُّ وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ
 عَلَيْهِ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكُ كُلُّهَا تَخْمَدُ فِي زَمَنِ النَّبُوَّةِ كَمَا تَخْمَدُ
 الْكُوكُبُ وَالسُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ الشَّمْسِ لِأَنَّ النَّبُوَّةَ هِيَ النُّورُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ
 كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْكُهَّانِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ بَيْنَ يَدَيْ النَّبُوَّةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ
 وَهَكَذَا كُلُّ نَبُوَّةٍ وَقَعَتْ لِأَنَّ وُجُودَ النَّبُوَّةِ لَا يَدُلُّهُ مِنْ وَضْعِ فَلَسِكِي يَقْتَضِيهِ وَفِي تَمَامِ
 ذَلِكَ الْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ النَّبُوَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَتَقْصُرُ ذَلِكَ الْوَضْعُ عَنِ التَّمَامِ يَقْتَضِي
 وَجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةٌ وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ
 فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ الْكَامِلُ يَقَعُ الْوَضْعُ النَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وَجُودَ الْكَاهِنِ إِذَا
 وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وَجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَانْقَضَتْ الْأَوْجَاعُ

الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع
 الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته
 الخالصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئاً لأنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما
 قالوه ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة
 معجزاته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر اليوم
 ومعنوية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ولا يصددهم عن ذلك ويوقهم
 في الكذب الأتوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لامية
 بن أبي الصلت فإنه كان يظن أن يتبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيمة وغيرهم فإذا
 غلب الأيمان وانقطعت تلك الأماني آمنوا أحسن إيمان كما وقع لطائفة الأسدي
 وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن
 الأيمان. وأما الرؤيا فحقيقة مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحية لحة من صور
 الواقعات فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما
 هو شأن الذوات الروحية كلها وتصير روحانية بأن تجرد عن المواد الجسمانية
 والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لحة بسبب النوم كما نذكر فتفتس بها علم ما
 يتشوف إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها فإن كان ذلك الاقتباس
 ضعيفاً وغير جلي بالحكاية والمثال في الخيال لتخلصه فيحتاج من أجل هذه الحكاية
 إلى التعبير وقد يكون الاقتباس فورياً يستغنى فيه عن الحكاية فلا يحتاج إلى تعبير
 لخصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللحة للنفس أنها ذات روحانية
 بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها
 بالفعل فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية إلا أن
 نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى على الذين لم يستكملوا
 ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن
 ومنه خاص كالذي للأولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا. وأما الذي
 للإنبياء فهو استعداد بالإنسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى
 الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي وهو عندما

يَعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْأِدْرَاكِ شَبِيهَا بِحَالِ النَّوْمِ شَبِيهَا
بِنَمَائِهِ وَإِنْ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَدْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلِأَجْلِ هَذَا الشَّيْءِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا
بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ وَفِي رِوَايَةٍ
سَبْعِينَ وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي حَمِيحِهَا مَقْضُودًا بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ
الْمَرَاتِبِ بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَهُوَ لِتَكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَمَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةٍ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدَأِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ
وَهِيَ نِصْفُ سَنَةٍ وَمُدَّةُ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ السَّنَةِ
مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ فَكَلَامُ بَعِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ آيِنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا
يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنِ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ وَلَا يُعْطَى حَقِيقَتَهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ
لَكَ هَذَا مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَوْلَا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْأَسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ
لِلْبَشَرِ إِلَى الْأَسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخُلَاصِ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفَطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
إِذْ هُوَ الْأَسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي النَّسْرِ وَمَعَهُ عَوَاقِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ
حُصُولِهِ بِالْفِعْلِ وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى أَرْتِفَاعِ
حِجَابِ الْحَوَاسِ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبَلِيٌّ لَهُمْ فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ أَرْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ
مَا تَشْتَوِي إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ فَتَدْرِكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لَحْمَةً يَكُونُ فِيهَا الظَّفَرُ
بِالْمَطْلُوبِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ فَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ
قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ
وَمَا سَبَبُ أَرْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِ بِالنَّوْمِ فَعَلَى مَا أَصْنَعُ لَكَ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ
إِنَّمَا إِدْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَهُوَ بِخَارِطِ لَطِيفٍ مَرَكُزُهُ بِالْبَحْجُوفِ
الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيحِ لِجَالِينُوسَ وَغَيْرِهِ وَيَتَبَعَثُ مَعَ الدَّمِ فِي
الشَّرْيَاطَانِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطِي الْحَسَّ وَالْحَرَكَةَ وَسَائِرَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَرْتَفِعُ لَطِيفُهُ إِلَى
الدِّمَاغِ فَيَعْدِلُ مِنْ بَرْدِهِ وَنَتْمُ أَفْعَالِ الْقُوَى الَّتِي فِي بَطُونِهِ فَالْنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِنَّمَا تَدْرِكُ
وَتَعْقِلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْبَحْجُوفِيِّ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا أَفْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ
اللطيف لا يؤثِّرُ فِي الكيفِ وَلَمَّا لَطَفَ هَذَا الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِّ الْبَدَنِيَّةِ

صَارَ مَحَلًّا لِأَثَارِ أُلْتِ الْمُبَابِنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ وَهِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ وَصَارَتْ أَثَارَهَا
حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوِاسِطَتِهِ وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ إِدْرَاكِهَا عَلَى تَوْعِينِ إِدْرَاكِ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ
الْحَوَاسُ الْخَمْسُ وَإِدْرَاكِ بِالْبَاطِنِ وَهُوَ الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةُ وَأَنَّ هَذَا الْإِدْرَاكِ كُلَّهُ
صَارَفٌ لَهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ وَلَمَّا
كَانَتْ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً كَانَتْ مُعْرَضَةً لِلْوَسْنِ وَالْفِشْلِ بِمَا يَدْرِكُهَا مِنَ التَّعَبِ
وَالكَلَالِ وَتَغْشَى الرُّوحَ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ بِخَلْقِ اللَّهِ لَهَا طَلَبَ الْأَيْدِي تَجِدَامَ لِتَجَرُّدِ الْإِدْرَاكِ
عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِإِخْتِصَاصِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْحَوَاسِ
الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا وَرُجُوعِهِ إِلَى الْحِسِّ الْبَاطِنِ وَيُعِينُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَعْنَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ
بِاللَّيْلِ فَتَطْلُبُ الْحَرَارَةَ الْغَرِيْبَةَ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ
مُسْتَعِدَّةً مَرَكِبًا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ
إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ فَإِذَا انْخَسَ الرُّوحُ عَنِ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقُوَى الْبَاطِنَةِ
وَخَذَتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَاطِلُ الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثَّلُ
مِنْهَا بِالْتَّرَكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ صُورٌ خَيَالِيَّةٌ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مُعْتَادَةً لِأَنَّهَا مُنْتزَعَةٌ مِنْ
الْمُدْرَكَاتِ الْمُتَعَاهِدَةِ قَرِيبًا ثُمَّ يَنْزِلُهَا الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْحَوَاسِ
الظَّاهِرَةِ فَيَدْرِكُهَا عَلَى أَنْحَاءِ الْحَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ وَرُبَّمَا انْتَفَتِ النَّفْسُ لِقَتَّةً إِلَى
ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقُوَى الْبَاطِنِيَّةِ تَدْرِكُ بِإِدْرَاكِهَا الرُّوحَانِيَّةِ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ
عَلَيْهِ وَتَقْتَسِمُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ ثُمَّ يَأْخُذُ الْخِيَالُ
تِلْكَ الصُّورَ الْمُدْرَكَةَ فَيَمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوْ الْمَحَاكَاةِ فِي الْقَوَابِلِ الْمَعْبُودَةِ وَالْمَحَاكَاةِ
مِنْ هَذِهِ هِيَ الْخِيتَاجَةُ لِلتَّعْبِيرِ وَتَصَرُّفُهَا بِالْتَّرَكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ فِي صُورِ الْحَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ
تَدْرِكَ مِنْ تِلْكَ اللَّحْمَةِ مَا تَدْرِكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الرُّؤْيَا ثَلَاثُ رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَهَذَا
التَّفْصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَالْجُلِّيُّ مِنَ اللَّهِ وَالْمَحَاكَاةُ الدَّاعِيَّةُ إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلِكِ
وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا بَاطِلٌ وَالشَّيْطَانُ يَنْبُوعُ الْبَاطِلِ هَذِهِ حَقِيقَةُ
الرُّؤْيَا وَمَا يُسَمِّيَهَا وَبِشَيْئِهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ خَوَاصُّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ
عَلَى الْعَمُومِ لَا يَخْلُو عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ

لَهُ فِي بَقْطَتِهِ مَرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَلَ لَهُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مُدْرَكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ
 وَلَا بَدْ وَإِذَا جَازَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ فَلَا يَمْتَنِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الذَّاتَ
 الْمُدْرَكَةَ وَاحِدَةً وَخَوَاصِّهَا عَامَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ
 فَصَلُّ * وَوُقُوعُ مَا يَقَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ غَالِبًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ
 وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ اللَّحْمَةِ فِي النَّوْمِ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ
 إِلَى ذَلِكَ فَتَرَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ ذَكَرُ
 أَسْمَاءُ تَذَكَّرُ عِنْدَ النَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيَسْتَوْهَمُهَا الْحَالُومِيَّةُ
 وَذَكَرَ مِنْهَا مَسْلَمَةٌ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ حَالُومَةٌ سَمَّاهَا حَالُومَةُ الطَّبَاعِ التَّامِ وَهُوَ أَنَّ يُقَالَ
 عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ فِرَاقِ السَّرِّ وَصِحَّةِ التَّوَجُّهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَعْجَمِيَّةُ وَهِيَ تَمَاسُ بَعْدَ
 أَنْ يَسُودَ وَغَدَاسُ نَوْفِنَا غَادَسُ وَيَذَكَّرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى الْكَشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ
 فِي النَّوْمِ * وَحِكْمِي إِنْ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لَيْالٍ فِي مَا كَلَّمَهُ وَذَكَرَهُ
 فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَاعُكَ التَّامُ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَقَدْ
 وَقَعَ لِي أَنَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَّةً عَجِيبَةً وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ عَلَيْهَا مِنْ
 أَحْوَالِي وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ لِلرُّؤْيَا يُعَدِّثُهَا وَإِنَّمَا هَذِهِ الْحَالُومَاتُ تُخَدِّثُ
 اسْتِعْدَادًا فِي النَّفْسِ لَوْقُوعِ الرُّؤْيَا فَإِذَا قَوِيَ الاسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا
 يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَبْعَلَ مِنَ الاسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى إِيقَاعِ
 الْمُسْتَعَدِّ لَهُ فَالْقُدْرَةُ عَلَى الاسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَتَدَبَّرَهُ فِيمَا
 تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

فصل * ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ وَوُقُوعِهَا
 بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَمْتَنِعُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى صِنَاعَةٍ وَلَا
 يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ النُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا تَجِدُ مَدَارَ كَهَمِّ فِي ذَلِكَ بِمَقْتَضَى
 فِطْرَتِهِمْ الَّتِي فُطِّرُوا عَلَيْهَا وَذَلِكَ مِثْلُ الْعَرَّافِينَ وَالنَّاطِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَالْمَرَايَا
 وَطَسَّاسِ الْمَاءِ وَالنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الزَّجْرِ فِي الطَّيْرِ
 وَالسَّبَاعِ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالْحُبُوبِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالنَّوَى وَهَدِيهِ كُلِّهَا مَوْجُودَةٌ فِي
 عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَسْعُ أَحَدًا سَجْدَهَا وَلَا أَنْكَارَهَا وَكَذَلِكَ الْعَجَائِبُ يَلْقَى عَلَى السَّنَنِ

كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والذبيح لأول موته أو نومه يتكلم
 بالغيب وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل
 الكرامة معروفة . ونحن الآن نتكلم عن هذه الإدراكات كلها ونبتدئ منها
 بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس
 الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأوصاف التي ذكرناها وذلك أنها
 ذات روحانية موجودة بالقوة إلى النعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل
 أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة . وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين
 الإدراك والعقل فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية
 وأجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بؤرود مدرجاتها
 المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتعقل الصور
 مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالنعل فتم ذاتها وتبقى النفس
 كالهوى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول
 نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك
 أن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع
 الكليات ثم إذا تمت ذاتها بالنعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك
 إدراك بالآلات الجسمي تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة
 وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة
 لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني ورُبما تنغمس من الظاهر
 إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للإدراك على الإطلاق
 مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرأياضة
 مثل أهل الكشف من الصوفية فتلفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملائكة
 لما بين أفعالهم من الاتصال في الوجود كما قررنا قبل وتلك الذوات روحانية
 وهي إدراك تحض وعقول بالنعل وفيها صور الموجودات وحققها كما مر فينبغي
 فيها شيء من تلك الصور وتفتس منها علوماً ورُبما دُفعت تلك الصور المدركة إلى
 الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يرجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في

قَوْلِهِ فَخُبِّرْ بِهِ . هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْإِدْرَاكِ الْعَبِيِّ . وَلَزَجَّ إِلَى
 مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا النَّاطِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّنَافَةِ مِنَ الْمَرَايَا وَطَسَاسِ
 الْمِيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَوَانَ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالنَّوَى فَكَلِمُهُمْ مِنْ
 قَبِيلِ الْكَلْبَانِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَضَعَتْ رُبَّةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ الْكَلْبَانَ لَا يَحْتَاجُ فِي
 رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرٍ مَعَانَةٍ وَهُؤُلَاءِ يُعَانُونَهُ بِأَخْصَارِ الْمَدَارِكِ الْحَسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي
 نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ فَيَعَكِفُ عَلَى الْمَرْتَبَةِ الْبَسِيطَةِ حَتَّى يَبْدُو لَهُ مُدْرَكَةٌ
 الَّتِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مَشَاهِدَةَ هُؤُلَاءِ لِمَا يَرُونَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ وَتَلَسَّ
 كَذَلِكَ بَلَّ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِ الْبَصَرِ وَيَبْدُوَ فِيمَا بَيْنَهُمْ
 وَبَيْنَ سَطْحِ الْمِرَاةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ . يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورٌ هِيَ مَدَارِكُهُمْ فَيَشِيرُونَ إِلَيْهِمْ
 بِالْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا
 ادْرَكَوهُ وَأَمَّا الْمِرَاةُ وَمَا يَدْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا يَدْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ
 لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوْعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَهُوَ نَفْسَانِيٌّ لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ بَلَّ
 يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرَكُ النَّفْسَانِيُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا بَعَرَضُ لِلنَّاطِرِينَ
 فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَلِلنَّاطِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالطَّسَاسِ وَأَمثالُ ذَلِكَ . وَقَدْ
 شَاهَدْنَا مِنْ هُؤُلَاءِ مَنْ يُشْغَلُ الْحِسَّ بِالْجُورِ فَقَطَّطَهُمُ بِالْعَزَائِمِ لِلِاسْتِعْدَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا
 ادْرَكَ وَبِزَعْمُونِ أَنَّهُمْ يَرُونَ الصُّورَ مَشْخَصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ
 إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ وَغَيْبَةً هُؤُلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخْفَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْعَالَمِ
 أَبُو الْغَرَائِبِ . وَأَمَّا الزَّجْرُ وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ
 سُنُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَالنَّكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغِيبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعَتْ عَلَى الْحَرِصِ
 وَالْفِكْرِ فَيَا زَجْرٌ فِيهِ مِنْ مَرْتَبَةِ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْخَيْمَلَةُ كَمَا قَدَّمْنَا قُوَّةً
 فَيَعْتَبِرُ فِي التَّبَحُّثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَى أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّي بِهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا كَمَا تَعَلَّهُ الْقُوَّةُ
 الْمُخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْحَسُّوسِ الْمَرْتَبِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ
 مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّوْبَا . وَأَمَّا الْجَانِبِينَ فَذَوُسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ التَّعْلُقِ بِالْبَدَنِ
 لِفَسَادِ أَمْرِ جَنَّتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَعْرِفَةٍ فِي
 الْحَوَاسِ وَلَا مُنْغَمَسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنَ الْمِ الْقُصِّ وَمَرَضِهِ وَرُبَّمَا زَاخَمَهَا عَلَى

التعلق به روحانية اخرى شيطانية تشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه
 التخبط فاذا اصابه ذلك التخبط اما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها او لمزاجية من
 النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فادرك لحة من عالم نفسه وانطبع
 فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير ارادة
 اللطفي وادراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لانه لا يحصل لهم الاتصال
 وان فقدوا الحس الا بعد الاستعانة بالتصورات الاجنبية كما قررناه ومن ذلك يحيى
 الكذب في هذه المدارك واما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم
 ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الامر الذي يتوجهون اليه وياخذون فيه بالظن
 والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والادراك ويدعون بذلك
 معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الامور وقد تكلم عليها المسعودي
 في مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا اصابة ويظهر من كلام الرجل انه كان
 بعيدا عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من اهله ومن غير اهله وهذه الادراكات
 التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفتخرون الى الكهان
 في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من ادراك
 غيرهم وفي كتب اهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق بن انمار
 بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا
 الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تاويل رؤيا ربيعة بن مضر وما اخبراه به
 ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قرش ورؤيا
 الموبدان التي اولها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فاخبره بشان النبوة
 وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير
 وذكروهم في اشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوي فانك ان داويتي لطيب

وقال الاخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد ان هما شنياني
 فقلا شناك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان

وَعَرَفَ الْإِمَامَةَ هُوَ رَاحُ بْنُ عَجَلَةَ وَعَرَفَ نَجْدَ الْأَبْلَى الْأَسَدِيَّ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَدَارِكِ
 الْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مَفَارِقَةِ الْيَقْظَةِ وَالتَّبَاسِخِ بِالنُّومِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى
 الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي
 مَبَادِي النَّوْمِ عِنْدَ مَفَارِقَةِ الْيَقْظَةِ وَذَهَابِ الْأَخْتِبَارِ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ جَبُولٌ
 عَلَى النُّطْقِ وَغَابَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْقَتُولَيْنِ عِنْدَ مَفَارِقَتِهِمَا وَوَسِيمِهِمَا
 وَأَوْسَاطِ أَبْدَانِهِمَا كَلَامٌ يَدُخِلُ فِيهِ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَاغَنَا عَنْ بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ
 قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ
 فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يَسْتَشْعِرُ . وَذَكَرَ مُسَلِّمَةٌ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ أَدَمِيًّا إِذَا
 جُعِلَ فِي دَنٍّ مَمْلُوءٍ بِدِهْنِ السَّمْسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَغْدَى بِالْتَّيْنِ وَالْجُوزِ
 حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشَوَّوْنُ رَأْسِهِ فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الدَّهْنِ
 خَفِينٌ يَجِفُّ عَلَيْهِ الْهُوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ
 وَالْعَامَّةِ وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاقِبِ أَعْمَالِ السَّحَرَةِ لَكِنْ فِيهِمْ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ
 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمَدْرَكِ الْغَيْبِيِّ بِالرِّيَاضَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوَاتًا
 صِنَاعِيًّا بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ يَخُونُ أَثَارَهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ثُمَّ تَغْدِي بِهَا
 بِالذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا وَيَحْضُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ
 عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحُسُّ وَحُجَابُهُ وَأَطَاعَتِ النَّفْسُ عَلَى الدَّعِيَّاتِ
 وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السَّحَرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْضُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاعُ عَلَى الدَّعِيَّاتِ
 وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي الْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِمِ الْمُنْعَرَفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِأَلَدِ
 الْهِنْدِ وَيَسْتَدُونَ هُنَاكَ الْحُوكِيَّةَ وَلَهُمْ كِتَابٌ فِي كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ
 عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ
 الْمَدْمُومَةِ وَإِنَّمَا يَقْضُونَ جَمْعَ الْهَمَّةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكَيْفِيَّةِ لِيَحْضُلَ لَهُمُ أَذْوَاقُ
 أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجُوعِ التَّغْدِيَّةِ بِالذِّكْرِ
 فِيهَا تَمُّ وَجْهَتِهِمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ عَلَى الذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى
 الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ وَإِذَا عَرِيَّتْ عَنِ الذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُصُولُ مَا يَحْضُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ
 الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لِهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُودًا مِنْ أَوَّلِ

الْأَمْرُ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ الْوَجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ
 وَالْإِطْلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَأَخْسِرَ بِهَا صَفَقَةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَرِكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ أَثَرُ
 الْعَرْفَانِ الْعَرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي فَمَنْ يَقْصِدُونَ بوجهِتهم الْعَبُودَ لِشَيْءٍ سِوَاهُ وَإِذَا
 حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَحْصُلُ فِي الْعَرَضِ وَغَيْرِ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقْرَأُ مِنْهُ إِذَا
 عَرَضَ لَهُ وَلَا يَحْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِذَاتِهِ لِغَيْرِهِ وَحُصُولِ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ
 وَيَسْمَعُونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخُوطُورِ فِرَاسَةً وَكَشْفًا وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ
 التَّصَرُّفِ كِرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِمَكْبَرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ الْأَسْنَادُ
 أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْزَابِيَّ وَأَبُو مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي زَيْدِ الْمَالِكِيَّ فِي آخِرِينَ فِرَارًا مِنَ التَّبَاسِ
 الْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا وَالْمَوْعُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ التَّنْفِيقِ بِالتَّحْدِي فَيُؤَكِّفُ
 وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنْ فِيكُمْ مَحْدَثِينَ وَإِنْ
 مِنْهُمْ عَمْرٌ وَقَدْ وَقَعَ الصَّحَابَةَ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٍ مَعْرُوفَةٌ تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عَمْرٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا سَارِيَةَ أَجْبَلُ وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ زَيْنِمٍ كَانَ قَائِدًا عَلَى بَعْضِ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
 بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفَتْوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرِكٍ وَهَمَّ بِالْإِهْزَامِ وَكَانَ يَقْرُبُهُ
 جَبَلٌ يُسَمَّى إِلَيْهِ فَرُفِعَ لِعَمْرٍ ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةَ أَجْبَلُ
 وَسَمِعَهُ سَارِيَةَ وَهُوَ بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَةً هُنَاكَ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقَعَّ مِثْلَهُ أَيْضًا لِأَبِي
 بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَاشِيَةَ ابْنَتَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنِ مَا تَحَلَّهَا مِنْ أَوْسَقِ التَّمَرِ مِنْ
 حَدِيثِهِ ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جَذَاهُ لِيَحْوِزَهُ عَنِ الْوَرْتَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ وَإِنَّمَا هُمَا
 أَخَوَاكَ وَأَخْتَاكَ فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمَنْ الْأُخْرَى فَقَالَ إِنْ ذَا بَطْنٌ بِنْتُ خَارِجَةَ أَرَاهَا
 جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي الْمَوْطِطِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ النَّجْلِ وَمِثْلُ هَذِهِ
 الْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَأَهْلِ الْإِفْتِدَاءِ إِلَّا أَنْ أَهْلَ التَّصَوُّفِ
 يَقُولُونَ إِنَّهُ يَقُولُ فِي زَمَنِ النَّبُوَّةِ إِذْ لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِحُضْرَةِ النَّبِيِّ حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُمْ يَقُولُونَ
 إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَسْلُبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يَبَارِقَهَا وَاللَّهُ يَرْزُقُنَا
 الْهُدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى الْحَقِّ

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرِيدِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بِهَالِيلٍ مَعْتَوُونَ أَشْبَهَ بِالْحَبَابِينِ مِنَ
 الْعُقَلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ الْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ الصِّدِّيقِينَ وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْ

أَحْوَالِهِمْ مِنْ يَفْهَمُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الذُّوقِ مَعَ أَنَّهُمْ هَيَّرَ مُكَلِّفِينَ وَبَقَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ
 عَنِ الْمَغِيبَاتِ مَجَابِلَ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَقِيدُونَ بِشَيْءٍ فَيُطْلِقُونَ كَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ
 بِالْعَجَائِبِ وَرُبَّمَا بَنَكَرُ الْقَهْمَاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سَقُوطِ
 التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ وَالْوَلَايَةِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنَّ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
 يَشَاءُ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ الْوَلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرِهَا وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةَ
 ثَابِتَةً الْوُجُودِ فَاللَّهُ تَعَالَى يُخْضِعُهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَهَوْلَاءِ الْقَوْمِ لَمْ تَعْدَمْ نَفْسُهُمْ
 النَّاطِقَةُ وَلَا فَسَدَتْ كَحَالِ الْمَجَانِينِ وَإِنَّمَا فَقِدَ لَهُمُ الْعَقْلَ الَّذِي يَنْطَبِ بِهِ التَّكْلِيفُ
 وَهِيَ صِنْفٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ وَهِيَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ يَشْتَدُّ بِهَا نَظَرُهُ وَيَعْرِفُ أَحْوَالَ
 مَعَاشِهِ وَأَسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَأَسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ عُدْرٌ
 فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ وَلَيْسَ مَنْ فَقِدَ هَذِهِ الصِّنْفَةَ يَفَاقِدُ لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلًا
 عَنِ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونُ مَوْجُودًا لِحَقِيقَتِهِ مَعْدُومًا الْعَقْلَ التَّكْلِيفِيَّ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ
 وَلَا اسْتِحْصَالَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ عِبَادَهُ لِمَعْرِفَتِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ
 وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَسِئُ حَالُ هَوْلَاءِ بِالْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَفْسُدُ نَفْسُهُمْ
 النَّاطِقَةُ وَيَتَحَقَّقُونَ بِالْبَهَائِمِ رَلَكٌ فِي تَمْيِيزِهِمْ عِلَامَاتٌ مِنْهَا أَنَّ هَوْلَاءِ الْبَهَائِلِ لَا تَعْبُدُ لَهُمْ
 وَجِهَةً أَصْلًا وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى الْبَلَهِّ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ وَالْمَجَانِينُ يُعْرَضُ لَهُمْ
 الْحُنُونُ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الْعُمُرِ اعْوَارِضُ بَدْنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نَفْسُهُمْ
 النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْحَيْمَةِ وَمِنْهَا كَثْرَةُ نَصْرَتِهِمْ فِي النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ
 عَلَى إِذْنِ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَالْمَجَانِينُ لَا تَصْرَفُ لَهُمْ وَهَذَا فَضْلٌ أَنْتَهَى بِنَا
 الْكَلَامِ إِلَيْهِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ

وَقَدْ يَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ الْغَيْبِ مِنْ دُونَ غَيْبَةِ عَنِ الْحِسِّ فَمِنْهُمْ
 الْمُتَجَمِّعُونَ الْقَائِلُونَ بِالِدَّلِيلَاتِ الْجُجُومِيَّةِ وَمَقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَكَ وَآثَارِهَا فِي الْعَنَاصِرِ
 وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْأَمْتِزَاجِ بَيْنَ طَبَاعِهَا بِالْتَنَاطُرِ وَيَتَادَى مِنْ ذَلِكَ الْمَزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ
 وَهَوْلَاءِ الْمُتَجَمِّعُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ حُدْسِيَّةٌ وَتَحْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ
 عَلَى التَّأْتِيرِ الْجُجُومِيَّةِ وَحُصُولِ الْمَزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ مَعَ مَزِيدِ حُدْسٍ يَقِفُ بِهِ التَّنَاطُرُ عَلَى
 تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْلِيمُوسُ وَتَحْنُ نَبِيْنٌ بَطْلَانٌ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ لَوْ ثَبِتَ فَعَايَتُهُ حَدْسٌ وَتَحْمِينٌ وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَا فِي شَيْءٍ . وَمِنْ
 هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ وَتَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةَ سَمَوَهَا خَطَّ
 الرَّمْلِ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ وَمَحْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا
 مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الرُّوْحِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ
 وَأَسْمَاؤِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَرْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا
 كُلُّهَا فَشَكْلَانِ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهِمَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطَّ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ
 كَانَ الْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةُ أَشْكَالٍ وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ
 جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا مِيزُوهَا كُلُّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا إِلَى سُعُودٍ وَمُحُوسٍ شَأْنُ
 الْكُوكِبِ وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتًا طَبِيعِيَّةً بِرِعْمِهِمْ وَكَانَتْهَا الْإِثْنَا عَشَرَ الَّتِي
 لِلْفَلَكَ وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْهَا بَيْتًا وَخَطُوطًا وَدَلَالَةً عَلَى صِنْفٍ
 مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْعُنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ فَنَّا حَادِثًا وَدَلَالَةً عَلَى النِّجَامَةِ
 وَنَوْعٍ فَضَائِهِ إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ النِّجَامَةِ مُسْتَنْدَةٌ إِلَى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا يَزْعُمُ تَطْلِيمُوسُ
 وَهَذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنْدُهَا أَوْضَاعٌ تَحْكِيمِيَّةٌ وَهِيَ اتِّفَاقِيَّةٌ وَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا
 وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوتِ الْقَدِيمَةِ فِي الْعَالَمِ وَرُبَّمَا نَسَبُوهَا إِلَى دَانِيَالٍ أَوْ
 إِلَى آدْرِيسَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلُّهَا وَرُبَّمَا يَدْعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَحْتَجُونَ
 بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ
 عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطِّ الرَّمْلِ كَمَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَحْصِيلَ لَدَيْهِ لِأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَانَ
 نَبِيٌّ يَخْطُ فَيَأْتِيهِ الْوَحْيُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَطِّ وَلَا اسْتِحْطَالَهُ فِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ
 الْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَهُوَ ذَلِكَ أَيُّ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ الْخَطِّ بِمَا عَضَدَهُ
 مِنَ الْوَحْيِ لِذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ عِنْدَ الْخَطِّ وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ
 ذَلِكَ مِنَ الْخَطِّ مَجْرَدًا مِنْ غَيْرِ مَوَافَقَةٍ وَحْيٍ فَلَا وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . فَإِذَا
 أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ مُغَيَّبِ بَرِعْمِهِمْ عَمَدُوا إِلَى قِرطَاسٍ أَوْ رَمْلِ أَوْ دَقِيقٍ فَوَضَعُوا النُّقْطَ
 سَطْرًا عَلَى عَدَدِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ثُمَّ كَرَّرُوا ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَتَجِيءُ سِتَّةَ عَشَرَ
 سَطْرًا ثُمَّ يَطْرَحُونَ النُّقْطَ أَرْوَاجًا وَيَضَعُونَ مَا بَقِيَ مِنْ كُلِّ سَطْرِ زَوْجًا كَانَ أَوْ فَرْدًا
 فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى التَّرْتِيبِ فَتَجِيءُ أَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ يَضَعُونَهَا فِي سَطْرِ مُتَابِلَةٍ ثُمَّ يُولَدُونَ مِنْهَا

أَرْبَعَةَ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ الْعَرَضِ بِاعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابِلَهَا مِنَ الشَّكْلِ
 الَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي
 سَطْرٍ ثُمَّ يُولَدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا تَحْتَهُمَا بِاعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ
 مِنْ مَرَاتِبِ الشَّكْلَيْنِ أَيْضًا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةٌ أُخْرَى تَحْتَهُمَا ثُمَّ يُولَدُونَ
 مِنَ الْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا مِنَ الشَّكْلَيْنِ شَكْلًا كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هَذَا
 الشَّكْلِ الْخَامِسِ عَشَرَ مَعَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخِرَ السِّتَةِ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ
 عَلَى الْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا افْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّحُوسَةِ بِالذَّاتِ وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ
 وَالْإِمْتِرَاجِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ تَحْكُمًا غَرِيبًا وَكَثُرَتْ
 هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْعُمُرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا التَّالِيْفُ وَاسْتَهْرَفَ فِيهَا الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ
 وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتُ تَحْكُمُ وَهَوَى وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصَبَ
 فِكْرِكَ أَنْ الْعُيُوبَ لَا تَدْرِكُ بِصِنَاعَةِ الْبَيْتَةِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعْرِفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْبَشَرِ
 الْمَفْظُورِينَ عَلَى الرَّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْحُسِّ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ وَلِلذَلِكَ يُسَمَّى الْمُنْجَمُونَ هَذَا
 الصِّنْفَ كُلَّهُمْ بِالزُّهْرِ بَيْنَ نِسْبَةٍ إِلَى مَا نَقَضِيهِ دِلَالَةَ الزُّهْرَةِ بِرُغْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ
 عَلَى إِدْرَاكِ الْعَيْبِ فَالْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ كَانَ النَّظَرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَاصِيَةِ
 وَقَصَدَ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنَ الثَّقُطِ أَوْ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ الْحُسِّ لِتَرْجِعَ
 النَّفْسُ إِلَى عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ لِحُطَّةِ مَا فَهَوْ مِنْ بَابِ الطَّرْقِ بِالْحُصَى وَالنَّظَرِ فِي قُلُوبِ
 الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَرَايَا الشَّفَافَةِ كَمَا ذَكَرْنَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ
 الْعَيْبِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَإِنَّمَا تَفِيدُهُ ذَلِكَ فَهَدَّرَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
 وَالْعَلَامَةُ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا أَهْلَ هَذَا الْإِدْرَاكِ الْعَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوْجُهِهِمْ
 إِلَى تَعْرِفِ الْكَائِمَاتِ يَعْتَرِبُهُمْ خُرُوجٌ عَنْ حَالَتِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْتَنَابُؤِ وَالْتِمَطُّ
 وَمَبَادِيءُ الْعَيْبَةِ عَنِ الْحُسِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ
 فَمَنْ لَمْ تُوَجَدْ لَهُ هَذِهِ الْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْعَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي
 تَفْهِيمِ كَذِبِهِ

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يَصْعُونَ قَوَائِينَ لِاسْتِنْرَاجِ الْعَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ الطُّورِ الْأَوَّلِ الَّذِي
 هُوَ مِنْ مَدَارِكِ النَّفْسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ الْحُدْسِ الْمُبْتَنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ كَمَا

زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنَ الظَّنِّ وَاللَّخْمِينِ الَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ الْعَرَاْفُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَعَالِطُ
 بِجَعْلِهَا كَالْمَضَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكَرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ
 الْمُصَنِّفُونَ وَوَلَجَ بِهِ الْخَوَاصُّ مِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابِ الَّذِي يُسَدُّونَهُ حِسَابَ النَّيْمِ وَهُوَ
 مَذْكَورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمُنَسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي
 الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنَّ تُحْسَبَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي أَسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ الْجَمَلِ
 الْمُضْطَلَّحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أُجْبَدٍ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَلْفِ أَحَادًا وَعَشْرَاتٍ وَمِئِينَ وَالْوُفَا
 فَإِذَا حَسِبْتَ الْأَسْمَ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَاحْسِبِ الْأَخْرَ كَذَلِكَ ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ
 وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَاحْظِ بَقِيَّةَ هَذَا وَبَقِيَّةَ هَذَا ثُمَّ أَنْظِرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ
 مِنْ حِسَابِ الْأَسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ الْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْكَمِيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ
 فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرْدًا
 فَصَاحِبُ الْأَكْثَرِ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانََا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الْكَمِيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ
 فَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْغَالِبُ وَإِنْ كَانََا مَعًا فَرْدَيْنِ فَالطَّالِبُ هُوَ الْغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَاكَ بَيْتَانِ فِي
 هَذَا الْعَمَلِ أَشْتَهَرَا بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا

أَرَى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسُدُّوْا أَقْلَهَا وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ التَّحَالُفِ غَالِبٌ
 وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي وَعِنْدَ اسْتِوَاءِ الْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبٌ

ثُمَّ وَضَعُوا الْمَعْرِفَةَ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَةٍ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرْحِ
 تِسْعَةٍ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَهِيَ (أ)
 الدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِدِ وَ (ي) الدَّالَّةُ عَلَى الْعَشْرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشْرَاتِ وَ (ق)
 الدَّالَّةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمِئِينَ وَ (ش) الدَّالَّةُ عَلَى الْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ
 فِي مَرْتَبَةِ الْأَلْفِ وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ لِأَنَّ الشَّيْنَ هِيَ آخِرُ
 حُرُوفِ أُجْبَدٍ ثُمَّ رَبُّوا هَذِهِ الْأَحْرُفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسْقِ الْمَرَاتِبِ فَسَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ
 رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (اِبْقَش) ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ
 وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْأَلْفِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أُجْبَدٍ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ
 الْإِثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْأَحَادِ
 وَ (ك) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْعَشْرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ وَ (ر) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمِئِينَ

وَهِيَ مَائَتَانِ وَصَيَّرُوها كَلِمَةً وَاحِدَةً ثَلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ بَكَرٌ ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ
 بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةٌ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أَيْمَدٍ
 وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نِهَائِيَّةٍ عَدَدِ الْأَحَادِ وَهِيَ ائِشْ بِكَرٍ جَلَسَ دَمَتْ هَنْتَ وَصَحَّ زَعَدُ
 حَنْظُ طَضَعُ مَرْبَتَةٌ عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْبَتِهِ
 فَأَلْوَحِدِ لِكَلِمَةِ ائِشْ وَالْاِثْنَانِ لِكَلِمَةِ بَكَرٍ وَالثَّلَاثَةِ لِكَلِمَةِ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ
 الَّتِي هِيَ طَضَعُ فَتَكُونُ لَهَا التَّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرْحَ الْأِسْمِ بِتِسْعَةِ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ
 مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ هُوَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ
 الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا مِنْ حُرُوفِ الْأِسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ
 عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالْأِسْمِ الْآخِرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ
 بِمَا قَدَمَتْهُ وَالسِّرِّ فِي هَذَا بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِيَّ مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عَقُودِ الْأَعْدَادِ يَطْرَحُ
 تِسْعَةً إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْبَتَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ
 الْعُقُودِ كَأَنَّهَا أَحَادٌ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ وَالْعَشْرَيْنِ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا اِثْنَانِ
 وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ وَالْثَلَاثُونَ وَالْثَلَاثِمِائَةُ وَالْثَلَاثَةُ الْأَلْفُ كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ فَوُضِعَتْ
 الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرَ وَجُعِلَتْ حُرُوفُ الدَّالَّةِ عَلَى أَصْنَافِ
 الْعُقُودِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْأَحَادِ وَالْعَشْرَاتِ وَالْمِئِينَ وَالْأَلْفِ (١) وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ
 الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سِوَاهُ دَلَّ عَلَى الْأَحَادِ أَوْ الْعَشْرَاتِ أَوْ الْمِئِينَ
 فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ كَلِمَةٍ عِوَضًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا وَتَجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَا
 هَذَا هُوَ الْعَمَلُ الْمَتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شَيْوَحْنَا
 يَرَى أَنَّ الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تِسْعَةً مَكَانَ هَذِهِ وَمَتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيَهَا وَيَفْعَلُونَ
 بِهَا فِي الطَّرْحِ بِتِسْعَةٍ مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاهُ وَهِيَ هَذِهِ ائِشْ بِكَرٍ جَلَسَ دَمَتْ هَنْتَ وَصَحَّ زَعَدُ
 هَفٌ تَحْذَنُ عَشُ خَعٌ تَضَعُ تِسْعُ كَلِمَاتٍ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا
 الَّذِي فِي مَرْبَتِهِ فِيهَا الثَّلَاثِيُّ وَالرُّبَاعِيُّ وَالْثَّنَائِيُّ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلِ مَطْرَدٍ كَمَا
 تَرَاهُ لَكِنْ كَانَ شَيْوَحْنَا يَنْقَلِبُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْعَرَبِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ السِّيَمِيَاءِ
 وَأَسْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنَّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ الْبَنَاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ الْعَمَلَ بِهِذِهِ

(١) قوله بالالف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه

الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حَسَابِ النِّيمِ أَسْحُ مِنْ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ ابِقِشِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ كَيْفَ
 ذَلِكَ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكُ اللَّغَيْبِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ إِلَى أَرَسَاتِهِ عِنْدَ الْمُتَحَقِّقِينَ لِمَا فِيهِ مِنَ
 الْأَرَآءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانِ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ تَصَفُّحُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ
 الرُّسُوحِ اهـ . وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الصَّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ الزَّايِرِجَةَ
 الْمُسَمَّاةُ بِزَيْرِجَةِ الْعَالِمِ الْمَعْرُوفَةِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ السَّبْقِيِّ مِنْ أَعْلَامِ
 الْمَتَّصِفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَاكِشَ وَعِلَيْهِ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ
 مِنْ مُلُوكِ الْمُوحِدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةٌ الْعَمَلِ صِنَاعَةٌ وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاضِ يُولَعُونَ بِإِقَادَةِ
 الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَعْلُوفِ فَيَحْرِضُونَ بِذَلِكَ عَلَى حَلِّ رَمَزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ
 وَصُورَتِهَا الَّتِي يَقَعُ الْعَمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرٌ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ
 وَالْعُنَاصِرِ وَالْمَبْكُونَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْكَلِمَاتِ وَالْعُلُومِ
 وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامٍ فَلِكَيْهَا إِمَّا الْبُرُوجُ وَإِمَّا الْعُنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهُمَا وَخُطُوطُ
 كُلِّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأَوْتَارَ وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَابِعَةٌ مُوضَعَةٌ
 قَرْنِهَا بِرُشُومٍ ^(١) الزَّمَامِ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوَابِّ وَالْحَسَابِ بِالْمَغْرِبِ
 لِهَذَا الْعِلْمِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْغُبَارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي دَاخِلِ الزَّايِرِجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَابِّ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ
 وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَابِّ جَدُولٌ مُمَكِّنٌ الْبُيُوتِ الْمُتَقَابِعَةَ طَوْلًا وَعَرْضًا
 يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطُّولِ جَوَانِبُ مِنْهُ
 مَعْمُورَةٌ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبُ خَالِيَةٌ الْبُيُوتِ وَلَا تَعْلَمُ نِسْبَةَ
 تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةَ الَّتِي عَيَّنَتِ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَحَافَاتُ
 الزَّايِرِجَةِ أَيْتَاتٌ مِنْ عَرُوضِ الطُّوِيلِ عَلَى رُويِ الْأَمِّ الْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ
 فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّايِرِجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِلْغَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ
 وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّايِرِجَةِ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكْبَارِ أَهْلِ الْخُدَّانِ
 بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وَهَيْبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْجَلِيَّةٍ كَانَ فِي الدَّوَلَةِ الْأَمْتُونِيَّةِ وَنَشِئَ الْبَيْتُ
 سُؤَالَ عَظِيمٍ أَلْخَلِقُ حَزْتَ فَصْنُ إِذْنِ غَرَائِبِ شَكِّ ضَبْطُهُ الْخُدَّ مَثَلًا
 وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَتَدَاوِلُ عِنْدَهُمْ فِي الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّايِرِجَةِ

(١) قوله برشوم اي موضوعة بضم راء جمع رشم باشون المعجمة اهـ

وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال
وقطعوه حرّوفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى
الزايجة ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز
ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله
إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما ويصيرونها حرّوفاً بحساب الجمل وقد ينقلون
أحاديها إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل
عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف
بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا
يتجاوزونه إلى المحيط ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف
الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك
بن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج
وأسه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة
الحساب فإنه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس
الأكبر والدور الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين
معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حرّوفاً ويسقطون أخرى
ويقالون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما
معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار ويخرجون في كل دور
الحرف الذي ينتهي عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندهم لذلك
فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد
على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم
حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايجة وقد رأينا
كثيراً من الخواص يتهافون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما
وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس
ذلك بصحيح لأنه قد مرّ لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما المطابقة
التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الأفهام والتوافق في الخطاب حتى يكون

الْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ الْحُرُوفِ
 الْمُجْتَمِعَةِ مِنَ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ وَالِدُخُولِ فِي الْجَدُولِ بِالْأَعْدَادِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنْ ضَرْبِ
 الْأَعْدَادِ الْمَفْرُوضَةِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنَ الْجَدُولِ بِذَلِكَ وَطَرَحِ أُخْرَى وَمَعَاوَدَةِ
 ذَلِكَ فِي الْأَدْوَارِ الْمَعْدُودَةِ وَمَقَابَلَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ الْبَيْتِ عَلَى التَّوَالِي غَيْرِ مُسْتَنَكِرٍ
 وَقَدْ يَقَعُ الْأَطْلَاعُ مِنْ بَعْضِ الْأَذْكَيَاءِ عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةٌ
 الْجَهُولِ فَالْتَنَاسُبُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ الْحُصُولِ عَلَى الْجَهُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ الْخَاصِلِ
 لِلنَّاسِ وَطَرِيقُ لِحْصُولِهِ سَيِّمًا مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى الْقِيَاسِ وَزِيَادَةً
 فِي الْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَهَنْ أَجَلَ هَذَا الْمَعْنَى يَنْسَبُونَ هَذِهِ الزَّايِجَةَ
 فِي الْغَالِبِ لِأَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَسْئُوبَةٌ لِلسَّبَبِ وَقَدْ وَفَّقْتُ عَلَى أُخْرَى مَسْئُوبَةٌ لِسَهْلِ
 بِنِ عَبْدِ اللَّهِ وَاعْمَرِي إِنَّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ وَالْمَعَانَةِ الْعَجِيبَةِ وَالْجَوَابُ الَّذِي
 يَخْرُجُ مِنْهَا فَالْسِّرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ لِي إِنَّهَا هُوَ الْمَقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَلِكَ الْبَيْتِ
 وَهَذَا يَكُونُ النَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّآ وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ
 ذَلِكَ اسْتَقَطُوا فِيهَا الْمَقَابَلَةَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ يَخْرُجْ الْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ
 عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَضَيَّقُوا مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَتَفُودَهُ
 إِلَى الْمَطْلُوبِ فَيَنْكُرُ صِحَّتَهَا وَيَحْسِبُ أَنَّهَا مِنَ التَّخْيَلَاتِ وَالْإِيهَامَاتِ وَأَنَّ صَاحِبَ
 الْعَمَلِ بَهَا يَثْبُتُ حُرُوفَ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظُمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أُمَّتِ الْحُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ
 وَيَنْعَلُ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونَ ثُمَّ يَجِيءُ بِالْبَيْتِ وَيَوْمُ أَنْ الْعَمَلُ جَاءَ
 عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهَذَا الْحُسْبَانُ تَوْهُمٌ فَاسِدٌ حَمَلٌ عَلَيْهِ الْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ
 الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَدَارِكِ وَالْعُقُولِ وَإِكْنِ مِنْ شَأْنِ كُلِّ
 مَدْرِكٍ إِنْكَارُ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِدْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهِدِهِ
 الصَّنَاعَةِ وَالْحَدْسُ الْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرَّدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مَرَّةٍ فِيهِ عِنْدَ مَنْ
 يَأْشُرُ ذَلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذِكَاؤٌ وَحَدْسٌ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَعْيَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي هُوَ
 أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ لِبَعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَاءُهَا فَمَا ظَنَنْكَ بِمِثْلِ
 هَذَا مَعَ خَفَاءِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَابَتِهَا فَلَنْدُكْرُ مَسْئَلَةٌ مِنَ الْمَعْيَاةِ يَتَّضِحُ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا
 ذَكَرْنَا مِثَالَهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنْ

الفلوس ثم أجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً ثم اشتري بالدرهم كلها طيوراً
 يسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدرهم فجوابه أن تقول هي تسعة لأنك
 تعلم أن فلوس الدرهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة ثمنها وأن عدة أثمان الواحد
 ثمانية فإذا جمعت الثمن من الدرهم إلى الثمن الآخر فكان كلة ثمن طائر فهي
 ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائراً آخر وهو المشتري بالفلوس
 المأخوذة أولاً وعلى سعره اشتريت بالدرهم فتكون تسعة فانت ترى كيف خرج
 لك الجواب المضمرب يسر التناسب الذي بين أعداد المسئلة والوهم أول ما يأتي
 إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب
 بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا إنما هو في الواقعات الحاصلة في
 الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها
 خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته وإذا تبين لك ذلك فالأعمال الواقعة
 في الزاوية كلها إنما هي في استخراج الجواب من الفاظ السؤال لأنها كما رأيت
 استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك إنما
 هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تبسّر عليه
 استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع
 الفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات وليس هذا من
 المقام الأول بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل إلى
 معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله
 يعلم وأنتم لا تعلمون



الفصل الثاني

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الاول

في ان احيال البدو والحضر طبيعية

اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهن من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشط قبل الحاجة والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسه والزراعه ومنهم من يتجمل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والقدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدف انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل باغة العيش من غير مزيد عليه للجهز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المتجملين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتائق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتخضر ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتجئ عوائد الترف البالغة مبالغها في التائق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها من الحرير والدياج وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح واحكام وضعها في تنجيدها والانتباء في الصنائع في الخروج من القوة الى النعل الى غابيتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها وبالعون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش او انية او ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من يتجمل في معاشه الصنائع ومنهم من يتجمل التجارة

وَتَكُونُ مَكْسَبِهِمْ أَنِّي وَأَرْفَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ
وَمَعَاشِهِمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمُ الْمُنْتَحِلُونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنَ الْقَلْحِ
وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنَّهِمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ
وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقْتَصِرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَا لِي يَتَّخِذُونَ
الْبَيْوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبْرِ أَوْ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرَ مُجَدِّدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ
الْأَسْتِظْلَالِ وَالْكِنِّ لِأَمَّا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ
فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا سَيْرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بغيرِ عِلَاجٍ الْبَتَّةِ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ
فِي الزَّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْقَلْحِ كَانَ الْمَقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الظَّنِّ وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَرِ
وَالْقَرَى وَالْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ الْبُرْبَرِ وَالْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلَ الْغَنَمِ
وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظُعُنٌ فِي الْأَغْلَبِ لِأَرْبَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ حَيَوَانَاتِهِمْ فَالْتَّقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ
أَصْلَحَ بِهِمْ وَيَسْمُونَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُعْدُونَ فِي الْقَفْرِ
لِفَقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّبِيعِيَّةِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْبُرْبَرِ وَالتُّرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التُّرْكَمَانَ وَالصَّقَالِبَةِ
وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْأَيْلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظُعُنًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ مَجَالًا لِأَنَّ مَسَارِحَ
التَّلُولِ وَبَنَاتِهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَعْفِي بِهَا الْأَيْلُ فِي قَوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ
وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمَلْحَةِ وَالتَّقَلُّبِ فَصَلَّ الشَّاءُ فِي نَوَاحِيهِ فِرَارًا مِنْ أذى البُرْدِ إِلَى دِفْءِ
هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَا خِصَّ النَّتَاجُ فِي رِمَالِهِ إِذَا الْأَيْلُ أَضْعَبَ الْحَيَوَانَاتِ فَصَالًا وَمَخَاضًا
وَأَحْوَجُهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدِّفْءِ فَاضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ الشُّجْعَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمْ الْحَمَامِيَّةُ عَنِ
التَّلُولِ أَيْضًا فَأَوْعَلُوا فِي الْقِفَارِ نَفَرَةً عَنِ الضِّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوْحُشًا
وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ الْوَحْشِ غَيْرَ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَالْمُقْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ
الْمُتَّجِمِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُعُونَ الْبُرْبَرِ وَزَنَاتُهُ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادُ وَالتُّرْكَمَانَ
وَالتُّرْكُ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ شُجْعَةً وَأَشَدُّ بَدَاوَةً لِأَنَّهَا مَخْتَصِنَةٌ بِالْقِيَامِ عَلَى

الْإِبِلَ فَقَطَّ وَمَوْلَاءَ يَقُومُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى الشَّيَاهِ وَالْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِبِلَّ الْعَرَبِ طَبِيعِيٌّ لَا بَدُّ مِنْهُ فِي الْعُمَرَانِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضرة وسابق عليه وان البادية اصل العمران
والامصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدُوَّ هُمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمُ الْعَاجِزُونَ عَمَّا فَوْقَهُ وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَالْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ الضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ الضَّرُورِيَّ أَصْلُ وَالْكَمَالِيَّ فُرْعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَالْبَدُوُّ أَصْلُ لِلْمَدْنِ وَالْحَضَرَ وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الضَّرُورِيَّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى الْكَمَالِ وَالْتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ الضَّرُورِيُّ حَاصِلًا لِحُضُورِهِ الْبِدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ الْحَضَارَةِ وَلِهَذَا تَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةَ الْبَدُوِّيِّ يَجْرِي إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرِحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الرِّيَاشِ الَّذِي يُحْصِلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى الدَّعَةِ وَأَمَكَّنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ الْمَدِينَةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ الْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ وَالْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَادِيَةِ إِلَّا لِضُرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِنَقْصِيرٍ عَنِ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدُوَّ أَصْلُ لِلْحَضَرَ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ أَنَا إِذَا فَتَشْنَا أَهْلَ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوْلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدُوِّ الَّذِينَ يَنْحَاجِيَةُ ذَلِكَ الْمِصْرَ وَعَدَلُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالْتَّرَفِ الَّذِي فِي الْحَضَرَ وَذَلِكَ بَدَلٌ عَلَى أَنَّ أَحْوَالِ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنِ أَحْوَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا فَتَفَهَّمَهُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَدُوِّ وَالْحَضَرَ مُتَفَاوِتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ قَرَبٌ حَيٌّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٌ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٌ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٌ أَكْثَرُ عُمْرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ الْبَدُوِّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمَدْنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَصْلُ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمَدْنِ وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَالِدَّعَةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنِ عَوَائِدِ الضَّرُورَةِ الْمَعَاشِيَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضرة

وَسَبَبُهُ أَنْ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ مَتَهِيئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا
وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ
يَهْوِدَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ أَوْ يَحْسَبَانِهِ وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخَلْقَيْنِ تَبَعْدُ عَنِ الْأَخْر
وَيَصْعُبُ عَلَيْهَا أَوْ كِتْسَابُهُ فَصَاحِبُ الْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ الْخَيْرِ وَحَصَّاتُ
لَهَا مَلَائِكَةٌ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَصَعُبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ الشَّرِّ إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ
أَيْضًا عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ الْحَضَرِ لِكثْرَةِ مَا يَعَانُونَ مِنْ فُتُونِ الْمَلَائِكَةِ وَعَوَائِدِ التَّرَفِ وَالْإِقْبَالِ
عَلَى الدُّنْيَا وَالْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوْتُ أَنْفُسَهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ
الْخَلْقِ وَالشَّرِّ وَبَعُدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى
لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْحَشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجَدَّ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَقْدَعُونَ فِي أَقْوَالِ
الْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كِبَرَانِهِمْ وَأَهْلِ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ الْحَشْمَةِ
لَمَّا أَخَذْتَهُمْ بِهِ عَوَائِدِ السُّوءِ فِي التَّنَظُّهِرِ بِالْفَوَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَأَهْلُ الْبَدْوِ وَإِنْ
كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمَقْدَارِ الضَّرُورِيِّ لَا فِي التَّرَفِ وَلَا فِي شَيْءٍ
مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَدَوَاعِيهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مَعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نَسَبَتِهَا وَمَا يَحْصُلُ
فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ السُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ الْخَلْقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ فَهُمْ
أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ سُوءِ الْمَلَائِكَاتِ بِكثْرَةِ
العَوَائِدِ المَذْمُومَةِ وَفُجْحِهَا فَيَسْهُلُ عَلَيْهِمْ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ الْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ تَبَوَّضُحُ فِيهَا
بَعْدَ أَنْ الْحَضَرَةُ هِيَ نِهَآيَةُ الْعُمُرَانِ وَخُرُوجِهِ إِلَى الْفَسَادِ وَنِهَآيَةُ الشَّرِّ وَالْبَعْدُ عَنِ الْخَيْرِ
فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَلَا
يُعْتَرِضُ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي الْأَنْبِيَاءِ
وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ أَرْتَدَدْتَ عَلَى عَقْبِكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا
وَأَكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدْنَى لِي فِي الْبَدْوِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْهَجْرَةَ أَقْرَبَتْ
أَوَّلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ
الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرَسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَعْرَابِ

اهل البادية لان اهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة
 والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الاعراب وقد كان المهاجرون يستعيدون بالله
 من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا يحب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في
 حديث سعد بن ابي وقاص عند مرضه بمكة اللهم امض لأصحابي هجرتهم ولا
 تردهم على اعدائهم ومعناه ان يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا
 عن هجرتهم التي ابتدأوا بها وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من
 الوجوه وقيل ان ذلك كان خاصا بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة
 لقلّة المسلمين واما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه
 بالعضمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد
 الفتح وقيل سقط انشاؤها عن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عن أسلم وهاجر
 قبل الفتح والكل يجمعون على انها بعد الوفاة ساقطة لان الصحابة افرقوا من يومئذ
 في الافاق وانتشروا ولم يبق الا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج
 سلمة حين سكن البادية ارتدت على عقبيك تعربت نعي عليه في ترك السكنى
 بالمدينة بالاشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله لا تردهم على اعدائهم
 وقوله تعربت اشارة إلى انه صار من الاعراب الذين لا مهاجرون واجاب سلمة
 بانكار ما الزمه من الامرين وان النبي صلى الله عليه وسلم اذن له في البدو ويكون
 ذلك خاصا به كشهادة خزيمة وعتاق ابي بردة او يكون الحجاج انما نعي عليه
 ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة واجابه سلمة بان
 اعتنامه لاذن النبي صلى الله عليه وسلم اولى وافضل مما اتره به واخصه الالمعنى
 علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لان
 مشروعية الهجرة انما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وجراسته
 لا لمذمة البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب دليل على مذمة التعرب والله
 سبحانه اعلم وبه التوفيق

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ اتَّقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مَهَادِ الرَّاحَةِ وَالذَّعَةِ وَالنَّعْمِ
فِي النَّعِيمِ وَالزَّوْفِ وَوَكَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَالْحَاكِمِ
الَّذِي يَسُوسُهُمْ وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَكَّلَتْ حِرَاسَتَهُمْ وَأَسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ
وَالْحُرُزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهَيَّبُهُمْ هَيْعَةٌ وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدُ فِهْمٍ غَارُونَ أَمْنُونَ
فَدَأْتُوا السَّلَاحَ وَتَوَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأَجْبَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ الَّذِينَ
هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَتَوَاهُمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ خُلُقًا يَتَنَزَّلُ مَنزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَأَهْلُ الْبَدْوِ لَتَفَرُّهُمْ
عَنِ الْمُجْتَمَعِ وَتَوَحُّشُهُمْ فِي الضَّوَاهِي وَبَعْدَهُمْ عَنِ الْحَامِيَةِ وَاتَّبَادَهُمْ عَنِ الْأَسْوَارِ
وَالْأَبْوَابِ فَانْمُونُ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَكُونُهَا إِلَى سِوَاهُمْ وَلَا يَتَّقُونَ فِيهَا بَعْضَهُمْ
فِهِمْ دَائِمًا يَحْمِلُونَ السَّلَاحَ وَيَتَلَفَتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطَّرِيقِ وَيَتَجَافُونَ عَنِ الْهَجُوعِ
إِلَّا غَرَارًا فِي الْمَجَالِسِ وَعَلَى الرَّحَالِ وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَاتِ وَالْمُهَيْعَاتِ
وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ مَدْلِينَ بِأَنْفُسِهِمْ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبَأْسُ خُلُقًا
وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوْ اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمًا
خَالِطُهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحِبُهُمْ فِي السَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ
أَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ النَّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ
السُّبُلِ وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ وَأَصْلُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْوُفُهُ لَا ابْنَ طَبِيعَتِهِ
وَمَزَاجِهِ فَالَّذِي أَلْفَهُ فِي الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقًا وَمَلَكَتْهُ وَعَادَةٌ تَنَزَّلُ مَنزِلَةَ الطَّبِيعَةِ
وَالْحَبْلَةِ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْأَدَمِيِّينَ تَجِدُهُ كَثِيرًا صَحِيحًا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضرة للاحكام مفسدة لباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكٌ أَمْرٍ نَفْسِهِ إِذِ الرُّؤْسَاءُ وَالْأَمْرَاءُ الْمَالِكُونَ لِأَمْرِ
النَّاسِ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنْ الْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي مَلَكَتْهُ غَيْرِهِ وَلَا يَدَّ
فَإِنْ كَانَتْ الْمَلَكَتُ رُفِيقَةً وَعَادَةٌ لَا يَعَانِي مِنْهَا حُكْمٌ وَلَا مَنَعٌ وَصَدَّقَ كَانِ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ

يَدَهَا مُدْلِينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ وَاتَّقِينَ بَعْدَ الْوَأْزَاعِ حَتَّى صَارَ لَهُمْ
الْإِدْلَالُ جُبْلَةً لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْمَأْكُتَةُ وَأَحْكَامُهَا بِالْقَهْرِ وَالسُّطُورَةِ
وَالْإِخَافَةِ فَتَكْسِرُ حَيْثُ نَدِي مِنْ سُورَةِ بَأْسِهِمْ وَتَذْهَبُ الْمَنْعَةُ عَنْهُمْ لِمَا يَكُونُ مِنَ
التَّكَاسُلِ فِي النُّفُوسِ الْمُضْطَّهِدَةِ كَمَا نَبَّيْنَهُ وَقَدْ نَهَى عُمَرُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ
مِثْلِهَا لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةُ بْنُ حُوْبَةَ سَلَبَ الْجَالِنُوسِ وَكَانَتْ قِيَمَتُهُ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ
الذَّهَبِ وَكَانَ اتَّبَعَ الْجَالِنُوسِ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَأَنْزَعَهُ مِنْهُ سَعْدٌ وَقَالَ
لَهُ هَلَّا أَنْتَظَرْتُ فِي اتِّبَاعِهِ إِذْنِي وَكَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ تَعَمُّدًا إِلَى
مِثْلِ زُهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمَا صَلَّى بِهِ وَبَقِيَ عَلَيْكَ مَا بَقِيَ مِنْ حَرْبِكَ وَتَكْسِرُ فُوقَهُ وَتَفْسُدُ
قَلْبَهُ وَأَمْضَى لَهُ عُمَرُ سَلَبَهُ وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ بِالْعِقَابِ فَمَذْهَبَةٌ لِلْبَأْسِ بِالْكَلِيَّةِ
لِأَنَّ وُقُوعَ الْعِقَابِ بِهِ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْ نَفْسِهِ بِكُنْسِيهِ الْمَذَلَّةَ الَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سُورَةِ بَأْسِهِ
بِلاَ شَكٍّ وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً وَأُخِذَتْ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا أَثَرَتْ
فِي ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ لِمَرْبَاهِ عَلَى الْخِيفَةِ وَالِاتِّقْيَادِ فَلَا يَكُونُ مُدْلًا بِبَأْسِهِ وَلِهَذَا نَجِدُ
الْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَهْلَ الْبُدُوِّ أَشَدَّ بَأْسًا مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْأَحْكَامُ وَنَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ
يُعَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَكَتَهَا مِنْ لَدُنْ مَرْبَاهِمُ فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ
وَالدِّيَانَاتِ يُفْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيرًا وَلَا يَكَادُونَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً
بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْمُتَحَلِّلِينَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْأَخْذِ عَنِ الْمَشَائِخِ
وَالْأَيْمَةِ الْمُحَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي تَجَالِسِ الْوَقَارِ وَالْهَيْبَةِ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ
وَذَهَابُهَا بِالْمَنْعَةِ وَالْبَأْسِ وَلَا تَسْتَنْكَرُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْعَهَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ
الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُفْقِصْ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَأْسًا لِأَنَّ الشَّارِعَ
صَلَّواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُ دِينَهُمْ كَانُوا وَارِعِينَ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِمَا
نُبِّيَ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَلَمْ يَكُنْ بِتَعْلِيمِ صِنَاعِيٍّ وَلَا تَأْدِيبِ تَعْلِيمِيٍّ إِنَّمَا
هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَآدَابُهُ الْمُتَلَقَّاةُ ثَقُلًا يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ
الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ فَلَمْ تَنْزَلْ سُورَةُ بَأْسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْذِشْهَا أَظْفَارُ
التَّأْدِيبِ وَالحُكْمِ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ بِهِ الشَّرْعَ لَا أَدَبَهُ اللَّهُ حِرْصًا
عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَأْزَاعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ

وَلَمَّا تَدَافَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ وَأَخَذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَاظِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً
يُؤَخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّنَادِيهِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَخُلِقَ الْإِنْقِيَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ
نَقَصَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْبَاسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ
لِلْبَاسِ لِأَنَّ الْوَاظِعَ فِيهَا ذَاتِيٌّ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مِمَّا
تُؤَثِّرُ فِي أَهْلِ الْحَوَاضِرِ فِي ضَعْفِ نَفْسِهِمْ وَخَضِ الشُّوْكَةَ مِنْهُمْ بِعُمَلَانِهِمْ فِي وِلْدَانِهِمْ
وَكَهُولِهِمْ وَالْبَدُوِّ بِمَعَزَلٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ
وَالْآدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الدُّعْمِيِّينَ وَالتَّمْتَعِيِّينَ
أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُعَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصَّبِيَّانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ نَقَلَهُ
عَنْ شَرِيحِ الْقَاضِي وَاحْتَجَّ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدِّ الْوَحْيِيِّ مِنْ شَأْنِ الْعَطْرِ وَأَنَّهُ
كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الْعَطْرِ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ
عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهِ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

الفصل السابع

في ان سكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبية

إِعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَجَّانَهُ رَكَّبَ فِي طِبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ وَقَالَ فَأَنْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَالشَّرُّ أَقْرَبُ لِخَلَالِ الْيَدِ إِذَا أَهْمَلِ فِي مَرَعَى
عَوَائِدِهِ وَلَمْ يَهْدِيهِ الْإِقْتِدَاءُ بِالدِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَنِيُّ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَمِنْ
أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضُ عَلَى بَعْضٍ فَمَنْ أَمْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ
أَخِيهِ فَقَدْ أَمْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجِدَ ذَا عَفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
فَأَمَّا الْمَدَنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكْمُ وَالِدَوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا
عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكُفَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُو عَلَيْهِ فِهِمْ
مَكْبُوحُونَ بِحِكْمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظْلَمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا
الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاحُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوْ الْغَرْوِ لِيَلَّا
أَوْ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ زُرْدِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْأَسْتِعْدَادِ
وَالْمَقَاوِمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدُوِّ فَيَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنِ بَعْضٍ مَسَاخِطُهُمْ وَكِبْرَاؤُهُمْ بِمَا وَفَّرَ فِي

نُفُوسَ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالْتَجَلَّةِ وَأَمَّا حَالِهِمْ فَأَيُّمَا يَدُورُ عَنْهَا مِنْ خَارِجِ حَامِيَةِ
الْحَيِّ مِنْ أُنْجَادِهِمْ وَتَمَيَّنِيهِمْ بِالْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دَفَاعِهِمْ وَذِيَادُهُمْ
إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصِيْبَةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشَدَّدَ شَوْكَتُهُمْ وَيَخْشَى جَانِبَهُمْ
إِذْ نَعْرَةٌ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصِيْبَتِهِ أَهْمٌ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ
وَالنُّعْرَةِ ^(١) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَفُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةً فِي الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ
التَّعَاوُدُ وَالتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ لَئِن آكَلَهُ الذَّبُّ وَتَحَنُّ عَصْبَةٌ إِنَّا إِذَا الْخَاسِرُونَ
وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ الْعَدُوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعَصْبَةِ لَهُ وَأَمَّا الْمُتَقَرِّدُونَ فِي
أَنْسَابِهِمْ فَقَالَ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نَعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ
الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِبَغْيِ النِّجَاةِ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَأَسْتِيْحَاشًا مِنَ التَّلَاذُلِ فَلَا
يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهُمُ مِنْ
الْأَمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِمُدَافَعَةٍ وَالْحِمَايَةِ فَبِمِثْلِهِ
يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ بُؤْءٍ أَوْ إِقَامَةٍ مَلَكَ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلُوغُ
الغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْأَسْتِعْضَاءِ وَلَا
بَدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعَصِيْبَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أِنْفَاءً فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ
بَعْدَ وَاللَّهُ الْمُؤْتَقُّ لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن

في ان العصبية لما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صَلَاةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَوَيْنَ صَاحِبِهَا النُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي
الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَالِكَةٌ فَإِنَّ الْقُرْبَى يَجِدُ فِي نَفْسِهِ
غَضَاضَةً مِنْ ظَلَمِ قَرِيبِهِ أَوْ الْعِبَادَاءِ عَلَيْهِ وَيُودُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَعَاطِبِ
وَالْمَهَالِكِ نَزْعَةً طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ مِذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ
قَرِيبًا جَدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ الْإِتِّحَادُ وَالْإِتِّحَامُ كَانَتْ الْوَصْلَةُ ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ
بِعَجْرَدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعْدَ النَّسَبِ بَعْضُ الشَّيْءِ قَرِيبًا تَوْسِيًّا بَعْضُهَا وَبَقِيَ مِنْهَا شُمْرَةٌ

(١) النعرة والتعار بالضم فهما والدمير الصراخ والصباح في حرب او شر كما في القاموس

فَتَحْمِلُ عَلَى الثُّعْرَةِ لِنَدْوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَارًا مِنَ الْغَضَاظَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي
نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْحَلْفُ إِذْ نُعْرَةُ كُلُّ
أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وَلَائِهِ وَحَلْفِهِ لِلْإِلْفَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنْ أَهْتِضَامِ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ
نَسَبِهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ النَّسَبِ وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللُّحْمَةِ الْخَالِصَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لُحْمَةِ النَّسَبِ
أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا وَمِنْ هَذَا فَهَمُّ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا
تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَايَدَتْهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ
الْأَرْحَامِ حَتَّى نَفَعَ الْمُنَاصَرَةَ وَالنُّعْرَةَ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَعْنَى عَنْهُ إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ
لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَنَفَعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوَصْلَةِ وَالْإِلْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا وَاضِحًا حَمَلَ
الْأَنْفُسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّعْرَةِ كَمَا قُلْنَا هُوَ إِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفَ
فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَايَدَتْهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَانًا وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ الْمُنْهِي عَنْهُ وَمِنْ
هَذَا الْإِعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمُ النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجَهَالَةٌ لَا تَضُرُّ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا
خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قِبَلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَايَدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ وَأَنْتَفَتِ
النُّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصَبِيَّةَ فَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب

ومن في معانم

وَذَلِكَ لِمَا اخْتَصُّوا بِهِ مِنْ نَكِدِ الْعَيْشِ وَشَطَفِ الْأَحْوَالِ وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ حَمَاتِهِمْ
عَلَيْهَا الضَّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ وَهِيَ لِمَا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ
وَنِتَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحُشِ فِي الْقَفْرِ لِرِعِيَّتِهَا مِنْ شَجَرِهِ وَنِتَاجِهَا فِي
رِمَالِهِ كَمَا تَقْدَمُ وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشُّطْفِ وَالسَّغْبِ فَصَارَ لَهُمُ الْفَأُ وَعَادَةً وَرَبِيتَ فِيهِ
أَجْبَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجَبَلَةً فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَمْرِ أَنْ يُسَاهِمَهُمْ فِي
حَالِهِمْ وَلَا يَأْتِسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْبَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ
حَالِهِ وَأَمَكْنَهُ ذَلِكَ لِمَا تَرَكَهُ فِيؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَاطِ أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا
وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مَحْفُوظَةٌ صَرِيحَةٌ وَأَعْتَبَرُ ذَلِكَ فِي مُضَرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِبَانَةَ وَتَقِيفَ وَبَنِي
أَسَدٍ وَهَدِيلٍ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ خُرَازَمٍ لِمَا كَانُوا أَهْلَ شَطْفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ

وَلَا ضَرَعَ وَبَعَدُوا مِنْ أَرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأَدَمِ وَالْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ
 أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مَحْضُوتَةً لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ وَلَا عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ
 كَانُوا بِالْثَّلُولِ فِي مَعَادِنِ الْخُصْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ حَمِيرٍ وَكَهْلَانَ مِثْلَ لَحْمٍ وَجُدَامٍ
 وَغَسَّانٍ وَطَيِّ وَفُضَاعَةَ وَإِيَادَ فَأَخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
 يَوْمِيهِمْ مِنْ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجْمِ وَمَخَالَطَتِهِمْ
 وَهُمْ لَا يَتَعَبَّرُونَ بِالْمَحَافِظَةِ عَلَى النَّسَبِ فِي يَوْمِيهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ .
 قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبَطِ السَّوَادِ إِذَا سئِلَ أَحَدُهُمْ
 عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةٍ كَذَا هَذَا أَيْ مَا حَقِيَ هُوَ لِأَنَّ الْعَرَبَ أَهْلَ الْأَرْيَافِ مِنَ الْأَزْدِ حَامٍ
 مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخُصْبِيَّةِ فَكَثُرَ الْاِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ
 وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْاِتِّمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدٌ فَنَسْرِينَ جُنْدٌ
 دِمَشْقَ جُنْدِ الْعَوَاحِمِ وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَالِيسِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرٌ النَّسَبِ
 وَإِنَّمَا كَانَ لِاِخْتِصَامِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عَرَفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ
 زَائِدَةٌ عَلَى النَّسَبِ يَتَمَيِّزُونَ بِهَا عِنْدَ أَمْرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ الْاِخْتِلَاطُ فِي الْخَوَاصِرِ مَعَ الْعَجْمِ
 وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتْ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ الْعَصْبِيَّةِ فَأَطْرَحَتْ ثُمَّ تَلَاشَتْ
 الْقِبَائِلُ وَدُنِرَتْ فَدُنِرَتْ الْعَصْبِيَّةُ بِدُنُورِهَا وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَاللَّهُ وَارِثُ
 الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهِمَا

الفصل العاشر

في اختلاط الانساب كيف يقع

اعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةِ
 إِلَيْهِمْ أَوْ حَلْفٍ أَوْ وِلَاةٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجِنَابَةِ أَصَابِهَا فَيُدْعَى بِنَسَبِ هُوَ لِأَنَّ وَبَعْدَ
 مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ الثُّعْرَةِ وَالْقَوْدِ وَحَمْلِ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ
 النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجِدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكُونِهِ مِنْ هُوَ لِأَنَّ هُوَ لِأَنَّ الْجَرِيَانَ أَحْكَامِهِمْ
 وَأَخْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ التَّحَمُّ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ بَتَنَاسَى النَّسَبَ الْأَوَّلَ بِطَوْلِ الزَّمَانِ وَيَذْهَبُ
 أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ فَيُحْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتْ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُّ
 قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجْمِ . وَانظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ

أَلِ الْمُنْدِرِ وَعَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُ شَأْنٌ بِجِيلَةٍ فِي عَرْجَةِ بْنِ هُرَيْثَةَ لَمَّا
 وَلاَهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْأَعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيْقُ أَيِّ دَخِيلٍ وَاصْبِقُ وَطَلَبُوا
 أَنْ يُؤْتِيَ عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ عَرْجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا
 رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَخَفْتُ بِهِمْ وَأَنْظَرُ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْجَةُ بِجِيلَةٍ
 وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعِي بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِحِهِ
 وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَأَمَّتْ الزَّمَنُ لَتَنَوَّسِي بِالْجَمَلَةِ وَعَدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَذْهَبٍ فَأَهْمَهُ
 وَأَعْتَبَرَ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهُودِ وَاللَّهُ
 الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

(١) الفصل الحادي عشر

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية

إِعْلَمُ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عَصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامِّ
 ففِيهِمْ أَيْضًا عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَسْبَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ التَّعَامًّا مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ مِثْلُ
 عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبِي وَاحِدٍ لَمْ يَثْبُتْ بَنِي الْعَمِّ الْأَقْرَبِينَ أَوْ
 الْأَبْعَدِينَ قَهْرًا أَوْ لِقَاعِدُ بِنَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَصَائِبِ فِي
 النَّسَبِ الْعَامِّ وَالنُّعْرَةِ نَفْعٌ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِّ إِلَّا أَنَّهُمْ
 فِي النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ اقْتِرَابِ اللَّحْمَةِ وَالرِّئَاسَةِ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
 وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتْ الرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلْبِ وَجِبَّ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةً
 ذَلِكَ النَّصَابُ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ الْعَصَائِبِ لِيَقَعَ الْغَلْبُ بِهَا وَتَمَّ الرِّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجِبَّ
 ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ الْغَلْبِ
 عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي الْعَصَائِبِ الْأُخْرَى النَّازِلَةِ عَنْ عَصَابَتِهِمْ فِي
 الْغَلْبِ لَمَّا تَمَّتْ لَهُمُ الرِّئَاسَةُ فَلَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى
 فَرْعٍ وَلَا تَتَّقِلُ إِلَّا إِلَى الْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لَمَّا قُلْنَا مِنْ سِرِّ الْغَلْبِ لِأَنَّ الْاجْتِمَاعَ
 وَالْعَصَبِيَّةَ بِمِثَابَةِ الْمَرَاجِ لِلْمَتَكُونِ وَالْمَرَاجِ فِي الْمَتَكُونِ لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَفَّاتِ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة الفرنسية وثابته اولى لطابق كلاه

الْعُنَاصِرُ فَلَا بُدَّ مِنْ غَلْبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ التَّكْوِينُ فِهَذَا هُوَ سِرُّ اشْتِرَاطِ الْغَلْبِ فِي
 الْعَصِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ اسْتِمْرَارُ الرَّئِيسَةِ فِي النَّصَابِ الْخُصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصية لا تكون في غير نسبهم

وَذَلِكَ أَنَّ الرَّئِيسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْغَلْبِ وَالْغَلْبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ
 فَلَا بُدَّ فِي الرَّئِيسَةِ عَلَى الْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً
 لِأَنَّ كُلَّ عَصِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحْسَتْ بِغَلْبِ عَصِيَّةِ الرَّئِيسِ لَهُمْ أَقْرَبُوا بِالْإِذْعَانِ وَالِاتِّبَاعِ
 وَالسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِالْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ لَهُ عَصِيَّةٌ فِيهِمْ بِالنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مُلْصَقٌ لِزَيْقٍ
 وَغَايَةُ النَّعْصَبِ لَهُ بِالْوِلَاةِ وَالْخَلْفِ وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ غَلْبًا عَلَيْهِمْ الْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ
 قَدِ اتَّخَمَ بِهِمْ وَأَخْتَلَطَ وَنُوسِيَ عَهْدُهُ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَلَيْسَ جَلْدَتُهُمْ وَدُعِيَ
 بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ الرَّئِيسَةُ قَبْلَ هَذَا الْإِلْتِمَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَالرَّئِيسَةُ عَلَى الْقَوْمِ
 إِنَّمَا تَكُونُ مُتَأَفِّقَةً فِي مَنبَتٍ وَاحِدَةٍ تَعَيَّنَ لَهُ الْغَلْبُ بِالْعَصِيَّةِ فَالْأَوْلِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِهَذَا
 الْمُلْصَقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا التَّصَاقُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنْعَهُ ذَلِكَ الْإِلْتِصَاقُ مِنَ الرَّئِيسَةِ حِينَئِذٍ
 فَكَيْفَ تُنَوِّقَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ الْإِلْتِصَاقِ وَالرَّئِيسَةُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْزُونَةً عَنْ
 مُسْتَحِقِّهَا لِمَا قُلْنَا مِنْ التَّغْلِبِ بِالْعَصِيَّةِ وَقَدْ يَبْشَوْنَ كَثِيرٌ مِنَ الرُّؤْسَاءِ عَلَى الْقَبَائِلِ
 وَالْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابٍ يَلْتَجُونَ بِهَا إِمَّا لِحُضُوصِيَّةٍ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذَلِكَ النَّسَبِ مِنْ
 شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ أَوْ ذُكْرِ كَيْفَ اتَّفَقَ فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذَلِكَ النَّسَبِ وَيَتَوَرَّطُونَ بِالِدَعْوَى فِي
 شُعُوبِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا يُوقِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْقَدْحِ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَالطَّعْنِ فِي شَرَفِهِمْ
 وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّاسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَدْعِيهِ زَنَاتَةٌ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْهُ
 أَدْعَاؤُ أَوْلَادِ رَبَّابِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْحِجَازِ بَيْنَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُعْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ
 بَنِي سَلِيمٍ ثُمَّ مِنَ الشَّرِيدِ مِنْهُمْ لِحَقِّ جَدِّهِمْ بَنِي عَامِرٍ تِجَارًا يَصْنَعُ الْحِرْجَانَ (١) وَأَخْتَلَطَ
 بِهِمْ وَاتَّخَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَارِيَّ وَمِنْ ذَلِكَ أَدْعَاؤُ بَنِي عَبْدِ
 الْقَوِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ تُوْجِينٍ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هَذَا
 النَّسَبِ الشَّرِيفِ وَغَلَطًا بِاسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ عَبْدِ الْقَوِيِّ وَلَمْ يَعْلَمْ دُخُولَ أَحَدٍ

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحين نعت الموتى اه

مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعَلَوِيِّينَ أَعْدَاءَهُمْ
 مِنَ الْأَدَارِسَةِ وَالْعَبِيدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شَيْعَةِ الْعَلَوِيِّينَ وَكَذَلِكَ
 مَا يَدْعِيهِ أَبْنَاءُ زِيَانَ مُلُوكِ تَلَمَّسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ بْنِ
 أَدْرِيسَ ذَهَابًا إِلَى مَا أَشْتَهَرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمْ الزَّنَانِي
 أَنْتَ الْقَاسِمُ أَيُّ بَنُو الْقَاسِمِ ثُمَّ يَدْعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ أَدْرِيسَ أَوْ الْقَاسِمُ
 بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فَعَايَةَ الْقَاسِمِ هَذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ
 سُلْطَانِهِ مُسْتَجِرًا بِهِمْ فَكَيْفَ نَبِّهَ لَهُ الرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قِبَلِ
 أَسْمِ الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فِي الْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ وَهُمْ
 غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لِذَلِكَ فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمَلِكِ وَالْعِزَّةَ إِنَّمَا كَانَ بَعْضِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بَادِعًا
 عُلُوِيَّةً وَلَا عَبَّاسِيَّةً وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هَذَا الْمُتَقَرَّرُ بُونَ إِلَى الْمُلُوكِ
 بِمَنَازِعِهِمْ وَمَدَاهِيهِمْ وَبِشْتَهْرِ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ الرَّدِّ وَلَقَدْ بَلَّغَنِي عَنْ يَغْمُرَاسِنَ بْنِ زِيَانَ
 مُؤْتَلِ سُلْطَانِيهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ بَلَّغْتِهِ الزَّنَانِيَّةَ مَا مَعْنَاهَا أَمَا الدُّنْيَا
 وَالْمَلِكُ فَبَلَّغْتَهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهَذَا النَّسَبِ وَأَمَّا نَعْمَهُمَا فِي الْأَخْرَةِ فَمَرْدُودٌ إِلَى اللَّهِ
 وَأَعْرَضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَدْعِيهِ بَنُو سَعْدِ شَيْخِ بْنِ يَزِيدَ
 مِنْ زُعْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شَيْخِ بْنِ بَدَلْتَانَ
 مِنْ تُوْجِينِ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَالزُّوَاوَدَةُ شَيْخِ رِيَّاحِ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ الْبَرَامِكَةِ وَكَذَا
 بَنُو مَهْنَبِ أَمْرَاءِ طَبِيعٍ بِالْمَشْرِقِ يَدْعُونَ فِيمَا بَلَّغْنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَامْتِثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ
 وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِنْ أَدْعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَا بَلْ نَعِينُ أَنْ يَكُونُوا
 مِنْ صَرِيحِ ذَلِكَ النَّسَبِ وَأَقْوَى عَصِيَّاتِهِ فَاعْتَبِرْهُ وَاجْتَنِبِ الْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ
 هَذَا الْبَابِ الْخَاقَ مَهْدِيٍّ الْمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ الْعُلُوِيَّةِ فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنبَتِ
 الرِّئَاسَةِ فِي هَرْتَمَةَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا رَأَسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالِدِينَ وَدُخُولِ
 قَبَائِلِ الْمَصَامِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَاللَّهُ
 عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الفصل الثالث عشر

في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العvisية

أو يكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرْفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَالِ وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ الرَّجُلُ فِي آبَائِهِ
 أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بَوْلَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَالْأَنْسَابُ إِلَيْهِمْ تَجَلَّةٌ فِي أَهْلِ جِلْدَتِهِ لِمَا
 وَقَرَّ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ تَجَلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِمِخْلَافِهِمُ وَالنَّاسُ فِي نَسَبِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ
 قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا
 فَقَهُوا فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ
 الْعَصِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَالتَّنَاصُرِ فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَالْمَنْبَتُ فِيهَا زَكِيٌّ مُجْتَمِعٌ
 تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْأَبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا
 فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرْفُ أَصْلِحِينَ فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ لِوُجُودِ ثَمَرَةِ النَّسَبِ وَتَفَاوُتِ الْبُيُوتِ
 فِي هَذَا الشَّرْفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ
 بَيْتٌ إِلَّا بِالْحِجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَنُحْرَفُ مِنَ الدَّعَاوَى وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ
 الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ بَعْدُ سَلَفًا فِي خِلَالِ الْخَيْرِ وَمِخْلَاطَةِ أَهْلِهِ مَعَ
 الرَّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ وَهَذَا مُعَايِرُ لِسِرِّ الْعَصِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَعْدِيدُ
 الْأَبَاءِ لِكَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِالْحِجَازِ لِعَلَّاقَةٍ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ
 الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ وَعَلَى الْإِطْلَاقِ
 وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ اللَّغْوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ الْمَشْكُوكِ الَّذِي هُوَ فِي
 بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ شَرَفٌ أَوَّلٌ بِالْعَصِيَّةِ وَالْخِلَالِ ثُمَّ يَسْلَخُونَ مِنْهُ
 لِنَهَابِهَا بِالْحَضَارَةِ كَمَا نَقَدَّمُ وَيَخْتَلِطُونَ بِالْعَمَارِ وَيَبْقَى فِي نَفْسِهِمْ وَسْوَاسُ ذَلِكَ الْحَسَبِ
 يُعَدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ الْبُيُوتَاتِ أَهْلِ الْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِنَهَابِ
 الْعَصِيَّةِ جَمَلَةً وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ
 عَهْدِهِمْ مُوسُوسُونَ بِذَلِكَ وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ
 أَمُّهُمُ يَبْتُ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ الْعَالَمِ بِالْمَنْبَتِ أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ
 مِنْ لَدُنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيْعَتِهِمْ ثُمَّ بِالْعَصِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا

أَنَّهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْمَلِكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ثُمَّ اسْتَحْوُوا مِنْ ذَلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ
 الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ وَأَنْفَرَدُوا بِالْإِسْتِعْبَادِ لِلْكَفَرِ
 الْأَقَا مِنَ السِّنِينَ وَمَا زَالَ هَذَا أَلَوْسَاسٌ مُصَاحِبًا لَيْسَ فَمَجِدُهُمْ يَقُولُونَ هَذَا هَارُونِي هَذَا
 مِنْ نَسْلِ يُوْشَعَ هَذَا مِنْ عَقَبِ كَالِبِ هَذَا مِنْ سَيْطِ يَهُوذَا مَعَ ذَهَابِ الْعَصِيَّةِ وَرُسُوحِ الذَّلِّ
 فِيهِمْ مِنْذُ أَحْقَابِ مِطْأُولَةٍ وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُنْقَطِعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ
 عَنِ الْعَصِيَّةِ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْهَدْيَانِ . وَقَدْ غَلَطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنِ رُشْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ
 الْحَسَبَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ مِنْ تَلْفِيصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَالْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ
 قَوْمٍ قَدِيمٍ نَزَلَهُمْ بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ
 قَدِمَ نَزَلَهُمْ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يَرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمَلُ غَيْرَهُمْ عَلَى الْقَبُولِ
 مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ فَقَطَّ مَعَ أَنَّ الْخُطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةٌ مِنْ
 بُؤْرٍ اسْتِمَالَتُهُ وَهِيَ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ فَلَا يَلْتَمِسُ إِلَيْهِ وَلَا
 يَقْدِرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يَسْتِمَالُ هُوَ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنْ الْخَضِرِ يَهْدِيهِ الْمَثَابَةُ إِلَّا
 أَنْ ابْنَ رُشْدٍ رَافَى فِي جَبَلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يَمَارِسُوا الْعَصِيَّةَ وَلَا أَسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي أَمْرِ
 الْبَيْتِ وَالْحَسَبِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَرِاجِعْ فِيهِ
 حَقِيقَةَ الْعَصِيَّةِ وَسِرِّهَا فِي الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الفصل الرابع عشر

فِي إِنْ الْبَيْتِ وَالشَّرَفِ لِلْمَوْلَى وَاهْلِ الْأَصْطِنَاعِ إِنَّمَا هُوَ بِمَوْلَاهُمْ لَا بِأَنْسَابِهِمْ
 وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الشَّرْفَ بِالْأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةَ إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ فَإِذَا أَصْطَنَعَ
 أَهْلُ الْعَصِيَّةِ قَوْمًا مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ أَوْ اسْتَرْفُوا الْعِيدَانَ وَالْمَوْلَى وَأَنْتَحَمُوا بِهِ كَمَا قُلْنَا
 ضَرَبَ مَعَهُمْ أَوْلِيَاءَ الْمَوْلَى وَالْمُضْطَنَعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَلَيْسُوا جَلَدَتْهَا
 كَانَتْهَا عِصْبَتُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِنْتِظَامِ فِي الْعَصِيَّةِ مَسَاهِمَةٌ فِي نَسَبِهَا كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ
 تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَسِوَاهُ كَانَ مَوْلَى رِقٍّ أَوْ مَوْلَى أَصْطِنَاعٍ وَحَلْفٍ
 وَلَيْسَ نَسَبٌ وَلَا دَرَجَةٌ بِنَافِعٍ لَهُ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ إِذْ هِيَ مَبَايِنَةٌ لِذَلِكَ النَّسَبِ وَعَصِيَّةٌ ذَلِكَ
 النَّسَبِ مَقْوودَةٌ لِذَهَابِ سِرِّهَا عِنْدَ اتِّجَامِ هَذَا النَّسَبِ الْآخِرِ وَفُقْدَانِهِ أَهْلَ عَصِيَّتِهَا
 فَيَصِيرُ مِنْ هَوْلَاءِ وَيَنْدَرِجُ فِيهِمْ فَإِذَا تَعَدَّدَتْ لَهُ الْأَبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَصِيَّةِ كَانَ لَهُ لِيَنِيهِمْ

شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نَسَبِهِ فِي وِلَايَتِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُونُ
 آدَوْنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهَذَا شَأْنُ الْمَوَالِي فِي الدُّوَلِ وَالْخِدْمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا
 يَشْرَفُونَ بِالرُّسُوخِ فِي وِلَايَةِ الدُّوَلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّ الْأَبَاءَ فِي وِلَايَتِهَا أَلَا تَرَى إِلَى مَوَالِي
 الْأَتْرَاكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَخْتٍ كَيْفَ أَدْرَكُوا
 الْبَيْتَ وَالشَّرْفَ وَبَنُو الْعَمَّادِ وَالْأَصَالَةَ بِالرُّسُوخِ فِي وِلَايَةِ الدُّوَلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى
 بْنِ خَالِدٍ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ بَيْتًا وَشَرَفًا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى وِلَايَةِ الرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لَا بِالْإِنْتِسَابِ
 فِي الْفُرْسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخِدْمَتِهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوخِ
 فِي وِلَايَتِهَا وَالْأَصَالَةَ فِي أَصْطِنَاعِهَا وَيَضْمَلُ نَسَبَهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُغْنَى لَا
 عِبْرَةَ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَتَجَدِيدِهِ وَإِنَّمَا الْمَعْتَبَرُ نَسَبُهُ وَوِلَايَتُهُ وَأَصْطِنَاعُهُ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصِيَّةِ
 الَّتِي بِهَا الْبَيْتُ وَالشَّرْفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُسْتَقًا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاوُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ
 يَفْعَهُ نَسَبُ وِلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى تَجَدُّدَهُ نَسَبُ الْوِلَايَةِ فِي الدُّوَلَةِ وَالْحِمَّةُ الْأَصْطِنَاعُ فِيهَا
 وَالتَّرْبِيَّةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لِحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وِلَاوُهُ
 وَأَصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعَهُ الْأَوَّلَى لِدَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا وَانْتَفَعُ بِالثَّانِيَةِ لَوْجُودِهَا وَهَذَا
 حَالُ بَنِي بَرْمَكٍ إِذِ الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفُرْسِ مِنْ سِدَنَةِ نُيُوتِ النَّارِ عِنْدَهُمْ
 وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وِلَايَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارًا وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ
 وِلَايَتِهِمْ فِي الدُّوَلَةِ وَأَصْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هَذَا قَوْمٌ نُوسُوسُ بِهِ النَّفْسُ الْجَانِحَةَ وَلَا
 حَقِيقَةَ لَهُ وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمُ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباة

اعلم ان العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من احواله
 فالمكونات من المعادن والتبات وجميع الحيوانات والانسان وغيره كائنة فاسدة
 بالمعابنة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تشايم
 تدرس وكذا الصنائع وامثالها والحسب من العوارض التي تعرض للادميين فهو كائن
 فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من اهل الخليفة شرف متصل في ابائه من لدن ادم
 اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السر فيه

وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قَبِلَ وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرَّئِيسَةِ وَالشَّرَفِ إِلَى الضَّعَةِ
 وَالْإِبْتِدَالِ وَعَدَمِ الْحَسَبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَأْنٌ كُلُّ
 مُحَدَّثٍ ثُمَّ إِنْ نَهَيْتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آبَاءٍ وَذَلِكَ أَنَّ بَابِي الْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَهُ فِي بِنَائِهِ وَحَافِظٌ
 عَلَى الْخِلَالِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبِقَائِهِ وَأَبْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ
 وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقْصِرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرَ السَّمْعِ بِالشَّيْءِ عَنِ الْمَعْنَى لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ
 الثَّلَاثُ كَانَ حَظُّهُ الْإِفْتِنَاءَ وَالتَّقْلِيدَ خَاصَّةً فَقَصَرَ عَنِ الْبَابِيِّ تَقْصِيرَ الْمُقَلِّدِ عَنِ الْمُجْتَمِدِ
 ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَرَ عَنِ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ الْخِلَالَ الْحَافِظَةَ لِبِنَاءِ مُجَدِّهِمْ
 وَأَحْتَقَرَهَا وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبَيَانُ لَمْ يَكُنْ بِمَعَانَاةٍ وَلَا تَكْلُفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجَبَ
 لَهُمْ مِنْذُ أَوَّلِ النَّشْأَةِ بِمَجْرَدِ انْتِسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعَصَابَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْعِجَالَةِ
 بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حَدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ فَيَزْبَأُ بِنَفْسِهِ
 عَنِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وَثَوَقًا بِمَا زَيِّي فِيهِ مِنْ اسْتِتْبَاعِهِمْ وَجِهَلًا بِمَا
 أَوْجَبَ ذَلِكَ الْاسْتِتْبَاعُ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي مِنْهَا التَّوَاضُعُ لَهُمْ وَالْأَخْذُ بِجَمَاعِعِ قُلُوبِهِمْ
 فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْعُصُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيَدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَنْتِ
 وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقَبِ لِلدَّعَانِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ كَمَا قُلْنَا بَعْدَ الْوُثُوقِ بِمَا يَرْضَوْنَهُ
 مِنْ خِلَالِهِ فَتَنَمُّوْهُ فُرُوعٌ هَذَا وَتَدْوِي فُرُوعٌ الْأَوَّلُ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ هَذَا فِي الْمَلُوكِ
 وَهَكَذَا فِي بِيُوتِ الْقُبَايِلِ وَالْأَمْرَاءِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ أَجْمَعِ ثُمَّ فِي بِيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ
 إِذَا انْحَطَّتْ بِيُوتُ نَشَأَتْ بِيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ إِنْ يَشَأُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
 بِمُخْلَقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَأَشْتَرَاطُ الْأَرْبَعَةِ فِي الْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي
 الْغَالِبِ وَالْإِفْقَدِ يَدْبُرُ الْبَيْتَ مِنْ دُونِ الْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ وَقَدْ يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى
 الْخَلْمِ وَالسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ فِي انْحِطَاطِ وَذَهَابِ وَأَعْتَابِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ قَبْلِ الْأَجْيَالِ
 الْأَرْبَعَةِ بَانَ وَمُبَاشِرٌ لَهُ وَمُقَلِّدٌ وَهَادِمٌ وَهُوَ أَقْلٌ مَا يُمْكِنُ وَقَدْ أَعْتَبَرْتَ الْأَرْبَعَةَ فِي
 نَهَايَةِ الْحَسَبِ فِي بَابِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا الْكَرِيمُ ابْنُ
 الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِشَارَةٌ
 إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ الْعَالِيَةَ مِنَ الْمَجْدِ وَفِي التَّوْرَةِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ طَائِقٌ غَيُورٌ مُطَالِبٌ
 بِذُنُوبِ الْأَبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَالرَّوَابِعِ وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْأَعْقَابِ غَايَةٌ

فِي الْأَنْسَابِ وَالْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ الْغَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ
 لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ نَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ يَا أَيُّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ
 ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤَسَاءُ ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الرَّابِعِ فَأَلْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذَلِكَ
 فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حَدَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ وَالِ ذِي الْجَدَيْنِ بَيْتُ
 شَيْبَانَ وَالِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ وَالِ حَاجِبِ بْنِ زِرَارَةَ وَالِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
 الْمَنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَيْمٍ جَمَعَ هُوَ لِأَيِّ الرَّهْطِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمْ
 الْحُكْمَ وَالْعَدُولَ فَقَامَ حَدَيْفَةُ بْنُ بَدْرِ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَابَتِهِ مِنَ النُّعْمَانِ ثُمَّ
 بَسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زِرَارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمِ وَخَطَبُوا وَتَرَوْا فَقَالَ
 كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبُيُوتَاتُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْعَرَبِ
 بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي الذُّيَّانِ مِنْ بَنِي الْحَرْثِ بْنِ كَعْبِ الْيَمَنِيِّ وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ
 عَلَى أَنَّ الْأَزْبَعَةَ الْآبَاءَ نِهَآيَةً فِي الْحَسَبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

في ان الام الوحشية افدر على التغلب من سواها

إِعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْبِدَاوَةُ سَبَبًا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّلَاثَةَ لَا
 جَرَمَ كَانَ هَذَا الْجَيْلُ الْوَحْشِيَّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجَيْلِ الْآخِرِ فَمِمَّا أَفْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ
 وَاتِّزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ بَلِ الْجَيْلُ الْوَاحِدُ يَتَخَلَّفُ أَحْوَالُهُ فِي ذَلِكَ
 بِأَخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ فَكَلَّمَا نَزَلُوا الْأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا النَّعِيمَ وَالْفَوَاعِيْدَ الْخُصْبِ فِي
 الْمَعَاشِ وَالنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوْحُّشِهِمْ وَبِدَاوَتِهِمْ وَأَعْتَبَرِ
 ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ بِدَوَاجِنِ الطُّيَّانِ وَالْبَقَرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْحُمُرِ إِذَا زَالَ تَوْحُّشُهَا
 بِمَحَالَّةِ الْأَدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَتَخَلَّفُ حَالُهَا فِي الْإِنْتِهَاضِ وَالشَّدَّةِ حَتَّى فِي
 مَشِيئَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذَلِكَ الْآدَمِيُّ الْمُتَوْحِّشُ إِذَا أَنْسَ وَالْفِ وَسَبِيهِ أَنْ تَكُونَ
 السَّجَايَا وَالطُّبَاغُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ الْغَلْبُ لِلْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ
 بِالْأَقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْيَالِ أَعَزَّقَ فِي الْبِدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوْحُّشًا
 كَانَ أَقْرَبَ إِلَى التَّغْلِبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي الْعَدَدِ وَتَكَافَأَا فِي الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَنْظُرْ
 فِي ذَلِكَ شَأْنَ مُضَرٍّ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حَمِيرٍ وَكِهْلَانَ السَّاقِيْنَ إِلَى الْمَلِكِ وَالنَّعِيمِ وَمَعَ

رَبِيعَةَ الْمُتَوَطِّئِينَ أَرْيَافَ الْعِرَاقِ وَوَعِيْمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضَرٌّ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَنَقَدَهُمْ الْآخَرُونَ
إِلَى خَسْبِ الْعَيْشِ وَغَضَارَةِ النَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَفَتْ الْبِدَاوَةَ حَدَمَهُ فِي التَّغْلِبِ فَغَلَبُوهُ عَلَى
مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَأَنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهَذَا حَالُ بَنِي طِيٍّ وَبَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَبَنِي سُلَيْمِ
بْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرَ وَالْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا
بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلِفْهَا مَذَاهِبُ
التَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَعْلَبَ عَلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ بِلِي نَعِيْمًا وَعَيْشًا
خَصْبًا دُونَ الْحَيِّ الْآخَرِ فَإِنَّ الْحَيَّ الْمُبْتَدِيَّ يَكُونُ أَعْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَأَا
فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ سَنَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجرى اليها العصبية هي الملك

وَذَلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَكُلُّ أَمْرٍ
يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْأَدَمِيِّينَ بِالطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَخْتَارُونَ فِي كُلِّ أَجْتِمَاعٍ إِلَى
وَأَزَعُ وَحَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ
وَالْأَلَمُ نَتَمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّغْلِبُ هُوَ الْمَلِكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرَّئِيسَةِ لِأَنَّ
الرَّئِيسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُودِدٌ وَصَاحِبُهَا مُتَبَوِّعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا الْمَلِكُ
فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُهَا مُتَبَوِّعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا
الْمَلِكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُ الْعَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةِ طَلَبٍ مَا فَوْقَهَا
فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ السُّودِدِ وَالْإِتْبَاعِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغْلِبِ وَالْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ
مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتِمُّ إِقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا مُتَبَوِّعًا فَاتَّغْلِبَ الْمَلِكُ
غَايَةَ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتُمْ ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ بِيُوتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ
مُتَعَدِّدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتْبِعُهَا وَتَلْتَمِمْ جَمِيعَ الْعَصَبِيَّاتِ
فِيهَا وَتَصْبِرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كَبْرَى وَإِلَّا وَقَعَ الْإِفْتِرَاقُ الْمُفْضِي إِلَى الْإِخْتِلَافِ
وَالْتَنَازُعِ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ التَّغْلِبُ
بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا التَّغْلِبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنْ
كَافَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَفْتَالًا وَأَنْظَارًا وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّغْلِبُ عَلَى حَوَازِنِهَا

وَقَوْمَهَا شَأْنَ الْقَبَائِلِ وَالْأَمْرِ الْمُفْتَرَقَةِ فِي الْعَالَمِ وَإِنْ غَلَبَتْهَا وَاسْتَبَعَتْهَا التَّحَمَّتْ بِهَا أَيْضًا
 وَزَادَتْ قُوَّةً فِي التَّغَلُّبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةَ مِنَ التَّغَلُّبِ وَالتَّحَكُّمِ أَعْلَى مِنَ الْغَايَةِ
 الْأُولَى وَابْعَدَ وَهَكَذَا دَائِمًا حَتَّى تُكْفَى بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا
 مُمَانِعٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ أَهْلَ الْعَصَبِيَّاتِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا وَانْتَزَعَتْ الْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ
 الْمَلِكُ أَجْمَعَ لَهَا وَإِنْ أَنْهَتْ قُوَّتِهَا وَلَمْ يَقَارِنْ ذَلِكَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتَهَا
 إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ انْتِظَمَتْهَا الدَّوْلَةُ فِي أَوْلِيَاءِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَعْنُ مِنْ
 مَقَاصِدِهَا وَذَلِكَ مَلِكٌ آخَرُ دُونَ الْمَلِكِ الْمُسْتَنْدِ وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي
 الْعَبَّاسِ وَأَصْنَهَاجَةَ وَزَنَانَةَ مَعَ كِتَامَةَ وَلِجَنِّي حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ الشَّيْبَعَةِ مِنَ الْعَلَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ
 فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمَلِكَ هُوَ غَايَةُ الْعَصِيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ الْمَلِكُ
 إِمَّا بِالْإِسْتِئْذَانِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ الْوَقْتُ الْمُقَارِنُ لِذَلِكَ وَإِنْ عَاقَبَهُ
 عَنْ بُلُوغِ الْغَايَةِ عَوَائِقُ كَمَا نَبَّيْنَهُ وَوَفَّتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغاس القبيل في النعيم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبِيَّتِهَا بَعْضَ الْغَلَبِ اسْتَوْلَتْ عَلَى النِّعْمَةِ بِمِقْدَارِهِ
 وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعْمِ وَالْخِصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخِصْبِهِمْ وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ بِسَهْمٍ وَحِصَّةٍ
 بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَاسْتِظْهَارِ الدَّوْلَةِ بِهَا فَإِنْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ
 فِي انْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذْعَنَ ذَلِكَ الْقَبِيلُ لَوْلَايَتِهَا وَالْقَنُوعَ بِمَا يَسُوعُونَ
 مِنْ نِعْمَتِهَا وَيُسْرَ كُونَ فِيهِ مِنْ جَبَابِيَّتِهَا وَلَمْ تَسْمُ أَمَالَهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَلَا
 اسْبَابِهِ إِنَّمَا هَمَّتْهُمْ النِّعْمُ وَالْكَسْبُ وَخِصْبُ الْعَيْشِ وَالسُّكُونُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ إِلَى
 الدَّيَّةِ وَالرَّاحَةِ وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمَلِكِ فِي الْمَبَانِي وَالْمَلَايِسِ وَالْإِسْتِكْفَارِ مِنْ ذَلِكَ
 وَالتَّنَاقُ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيَاشِ وَالتَّرْفِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَذْهَبُ
 خَشْيَةُ الْبِدَاوَةِ وَتَضَعُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ
 بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ التَّرَفِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ
 وَيَسْتَنَكِفُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خَلْقًا لَهُمْ
 وَسُجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصَبِيَّتَهُمْ وَبَسَالَتَهُمْ فِي الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ بِتَعَاقُبِهَا إِلَى أَنْ تَنْقُضَ الْعَصَبِيَّةُ

فِيَا ذُنُونِ بِالْأَنْقِرَاضِ وَعَلَى قَدَرِ تَرْفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنْ الْمَلِكِ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرْفِ وَالْفَرْقِ فِي النِّعَمِ كَأَسْرَمٍ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغْلِبُ وَإِذَا أَنْقَرَضَتْ الْعَصِيَّةُ قَصَرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُطَالَبَةِ وَالنَّهْمَتِهِمْ الْأَمُّ سَوَاهُمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرْفَ مِنْ عَوَاقِقِ الْمَلِكِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانتقياذ الى سواهم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالْإِنْتِقِيَادَ كَأَسْرَمٍ لِسَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ أَنْقِيَادَهُمْ وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فَقْدَانِهَا فَمَا رَأَوْا لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَلِكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مَلِكًا كَيْفَ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهَا أَيْ يُخْرِجَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرِ عَصِيْبَتِنَا وَتَكُونُ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ جُؤَا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَاتَلَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَمَّا أَسْوَأَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجِزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ كَمَا نَقَضِيهِه الْآيَةَ وَمَا يُؤْتِرُ فِي تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْإِنْتِقِيَادِ وَمَا رَأَوْا مِنَ الذُّلِّ الْقَبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقًّا إِلَّا بِإِنِّهَا بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ وَأَنَّ الْعِمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيَسْتَهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللَّهِ قُدْرَةً لَهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجِزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ لَمَّا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعَنُوا فِيهَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِالتَّيْبِ وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفْرِ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا الْعُمَرَانَ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا فَصَّهُ الْقُرْآنُ غِلْظَةَ الْعِمَالِقَةِ بِالشَّامِ وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمُ الْعَجِزُ عَنْ مُقَاوِمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيَظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَفْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ الَّتِيهِ مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الذُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالقُوَّةِ وَتَخَلَّفُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصِيْبَتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ الَّتِيهِ جِيلٌ آخَرَ عَزِيزٌ لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصِيَّةٌ آخَرَى أَقْتَدَرُوا بِهَا

عَلَى الْمُطَالِبَةِ وَالْتِغْلِبِ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرَابِينَ سَنَةَ أَقْلٍ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ
جَبَلٍ وَنَشَأَةُ جَبَلٍ آخَرَ سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وَفِي هَذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ الْعَصَبِيَّةِ
وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الدِّفَاعَةُ وَالْمَقَاوِمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالِبَةُ وَأَنَّ مِنْ فَقْدِهَا عِزَّ
عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهَذَا الْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ الدَّمْلَةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ الْمَغَارِمِ
وَالضَّرَائِبِ فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْعَارِمِينَ مَا أَعْطُوا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَدْلَةِ فِيهِ لِأَنَّ
فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَدْلَةً لَا تَحْتَمِلُهَا النَّفْسُ الْإِيَّاهُ إِلَّا إِذَا اسْتَمْتَمَتْ عَنْ الْقَتْلِ
وَالتَّلْفِ وَأَنَّ عَصَابَتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ الدِّفَاعَةِ وَالْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصَابَتُهُ لَا
تُدْفَعُ عَنْهُ الضَّيْمُ فَكَيْفَ لَهُ بِالْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالِبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِنْقِيَادُ لِلذَّلِّ وَالْمَدْلَةَ
عَائِقَةً كَمَا قَدَّمَاهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنُ الْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سَيْكَةَ
الْحِزْرَاتِ فِي بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الذَّلُّ فَهُوَ دَلِيلٌ
صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذَّلِّ هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذُلَّ الْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ الْمَسْكِرِ
وَالْخُدَيْعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ الْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ الذَّلِّ فَلَا
تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمَلِكٍ آخَرَ الدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ
كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا
رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَّا اسْتَتَبَ لَهُمْ مَلِكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَأَنْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرُ بَرَّازٍ
مَلِكُ الْبَابِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطَّلَّ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرُ بَرَّازٍ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ
يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعْرِي مَعَكُمْ فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبَارِكُ
اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجَزَيْتُمَا إِلَيْكُمْ النَّصْرَ لَكُمْ وَالْقِيَامَ بِمَا تُحِبُّونَ وَلَا تُدَلُّونَا بِالْحِزْيَةِ فَتَوْهُونَا
لِعَدُوِّكُمْ فَأَعْتَبِرْ هَذَا فِيمَا قُلْنَا هُ فَإِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ الْمَلِكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا هُ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ
لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ
إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَالْمَلِكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةً لَا لِلْبَحْيُونِ فَإِذَا خَلَالَ الْخَيْرُ فِيهِ هِيَ الَّتِي تَنْسَبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ إِذِ
الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَحَقَّقَ بِهِ
حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصِيَّةُ وَالْعَشِيرُ وَفَرَعٌ يَتَمِمُّ وُجُودَهُ وَيَكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ
الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصِيَّةِ فَهُوَ غَايَةُ الْفِرْعُونِ وَمَتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وُجُودَهُ دُونَ مَتَمِّمَاتِهِ
كَوْجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ أَوْ ظُهُورِهِ عُرْبَانًا بَيْنَ النَّاسِ وَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْعَصِيَّةِ
فَقَطٌّ مِنْ غَيْرِ انْتَهَلَ الْخِلَالُ الْحَمِيدَةَ. نَقَصًا فِي أَهْلِ الْيُوتِ وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنَنْكَ
بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنَهَايَةُ لِكُلِّ حَسَبٍ وَأَيْضًا فَالسِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ
هِيَ كِفَالَةُ الْخَلْقِ وَخِلَافَةُ اللَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ
وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا
هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقُدْرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا
وَمُقَدِّرُهُمَا إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأَوْنِسَتْ مِنْهُ
خِلَالَ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَقَدَّتْ تَهَيُّبًا لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِبَادِ وَكِفَالَةَ
الْخَلْقِ وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحَةُ لِذَلِكَ وَهَذَا الْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَأَصَحُّ مِنْهُ فَقَدْ
بَيَّنَّ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ الْمُلْكِ لِمَنْ وَجِدَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي
أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلْبِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِي وَالْأَمْرِ فَوَجَدْنَاهُمْ
يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْبُكْرَمِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْإِحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ
وَالْقَرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ الْكُلِّ وَكَسْبِ الْمُعْدِمِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ
وَبَدْلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْخَامِلِينَ لَهَا
وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يَحْدِدُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَأَعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ
وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ وَالْحَيَاءِ مِنَ الْأَكْبَرِ وَالْمَسَائِحِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ
وَالْإِقْبَادِ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَإِنصَافِ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالتَّبَدُّلِ فِي
أَحْوَالِهِمْ وَالْإِقْبَادِ لِلْحَقِّ وَالتَّوَاضُعِ لِلْمَسْكِينِ وَاسْتِمَاعِ شِكْوَى الْمُسْتَغِيثِينَ وَالتَّنَدُّنِ
بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَالتَّجَافِي عَنِ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخُدَيْعَةِ
وَنَقْضِ الْعَهْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلِقَ السِّيَاسَةَ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِهَا
أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَنَّ خَيْرَ سَاقَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ

مَنَاسِبَ لِعَصَبِيَّتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ سُدَى فِيهِمْ وَلَا وَجِدَ عَيْشًا مِنْهُمْ وَالْمَلِكُ أَنْسَبُ
 الْمَرَاتِبِ وَالْخَيْرَاتِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأْذَنَ لَهُمْ بِالْمَلِكِ وَسَاقَةَ إِلَيْهِمْ
 وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْمَلِكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَكْبَلَ
 الْمَذْمُومَاتِ وَالنَّجَالِ الرَّذَائِلِ وَسُلُوكِ طُرُقِهَا فَتَفْقَدَ الْفَضَائِلَ السِّيَاسِيَّةَ مِنْهُمْ جُمْلَةً وَلَا
 تَزَالُ فِي انْتِقَاصِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمَلِكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَتَبَدَّلَ بِهِ سَوَاهُمْ لِيَكُونَ نَعِيماً
 عَلَيْهِمْ فِي سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ آتَاهُمْ مِنَ الْمَلِكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَإِذَا
 أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مَنُوفِيهَا فَنَفَسُوا فِيهَا حَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً وَاسْتَقْرَى
 ذَلِكَ وَتَبَعَهُ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ نَحْدٌ كَثِيراً مِمَّا قُلْنَاهُ وَرَسَمْنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ
 وَعَلِمَ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ الْوَالْعَصَبِيَّةِ وَتَكُونُ شَاهِدَةً
 لَهُمْ بِالْمَلِكِ إِكْرَامِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَحْسَابِ وَأَصْنَافِ التِّجَارِ
 وَالْعُرْبَاءِ وَإِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالْعَسَائِرِ
 لِيَمُنَّ بِنَاهُضِهِمْ فِي الشَّرَفِ وَيَجَادِبَهُمْ حَبْلَ الْعَشِيرِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ
 الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرِّغْبَةَ فِي الْجَاهِ أَوْ الْخُفَافَةَ مِنْ قَوْمِ
 الْمُكْرَمِ أَوْ النَّاسِ مِثْلَهَا مِنْهُ وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصَبِيَّةٌ نَتَقَى وَلَا جَاهٌ
 يَرْجَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كِرَامَتِهِمْ وَيَتَحَصَّصُ الْقَصْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلْمَجْدِ وَالنَّجَالِ
 الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكَيْفِيَّةِ لِأَنَّ إِكْرَامَ أَقْتَالِهِ وَأَمْثَالِهِ
 ضَرْوَرِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنُظْرَائِهِ وَإِكْرَامِ الطَّارِئِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ
 وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ اللَّدِينُ وَالْعُلَمَاءُ لِلجَاءِي إِلَيْهِمْ فِي
 إِقَامَةِ مَرَامِ الشَّرِيعَةِ وَالتَّجَارُ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعَمَّ الْمُنْفَعَةُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالْعُرْبَاءُ مِنْ
 مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْأَنْصَافِ وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ
 ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ اتِّمَاقُهُمْ لِسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ الْمَلِكُ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ تَأْذَنَ بِوُجُودِهَا
 فِيهِمْ لِوُجُودِ عِلْمَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَذْهَبُ مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلُ الْمَلِكِ إِذَا تَأْذَنَ اللَّهُ
 تَعَالَى بِسَلْبِ مَلِكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامَ هَذَا الصَّنِيفِ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ
 مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الذَّهَابِ عَنْهُمْ وَأَرْزَقَبَ زَوَالَ الْمَلِكِ
 مِنْهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع
وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغَلُّبِ وَالْإِسْتِدَارِ كَمَا فَلَنَاهُ وَأَسْتَعْبَادِ الطَّوَائِفِ
لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى نَحَابَةِ الْأَمْرِ سِوَاهُمْ وَلَا يَنْزِلُونَ مِنَ الْأَهْلِينَ مِنْزِلَةَ الْمُفْتَرَسِ مِنَ
الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ وَهَوْلَاءَ مِثْلِ الْعَرَبِ وَزَنَاتَهُ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَكْرَادِ وَالْتَرَكْمَانَ
وَأَهْلِ اللَّثَامِ مِنْ صَنَاهِجَةٍ وَأَيْضًا فَهَوْلَاءَ الْمُتَوَحُّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَفُونَ مِنْهُ وَلَا
بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنَسَبَةُ الْأَقْطَارِ وَالْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ فَهَلْهَذَا لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى
مَلَكَةِ فُطْرِهِمْ وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَلَا يَقْنُونَ عِنْدَ حُدُودِ أَقْفِهِمْ بَلْ يَطْفُرُونَ إِلَى
الْأَقْلِيمِ الْبَعِيدَةِ وَيَتَغَابُونَ عَلَى الْأُمَّةِ النَّائِيَةِ وَأَنْظُرْ مَا يُحْكِي فِي ذَلِكَ عَنْ عَمْرِ رَضِي
اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بُويعَ وَقَامَ يُحْرِضُ النَّاسَ عَلَى الْعِرَاقِ فَقَالَ إِنْ أَلْحِزَّ لَيْسَ لَكُمْ بَدَارٌ
إِلَّا عَلَى النُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ أَيْنَ الْقُرَاءِ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ
سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَ كُمْ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا فَقَالَ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا بِحَالِ الْعَرَبِ السَّائِمَةِ مِنْ قَبْلُ مِثْلَ
التَّبَاعَةِ وَحَمِيرٍ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى الْعِرَاقِ وَالْهُنْدِ
أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْعَرَبِ مِنَ الْأُمَّةِ وَكَذَا حَالِ الْمَلْتَمِيهِينَ مِنَ الْمَغْرِبِ لَمَّا
تَزَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ طَفَرُوا مِنَ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَجَاوَلَتْهُمْ مِنْهُ فِي جَوَارِ السُّودَانِ إِلَى
الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ فِي مَمَالِكِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهَذَا شَأْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ
الْوَحْشِيَّةِ فَلِذَلِكَ تَكُونُ دَوْلَتُهُمْ أَوْسَعَ نِطَاقًا وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَكَزِهَا نِهَابَةً وَاللَّهُ يُقَدِّرُ
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من

عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سُورَةِ الْعَلْبِ وَالْإِدْعَانَ لَهُمْ مِنْ
سَائِرِ الْأُمَّةِ سِوَاهُمْ فَيَتَعَيَّنُ مِنْهُمْ الْمُبَاشِرُونَ لِلْأَمْرِ الْحَامِلُونَ سِرِيرَ الْمَلِكِ وَلَا يَكُونُ

ذَلِكَ لَجَمْعِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكِبَرَةِ الَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ الْمُرَاحَةِ وَالْغَيْرَةِ الَّتِي
تَجْدَعُ أَنْوْفَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَطَوِّلِينَ لِلرُّبُوبَةِ فَإِذَا تَعَيَّنَ أَوْلِيكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ أَنْعَمَسُوا
فِي النَّعِيمِ وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَلِيلِ وَانْفَقَوْهُمْ
فِي وُجُوهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَبَنَى الَّذِينَ بَعَدُوا عَنِ الْأَمْرِ وَكَبِحُوا عَنِ الْمَشَارِكَةِ فِي ظِلِّ
مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبَعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ
فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الْأَوَّلِينَ الْأَيَّامُ وَأَبَادَ غَضْرَاءُهُمْ الْهَرَمُ فَطَبَخْتَهُمْ الدَّوْلَةُ وَأَكَلَ الدَّهْرُ
عَلَيْهِمْ وَشَرِبَ بِمَا أَرْهَفَ النَّعِيمُ مِنْ حَلْدِهِمْ وَاسْتَقَتَّ غَرِيزَةُ التَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ وَبَلَّغُوا
غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الْإِنْسَانِيِّ وَالتَّغْلِبِ السِّيَاسِيِّ (شعر)

كِدْوَدُ الْفَرْسِ يَنْسَجُ ثُمَّ يَفْتِي بِمَرْكَزِ نَسَجِهِ فِي الْإِنْعِكَاسِ

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصِيْبَةُ الْآخِرِينَ مَوْفُورَةً وَسَوْرَةٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكَبِيرِ مَحْفُوظَةٌ وَشَارَتْهُمْ
فِي الْغَلْبِ مَعْلُومَةٌ فَتَسْمُوا مَالَهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ الْعَالِيَةِ مِنْ
جِنْسِ عَصِيْبَتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ الْمَنَازِعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ غَلْبِهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَيَصِيرُ
إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضًا مُتَبَدِّلاً عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ فَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ
مُجْتَمِعًا فِي الْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سَوْرَةُ الْعَصِيْبَةِ مِنْهَا أَوْ يَفْتِي سَائِرُ عَشَائِرِهَا سَنَةَ اللَّهِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الْعَرَبِ لَمَّا أَنْقَرَضَ
مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ تَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ الْعَمَالِقَةُ وَمِنْ
بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضًا وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ التَّبَاعَةُ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضًا وَمِنْ بَعْدِهِمْ
الْأَذْوَاهُ كَذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا الْفَرَسُ لَمَّا أَنْقَرَضَ أَمْرَ الْكِنِيْبَةِ مَلِكُ
مِنْ بَعْدِهِمْ السَّاسَانِيَّةَ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعٍ بِالْإِسْلَامِ وَكَذَا الْيُونَانِيُّونَ
أَنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَأَنْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَكَذَا الْبَنْبُرُ بِالْمَغْرِبِ لَمَّا أَنْقَرَضَ
أَمْرُ مَغْرَاوَةَ وَكِتَامَةَ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَى صَنْهَاجَةَ ثُمَّ الْمَلْتَمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ
مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعُوبِ زَنَانَةَ وَهَكَذَا سَنَةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ إِنَّمَا
يَكُونُ بِالْعَصِيْبَةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَجْيَالِ وَالْمَلِكُ يُخْلَقُ التَّرَفُ وَيُذْهِبُهُ كَمَا سَنَدَّ كُرُهُ
بَعْدَ إِذَا أَنْقَرَضَتْ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْأَمْرَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصِيْبَةٌ مَشَارِكَةٌ لِعَصِيْبَتِهِمْ
الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالْإِنْقِيَادُ وَأُونَسَ مِنْهَا الْغَلْبُ لَجَمِيعِ الْعَصِيْبَاتِ وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ

فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ الْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرَّبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مَلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمُرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَيُخَيِّنُنِي وَيُخْرِجُنِي عَنْ ذَلِكَ الْجَلِيلِ إِلَى الْجَلِيلِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَمَمِ وَالِدَوْلِ وَأَخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَابًا

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولع ابداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه
ونخلته وسائر احواله وعوائده

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ الْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَأَنْقَادَتِ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَفَّرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِبُهُ بِهِ مِنْ أَنْ أَنْقَادَهَا لَيْسَ لِغَلَبِ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَتْ لَهَا أَعْتِقَادًا فَأَنْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْإِقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنْ غَلَبَ الْغَالِبُ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةَ بَأْسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا أَنْتَحَلَتْهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضًا بِذَلِكَ عَنِ الْغَلَبِ وَهَذَا رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِالْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَأَنْظُرْ ذَلِكَ فِي الْأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَعْتِقَادِهِمُ الْكَمَالَ فِيهِمْ وَأَنْظُرْ إِلَى كُلِّ قَطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيَّ الْحَامِيَةِ فَجُنْدُ السُّلْطَانِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ بِجَاوِرٍ أُخْرَى وَلَهَا الْغَلْبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا التَّشْبِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَعَ أُمَّةِ الْجَلَالَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَالْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ التَّمَاثِيلِ فِي الْجُدْرَانِ وَالْمَصَانِعِ وَالْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَلِكَ النَّاطِرُ بَعِينَ الْحِكْمَةَ أَنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ الْأَسْبِيَاءِ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا سِرَّ قَوْلِهِ الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذِ الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَالرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِأَعْتِقَادِ الْكَمَالِ فِيهِ أَعْتِقَادَ الْأَبْنَاءِ بِآبَائِهِمْ وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّوْفِيقُ

الفصل الرابع والعشرون

في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مَلَكَ دَرْهَاهَا عَلَيْهَا
 وَصَارَتْ بِالْإِسْتِعْبَادِ إِلَهَ لِسِوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ الْأَمَلُ وَيَضَعُفُ التَّنَاسُلُ وَالْإِعْتَارُ
 إِثْمًا هُوَ عَنِ جِدَّةِ الْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ النَّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمَلُ
 بِالتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَكَانَتِ الْعُصْبِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْعَلْبِ الْحَاصِلِ
 عَلَيْهِمْ تَنَاقُصَ عُمُرَانِهِمْ وَتَلَاشَتِ مَكَاسِبُهُمْ وَسَاعَيْهِمْ وَعَجَزُوا عَنِ الْمُدَاعَاةِ عَنِ
 أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَصَّدَ الْعَلْبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُعَلِّينَ لِكُلِّ مُتَغَلَّبٍ وَطَعْمَةً لِكُلِّ
 آكِلٍ وَسِوَاهُ كَانُوا حَاصِلًا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا. وَفِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ سِرًّا آخَرَ
 وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ رَيْسُ بَطْنِهِ بِطَبْعِهِ بِمَقْتَضَى الْأَسْتِخْلَافِ الَّذِي خَلَقَ لَهُ وَالرَّئِيسُ إِذَا غَلَبَ عَلَى
 رِئَاسَتِهِ وَكَبَّحَ عَنِ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنِ شَبَعِ بَطْنِهِ وَرِيَّ كِبِدِهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي
 أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيِّ. وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُنْتَرِسَةِ وَإِنَّهَا لَا تَسْفِدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ
 فِي مَلَكَهٍ الْأَدْمِيَّةِ فَلَا يَزَالُ هَذَا الْقَبِيلُ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَأَضْمَحَلَالٍ
 إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ النَّفَاةُ وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحَدُهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أُمَّةِ الْفُرْسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدَمَاتٍ
 الْعَالَمِ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرٌ مِنْ الْكَثِيرِ
 يُقَالُ إِنَّ سَعْدًا أَحْصَى مَا وَرَاءَ الْمَدَائِنِ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعَةَ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ
 سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا رَبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَهَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ
 بِقَاوِمٌ إِلَّا قَلِيلًا وَدُنُرُوا كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَطَمٌ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٌ
 شَمَلَهُمْ فَمَلَكَهَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَدْلِ مَا عَلِمَتْ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غَلَبَ
 عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ إِلَهَ لغيرِهِ وَلِهَذَا إِنَّمَا تُدْعَى لِلرَّقِّ فِي الْعَالِبِ أُمَّهُ السُّودَانِ لِنَقْصِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَفُرُوبِهِمْ مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ كَمَا قُلْنَا أَوْ مَنْ يَرْجُو بِانْتِظَامِهِ
 فِي رِبْقَةِ الرَّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةَ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَالِكِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ
 وَالْعُلُوجِ مِنَ الْجَلَالِقَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بِاسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لِيُسْمِيَ قَلَا يَأْتُونَ
 مِنَ الرَّقِّ لِمَا يَأْمُونُهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِأَصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ
 وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتعابون الا على البسائط

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ انْتِهَابٍ وَعَيْثُ يَنْتَهَبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفْرُونَ إِلَى مُنْتَجِعِهِمْ بِالْقَفْرِ وَلَا يَدْهَبُونَ إِلَى الْمَزَاحِمَةِ وَالْمَحَارِبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْطَلٍ أَوْ مُسْتَضْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْزُضُونَ لَهُ وَالْقَبَائِلُ الْمُحْتَمِنَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ الْجِبَالِ بِمُجَاةِ مِنْ عَيْبِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَنْمُونَ إِلَيْهِمْ الْمُضَابَ وَلَا يَرْكَبُونَ الصَّعَابَ وَلَا يَحَاوِلُونَ الْخَطَرَ وَأَمَّا الْبَسَائِطُ فَتَمَّتِي أَقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفَقْدَانِ الْحَامِيَةِ وَضَعْفِ الدَّوَلَةِ فِيهَا نَهَبُ لَهُمْ وَطَعْمَةٌ لَا كِلِيمُ يَرُدُّونَ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالنَّهْبَ وَالزَّحْنَ لِسَهولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُعْلَبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِاخْتِلَافِ الْإِيْدِي وَانْحِرَافِ السِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَقْرَضَ عُمَرَانُهُمْ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الحراب

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِبِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْدُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ وَعَدَمِ الْإِنْتِقَادِ لِسِّيَاسَةِ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمَرَانِ وَمُنَافِضَةٌ لَهُ فَنَافِيَةُ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمْ الرَّحْلَةَ وَالتَّغْلِبُ وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمَرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَالْحَجَرُ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَتَافِي الْقُدْرَ فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ الْمَبَانِي وَيُخْرِجُونَهَا عَلَيْهِ وَيَعْدُونَهُ لِذَلِكَ وَالْحَشْبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيَعْمَرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا الْأَوْتَادَ مِنْهُ لِيَبْنُوا بِهِمْ فَيَخْرِجُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ لِذَلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وَجُرْدِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُمَرَانِ هَذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَيْضًا فَطَبِيعَتُهُمْ أَنْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَأَنَّ رِزْقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حُدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كَلَّمَا أَمْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ أَنْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ أَقْتَدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْتَّغْلِبِ وَالْمَلِكِ بَطَلَتْ السِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَخَرِبَ الْعُمَرَانُ وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُمْ

يُكَفُون عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلَا
 قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالْأَعْمَالِ كَمَا سَنَدُ كُرُهُ هِيَ أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا
 وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مِجَانًا ضَعُفَتِ الْأَمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي
 عَنِ الْعَمَلِ وَابْدَعَرَ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمُرَانُ وَأَيْضًا فَأَنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ
 وَزَجَرَ النَّاسَ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدَفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنِ بَعْضِ إِنَّمَا هُمُّهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ
 أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ
 مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهَرَ بَعْضُهُمْ عَنِ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرَبَّمَا
 فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْحَيَاةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا
 كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ بِمَعْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجَرَ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ
 ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِاسْتِسْهَالِ الْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرَّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ
 كَأَنَّهَا فَوْضَى ^(١) دُونَ حُكْمِ وَالْفَوْضَى مُهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمُرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ
 أَنْ وُجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةً لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا
 وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَضْلِ وَأَيْضًا فَهَمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرَّئَاسَةِ وَقَالَ أَنْ يَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ
 الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَعَلَى كُرْهِهِ مِنْ
 أَجْلِ الْحَيَاةِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكْمُ مِنْهُمْ وَالْأَمْرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرَّعِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ
 وَالْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ الْعُمُرَانُ وَيَنْقُضُ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَأُفْدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا
 سَأَلَهُ عَنِ الْحِجَاجِ وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمُرَانِ فَقَالَ تَرَكْتَهُ يَظْلِمُ
 وَحَدَهُ وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَعَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيفَةِ كَيْفَ تَقْوُضُ
 عُمُرَانُهُ وَاقْفَرُ سَاكِنُهُ وَبَدَلَتْ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالَيْمَنْ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا
 قَلِيلًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقِ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرَبَ عُمُرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفَرَسِ أَجْمَعِ
 وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مِنْذُ
 أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَسُوا بِهَا اثْنًا ثَمَانِيَةً وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ
 بَسَاطَتُهَا خَرَابًا كَلِمًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانَ وَالْبَحْرِ الرَّثْوِيِّ كُلِّهِ عُمُرَانًا تَشْهَدُ
 بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمُرَانِ فِيهِ مِنَ الْعَالَمِ وَتَمَائِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللَّهِ

ومها يعزى الى سيدنا علي لانصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالم سادوا

يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة او ولاية

او اثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا التَّوْحُشَ الَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ الْأُمَمِ اتِّقِيادًا بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ لِلغَلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ وَبُعْدِ الْهَمَّةِ وَالْمَنَافَسَةِ فِي الرَّئَاسَةِ فَلَمَّا تَجَمَّعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا
كَانَ الدِّينُ بِالنَّبُوءَةِ أَوْ الْوَالِيَةِ كَانَ الْوِزَاعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خَلْقُ الْكَبِيرِ
وَالْمَنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهَلَ اتِّقِيادُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ وَذَلِكَ بِمَا يَسْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمَذْهَبِ
لِلغَلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ الْوِزَاعِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمْ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي
يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرٍ أَلَّهِ يَذْهَبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ الْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا
وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ تَمَّ اجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ التَّغَلُّبُ وَالْمَلِكُ وَهُمْ مَعَ
ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قَبُولًا لِلْحَقِّ وَالْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عَوَجِ الْمَلِكَاتِ وَبِرَاءَتِهَا
مِنْ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ خَلْقِ التَّوْحُشِ الْقَرِيبِ الْمَعَانَاةِ الْمَتَهِيَّةِ لِقَبُولِ
الْخَيْرِ بِبَقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ فَيِّحِ الْعَوَائِدِ
وَسُوءِ الْمَلِكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْوُدٍ يُوَلِّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بَدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا فِي الْفَقْرِ
وَأَغْنَى عَنِ حَاجَاتِ الثَّلُوبِ وَحُبُوبِهَا لِاعْتِيَادِهِمُ الشُّطْفَ وَخَشُونَةَ الْعَيْشِ فَاسْتَعْنَوْا عَنْ
غَيْرِهِمْ فَصَعِبَ اتِّقِيادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِبْلَافِهِمْ ذَلِكَ وَلِلتَّوْحُشِ وَرَأْسِهِمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ
عَالِبًا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرًّا إِلَى إِحْسَانِ مَلِكِيَّتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاعَمَتِهِمْ
لئَلَّا يَخْتَلِ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصِيَّتِهِ فَيَكُونُ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَّاسَةَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ
تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ السَّائِسُ وَارِعًا بِالْقَهْرِ وَالْإِلَامِ لَسَتَقِيمَ سِيَاسَتَهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنَ
طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمَاهُ أَخَذَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ خَاصَّةً وَالتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنَ

الْأَحْكَامَ بَيْنَهُمْ وَدَفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكَوْا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ جَعَلُوا
 غَايَةَ مُلْكِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرْكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ
 وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْمَفْسَدِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَكْثِيرِ الْحَيَاتِ وَتَحْصِيلِ
 الْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَازِعًا وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِنًا بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْمَفْسَدِ
 وَأَسْتِهَانَةٍ مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ فَتَنَمُّو الْمَفْسَدِ بِذَلِكَ وَيَقَعُ تَخَرُّبُ
 الْعُمَرَانَ فَتَمَّتْ تِلْكَ الْأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَنْطِلَةٌ أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ
 لَهَا عُمُرَانٌ وَتَخْرَبُ سَرِيعًا شَأْنَ الْفَوْضَى كَمَا قَدَمْنَاهُ فَبَعْدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلِّهِ
 عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِغَةِ دِينِيَّةٍ
 تَمَحُّوْذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ الْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمَلُهُمْ عَلَى دَفَاعِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ
 عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي الْمَلَّةِ أَمَا شَيْدُ لَهُمُ الدِّينِ أَمْرٌ
 السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمَرَانِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَتَتَابَعِ فِيهَا
 الْخُلَفَاءُ عَظَمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِي سُلْطَانُهُمْ كَانِ رُسْتَمٌ إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ
 يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ أَكَلُ عُمُرُ كَيْدِي يُعَلِّمُ الْكِلَابَ الْأَدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
 انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَدُوا الدِّينَ فَنَسُوا السِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفْرِهِمْ وَجَهَلُوا
 شَأْنَ عَصِيْبَتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِيَعْلِهِمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ النِّصْفَةِ فَتَوَحَّشُوا كَمَا
 كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْ أَسْمِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِبَلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ
 أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَأَخْبَى رَسْمُهَا الْأَمْرُ جَمَلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَجْمُ دُونَهُمْ
 وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قَفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلِكَ وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ
 قَدْ كَانُوا لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْحَقِيقَةِ مَا كَانَ
 لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَدَوْلٍ عَادٍ وَثَمُودٍ وَالْعَالِقَةِ وَحَمِيرٍ وَالتَّبَاعَةِ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ ثُمَّ
 دَوَّلَةٌ مُضَرٌّ فِي الْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ لَكِنِ بَعْدَ عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا
 نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ غَلَبٌ
 عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَالُهُ وَعَايَتُهُ إِلَّا التَّخْوِيبَ
 مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ كَمَا قَدَمْنَاهُ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع والعشرون

في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار

قَدْ نَقَدَّم لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْبَدَايَةِ نَاقِضٌ عَنِ عُمَرَ بْنِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ لِأَنَّ الْأُمُورَ
الضَّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَ بْنِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ لِأَهْلِ الْبَدَايَةِ وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ
أُمُورُ الْقَلْعِ وَمَوَادُّهَا مَعْدُومَةٌ وَمَعْظَمُهَا الصَّنَائِعُ فَلَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي الْكَلِمَةِ مِنْ تِجَارٍ
وَخِيَاطٍ وَحَدَادٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي الْقَلْعِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا
الدَّنَائِرِ وَالدِّرَاهِمِ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مِغَلِّ الزَّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ
الْحَيَوَانِ أَوْ فَضَلَاتِهِ الْبَانَا وَأَفَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَيَعْوِضُونَهُمْ
عَنْهُ بِالْدَّنَائِرِ وَالدِّرَاهِمِ إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ فِي الضَّرُورِيِّ وَحَاجَةُ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ فِهِمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وَجُودِهِمْ
فَمَا دَامُوا فِي الْبَدَايَةِ وَلَمْ يَحْضُرْ لَهُمْ مَلِكٌ وَلَا أَسْتِدْلَالٌ عَلَى الْأَمْصَارِ فِهِمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى
أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَلَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ
فِي الْمِصْرِ مَلِكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلْبِ الْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمِصْرِ مَلِكٌ
وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةٍ وَنَوْعٍ أَسْتَبَدَّ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى الْبَاقِينَ وَإِلَّا انْتَقَضَ عُمَرُ إِنَّهُ
وَذَلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ إِمَّا طَوْعًا يَبْدُلُ الْمَالَ لَهُمْ ثُمَّ
يُبْدِي لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي مِصْرِهِ فَيَسْتَقِيمُ عُمُرَانَهُمْ وَإِمَّا كَرْهًا
إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِالْغَرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْضُرَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يَغَالِبُ بِهِ
الْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لِذَلِكَ مِنْ فِسَادِ عُمُرَانِهِمْ وَرُبَّمَا لَا يَسْعَمُهُمْ
مُفَارَقَةُ تِلْكَ النُّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى لِأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبَدَايَةِ الَّذِينَ غَلَبُوا
عَلَيْهَا وَمَنْعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلَا يَجِدُ هُوَ لَاءً مُجَا إِلَّا طَاعَةَ الْمِصْرِ فِهِمْ بِالضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ
لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَاللَّهُ فَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ

الفصل الثالث من الكتاب الاول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك
كله من الاحوال وفيه قواعد ومتمات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبة

وَذَلِكَ اَنَا قَرَرْنَا فِي الْفَصْلِ الْاَوَّلِ اَنَّ الْمَغَالِبَةَ وَالْمُمَانَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِالْعَصَبَةِ لِمَا
فِيهَا مِنَ الشُّعْرَةِ وَالتَّدَامُرِ وَاسْتِجَانَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ . ثُمَّ اِنَّ الْمَلِكَ مَنْصِبٌ
شَرِيفٌ مُلْدُوذٌ يَسْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَلَاذِ الْفَسَانِيَّةِ
فَيَقَعُ فِيهِ التَّنَافُسُ غَالِبًا وَقَالَ اَنْ يَسْلِمَهُ اَحَدٌ لِصَاحِبِهِ اِلَّا اِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ فَتَقَعُ الْمُنَازَعَةُ
وَتُنْفِي اِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْمَغَالِبَةَ وَشَيْءٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ اِلَّا بِالْعَصَبَةِ كَمَا ذَكَرْنَا اَنْفًا
وَهَذَا الْاَمْرُ بَعِيدٌ عَنِ اَفْهَامِ الْجُمْهُورِ بِالْجَمَلَةِ وَمَتَنَاسُونَ لَهُ لِاَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ
مُنْذُ اَوَّلِهَا وَطَالَ اَمْدُ مَرَبَاهُمْ فِي الْحَضَارَةِ وَتَعَاقَبَتْ فِيهَا جِيَلًا بَعْدَ جِيَلٍ فَلَا يَعْرِفُونَ مَا
فَعَلَ اللهُ اَوَّلَ الدَّوْلَةِ اِنَّمَا يَدْرِكُونَ اَصْحَابَ الدَّوْلَةِ وَقَدْ اسْتَحْكَمَتْ صَبْغَتُهُمْ وَوَقَعَ
التَّسْلِيمُ لَهُمْ وَالْاِسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعَصَبَةِ فِي تَمْهِيدِ اَمْرِهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ الْاَمْرُ
مِنْ اَوَّلِهِ وَمَا لَبَّى اَوَّلُهُمْ مِنَ الْمَتَاعِبِ دُونَهُ وَخُصُوصًا اَهْلُ الْاِنْدُلُسِ فِي نَسْيَانِ هَذِهِ
الْعَصَبِيَّةِ وَانْتِهَاجِهَا طُولَ الْاَمَدِ وَاسْتِغْنَائِهِمْ فِي الْغَالِبِ عَنِ قُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ بِمَا تَلَاشَى وَطَنُهُمْ
وَخَلَا مِنَ الْعَصَابِ وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اَنَّ الدَّوْلَةَ الْعَامَّةَ فِي اَوَّلِهَا يَصْعُبُ عَلَى النُّفُوسِ الْاِنْتِقَادُ لَهَا اِلَّا
بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْغَلَبِ لِلْعَرَابَةِ وَاَنَّ النَّاسَ لَمْ يَأْتُوا مَلِكُهَا وَلَا اعْتَادُوهُ فَاِذَا اسْتَقَرَّتْ
الرِّئَاسَةُ فِي اَهْلِ النَّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِالْمَلِكِ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَارَثُوهُ وَاَحَدًا بَعْدَ اٰخَرَ فِي
اَعْتَابِ كَثِيرٍ بَيْنَ دَوَلٍ مُتَعَابِقَةٍ نَسِيَتْ النُّفُوسُ شَأْنَ الْاَوَّلِيَّةِ وَاسْتَحْكَمَتْ لِأَهْلِ ذَلِكَ
النَّصَابِ صَبْغَةُ الرِّئَاسَةِ وَرَسَخَ فِي الْعَقَائِدِ دِينَ الْاِنْتِقَادِ لَهُمْ وَالتَّسْلِيمِ وَقَاتَلَ النَّاسُ مَعَهُمْ

عَلَى أَمْرِهِمْ فَيَقَالُ لَهُمْ عَلَى الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فَلَمْ يَحْتَجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عَصَابَةٍ
بَلْ كَانَ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُعْلَمُ خِلَافُهُ وَلَا أَمْرٌ مَا يُوضَعُ الْكَلَامُ فِي
الْإِمَامَةِ آخِرَ الْكَلَامِ عَلَى الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا وَيَكُونُ اسْتِظْهَارُهُمْ
حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ الْمَخْصُوصَةِ إِمَّا بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَّعِنِينَ الَّذِينَ نَشَاؤُهُمْ فِي
ظِلِّ الْعَصَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَّا بِالْعَصَائِبِ الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّخِلِينَ فِي وِلَايَتِهَا وَمِثْلُ
هَذَا وَقَعَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَابْنِهِ
الْوَائِقِ وَاسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ وَالْتِزَاكِ وَالِدَيْلِمِ وَالسُّجُوقِيَّةِ
وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ الْعَجَمُ الْأَوْلِيَاءَ عَلَى النَّوَاحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ
بَعْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الدَيْلِمُ وَمَا كُوهَا وَصَارَ الْخِلَافُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ
وَمَلَكَ السُّجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرُ النَّبَارِ
فَقَتَلُوا الْخَلِيفَةَ وَخَوَّأُوا رَسْمَ الدَّوْلَةِ وَكَذَلِكَ صَنَهَجَةٌ بِالْعَرَبِ فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مِنْذُ الْمِائَةِ
الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمْ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةً الظِّلِّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةِ وَالْقَلْعَةِ
وَسَائِرِ ثَعُورِ أَفْرِيقِيَّةٍ وَرُبَّمَا نَزَى بِتِلْكَ الثَّعُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ الْمَلِكُ وَاعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانُ
وَالْمَلِكُ مَعَ ذَلِكَ مُسْلِمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةِ
قُوَّتِهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ فَخَوَّأُوا آثَارَهُمْ وَكَذَلِكَ دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ
عَصَبِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا خِطْبَتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ
وَتَوَزَعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ وَانْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلَايَتِهِ وَشَمِخَ بِأَنفِهِ وَبَلَغَهُمْ
شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْمَلِكِ وَلَبَسُوا شَارَتَهُ وَأَمْنُوا مَعَنَ يَنْقُضُ
ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبٍ وَلَا قِبَائِلٍ كَمَا سَنَدُّ كُرُهُ
وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ

مِمَّا يُزْهِدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
الْقَابُ مَمْلُوكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَأَلْهَرٍ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتِظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَّعِنِينَ وَالطَّرَائِدَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدُودِ
مِنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتِهِ وَغَيْرِهِمْ أَقْتَدَاءَ بِالدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي الْاسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ
ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ وَأَسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دَوْلٌ عَظِيمَةٌ

اسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظُّ كَبِيرٍ مِنَ الْمَلِكِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ
 الَّتِي أَقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمُ الْبَحْرُ الْمُرَاطُونَ أَهْلُ
 الْعَصَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ فَأَسْبَدُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَاكِرِهِمْ وَحَمَّوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا
 عَلَى مَدَافِعَتِهِمْ لِنَقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَيَبْذِرُ الْعَصَبِيَّةُ يَكُونُ تَهْمِيدُ الدَّوْلَةِ وَجَمَاعَتِهَا مِنْ
 أَوْلَهَا وَقَدْ ظَنَّ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ الدُّوَلِ بِإِطْلَاقِ هُمُ الْجُنْدِ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ
 مَعَ الْأَهْلِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ سِرَاجَ الْمَمْلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ
 الدُّوَلِ الْعَامَّةِ فِي أَوْلَهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدُّوَلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ وَاسْتِقْرَارِ
 الْمَلِكِ فِي النَّصَابِ وَاسْتِحْكَامِ الصَّبْغَةِ لِأَهْلِهَا فَالرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا
 وَخَلَقَ جِدَّتِهَا وَرُجُوعِهَا إِلَى الْأَسْطِظْهَارِ بِالْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَعْدِمِينَ مِنْ
 وَرَائِهِمْ بِالْأَجْرِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دُولَ الطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ بَنِي
 أُمَيَّةٍ وَأَنْفِرَاضِ عَصَبِيَّتِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَاسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقَطْرِهِ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ الْمُسْتَعِينِ
 بَنُ هُوْدٍ وَأَبْنِهِ الْمُظْفَرِ أَهْلُ سِرْفَسْطَةَ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَصَبِيَّةِ شَيْءٌ لِاسْتِئْلاءِ
 التَّرَفِ عَلَى الْعَرَبِ مِنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ السَّنِينَ وَهَلَا كَرِهْمُ وَلَمْ يَرَ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبِدًّا بِالْمَلِكِ
 عَنْ عَشَائِرِهِ قَدْ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الْأَسْتِبْدَادِ مِنْذُ عَهْدِ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ فَهِيَ
 لِذَلِكَ لَا يَبْذُرُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالْأَجْرَاءِ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ فَأَطَاقَ الطَّرْطُوشِيُّ الْقَوْلَ
 فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَفَضَّلْ لِكَيْفِيَّةِ الْأَمْرِ مِنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِيمٌ إِلَّا لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ
 فَتَفَضَّلَ أَنْتَ لَهُ وَأَفْهَمَ سِرَّ اللَّهِ فِيهِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَالِكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثالث

فِي أَنَّهُ قَدْ يَحْدِثُ لِبَعْضِ أَهْلِ النَّصَابِ الْمَلِكِيِّ دَوْلَةٌ تَسْتَعِينُ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ
 وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَصَبِيَّةٍ غَلْبٌ كَثِيرٌ عَلَى الْأَمْرِ وَالْأَجْيَالِ وَفِي نَفْسِ الْقَائِمِينَ
 بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَاصِبَةِ إِذْعَانٌ لَهُمْ وَأَنْقِيَادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَذَا الْخَارِجُ وَأَنْتَبَدَّ عَنْ
 مَقَرِّ مَلِكِهِ وَمَنْبَتِ عِزِّهِ اشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَانِهِ وَعَنُوا بِتَهْمِيدِ
 دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ اسْتِقْرَارَهُ فِي نَصَابِهِ وَتَنَاوُلَهُ الْأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مَظَاهِرَتِهِ
 بِاصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ الْمَلِكِ وَخِطَطِهِ مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ تَغْرِبُ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي
 مَشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيمًا لِعَصَبِيَّتِهِ وَأَنْقِيَادًا لِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ

صَبَغَةَ الْعَلْبِ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةَ إِيْمَانِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فِي الْأَذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ
 دُونَهُ لَزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْأَدَارِسَةِ بِالْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَالْعَبِيدِيْنَ
 بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَمُضَرَ لَمَّا أَنْتَبَدَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَةِ وَابْتَدَعُوا عَنْ مَقَرِّ
 الْخِلَافَةِ وَسَمَّوْا إِلَى طَلَبِيَّهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنْ اسْتَحْكَمَتِ الصَّبِغَةُ لِبَنِي عَبْدِ
 مَنَافِ لِبَنِي أُمِيَّةٍ أَوْلَا ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ فَخَرَجُوا بِالْقَاصِيَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَا
 لِأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ الْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرَثَهُ وَهَغِيلَةَ لِلْأَدَارِسَةِ وَكْتَامَةَ
 وَصَنْهَاجَةَ وَهَوَارَةَ لِلْعَبِيدِيْنَ فَشَدُّوا دَوْلَتَهُمْ وَهَدُّوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَاقْتَطَعُوا مِنْ
 مَمْلَكِ الْعَبَّاسِيْنَ الْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَاصُ وَظِلُّ الْعَبِيدِيْنَ
 يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَاتَ كُوفَا مُضَرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَقَاسَمَهُمْ فِي الْمَمَالِكِ الْأَسْلَابِيَّةِ شِقَّ
 الْأَبْلَمَةِ وَهُوَ لَأَيُّ الْبَرَابِرَةِ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كَلِمَتُهُمْ مَسْلُحُونَ لِلْعَبِيدِيْنَ أَمْرَهُمْ
 مُدْعِنُونَ لِمَلِكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّثْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ
 صَبِغَةِ الْمَلِكِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الْعَلْبِ لِقَرْنِشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ فَلَمْ
 يَزَلِ الْمَلِكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لِمَنْعَبِّ حِكْمِهِ

الفصل الرابع

في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين

اما من نبوة او دعة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْتَّغْلِبِ وَالتَّغْلِبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَاتِّفَاقِ
 الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمَطْلَبَةِ وَجَمْعِ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ مَنْ اللَّهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ
 قَالَ تَعَالَى لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آتَمْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرُّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا
 تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمِيلِ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفَشَا الْخِلَافُ وَإِذَا انْصَرَفَتْ
 إِلَى الْحَقِّ وَرَفِضَتِ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ اتَّحَدَتْ وَجَبَتْهَا فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ
 الْخِلَافُ وَجَسَّنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاوُدُ وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ فَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ كَمَا
 نَسَبُ لِكَ بَعْدَ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِرَبِّ سِوَاهُ

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية

التي كانت لها من عددها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ تَدَهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ الَّذِي فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَتُقَرَّدُ الْوَجْهَةَ إِلَى الْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْأَسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ الْوَجْهَةَ وَاحِدَةٌ وَالْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمْتِعُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَضَهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ وَتَضَادُّهُمْ لِتَقْيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلَا يَقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيَعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِ وَالذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي الْفَتْوحَاتِ فَكَانَتْ جُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْبِرْمُوكِ بَضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مَعْسَكٍ وَجُمُوعُ فَارَسَ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هِرَاقِلَ عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ أَرْبَعَمِائَةَ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلِبُوهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ وَأَعْتَبِرَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي دَوْلَةِ لِمَنْتُونَةَ وَدَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ كَمَا قَدْ بَلَغَ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَقَاوِمُهُمْ فِي الْعُدَدِ وَالْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشْفُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ الْأَجْتِمَاعَ الدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالْأَسْتِبْصَارِ وَالْإِسْمَانَةِ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَأَعْتَبِرَ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ الدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ الْغَلْبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَحَدَّهَا دُونَ زِيَادَةِ الدِّينِ فَتَغْلِبُ الدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْعَصَابِ الْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوْ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلِبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً وَأَعْتَبِرْ هَذَا فِي الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاةِ لَمَّا كَانَتْ زَنَاةُ أُبْدَى مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوْحُشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلَبَسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلِبُوا عَلَى زَنَاةِ أَوْلَاءِ وَأَسْتَبَعَوْهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصَبِيَّةِ وَالْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاةُ مَنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلِبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لانهم
وهذا لما قدمناه من ان كل امر تحمل عليه الكفاة فلا بد له من العصبية وفي
الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في
الانبياء وهم اولى الناس بخزق العوائد فما ظنك بغيرهم ان لا تخزق له العادة في
الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين
في التصوف ثار بالاندلس داعيا الى الحق وسمي اصحابه بالمرابطين قيل دعوة
المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من امر الموحدين ولم تكن
هناك عصابات ولا قبائل يدفعونه عن شانه فلم يلبث حين استولى الموحدون على
المغرب ان اذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بخصن اركش وامكنهم
من غره وكان اول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين
ومن هذا الباب احوال الثوار القامين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيرا
من المنحليين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على اهل الجوز من
الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف ورجاء في الثواب
عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتلثثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعر ضونا نفسهم
في ذلك للمهالك واكثرهم يهلكون في هذا السبيل ما زورين غير ما جورين لان
الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما امر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى
الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فليسانه فان لم
يستطع فقلبه واحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا
المطالبة القوية التي من وراءها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان
حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله بالعشائر والعصابات وهم
المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه انما اجري الامور على مستقر العادة
والله حكيم عليهم فاذا ذهب احد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقا قصر به
الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك واما ان كان من المتلثسين بذلك في

طَلَبَ الرَّئِيسَةَ فَاجْدُرَ أَنْ تَعُوْقَهُ الْعَوَانِقُ وَتَنْقَطِعَ بِهِ الْمَهَالِكُ لِأَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا
 بِرِضَاهُ وَإِعَاتِهِ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ وَالنَّصِيحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ
 فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ أَبْتِدَاءِ هَذِهِ النَّزْعَةِ فِي الْمَلَةِ بَعْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ
 وَقَتْلِ الْأَمِينِ وَأَبْطَأَ الدَّامُونُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مُقَدِّمِ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَهْدَ الْعَلِيِّ بْنِ مُوسَى
 الرَّضِيِّ مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ النَّكِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ
 وَخَلَعَ طَاعَةَ الدَّامُونِ وَالْأَسْتِبدَالِ مِنْهُ وَبُوعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ الْهَرَجُ
 بِبَعْدَادَ وَأَنْطَلَقَتْ أَيْدِي الزُّعْرَةِ بِهَا مِنَ الشُّطَارِ وَالْحَرْبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْعَاقِبَةِ وَالصُّونِ
 وَقَطَعُوا السَّبِيلَ وَأَمْتَلَتِ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِيَابِ النَّاسِ وَبَاعَوْهَا عِلَاقِيَّةً فِي الْأَسْوَاقِ وَأَسْتَعْدَى
 أَهْلُهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يَعْدُوهُمْ فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْفُسَاقِ وَكَفِّ
 عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ بِبَعْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدُّرْيُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
 وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَاجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ الزُّعْرَةِ فَجَابَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ
 بِالضَّرْبِ وَالْتِنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرٌ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَعْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ
 ابْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ وَيَكْنَى أَبَا حَاتِمٍ وَعَلِقَ مُضْحَفًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ
 بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيْعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمِنْ دُونِهِمْ وَنَزَلَ قَصْرَ
 طَاهِرٍ وَأَتَخَذَ الدِّيْوَانَ وَطَافَ بِبَعْدَادَ وَوَمَعَ كُلُّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَوَمَعَ الْحَفَارَةَ
 لِأَوْلَائِكَ الشُّطَارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدُّرْيُوسُ أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لِكَيْ
 أَقَاتِلَ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَتْ مِنْ كَانَ ذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ
 وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ فَعَلَبَهُ وَأَسْرَهُ وَأَنْعَلَ أَمْرَهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَبِجَا
 بِنَفْسِهِ ثُمَّ اقْتَدَى بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْسُوسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ
 وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَغْبَةِ أَمْرِهِ وَمَالَ
 أَحْوَالِهِمُ وَالَّذِي يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرٍ هُوَ لَا إِمَّا الْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنُونِ وَإِمَّا
 التَّنْكِيلُ بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَاعَةُ السُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدَمُهُمْ
 مِنْ جُمْلَةِ الصَّفَاعِينَ وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ
 لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ الْمُنْتَظَرِينَ لِمِثْلِ هَذَا

تَجِدُهُمْ مُوسِسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلَسِّسِينَ يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةً أَمَلَاتَ
 بِهَا جَوَانِحَهُمْ وَعَجَزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ هَذَا
 مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ مَهْدٌ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيهِ مِنْ
 الْهَلَكَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُعَدُّونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَسَوْءِ سَاقِيَةِ مَكْرِهِمْ وَقَدْ كَانَ
 لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمَائَةِ خَرَجٌ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَّصِفَةِ يُدْعَى التُّوبَدْرِيَّ عَمِدٌ إِلَى
 مَسْجِدِ مَاسَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ تَلِيدًا عَلَى الْعَامَّةِ هُنَاكَ
 بِمَامَلَا فُلُو بِهِمْ مِنْ أَحَدَثَانِ بَاتْتَظَرِهِ هُنَاكَ وَإِنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ
 فَتَهَافَتَتْ عَلَيْهِ طَوَائِفُ مِنْ عَامَّةِ الْبَرْبَرِ تَهَافَتَ الْفَرَّاشِ ثُمَّ خَشِيَ رُؤْسًا وَهُمُ اتَّسَاعَ
 نَطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَاصِدَةِ يَوْمَئِذٍ عَمْرُ السَّكْسِيوِيِّ مَنْ قَتَلَهُ فِي
 فَرَّاشِهِ وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي غَمَارِهِ أَيْضًا لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمَائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ
 وَأَدْعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَةَ الْأَرْدَلُونَ مِنْ سَفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِمْ
 وَزَحَنَتْ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا عُنُوةً ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظُهُورِ
 دَعْوَتِهِ وَمَضَى فِي أَهْلَاكِيَنِ الْأَوَّلِينَ وَأَمثالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَالْغَلَطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ
 عَنِ اعْتِبَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْمِيسُ فَأَحْرَى أَنْ لَا يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ وَإِنْ
 بَيَّوْءَ بِأَيْمِهِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبَ غَيْرِهِ
 وَلَا مَعْبُودَ سِوَهُ

الفصل السابع

في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاطوان لا تزيد عليها
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عِصَابَةَ الدَّوْلَةِ وَقَوْمَهَا الْقَائِمِينَ بِهَا الْمُصْهَدِينَ لَهَا لَا بُدَّ مِنْ
 تَوْزِيْعِهِمْ حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالتَّغْوِيرِ الَّتِي تُصِيرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا لِحِمَايَتِهَا مِنْ
 الْعَدُوِّ وَإِمْضَاءِ أَحْكَامِ الدَّوْلَةِ فِيهَا مِنْ جِبَابِيَّةٍ وَرَدْعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِذَا تَوَزَعَتِ الْعِصَابُ
 كُلُّهَا عَلَى التَّغْوِيرِ وَالْمَمَالِكِ فَلَا بُدَّ مِنْ نَفَادِ عَدَدِهَا وَقَدْ بَلَغَتْ الْمَمَالِكُ حَيْثُ يُنْزَلُ إِلَى
 حَدٍّ يَكُونُ تَعْرًا لِلدَّوْلَةِ وَتَحْمًا لَوْطَنِهَا وَنِطَاقًا لِمَرْكَزِ مَلِكِهَا فَإِنْ تَكَفَلَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ
 ذَلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا بِيَدِهَا بَقِيَ دُونَ حَامِيَّةٍ وَكَانَ مَوْضِعًا لِانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعَدُوِّ
 وَالْعِبْجَاوِرِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاحِ الْهَيْبَةِ

وَمَا كَانَتْ الْعَصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدْ عَدُّهَا فِي تَوْزِيعِ الْحُصَصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاحِي
 بَقِي فِي الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْعَايَةِ حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَالْعَلَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ
 فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَصِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَنْعَالِ
 فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَالدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي الطَّرْفِ وَالنِّطَاقِ وَإِذَا
 انْتَهتْ إِلَى النِّطَاقِ الَّذِي هُوَ الْعَايَةُ عَجَزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنُ الْأَشْعَةِ وَالْأَنْوَارِ
 إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرَكَزِ وَالِدَوَائِرِ الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ النَّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
 أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالصُّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي التَّنَاقُصِ مِنْ جِبَةِ الْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ
 مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْأَمْرِ جُمْلَةً فَيُنْبِذُ يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ
 وَإِذَا غَلَبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا يَنْفَعُهَا بَقَاءُ الْأَطْرَافِ وَالنِّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُ لَوْفِئِهَا
 فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي تَبَعَتْ مِنْهُ الرُّوحُ فَإِذَا غَلَبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمَلَكَ أَنْهَزَمَ جَمِيعُ
 الْأَطْرَافِ وَانْظُرْ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكَزُهَا الْمِدَائِنُ فَلَمَّا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ
 عَلَى الْمِدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعٍ وَلَمْ يَنْفَعِ يَزْدَجْرُدُ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنَ اطْرَافِ
 مَمْلَكِهِ وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ وَعَلَيْهِمْ
 الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ تَحَيَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِم بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضْرِبْهُمْ انْتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ
 أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِ وَانْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ
 الْعَرَبِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ
 الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ لِأَسْرَعِ وَقْتٍ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السَّنِدِ وَالْحَبَشَةِ
 وَأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَرَفَّقُوا حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالنُّغُورِ وَنَزَلُوها
 حَامِيَةً وَنَفَدَ عَدْدُهُمْ فِي تِلْكَ التَّوْزِيعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدَ وَانْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ
 وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ
 حَالُ الدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقَلَّةِ وَالْكَثْرَةِ وَعِنْدَ
 نَفَادِ عَدْدِهِم بِالْتَّوْزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالْإِسْتِيلَاءُ سَنَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها
في القلة والكثرة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَأَهْلُ الْعَصِيَّةِ هُمُ الْحَامِيَةُ الَّذِينَ
يَنْزِلُونَ بِمَمْلَكَ الدَّوْلَةَ وَأَقْطَارَهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ قَبِيلَهَا
وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمْلَكَ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مَلَكَهَا أَوْسَعَ لِذَلِكَ
وَأَعْتَبَرِ ذَلِكَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا آتَتْ اللَّهُ كَلِمَةَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَدَدُ
الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعِشْرَةَ
أَلْفٍ مِنْ مُضَرَ وَحِطَّانَ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْوَفَاةِ
فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنَ الْمَلِكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمِّي وَلَا وَرُزُّ فَاسْتَبِيحَ
حِمِّي فَارِسَ وَالرُّومَ وَأَهْلَ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِي الْعَالَمِ الْعَهْدِيَّ وَالتُّرْكَ بِالْمَشْرِقِ
وَالْأَفْرَجِيَّةَ وَالزُّبَيْرَ بِالْمَغْرِبِ وَالْقُوطَ بِالْأَنْدَلُسِ وَخَطُّوا مِنَ الْحِجَازِ إِلَى السُّوسِ الْأَقْصَى
وَمِنَ الْيَمَنِ إِلَى التُّرْكَ بِالْقُصَى الشَّمَالِ وَأَسْتَوَلُوا عَلَى الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ثُمَّ أَنْظَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
دَوْلَةً صَنَهَاجَةَ وَالْمُوحِدِينَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ قَبْلَهُمْ لَمَّا كَانَ كِتَابَةُ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ
أَكْثَرَ مِنْ صَنَهَاجَةَ وَمِنَ الْمَصَامِدَةِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكَوا أFRِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ
وَالشَّامَ وَمُضَرَ وَالْحِجَازَ ثُمَّ أَنْظَرَ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَ عَدَدُهُمْ أَوَّلَ مِنَ الْمَصَامِدَةِ
قَصَرَ مَلَكَهُمْ عَنِ مَلِكِ الْمُوحِدِينَ لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنِ عَدَدِ الْمَصَامِدَةِ مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ
ثُمَّ أَعْتَبَرَ بَعْدَ ذَلِكَ حَالَ الدَّوْلَتَيْنِ لِهَذَا الْعَهْدِ لَزَنَاتَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَبَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانَتْ
دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْعَلْبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . يُقَالُ إِنْ
عَدَدَ بَنِي مُرَيْنَ لِأَوَّلِ مَلَكَهُمْ كَانَ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ وَإِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا
أَنَّ الدَّوْلَةَ بِالرِّفَةِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ كَثُرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ
الْمُتَعَلِّقِينَ لِأَوَّلِ الْمَلِكِ يَكُونُ اتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طَوْلُ أَمْدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ
النِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمُرَ الْخَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مَزَاجِهِ وَمَزَاجِ الدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ
الْعَصِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ الْمَزَاجُ تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمْدُ الْعُمُرِ طَوِيلًا وَالْعَصِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ
الْعَدَدِ وَوُفُورِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي الدَّوْلَةِ مِنْ

الْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَّا لِكُنْهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بَدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَرْزَانُ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ وَاخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدُّوَلِ لِأَبْنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ الْمُسْتَبَدِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صَهْبَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مَعَزِ الدُّوَلَةِ أَمْرًا فَرِيقِيَّةً لِالْبُكَيْنِ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ اسْتِيْلَاءِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَاعَةِ وَمِجَابَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَنَاهَزَ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهَذَا كَذَا نَسَبُ الدُّوَلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثرية القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافُ الْأَرْزَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوَى
عَصَبِيَّةً تَمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الْاِنتِقَاضُ عَلَى الدُّوَلَةِ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَتَتْ وَإِنْ
كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مَمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَطُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَتَنْظُرُ
مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ مِنْذُ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَلِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ سَاكِنِي هَذِهِ
الْأَوْطَانَ مِنَ الْبَرْبَرِ أَهْلُ قِبَائِلٍ وَعَصَبِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمُ الْعُغْبُ الْأَوَّلُ الَّذِي كَانَ لِأَنَّ
أَبِي سَرْحٍ عَلَيْهِمُ وَعَلَى الْإِفْرِئِجَةِ شَيْئًا وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ النُّورَةَ وَالرَّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ
أُخْرَى وَعَظُمَ الْاِئْتِحَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى النُّورَةِ
وَالْخُرُوجِ وَالْاِخْتِزَابِ بِيَدِي الْخَوَارِجِ مَرَاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ أَزْدَتِ الْبَرَابِرَةَ
بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا عِبْدُ لَوَايَةِ مُوسَى
بْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقَةَ مُفْرَقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِشَارَةً
إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ وَالْقِبَائِلِ الْخَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِذْعَانِ وَالْاِئْتِقَادِ وَلَمْ
يَكُنْ الْعِرَاقُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ بِتِلْكَ الصَّفَةِ وَلَا الشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَّتِهَا مِنْ فَارَسِ
وَالرُّومِ وَالكَافَّةِ دَهْمَاءَ أَهْلِ مَدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا عَلِمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَأَنْزَعُوهُ
مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مُمَانِعٌ وَلَا مَشَاقِقٌ وَالْبَرْبَرُ قِبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ

يُحْصَى وَكُلُّهُمْ بَادِيَةٌ وَأَهْلُ عَصَابٍ وَعَشَائِرٍ وَكُلَّمَا هَلَكَتْ قَبِيلَةٌ عَادَتِ الْأُخْرَى
مَكَانَهَا وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالرِّدَّةِ فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ بِوَطَنِ
أَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِيهِ مِنْ قَبَائِلِ
فَلَسْطِينِ وَكَمَعَانَ وَبَنِي عَيْصُو وَبَنِي مَدِينِ وَبَنِي لُوطٍ وَالرُّومِ وَالْيُونَانَ وَالْعِمَالِقَةَ وَكَرَيْكَشَ
وَالنَّبْطَ مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً وَنَوْعًا فِي الْعَصَبَةِ فَصَعِبَ عَلَى
بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمْهِيدُ دَوْلَتِهِمْ وَرُسُوحُ أَمْرِهِمْ وَأَضْطَرَبَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى
وَسَرَى ذَلِكَ الْخِلَافُ إِلَيْهِمْ فَأَخْتَلَفُوا عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَلِكٌ
مُوَطَّدٌ سَائِرًا يَا مَعْ إِلَى أَنْ غَلَبَهُمُ الْفَرَسُ ثُمَّ يُونَانُ ثُمَّ الرُّومُ آخِرَ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلَاءِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَبَعَكَسِ هَذَا أَيْضًا الْأَوْطَانُ أَخْلَالِيَّةٌ مِنَ الْعَصَبَاتِ يَسْهُلُ تَمْهِيدُ
الدَّوْلَةِ فِيهَا وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَازِعًا لِقِلَّةِ الْهَرَجِ وَالْإِتْقَاضِ وَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ فِيهَا إِلَى
كَثِيرٍ مِنَ الْعَصَبَةِ كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ إِذْ هِيَ خُلُوٌّ مِنَ الْقَبَائِلِ
وَالْعَصَبَاتِ كَانَ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ مَعْدِنًا لَهُمْ كَمَا فَلَنَاهُ قُبْلًا مِصْرَ فِي غَايَةِ الدَّعَةِ وَالرُّسُوحِ
لِقِلَّةِ الْخَوَارِجِ وَأَهْلِ الْعَصَابِ إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرِكِ
وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَتَقَلُّ الْأَمْرُ فِيهِمْ مِنْ مَنْبَتٍ إِلَى مَنْبَتٍ
وَالْخِلَافَةُ مَسْمُومَةٌ لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ وَكَذَلِكَ الشَّانُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ
عَصَبِيَّةَ ابْنِ الْأَحْمَرِ سُلْطَانِهَا لَمْ تَكُنْ لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقُوَّةٍ وَلَا كَانَتْ كِرَاتٍ إِنَّمَا يَكُونُ
أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِقُوَّةٍ مِنْ ذَلِكَ الْقَلِيلِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ
الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ وَمَلَكَتْهُمْ الْبُرْبُرُ مِنَ الْمُتُونَةِ وَالْمُوحِدِينَ
سَمَّوْا مَلَكَتْهُمْ وَتَقَلَّتْ وَطَانَتَهُمْ عَلَيْهِمْ فَأَشْرَبَتِ الْقُلُوبُ بَغْضَاءَهُمْ وَأَمَكَنَ الْمُوحِدُونَ
وَالسَّادَةَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ كَثِيرًا مِنَ الْحُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ فِي سَبِيلِ الْأَسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى شَأْنِهِمْ
مَنْ تَمَلَّكَ الْحَضْرَةَ مَرَكَشَ فَأَجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعَصَبَةِ الْقَدِيمَةِ مَعَادِنُ
مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى بِهِمُ الْمَنْبَتُ عَنِ الْحَضْرَةِ وَالْأَمْصَارِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَرَسَّخُوا فِي
الْعَصَبِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُوْدٍ وَابْنِ الْأَحْمَرِ وَابْنَ مَرْدَنِيَشَ وَأَمْثَالِهِمْ فَقَامَ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ
وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوحِدِينَ
فَنَبَذُوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَخَرَجُوهُمْ وَأَسْتَقَلَّ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ فِي الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ سَمَّا ابْنُ

الْأَحْمَرِ لِلْأَبْرِ وَخَالَفَ ابْنَ هُوْدٍ فِي دَعْوَتِهِ فَدَعَا هُوْلَاءَ لِابْنِ أَبِي حَنْصِصٍ صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةٍ
 مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَقَامَ بِالْأَبْرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعَصَابَةٍ قَرِيْبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَدُّونَ الرُّؤْسَاءَ وَلَمْ
 يَحْتَجِجْ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالْأَنْدَلُسِ وَإِنَّمَا سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ
 ذَلِكَ عَلَى الطَّائِفَةِ بِعَمَلٍ يُجِيزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَعْيَاصِ زَنَانَةِ فَصَارُوا مَعَهُ عَصَبَةً عَلَى
 الْمَشَافِرَةِ وَالرُّيَاطِ ثُمَّ سَمَّا لِصَاحِبٍ مِنْ مُلُوكِ زَنَانَةِ أَمَلٌ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ
 فَصَارَ أَوْلِيكَ الْأَعْيَاصِ عَصَابَةُ ابْنِ الْأَحْمَرِ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى الْإِنْتِزَالِ
 أَمْرُهُ وَرَسَخَ وَأَلْفَتْهُ النَّفُوسُ وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثَهُ أَعْقَابُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلَا تَظُنُّ
 أَنَّهُ يَغْيِرُ عَصَابَةَ فَلَيْسَ كَذَلِكَ وَقَدْ كَانَ مَبْدَأُهُ بِعَصَابَةٍ إِلَّا أَنَهَا قَلِيْلَةٌ وَعَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ
 فَإِنَّ فَطَرَ الْأَنْدَلُسِ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ يُغْنِي عَنْ كَثْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ فِي التَّغَلُّبِ
 عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمد

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ كَمَا قَدَمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةُ مَتَأَلِّفَةٌ مِنْ عَصَبَاتٍ
 كَثِيرَةٍ تَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى كُلُّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهَا
 جَمِيعًا فِي ضَمَنِهَا وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْأَجْمَاعُ وَالْغَلْبُ عَلَى النَّاسِ وَالذُّوْلُ وَسِرُّهُ أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ
 الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمَزَاجِ لِلْمَتَكُونِ وَالْمَزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ الْعُنَاصِرِ وَقَدْ تَبَيَّنَ
 فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعُنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مِتْكَافِئَةً فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مَزَاجٌ أَصْلًا بَلْ لَا بَدَّ مِنْ
 أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى يَجْمَعَهَا وَتَوْلَفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً
 وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضَمَنِهَا وَتِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا
 تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلُ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِمْ وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رِئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا
 عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رِئِيسًا لِلْعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا لِغَلْبِ مَبْنِيَّتِهِ لِحَمِيْعِيَّتِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لِذَلِكَ فَوْنُ الطَّيْبَةِ
 الْحَيَوَانِيَّةِ خَلْقُ الْكَبِيرِ وَالْإِنْفَةِ فَإِنْفٌ حَيْثُئِدُ مِنَ الْمَسَاهِمَةِ وَالْمَشَارِكَةِ فِي اسْتِنْبَاعِهِمْ
 وَالتَّحْكُمُ فِيهِمْ وَيَجِيئُ خَلْقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا نَقَضِيهِ السِّيَاسَةَ مِنْ
 انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفْسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكْمِ لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتْ
 فَتَجْدَعُ حَيْثُئِدُ أَنْوْفُ الْعَصَبِيَّاتِ وَتَفْلَحُ شَكَائِهِمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مَشَارِكَتِهِ فِي التَّحْكُمِ

وَنُقِرَّ عَصِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَبْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا نَافَةَ وَلَا حِمْلًا فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْحَجْدُ بِكَلْبَتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مَسَاهِمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّلَاثِ عَلَى قَدْرِ مُمَانَعَةِ الْعَصِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بَدَّ مِنْهُ فِي الدَّوْلَةِ سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاسُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَفَكَّرُوا عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرَفَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِنِلكِ النَوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَزْعَمُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رَفْعِ الْأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالنُّزُوشِ وَالْأَنِيَّةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيَفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَنَلْسِ الْأَنِيَّةِ وَرُكُوبِ الْفَارِهِ وَبِنَاعِي خَلْفِهِمْ فِي ذَلِكَ سَلَفِهِمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدْرِ مَلَكَتِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرَفُّهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سَنَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَابَلَةِ وَالْمُطَابَلَةُ غَايَتُهَا الْعَلْبُ وَالْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتْ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِ الَّتِي كَانُوا يَتَمَكَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَأَثَرُوا الرَّاحَةَ وَالسُّكُونَ وَالِدَعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْمَبْنِيِّ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيَجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرَسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتَعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَيُؤْتِرُونَ الرَّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِ وَيَتَأْتِقُونَ فِي أَحْوَالِ الْمَلَابِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْأَنِيَّةِ وَالنُّزُوشِ مَا اسْتَطَاعُوا وَيَأْتِقُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْبَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ

إِلَى أَنْ يَتَذَكَّرَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ الْخَالِكِينَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدة

اقبات الدولة على الهرم

وَيَبَانُهُ مِنْ وُجُوهِ . الْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي الْأِنْفِرَادَ بِالْمَجْدِ كَمَا قُلْنَا هُ وَمَهْمَا كَانِ
 الْمَجْدُ مُشْتَرِكًا بَيْنَ الْعَصَابَةِ وَكَانَ سَعِيهِمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَّتُهُمْ فِي التَّغَلُّبِ عَلَى الْغَيْرِ
 وَالذَّبِّ عَنِ الْخَوْزَةِ أَسْوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شِكَايِمِهَا وَرَمَاهُمْ إِلَى الْغَزْوِ جَمِيعًا يَسْتَطِيبُونَ
 الْمَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤْتِرُونَ الْأَهْلِيَّةَ عَلَى فِسَادِهِ وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ
 قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَّحَ مِنْ أَعْتَبَتِهِمْ وَأَسْتَأْتَرَ بِالْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَمَكَاسَلُوا عَنِ الْغَزْوِ وَفَسَلَ
 رُبُّهُمْ وَرَأَيْمُوا الْمَدَلَّةَ وَالْإِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِّي الْجِيلِ الثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ
 مِنَ الْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ السُّلْطَانِ لَيْسَ لَهُمْ عَنِ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقَلَّ
 أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى الْمَوْتِ فَيَصِيرُ ذَلِكَ وَهَنًا فِي الدَّوْلَةِ وَخَضًا مِنَ الشُّوْكَةِ
 وَتَقْبِيلٍ بِهِ عَلَى مَنَاحِي الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ لِنَسَادِ الْعَصِيَّةِ بِذَهَابِ الْبَأْسِ مِنْ أَهْلِهَا وَالْوُجُوهِ
 الثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ الْمَلِكِ تَقْتَضِي التَّرَفَ كَمَا قَدَمْنَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتِهِمْ
 عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَبِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَالْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَالتَّرَفُ يَسْتَعْرِقُ عَطَاءَهُ
 بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمُ الْمُتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ
 وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسَّهُمْ الْحَاجَةُ وَتَطَالِبُهُمْ مَلُوكُهُمْ بِمَحْصَرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي الْغَزْوِ وَالْخُرُوبِ فَلَا
 يَجِدُونَ وِلِجَةً عَنْهَا يُوَفِّعُونَ بِهِمُ الْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْتِرُونَ
 بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْتِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضَعِفُونَهُمْ لِذَلِكَ عَنِ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ
 وَيُضَعِفُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بَعْضُهُمْ وَأَيْضًا إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ
 مُقْصَرًّا عَنِ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمْ أَحْتَاَجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ
 فِي أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلْلَهُمْ وَيُرِيحَ عَلَيْهِمْ وَالْجَبَايَةُ مَقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا
 تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ يَمَا يَسْتَحْدِثُ مِنَ الْمَكُوسِ فَيَصِيرُ مَقْدَارُهَا بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَحْدُودًا
 فَإِذَا وُزِعَتْ الْجَبَايَةُ عَلَى الْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَّثَتْ فِيهَا الزِّيَادَةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ
 تَرَفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ الْحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يَعْظُمُ التَّرْفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الْأَعْطِيَاتِ لِذَلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى
أَنْ يَعُودَ الْعُسْكَرُ إِلَى أَقْلِ الْأَعْدَادِ فَتَضَعُ الْحِمَايَةَ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ
عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِزُهَا مِنَ الدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَيَأْذَنُ اللَّهُ
فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلْقَتِهِ وَأَبْضًا فَالتَّرْفُ مُنْسَدٌ لِلخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ
أَلْوَانِ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَصْلِ الْحِزَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلَالَ
الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عِلْمَةً عَلَى الْمَلِكِ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَبِتَصْفُونَ بِمَا يُنَاقِضُهَا مِنْ خِلَالَ الشَّرِّ
فَيَكُونُ عِلْمَةً عَلَى الْإِدْبَارِ وَالْإِقْرَاضِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَلْقَتِهِ وَتَأْخُذُ
الدَّوْلَةُ مَبَادِي الْعَطَبِ وَتَنْضَعُ أَحْوَالَهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاضٌ مُزْمِنَةٌ مِنَ الْهَرَمِ إِلَى أَنْ
يُقْضَى عَلَيْهَا. الْوَجْهُ الثَّلَاثُ أَنْ طَبِيعَةَ الْمَلِكِ تَقْتَضِي الدَّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَا وَإِذَا تَأَخَّذُوا
الدَّعَةَ وَالرَّاحَةَ مَا لَنَا وَخَلْقًا صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِيلَةً شَأْنُ الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِذَا بَلَغَتْهَا
فَقَرَّبَى أَجْيَالَهُمْ الْخَادِنَةَ فِي غِضَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ التَّرْفِ وَالدَّعَةِ وَبِنَقْلِ خَلْقِ التَّوْحُشِ
وَيَنْسَوْنَ عَوَائِدَ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْمَلِكُ مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَتَعُوذُ الْإِفْتِرَاسِ وَرُكُوبِ
الْبَيْدَاءِ وَهَدَايَةِ الْقَمَرِ فَلَا يَفْرَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّوقَةِ مِنَ الْحَضَرِ إِلَّا فِي التَّقَافَةِ وَالشَّارَةِ
فَتَضَعُ حِمَايَتَهُمْ وَيَذْهَبُ بِأَسْمِهِمْ وَتَنْخَضُ شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا
تُلَبَّسُ مِنْ ثِيَابِ الْهَرَمِ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ التَّرْفِ وَالْحِزَارَةِ وَالسُّكُونِ وَالدَّعَةِ
وَرَوِّقَةِ الْحَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْرَاهِمِ وَيَنْغَمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ الْبِدَاوَةِ
وَالْحُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئًا فَنَشِيئًا وَيَنْسَوْنَ خَلْقَ الْبَسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ
حَتَّى يَعُودُوا عِيَالًا عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي أَخْبَارُهَا
فِي الصُّحُبِ لَدَيْكَ تَجِدُ مَا قُلْتُمْ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحًا مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ وَرُبَّمَا يَخْدُثُ فِي الدَّوْلَةِ
إِذَا طَرَفَهَا هَذَا الْهَرَمُ بِالرَّاحَةِ أَنْ يَتَخَيَّرَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْصَارًا وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ
جِلْدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعُودُ الْحُشُونَةَ فَيَتَخَذُهُمْ جُنْدًا يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى الْحَرْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى مَعَانَاةِ
السَّدَائِدِ مِنَ الْجُوعِ وَالشُّطْفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي عَسَاهُ أَنْ
يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِ هَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنْ غَالِبَ
جُنْدُهَا الْمَوَالِي مِنَ التُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مَلُوكَهُمْ مِنْ أَوْلِيكَ الْمَمَالِكِ الْعَجْمَاءِ بَيْنَ إِلَيْهِمْ فُرْسَانًا
وَجُنْدًا فَيَكُونُونَ أَجْرًا عَلَى الْحَرْبِ وَأَصْبَرَ عَلَى الشُّطْفِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَمَالِكِ الَّذِينَ

كَانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُّوا فِي مَاءِ الذِّمِيمِ وَالسُّلْطَانَ وَظِلِّهِ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ
فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَانَةِ وَالْعَرَبِ وَيَسْتَكْبِرُ مِنْهُمْ وَيَبْرِكُ أَهْلَ
الدَّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتَسْتَجِدُّ الدَّوْلَةَ بِذَلِكَ عُمَرًا آخَرَ سَالِمًا مِنَ الْهَرَمِ وَاللَّهِ
وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

إِعْلَمَنَّ أَنَّ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطْبَاءُ وَالْمُتَجَمِّمُونَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ
سَنَةً وَهِيَ سِنُ الْقَمَرِ الْكَبْرَى عِنْدَ الْمُتَجَمِّمِينَ وَيَخْتَلِفُ الْعُمَرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ
الْقِرَانَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَيَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَانَاتِ مِائَةً تَامَةً
وَبَعْضِهِمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا نَقْتَضِيهِ أَدِلَّةُ الْقِرَانَاتِ عِنْدَ النَّظَرِيِّينَ فِيهَا
وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْمَلَّةِ مَا بَيْنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْعُمَرِ
الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّورِ النَّادِرَةِ وَعَلَى الْأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنْ
الْفَلَكَ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ عَادَ وَتَمُودَ وَأَمَّا أَعْمَارُ
الدُّوَلِ أَيْضًا وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْدُو
أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَالْجِيلُ هُوَ عُمَرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمَرِ الْوَسْطِ فَيَكُونُ
أَرْبَعِينَ الَّذِي هُوَ أَنْتَهَاءُ النُّمُوِّ وَالنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمَرُ الْجِيلِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ
فِي حِكْمَةِ التَّبِيهِ الَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ
الْأَحْيَاءِ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْهَدُوا الذَّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ عَلَى اعْتِبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي
عُمَرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمَرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الدَّوْلَةِ لَا يَعْدُو فِي الْغَالِبِ
ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَلْوا عَلَى خُلُقِ الْبِدَاوَةِ وَخَشُونَتِهَا وَتَوْحُّشِهَا مِنْ
شَظْفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْإِفْتِرَاسِ وَالْإِسْتِرَاكِ فِي الْعِبَادَةِ فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيدَةِ
مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدَّهُمْ مَرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَالنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَالْجِيلُ الثَّانِي
تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِالْمَلِكِ وَالتَّرَفِ مِنَ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحِضَارَةِ وَمِنْ الشَّظْفِ إِلَى التَّرَفِ
وَالنَّحِيبِ وَمِنْ الْإِسْتِرَاكِ فِي الْعِبَادَةِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنِ

السَّعْيِ فِيهِ وَمِنْ عَزِّ الْأَسْطِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْأَسْتِكَانَةِ فَتَنَكَّسِرُ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ بَعْضُ
السَّنِيِّ وَأَوْتَأَسُ مِنْهُمْ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ وَيَبْقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ بَمَا أَدْرَكُوا الْجَيْلَ
الْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَهِدُوا أَعْيَازَهُمْ وَسَعِيَهُمْ إِلَى الْعَجْدِ وَرَأَيْتَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ
وَالْحِمَايَةِ فَلَا يَسْعَهُمْ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكَلِمَةِ وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ مَا ذَهَبَ وَيَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ
مِنْ مُرَاجَعَةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلجَيْلِ الْأَوَّلِ أَوْ عَلَى ظَنِّ مِنْ جُودِهَا فِيهِمْ وَأَمَّا
الجَيْلُ الثَّلَاثُ فَيَسْتَوْنَ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَالْحَشُونَةِ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَيَقْدُونَ حِلَاوَةَ الْعِزِّ
وَالْعَصِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكََةِ الْقَهْرِ وَيَبْلُغُ فِيهِمُ التَّرَفُ غَايَتَهُ بِمَا تَبَقَّوهُ مِنَ النِّعَمِ
وَعَضَارَةِ الْعَيْشِ فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَمِنْ جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ الْمُحْتَاجِينَ
لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَتَسْفُطُ الْعَصِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ وَيَسْرُنَ الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ
وَيَلْدَسُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارَةِ وَالزَّرِي وَرُكُوبِ الْجَيْلِ وَحَسْنِ الثَّقَافَةِ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَهُمْ
فِي الْأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ السُّوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا فَإِذَا جَاءَ الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يَقَاوِمُوا
مُدَافَعَتَهُ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَسْتَظْهَارِ بِسِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ
بِالْمَوَالِي وَيَصْطَنِعُ مَنْ يُغْنِي عَنِ الدَّوْلَةِ بَعْضَ الْغِنَاءِ حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا فَتَذْهَبُ
الدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ فَهَذِهِ كَمَا تَرَاهُ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ فِيهَا يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخْلُفُهَا
وَلِهَذَا كَانَ انْقِرَاضُ الْحَسَبِ فِي الْجَيْلِ الرَّابِعِ كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْعَجْدَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ
أَرْبَعَةُ آبَاءٍ وَقَدْ آتَيْنَاكَ فِيهِ بِبَرْهَانٍ طَبِيعِيِّ كَافٍ ظَاهِرٍ مَبْنِيٍّ عَلَى مَا مَهَّدْنَاهُ قَبْلَ مِنْ
الْمُقَدِّمَاتِ فَتَأَمَّلْهُ فَلَنْ تَعْدُوَ وَجْهَ الْحَقِّ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِنصَافِ وَهَذِهِ الْأَجْيَالُ
الثَّلَاثَةُ عُمْرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَآرٍ وَلَا تَعْدُو الدَّوْلُ فِي الْعَالِبِ هَذَا الْعُمْرَ بِتَقْرِيْبِ
قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ إِلَّا أَنْ عَرِضَ لَهَا عَارِضٌ آخَرٌ مِنْ فِقْدَانِ الْمُطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حَاصِلًا
مُسْتَوِيلًا وَالطَّالِبُ لَمْ يَحْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ جَاءَ الطَّالِبُ لَمَّا وَجَدَ مُدَافِعًا فَإِذَا جَاءَ أَجَاهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ فِهَذَا الْعُمْرُ لِلدَّوْلَةِ بِمِثَابَةِ عُمْرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّرِيدِ
إِلَى سِنِّ الْوُفُوفِ ثُمَّ إِلَى سِنِّ الرُّجُوعِ وَلِهَذَا يَجْرِي عَلَى السَّنَةِ النَّاسُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّ
عُمْرَ الدَّوْلَةِ مِائَةٌ سَنَةً وَهَذَا مَعْنَاهُ فَأَعْيَنَهُ وَاتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عِدَدَ الْآبَاءِ فِي
عُمُودِ النَّسَبِ الَّذِي تُرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السَّنِينَ الْمَاضِيَةِ إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبْتَ فِي
عَدَدِهِمْ وَكَانَتْ السَّنُونَ الْمَاضِيَةَ مِنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ فَعَدِّ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السَّنِينَ

آلَائِهِ مِنَ الْأَبَاءِ فَإِنَّ نَفَدَتْ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ
بِحِيلٍ فَقَدْ غَلَطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ
وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدُ السِّنِينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لِدَبْكٍ فَتَأْمَلُهُ تَجِدُهُ فِي الْعَالِيَةِ
صَحِيحًا وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

إِعْلَمَنَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ فَإِنَّ الْعَلْبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمَلِكُ إِنَّمَا هُوَ
بِالْعَصِيَّةِ وَبِمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ الْإِفْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ
الْبِدَاوَةِ فَطَوْرُ الدُّوَلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بَدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمَلِكُ تَبِعَهُ الرَّفْعُ وَاتَّسَعَ الْأَحْوَالُ
وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي التَّرْفِ وَإِحْكَامِ الصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ
مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ
فَالِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِحْدَادِهِ وَالتَّنَاقُ فِيهِ مُخْتَصٌّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا
وَيَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ الذُّنُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالْتَعَمُّرِ بِأَحْوَالِ
التَّرْفِ وَمَا نَتَلَوْنَ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ الْحَضَارَةِ فِي الْمَلِكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبِدَاوَةِ
ضُرُورَةً لِمُضْرُورَةِ تَبَعِيَّةِ الرَّفْعِ لِلْمَلِكِ وَأَهْلُ الدُّوَلِ أَبَدًا يُقَلِّدُونَ فِي طَوْرِ الْحَضَارَةِ
وَأَحْوَالِهَا لِلدُّوَلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي الْعَالِيَةِ بِأَخْذُونَ وَمِثْلُ هَذَا
وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ وَمَلَكَوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَحْدَمُوا بَنَانَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ
يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ فَقَدْ حِكْمِي أَنَّهُ قَدِمَ لَهُمُ الْمَرْفَقُ فَكَانُوا
يُحْسِبُونَهُ رِقَاءً وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجْبِنِهِمْ مِلْحًا وَمِثَالُ
ذَلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمُ فِي مِهْنَتِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ
وَاخْتَارُوا مِنْهُمْ الْمَهْرَةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمُ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ
عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَّغُوا الْغَايَةَ
فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرْفِ فِي الْأَحْوَالِ وَاسْتِحْدَادِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ
وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَسَاحَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرْنِيِّ وَكَذَلِكَ
أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلَايِمِ وَكَيْالِي الْأَعْرَاسِ فَآتَوْا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْعَابَةِ وَأَنْظَرُوا

مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَعْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ
 بْنِ سَهْلٍ وَمَا بَدَّلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ الْمَأْمُونِ حِينَ وَفَاهُ فِي خُطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ بِفَمِ الصُّلْحِ
 وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السَّنِينَ وَمَا أَنْتَقَى فِي أَمْلَاكِهَا وَمَا نَحَلَهَا الْمَأْمُونُ وَأَنْتَقَى فِي عَرَسِهَا
 نَقْفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْحَجَبِ فَمَنْهُ أَنْ الْحُسَيْنَ بْنَ سَهْلٍ نَشَرَ يَوْمَ الْأَمْلَاكِ فِي الصَّنِيعِ الَّذِي
 حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَأْمُونِ فَتَنَرَ عَلَى الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْهُمْ بِنَادِقِ الدِّسَكِ مَثْوُوثَةً دَلَى
 الرَّقَاعِ بِالضَّبَاعِ وَالْعَقَارِ مَسْرُوعَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ بِقَعِ الْبُكْلِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا
 آدَاهُ إِلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ وَالْبُخْتُ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ بَدْرَ الدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةٌ
 آلَافٍ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ بَدْرَ الدَّرَاهِمِ كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَنْتَقَى عَلَى مَقَامَةِ الْمَأْمُونِ
 بِدَارِهِ اضْعَافَ ذَلِكَ وَمَنْهُ أَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةً زَفَافِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنْ
 الْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شُمُوعَ الْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةَ مِنْ وَهُوَ رَطْلٌ وَثَلَاثَانِ (١)
 وَبَسَطَ لَهَا فُرُشًا كَانَ الْخُصِيرُ مِنْهَا مَسْجُوجًا بِالذَّهَبِ مَكْلَلًا بِاللُّدِّ وَالْيَاقُوتِ وَقَالَ
 الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ قَاتِلَ اللَّهِ أَبَا نُوَاسٍ كَأَنَّهُ أَبْعَرَ مَذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِنَةِ الْخَمْرِ
 كَانَ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ
 وَأَعَدَّ بِدَارِ الطَّبِخِ مِنَ الْحُطْبِ لِلَّيْلَةِ الْوَالِيَةِ نَقْلَ مِائَةِ رَازِبَيْنِ بَعْلًا مِدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ
 ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفِي الْحُطْبِ لِيَامَتَيْنِ وَأَوْقَدُوا الْجُرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ الزَّيْتَ
 وَأَوْعَزَ إِلَى النُّوَاتِمَةِ بِإِحْضَارِ السُّنَنِ لِإِجَازَةِ الْخَوَاصِّ مِنَ النَّاسِ بِدِجَلَةَ مِنْ بَعْدَادَ إِلَى
 قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ لِحُضُورِ الْوَالِيَةِ فَكَانَتْ الْحَرَاقَاتُ (٢) الْعِدَّةُ لِذَلِكَ
 ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أُخْرِيَاتٍ مَبَارِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ وَكَذَلِكَ عَرَسُ
 الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي النُّونِ بِطَبْلِطَلَةَ نَقَلَهُ ابْنُ سَامٍ فِي كِتَابِ الذَّخِيرَةِ وَأَبْنُ حَيَّانَ بَعْدَ أَنْ
 كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ جُمْلَةً لِفَقْدَانِ أَسْبَابِهِ
 وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ وَسَدَّاجَتِهِمْ يُذَكِّرُ أَنَّ الْحَجَّاجَ أَوْلَمَ فِي اخْتِنَانِ
 بَعْضِ وُلْدِهِ فَأَسْتَحْضَرَ بَعْضَ الدَّهَاقِينِ يَسْأَلُهُ عَنْ وِلَايَةِ الْفَرَسِ وَقَالَ أَخْبِرْنِي بِأَعْظَمِ
 صَنِيعٍ شَهِدْتَهُ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَاذِبِهِ كَسِرِّي وَقَدْ صَنَعَ لِأَهْلِ

(١) قوله وثلاثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية لئذان

(٢) المحرقات بالفتح جمع حرقاة سفينة فيها مراحي نار برمي بها العدو اه مختار

فَارَسَ صَنِيعًا أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافَ الذَّهَبِ عَلَى أُخُوْتَةِ الْفِضَّةِ أَرْبَعًا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحْمَلُهُ
 أَرْبَعٌ وَصَائِفٌ وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا طَعِمُوا أَتَعَمُّوا أَرْبَعَتَهُمُ الْمَائِدَةَ
 بِصِحَافِهَا وَوُصَفَتْ بِهَا فَقَالَ الْحَجَّاجُ يَا غُلَامُ انْحَرِ الْجُزْرَ وَأَطْعِمِ النَّاسَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ
 بِهَذِهِ الْأَهْبَةِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَعْطِيَهُ بِنِي أُمِيَّةَ وَجَوَائِزَهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ
 أَكْثَرُهَا الْإِبِلَ أَخَذًا بِمَذَاهِبِ الْعَرَبِ وَبِدَاوَتِهِمْ ثُمَّ كَانَتْ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
 وَالْعَبِيدِيَّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَحْمَالِ الْمَالِ وَتَحْوَتِ الشِّيَابِ وَإِعْدَادِ الْخَيْلِ بِمَرَاكِبِهَا
 وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ كِتَابَةِ مَعَ الْأَغَالِيَةِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَكَذَا بَنِي طَفَّحٍ بِمِصْرَ وَشَأْنُ لِمَتُونَةَ
 مَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُوحِدِينَ كَذَلِكَ وَشَأْنُ زَنَانَةَ مَعَ الْمُوحِدِينَ وَهَلُمَّ
 جَرًّا تَنْتَقِلُ الْحِضَارَةُ مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ إِلَى الدُّوَلِ الْخَالِفَةِ فَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ الْفُرْسِ لِلْعَرَبِ
 بِنِي أُمِيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بِنِي أُمِيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ
 الْمُوحِدِينَ وَزَنَانَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بِنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَمِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ثُمَّ
 إِلَى السُّجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ الْمَمَالِكِ بِمِصْرَ وَالتُّرْكِ بِالْعِرَاقِينَ وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ الدُّوَلَةِ
 يَكُونُ شَأْنُهَا فِي الْحِضَارَةِ إِذْ أُمُورُ الْحِضَارَةِ مِنْ تَوَاعِيحِ التَّرْفِ وَالتَّرْفِ مِنْ تَوَاعِيحِ
 التَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالتَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ مِنْ تَوَاعِيحِ الْمَلِكِ وَمَقْدَارًا مَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ أَهْلُ الدُّوَلَةِ
 فَعَلَى نِسْبَةِ الْمَلِكِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فَاعْتَبَرَهُ وَتَفَهَّمَهُ وَتَأَمَّلَهُ تَجِدُهُ صَحِيحًا فِي الْعُمُرَانِ
 وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمَلِكُ وَالتَّرْفُ كَثُرَ النَّاسِلُ وَالْوُلْدُ
 وَالْعُمُومِيَّةُ فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَاسْتَكْتَرُوا أَيضًا مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَرَبِيَتْ أَجْيَالُهُمْ
 فِي جَوْ ذَلِكَ النِّعَمِ وَالرَّفَةِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ
 كَثْرَةِ الْعِصَابِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الْجِيلُ الْأَوَّلُ وَالتَّانِي وَأَخَذَتِ الدُّوَلَةُ
 فِي الْهَرَمِ لَمْ تَسْتَقِلْ أَوْلِيكَ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ الدُّوَلَةِ وَتَمْيِيدِ
 مَلِكِهَا لِأَنَّهِنَّ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا فَإِذَا
 ذَهَبَ الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلْ الْفَرْعُ بِالرُّسُوخِ فَيَذْهَبُ وَبِتَلَاشَى وَلَا تَبْقَى الدُّوَلَةُ عَلَى حَالِهَا

مِنَ الْقُوَّةِ وَأَعْتَبَرْنَا هُنَا بِمَا وَقَعَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا
لِعَهْدِ النَّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرٍّ وَفَخَطَانٍ وَلَمَّا بَلَغَ التَّرَفُ
مِبَالِغَهُ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نَحْوُهُمْ بِتَوْفُرِ النِّعْمَةِ وَأَسْتَكْرَأَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ
بَلَغَ ذَلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أضعافِهِ يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عُمُورِيَّةً لَمَّا أَفْتَنَحْنَا فِي تِسْعِمِائَةِ
أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا إِذَا أُعْتَبِرَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي الثُّغُورِ الدَّانِيَةِ
وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَعَرَبًا إِلَى أَلْحَمْدِ الْخَلَمَلِينَ سَرِيرِ الْمَلِكِ وَالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنِعِينَ وَقَالَ
السَّعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَأْمُونِ لِإِلَّا تَفَاقَ عَلَيْهِمْ
فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذِكْرَانِ وَإِنَّا فَانْظُرْ مِبَالِغَ هَذَا الْعَدَدِ لِأَقَلِّ مِنْ مِائَتِي سَنَةٍ
وَأَعْلَمُ أَنَّ سَبِيهَ الرَّفْعَةَ وَالنَّعِيمِ الَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِّي فِيهِ أَجْبَاهَهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ الْعَرَبِ
لِلْأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الفصل السابع عشر

في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار
أَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَقَلَّبُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ
بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلَهُ فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ لِأَنَّ
الْخَلْقَ تَابَعَ بِالطَّبْعِ لِمَزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتِ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارِهَا لَا تَعْدُو فِي
الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ . الطَّوْرُ الْأَوَّلُ طَوْرُ الظَّفَرِ بِالْبُغْيَةِ وَعَلَبِ الْمُدَافِعِ وَالْمَمَانِعِ
وَالْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمَلِكِ وَالتَّبَزُّعِ مِنْ أَيْدِي الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ أُسُوءَ قَوْمِهِ فِي
اكتساب المجدِ وجباية المالِ والمدافعةِ عن الحوزةِ والحمايةِ لا ينفردُ دُونُهُمْ بِشَيْءٍ
لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْعَلَبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدَ مَجَالِهَا . الطَّوْرُ الثَّانِي
طَوْرُ الْإِسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَالتَّبَزُّعِ دُونَهُمْ بِالْمَلِكِ وَكِبْهِمْ عَنِ التَّطَوُّلِ لِلْمُسَاهَمَةِ
وَالْمُشَارَكَةِ وَ يَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ مَعْنِيًا بِأَصْطِنَاعِ الرِّجَالِ وَاتِّخَاذِ
الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ لِجَدْعِ أَنْوْفِ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْمُقَامِعِينَ
لَهُ فِي نِسْبَةِ الضَّارِبِينَ فِي الْمَلِكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يَدَافِعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنِ
مَوَارِدِهِ وَيُرُدُّهُمْ عَلَى أَعْتَابِهِمْ أَنْ يُخْلَصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يَقْرَأَ الْأَمْرَ فِي نِصَابِهِ وَيَفْرِدَ أَهْلَ
بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنَ تَجْدِيدِهِ فَيُعَانِي مِنَ مُدَافِعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ

الْأَمْرَ أَوْ أَشَدَّ لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ دَافَعُوا الْأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهُرُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلَ
 الْعَصِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهَذَا يُدَافِعُ الْأَقْرَبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ
 الْأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ الْأَمْرِ . الطُّورُ الثَّلَاثُ طُورُ الْفِرَاقِ وَالذِّعَةُ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ
 الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طَبَاغَ الْبَشْرِ إِلَيْهِ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الْأَنْوَارِ وَبَعْدَ الصِّتِ
 فَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَهُ فِي الْجَبَايَةِ وَضَبْطِ الدُّخْلِ وَالخُرُوجِ وَإِحْصَاءِ النِّقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا
 وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْحَاذِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَمْصَارِ الْمُنْتَعِمَةِ وَالْيَاكِلِ كُلِّ الْمُرْتَعَةِ
 وَإِجَارَةِ الْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ وَتِثِّ الْعُرُوفِ فِي أَهْلِهِ هَذَا مَعَ
 التَّوَسُّعَةِ عَلَى صَنَاعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ وَالنَّجَاهِ وَأَعْتِرَاضِ جُنُودِهِ وَإِدْرَارِ
 أَرْزَاقِهِمْ وَإِنصَافِهِمْ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ بِكُلِّ هَيْلَالٍ حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَاسِمِهِمْ
 وَشُكْبِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزِّيْنَةِ فِيبَاطِيهِمْ الدُّوَلُ الْمُسَالِمَةَ وَيَرْهَبُ الدُّوَلُ الْمُحَارِبَةَ
 وَهَذَا الطُّورُ آخِرُ أَطْوَارِ الْأَسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدُّوَلَةِ لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كَلَّهَا
 مُسْتَقْبَلُونَ بَارَأَتِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ الطَّرِيقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ . الطُّورُ الرَّابِعُ طُورُ
 الْقَنُوعِ وَالْمُسَالِمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوَلَةِ فِي هَذَا قَانِعًا بِمَا بَنَى أَوَّلُوهُ سَلِمًا لِإِنظَارِهِ
 مِنَ الْمُلُوكِ وَقِتَالِهِ مُقْلِدًا لِلْمَاضِيْنَ مِنْ سَلْفِهِ فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذُو النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَيَقْتَفِي
 طَرِيقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاجِزِ الْاِقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فِسَادَ أَمْرِهِ وَأَنَّهُمْ
 أَبْصَرُوا بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ . الطُّورُ الْخَامِسُ طُورُ الْاِسْرَافِ وَالتَّبْدِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ
 الدُّوَلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مُتْلِفًا لِمَا جَمَعَ أَوَّلُوهُ فِي سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالْكَرَمِ عَلَى
 بَطَانَتِهِ وَفِي جَبَالِسِهِ وَاصْطِنَاعِ أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضْرَاءِ الدَّمَنِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ
 الَّتِي لَا يَسْتَقْبَلُونَ بِحَمَلِهَا وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَدْرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدِ الْكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ
 مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلْفِهِ حَتَّى يَطْغَنُوا عَلَيْهِ وَيَتَّخِذُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضِيْعًا مِنْ جُنْدِهِ
 بِمَا انْفَقَ مِنْ أَعْطِيَاتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَبَّ عَنْتِهِمْ وَجَهَ مَبَاشَرَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ فَيَكُونُ خُرْبًا
 لِمَا كَانَ سَلْفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هَذَا الطُّورِ تَحْصُلُ فِي الدُّوَلَةِ طَبِيعَةُ
 الْهَرَمِ وَيَسْتَوِلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمَزْمُنُ الَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ
 بُرٌّ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا بُدِنَتْهُ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي نَسَرِدُهَا وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْتَارَ إِنَّمَا تَخْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا وَعَلَى قَدَرِهَا
يَكُونُ الْأَثَرُ فَمِنْ ذَلِكَ مَبَانِي الدَّوْلَةِ وَهِيَ كَمَا الْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ
الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لَا تَنِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ بِالتَّعَاوُنِ
فِيهِ فَإِذَا كَانَتْ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسَبِيحَةُ الْجَوَائِبِ كَثِيرَةٌ الْمَالِكِ وَالرَّعَايَا كَانَ الْفَعْلَةُ
كَثِيرِينَ جِدًّا وَحُشِرُوا مِنْ أَفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى اعْظَمِ هَيَاكِلِهِ الْأَثَرِ
إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَتَمُودَ وَمَا قَصَهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا وَانظُرْ بِالْمُشَاهِدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى
وَمَا أَقْتَدَرَ فِيهِ الْفَرَسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخَرَّبِيهِ فَمَكَأَدَ عَنْهُ وَسَرَعَ
فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْعَجِزُ وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِجَدِّهِ ابْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَانظُرْ كَيْفَ
تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءِ مَا لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ الْهَدْمِ وَالتَّبْنَاءِ فِي السُّهُولَةِ
تَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَانظُرْ إِلَى بِلَاطِ الْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمِيَّةَ
بِقَرْطَبَةَ وَالْقَنْظَرَةَ الَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْحَنَائِيا لِجَلْبِ الْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَةَ فِي
الْقَنَاةِ الرَّابِيعَةِ عَلَيْهَا وَاتَّارِ شَرْشَالِ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَنْتَارِ
الْمَائِلَةِ لِلْعِيَانِ يَعْلَمُ مِنْهُ اخْتِلَافُ الدُّوَلِ فِي الْقُوَّةِ وَالضُّعْفِ وَأَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْأَنْعَالَ
لِلْأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْهَيْئَةِ وَاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثْرَةِ الْأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذَلِكَ شَبِّدَتْ
تِلْكَ الْهَيْئَةَ كُلَّهَا وَالْمَصَانِعُ وَلَا تَتَوَهَّمُ مَا تَتَوَهَّمُ الْعَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ أَحْسَامِ الْأَقْدَمِينَ
عَنْ أَحْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ كَبِيرٌ بَوْنٌ كَمَا نَحْدُ بَيْنَ
الْهَيْئَةِ كُلِّهَا وَالْأَنْتَارِ وَقَدْ وَلِعَ الْقُصَّاصُ بِذَلِكَ وَتَعَالَوْا فِيهِ وَسَطَّرُوا عَنْ عَادٍ وَتَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ
فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا عَرِيقَةً فِي الْكُذِبِ مِنْ أَغْرَبِهَا مَا يَحْكُونُ عَنْ عَوْجِ بْنِ عِنَاقٍ (١) رَجُلٍ
مِنَ الْعَمَالِقَةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَطُولَهُ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ
مِنَ الْبَحْرِ وَإِسْوَبِهِ إِلَى السَّمْسِ وَيَزِيدُونَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ الْجَهْلِ بِأَحْوَالِ
الْكُؤُوكِبِ لِمَا أَعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قُرْبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب المجهم دوح بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس

عنى بالنون قاله نصر الهور بني

انَّ الحَرَّ هُوَ الضَّوُّهٗ وَاِنَّ الضَّوُّهٗ فَيَمَّا قَرَبَ مِنَ الْاَرْضِ اَكْثَرَ لِانْعِكَاسِ الْاَشْعَةِ
 مِنْ سَطْحِ الْاَرْضِ بِمُقَابَلَةِ الْاَضْوَاءِ فَنَضَاعَفُ الحَرَارَةُ هُنَا لِاجْلِ ذٰلِكَ وَاِذَا تَجَاوَزَتْ
 مَطَارِحَ الْاَشْعَةِ الْمُعْكَسَةِ فَلَا حَرَّ هُنَاكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ حَيْثُ تَجَارِي السَّحَابُ
 وَاِنَّ الشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لَا حَارَةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَاِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِطٌ مُضِيءٌ لَا مَزَاجَ لَهُ
 وَكَذٰلِكَ عُوْجُ بَنِي عِنَاقٍ هُوَ فَيَمَّا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ اَوْ مِنَ الْكِنَعَانِيِّينَ الَّذِيْنَ
 كَانُوْا فَرِيْسَةَ بَنِي اِسْرَائِيْلَ عِنْدَ فَتْحِهِمْ الشَّامَ وَاَطْوَالَ بَنِي اِسْرَائِيْلَ وَجِسْمَانِهِمْ لِذٰلِكَ
 الْعَهْدِ قَرِيْبَةٌ مِنْ هِيَا كَلِنَا يَشْهَدُ لِذٰلِكَ اَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَاِنَّهَا وَاِنْ خُرِبَتْ
 وَجِدَدَتْ لَمْ تَزَلْ اَلْمُحَافَظَةُ عَلٰى اَشْكَالِهَا وَمَقَادِيْرِ اَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُوْنُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ
 عُوْجٍ وَبَيْنَ اَهْلِ عَصْرِهِ هٰذَا الْمِقْدَارَ وَاِنَّمَا مَثَرًا غَلَطِهِمْ فِيْ هٰذَا اَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوْا اَثَارَ
 الْاَمْرِ وَلَمْ يَفْهَمُوْا حَالَ الدُّوْلِ فِي الْاَجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ وَمَا يَحْصُلُ بِذٰلِكَ وَبِالْهِنْدَامِ مِنَ
 الْاَثَارِ الْعَظِيْمَةِ فَصَرَفُوْهُ اِلٰى قُوَّةِ الْاَجْسَامِ وَشَدَّتْهَا بِعِظَمِ هِيَا كَلِنَا وَلَيْسَ الْاَمْرُ كَذٰلِكَ
 وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُوْدِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ الْفَلٰسِفَةِ مَرْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ اِلَّا التَّحْكُمُ وَهُوَ اَنَّ
 الطَّبِيْعَةَ الَّتِيْ هِيَ جَبَلَةٌ لِلْاَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ كَانَتْ فِيْ تَمَامِ الْكُرَّةِ وَنِهَآيَةِ الْقُوَّةِ
 وَالكَمَالِ وَكَانَتْ الْاَعْمَارُ اَطْوَالَ وَلِاَجْسَامٍ اَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ الطَّبِيْعَةِ فَاِنْ طَرُوْءَ
 الْمَوْتُ اِنَّمَا هُوَ بِاَلْمَحْلَلِ الْقُوَى الطَّبِيْعِيَّةِ فَاِذَا كَانَتْ قُوَّةٌ كَانَتْ الْاَعَارُ اَزِيْدُ فَكَانَ
 الْعَالَمُ فِيْ اَوَّلِيَّةِ تَشَاؤُهُ تَامَ الْاَعْمَارُ كَامِلِ الْاَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنُقْصَانِ الْمَادَّةِ
 اِلٰى اَنْ يَبْلُغَ اِلٰى هٰذِهِ الْحَالِ الَّتِيْ هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَاقَصُ اِلٰى وَقْتِ الْاَلْمَحْلَلِ
 وَاَنْقِرَاضِ الْعَالَمِ وَهٰذَا رَايٌ لَا وَجْهَ لَهُ اِلَّا التَّحْكُمُ كَمَا تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيْعِيَّةٌ
 وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نَشْأَهُ مَسَاكِنَ الْاَوَّلِيْنَ وَاَبْوَابِهِمْ وَطَرُقُهُمْ فَيَمَّا اَحْدَثُوْهُ مِنْ
 الْبَنِيَانِ وَالْيَمَاكِلِ وَالْدِيَارِ وَالْمَسَاكِنِ كَدِيَارِ مَمْدُ الْمُتَحَوِّثَةِ فِي الصَّلْدِ مِنَ الصَّخْرِ يَوْمًا
 صَغَارًا وَاَبْوَابِهَا ضِيْقَةٌ وَقَدْ اَشَارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اِلٰى اَنْهَا دِيَارُهُمْ وَنَعَى عَنْ اسْتِعْمَالِ
 مِيَاهِهِمْ وَطَرَحَ مَا عَجِبَ بِهِ وَاهْرَقَ وَقَالَ لَا تَدْخُلُوْا مَسَاكِنَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا اَنْفُسَهُمْ اِلَّا
 اَنْ تَكُوْنُوْا بَاكِيْنَ اَنْ يُصِيْبِكُمْ مَا اَصَابَهُمْ وَكَذٰلِكَ اَرْضُ عَادٍ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَسَائِرِ
 بَقَاعِ الْاَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَاَلْحَقْ مَا قَرَّرْنَاهُ وَمِنْ اَثَارِ الدُّوْلِ اَيْضًا حَالُهَا فِي الْاَعْرَاسِ
 وَالْوَلَايِمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وِلِيْمَةِ بُورَانَ وَصَنِيعِ الْحَجَّاجِ وَاَبْنِ ذِي النُّونِ وَقَدْ مَرَّ

ذَلِكَ كُلُّهُ وَمِنْ آثارِهَا أَيْضًا عَطَايَا الدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَيَطْهَرُ ذَلِكَ
 فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ فَإِنَّ الْهَرَمَ الَّتِي لِأَهْلِ الدَّوَلَةِ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ
 وَعَظِيمِهِمْ لِلنَّاسِ وَالْهَرَمُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الدَّوَلَةِ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ بِجَوَائِزِ
 أَبِي ذِي يَزَنَ لَوْفِدِ فَرِيشٍ كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبَدِ
 وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا وَمِنْ كَرِشِ الْعَنْبَرِ وَاحِدَةً وَأَضَعَفَ ذَلِكَ بَعِشْرَةَ أَمْثَالِهِ
 لِعَبْدِ الْمُطَلِّبِ وَإِنَّمَا مَلِكُهُ يَوْمئِذٍ قَرَارَةُ الْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ اسْتِبْدَادِ فَارَسٍ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ
 عَلَى ذَلِكَ هِمَّةُ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّبَاعَةَ مِنَ الْمَلِكِ فِي الْأَرْضِ وَالْعَلْبِ عَلَى الْأُمَمِ
 فِي الْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ وَكَانَ الصَّنَاجِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ أَيْضًا إِذَا أَجَازُوا الْوَفْدَ مِنْ
 أَمْرَاءِ زِنَانَةِ الْوَفَائِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطَوْنَهُمُ الْمَالَ أَحْمَالًا وَالْكَسَاءَ مَخُونًا مَمْلُوءَةً
 وَالْحَمَلَاتِ جَنَائِبَ عَدِيدَةً وَفِي تَارِيخِ أَبِي الرَّقِيقِ مِنْ ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ
 كَانَ عَطَاءُ الْبَرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَتَفَقَّاهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعَدَّمًا فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ
 وَالْبَعِثَةُ آخِرَ الدَّهْرِ لَا الْعَطَاءُ الَّذِي يَسْتَنْفِدُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ
 كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ الدُّوَلِ جَارِيَةٌ هَذَا جَوْهَرُ الصِّقْلِيِّ الْكَاتِبِ
 فَإِنَّدُ جَيْشِ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا أَرْحَلُوا إِلَى فَتْحِ مِصْرَ اسْتَعَدَّ مِنَ الْقَبْرِ وَأَنَّ بِأَنْفِ حِمْلٍ مِنَ
 الْمَالِ وَلَا تَنْتَهِي الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَكَذَلِكَ وَجِدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ
 عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يَحْمِلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي
 نَقَلَتْهُ مِنْ جَرَابِ الدَّوَلَةِ (غلات السواد) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ
 وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْحِلَالِ الْبَجْرَانِيَّةِ مِائَتًا حِلَّةً وَمِنْ طِينِ الْخَطَمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ
 رِطْلًا (كسكر) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتْمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (كورد حلة)
 عِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَةَ دَرَاهِمٍ (حلوان) أَرْبَعَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ
 وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (الاهواز) خَمْسَةَ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنْ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ
 أَلْفَ رِطْلٍ (فارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ
 قَارُورَةَ وَمِنْ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (كرمان) أَرْبَعَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَانِ أَلْفَ دِرْهَمٍ
 مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَانِ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسِمِائَةَ تَوْبٍ وَمِنْ التَّمْرِ عِشْرُونَ
 أَلْفَ رِطْلٍ (مكران) أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً (السند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ

الزَّيْتِ ثَلَاثُمِائَةَ أَلْفِ رِبْطٍ (مصر) أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ وَتِسْعُمِائَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ
 أَلْفَ دِينَارٍ (بركة) أَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (افر بقية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ
 مَرَّتَيْنِ وَمِنَ الْبَسْطِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ (اليمن) ثَلَاثُمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ
 سِوَى الْمَتَاعِ (الحجاز) ثَلَاثُمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ أَنْتَهَى . وَامَّا الْأَنْدَالُسُ فَأَلَّذِي ذَكَرَهُ
 الثَّقَاتُ مِنْ مُؤَرِّخِيهَا أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ النَّاصِرَ خَانَ فِي يَبُوتِ أُمُوالِهِ خَمْسَةَ أَلْفِ أَلْفِ
 أَلْفِ دِينَارٍ مَكْرُورَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَكُونُ جُمْلَتُهَا بِالْقِنَاطِيرِ خَمْسُمِائَةَ أَلْفِ قِنَاطِرٍ .
 وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ أَنَّ النُّحْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي أَيَّامِهِ سَبْعَةُ أَلْفِ
 قِنَاطِرٍ وَخَمْسُمِائَةَ قِنَاطِرٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نَسَبِ الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَلَا
 تُنْكِرَنَّ مَا لَيْسَ بِمَعْرُودٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَصْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ فَتَضَيِّقَ حَوْصَلَتَكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ
 الْمُمَكِّنَاتِ فَكثيرٌ مِنَ الْخِوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ
 بَادَرُوا بِالْإِنْكَارِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ فَإِنَّ أَحْرَالَ التُّوجُرِدِ وَالْعُمُرَانَ مُتَفَاوِتَةً وَمَنْ
 أَدْرَكَ مِنْهَا رُبَّةً سُمِّيَ أَوْ وَسَطِيٌّ فَلَا يَحْضُرُ الْمَدَارِكُ كُلَّهَا فِيهَا وَنَحْنُ إِذَا أَعْتَبَرْنَا مَا
 يَنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمَيَّةَ وَالْعَبِيدِيَّةِ وَنَأَسَبْنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذَلِكَ وَالَّذِي
 لَا شَكَّ فِيهِ بِالَّذِي أَشْأَهُهُ مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي هِيَ أَقَلُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا بَيْنَهَا بُونَاً
 وَهُوَ لَمَّا بَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا وَعُمُرَانِ مَمَالِكِهَا فَلَا تَأْتُرُ كُلُّهَا جَارِيَةً عَلَى
 نِسْبَةِ الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمَاهُ وَلَا يَسَعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ
 الْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ الشُّهُرَةِ وَالْوُضُوحِ بَلْ فِيهَا مَا يَلْحَقُ بِالْمُسْتَفِيضِ وَالْمُتَوَاتِرِ وَفِيهَا
 الْمَعَايِنُ وَالْمَشَاهِدُ مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ فَخُذْ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُنْقُولَةَ مَرَاتِبَ الدُّوَلِ
 فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ
 الْمُسْتَظْرَفَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ الْعَهْدِ السُّلْطَانُ أَبِي عَنَانَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مُرَيْنَ
 رَجُلٌ مِنْ مَشِيخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِأَبْنِ بَطُوطَةَ ^(١) كَانَ رَجُلٌ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا
 إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ دَهْلِي حَاضِرَةَ مَلِكِ
 الْهِنْدِ وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهٍ وَأَصَلَ بِمَالِكِهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ فَيَرُوزْجُوهُ وَكَانَ لَهُ مِنْهُ
 مَسْكَانٌ وَاسْتَعْمَلَهُ فِي خِطَّةِ الْقَضَاءِ بِمَدَهَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى الْمَغْرِبِ

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهى ما سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرة ٧ كراريس اه

وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عَنَّانٍ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِجَالِهِ وَمَا رَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ
 بِمَمْلَكَةِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْيُنْدِ وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ
 بِمَا يَسْتَعْرِبُهُ السَّاعُونَ مِثْلَ أَنْ مَلَكَ الْيُنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّرِّ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ
 مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تَدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ
 عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَرِّهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَخْرَاءِ الْبَلَدِ
 وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ مَنَجْنِيقَاتٌ عَلَى الظَّهِيرِ تُرْمَى بِهَا شُكَاكِرُ
 الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ عَلَى النَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ أَيَّوَانَهُ وَأَمثالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَتَنَاحِي
 النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَيَّامُنِي وَزِيرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وَرْدَارَ الْبَعِيدِ الصَّبِيحِ
 فَتَأَوَّضْتُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِمَا اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ
 مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ فَارِسُ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَكْبِرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ
 بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونُ كَابْنِ الْوَزِيرِ النَّاشِئِ فِي السِّجْنِ وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا أَعْتَقَلَهُ
 سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي السِّجْنِ سِنِينَ رَبِي فِيهَا أَبْنُهُ فِي ذَلِكَ الْحَبْسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ
 سَأَلَ عَنِ اللُّحْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا الْغَنَمُ فَيَصِفُهَا
 لَهُ أَبُوهُ بِشَبَاهِهَا وَنَعْوَتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْفَارِ فَيَنْكُرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ الْغَنَمُ
 مِنَ الْفَارِ وَكَذَا فِي لَحْمِ الْأَيْلِ وَالْبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنِ فِي مَحْسِسِهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا الْفَارَ
 فَيَحْسِبُهَا كُلِّهَا أَبْنَاءَ جَنَسِ الْفَارِ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي النَّاسَ فِي الْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمْ
 الْوَسْوَاسُ فِي الزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْإِعْرَابِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ فَلْيَرْجِعِ
 الْإِنْسَانُ إِلَى أَصُولِهِ وَلْيَكُنْ مُهَيِّمًا عَلَى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَمَتِّعِ
 بِصَرِيحِ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ الْإِمْكَانِ قَبْلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفْضُهُ
 وَلَيْسَ مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ الْعَقْلِيَّ الْمَطْلُوقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يُفْرَضُ حَدًّا بَيْنَ
 الْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّيْءِ
 وَجِنْسَهُ وَصَنَفَهُ وَمَقْدَارَ عَظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجْرَيْنَا الْمُحْكَمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ
 وَحِكْمَتِنَا بِالْإِمْتِنَاعِ ذَلِكَ مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقَوْلُ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبته بالموالي والمصطنعين
اعلم ان صاحب الدولة إنما يتيم أمره كما قلناه بقومه فهم عصبته وظهوراؤه
على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقدّم أعمال مملكته ووزارة دولته
وجباية أمواله لأنهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته
هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد
عنهم والافتراق بالتحديد وادفعهم عنه بالمرح صاروا في حقيقة الأمر من بعض
أعدائه واحتاج في مدافعهم عن الأمر وصدّهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من
غير جلدتهم يستظرون بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب إليه من سائرهم
وأخص به قربا وأصطناعا وأولى إثارا وجاها لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مَدَافِعِهِ
قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمُ وَالرُّبِيَّةُ الَّتِي انْتَهَى فِي مَشَارِكِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ
الدولة ويخصهم بزبد التكرمة والإيثار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقدمهم
جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجبابة وما يختص به لنفسه وتكون
خالصة له دون قومه من القاب المملكية لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه
المخلصون وذلك حينئذ مؤذن بأهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد
العصبية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة
السلطان فيضطعنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع
في بزئها من هذا الداء لأنه ما مضى يتأكد في الاعقاب إلى أن يذهب رسمها واعتبر
ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظرون في حروبهم وولاية أعمالهم
برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زياد بن أبي سفيان
والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وحالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة
وموسى بن نصير وبلال بن أبي بزدة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار ومثاليهم
من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضا
برجالات العرب فلما صارت الدولة للأفراد بالتحديد وكبح العرب عن التطاول
للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن فوخج وبني

طَاهِرٌ ثُمَّ بَنِي بُؤَيْهٍ مَوَالِي التُّرْكِ مِثْلَ بَعَا وَوَصِيفٍ وَأَنْلَمِشَ وَبَا كِنَاكَ وَأَبْنُ طُولُونَ
وَأَبْنَاؤُهُمْ وَعَبْرٌ هُوَ لَاءٌ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لِعَبْرٍ مِنْ مَهْدَاهَا وَالْعَبْرُ لِعَبْرٍ مِنْ
اجْتِمَاعِهِ سَنَةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في احوال الموالى والمصطنعين في الدول

اعْلَمُ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِتِّخَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ
قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي الْإِتِّخَامِ بِصَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْعَصِيَّةِ مِنْ
الْمُدَافَعَةِ وَالْمُعَابَلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالقُرْبَى وَالْتِحَاطِ
فِي الْأَجَابِ وَالْبُعْدَاءِ كَمَا قَدَّمَاهُ وَالْوَلَايَةَ وَالْمُخَاطَبَةَ بِالرَّقِّ أَوْ بِالْحَلْفِ تُنَزَّلُ مَنْزِلَةً
ذَلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ الْإِتِّخَامُ
إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطُولُ الْمَمَارَسَةِ وَالصُّحْبَةُ بِالْمَرْبِيِّ وَالرِّضَاعُ وَسَائِرُ
أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ الْإِتِّخَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ النُّعْرَةُ وَالْتِنَاصُرُ وَهَذَا مُشَاهِدٌ
بَيْنَ النَّاسِ وَأَعْتَبِرْ مِنْهُ فِي الْأَصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يُعَدُّ بَيْنَ الْمُصْطَنَعِ وَمَنْ اصْطَنَعَهُ نِسْبَةً
خَاصَّةً مِنَ الْوَصْلَةِ تُنَزَّلُ هُدَى الْمَنْزِلَةَ وَتَوْكُّدُ اللَّحْمَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَشَمَرَاتُ
النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوَلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمَلِكِ
لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقَهَا أَوْشَجَّ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لَوْجِهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ
الْمَلِكِ أَسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقْلِّ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ
مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا اصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمَلِكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ
الْمَلِكِ مُبْمِزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلى وَلِأَهْلِ الْقَرَابَةِ عَنِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ وَالْإِصْطِنَاعِ لِمَا
نَفْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ مِنْ تَمَيُّزِ الرَّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَمَيَّزُ حَالَتَهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ
مَنْزِلَةَ الْأَجَابِ وَيَكُونُ الْإِتِّخَامُ بَيْنَهُمْ أضعفَ وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أبعَدَ وَذَلِكَ أَنْقَصُ
مِنَ الْإِصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمَلِكِ أَلَوْجُهُ الثَّانِي أَنَّ الْأَصْطِنَاعَ قَبْلَ الْمَلِكِ يبعُدُ عَهْدُهُ عَنِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطُولِ الزَّمَانِ وَيُخْفِي شَأْنَ تَأْكِ اللَّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ
فَيَقْوَى حَالُ الْعَصِيَّةِ وَأَمَّا بَعْدَ الْمَلِكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَقْتَبِنُ
اللَّحْمَةُ وَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ فَتَضَعُ الْعَصِيَّةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ

الدَّوْلَةَ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِي الدُّوْلِ وَالرَّئِيسَاتِ تَجِدُهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ
الرَّئِيسَةِ وَالْمَلِكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ التَّحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَنْزِلُ مِنْهُ مَنزَلَةٌ
إِبْنَانِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحْمِهِ وَمَنْ كَانَ أَصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمَلِكِ وَالرَّئِيسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ
لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا لِلأَوَّلِينَ وَهَذَا مُشَاهِدٌ بِالْعَيَانِ حَتَّى إِنَّ الدَّوْلَةَ فِي
آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَأَصْطِنَاعِهِمْ وَلَا يَبْنِي لَهُمْ تَجِدُهُ كَمَا بَنَاهُ
الْمُصْطَنِعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوْلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِنْتِزَاعِ
فَيَكُونُونَ مَنْخُطِينَ فِي مَهَاوِي الضَّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَلَى أَصْطِنَاعِهِمْ
وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنِ أَوْلِيَاءِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِبُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ
الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ سَبَبِهَا كِدِّ
اللَّحْمَةِ مِنْذُ الْعُصُورِ الْمَتَطَوَّلَةِ بِالْمَرْبِيِّ وَالْإِتِّصَالِ بِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالْإِنْتِظَامِ مَعَ
كِبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْضُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَأَعْتَزَّازُ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلَاصِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا فَلَا
يَبْلُغُونَ رُتَبَ الْمَجْدِ وَيَبْقُونَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدَّرَجِ فِي آخِرِهَا
وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُحْدَثُونَ فَحَدْمٌ
وَأَعْوَانٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْتَتْ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ
وَأَنْفَرُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ
فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمُنْصَبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبِهِ فِي الْأَكْثَرِ وَلايَةِ
صَيِّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْتَبِ يَتَرَشَّحُ لِلوَلايَةِ بَعْدَ أَبِيهِ أَوْ يَتَرَشَّحُ ذَوِيهِ
وَخَوْلِهِ وَيُوَاسِ مِنْهُ التَّجْزُؤُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمَلِكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ
وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُورِثِي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُوَسَّسَ مِنْهُ الْأَسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلُ ذَلِكَ
ذَرِيعَةً لِلْمَلِكِ فَيَحْجُبُ الصَّيِّ عَنِ النَّاسِ وَيَعُودُهُ إِلَيْهَا تَرَفُّ أَحْوَالِهِ وَيَسِمُهُ فِي مَرَاعِيهَا
مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَدُّ

أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصَّنَقَةِ وَخِطَابُ التَّهْوِيلِ
 وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحُلَّ وَالرَّبْطَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ الْأَحْوَالِ
 الْمُلُوكِيَّةِ وَتَفْقُدهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجُنُشِ وَالْمَالِ وَالشُّعُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيَسْلَمُ لَهُ فِي
 ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةَ الرَّئِيسَةِ وَالْإِسْتِبْدَادَ وَيَتَحَوَّلَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ وَيُؤْتَرُ
 بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهٍ وَالتُّرْكِ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ
 بِالْمَشْرِقِ وَالْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَقْتَضِي ذَلِكَ الْحَجُورُ الْمَغْلَبَ لِشَأْنِهِ
 فَيَحَاوِلُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ الْحَجْرِ وَالْإِسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعُ الْمَلِكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ
 عَلَى أَيْدِي الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا يَقْتُلُ أَوْ يَرْفَعُ عَنِ الرَّبْطَةِ فَقَطُّ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ فِي النَّادِرِ
 الْأَقْلِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّتْ لَهَا ذَلِكَ وَقَلَّ أَنْ
 تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَشَأْنَةِ أَبْنَاءِ الْمَلِكِ
 مُغْتَمِسِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرُّجُولَةِ وَالْفَوَاقِ الْأَخْلَاقَ الدَّيَّانَةَ وَالْأَظْهَارَ وَرَبَّوْا عَلَيْهَا
 فَلَا يَبْزَعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغْلِبِ إِنَّمَا هُمْ فِي الْقَنُوعِ بِالْإِبْهَةِ
 وَالتَّنْفُسِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُصْطَفَعِينَ عِنْدَ
 اسْتِبْدَادِ عَشِيرَةِ الْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونِهِمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ
 كَمَا قَدَّمَاهُ وَهَذَانِ مَرَضَانِ لَا بُدَّ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ
 مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

الفصل الثاني والعشرون

فِي أَنَّ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى السُّلْطَانِ لَا يَشَارِكُونَهُ فِي اللَّقَبِ الْخَاصِّ بِالْمَلِكِ
 وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوْلِيهِ مَذَّ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّةِ
 الْبَنِيِّ اسْتَبْعَتَهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَقَوْمِهِ صِبْغَةَ الْمَلِكِ وَالغَلْبَ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً
 وَبِهَا انْحَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاوُهَا وَهَذَا الْمُتَغَلِّبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ
 الْمَلِكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدرَجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمَلِكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ
 لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمَلِكِ وَهُوَ لَا يَحَاوِلُ فِي اسْتِبْدَادِهِ أَنْتِزَاعَ تَمَرَاتِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ
 وَالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ يَوْمَ فِيهَا أَهْلُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُنْصَرَفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ
 مُنْفَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ

وَالْقَابِهِ جُبْدَهُ وَيُعَدُّ نَفْسَهُ عَنِ التَّهْمَةِ بِذَلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الْأَسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَرٌ فِي
 اسْتِبْدَادِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مِنْدُ
 أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَمَعَالِطَ عَنْهُ بِالْتَّيَابَةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ أَهْلُ العَصِيَّةِ
 وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْأَسْتِثْنَاءَ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبْغَةً تَحْمَلُهُمْ
 عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ فِيهِكَ لِأَوَّلِ وَهَلَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ
 بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلٍ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ
 يَقْعَنَّ بِمَا فَنَعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ الْأَسْتِبْدَادِ بِالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَامِ الْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ
 مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْبُدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فَنَفَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا
 لِابْنِ عَمِّ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْجُبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ
 خَرَابٌ دَوْلَةَ الْعَامِرِ بَيْنَ وَهَلَكَ الْمُؤَيَّدِ خَلِيفَتِهِمْ وَأَسْتَبْدَلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ الدَّوْلَةِ
 إِلَى آخِرِهَا وَآخَتَلَتْ مَرَامُهُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك واصنافه

الْمَلِكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمَكِّنُ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودَهُمْ
 إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى مَحْصِلِ قُوَّتِهِمْ وَضُرُورِ بَاتِهِمْ وَإِذَا اجْتَدَعُوا دَعَتِ الضَّرُورَةُ
 إِلَى الْمَعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ بِأَخْذِهَا مِنْ
 صَاحِبِهَا لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَانَعُهُ الْآخَرُ
 عَنْهَا بِمَقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْإِنْفَةِ وَمَقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ فَيَقَعُ التَّنَازُعُ الْمَفْضِي
 إِلَى الْمَقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى الْهَرْجِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ النُّفُوسِ الْمَفْضِي ذَلِكَ إِلَى
 انْقِطَاعِ النَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ
 حَاكِمٍ يَنْزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَاحْتِاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَارِثِ وَهُوَ الْحَاكِمُ
 عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمَقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُنْتَحَكِمُ وَلَا بَدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ
 الْعَصِيَّةِ لِمَا قَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْمَطَالِبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدْفَاعَاتِ لَا تَنْتَمِي إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ وَهَذَا الْمَلِكُ
 كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَوَجَّهَ نَحْوُهُ الْمَطَالِبَاتِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْمُدْفَاعَاتِ وَلَا يَنْتَمِي شَيْءٌ

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كقوله لم يره اهلا له ك في القاموس

مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ عَصِيْبَةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغَلُّبٌ
 عَلَى مَنْ بَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَلَيْسَ الْمَلِكُ لِكُلِّ عَصِيْبَةٍ وَإِنَّمَا الْمَلِكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ
 لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ
 يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصِيْبَتُهُ عَنْ بَعْضِهَا
 مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ حِمَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعَثَ الْبُعُوثَ فَهُوَ مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَمِّ حَقِيقَتُهُ كَمَا
 وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَعْلَبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدَرَ الدَّوْلَةُ
 الْعَبَّاسِيَّةُ وَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصِيْبَتُهُ أَيْضًا عَنِ الْأَسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ
 عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمٌ غَيْرُهُ فَهُوَ أَيْضًا مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَمِّ حَقِيقَتُهُ وَهَذَا
 مِثْلُ أَمْرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ مُجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيرًا مَا يُوْجَدُ هَذَا
 فِي الدَّوْلَةِ الْمُنْتَسَعَةِ النَّطَاقِ اعْنِي تُوْجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ
 بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَمَعْتَهُمْ مِثْلَ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعَبِيدِيْنَ وَزَنَانَةَ مَعَ الْأَمْوِيْنَ تَارَةً وَالْعَبِيدِيْنَ
 تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلُ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ مِنَ الْفَرَسِ مَعَ
 الْأَسْكَندَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ فَأَعْتَبْرُهُ تَجِدُهُ وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر

اعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ
 أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عَظَمِ جِسْمَانِهِ أَوْ اتَّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُرْدَةِ خَطِّهِ أَوْ ثِقُوبِ ذَهَبِهِ وَإِنَّمَا
 مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ
 نِسْبَةٌ بَيْنَ مُتَسَبِّبِينَ حَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمِ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ
 مِنْ لَه رَعِيَّةٌ وَالرَّعِيَّةُ مِنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى
 الْمَلَكَةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ وَتَوَابَعَهَا مِنَ الْجُودَةِ بِمَسْكَانِ
 حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أُمَّتِ الْوُجُوهِ فَإِنَّمَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ
 مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ وَالْأَكْثَرُ لَهُمْ وَيَعُودُ
 حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرَّفْعِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ مُنْقَبِحًا عَنْ
 عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ سَمَلَهُمْ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَالْأَذْوَانُ مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ

وَالْحَدِيعةَ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَقُوهُمْ وَرُبَمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ
 وَالْمَدَافِعَاتِ فَفَسَدَتْ الْحَدَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَمَا أَجْعَمُوا عَلَى قِتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَسُدُّ الدَّوْلَةُ
 وَتُخْرَبُ السِّيَاحُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَهُ فَسَدَتْ الْعَصِيبةُ لِمَا قَلَنَاهُ أَوْلَا وَفَسَدَ السِّيَاحُ
 مِنْ أَصْلِهِ بِالْعِجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ
 وَلَا ذُوَابَهُ وَأَشْرَبُوا حُبَّتَهُ وَأَسْتَمَتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ
 جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَالِكَةِ فَهِيَ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمَدَافِعَةُ عَنْهُمْ فَالْمَدَافِعَةُ بِهَا
 تَنْمُو حَقِيقَةُ الْمَلِكِ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جَمَالَةِ الرَّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ
 لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلُ كَبِيرٍ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى الرَّعِيَّةِ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَلَّمَا تَكُونُ مَلَكَتُهُ
 الرَّفْقُ فِي مَنْ يَكُونُ يَقْطًا شَدِيدَ الذِّكَاةِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الرَّفْقُ فِي
 الْغَفْلِ وَالْمَتَغَفَّلِ وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْبِقْظِ لِأَنَّهُ يَكْلِفُ الرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوزِ
 نَظَرِهِ فِيهَا وَرِزَاءِ مَدَارِكِهِمْ وَأَطْلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِيهَا بِالرَّعِيَّةِ فِيهِلِكُونُ
 لِفَلَاحِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيرُوا عَلَى سَبْرٍ أَضَعَفْتُمْ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ
 فِي الْحَاكِمِ قَلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذِّكَاةِ وَمَا خَذَهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَنِيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ
 عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الدُّوْنَيْنِ الْعِجْزُ أَمْ لِحَيَانَةٍ فَقَالَ عُمَرُ لَمْ
 أَعَزَلْكَ لِوَأَحَدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَمْلَأَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَنِ النَّاسِ فَأَخَذَ مِنْ
 هَذَا الْحَاكِمِ لَا يَكُونُ مُفْرَطُ الذِّكَاةِ وَالْكَيسِ مِثْلُ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَنِيَانَ وَعُمَرُ وَ
 بِنُ الْعَاصِ لِمَا يَتَّبَعُ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَالِكَةِ وَمَمْلُ الْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي
 طَبْعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْعَالَمِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيسَ
 وَالذِّكَاةَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي
 الْجُمُودِ وَالطَّرْقَانَ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِنْفِ إِنْسَانِيَّةٍ وَالْحَمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكُرْمِ
 مَعَ التَّبْدِيرِ وَالْبُخْلِ وَكَمَا فِي الشَّجَاعَةِ مَعَ الْهُجُوعِ وَالْحُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمَشَيْطَانٌ
 وَأَمثالُ ذَلِكَ وَاللَّهُ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لَمَا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ أَنَّهُ الْاجْتِمَاعُ الصَّرُورِيُّ لِلبَشَرِ وَمُقْتَضَاهُ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ
الَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ الْغَضَبِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْعَالِبِ جَائِزَةً عَنِ
الْحَقِّ مُجْحَفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحَمَلِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْعَالِبِ عَلَى
مَا لَيْسَ فِي طَوْفِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهْوَاتِهِ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْمَقَاصِدِ مِنَ الْخَلْفِ
وَالسَّلَفِ مِنْهُمْ فَتَعَسَّرُ طَاعَتُهُ لِذَلِكَ وَتَحْجِي الْعَصِيَّةُ الْمُفْضِيَّةُ إِلَى الْوَجْهِ وَالْقَتْلُ فَوَجَبَ
أَنْ يُرْجَعَ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوَانِينِ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ يُسَلِّمُهَا الْكَافَّةُ يَنْقَادُونَ إِلَى أَحْكَامِهَا
كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْفَرَسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَإِذَا خَلَّتِ الدَّوْلَةُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ
لَمْ يَسْتَبْتَبْ أَمْرُهَا وَلَمْ يَتِمَّ اسْتِبْلَاؤُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ. فَإِذَا كَانَتْ
هَذِهِ الْقَوَانِينُ مَفْرُوضَةً مِنَ الْعُقَلَاءِ وَأَكْبَرِ الدَّوْلَةِ وَبَصْرَائِيهَا كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً وَإِذَا
كَانَتْ مَفْرُوضَةً مِنَ اللَّهِ بِشَارِعٍ يُقَرَّرُهَا وَيَشْرَعُهَا كَانَتْ سِيَاسَةً دِينِيَّةً نَافِعَةً فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِمْ دُنْيَاهُمْ فَقَطُّ فَإِنَّهَا كَلَّمَا عَثُ
وَبَاطِلٌ إِذْ غَابَتْهَا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَسْبُ بِنَا أَمَّا خَلْقْنَاكُمْ عَبَثًا فَأَلْمَقْصُودُ
بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى السَّعَادَةِ فِي آخِرَتِهِمْ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَجَاءَتِ الشَّرَائِعُ بِحَمَلِهِمْ عَلَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ
عِبَادَةٍ وَمَعَامَلَةٍ حَتَّى فِي الْمَلِكِ الَّذِي هُوَ طَبِيعِيٌّ لِلْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ فَأَجْرَتْهُ عَلَى
مِنَاجِ الدِّينِ لِيَكُونَ الْكُلُّ مُحَوَّطًا بِنَظَرِ الشَّارِعِ فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى الْقَهْرِ وَالتَّغَلُّبِ
وَإِهْمَالِ الْقُوَّةِ الْعَصِيَّةِ فِي مَرْعَاهَا فَحُورٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى
الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا فَمَذْمُومٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ نَظَرٌ
بِغَيْرِ نُورِ اللَّهِ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ لِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ
الْكَافَّةِ فِيهَا هُوَ مَغِيبٌ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ وَأَعْمَالِ الْبَشَرِ كُلِّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي
مَعَادِهِمْ مِنْ مَلِكٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ
وَأَحْكَامُ السِّيَاسَةِ إِنَّمَا تُطْلَعُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطُّ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ حَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَقْصُودُ الشَّارِعِ بِالنَّاسِ صَلَاحَ آخِرَتِهِمْ فَوَجَبَ بِمُقْتَضَى الشَّرَائِعِ حَمْلُ الْكَافَّةِ

عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ لِأَهْلِ الشَّرِيعَةِ
وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامَهُمْ وَهُمْ الْخُلَفَاءُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى الْخِلَافَةِ
وَأَنَّ الْمَلِكَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ حَمَلُ الْكَفَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى الْغَرَضِ وَالشَّهْوَةِ وَالسِّيَاسِيِّ هُوَ حَمَلُ
الْكَفَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ فِي جَلْبِ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ وَالْخِلَافَةِ
هِيَ حَمَلُ الْكَفَافَةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الشَّرْعِيِّ فِي مَصَالِحِهِمُ الْآخِرَوِيَّةِ وَالذُّنُوبِيَّةِ الرَّاجِعَةِ
إِلَيْهَا إِذْ أَحْوَالُ الدُّنْيَا تَرْجِعُ كُلُّهَا عِنْدَ الشَّرَاعِ إِلَى اعْتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ فَهِيَ فِي
الْحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَنِ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ فَافْتَمَرْنَا ذَلِكَ
وَأَعْتَبَرْنَا فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هَذَا الْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنِ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِي حِنِظِ الدِّينِ
وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ تَسْمَى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَالْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةٌ وَإِمَامًا فَمَا تَسْمِيَّتُهُ إِمَامًا
فَقَسَمِيهَا بِإِمَامِ الصَّلَاةِ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْإِفْتِدَاءِ بِهِ وَلِهَذَا يُقَالُ الْأِيْمَامَةُ الْكُبْرَى وَأَمَّا
تَسْمِيَّتُهُ خَلِيفَةً فَلِكُونِهِ يَخْلُفُ النَّبِيَّ فِي أُمَّتِهِ يُقَالُ خَلِيفَةُ بِإِطْلَاقٍ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ
وَاخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَّتِهِ خَلِيفَةَ اللَّهِ فَأَجَارَهُ بَعْضُهُمْ أُقْتَبَاسًا مِنَ الْخِلَافَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لِلرَّسُولِ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَقَوْلِهِ جَعَلَكُمْ خُلَافَةً فِي الْأَرْضِ وَمَنْعَ
الْجُمْهُورِ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ وَقَالَ لَسْتُ
خَلِيفَةَ اللَّهِ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّ الْأِسْتِخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ
فِي حَقِّ الْعَائِبِ وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَلَا تَمَّ إِنْ نَصَبَ الْإِمَامُ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وَجُوبُهُ فِي
الشَّرْعِ بِاجْتِمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ
وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ وَكَذَلِكَ فِي
كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَلَمْ تُتْرَكِ النَّاسُ فَوْضَى فِي عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ
اجْتِمَاعًا دَالًّا عَلَى وَجُوبِ نَصَبِ الْإِمَامِ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ مَدْرَكَهُ وَجُوبَهُ
الْعَقْلُ وَأَنَّ الْاجْتِمَاعَ الَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ فِضَاءٌ بِحُكْمِ الْعَقْلِ فِيهِ قَالُوا وَإِنَّمَا وَجِبَ
بِالْعَقْلِ لِضَرُورَةِ الْاجْتِمَاعِ لِلشَّرِّ وَأَسْتِحَالَةِ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُنْفَرِدِينَ وَمِنْ ضَرُورَةِ

الْأَجْتِمَاعِ التَّنَازُعِ لِأَزْدِ حَامِ الْأَغْرَاضِ فَمَا لَمْ يَكُنْ الْحَاكِمُ الْوَازِعَ أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى
 الْهَرْجِ الْمُؤَذِنِ بِهَلَاكِ الْبَشَرِ وَانْقِطَاعِهِمْ مَعَ أَنَّ حِنْظَ النَّوْعِ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ
 الضَّرُورِيَّةِ وَهَذَا الْمَعْنَى يَعْنِيهِ هُوَ الَّذِي لَحَظَهُ الْحَكَمَاءُ فِي وُجُوبِ النُّبُوتِ فِي الْبَشَرِ
 وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَى فَسَادِهِ وَأَنَّ إِحْدَى مَقْدَمَاتِهِ أَنَّ الْوَازِعَ إِنَّمَا يَكُونُ بِشَرْعٍ مِنْ اللَّهِ تَسْلَمُ
 لَهُ الْكِفَاةُ تَسْلِيمَ إِيمَانٍ وَاعْتِقَادٍ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلِّمٍ لِأَنَّ الْوَازِعَ قَدْ يَكُونُ بِسُطُورَةِ الْمَلِكِ
 وَقَهْرِ أَهْلِ الشُّوْكَةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ شَرْعٌ كَمَا فِي أُمَّةِ الْعَجُوسِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ
 كِتَابٌ أَوْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ أَوْ نَقُولُ يَكْفِي فِي رَفْعِ التَّنَازُعِ مَعْرِفَةُ كُلِّ وَاحِدٍ بِخَرِيْبِ
 الظُّلْمِ عَلَيْهِ بِحُكْمِ الْعَقْلِ فَأَدْعَاؤُهُمْ أَنْ أَرْتَفَاعِ التَّنَازُعِ إِنَّمَا يَكُونُ بِوُجُودِ الشَّرْعِ
 هُنَاكَ وَتَنْصِبِ الْإِمَامِ هُنَا غَيْرُ مَحْجُوبٍ بَلْ كَمَا يَكُونُ يَنْصَبُ الْإِمَامَ يَكُونُ بِوُجُودِ
 الرُّوْسَاءِ أَهْلِ الشُّوْكَةِ أَوْ بِامْتِنَاعِ النَّاسِ عَنِ التَّنَازُعِ وَالتَّظَالُمِ فَلَا يَنْهَضُ دَلِيلُهُمْ
 الْعَقْلِيُّ الْمَبْنِيُّ عَلَى هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَدْرَكَ وُجُوبِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالشَّرْعِ وَهُوَ
 الْإِجْمَاعُ الَّذِي قَدِمَنَاهُ وَقَدْ شَدَّ بَعْضُ النَّاسِ فَقَالَ بَعْدَهُمْ وَجُوبَ هَذَا النَّصْبِ رَأْسًا لَا
 بِالْعَقْلِ وَلَا بِالشَّرْعِ مِنْهُمْ الْأَصَمُّ مِنَ الْعَاعِزَةِ وَبَعْضُ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ وَالْوَاجِبُ
 عِنْدَهُ هُوَ لَا إِنَّمَا هُوَ إِمْرَاءُ الْحُكْمِ الشَّرْعِ فَإِذَا تَوَاطَأَتِ الْأُمَّةُ عَلَى الْعَدْلِ وَتَنْفِيذِ
 أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَحْتَجْ إِلَى إِمَامٍ وَلَا يَجِبُ نَصْبُهُ وَهَذَا لَا يَحْجُجُونَ بِالْإِجْمَاعِ
 وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ إِنَّمَا هُوَ الْفِرَارُ عَنِ الْمَلِكِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الْأَسْطِطَالَةِ
 وَالتَّغَلُّبِ وَالْأَسْتِمْتَاعِ بِالْدُنْيَا لَمَّا رَأَوْا الشَّرِيعَةَ مُحْتَلَّةً بِذِمِّ ذَلِكَ وَالتَّعْبِي عَلَى أَهْلِ
 وَمُرْغَبَةٍ فِي رَفْضِهِ وَاعْلَمَ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَذِمَّ الْمَلِكَ لِذَاتِهِ وَلَا حَظَرَ الْقِيَامَ بِهِ وَإِنَّمَا ذَمَّ
 الْمَفَاسِدَ النَّاشِئَةَ عَنْهُ مِنَ الْقَهْرِ وَالظُّلْمِ وَالتَّمَتُّعِ بِاللَّذَاتِ وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي هَذِهِ مَفَاسِدَ
 مَحْظُورَةً وَهِيَ مِنْ تَوَابِعِهِ كَمَا أَنَّ عَلَى الْعَدْلِ وَالنِّصْفَةِ وَإِقَامَةِ مَرَامِ الدِّينِ وَالذَّبِّ
 عَنْهُ وَأَوْجِبَ بِإِزَائِيهَا الثُّوَابَ وَهِيَ كُلُّهَا مِنْ تَوَابِعِ الْمَلِكِ فَإِذَا إِنَّمَا وَقَعَ الذَّمُّ لِلْمَلِكِ
 عَلَى صِفَةٍ وَحَالَ دُونَ حَالِ أُخْرَى وَلَمْ يَذِمَّهُ لِذَاتِهِ وَلَا طَابَ تَرْكُهُ كَمَا ذَمَّ الشُّهُورَةَ
 وَالْعُضْبَ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكُهُمَا بِالْكَلِمَةِ لِذِيابَةِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا وَأَمَّا
 الْمُرَادُ تَصْرِيفُهُمَا عَلَى مَقْتَضَى الْحَقِّ وَقَدْ كَانَ لِذَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
 عَلَيْهِمَا الْمَلِكُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لغيرِهِمَا وَهُمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عِنْدَهُ

ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا الْفِرَارَ عَنِ الْمَلِكِ بَعْدَ وَجُوبِ هَذَا النَّصْبِ لَا يُغْنِيكُمْ شَيْئًا لِأَنَّكُمْ
 مُوَافِقُونَ عَلَيَّ وَجُوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ وَالشُّوْكَةِ
 وَالْعَصِيَّةِ مُقْتَضِيَةٌ بِطَبْعِهَا لِلْمَلِكِ فَيَحْصُلُ الْمَلِكُ وَإِنْ لَمْ يَنْصَبْ إِمَامًا وَهُوَ عَيْنُ مَا قَرَّرْتُمْ
 عَنْهُ وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هَذَا النَّصْبَ وَاجِبٌ بِاجْتِمَاعِ هُوَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ وَرَاجِعٌ
 إِلَى اخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ نَصْبُهُ وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا طَاعَتَهُ لِقَوْلِهِ
 تَعَالَى أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ وَأَمَّا شُرُوطُ هَذَا الْمَنْصَبِ فَهِيَ
 أَرْبَعَةٌ الْعِلْمُ وَالْعَدَالَةُ وَالْكَفَايَةُ وَسَلَامَةُ الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي الرَّأْيِ
 وَالْعَمَلِ وَاخْتَلَفَ فِي شَرْطِ خَامِسٍ وَهُوَ النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ لِأَنَّهُ
 إِنَّمَا يَكُونُ مُنْفَذًا لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ عَالِمًا بِهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ
 لَهَا وَلَا يَكْفِي مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا لِأَنَّ التَّقَايِدَ نَقْضُ وَالْإِمَامَةَ تَسْتَدْعِي
 الْكَمَالَ فِي الْأَوْصَافِ وَالْأَحْوَالِ وَأَمَّا الْعَدَالَةُ فَلِأَنَّهُ مَنْصَبٌ دِينِي يَنْظَرُ فِي سَائِرِ
 الْمَنَاصِبِ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِيهَا فَكَانَ أَوْلَى بِاشْتِرَاطِهَا فِيهِ وَلَا خِلَافَ فِي انْتِفَاءِ الْعَدَالَةِ فِيهِ
 بِنِسْقِ الْجَوَارِحِ مِنْ أَرْكَابِ الْحَظْرَاتِ وَأَمْثَالِهَا وَفِي انْتِفَائِهَا بِالْبِدْعِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ
 خِلَافٌ وَأَمَّا الْكِفَايَةُ فَهِيَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئًا عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَافْتِحَامِ الْخُرُوبِ بِصِرَا
 بِهَا كِفَايَةً يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا عَارِفًا بِالْعَصِيَّةِ وَأَحْوَالَ الدَّمَاءِ قَوِيًّا عَلَى مُعَانَاةِ السِّيَاسَةِ
 لِيَصِحَّ لَهُ بِذَلِكَ مَا جُعِلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْعَدُوِّ وَإِقَامَةِ الْأَحْكَامِ وَتَدْبِيرِ
 الْمَصَالِحِ وَأَمَّا سَلَامَةُ الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَطَلَةِ كَالْجُنُونِ وَالْعَمَى وَالصَّمِّ
 وَالْخَرَسِ وَمَا يُؤَثِّرُ فَقَدُهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ فِي الْعَمَلِ كَتَقَدُّ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأَنْثَيْنِ
 فَشَرْطُ السَّلَامَةِ مِنْهَا كُلِّهَا لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي تِمَامِ عَمَلِهِ وَتَقِيَامِهِ بِمَا جُعِلَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ
 إِنَّمَا يَشِينُ فِي الْمَنْظَرِ فَقَطْ كَقَدِّ إِحْدَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَشَرْطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطُ
 كَمَالٍ وَلِيُحَقِّقَ بِنَقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَرْبَانِ ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِذِهِ فِي
 اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطٌ وَجُوبٌ وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنِ التَّصَرُّفِ جَمَلَةً بِالْأَسْرِ وَسَبْهَةً
 وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِذِهِ وَهُوَ الْحَجْرُ بِأَسْنِيَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ عَصِيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ
 فَيَنْتَقِلُ النَّظَرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوْجِبِ فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ
 السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَفْبِضُ يَدَهُ عَنِ ذَلِكَ وَيَدْفَعُ عَلَيْهِ

حَتَّى يَفْعَلَ فِعْلَ الْخَلِيفَةِ وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَلِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِينَةِ ذَلِكَ
 وَاسْتَجَبَ فُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هُمَا يَوْمَئِذٍ بَيْعَةَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا مَنَا أَمِيرٌ
 وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَقُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَيْمَةَ مِنْ فُرَيْشٍ وَبَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ أَوْصَانًا بِأَنْ يُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ وَلَوْ كَانَتْ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ
 لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِكُمْ فَحَجُّوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ
 وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هُمَا بِهِ مِنْ بَيْعَةِ سَعْدٍ لِذَلِكَ وَتَبَتِ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ لَا يُزَالُ هَذَا
 الْأَمْرُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ فُرَيْشٍ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْأَدْلَةِ كَثِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ
 فُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِ وَالنِّعَمِ وَبِمَا أَنْفَقْتَهُمُ الدَّوْلَةَ فِي سَائِرِ
 أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ وَصَارَ الْحُلُّ
 وَالْعَقْدُ لَهُمْ فَاسْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى تَفْيِ اسْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ
 وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرِ فِي ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْمَعُوا وَاطِيعُوا وَإِنْ وُلِّيَ
 عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُو رِيْبَةٍ وَهَذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مُخْرَجَ التَّمَثِيلِ
 وَالغَرَضُ لِلْمُبَاغَةِ فِي إِجْبَابِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حَدِيفَةَ
 حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ أَوْ لَمَّا دَخَلْتَنِي فِيهِ الطَّنَّةُ وَهُوَ أَيْضًا لَا يُفِيدُ ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَذْهَبَ
 الصَّحَابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضًا فَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصِيَّةُ الْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي فُرَيْشٍ
 وَهِيَ الْفَائِدَةُ فِي اسْتِرَاطِ النَّسَبِ وَلَمَّا اسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَانَهَا
 مَفْقُودَةٌ فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوْفُرِ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ النَّسَبِ الْمَفِيدِ
 لِلْعَصِيَّةِ كَمَا نَدَّ كُرُّهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صِرَاحَةُ النَّسَبِ فَرَأَاهُ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ إِذِ الْفَائِدَةُ
 فِي النَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ حَرْصًا مِنْ عُمَرَ رِضِيَّ اللَّهُ
 عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ فِيهِ لِأَيْمَةَ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عَهْدَةٌ
 وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِتَفْيِ اسْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبُقَالَانِيُّ لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عَصِيَّةُ
 فُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاشِي وَالْأَضْمِحْلَالِ وَأَسْتَبْدَادِ مُلُوكِ الْعَجَمِ مِنَ الْخُلَفَاءِ فَاسْقَطَ شَرْطَ
 الْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْخَوَارِجِ لِمَا رَأَى عَلَيْهِ حَالِ الْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ وَبَقِيَ
 الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاسْتِرَاطِهَا وَصِحَّةِ الْإِمَامَةِ الْقُرَشِيَّةِ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الْقِيَامِ بِأُمُورِ
 الْمُسْلِمِينَ وَرُدَّ عَلَيْهِمْ سَقُوطُ شَرْطِ الْكِفَايَةِ الَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتْ

الشوكه بدهاب العصية فقد ذهب الكفاية وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية
 تطرق ذلك أيضا إلى العلم والدن وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف
 الاجتماع. ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه
 المذاهب فنقول: إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تتبدل
 عليها وتشرع لأجلها ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد
 الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في
 المشهور وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلًا لكن التبرك ليس من
 المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي
 المقصودة من مشروعيتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجد إلا اعتبار العصية التي تكون
 بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن
 إليه اللمة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها وذلك أن قریشًا كانوا عصبه مضر وأصحابهم
 وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصية والشرف
 فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكفون لعابهم فلو جعل الأمر في سواهم
 لتوقع افتراق الكلمة بدخولهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر
 أن يرددهم عن الخلاف ولا يحماهم على الكثرة فتمتفرق الجماعة وتختلف الكلمة
 والشارع محذّر من ذلك حريص على اتفانهم ورفع النزاع والشقاق بينهم ليحصل
 اللحمة والعصية وحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في قریش لأنهم قادرون
 على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم فلا يخشى من أحد من خلاف عليهم
 ولا فرقة لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فأشترط تسبهم القرشي
 في هذا المنصب وهم أهل العصية القوية ليكون أبلغ في انتظام اللمة وانفاق
 الكلمة وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذن لهم
 سائر العرب وأقادت الأمم سواهم إلى أحكام اللمة ووظمت جنودهم قاصية البلاد
 كما وقع في أيام الفتوح واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة
 وتلاشت عصية العرب ويعلم ما كان قریش من الكثرة والغلب على بطون مضر
 من مارس أخبار العرب وسيرهم ونفطن لذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحاق

فِي كِتَابِ السَّيْرِ وَغَيْرِهِ فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اشْتِرَاطَ الْقُرْشِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ الزَّنَازِعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالغَلْبِ وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ لَا يَخْصُ الْأَحْكَامَ بِحِجَلٍ وَلَا عَصْرٍ وَلَا أُمَّةً عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكِنَايَةِ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا وَطَرَدْنَا الْعِلْمَةَ الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقُرْشِيَّةِ وَهِيَ وُجُودُ الْعَصِيَّةِ فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولِي عَصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ دَلَى مَنْ مَعَهَا لِعَصْرِهَا لِيَسْتَنْبِعُوا مِنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمِعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حَسَنِ الْحَدَايَةِ وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ فِي الْأَفْطَارِ وَالْأَفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقُرْشِيَّةِ إِذِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ كَانَتْ عَامَةً وَعَصِيَّةُ الْعَرَبِ كَانَتْ وَافِيَةً بِهَا فَعَلَبُوا سَائِرَ الْأُمَمِ وَإِنَّمَا يَخْصُ لِهَذَا الْعَهْدِ كُلِّ قَطْرٍ بِنَمَن تَكُونُ لَهُ فِيهِ الْعَصِيَّةُ الْعَالِبَةُ وَإِذَا نَظَرْتَ سِرًّا لِلَّهِ فِي الْخِلَافَةِ لَمْ تَعُدْ هَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِبًا عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيُرُدَّهُمْ عَنِ مَضَارِّهِمْ وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ وَلَا يَخَاطَبُ بِالْأَمْرِ الْإِمَامُ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ إِلَّا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْمُخَطِيبِ ^(١) فِي شَأْنِ النِّسَاءِ وَأَتَمَّتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جُعِلْنَ تَبَعًا لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْمُخَاطَبِ بِالْوَضْعِ وَإِنَّمَا دَخَلْنَ عِنْدَهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لِمَا لَمْ يَكُنْ لهنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرَّجَالُ قَوَاهِمَ عَلَيْهِنَّ اللَّهْمُ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ فَخُطِبْنَ فِيهَا بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ جِبَلٍ إِلَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَقُلْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالَفًا لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

اعْلَمُ أَنَّ الشَّيْعَةَ لُغَةً هُمُ الصَّحْبُ وَالْأَتْبَاعُ وَيُطَاقَى فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمَتَكَلِّمِينَ مِنْ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَذَاهِبُهُمْ جَمِيعًا مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْأِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَفُوضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَعْيِينِهِمْ بَلْ هِيَ رُكْنٌ الدِّينِ وَقَاعِدَةٌ الْإِسْلَامِ وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيِّ إِغْفَالُهُ وَلَا تَفْوِيضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْأِمَامِ لَهُمْ وَيَكُونُ مَعْضُومًا مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَإِنَّ

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر

عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيْنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤَلِّفُونَهَا
 عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا جَهَابُذَةُ السَّنَةِ وَلَا نَقْلَةُ الشَّرِيعَةِ بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ
 أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرَبِهِ أَوْ بَعِيدٌ عَن تَأْوِيلَاتِهِمْ الْفَاسِدَةِ وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ عِنْدَهُمْ إِلَى
 حَلِّيٍّ وَخَفِيِّ فَالْحَلِّيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ قَالُوا وَلَمْ تُطْرَدِ هَذِهِ الْوَلَايَةُ
 إِلَّا فِي عَالِيٍّ وَهَذَا قَالَهُ عُمَرُ أَصْبَحْتُ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَمِنْهَا قَوْلُهُ أَفْضَاكُمْ عَلِيٌّ
 وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِأَوْلِي الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتِهِمْ
 بِقَوْلِهِ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ وَالْمُرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ وَهَذَا
 كَانَ حُكْمًا فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِينَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ مَنْ بَيَّعَنِي عَلَى
 رُوحِهِ وَهُوَ وَصِيٌّ وَوَلِيٌّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي فَلَمْ يَبْيَعُوا إِلَّا عَلِيًّا وَمِنْ أَخْبَرَنِي عَنْهُمْ بَعَثَ
 النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي الْمَوْسِمِ حِينَ أَنْزَلَتْ فَإِنَّهُ بَعَثَ
 بِهَا أَوْلَى أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ أَوْحَى إِلَيْهِ لِيُبَلِّغَهُ رَجُلٌ مِنْكَ أَوْ مِنْ قَوْمِكَ فَبَعَثَ عَلِيًّا لِيَكُونَ
 الْقَارِئَ الْمُبَلِّغَ قَالُوا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ وَأَيْضًا فَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى
 عَلِيٍّ وَامَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدِمَا عَلَيْهِمَا فِي غَزَاتَيْنِ أُسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ مَرَّةً وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ
 آخَرَى وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدَلَّةٌ شَاهِدَةٌ بِتَعْيِينِ عَلِيٍّ لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ
 وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَن تَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصُ تَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِ عَلِيٍّ
 وَتَشْخِصِهِ وَكَذَلِكَ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَهُوَ لِأَنَّ الْإِمَامَةَ وَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ
 حَيْثُ لَمْ يَقْدِمُوا عَلِيًّا وَيَبْيَعُوهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ وَيَعْمَصُونَ فِي إِمَامَتَيْهِمَا وَلَا يَأْتِفَتُ
 إِلَى نَقْلِ الْقَدْحِ فِيهِمَا مِنْ غَلَاتِهِمْ فَهُوَ مُرَدُّوهُ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ
 الْأَدَلَّةُ إِنَّمَا أَتَتْ تَعْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوَصْفِ لَا بِالشَّخْصِ وَالنَّاسُ مُقْصِرُونَ حَيْثُ لَمْ يَضَعُوا
 الْوَصْفَ مَوْضِعَهُ وَلَا هُمْ الزَّيْدِيَّةُ وَلَا يَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ وَلَا يَعْمَصُونَ فِي إِمَامَتَيْهِمَا مَعَ
 قَوْلِهِمْ بَانَ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وُجُودِ الْأَفْضَلِ ثُمَّ
 اخْتَلَفَتْ تَقُولُ هُوَ لِأَنَّ الشَّيْخَةَ فِي مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وُلْدِ فَاطِمَةَ
 بِالنِّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يَدَّكُرُ بَعْدَ هُوَ لِأَنَّ بَسْمُونَ الْإِمَامَةَ نِسْبَةً إِلَى
 مَقَالَتِهِمْ بِأَشْرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَعْيِينِهِ فِي الْإِيمَانِ وَهِيَ أَصْلُ عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا
 فِي وُلْدِ فَاطِمَةَ لَكِنْ بِالْإِخْتِيَارِ مَعَ الشُّيُوخِ وَاشْتَرَطَ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِمًا

زَاهِدًا جَوَادًا شَجَاعًا وَيَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهُوَ لِأَنَّ هُمُ الزَّيْدِيَّةُ نَسَبًا إِلَى صَاحِبِ
 الْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِيِّ وَقَدْ كَانَ يَنَاطِرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا الْبَاقِرَ عَلَى
 اشْتِرَاطِ الْخُرُوجِ فِي الْإِمَامَةِ فَيَلْزِمُهُ الْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ إِمَامًا
 لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَتَّبِعُ عَلَيْهِ مَذَاهِبَ الْمُعْتَزَلَةِ وَأَخَذَهُ
 آيَاتًا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَلَمَّا نَاطَرَ الْإِمَامِيَّةَ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ وَرَأَوْهُ يَقُولُ
 بِإِمَامَتِهِمَا وَلَا يَتَّبِعُهُمَا مِنْهُمَا رَفُضَهُ وَلم يَجْعَلُوهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَبِذَلِكَ سُمُّوا رَافِضَةً وَمِنْهُمْ
 مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيِّ وَأَبْنَيْهِ السَّبْطِيِّ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى آخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ
 ثُمَّ إِلَى وُلْدِهِ وَهُمْ الْكَيْسَانِيَّةُ نَسَبًا إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الطَّوَائِفُ اخْتِلَافَاتٌ
 كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَارًا وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَسْمَوْنَ الْغُلَاةَ تَجَاوَزُوا حُدَّ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ
 فِي الْقَوْلِ بِالْوَهْبِيَّةِ هُوَ لِأَنَّ الْأَئِمَّةَ إِمَامًا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ اتَّصَفُوا بِصِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ أَنَّ
 الْإِلَهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةَ وَهُوَ قَوْلُ بِالْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ النَّصَارَى فِي عَيْسَى صَلَوَاتُ
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَّقَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ وَسَخَّطَ
 مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَخَ بِأَعْيُنِهِ وَالْبَرَاءَةُ
 مِنْهُ وَكَذَلِكَ فَعَلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلَ هَذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ الْإِمَامِ لَا يَكُونُ لغيرِهِ فَإِذَا مَاتَ انْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ
 يَكُونُ فِيهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلُ بِالتَّنَاسُخِ وَمِنْ هُوَ لِأَنَّ الْغُلَاةَ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ
 مِنَ الْأَئِمَّةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يَعْينُ لِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُوَ لِأَنَّ هُمُ الْوَاقِفِيُّ
 فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَتَّى لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنِ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ
 بِقِصَّةِ الْخَضِرِ قَبْلَ مِثْلِ ذَلِكَ فِي عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي السَّمَابِ وَالرَّعْدُ صَوْتُهُ
 وَالْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلِ رَضْوَى مِنْ أَرْضِ
 الْحِجَازِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ

الْإِمَامُ الْإِمَامَةُ مِنَ فُرَيْشٍ وَأُولَادُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سِوَاهُ
 عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاءُ
 فَسَبْطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرَبْلَاءُ
 وَسَبْطُ لَا يَدُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللِّوَاءُ

تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ
 وَقَالَ مِثْلَهُ عَلَاةُ الْإِمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةَ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ
 أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْعَسْكَرِيِّ وَيَلْقَبُونَهُ الْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ بِدَارِهِمْ
 فِي الْحِلَّةِ وَتَغَيَّبَ حِينَ أُعْتِقَلَ مَعَ أُمَّهِ وَعَابَ هُنَاكَ وَهُوَ يُخْرِجُ آخِرَ الزَّمَانِ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ
 عَدْلًا يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ فِي الْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى
 الْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ وَيَقْنُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ بِبَابِ
 هَذَا السَّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مِنْ كِبَا فِيهِمْ فَنُونَ بِاسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ
 ثُمَّ يَنْفُضُونَ وَيَرْجِعُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ
 الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ بِمَا
 وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبِهِ وَقَتِيلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقْرَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِدَبْحِهَا وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى
 طَرِيقِ الْمُهْجَرَةِ وَلَا يَصِحُّ الْأَسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدُ
 الْحَمِيرِيُّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

وَاعْلَمَهُ الْمَوَاشِطُ بِالْخِطَابِ	إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالٌ
فَقَمُّ بِأَصَاحِ نَبِكَ عَلَى الشَّبَابِ	فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتُهُ وَأَوْدَى
إِلَى ذُنَيْبَاهُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ	إِلَى يَوْمٍ تَثُوبُ النَّاسُ فِيهِ
إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْآيَابِ	فَلَيْسَ بِعَابِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ
وَمَا أَنَا فِي الشُّورِ بِذِي أَرْتِيَابِ	أَدِينُ بَانَ ذَلِكَ دِينَ حَقٍّ
حَيُّوا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي التَّرَابِ	كَذَلِكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَسٍ

وَقَدْ كَفَانَا مَوْتَهُ هَؤُلَاءِ الْعُلَاةُ أَيْمَةُ الشَّيْعَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيَبْطِلُونَ اِحْتِجَابَهُمْ
 عَلَيْهَا وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَافُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ
 وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ أَفْتَرَقُوا فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحُسَيْنِ
 ابْنِ عَلِيٍّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بَارِضِ السَّرَاةِ مَنْصَرَفًا مِنَ الشَّامِ
 أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ
 بِالْإِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمٌ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ الْمَلْقَبِ بِالسَّفَاحِ وَأَوْصَى هُوَ

إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَلَقَبِ بِالْمَنْصُورِ وَاتَّقَلَّتْ فِي وُلْدِهِ بِالْأَنْصِ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ وَهَذَا مَذْهَبُ الْأَشْجَمِيَّةِ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَكَانَ مِنْهُمْ
أَبُو مُسْلِمٍ وَسَلِيمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ شِيعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَرُبَّمَا
يَعْتَدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقَتَ
الْوَفَاةِ وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ بِعَصَبِيَّةِ الْعُمُومَةِ وَأَمَّا الزَّيْدِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ
فِيهَا وَإِنَّمَا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ لَا بِالْأَنْصِ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيِّ ثُمَّ أَنَّهُ الْحَسَنُ ثُمَّ
أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ أَنَّهُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًا
إِلَى الْإِمَامَةِ فَقُتِلَ وَصَلَبَ بِالْكِنَاسَةِ وَقَالَ الزَّيْدِيَّةُ بِإِمَامَةِ أَنَّهُ يُحْيِي مِنْ بَعْدِهِ فَمَضَى
إِلَى خُرَاسَانَ وَقُتِلَ بِالْجُوزْجَانَ بَعْدَ أَنْ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
الْحُسَيْنِ السَّبْطِيِّ وَيُقَالُ لَهُ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ فَخَرَجَ بِالْحِجَازِ وَتَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ وَجَاءَهُ عَسَاكِرُ
الْمَنْصُورِ فَقُتِلَ وَعُهِدَ إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَقَامَ بِالْبَصْرَةِ وَمَعَهُ عَيْسَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ عَسَاكِرَهُ فَهَزَمَ وَقُتِلَ إِبْرَاهِيمَ وَعَيْسَى وَكَانَ جَعْفَرُ الصَّادِقِ أَخْبَرَهُمْ
بِذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي كِرَامَاتِهِ وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ
أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ هُوَ أَخُو زَيْدِ
أَبْنِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّائِقَانِ فَفَضَّ عَلَيْهِ وَسَبَقَ إِلَى الْمَعْتَصِمِ فَجَسَّهُ
وَمَاتَ فِي حَبْسِهِ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ يُحْيِي بْنِ زَيْدِ هُوَ أَخُوهُ
عَيْسَى الَّذِي حَضَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ مَنْصُورٍ وَتَقَلُّوا الْإِمَامَةَ فِي عَقْبِهِ
وَالِيهِ انْتَسَبَ دَعْوَى الزَّرِيحِ كَمَا نَدَّ كُرُهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ إِنَّ
الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ أَدْرِيسُ الَّذِي قَرَّ إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَاتَ هُنَاكَ
وَقَامَ بِأَمْرِهِ ابْنُهُ أَدْرِيسُ وَأَخْطَطَّ مَدِينَةَ فَاسَ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَقْبُهُ مُلُوكًا بِالْمَغْرِبِ
إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا كَمَا نَدَّ كُرُهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَبَقِيَ أَمْرُ الزَّيْدِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ
وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
أَبْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِيِّ وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدِ ثُمَّ قَامَ بِهَيْدَةَ الدَّعْوَةَ
فِي الدَّلِيمِ النَّاصِرِ الْأَطْرُوشُ مِنْهُمْ وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ
أَبْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بِطَبْرَسْتَانَ دَوْلَةٌ وَتَوَصَّلَ

الدَّيْلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ وَالْإِسْتِبْدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بَعْدَ كَمَا نَذَرُوا فِي أَخْبَارِهِمْ .
 وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ فَسَافُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيِّ الرَّضِيِّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ
 الْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ
 الصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةً سَافَوْهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ
 وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةً سَافَوْهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِمِ وَهُمْ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ لَوْ قُوفِهِمْ
 عِنْدَ الثَّانِي عَشْرٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَقَوْلُهُمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ
 فَقَالُوا بِالْإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامَ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ
 كَانَ قَدَمَاتٍ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ
 اللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ
 الْأَئِمَّةِ الْمَسْتُورِينَ لِأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ وَتَكُونُ دَعَاؤُهُ
 ظَاهِرِينَ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ قَالُوا وَبَعْدَ
 مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ ابْنُهُ جَعْفَرُ الصَّادِقِ وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ الْمَسْتُورِينَ
 وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُهْدِيُّ الَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ فِي كِتَابَتِهِ وَتَبَاعَ
 النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مَعْتَقِلِهِ بِسِجْلِسَاةَ وَمَلِكُ الْقَبْرِ وَانَ وَالْمَغْرِبَ وَمَلِكُ
 بَنُوهُ مِنْ بَعْدِ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هُوَ لِأَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَى الْقَوْلِ بِالْإِمَامَةِ
 إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا بِالْبَطَانِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِ أَيْ الْمَسْتُورِ وَيُسَمَّوْنَ
 أَيْضًا الْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضَمَنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ
 دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ الصَّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَمَلِكُ حِصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ
 وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَعَهَا الْهَلَاكُ بَيْنَ مَلُوكِ التُّرْكِ بِمِصْرَ وَمَلُوكِ النَّبَرِ بِالْعِرَاقِ
 فَأَقْرَضَتْ وَمَقَالَةٌ هَذَا الصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَدَّ كُورَةَ فِي كِتَابِ الْمِلَلِ وَالنِّعَلِ لِلشَّهْرِ سِتَانِي *
 وَأَمَّا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصَّوْا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِالْإِمَامَةِ
 مُوسَى الْكَاطِمِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ لِوَفَاةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا
 جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الرَّضَا الَّذِي عَاهَدَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ وَمَاتَ
 قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرُهُمْ ابْنُهُ مُحَمَّدُ التَّقِيُّ ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الْهَادِي ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَسَنِ
 الْعَسْكَرِيِّ ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْمُهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ الَّذِي قَدَمْتَاهُ قَبْلَ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ

هذه المقالات الشيعة اختلاف كثير إلا أن هديه أشهر مذاهم ومن أراد
استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها
بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلى الملك

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبة ليس وقوعه عنها باختيار إنما هو بضرورة
الوجود وترتيبها كما قلنا من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحل عليه
الجمهور فلا بد فيه من العصبة إذ المطالبة لأنتم الأبا كما قدمناه . فالعصبة
ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيًا إلا في منعة
من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبة وندب إلى أطرافها ونزكها فقال إن الله
أذهب عنكم عيئة^(١) الجاهلية وفخرها بالآباء أنتم بنو آدم وادم من تراب وقال
تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضًا قد ذم الملك وأهله وتعي
على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاف والإسراف في غير القصد والتعكب
عن صراط الله وإنما حض على الإلفة في الدين وحدد من الخلاف والفرقة * وأعلم
أن الدنيا كلها وأحوالها مطية للأخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده
فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكيفية أو
انقلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكيفية إنما قصده تضييقها في
أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقًا وتتحد الوجهة كما
قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله
ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فلم يدم
الغضب وهو يقصد نزع من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لقدم منه الانتصار
للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله وإنما يدم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة
فإذا كان الغضب لذلك كان مذمومًا وإذا كان الغضب في الله ولله كان ممدوحًا وهو
من شأن الله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضًا ليس المراد إبطالها بالكيفية
فإن من بطلت شهوته كان نقصًا في حقه وإنما المراد تضييقها فيما أريح له بأشتماله

(١) عبة: ضم العين وكسرهما وكسر الموحدة شدة وتشديد المناة الخفية الكبر والنخر والخرفة قاموس

عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَضَرِّقًا طَوْعَ الْأَوْامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصِيَّةِ حَيْثُ
 ذَمَّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ فَإِنَّمَا بُرِّدُوا بِحَيْثُ تَكُونُ
 الْعَصِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ
 عَلَى أَحَدٍ لِأَنَّ ذَلِكَ نَجَانٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعُقَلَاءِ وَغَيْرُ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ
 فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْعَصِيَّةُ فِي الْحَقِّ وَإِقَامَةُ أَمْرِ اللَّهِ فَآمُرُ بِمَطْلُوبٍ وَلَوْ بَطَلَ لِبَطَلِ الشَّرَائِعِ
 إِذْ لَا يَتِيمٌ قَوْمَهَا إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَكَذَا الْمَلِكُ لِمَا ذَمَّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَدْمُ
 مِنْهُ الْغَلْبُ بِالْحَقِّ وَقَهْرُ الْكَافَّةِ عَلَى الدِّينِ وَرِئَاةُ الْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمَّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ
 التَّغَلُّبِ بِالْبَاطِلِ وَتَضَرُّفِ الْأَدَمِيِّينَ طَوْعَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهْوَاتِ كَمَا قُلْنَا فَلَوْ كَانَ
 الْمَلِكُ مُخْلِصًا فِي عِلْمِهِ لِلنَّاسِ أَنَّ اللَّهَ وَلِحَمَلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ
 ذَلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ قَالَ سَلِيمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ
 بَعْدِي لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْعَزَلُ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ * وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةَ
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أُهْبَةِ الْمَلِكِ وَرِيهِ مِنَ
 الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ أَكْسَرِيَّةٌ يَا مُعَاوِيَةُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 أَنَا فِي تَعَرُّبِهَا الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مَبَاهِلِهِمْ بَزِينَةَ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ فَسَكَتَ وَلَمْ يَخْطِئْهُ
 لِمَا أَحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالِدِّينِ فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْضَ الْمَلِكِ مِنْ
 أَصْلِهِ لَمْ يَقْنَعَهُ أَجْوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرِيَّةِ وَانْتَهَالِهَا بَلْ كَانَ يُعْرِضُ دَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا
 بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكَسْرِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي دَلِكِ يَوْمٍ مِنْ
 أَرْكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ وَالْعُقَلَّةِ عَنِ اللَّهِ وَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ
 بِذَلِكَ لَيْسَ كَسْرِيَّةً فَارِسَ وَبَاطِلُهُمْ وَإِنَّمَا قَصَدَهُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَسَكَتَ * وَهَكَذَا
 كَانَ شَأْنُ الصَّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمَلِكِ وَأَحْوَالِهِ وَنَسِيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا مِنَ التَّبَاسُطِ بِالْبَاطِلِ
 فَلَمَّا اسْتُخْضِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَمُّ
 أُمُورِ الدِّينِ وَأَرْتَضَاهُ النَّاسُ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجْرِ
 لِلْمَلِكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّهُ مَظَنَّةٌ لِلْبَاطِلِ وَنَحْلَةٌ يَوْمئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَتَقَامَ
 بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ اللَّهُ مُتَبَعًا سَنِينَ صَاحِبِهِ وَقَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ
 عَلَى الْأَيْسَلَامِ ثُمَّ عَهْدَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْتَنَى آثَرَهُ وَقَاتَلَ الْأُمَمَ فَغَلَبَهُمْ وَأَذِنَ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ

مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمَلِكِ فَعَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عِثْمَانَ بْنِ
 عَفَّانٍ ثُمَّ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْكُلُّ مُتَبَرِّئُونَ مِنَ الْمَلِكِ مُنْكَبُونَ عَنْ طُرُقِهِ
 وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضاضَةِ الْإِسْلَامِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ
 الْأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرْفِئِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النَّعِيمِ
 وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْعَيْشِ وَشَطْفَةِ الَّذِي الْفَوَهُ
 فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ أَسْعَبَ عَيْشًا مِنْ مُضَرٍّ لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ
 زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْأَرْيَافِ وَجُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَاخْتِصَابِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا
 مِنْ رِبِيعَةَ وَالْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ
 الْعُقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَيَخْرُونَ بِأَكْلِ الْعَلْبَرِ وَهُوَ وَرِ الْأَيْلِ يَمْهُونَهُ بِالْحِجَارَةِ فِي الدَّمِ
 وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيبًا مِنْ هَذَا كَانَتْ حَالُ فُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ
 عَصِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا
 إِلَى أُمَّةِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصِّدْقِ فَأَبْتَزُوا
 مَلِكَهُمْ وَأَسْتَبَاحُوا دِيَارَهُمْ فَزَخَرَتْ بِحَارِ الرَّفَةِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقَسِّمُ
 لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوَهَا فَاسْتَوَلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ
 الْحَصْرُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرْفِعُ نُوبَهُ بِالْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ
 يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غَيْرِي غَيْرِي وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَانَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ
 يَعْبُدْهَا لِلْعَرَبِ لِقَلَّتْهَا يَوْمئِذٍ وَكَانَتْ الْمَنَاخِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِالْجُمَلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ
 الْحَنْظَلَةَ بِنِخَالِهَا وَمَكَاسِبَهُمْ مَعَ هَذَا أُمَّةٌ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ قَالَ الْمَسْعُودِيُّ
 فِي آبَائِ عِثْمَانَ أَقْتَنَى الصَّحَابَةُ الصِّيَاعَ وَالْمَالَ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ
 وَمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ صِيَاعِهِ بِوَادِي الْفَرَى وَحَنِينٍ وَغَيْرِهِمَا
 مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ وَخَلْفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ
 وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلْفَ أَلْفِ فَرَسٍ وَأَلْفَ أُمَّةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ
 أَلْفَ دِينَارٍ كُلِّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ عَلِيٌّ مَرْبِطَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 بْنِ عَوْفٍ أَلْفَ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ أَلْفٍ مِنَ الْغَنَمِ وَبَلَغَ الرَّبْعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ
 بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَخَلْفَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ

بِالْفُؤُسِ غَيْرَ مَا خَلَّفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبَنَى الرَّبِيزُ دَارَهُ
 بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةَ وَالْأَسْكَدَرِيَّةَ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ
 بِالْكُوفَةِ وَشَيَّدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْجُصِّ وَالْأَجْرَ وَالسَّاجَ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي
 وَقَاصُ دَارَهُ بِالْعَفِيقِ وَرَفَعَ سَمَكَهَا وَأَوْسَعَ فِضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَعْلَاهَا شُرَفَاتٍ وَبَنَى
 الْمَقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا تَجْصَصَةَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلَّفَ لِعَلِيِّ بْنِ مَنِبِهِ خَمْسِينَ
 أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أَهْ كَلَامُ السَّعُودِيِّ
 فَكَانَتْ مَكَاسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْنِيًّا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ
 حَلَالٌ لِأَنَّهَا غَنَائِمٌ وَفِيؤُوهُ وَلَمْ يَكُنْ نَصْرُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي
 أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْأَسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا
 فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَ
 حَالُهُمْ قَصْدًا وَنَفَقَاتُهُمْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَمَدَاهِيهِ كَانَ ذَلِكَ الْأَسْتِكْثَارُ عَوْنًا لَهُمْ دَلَى
 طُرُقِ الْحَقِّ وَكَتْسَابِ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الْبِدَاؤُةُ وَالْفَضَاضَةُ إِلَى نِيهَايَتِهَا
 وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَا وَحَصَلَ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ كَانَ
 حُكْمُ ذَلِكَ الْمَلِكِ عِنْدَهُمْ حُكْمُ ذَلِكَ الرَّفِيعِ وَالْأَسْتِكْثَارُ مِنَ الْأَمْوَالِ فَلَمْ يَصْرِفُوا
 ذَلِكَ التَّغَلُّبُ فِي بَاطِلٍ وَلَا خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَدَاهِبِ الْحَقِّ * وَلَمَّا وَقَعَتْ
 الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَهِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقُّ وَالْإِجْتِهَادُ وَلَمْ
 يَكُونُوا فِي مَحَارِبَتِهِمْ لِعَرَضِ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِإِيثارِ بَاطِلٍ أَوْ لِاسْتِشْعَارِ حَقْدٍ كَمَا قَدْ تَوَهَّمَهُ
 مُتَوَهِّمٌ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ مُلْجِدٌ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِّ وَسَنَّهُ كُلُّ وَاحِدٍ نَظَرَ
 صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِّ فَاقْتَنَلُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلِيًّا فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةَ قَائِمًا
 فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ وَالْكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ ثُمَّ
 اقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الْإِنْتِرَادَ بِالْمُجِدِّ وَأَسْتِكْثَارَ الْوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَةَ أَنْ
 يَدْفَعَ عَنِ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فُؤُوهُ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ سَاقَتْهُ الْعَصَبِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا وَأَسْتَشْعَرَتْهُ بِنِوَامِيَّةٍ وَمَنْ
 لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي اقْتِفَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَأَعَصَوْصَبُوا عَلَيْهِمْ وَأَسْتَمَاتُوا
 دُونَهُ وَلَوْ حَمَاهُمْ مُعَاوِيَةَ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي الْإِنْتِرَادِ بِالْأَمْرِ لَوْفَعِ فِي
 اقْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمْعَهَا وَتَأْلِيفِهَا أَمُّ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرٌ مُخَالَفَةٌ

وَقَدْ كَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَائِمَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ
 أَبِي بَكْرٍ لَوْ كَانَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُهُ الْخِلَافَةَ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ وَلَكِنَّهُ
 كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ لِمَا ذَكَرْنَا فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَحْوِلَ الْأَمْرَ
 عَنْهُمْ لِئَلَّا تَفْعَ الْفُرْقَةُ وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَارِعُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ
 فَالْمَلِكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ الْوَاحِدَ أَنْفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِي مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَوُجُوهِهِ
 لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ نَكِيرٌ عَلَيْهِ وَلَقَدْ أَنْفَرَدَ سَلِيمَانُ وَأَبُوهُ دَاوُدُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا بِمَلِكِ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ مِنَ الْإِنْفِرَادِ بِهِ وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ التُّبُوءِ
 وَالْحَقِّ وَكَذَلِكَ عَهْدُ مُعَاوِيَةَ إِلَى يَزِيدَ خَوْفًا مِنْ أَفْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ
 لَمْ يَرْضُوا تَسْلِيمَ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَلَوْ قَدْ عَهِدَ إِلَى غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ
 كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَلَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيُعْهَدَ إِلَيْهِ
 وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَسْقِ حَاشَا لِلَّهِ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ كَانَ مَرْوَانُ
 ابْنُ الْحَكَمِ وَأَبْنُهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِي الْمَلِكِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبِطَالَةِ
 وَالْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ جَزْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا
 مِثْلَ خَشْيَةِ أَفْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّذِي هُوَ أَهْمُ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانُوا
 عَلَيْهِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالْإِفْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ السَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدْ أَحْتَجَّ مَالِكُ
 فِي الْمَوْطَأِ بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبِيقَةِ الْأُولَى مِنَ النَّابِعِينَ وَعَدَالَتِهِمْ
 مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدْرَجَ الْأَمْرُ فِي وُلْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ
 وَتَوَسَّطَهُمْ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَتَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جِدَهُ وَلَمْ
 يَهْمِلْ ثُمَّ جَاءَ خَلْفَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمَلِكِ فِي أَعْرَاضِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَتَسَوَّأَ
 مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُهُمْ مِنْ تَحَرِّيِ الْقَصْدِ فِيهَا وَعِظْمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا
 دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعَوْا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلَّى رِجَالَهَا الْأَمْرَ
 فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَفُوا الْمَلِكَ فِي وَجْهِهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّى
 جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ثُمَّ أَفْضَى الْأَمْرَ إِلَى بَنِيهِمْ
 فَأَعْطُوا الْمَلِكَ وَالذَّرْفَ حَقَّهُ وَأَنْعَمُوا فِي الدُّنْيَا وَبَاطَلُوا وَبَدَدُوا الدِّينَ وَرَأَوْهُمْ ظَهْرِيًّا
 فَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِجَرِّهِمْ وَأَنْتَزَعَ الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمَكَّنَ سِوَاهُمْ وَاللَّهُ لَا

يَظَلُّ مُثَقَّلًا ذَرِيَّةً وَمَنْ تَأَمَّلَ سَيْرَ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَأَخْتِلَافِهِمْ فِي تَحْرِي الْحَقِّ
 مِنَ الْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَاهُ وَقَدْ حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ مِثْلَهُ فِي أَحْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنِ
 أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتَهُ وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ أَمَّا عَبْدُ الْمَلِكِ فَكَانَ
 جَبَّارًا لَا يَبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هَمُّهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ وَأَمَّا عُمَرُ فَكَانَ أَعْوَرَ
 بَيْنَ عُمَيَّانَ وَكَانَ رَجُلُ الْقَوْمِ هَشَامٌ قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ ضَاطِبِينَ لِمَا مَهَّدَ لَهُمْ مِنَ
 السُّلْطَانِ يَحْوِطُونَ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ تَسْنِيمِهِمْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَرَفْضِهِمْ
 دَنِيَّاتِهَا حَتَّى أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى آبَائِهِمُ الْمُتَرَفِينَ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ الشَّهَوَاتِ وَرُكُوبَ
 اللَّذَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِهِ وَأَمْنًا لِمَكْرِهِ مَعَ أَطْرَاحِهِمْ صَيَانَةَ الْخِلَافَةِ
 وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ الرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ السِّيَاسَةِ فَسَلِبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْمُومَ الدُّلَّ وَنَفَى
 عَنْهُمْ النِّعْمَةَ ثُمَّ اسْتَحْضَرَ عَبْدُ اللَّهِ ^(١) بَنَ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ مَعَ مَلِكِ التُّوبَةِ لَمَّا
 دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَأَرَاهُ أَيَّامَ السَّفَاحِ قَالَ أَقَمْتُ مَلِكًا ثُمَّ أَتَانِي مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلَى الْأَرْضِ
 وَقَدْ بَسَطَتْ لِي فُرْشٌ ذَاتُ قِيمَةٍ فَقُلْتُ مَا مَنَعَكَ عَنِ الْقُعُودِ عَلَيَّ ثِيَابِنَا فَقَالَ إِنِّي مَلِكٌ
 وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِعَظَمَةِ اللَّهِ إِذْ رَفَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لِي لِمَ تَشْرَبُونَ الْخَمْرَ
 وَهِيَ مُحْرَمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ فَقُلْتُ اجْتَرَأْتُ عَلَى ذَلِكَ عَيْبِدُنَا وَأَتْبَاعِنَا قَالَ فَلِمَ تَطْمَئِنُّ
 الزَّرْعُ بِدَوَابِكُمْ وَالْفَسَادُ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ قُلْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ عَيْبِدُنَا وَأَتْبَاعِنَا بِجَهْلِهِمْ قَالَ
 فَلِمَ تَلْبَسُونَ الدِّيَابِجَ وَالذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ قُلْتُ ذَهَبَ مِنَّا
 الْمَلِكُ وَأَنْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ الْعَجَمِ دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبَسُوا ذَلِكَ عَلَى الْكُفْرِ مِنَّا فَأَطْرَقَ
 يَنْكُتُ بِيَدِهِ فِي الْأَرْضِ وَيَقُولُ عَيْبِدُنَا وَأَتْبَاعِنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ
 إِلَيَّ وَقَالَ لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ اسْتَحْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ
 نَهَيْتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكَتُمْ فَسَلِبْكُمْ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسْمُومَ الدُّلَّ بِذُنُوبِكُمْ وَاللَّهُ نَقِمَةٌ لِمَنْ
 تَبَلَّغَ غَابَتِهَا فَيْكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُحِلَّ بِكُمْ الْعَذَابَ وَأَنْتُمْ بِلَيْدِي فِيمَا لَيْتِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا
 الضِّيَافَةُ ثَلَاثٌ فَتَزَوَّدْ مَا أَحْتَجُّ إِلَيْهِ وَأَرْجِعْ عَنِ أَرْضِي فَتَجِبَّ الْمَنْصُورُ وَأَطْرَقَ فَقَدَّ
 تَبَيَّنَ لِكَ كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافَةً وَوَارِعُ
 كُلِّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الدِّينُ وَكَانُوا يُؤْتِرُونَهُ عَلَى أُمُورِ دِيَارِهِمْ وَإِنْ أَفْضَتْ إِلَى

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك واطنه تصحفاً قاله نصر

هَلَاكِهِمْ وَحَدَثُهُمْ دُونَ الْكَافَّةِ فَبَدَا عَثْمَانُ لَمَّا حُصِرَ فِي الدَّارِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
 وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَابْنُ جَعْفَرٍ وَأَمْثَالُهُمْ يُرِيدُونَ الْمُدَافَعَةَ عَنْهُ فَأَبَى وَمَنَّعَ مِنْ سَلِّ
 السُّيُوفِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَخَافَةَ الزُّرْقَةِ وَحِظْظًا لِلْإِلَافَةِ الَّتِي بِهَا حَفِظَ الْكَلِمَةَ وَلَوْ أَدَّى
 إِلَى هَلَاكِهِ وَهَذَا عَلِيُّ أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُغْبِرَةَ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ بِاسْتِيقَافِ الزُّبَيْرِ وَمَعَاوِيَةَ
 وَطَلْحَةَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى بَيْعَتِهِ وَتَنَفَّقَ الْكَلِمَةَ وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ
 مِنْ أَمْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ فَأَبَى فِرَارًا مِنَ الْغَيْشِ الَّذِي يُنَافِيهِ الْإِسْلَامُ
 وَغَدَا عَلَيْهِ الْمُغْبِرَةَ مِنَ الْعُدَاةِ فَقَالَ لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَيْكَ بِالْأَنْسِ بِمَا أَشْرْتُ ثُمَّ عُدْتُ إِلَى
 نَظْرِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا رَأَيْتَهُ أَنْتَ فَقَالَ عَلِيُّ لَا وَاللَّهِ
 بَلْ أَعْلَمُ أَنَّكَ نَعَيْتَنِي بِالْأَنْسِ وَعَشَشْتَنِي الْيَوْمَ وَلَكِنْ مَنَعَنِي مِمَّا أَشْرْتُ بِهِ زَائِدُ
 الْحَقِّ وَهَكَذَا كَانَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي إِصْلَاحِ دِينِهِمْ بِنَسَادِ دُنْيَاهُمْ وَنَحْنُ

نُرْفَعُ دُنْيَانَا بِتَمْرِيْقِ دِينِنَا فَلَا دِينَأَ بَقِيَّ وَلَا مَا نُرْفَعُ

فَقَدْ رَأَيْتُ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى الْمَلِكِ وَبَقِيَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَحْرِيِ الدِّينِ
 وَمَدَاهِبِهِ وَالْجُرْيِ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ وَلَمْ يَظْهَرَ الْغَيْبُ إِلَّا فِي الْوَأَزِيعِ الَّذِي كَانَ دِينًا
 ثُمَّ انْقَلَبَ عَصِيْبَةٌ وَسَيْفًا وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِعَهْدِ مَعَاوِيَةَ وَمَرْوَانَ وَابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ
 وَالصِّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الرَّشِيدِ وَبَعْضُ وَوَدِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ
 وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَسْمَاءُ وَصَارَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا وَجَرَتْ طَبِيعَةُ النَّعْثَابِ إِلَى غَايَتِهَا وَأَسْتَعْمَلَتْ
 فِي أَغْرَاضِهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالتَّقْلُبِ فِي الشَّمَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لَوْلِيْدِ عَبْدِ
 الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بَعْدَ الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَسْمُ الْخِلَافَةِ بَاقِيًا فِيهِمْ لِبَقَاءِ عَصِيْبَةِ
 الْعَرَبِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ فِي الطُّورَيْنِ مُلْتَمِسُ بَعْضُهُمَا بَعْضٌ ثُمَّ ذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ
 وَأَثْرُهَا بِذَهَابِ عَصِيْبَةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ حَيْلِهِمْ وَتَلَاشِيِ أَحْوَالِهِمْ وَبَقِيَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا
 كَمَا كَانَ الشَّانُ فِي مُلُوكِ الْعَجْمِ بِالْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَبْرُكَ وَالْمَلِكِ
 بِجَمِيعِ الْقَابِهِ وَمَنَاحِيهِ لَهُمْ وَلَيْسَ لَخَلِيفَةِ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ
 مِثْلَ صَنَاهَاجَةَ مَعَ الْعَبِيدِيْنَ وَمَغْرَاوَةَ وَبَنِي يَفْرَنْ أَيْضًا مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمِيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ
 وَالْعَبِيدِيْنَ بِالْقَهْرَوَانَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمَلِكِ أَوَّلًا ثُمَّ التَّبَسَّتْ
 مَعَانِيهِمَا وَأَخْتَلَطَتْ ثُمَّ انْفَرَدَ الْمَلِكُ حَيْثُ انْفَرَقَتْ عَصِيْبَتُهُ مِنْ عَصِيْبَةِ الْخِلَافَةِ وَاللَّهُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة (١)

اعْلَمْ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ كَانَ الْمُبَايَعُ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ
النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيَطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ
بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمَشْطِ وَالْمَكْرِهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا
أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِدًا لِلْعَهْدِ فَاشْبَهَ ذَلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمَشْتَرِي فُسِّمِيَ بَيْعَةً مُصَدَّرَ
بَاعَ وَصَارَتِ الْبَيْعَةُ مُصَاحَةً بِالْأَيْدِي هَذَا مَدْلُولُهَا فِي عَرَفِ اللُّغَةِ وَمَعْهُدُ الشَّرْعِ وَهُوَ
الْمُرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَعِنْدَ الشَّحْرَةِ وَحَشْمَا
وَرَدَّ هَذَا اللَّفْظَ وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ كَانَ الْخُلَفَاءُ يُسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ
وَيَسْتَوْعِبُونَ الْإِيمَانَ كُلِّهَا لِذَلِكَ فُسِّمِيَ هَذَا الْأَسْتِعَابُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ وَكَانَ الْإِيكْرَاهُ
فِيهَا أَكْثَرَ وَأَعْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِيكْرَاهِ أَنْكَرَهَا
الْوَلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مَحَبَّةِ الْإِمَامِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكُفْرِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ
أَوْ الْيَدِ أَوْ الرِّجْلِ أَوْ الذَّبْلِ أَطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازًا لِمَا
كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالنِّزَامِ الْأَدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَعَلَبَ فِيهِ
حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عَرَفِيَّةً وَاسْتَعْنَى بِهَا عَنْ مُصَاحَةِ أَيْدِي النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي
الْأَصْلِ لِمَا فِي الْمَصَاحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالْإِتِّدَالِ الْمُتَابِعِينَ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْنِ
الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ الْإِلَافِيِّ الْأَقْلَ مِنْ يَمِينِ يَقْصِدُ التَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ
خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَأَفْهَمَ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعَرَفِ فَإِنَّهُ أَكِيدُ عَلَى
الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثًا وَجَبَانًا
وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

(١) البيعة بفتح الموحدة اما بكسرها على وزن شبعة بسكون الياء فيها فهي معبد النصارى ١٠٥

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

اعلم أن أئمةنا الكرام في الإمامة ومشروعيتها إما فيها من المصلحة وأن حقيقتها
 للنظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم فهو وإيهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في
 حياته ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو
 يتولاهم ويتقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع
 بإجماع الأمة على جوازها وانعقادها إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر
 بن الخطاب من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم
 وكذلك عهد عمر في الشورى إلى السنة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين
 وفوض بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف فأجتهد وناظر
 المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي فأثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته
 إياه على لزوم الافتداء بالشيخين في كل ما يعين دون اجتهاده فأعقد أمر عثمان
 لذلك وأوجبوا طاعته والسلا من الصحابة حاضرين للأولى والثانية ولم ينكروه أحد
 منهم فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيتها وإجماع حجة
 كما عرف ولا يتهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأون
 على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعه بعد مماته خلافا لمن قال
 باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد فإنه بعيد عن
 الظنة في ذلك كله لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إيتار مصلحة أو
 توقع مفسدة فتنتفي الظنة في ذلك رأسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن
 كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية لإيتار ابنه يزيد
 بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم
 باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم
 وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فأثره بذلك دون غيره ممن
 يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع
 الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالة

وَصِحَّتْهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَحُضُورُ أَكْبَرِ الصَّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ
 عَلَى انْتِفَاءِ الرَّبِّ فِيهِ فَلَيْسُوا بِمَنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةَ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ
 الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كَلَّمَهُمْ أَجَلَ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَّ لَهُمْ مَانِعَةً مِنْهُ وَفَرَّارَ عَبْدِ اللَّهِ
 ابْنَ عُمَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مَبَاحًا
 كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخِلَافَةِ هَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ
 عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ وَدُورُ الْخِلَافِ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ
 مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخِلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَعَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسَلِيمَانَ
 مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالسَّفَّاحَ وَالْمَنْصُورَ وَالْمَهْدِيَّ وَالرَّشِيدَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ
 عَرَفَتْ عَدَالَتَهُمْ وَحَسَنَ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرَ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِثَارُ آبَائِهِمْ
 وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ الْخِلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلِيائِكَ
 الْخِلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوِزَاعُ دِينِيًّا فَعِنْدَ كُلِّ
 أَحَدٍ وَزَاعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَعَبَدُوا إِلَى مَنْ يَرْضِيهِ الدِّينُ فَقَطَّ وَاتَّزَوْهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَلُوا كُلَّ
 مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَزَاعِهِ وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لُدُنٍ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتْ الْعَصِيَّةُ قَدْ
 أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمَلِكِ وَالْوِزَاعِ الَّذِي قَدْ ضَعُفَ وَأَحْتَجَّ إِلَى الْوِزَاعِ السُّلْطَانِيَّ
 وَالْعَصْبَانِيَّ فَلَوْ عَهْدَ إِلَى غَيْرٍ مِنْ تَرْضِيهِ الْعَصِيَّةُ لَرَدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ وَأَنْتَقَضَ أَمْرُهُ
 سَرِيعًا وَصَارَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفِرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ . سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا بَالُ
 الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ
 كَانَا وَالْيَمِينَ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ وَالْأَمْرُ عَلَى مِثْلِكَ يُشِيرُ إِلَى وَزَاعِ الدِّينِ أَفَلَا تَرَى إِلَى
 أَلْمَامُونَ لَمَّا عَهْدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَسَمَاهُ الرَّضَا كَيْفَ أَنْكَرَتْ
 الْعَبَّاسِيَّةُ ذَلِكَ وَتَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ الْوِزَاجِ
 وَالْخِلَافِ وَأَنْقَطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ الْأَمْرَ حَتَّى بَادَرَ
 أَلْمَامُونَ مِنْ خُرَّاسَانَ إِلَى بَغْدَادٍ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمُعَاهَدِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَعْتَابِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ
 فَالْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلِفُ
 بِاخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حِكْمٌ يُخْصُهُ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ
 يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التِّرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ

مِنْ اللَّهِ يَخْصُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحْسِنَ فِيهِ النِّيَّةَ مَا أَمَكَنَ خَوْفًا مِنْ
 الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْمَلِكُ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أَمُورٌ تَدْعُو
 الضَّرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا * فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدٍ مِنَ الْفَسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ
 فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدٍ فَإِنَّهُ أَعْدَلَ مِنْ ذَلِكَ
 وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْدِلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ
 وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدٍ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفَسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ
 حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَتَقَضَّ بِيَعْتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ
 الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا
 فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعِزِّ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدٍ يَوْمَئِذٍ هِيَ
 عَصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ فُرَيْشٍ وَتَسْتَبِيعِ عَصِيَّةٍ فَصَرَّاجِمٌ وَهِيَ
 أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تَطَاقُ مَقَاوِمَتَهُمْ فَأَفْصَرُوا عَنْ يَزِيدٍ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى
 الدُّعَاءِ بِهَيْدَابَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَأْنُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَلُ تَجْتَهِدُونَ وَلَا
 يُنْكِرُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبِرِّ وَتَحَرِّيِ الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَقِنَا اللَّهُ
 لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ * وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدَّعِيهِ
 الشَّيْخَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصَحَّ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنَ أئِمَّةِ النُّقْلِ
 وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرطَاسِ لِيَكْتُبَ الوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ
 مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُهِنَ وَسُئِلَ
 فِي الْعَهْدِ فَقَالَ إِنْ أَعْبَدَ فَقَدْ عَهْدَ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ
 مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْبُدْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ لِإِبْرَاهِيمَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ لِنَهْ عَنِ
 شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ
 وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِيمٌ أَنَّهُ لَمْ يُوَصَّ وَلَا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ وَشَبْهَةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ
 إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَمَا يَزْعَمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ
 الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَوْضُوعَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا
 شَأْنَ الصَّلَاةِ وَلَيْكَانَ يَسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ وَلَيْكَانَ يَشْهَرُ

كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ وَاجْتِاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ
 فِي قَوْلِهِمْ ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا دَلِيلٌ عَلَى
 أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَنْفَعْ وَيَدُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُهِمًّا
 كَمَا هُوَ الْيَوْمَ وَسَّانُ الْعَصْبِيَّةِ الْمُرَاعَاةُ فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقُ فِي تَجَارِي الْعَادَةِ
 لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ الْأَعْتِبَارِ لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ
 مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَأَسْتِمَاتَةِ النَّاسِ دُونَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا
 يُشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرِهِمْ وَتَرَدُّدِ خَبَرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ وَتَجَدُّدِ خِطَابِ
 اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَخْتَجِ إِلَى مُرَاعَاةِ الْعَصْبِيَّةِ لِمَا شَمَلَ النَّاسَ مِنْ صِبْغَةِ
 الْإِنْفِئَادِ وَالْإِذْعَانِ وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْأَحْوَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَارِقَةِ
 وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ الَّتِي وَجَّهُوا مِنْهَا أَوْدُهُشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ
 وَالْعَهْدِ وَالْعَصْبِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مُنْدَرِجًا فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا انْحَصَرَ
 ذَلِكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ ثُمَّ بِنَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ
 الصِّبْغَةُ قَلِيلًا قَلِيلًا وَذَهَبَتْ الْخَوَارِقُ وَصَارَ الْحُكْمُ الْعَادَةُ كَمَا كَانَ فَاعْتَبِرْ أَمْرَ
 الْعَصْبِيَّةِ وَتَجَارِي الْعَوَائِدِ فِيمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ وَالْخِلَافَةُ
 وَالْعَهْدُ بِهَا مُهِمًّا مِنَ الْمُهَيْمَاتِ الْأَكِيدَةِ كَمَا زَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ فَانظُرْ
 كَيْفَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ فَلِمَ يَعْبُدُ فِيهَا ثُمَّ تَدَرَّجَتْ
 الْأَهْمِيَّةُ زَمَانَ الْخِلَافَةَ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي الْحِمَايَةِ وَالْجِهَادِ وَسَّانُ
 الرَّدَةِ وَالْفُتُوحَاتِ فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 ثُمَّ صَارَتْ الْيَوْمَ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ لِلْإِنْفِئَادِ عَلَى الْحِمَايَةِ وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ فَاعْتَبِرْتِ فِيهَا
 الْعَصْبِيَّةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ الْوَارِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَمَنْشَأُ الْاجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَنْفِيلِ
 بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا * وَالْأَمْرُ التَّالِثُ شَأْنُ الْحُرُوبِ الْوَارِقَةِ فِي الْإِسْلَامِ
 بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَأَعْلَمَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّيْنِيَّةِ وَيَنْشَأُ عَنِ
 الْاجْتِهَادِ فِي الْأَدَلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ وَالتَّجْتِهَدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا فَإِنَّ قُلْنَا
 إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرْفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُصَادَفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ
 فَإِنَّ جِهَتَهُ لَا تَتَعَيَّنُ بِاجْتِمَاعِ فَيَبْقَى الْكُلُّ عَلَى أَحْتِمَالِ الْإِصَابَةِ وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمَخْطِئُ

مِنْهَا وَالتَّائِبِينَ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ
 مُصِيبٌ فَأَحْرَى بِنَفْيِ الْخَطَا وَالتَّائِبِينَ وَغَايَةَ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّالِعِينَ أَنَّهُ
 خِلَافٌ أَجْتَهَادِي فِي مَسَائِلِ دِينِيَّةٍ ظَنِيَّةٍ وَهَذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ
 إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةٌ عَلَيَّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةَ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ
 وَوَاقِعَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةٌ عَلَيَّ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ
 مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بِيَعَةَ عَلِيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَاعَ وَمِنْهُمْ مَنْ
 تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامِ كَسَعِدٍ وَسَعِيدٍ وَأَبْنِ عَمْرٍ وَاسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ
 وَالْمُعْبِرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَقِدَامَةَ بْنَ مَطْعُونٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ وَكَعْبَ
 بْنَ مَالِكٍ وَالتُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ وَمُسْلِمَةَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَفَضَالََةَ بْنَ عُبَيْدٍ وَأَمْثَلَهُمْ
 مِنْ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بِيَعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ
 عُثْمَانَ وَتَرَكُوا الْأَمْرَ فَوْضَى حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُولُونَهُ وَظَنُّوا بِعَلِيٍّ
 هَوَادَةً فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِهِ لَا فِي الْمَالَةِ عَلَيْهِ فَخَاشَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ
 وَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَخَ بِمَلَامَتِهِ إِنَّمَا يُوجِّهَهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطُّ ثُمَّ اخْتَلَفُوا
 بَعْدَ ذَلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بِيَعَتَهُ قَدْ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعٍ مَنْ اجْتَمَعَ
 عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَاءِ الْأَمْرِ فِي
 الْمُطَلَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتِمَّ كُنْ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ
 وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بِيَعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْأَفَاقِ وَلَمْ
 يَحْضُرِ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا تَكُونُ الْبِيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَلَا تَلْزِمُ بِعَقْدِ
 مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنْ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى فَيَطْلُبُونَ
 أَوْلَاءَ بَدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ
 وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَأَبْنَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَطَلْحَةُ وَأَبْنَةُ مُحَمَّدٍ وَسَعْدُ وَسَعِيدُ
 وَالتُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ
 تَخَلَّفُوا عَنْ بِيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِ
 اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بِيْعَةِ عَلِيٍّ وَزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصَوِّبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ
 إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ الْخَطَا مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصًا طَلْحَةَ

وَأَلْزَمَ بِيْرُ لِأَنْتَقَاضِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ التَّائِيْمِ عَنْ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
كَلِّشَانِ فِي الْمَجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلِي أَهْلِ
الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَقَدْ سُئِلَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصِفَتَيْنِ
فَقَالَ وَاللَّيِّ نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَبِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ يُشِيرُ إِلَى
الْفَرِيقَيْنِ نَقْلَهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَبِّ فِي عَدَالَةٍ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدَحَ فِي
شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنْدَاتِ وَعَدَالَتِهِمْ
مَعْرُوفٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزَلَةِ فَيَمُنُّ قَاتِلٌ عَلَيْهَا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بَعَيْنِ الْأَنْصَافِ عَدَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ
الْإِخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ وَإِخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فَتْنَةً أَتَى اللَّهُ
بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عُدُوَّهُمْ وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَتَزَلُّوا
الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ
تَزَلُّوا هَذِهِ الْأَمْصَارَ جُنَاةً لَمْ يَسْتَكْبِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا
أَرْتَاضُوا بِمُخْلَقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنِ
سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِحْجَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْحَبُوا فِي مَلَكَتِ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ مِنْ فُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَتَقِيفَ وَهَدَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَتْرَبِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ
إِلَى الْإِيمَانِ فَاسْتَكْبَرُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَضُّوا بِهِ لِمَا يَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَسَابِهِمْ
وَكَثَرَتِهِمْ وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلَ قِبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ
وَقِبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مِصْرَ فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ فُرَيْشٍ
وَالْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ وَالتَّمْرِ يَضِي فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالْأَسْتِعْدَاءِ
عَلَيْهِمْ وَالطَّغْنِ فِيهِمْ بِالْعِزِّ عَنِ السُّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَفَشَتِ الْمَقَالَةُ
بِذَلِكَ وَانْتَهتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ
مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ
يُنْكِرُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ شَيْئًا وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْنًا وَادَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ
الطَّغْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنَمُّوْرُمِي الْوَالِدِ بْنِ عُمَةَ وَهُوَ عَلَى
الْكُوفَةِ بِشَرْبِ الْحُمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّه عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ

مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزَلَ الْعَمَالِ وَشَكَاوًا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ
 لَهُمْ عَثْمَانُ بَعْضَ الْعَمَالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ السَّنَةِ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ الْعَادِي وَهُوَ
 عَلَى الْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَعْرُولًا ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافَ بَيْنَ
 عَثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ وَتَمَمُوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ
 عَلَى جُرْحِهِ ثُمَّ نَقَلُوا النُّكْبِيرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مَتَمَسِكٌ بِالْإِحْتِهَادِ وَهُمْ أَيْضًا
 كَذَلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْغَوْغَاءِ وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ النَّصْفَةِ مِنْ عَثْمَانَ
 وَهُمْ يُضْمَرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفِيهِمْ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ وَقَامَ مَعَهُمْ فِي
 ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسْكِينَ الْأُمُورِ وَرُجُوعَ عَثْمَانَ إِلَى
 رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلٌ مِصْرَ فَأَنْصَرَفُوا قَلِيلًا ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَسُوا بِكِتَابِ مَدْلَسٍ يَزْعُمُونَ
 أَنَّهُمْ لِقَوُّهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بَأَن يَتَّبِعُهُمْ وَحَلَفَ عَثْمَانُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا مَكِنَّا
 مِنْ مَرَّوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ خَفَافٌ مَرَّوَانَ فَقَالَ لَيْسَ فِي الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَحَاصِرُوهُ
 بِدَارِهِ ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى حِينِ غَمَلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتَلُوهُ وَأَنْفَتِحَ بَابُ الْفِتْنَةِ فَايْكُلُ مَنْ هُوَ لِأَنَّ
 عُدْرَتِيمَا وَقَعَ وَكَلْبُهُمْ كَانُوا مَهْتَمِينَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَلَا يُضِعُونَ شَيْئًا مِنْ تَعَالِقَاتِهِ ثُمَّ نَظَرُوا
 بَعْدَ هَذَا الْوَأَقِيعِ وَأَجْتَهَدُوا وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَتَحْنُ لَا نَظْنَ بِهِمْ إِلَّا
 خَيْرًا لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فَسَقُ
 يَزِيدٌ عِنْدَ الْكَافَّةِ مِنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شَيْعَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ بِالْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ
 يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدٍ مَتَعِينٌ مِنْ أَجْلِ فَسَقِهِ لَا
 سِيَّامًا مِنْ لَهْ الْقُدْرَةِ عَلَى ذَلِكَ وَظَنَهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ
 كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا الشُّوْكَةُ فَعَلَطَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فِيهَا لِأَنَّ عَصَبِيَّةَ مِصْرَ كَانَتْ فِي فُرَيْشٍ
 وَعَصَبِيَّةَ عِبْدِ مَنْفٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمِيَّةَ تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ فُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلَا
 يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا لَسِيَّ ذَلِكَ أَوَّلُ الْإِسْلَامِ لِمَا شَعَلَ النَّاسُ مِنَ الدُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ
 وَأَمْرُ الْوَحْيِ وَتَرَدَّدُ الْمَلَائِكَةُ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَأَغْلَبُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ
 عَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنَسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَصَبِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِّ فَاع
 يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ وَالدِّينِ فِيهَا مُحْكَمٌ وَالْعَادَةُ مَعْرُولَةٌ
 حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهْوَلَةِ تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ

فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلَمِنَ كَانَتْ وَأَصْبَحَتْ مُضْرَّ أَطْوَعَ لِبَنِي أُمِيَّةٍ مِنْ سِوَاهُمْ
بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرِ دُنْيَوِيٍّ لَا يُضْرُهُ
الْغَلَطُ فِيهِ وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَغْلَطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى
ذَلِكَ وَلَقَدْ عَدَلَهُ ابْنُ الْعَبَّاسِ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْحَنَفِيَّةِ آخِرُهُ وَغَيْرُهُ
فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لِمَا أَرَادَهُ
اللَّهُ وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِنَ
التَّابِعِينَ لَهُمْ فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ
الْهَرَجِ وَالِدِّمَاءِ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلَا أَتَمُّوهُ
لِأَنَّهُ مُجْتَمِدٌ وَهُوَ أَسْوَةٌ الْمُجْتَمِدِينَ وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْتِيمٍ هُوَ لَا بِمُخَالَفَةٍ
الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ
عَلَيْهِ وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهَدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبَلَاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ وَيَقُولُ سَلُوا جَابِرَ بْنَ
عَبْدِ اللَّهِ وَابَا سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ وَأَسْنَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعِيدٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَالَهُمْ
وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِمْ قُعُودُهُمْ عَنْ نَصْرِهِ وَلَا تَعَرُّضُ لَذَلِكَ لِعَلِمِهِ أَنَّهُ عَنِ اجْتِهَادٍ وَإِنْ
كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ وَيَكُونُ ذَلِكَ كَمَا يُحَدِّثُ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنَفِيُّ عَلَى شُرْبِ
النَّبِيذِ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَقِتَالَهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ اجْتِهَادٍ هُوَ لِأَنَّ كَانَتْ خِلَافُهُ
عَنِ اجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا أَنْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدَ وَأَصْحَابَهُ وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا
وَلَمْ يَجِزْ هُوَ لِأَنَّ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفِذُ مِنْ أَعْمَالِ
الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا وَقِتَالُ الْبُعَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرَطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْأَمَامِ الْعَادِلِ
وَهُوَ مَفْقُودٌ فِي مَسْأَلَتِنَا فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فِعْلَاتِهِ
الْمَوْكِدَةِ لِفَسَقِهِ وَالْحُسَيْنِ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌ وَهُوَ عَلَى حَقِّ وَاجْتِهَادٍ وَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ
كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقِّ أَيْضًا وَاجْتِهَادٍ وَقَدْ غَلَطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ
فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ . إِنَّ الْحُسَيْنَ قَتِلَ
بِشَرِّعِ جَدِّهِ وَهُوَ غَلَطٌ حَمَلَتْهُ عَلَيْهِ الْعَقْلَةُ عَنْ اشْتِرَاطِ الْأَمَامِ الْعَادِلِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنْ
الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْأَرَاءِ وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى
فِي مَنَامِهِ مَا رَأَاهُ الْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ وَعَلَّطَهُ فِي أَمْرِ الشُّوْكَةِ أَعْظَمَ لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ

لَا يَقَاوِمُونَ بَنِي أُمِيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ وَالْقَوْلُ بِتَعِينِ الْخَطَاءِ فِي جِهَةِ مَعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْأَجْمَاعَ هُنَاكَ قَضَىٰ لَنَا بِهِ وَلَمْ يُجِدْهُ هَا هُنَا. وَأَمَّا بِنَيْدِ فَعَيْنِ خَطَأَهُ فَسَفَهُهُ وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بَعْدَ اللَّهِ أَحْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعُدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ إِلَىٰ بَيْعَتِهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِدْ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْضَرْهَا أَهْلُ الْعُقَدِ وَالْحَلَّ كَبِيْعَهُ مَرْوَانَ وَابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَيَّ خِلَافَ ذَلِكَ وَالْكُلُّ مُجْتَمِدُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَّعِنَنَّ فِي جِهَةِ مِنْهُمَا وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يُعْبَىٰ عَلَى قَوَاعِدِ النِّقَهِ وَقَوَائِنِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِأَعْتِبَارِ قَصْدِهِ وَتَحَرُّبِهِ الْحَقُّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ السَّلْفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِيهِمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقُدْحِ فَمَنْ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالْعَدَالَةِ وَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ يَفْشُوا الْكُذِبَ فَيُجْعَلُ الْخَيْرَةُ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْقُرْنِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا يُشَوِّشُ قَلْبَكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ وَالتَّمَسُّ لِهَيْبَةِ مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَطُرُقِهِ مَا اسْتَطَعَتْ فِيهِمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنِ بَيْنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قَاتَلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ وَاعْتَقَدَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِيُقْتَدَىٰ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ وَيَجْعَلُهُ إِمَامَةً وَهَادِيَةً وَدَلِيلَةً فَافْتَمِرُوا ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِلَيْهِ الْمَلْجَأُ وَالْمَصِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنِ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي الْأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي الدِّينِ فَبِمَقْتَضَى النَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَبِمَقْتَضَى رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمْرَانِ الْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمْرَانَ ضَرْوَرِيٌّ لِلْبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أَهْمَلْتُمْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلِكَ وَسَطْوَتَهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ نَعْمَ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلَ إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ اعْلَمَ بِهَذِهِ

الْمَصَالِحِ فَقَدْ صَارَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا
 وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمَلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوِظَائِفُ تَابِعَةٍ
 ثَمَنِينَ خَطَطًا وَتَوَزَّعَ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَوِظَائِفُ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوِظَافَتِهِ حَسَبَ مَا يَعْنِيهِ
 الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا
 الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَنْصَرِفُ فِيهِ
 الدِّينِيُّ يَخْتَصُّ بِخَطَطِ وَمَرَاتِبِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ فَلَمَّا ذَكَرْنَا الْآنَ الْخَطَطَ
 الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ وَتَرْجِعُ إِلَى الْخَطَطِ الْمَلُوكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَطَ
 الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفَتْيَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلِّهَا مُنْدرَجَةٌ تَحْتَ
 الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ فَكَانَهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ وَالْأَصْلُ الْجَمَاعُ وَهَذِهِ
 كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا الْعُمُومُ نَظَرُ الْخِلَافَةِ وَتَنْصَرِفُ فِيهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمَلَّةِ
 الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذُ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ فِيهَا أَرْفَعُ
 هَذِهِ الْخَطَطَ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ الْمُنْدرَجِ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَلَقَدْ
 يَشْهَدُ لِذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي
 الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدِينَانَا فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَّا صَحَّ الْقِيَاسُ وَإِذَا
 ثَبَتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ مَسَاجِدَ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٌ الْغَاشِيَةُ
 مَعْدَةٌ لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ
 الْعَامَّةِ فَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ
 مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصَبُ لَهَا الْإِمَامُ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ
 وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْخُسُوفَيْنِ وَالْأَسْتِسْقَاءِ وَتَعْبَهُ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ
 الْأَوَّلِيِّ وَالْإِسْتِسْقَاءِ وَلِئَلَّا يَفْتَنَ الرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ
 وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَصْبُ الْإِمَامِ
 لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْجِيرَانِ
 وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوِلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمَوْلى فِيهَا
 مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَزِدِيِّ وَغَيْرِهِ

فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يَقْلِدُونَهَا غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَأَنْظُرُ
مَنْ طَعَنَ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ وَتَرَصَّدَهُمْ لِذَلِكَ فِي أَوْقَاتِهَا
يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمِشَارَتِهِمْ لَهَا وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلَفِينَ فِيهَا وَكَذَا كَانَ رِجَالُ
الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَاءً رَأَى وَأَسْمَعُظَامًا لِرُبَّتَيْهَا يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ
أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِبِهِ قَدْ جَعَلْتُ لَكَ حِجَابَةً يَا بِي الْأَعْنُ ثَلَاثَةٌ صَاحِبُ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ
بِالتَّأخِيرِ وَالْأَذَانُ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ وَالْبَرِيدُ فَإِنَّ فِي تَأخِيرِهِ فَسَادَ الْقَاصِيَةِ
فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغُلْظَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ
وَدُنْيَاهُمْ اسْتَنَابُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا يَسْتَأْثِرُونَ بِهَا فِي الْأَحْيَانِ وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ
كَالْعِيدِينَ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً وَتَدْوِيَةً فَعَلَّ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ
صَدَرَ دَوْلَتِهِمْ وَأَمَّا الْفُتْيَا فَلِخَلِيفَةِ تَصَفَّحَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسُ وَرَدَّ الْفُتْيَا إِلَى مَنْ
هُوَ أَهْلٌ لَهَا وَإِعَانَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعٌ مِنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ
الْمُسْلِمِينَ فِي أَدْيَانِهِمْ فَتَجَبَّ عَلَيْهِ مُرَاعَاتُهَا لئَلَّا يَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلَّ
النَّاسَ وَالتَّمْدِيرُ اسْتِصَابُ التَّعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَثُّهُ وَالْجُلُوسُ لِلذِّكْرِ فِي الْمَسَاجِدِ فَإِنْ كَانَتْ
مِنْ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي لِلسُّلْطَانِ الْوَلَايَةُ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أَيْمَتِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ
اسْتِئْذَانِهِ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِ عَلَى أَنَّهُ
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَكْلٌ أَحَدٍ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالتَّمْدِيرِ سِينَ زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ يَمْنَعُهُ عَنِ
التَّصَدِّي لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَهْدِي وَيُضِلُّ بِهِ الْمَسْتَرْشِدُ وَفِي الْأَثَرِ
أَجْرًا كُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرًا كُمْ عَلَى جَرَائِمِهِمْ جَهَنَّمَ فَلِلسُّلْطَانِ فِيهِمْ لِذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ
مَا تَوَجَّبُهُ الْمَصْلَحَةُ مِنْ إِجَازَةٍ أَوْرَدَ وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ
الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مَنْصِبُ الْفَضْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسْمًا لِلدَّعَايِ وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ إِلَّا
أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَقَلَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ فَكَانَ لِذَلِكَ مِنْ وَظَائِفِ
الْخِلَافَةِ وَمُنْدَرَجًا فِي عُمُومِهَا وَكَانَ الْخُلَفَاءُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يُبَاشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا
يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَقَوَّضَهُ فِيهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ فَوَلَّى أَبَا الدَّرْدَاءِ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ وَوَلَّى شَرِيحًا بِالْبَصْرَةِ وَوَلَّى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ
بِالْكُوفَةِ وَكَتَبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَشْهُورَ الَّذِي تَدَوَّرَ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَا

وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسَنَةٌ مُتَّبَعَةٌ فَأَفْهَمٌ
 إِذَا دُلِّيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكْلُمٌ يَحْتَقِ لَا نَفَاذَ لَهُ وَأَسْ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَتَجَلُّسِكَ
 وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعُ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يِيَّاسٌ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ أَلْبِينَةُ عَلِيٌّ مَنْ
 أَدْعَى وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بِنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ
 حَرَّمَ حَلَالًا وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ أَمْسِ فَرَاجَعْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهَدَيْتَ فِيهِ
 لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي
 الْبَاطِلِ أَلْبِينَةُ فِيهَا يَتَجَلَّجَجُ فِي صَدْرِكَ بِمَا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ أَعْرَفَ الْأَمْثَالَ
 وَالْأَشْبَاهَ وَقَسَّ الْأُمُورَ بِنِظَائِرِهَا وَأَجْعَلَ لِمَنْ أَدْعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيْنَهُ أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ
 فَإِنْ أَحْضَرَ بَيْنَتَهُ أَخَذَتْ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ
 وَأَجْلَى لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْمُودًا فِي حَلٍّ أَوْ مُجْرَى عَلَيْهِ
 شَهَادَةٌ زُورٌ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَاءٍ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَمَّا عَنِ الْإِيمَانِ وَدِرَّاءِ
 بِالْبَيْنَاتِ وَإِيَّاكَ وَالْقَلِقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّأَفُّفَ بِالْخُصُومِ فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ
 الْحَقِّ بَعْظُمُ اللَّهِ بِهِ الْأَجْرُ وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلَامَ. انْتَهَى كِتَابُ عُمَرَ وَإِنَّمَا
 كَانُوا يُقْلِدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ
 اسْتِغْلَالِهَا مِنَ الْجِهَادِ وَالْفُتُوحَاتِ وَسَدِّ الثُّغُورِ وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ
 غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ الْعِنَايَةِ فَاسْتَحَقُّوا الْقَضَاءَ فِي الْوَأَقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَأَسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ
 بِهِ تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقْلِدُونَهُ أَهْلَ عَصَبَتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوْ الْوِلَاءِ
 وَلَا يُقْلِدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصَبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ
 فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَخُصُوصًا كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَّ إِنَّمَا كَانَ لَهُ
 فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الْفُصْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى
 التَّدْرِيجِ بِحَسَبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى وَأَسْنَقَرَّ مَنْصَبُ الْقَضَاءِ
 آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ الْفُصْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ
 لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أَمْوَالِ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَجَانِبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ
 السَّفْهِ وَفِي وِصَايَا الْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَرْوِيجِ الْأَيَّامِ عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيٍ مَنْ
 رَأَاهُ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الطَّرْفَاتِ وَالْأَبْنِيَةِ وَتَصْفُحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنُّوَابِ وَأَسْتِيفَاءِ

الْعِلْمَ وَالْخَبْرَةَ فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرَحِ لِيَحْضَلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ كُلُّهَا
 مِنْ تَعْلَقَاتِ وَظَائِفِهِ وَتَوَالِعِ وَلَايَتِهِ وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلِ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِيِ النَّظَرَ
 فِي الْمَظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ السَّلْطَنَةِ وَنَصْفَةِ الْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ
 يَدٍ وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ الظَّالِمَ مِنَ الْخُصْمَيْنِ وَتَزْجُرُ الْمُتَعَدِّيَّ وَكَانَهُ يُمَضَى مَا عَجَزَ
 الْقَضَاءُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي الْبَيِّنَاتِ وَالتَّقْرِيرِ وَأَعْتِمَادِ الْأَمَارَاتِ
 وَالْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ الْحُكْمِ إِلَى اسْتِجْلَاءِ الْحَقِّ وَحَمَلِ الْخُصْمَيْنِ عَلَى الصُّلْحِ وَاسْتِحْلَافِ
 الشُّهُودِ وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِيِ * وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ يَبَاشِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ
 إِلَى أَيَّامِ الْمُهْتَدِيِّ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقَضَائِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي أَدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ الْمَأْمُونُ يُحْيِي بِنِ أَكْثَمَ
 وَالْمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِيِ قِيَادَةَ الْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ
 الطَّوَائِفِ وَكَانَ يُحْيِي بِنِ أَكْثَمَ يُخْرِجُ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ بِالطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ
 وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدِ قَاضِيِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ
 هَذِهِ الْوُظَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مَفُوضٍ أَوْ
 سُلْطَانٍ مُتَعَلِّبٍ وَكَانَ أَيْضًا النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
 وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْبَيْهَقِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَهِيَ
 وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ الْوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدَّوَلِ تَوْسَعُ النَّظَرَ فِيهَا عَنْ
 أَحْكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلًا فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ نَجَالًا وَيَقْرَضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ قَبْلَ
 ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ وَيَقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوَدِ وَالْقِصَاصِ وَيَقِيمُ
 التَّعْزِيزَ وَالتَّنَادُبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهَ عَنِ الْجَرِيمَةِ ثُمَّ تَنُوسِي شَأْنِ هَاتَيْنِ الْوُظَائِفَيْنِ
 فِي الدَّوَلِ الَّتِي تَنُوسِي فِيهَا أَمْرُ الْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ كَمَا
 لَهُ تَقْوِيسٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَأَنْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا
 وَظِيفَةُ التُّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ
 وَنُصِبَ لِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدَّوَلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ
 الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِأَسْمِ الْوَالِيِ وَتَارَةً بِأَسْمِ الشَّرْطَةِ وَبَقِيَ قِسْمُ
 التَّعْزِيزِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرًّا فَجُمِعَ ذَلِكَ لِلْقَاضِيِ مَعَ مَا نَقَدَّمَ وَصَارَ

ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيفَةِ وَلايَتِهِ وَأَسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ وَخَرَجَتْ هَذِهِ
 الْوِظِيفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلاَفَةً دِينِيَّةً وَهَذِهِ أَخْطَطَةُ مِنْ
 مَرَامِ الدِّينِ فَكَانُوا لَا يُؤَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِالْخِلاَفِ
 أَوْ بِالرِّقِّ أَوْ بِالْأَصْطِنَاعِ مِمَّنْ يُوثِقُ بِكَفَايَتِهِ أَوْ غِنَائِهِ فَيُدْفَعُ إِلَيْهِ * وَلَمَّا أَنْقَرَضَ
 شَأْنَ الْخِلاَفَةِ وَطَوَّرَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مَلِكًا أَوْ سُلْطَانًا صَارَتْ هَذِهِ الْخِطَطُ الدِّينِيَّةُ
 بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقَابِ الْمَلِكِ وَلَا مَرَامِهِ ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ
 جَمَلَةً مِنَ الْعَرَبِ وَصَارَ الْمَلِكُ لِسِوَاهُمْ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ وَالزُّبَيْرِ فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْخِطَطُ
 الْخِلاَفِيَّةُ بَعْدًا عَنْهُمْ بِمَنْحَاهَا وَعَصَبِيَّتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ
 وَأَنَّ الذِّيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ نَحَلَتْهُمْ بَيْنَ الْأُمَمِ وَطَرُّ بِقَرْمِ
 وَغَيْرُهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ لِمَا دَانُوا بِالْمَلَّةِ فَقَطُّ فَصَارُوا
 يُقَلِّدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَابَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا فِي دَوْلِ الْخُلَفَاءِ السَّالِئَةِ وَكَانَ أَوْلَيْكَ
 الْمَتَاهِلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرَفُّ الدَّوْلِ مِنْذُ مِئِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْمِدَاوَةِ وَخَشُونَتَهَا
 وَالتَّبَسُّوْا بِالْحِضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَدَعْتِهِمْ وَقَلَّةِ الْمَمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ
 الْخِطَطُ فِي الدَّوْلِ الْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مُخْتَصَةً بِهَذَا الْأَصْنَفِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي
 أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ لِنَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ بِأَسَابِيهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ
 الْحِضَارَةِ فَحَقَّقَهُمْ مِنَ الْأَحْتِقَارِ مَا لَحِقَ الْحَضَرَ الْمَنْعَمِينَ فِي التَّرَفِ وَالرِّعَةِ الْبَعْدَاءِ عَنْ
 عَصَبِيَّةِ الْمَلِكِ الَّذِينَ هُمْ عِبَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ وَصَارَ أَعْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا
 بِالْمَلَّةِ وَأَخْذِهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ لِمَا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا وَلَمْ
 يَكُنْ إِبْتِذَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَامًا لِدَوَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَتَلَعَّجُ مِنَ التَّجَمُّلِ
 بِمَكَانِهِمْ فِي تَجَالِسِ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ الرَّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحَلِّ
 وَالْعَقْدِ شَيْءٌ وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لَا حَقِيقَةَ وَرَأَاهُ إِذْ حَقِيقَةُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا
 هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حِلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَهُ عَلَيْهِ إِلَّا الْأَخْذُ
 بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَنْهُمْ وَتَلْقَى الْفِتَاوَى مِنْهُمْ فَتَعْمُ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ وَرُبَّمَا يَطُنُّ بَعْضُ
 النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيهَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيهَا فِعْلُهُمْ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاءِ
 مِنَ الشُّوزَى مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُلَمَاءُ وَرَتَّةُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَمَ أَنَّ

ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا نَقَضِيهِ طَبِيعَةُ
 الْعُمَرَانِ وَإِلَّا كَانَ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئًا
 مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصِيَّةٍ يَتَدَرَّبُ بِهَا عَلَى حَلِّ
 أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ وَآمَّا مِنْ لَا عَصِيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئًا وَلَا مِنْ
 حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَإِي مَدْخَلٌ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى
 اعْتِبَارِهِ فِيهَا الْأَهْمُ إِلَّا شَوْرَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي
 الْأَسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً وَآمَّا شَوْرَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِتَقْدَانِهِ الْعَصِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى
 مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الشَّاهِدَةِ
 لَهُمْ بِجَمِيلِ الْأَعْتِقَادِ فِي الدِّينِ وَعَظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ انْتَسَبَ وَآمَّا قَوْلُهُ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَمُ أَنَّ النُّقَبَاءَ فِي الْأَعْلَابِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمَا احْتَفَّ
 بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالًا فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي
 الْمَعَامَلَاتِ يَنْصُومَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا هِدْيَةً غَايَةً أَكْبَرَهُمْ وَلَا يَتَصَنُّونَ إِلَّا
 بِالْأَقْلِ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَالسَّلَفِ رُضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنْ
 الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ اتِّصَافًا بِهَا وَتَحَقُّقًا بِمَذَاهِبِهَا فَمَنْ حَمَلَهَا اتِّصَافًا وَتَحَقُّقًا دُونَ نَقْلِ
 فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ مِثْلَ أَهْلِ رِسَالَةِ الْقَشِيرِيِّ وَهَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ
 الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلَ فُقَهَاءِ التَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ وَالْإِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ اقْتَنَى طَرِيقَهُمْ
 وَجَاءَ عَلَى آثَرِهِمْ وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأِمَّةِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ
 مِنَ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرَثَ بَصْفَةٍ وَالْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ
 شَيْئًا إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنْصَبُ عَلَيْهَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ وَهُؤُلَاءِ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ
 عَصْرِنَا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ

(العدالة) * وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِّ تَصْرِيهِهِ وَحَقِيقَتُهُ هِدْيَةٌ
 الْوُظَيْفَةُ الْقِيَامُ عَنْ إِذْنِ الْقَاضِيِ بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحْمَلًا عِنْدَ
 الْأَشْهَادِ وَأَدَاءً عِنْدَ التَّنَازُعِ وَكُتِبَ فِي السَّجِلَّاتِ تُحْفَظُ بِهِ حَقُوقُ النَّاسِ وَأَمْلَأَ كُفُومَهُمْ
 وَدِيُونَهُمْ وَسَارَتْ مَعَامَلَاتِهِمْ وَشَرَطُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ الْإِتِّصَافُ بِالْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْبِرَاءَةِ
 مِنَ الْجُرْحِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكُتُبِ السَّجِلَّاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَأَنْظَامِ فُضُولِهَا وَمِنْ

جَهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَعُقُودِهَا فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْفِقْهِ
وَالْأَجْلِ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمِرَانِ ^(١) عَلَى ذَلِكَ وَالْمَدَارَسَةِ لَهُ اخْتَصَّصَ
ذَلِكَ بَعْضَ الْعُدُولِ وَصَارَ الصَّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَانْتِهِمْ مُخْتَصِّونَ بِالْعَدَالَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
وَإِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصَّاصِهِمْ بِالْوِظْفَةِ وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي تَصَفُّحُ أَحْوَالِهِمْ
وَالْكَشْفُ عَنْ سَيْرِهِمْ رِعَايَةً لِشَرْطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ وَأَنْ لَا يَهْمِلَ ذَلِكَ لِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ
مِنْ حِفْظِ حُقُوقِ النَّاسِ فَالْعَهْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كَلِّهِ وَهُوَ ضَامِنٌ دَرَكَةً وَإِذَا تَعَيَّنَ هُوَ لِأَنَّ
لِهَذِهِ الْوِظْفَةِ عَمَّتِ الْفَائِدَةُ فِي تَعْيِينِ مَنْ تَخَفَى عَدَالَتَهُ عَلَى الْقَضَاةِ بِسَبَبِ اتِّسَاعِ الْأَمْصَارِ
وَأَشْتِبَاهِ الْأَحْوَالِ وَأَضْطِرَّارِ الْقَضَاةِ إِلَى الْفَصْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ بِالْبَيِّنَاتِ الْمَوْثُوقَةِ
فَيَعُولُونَ عَالِبًا فِي الْوَثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّنْفِ وَلَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ دَكَاكِينٌ وَمَصَاطِبُ
يَخْتَصُّونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا فَيَتَعَاهَدُهُمْ أَصْحَابُ الْمَعَامَلَاتِ لِلِاشْتِهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ
وَصَارَ مَدْلُولٌ هَذِهِ اللَّفْظَةُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ هَذِهِ الْوِظْفَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَدْلُولُهَا وَبَيْنَ الْعَدَالَةِ
الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ الْجَرْحِ وَقَدْ يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الحسبة والسكة

أَمَّا الْحِسْبَةُ فَهِيَ وَظْفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ
الَّذِي هُوَ فَرَضٌ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ يَعِيْنُ لِنُزُولِكَ مِنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ فَيَتَعَيَّنُ فَرَضُهُ
عَلَيْهِ وَيَتَخَذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ وَيَبْحَثُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَيَعَزِّرُ وَيُؤَدِّبُ عَلَى قَدَرِهَا
وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْمَنْعِ مِنَ الْمَضَايِقَةِ فِي الطَّرِيقَاتِ
وَمَنْعِ الْحَمَالِينِ وَأَهْلِ السُّفْنِ مِنَ الْإِكْتِنَارِ فِي الْحَمْلِ وَالْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ الْمَبَانِي
الْمُتَدَاعِيَةِ لِلسُّفُوطِ بِهَدْمِهَا وَإِزَالَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّابِلَةِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي
الْمُعَلِّمِينَ فِي الْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاحِ فِي ضَرْبِهِمْ لِلصَّبْيَانِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَلَا
يَتَوَقَّفُ حُكْمُهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَاءٍ بَلْ لَهُ النَّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِ
مِنْ ذَلِكَ وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ وَيَأْتِسُّ لَهُ إِمْضَاءُ الْحُكْمِ فِي الدَّعَاوِي مُطْلَقًا بَلْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعِشْرِ
وَالْتَدَائِسِ فِي الْمَعَايِشِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَكَابِلِ وَالْمَوَازِينِ وَلَهُ أَيْضًا حَمْلُ الْمَطَاطِينِ
عَلَى الْأَنْصَافِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ بَيْنَهُ وَلَا انْفَاقٌ حُكْمٌ وَكَانَتْهَا أَحْكَامٌ

(١) المران بكر الميم التعرّن والاعتباد على الشيء ١٥

يَزْرَهُ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسَهْوَلَةِ اعْتِزَالِهَا فَمُتَدَفِعٌ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوِظِيْفَةِ لِيَقُومَ بِهَا
 فَوْضِعَهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ
 الْأِسْلَامِيَّةِ مِثْلَ الْعَبِيدِيَّيْنَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَمُويِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ دَاخِلَةً فِي عُمُومِ
 وِلَايَةِ الْقَاضِي بُوَيْي فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا انْفَرَدَتْ وَظِيْفَةُ السُّلْطَانِ عَنِ الْخِلَافَةِ وَصَارَ
 نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ انْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأُفْرِدَتْ بِالْوِلَايَةِ
 وَأَمَّا السِّكَّةُ فَفِي النِّظَرِ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَحِظْهَا مَعًا بِدَاخِلِهَا
 مِنَ الْعِشِّ أَوْ النِّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ
 جَمِيعِ الْأَعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عِلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالْإِسْتِجَادَةِ وَالْحُلُوصِ
 بِرِسْمِ تِلْكَ الْعِلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمٍ حَدِيدٍ اتَّخَذَ لِدَلِّكَ وَنُقِشَ فِيهِ نُقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ
 عَلَى الدِّينَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ حَتَّى تَرْتَمَّ فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ وَتَكُونَ
 عِلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السَّبْكُ وَالتَّخْلِيصُ فِي مُتَعَارِفِ أَهْلِ
 الْقَطْرِ وَمَذَاهِبِ الدَّوْلَةِ الْحَاكِمَةِ فَإِنَّ السَّبْكُ وَالتَّخْلِيصَ فِي النُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ
 وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الْإِجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أُفْقٍ أَوْ فُطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيصِ
 وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُثَالَتِهِ فَإِنَّ نَقْصَ
 عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَيْفًا وَالنِّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوِظِيْفَةِ وَهِيَ رِيئِيَّةٌ بِهَذَا
 الْأَعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وِلَايَةِ الْقَاضِي ثُمَّ أُفْرِدَتْ
 لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَبْشَةِ هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوِظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا
 وَظَائِفٌ ذَهَبَتْ بِدِهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوْظِيْفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ
 وَالْحَرْبِ وَالْخِرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَمَكًا عَلَيْهَا فِي أَمَا كُنْهَا بَعْدَ وَظِيْفَةِ الْجِهَادِ وَوِظِيْفَةُ
 الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ وَيُدْرَجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي
 السُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا نَقَابَةُ الْأَنْسَابِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ فِي بَيْتِ الْمَالِ
 قَدْ بَطَلَتْ لِدُّوْرِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ انْدَرَجَتْ رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوِظَائِفُهَا فِي
 رُسُومِ الْمَلِكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء
وذلك انه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة رضي الله عنهم
وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الأمر
على ذلك إلى أن هلك فلما بويع لعمر بعده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول
الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استقلوا هذا اللقب بكثرة وطول إضافته وأنه
يتزايد فيما بعد دائماً إلى أن ينتهي إلى الهجنة ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات
وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى
به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة وقد كان
الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة
أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية
وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه
يا أمير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال إن أول من دعاه
بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمر بن العاصي والمعيرة بن شعبة وقيل بريد جاء
بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول أين أمير
المؤمنين وسمها أصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه إنه والله أمير المؤمنين
حقاً فدعوه بذلك وذهب لقباً له في الناس ونوارته الخلفاء من بعده سمة لا يشاركون
فيها أحد سواهم إلا سائر دولة بني أمية ثم إن الشيعة خصوصاً علياً باسم الإمام نعتاه
بالإمامة التي هي اخت الخلافة وتعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بالإمامة الصلاة من
أبي بكر لما هو مذهبهم ويدعونهم بخصوه بهذا اللقب ولعن يسوقون إليه منصب
الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخلفاء
حتى إذا استولون على الدولة يحولون اللقب فيما بعده إلى أمير المؤمنين كما فعله
شعبة بن العباس فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا
بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره فلما هلك دعي أخوه السفاح بامير المؤمنين
وكذا الرافضة بأفريقيا فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام حتى

أَنْتَهَى الْأَمْرَ إِلَى عِبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ وَلِابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا اسْتَوْثِقَ لَهُمُ الْأَمْرَ دُعُوا مِنْ بَعْدِهِمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا الْأَدَارِسَةُ
 بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يَلْقَبُونَ أَدْرِسَ بِالْإِمَامِ وَابْنَهُ أَدْرِسَ الْأَصْغَرَ كَذَلِكَ وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ
 وَتَوَارَثَ الْخُلَفَاءُ هَذَا اللَّقَبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ الْحِجَازَ وَالشَّامَ
 وَالْعِرَاقَ وَالْمَوَاطِنَ الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَرَاكِزُ الدَّوْلَةِ وَأَهْلُ الْمِلَّةِ وَالْفَتْحِ وَأَزْدَادُ
 لِدَلِكِ فِي عُنُقِ الدَّوْلَةِ وَبَدِخِيالِ الْقَبْرِ آخِرُ لِلْخُلَفَاءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَشْرَاكِ بَيْنَهُمْ فَاسْتَحَدَتْ لِدَلِكِ بَنُو الْعَبَّاسِ حِجَابًا لِلْأَمَائِمِ
 الْأَعْلَامِ عَنْ أَمْتِنَانِيهَا فِي السَّنَةِ السُّوْقَةِ وَصَوْنًا لَهَا عَنِ الْإِبْتِدَالِ فَتَلَقَّبُوا بِالسَّنَاحِ وَالْمَنْصُورِ
 وَالْمَهْدِيِّ وَالْهَادِي وَالرَّشِيدِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَأَقْتَفَى آثَرَهُمْ فِي ذَلِكَ الْعَبِيدِيُّونَ بِأَفْرِيقَةِ
 وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أُمِيَّةَ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ الْغَضَاضَةِ وَالسَّدَاجَةِ لِأَنَّ
 الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تَفَارِقْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ شِعَارُ الْبِدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ الْحِزَارَةِ
 وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلْفِهِمْ مَعَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ ذَلِكَ بِالْقُصُورِ
 عَنْ مَلِكِ الْحِجَازِ أَصْلِ الْعَرَبِ وَالْمِلَّةِ وَالْبُعْدِ عَنِ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَرَكِزُ الْعَصَبِيَّةِ
 وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا مَنَعُوا بِإِمَارَةِ الْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّخْلُ الْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ
 ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ وَأَشْتَهَرَ مَا نَالَ الْخِلَافَةَ بِالْمَشْرِقِ
 مِنَ الْحِجْرِ وَأَسْتَبْدَادِ الْمَوَالِي وَعَيْنِهِمْ فِي الْخُلَفَاءِ بِالْعَزْلِ وَالْإِسْتِبْدَالِ وَالْقَتْلِ وَالسُّدْلِ
 ذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ الْخُلَفَاءِ بِالْمَشْرِقِ وَأَفْرِيقَةِ وَتَسَمَّى
 بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ وَأَخَذَتْ مِنْ بَعْدِهِ عَادَةٌ وَمَذَهَبٌ لَقِّنَ عَنْهُ
 وَلَمْ يَكُنْ لِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَأَسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ عَصَبِيَّةُ
 الْعَرَبِ أَجْمَعٍ وَذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ الْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالصَّنَائِعِ
 عَلَى الْعَبِيدِيِّينَ بِالْقَاهِرَةِ وَصَنَاجِحُهُ عَلَى أَمْرَاءِ أَفْرِيقَةِ وَزَنَانَتُهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَمُلُوكِ
 الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمِيَّةَ وَأَفْتَسَمُوهُ وَأَفْتَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ فَخَانَلَتْ
 مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي الْأَخْتِصَاصِ بِالْإِلْتِقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَدَّوْا حَمِيغًا
 بِأَسْمِ السُّلْطَانِ . فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يَخْضَعُونَ لَهُمْ بِالْأَقْبَابِ

تَشْرِيفِيَّةٍ حَتَّى يَسْتَشْعِرَ مِنْهَا انْقِيَادَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ وَحَسَنُ وَلَايَتِهِمْ مِثْلَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَعَضُدِ
الدَّوْلَةِ وَرُكْنِ الدَّوْلَةِ وَمَعَزِ الدَّوْلَةِ وَنَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِ الْمَلِكِ وَبِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَذَخِيرَةِ
الْمَلِكِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَكَانَ الْعَبِيدِيُّونَ أَيْضًا يَخْضَعُونَ بِهَا أَمْرَاءَ صَنْهَاجَةَ فَلَمَّا اسْتَبَدُّوا
عَلَى الْخِلَافَةِ قَعَوْا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ وَتَجَافَوْا عَنِ الْقَابِ الْخِلَافَةِ أَدَبًا مَعَهَا وَعَدُولًا عَنِ
سِمَاتِهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا شَأْنِ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَبَدِّينَ كَمَا فَلَنَاهُ وَنَزَعَ الْمَتَأَخِّرُونَ أَعَاجِمُ
الْمَسْرُوقِ حِينَ قَوِيَ اسْتَبْدَادُهُمْ عَلَى الْمَلِكِ وَعَلَا كَعْبُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانَ وَتَلَاشَتْ
عَصِيَّةُ الْخِلَافَةِ وَأَضْحَمَّتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ الْخَاصَّةِ بِالْمَلِكِ مِثْلِ النَّاصِرِ
وَالْمَنْصُورِ وَزِيَادَةِ عَلَى الْقَابِ يَخْتَصُّونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْإِنْتِحَالِ مُنْعِرَةً بِالْخُرُوجِ عَنِ رِبْقَةِ
أَوْلَاءِ الْأَصْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطُّ فَيَقُولُونَ صَلَاحُ الدِّينِ أَسَدُ الدِّينِ
نُورُ الدِّينِ وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَاقْتَسَمُوا الْقَابَ الْخِلَافَةَ وَتَوَزَّعُوا الْقُوَّةَ
اسْتَبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبْلِهَا وَعَصَبِيَّتِهَا فَتَلَقَّبُوا بِالْناصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَمِدِ
وَالْمُظْفَرِ وَأَمْثَالِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي شَرَفٍ يَنْعَى عَلَيْهِمْ

مِمَّا يَزِيدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ

الْقَابِ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَاقْتَصَرُوا عَنِ الْأَلْقَابِ الَّتِي كَانَتْ لِلْخُلَفَاءِ الْعَبِيدِيِّينَ يَلْقَبُونَ بِهَا لِتَنَوُّبِهِ مِثْلَ
نَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَمَعَزِ الدَّوْلَةِ وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِدَعْوَةِ
الْعَبَّاسِيِّينَ ثُمَّ بَعَدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَسَوَّوْا عَهْدَهَا فَنَسُوا هَذِهِ الْأَلْقَابَ وَاقْتَصَرُوا
عَلَى اسْمِ السُّلْطَانَ وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مَغْرَاوَةَ بِالْمَغْرِبِ لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ
إِلَّا اسْمَ السُّلْطَانَ جَرِيًّا عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ وَلَمَّا حُجِيَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ
دَسْتُهَا وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قِبَالِ الْبَرْبَرِ يُوسُفُ بْنُ نَاشِفِينَ مَلِكُ لِمْتُونَةَ فَمَلَكَ الْعُدَوْتَيْنِ
وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْإِفْتِدَاءِ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْخُلَيفَةِ تَكْمِيلًا
لِعِرَاسِمِ دِينِهِ فَخَاطَبَ الْمُسْتَظْهِرَ الْعَبَّاسِيَّ وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ بَيْعَتَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنَةُ
الْقَاضِيِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ مَشِيخَةِ إِسْبِيلِيَّةٍ يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِيَّاهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذَلِكَ
فَاتَقَلَّبُوا إِلَيْهِ بَعْدَ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَاسْتَشْعَارَ زَيْبِهِمْ فِي لُبُوسِهِ وَرَبْتِيَّتِهِ وَخَاطَبَهُ
فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفًا وَاخْتِصَاصًا فَأَخَذَهَا قَبَا وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ دُعِيَ لَهُ بِأَمِيرِ

الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِ أَدْبَاً مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُرَابِطُونَ مِنَ اتِّحَالِ
 الدِّينِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَجَاءَ الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ أَخَذًا بِمَذَاهِبِ
 الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِيًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السَّلَفِ فِي تَرْكِ التَّأْوِيلِ
 لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم كما هو معروف في مذهب الأشعرية
 وسمي أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك للذكير وكان يرى رأي أهل البيت في
 الإمام المعصوم وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمي
 بالإمام لما قلناه أولاً من مذهب الشيعة في القاب خلفائهم وأردف بالمعصوم
 إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام ونزاهة عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً
 بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة الأعمار والولدان من أعقاب
 أهل الخلافة يومئذ بالمشرق ثم انتحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمير المؤمنين
 وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استثناءً به
 عمّن سواهم لما دعا إليه شيخهم المهدي من ذلك وأنه صاحب الأمر وأوليأؤه من
 بعده كذلك دون كل أحد لانتفاء عصية فرّش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم ولما
 انتقض الأمر بالمغرب وانزع زنانه ذهب أولهم مذاهب البداوة والسداجة وأتباع
 لثونة في اتتحال اللقب بأمير المؤمنين أدباً مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها
 لبني عبد المؤمن أولاً ولبني أبي حفص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب
 بأمير المؤمنين واتحلوه لهذا العهد استتلاً في منازع الملك وتتميماً لمذاهبه
 وسماته والله غالب على أمره

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

اعلم أن الملة لا بد لها من قائمٍ عند غيبة النبي يحتملهم على أحكامها وشرايعها
 ويكون كخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف والنوع الإنساني أيضاً بما
 تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري لا بد لهم من شخص يحتملهم على
 مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملة الإسلامية لما
 كان الجهاد فيها مشروعاً للعموم الدعوة وحمل الكفاية على دين الإسلام طوعاً أو

كَرَاهًا اتَّخَذَتْ فِيهَا اخْتِلافَةً وَالْمَلِكُ لِتَوْجِهِ الشُّوْكَةَ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا إِلَيْهِمَا مَعًا وَآمَّا
 مَا سَوَى الْمَلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَةً وَلَا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعًا إِلَّا
 فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا
 وَقَعَ الْمَلِكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَالْأَمْرُ غَيْرُ دِينِي وَهُوَ مَا أَفْتَضْتَهُ لَهُمُ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا
 فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمَلِكِ بِالطَّبَعِ لِمَا قَدَمْنَاهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالْتَّغَلُّبِ عَلَى الْأُمَمِ
 كَمَا فِي الْمَلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي خَاصَّتِهِمْ وَلِذَلِكَ بَقِيَ
 بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يَعْنُونَ
 بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُمْ مُقَامَةٌ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ يَنْبَغُ يُسَمَّى
 الْكُوهَنَ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقِيمُ لَهُمُ أَمْرَ الصَّلَاةِ وَالْقُرْبَانِ وَيَسْتَرْطُونَ
 فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يُعْقِبْ ثُمَّ اخْتَارُوا
 لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ لِلْبَشَرِ بِالطَّبَعِ سَبْعِينَ سَنَةً كَانُوا يَتَلَوْنَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَةَ
 وَالْكُوهَنَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ رُتَبَةً فِي الدِّينِ وَابْعَدُ عَنْ شَعْبِ الْأَحْكَامِ وَابْتَصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ
 إِلَى أَنْ اسْتَوْجَبَتْ طَبِيعَةُ الْعَصَبِيَّةِ وَتَحَضَّتْ الشُّوْكَةَ لِلْمَلِكِ فَعَلَبُوا الْكِنَعَانِيِّينَ عَلَى
 الْأَرْضِ الَّتِي أَوْزَعْتَهُمُ اللَّهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَا جَاوَرَهَا كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى
 صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَخَارَبْتَهُمْ أُمَّمُ الْفِلِسْطِينِ وَالْكِنَعَانِيِّينَ وَالْأَرْمَنَ وَالْأَرْدَنَ وَعَمَّانَ
 وَمَارِبَ وَرَأَسَتَهُمْ فِي ذَلِكَ رَاجِعَةً إِلَى شِيُوخِهِمْ وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ
 سَنَةٍ وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَةُ الْمَلِكِ وَضَجَرَ بَنُو طَالُوتَ وَعَلِبَ الْأُمَمُ وَقَتْلَ جَالُوتَ مَلِكُ
 الْفِلِسْطِينِ ثُمَّ مَلِكٌ بَعْدَهُ دَاوُدُ ثُمَّ سَلِيمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَاسْتَفْجَلَ مُلْكُهُ وَأَمْتَدَّ
 إِلَى الْحِجَازِ ثُمَّ أَطْرَافَ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ ثُمَّ أَفْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَعْدِ
 سَلِيمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ فِي الدُّوَلِ كَمَا قَدَمْنَاهُ إِلَى دَوْلَتَيْنِ كَانَتَا
 إِحْدَاهُمَا بِالْحِزْبَةِ وَالْمَوْصِلَ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةِ وَالْآخَرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ لِبَنِي يَهُوذَا
 وَبَنِيَامِينَ ثُمَّ غَلِبَهُمْ بَحْتُ نَصْرِ مَلِكِ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَوْلَى الْأَسْبَاطِ
 الْعَشْرَةِ ثُمَّ ثَانِيًا بَنِي يَهُوذَا وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ سَنَةٍ وَخَرَّبَ
 مَسْجِدَهُمْ وَأَحْرَقَ تَوَارِيهِمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ وَنَقَلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلَادِ الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ
 رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكِنَعَانِيَّةِ مِنَ الْفَرَسِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ

خُرُوجِهِمْ فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ فَقَطَّ وَالْمَلِكُ
لِلْفَرَسِ ثُمَّ غَلَبَ الْأَيْسَكَنْدَرُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى الْفَرَسِ وَصَارَ الْيَهُودُ فِي مَلَكَتِهِمْ ثُمَّ
فَشَلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ فَأَعَزَّ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ بِالْعَصِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ الْأَسْتِيْلَاءِ
عَلَيْهِمْ وَقَامَ بِمَلَكَتِهِمُ الْكَهَنَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِي حَشْمَنَائِي وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى
انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَغَلِبَهُمُ الرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَفِيهَا
بَنُو هِيرُودُسَ أَصْهَارُ بَنِي حَشْمَنَائِي وَبَقِيَتْ دَوْلَتُهُمْ فَحَاصَرُوهُمْ مَدَّةً ثُمَّ افْتَحَوْهَا عُنُوةً
وَأَفْحَشُوا فِي الْقَتْلِ وَالْهَدْمِ وَالتَّحْرِيقِ وَخَرَبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةٍ وَمَا
وَرَاءَهَا وَهُوَ الْخُرَابُ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ وَيُسَمِّيهِ الْيَهُودُ بِالْجَلُوتِ الْكُبْرَى فَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ
بَعْدَهَا مَلِكٌ لِقُدْثَانَ الْعَصِيَّةِ مِنْهُمْ وَبَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلَكَتِ الرُّومِ مِنْ بَعْدِهِمْ يُقِيمُ
لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمُ الرَّئِيسَ عَلَيْهِمُ الْمُسَمَّى بِالْكَوْهَنِ ثُمَّ جَاءَ الْمَسِيحُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَالنَّسْخِ لِبَعْضِ أَحْكَامِ النُّورَةِ وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ
الْعَجِيبَةُ مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
وَأَمْنَوِيهِ وَكَثُرَتْهُمُ الْخَوَارِيقُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانُوا أَتَيْتِي عَشْرَ وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلًا إِلَى
الْأَفَاقِ دَاعِينَ إِلَى مِلَّتِهِ وَذَلِكَ أَيَّامَ أَوْغُسْطُسَ أَوَّلِ مَلُوكِ الْقِيَاصِرَةِ وَفِي مَدَّةِ هِيرُودُسَ
مَلِكِ الْيَهُودِ الَّذِي أَنْزَعَ الْمَلِكُ مِنْ بَنِي حَشْمَنَائِي أَصْهَارِهِ فَحَسَدَهُ الْيَهُودُ وَكَدَّبُوهُ
وَكَاتَبَ هِيرُودُسُ مَلَكَتِهِمْ مَلِكِ الْقِيَاصِرَةِ أَوْغُسْطُسَ يُغْرِيهِ بِهِ فَأَذَنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ
وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ وَافْتَرَقَ الْخَوَارِيقُ شَيْعًا وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ الرُّومِ
دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَ بَطْرُسُ كَبِيرُهُمْ فَتَزَلَّ بِرُومَةٍ دَارَ مَلِكِ الْقِيَاصِرَةِ ثُمَّ
كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَيْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي سِتِّينَ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافٍ
رَوَايَاتِهِمْ فَكَتَبَ مَتَّى الْإِنْجِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَنَقَلَهُ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي
مِنْهُمْ إِلَى اللِّسَانِ اللَّاتِينِيِّ وَكَتَبَ لَوْقَا مِنْهُمْ الْإِنْجِيلَ بِاللَّاتِينِيِّ إِلَى بَعْضِ أَكْبَرِ الرُّومِ
وَكَتَبَ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ الْإِنْجِيلَ بِرُومَةٍ وَكَتَبَ بَطْرُسُ الْإِنْجِيلَ بِاللَّاتِينِيِّ وَنَسَبَهُ
إِلَى مَرْقَاصَ تَلْمِيذِهِ وَاخْتَلَفَتْ هَذِهِ السِّتُّونَ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا
وَحِيدًا صِرْفًا بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْخَوَارِيقِ وَكُلُّهَا مَوَاعِظُ
وَفِصَصٌ وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا وَاجْتَمَعَ الْخَوَارِيقُ الرُّسُلُ لِدُنْيَا الْعَهْدِ بِرُومَةٍ

وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَصَبَرُواهَا بِيَدِ أَفْلِحْمَنْطُسَ تَلْمِيذِ بَطْرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا
 عَدَدَ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا فَمِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ الثُّورَاةُ وَهِيَ خَمْسَةٌ
 أَسْفَارُ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ الْقَضَاةِ وَكِتَابُ رَاعُوثَ وَكِتَابُ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ
 أَرْبَعَةٌ وَسَنُرُ بَنِيَامِينَ وَكُتُبُ الْمُقَابِلِينَ لِابْنِ كَرْيُونَ ثَلَاثَةٌ وَكِتَابُ عَزْرَا الْإِمَامِ
 وَكِتَابُ أَوْشِرٍ وَقِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصِّدِّيقِ وَزَمَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُتُبُ
 ابْنِهِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ وَنُبُوءَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ سِتَّةٌ عَشَرَ وَكِتَابُ
 يُسُوعَ بْنِ شَارِخَ وَزَيْرِ سَلِيمَانَ وَمِنْ شَرِيعَةِ عَيْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَقَلَّاةُ مِنْ
 الْحَوَارِيِّينَ نُسُخُ الْإِنْجِيلِ الْأَرْبَعِ وَكُتُبُ الْفِتَائِلِقُونَ سَبْعَ رِسَائِلَ وَثَامِنَهَا الْإِبْرِيكْسِيُّسُ
 فِي قِصَصِ الرُّسُلِ وَكِتَابُ بُولُسَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَفْلِحْمَنْطُسَ وَفِيهِ الْأَحْكَامُ
 وَكِتَابُ أَبُوغَالْمَسِيَسَ وَفِيهِ رُؤْيَا يُوْحَنَّا بْنِ زَبْدِي وَأَخْتَلَفَتْ شَانَ الْقِيَاصِرَةِ فِي الْأَخْذِ
 بِهَيْدِهِ الشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرَكَهَا أُخْرَى وَالنَّسَاطُ عَلَيْهِمُ بِالْقَتْلِ وَالْبَغْيِ إِلَى
 أَنْ جَاءَ قِسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَأَسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا الدِّينِ وَالْمَقِيمُ
 لِمِرَاسِيْمِهِ يُسَمُّونَهُ الْبَطْرُكَ وَهُوَ رَئِيسُ الْمَلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ الْمَسِيحِ فِيهِمْ يَبْعَثُ
 نُوَابِهِ وَخُلَفَاءَهُ إِلَى مَا بَعْدَ عَنهُ مِنْ أُمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْأُسْقَفَ أَيَّ نَائِبِ الْبَطْرُكِ
 وَيُسَمُّونَ الْإِمَامَ الَّذِي يُقِيمُ الصَّلَوَاتَ وَيُفْتِيهِمْ فِي الدِّينِ بِالْقُسُيسِ وَيُسَمُّونَ الْمُنْقَطِعَ
 الَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي الْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ وَأَكْثَرُ خَلَوَاتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَكَانَ
 بَطْرُسُ الرَّسُولُ رَأْسُ الْحَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ التَّلَامِيذِ بِرُومَةَ يُقِيمُ بِهَا دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ إِلَى
 أَنْ قَتَلَهُ نَبْرُونُ خَامِسُ الْقِيَاصِرَةِ فِيمَنْ قَتَلَ مِنَ الْبَطَارِقِ وَالْأَسَاقِمَةِ ثُمَّ قَامَ بِخِلَافَتِهِ فِي
 كَرْسِيِّ رُومَةَ آريُّوسُ وَكَانَ مَرْفَاسُ الْإِنْجِيلِيِّ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمَصْرَ وَالْمَغْرِبَ دَاعِيًا
 سَبْعَ سَنِينَ فَقَامَ بَعْدَهُ حَنَانِيَا وَتَسَمَّى بِالْبَطْرُكِ وَهُوَ أَوَّلُ الْبَطَارِكَةِ فِيهَا وَجَعَلَ مَعَهُ
 اثْنَيْ عَشَرَ قِسَالِيًّا أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْبَطْرُكُ يَكُونُ وَاحِدًا مِنَ الْإِثْنَيْ عَشَرَ مَكَانَهُ وَيَخْتَارُ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدًا مَكَانَ ذَلِكَ الثَّانِي عَشَرَ فَكَانَ أَمْرُ الْبَطَارِكَةِ إِلَى الْقُسُوسِ ثُمَّ لَمَّا
 وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قَوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِ وَاجْتَمَعُوا بِنِيقِيَّةِ أَيَّامَ قِسْطَنْطِينِ
 لِتَحْرِيرِ الْحَقِّ فِي الدِّينِ وَاتَّفَقَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِمَتِهِمْ عَلَى رَأْيِ وَاحِدٍ فِي
 الدِّينِ فَكَتَبُوهُ وَسَمَّوْهُ الْإِمَامَ وَصَيَّرُوهُ أَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَكَانَ فِيمَا كَتَبُوهُ أَنَّ

البطرِكَ الْقَائِمِ بِالدِّينِ لَا يُرْجَعُ فِي تَعْيِينِهِ إِلَى اجْتِهَادِ الْأَقْسَةِ كَمَا قَرَّرَهُ حَنَانِيًّا تَلْمِذُ
 مَرْفَاسٍ وَأَبْطَلُوا ذَلِكَ الرَّأْيَ وَإِنَّمَا يُقَدَّمُ عَنْ بِلَاءٍ وَاجْتِبَارٍ مِنْ أُمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَرُؤُسَائِهِمْ فَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَقْرِيرِ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَكَانَتْ لَهُمْ
 مُجْتَمَعَاتٌ فِي تَقْرِيرِهِ وَلَمْ يَخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فَبَقِيَ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ وَاتَّصَلَ
 فِيهِمْ نِيَابَةُ الْأَسَافَةِ عَنِ الْبَطَارِكَةِ وَكَانَ الْأَسَافَةُ يُدْعُونَ الْبَطْرِكَ بِالْأَبِ أَيْضًا
 تَعْظِيمًا لَهُ فَاسْتَبَدَّ الْأَسْمُ فِي أَصْرَارِ مَطَاوِلَةٍ يُقَالُ آخِرُهَا بَطْرِكِيَّةٌ هِرَقُلُ بِاسْكَنْدَرِيَّةَ
 فَأَرَادُوا أَنْ يُمَيِّزُوا الْبَطْرِكَ عَنِ الْأَسْقَفِ فِي التَّعْظِيمِ فِدَعْوُهُ الْبَابَا وَمَعْنَاهُ أَبُو الْأَبَاءِ
 وَقَطَّرَ هَذَا الْأَسْمُ أَوَّلَ ظُهُورِهِ بِمِصْرَ عَلَى مَا زَعَمَ جَرَجِيسُ بْنُ الْعَمِيدِ فِي تَأْرِيخِهِ ثُمَّ
 نَقَلُوهُ إِلَى صَاحِبِ الْكُرْسِيِّ الْأَعْظَمِ عِنْدَهُمْ وَهُوَ كُرْسِيُّ بَطْرُسَ الرَّسُولِ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ
 فَلَمْ يَزَلْ سِمَةً عَلَيْهِ حَتَّى الْآنَ ثُمَّ اخْتَلَفَتِ النَّصَارَى فِي دِينِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَفِيمَا يَتَقَدُّونَهُ
 فِي الْمَسِيحِ وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفِرَقًا وَاسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ النَّصْرَانِيَّةِ كُلِّ عَلَى صَاحِبِهِ
 فَاخْتَلَفَ الْحَالُ فِي الْعُصُورِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ
 طَوَائِفٍ هِيَ فِرْقَتُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا وَهُمْ الْمَلِكِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ ثُمَّ
 اخْتَصَّتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرِكَ فَبَطْرِكَ رُومَةَ الْيَوْمِ الْمُسَمَّى بِالْبَابَا عَلَى رَأْيِ
 الْمَلِكِيَّةِ وَرُومَةَ لِلْأَفْرَنْجِيَّةِ وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِنَيْلِكَ النَّاحِيَّةِ وَبَطْرِكَ الْمَعَاهِدِينَ بِمِصْرَ
 عَلَى رَأْيِ الْيَعْقُوبِيَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ وَالْحَبْشَةَ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ وَبَطْرِكَ مِصْرَ
 فِيهِمْ أَسَافَةُ يُنُوبُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَاكَ وَاخْتَصَّ اسْمُ الْبَابَا بِبَطْرِكَ رُومَةَ
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا تُسَمَّى الْيَعَاقِبَةُ بِبَطْرِكَ هَذَا الْأَسْمُ وَضَبَطَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ بِيَاءٍ مِنْ مَوْحَدَتَيْنِ
 مِنْ أَسْفَلِ وَالنُّطْقُ بِهَا مُفْخَمَةٌ وَالثَّانِيَّةُ مُشَدَّدَةٌ وَمِنْ مَذَاهِبِ الْبَابَا عِنْدَ الْأَفْرَنْجِيَّةِ أَنَّهُ
 يَحْضَرُهُمْ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ تَحْرُجًا مِنْ
 افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ وَيُتَحَرَّى بِهِ الْعَصِيَّةُ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لَتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى
 جَمِيعِهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْإِبْرَدُورَ ^(١) وَحَرْفُهُ الْوَسْطِيَّيْنِ النَّالِ وَالظَّاءُ الْمُجْمَعَتَيْنِ وَمَبَاشَرُهُ
 يَضَعُ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ لِتَبْرُكِهِ فَيُسَمَّى الْمَتَوَجَّجَ وَلَعَلَّهُ مَعْنَى لَفْظَةِ الْإِبْرَدُورِ وَهَذَا

(١) المشهور فديما إمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس نقول إمبرور ومعناها عندهم ملك الملوك

مُلَخَّصٌ مَا أَوْزَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ هَدْيِ الْأَسْمَنِ الَّذِينَ هُمَا الْبَابُ وَالْكُوْهُنُ وَاللَّهُ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقيامها

اعْلَمْ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يُحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْأَسْتِعَانَةِ بِأَنْبَاءِ
جَنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَهْنِهِ ^(١) فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ تَوْعِهِ
وَمَنْ أَسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُتَحَاجٌّ إِلَى حِمَايَةِ الْكَافَةِ مِنْ عَدُوِّهِ بِالْمُدَافَعَةِ
عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْضَاءِ الْأَحْكَامِ الْوِازِعَةِ
فِيهِمْ وَكَفِّ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أُمُورِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَابِلَتِهِمْ وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ
وَمَا تَعْمَلُهُمْ بِهِ الْبُلُوْى فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَقْدِيقِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ
حَذْرًا مِنَ التَّطْفِيفِ وَإِلَى النَّظْرِ فِي السِّبْكِ بِحِفْظِ النُّقُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْغَشِّ
وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ وَالرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَأَنْفِرَادِهِ
بِالْحِجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ
مِنَ الْحُكَمَاءِ لَمُعَانَاةُ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَا كَيْهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ
إِنَّ الْأَسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأَوْلِي الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ أَوْ التَّرْبِيَةِ أَوْ الْأَصْطِنَاعِ
الْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ لِمَا يَقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لِخُلُقِهِ فَنَتِمُّ الْمَشَاكَلَةُ
فِي الْأَسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي
وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ
أَوْ بِحُجَابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزِدَّ حُجْمًا عَلَيْهِ فَيُسْغَلُوهُ عَنِ النَّظْرِ فِي مُهْمَاتِهِمْ أَوْ يَدْفَعِ النَّظَرَ
فِي الْمَلِكِ كُلِّهِ وَيَعُوْلَ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذَلِكَ وَأَضْطَلَاعِهِ فَلِذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي رَجُلٍ
وَاحِدٍ وَقَدْ تَفَتَّرَ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَالْقَلَمِ
يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلَمِ الرَّسَائِلِ وَالْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِفْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ الْحَاسِبَاتِ
وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَابِيَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيْوَانِ الْجَيْشِ وَكَالسَيْفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْبِ

(١) المهنة المخدومة وجمعها من بكسر الميم

وَصَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ وَوَلَايَةِ الثُّغُورِ ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي
 هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدرَجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَحْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ
 وَالْدُنْيَا كَمَا قَدَّمَاهُ فَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا وَوُجُودُهُ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ
 مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَالْفَقِيهَ يَنْظُرُ
 فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا أَسْبَدَادًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانَ
 أَوْ تَعْوِضًا مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي فِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَمْوَالِ
 وَسَائِرِ السِّيَاسَاتِ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي
 الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ
 حِيَابِيَّةٍ أَوْ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَسْحَابِ
 حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ إِلَّا أَنْ
 كَلَامَنَا فِي وُظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْعُمَرَانَ وَوُجُودِ
 الْبَشَرِ لَا يَمَّا يَخْصُهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا
 مَحْتَاجَ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ
 مِثْلَ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَاوَرِدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ
 اسْتِنْفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَاعَبَتِهَا هُنَاكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَا
 لِنُمِيزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطَّ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ
 غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانَ فِي الْوُجُودِ
 الْإِنْسَانِيِّ وَاللَّهِ الْمَوْفِقُ

الْوِزَارَةُ * وَهِيَ أُمَّ الْخَطِّ السُّلْطَانِيَّةِ وَالرُّتْبِ الْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ
 الْإِعَانَةِ فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُودَةٌ إِمَّا مِنَ الْمُوَازَرَةِ وَهِيَ الْمُعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ
 الثَّقَلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مَفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَانْقَالَه وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ وَقَدْ
 كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانَ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ
 تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكِفَافَةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجِدِّ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ
 أُمُورِ الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمَتَعَارِفُ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ
 بِالْمَشْرِقِ وَلِهَذَا الْعَهْدُ بِالْمَغْرِبِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي

أُمُورِ جَبَايَةِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَضَبَطُ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبَطَةٍ وَصَاحِبُ
 هَذَا هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ وَإِمَا أَنْ
 يَكُونَ فِي مَدَاغَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزِدْحَمُوا عَلَيْهِ فَيَسْغَلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ وَهَذَا
 رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَحْبِبُهُ فَلَا تَعْدُو أَحْوَالُهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ بِوَجْهِ وَكُلِّ خِطَّةٍ
 أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتْبِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعُ مِنْهَا مَا كَانَتْ الْإِعَانَةُ
 فِيهِ عَامَةً فَمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ مِنْ ذَلِكَ الصَّنْفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مَبَاشَرَةَ السُّلْطَانِ دَائِمًا
 وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صَنْفٍ مِنْ أَحْوَالِ مُلْكِهِ وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًّا بِبَعْضِ النَّاسِ أَوْ
 بِبَعْضِ الْجَبَايَاتِ فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى كَقِيَادَةِ نَعْرِ أَوْ وِلَايَةِ جَبَايَةٍ خَاصَّةٍ أَوْ
 النَّظَرِ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ أَوْ النَّظَرِ فِي السِّكَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ كَلِمَاتٌ نَظَرٌ فِي
 أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعُلَمَاءِ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرُؤُوسَةً لِأَوْلِيائِكَ
 وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي الدُّوَلِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَصَارَ الْأَمْرُ خِلَافَةً
 فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخِطَطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمَلِكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ بِالرَّأْيِ
 وَالْمَعَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا يَدْمُنُهُ فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيَفَاوِضُهُمْ فِي مِهْمَاتِهِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَّةِ وَيَخُصُّ مَعَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ
 بِمُخْصِصَاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوَلِ وَأَحْوَالَهَا فِي كِسْرَى وَقِيَصَرَ
 وَالنَّجَاشِي يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزَيْرَةَ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِنَدَابِ
 رُتْبَةِ الْمَلِكِ بِسَدَاجَةِ الْإِسْلَامِ وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَعَثْمَانُ مَعَ عُمَرَ وَأَمَّا
 حَالُ الْجَبَايَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْحِسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أَمِيينَ
 لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ أَفْرَادًا
 مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ
 لِأَنَّ الْأَمِيَّةَ كَانَتْ صِنْفَتُهُمُ الَّتِي أَمْتَارُوا بِهَا وَكَذَا حَالُ الْعُخْطَابَاتِ وَتَنْفِيذِ الْأُمُورِ لَمْ
 تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةٌ خَاصَّةٌ لِلْأَمِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَالْأَمَانَةُ الْعَامَةُ فِي كِتْمَانِ الْقَوْلِ
 وَتَأْدِيَتِهِ وَلَمْ تَخْرُجِ السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِينٌ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ
 الْمَلِكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنْ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيَسْتَجَادُ لِحِلْمَتِهِ أَحْسَنَهَا لِأَنَّ
 الْكُلَّ كَانُوا يُعْبِرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ الْعِبَارَاتِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخِطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ

بَسْتَيْبُ فِي كِتَابَتِهِ مَتَى عَنْ لَهُ مِنْ يُحْسِنُهُ وَأَمَّا مِدَاعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ أَبُو بَاهِمٍ
فَكَانَ مَحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ فَلَمَّا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمَلِكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ
السُّلْطَانِ وَالْقَابِئَةِ كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بَدِئَ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ شَأْنُ الْبَابِ وَسَدُّ دُونَ الْجُيُورِ بِمَا
كَانُوا يَحْشُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِيَابِ الْخُورِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ
وَعُمَرَ بْنِ الْعَادِي وَغَيْرِهِمْ مَعَ مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ أَرْحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشَغْلِهِمْ بِهِمْ عَنْ
الْمِهْمَاتِ فَأَتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسَمَّوهُ الْحَاجِبَ وَقَدْ جَاءَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا
وَلَّى حَاجِبَهُ قَالَ لَهُ قَدْ وَابَيْتُكَ حِجَابَةَ بَابِي إِلَّا عَنِ ثَلَاثَةِ الْمُؤَذِّنِ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعِي
اللَّهِ وَصَاحِبِ الْبَرِّ يَدِ الْبَرِّ مَا جَاءَ بِهِ وَصَاحِبِ الطَّعَامِ لِيَمْلَأَ يَفْسُدُ ثُمَّ اسْتَفْجَلَ الْمَلِكُ بَعْدَ
ذَلِكَ فَظَهَرَ الْمَشَاوِرُ وَالْمَعِينُ فِي أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِثْلَا فِيهِمْ وَاطَّيَّقَ عَلَيْهِ اسْمُ
الْوَزِيرِ وَبَقِيَ أَمْرُ الْحِسْبَانِ فِي الْمَوَالِي وَالذَّمِيَّينِ وَاتَّخَذَ لِلسَّجِلَاتِ كَاتِبٌ مَخْصُوصٌ
حَوْطَةً عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهَرَ فَتَنْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِدَثَابَةِ
الْوَزِيرِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَحْتَجِجُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْخَطُّ وَالْكِتَابُ لَا مِنْ حَيْثُ اللِّسَانُ الَّذِي هُوَ
الْكَلَامُ إِذِ اللِّسَانُ لِيَذِكَّ الْعَهْدَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَنْسُدْ فَكَانَتْ أَلْوَارَةُ لِذَلِكَ أَرْفَعُ رُتَبِهِمْ
يَوْمئِذٍ فِي سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمِيَّةٍ نَكَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامًا فِي أحوَالِ التَّدْبِيرِ وَالْمَفَاوِضَاتِ
وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَاتِ وَالْمَطَالِبَاتِ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي دِيْوَانِ الْجُنْدِ وَقَرَضِ الْعَطَاءِ
بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَاسْتَفْجَلَ الْمَلِكُ وَعَظَّمَتْ مَرَاتِبُهُ
وَأَزْدَتْ وَعَظَّمَ شَأْنُ الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ فِي إِنْفَازِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ تَعَيَّنَتْ مَرَاتِبُهُ
فِي الدَّوْلَةِ وَعَنْتَ لَهَا الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهَا الرِّقَابُ وَجَعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِي دِيْوَانِ الْحِسْبَانِ
لَمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خِطَّتُهُ مِنْ قِسْمِ الْأَعْطِيَاتِ فِي الْجُنْدِ فَاحْتِاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي جَمْعِهِ وَتَفَرُّقِهِ
وَأَضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ثُمَّ جَعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ السُّلْطَانِ
وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ لَمَّا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمُهورِ وَجَعِلَ الْخَاتَمَ لِسَجِلَاتِ السُّلْطَانِ
لِيَحْفَظَهَا مِنَ الدَّبَاعِ وَالشَّيْبَاعِ وَدُفِعَ إِلَيْهِ فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِحِطِّي السِّيفِ وَالْقَلَمِ
وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ وَالْمَعَاوَنَةِ حَتَّى لَقِدَ دُعِيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ
إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ وَلَمْ يُخْرَجْ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا
الْحِجَابَةَ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِاسْتِنْكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي

الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان
أخرى وصار الوزير إذا استبد محتاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام
الشرعية وتجي على حالها كما تقدمت فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي
حال ما يكون السلطان قائما على نفسه وإلى وزارة تقيض وهي حال ما يكون الوزير
مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم
يكن لأولئك المتعلمين أن ينتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء
في القاب لانهم حول لهم ففسدوا بالإمارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى
أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحل به الخليفة من القابيه كما تراه في القابيه
وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى
آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس
فأمتهت وترفع الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من
لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واخصت به وصارت خادمة للوزير واخص
اسم الأمير بصاحب الخروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل
الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبدادا واستمر الأمر على هذا ثم جاءت
دولة الترك أخيرا بمصر فزأوا أن الوزارة قد أبدلت بتربع أولئك عنها ودفعها لمن
يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مروءة ناقصة
فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب
الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في
مدلوله واخص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية وأما دولة بني أمية بالاندلس
فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم فسدوا خطته أصنافا وأفردوا لكل
صنف وزيرا فجعلوا الحسبان المال وزيرا ولترسيل وزيرا وللنظر في حوائج المتعلمين
وزيرا وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش
منضدة لهم ويفدون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين
الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فأرتفع مجلسه عن

مَجَالِسِهِمْ وَخَصَّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ وَلَمْ يَزَلِ الشَّانُ هَذَا إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ فَأَرْتَفَعَتْ خِطَّةُ
 الْحَاجِبِ وَمَرَّتَبَتُهُ عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ حَتَّى صَارَ مُلُوكُ الطُّوَائِفِ يَنْتَحِلُونَ لِقَبْلِهَا فَأَكْثَرُهُمْ
 يَوْمئِذٍ يُسَمَّى الْحَاجِبَ كَمَا نَدَّ كُرُهُ ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ الشَّيْخَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْقَيْرَوَانَ وَكَانَ
 لِلْقَائِمِينَ بِهَا رُسُخٌ فِي الْبِدَاوَةِ فَأَغْفَلُوا أَمْرَ هَذِهِ الْخِطَطِ أَوَّلًا وَتَنَجَّحَ أَسْمَاءُهَا كَمَا
 تَرَاهُ فِي أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَغْفَلَتِ الْأُمَمُ
 أَوَّلًا لِلْبِدَاوَةِ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى انْتِحَالِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ وَكَانَ اسْمُ الْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ ثُمَّ
 اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الْأُمَوِيِّينَ وَقَدَّوْهَا فِي مَذَاهِبِ السُّلْطَانَ وَأَخْتَارُوا اسْمَ الْوَزِيرِ لِمَنْ
 يَحْجُبُ السُّلْطَانَ فِي مَجْلِسِهِ وَيَقِفُ بِالْوُفُودِ وَالدَّخَالِينِ عَلَى السُّلْطَانَ عِنْدَ الْخُدُودِ فِي تَحْيِيهِمْ
 وَخِطَابِهِمْ وَالْآدَابِ الَّتِي تَلْزَمُ فِي الْكُفُونِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا خِطَّةَ الْحِجَابَةِ عَنْهُ مَا
 شَاءُوا وَلَمْ يَزَلِ الشَّانُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ التُّرْكَ بِالْمَشْرِقِ فَيَسْمُونَ
 هَذَا الَّذِي يَقِفُ بِالنَّاسِ عَلَى حُدُودِ الْآدَابِ فِي اللَّقَاءِ وَالْتِحِيَّةِ فِي مَجَالِسِ السُّلْطَانَ
 وَالتَّقَدُّمِ بِالْوُفُودِ بَيْنَ يَدَيْهِ الدَّوِيْدَارِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِجْبَاعَ كَاتِبِ السِّرِّ وَالْأَخْبَابِ
 الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ السُّلْطَانَ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ وَحَالَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ يَشَاءُ

(الحجابة) * قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ كَانَ مَخْصُوصًا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
 وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْعَامَّةِ وَيُعَلِّقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهُمْ عَلَى
 قَدْرِهِ فِي مَوَاقِيْتِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ مُنْزَلَةً يَوْمًا عَنِ الْخِطَطِ مَرُّوْسَةً لَهَا إِذِ الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ
 فِيهَا بِمَا يَرَاهُ وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ فِيهِ مِصْرُ مَرُّوْسَةً
 لِصَاحِبِ الْخِطَّةِ الْعُلِيَّا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ * وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ
 الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَيَكُونُ وَسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَءِ
 قَمَنَ دُونَهُمْ فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رُفِيْعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِهِمْ كَانِ حُدَيْدٍ وَغَيْرِهِ
 مِنْ حِجَابِيِهِمْ ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْأَسْتِبدَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتَصَّ الْمُسْتَبْدِ بِاسْمِ الْحِجَابَةِ لِشَرَفِهَا
 فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنَاؤُهُ كَذَلِكَ وَلَمَّا بَدَا فِي مَظَاهِرِ الْمَلِكِ وَأَطْوَارِهِ
 جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ فَلَمْ يَبْرُكُوا لِقَبْلِهَا وَكَانُوا يَعِدُونَهُ شَرَفًا لَهُمْ وَكَانَ عَظْمُهُمْ
 مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ الْقَابِ الْمَلِكِ وَأَسْمَائِهِ لِأَبْدَلِهِ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوَزَارَتَيْنِ

يَعُونُ بِهِ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ وَيَدُلُّونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ
وَيَذِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنْ جَمْعِهِ لِحَطِّي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ
وَأَفْرِيقِيَّةِ ذِكْرًا لِهَذَا الْأَسْمِ لِلدَّوَاةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرُبَّمَا يُوْجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيَّيْنَ
بِمِصْرَ عِنْدَ اسْتِعْظَامِهَا وَحَضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لَمْ
تَسْتَمَكِّنْ فِيهَا الْحَضَارَةَ الدَّاعِيَةَ إِلَى اتِّحَالِ الْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ الْخَطِّ وَتَعْيِينِهَا بِالْأَسْمَاءِ
إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الرَّتَبِ إِلَّا الْوِزِيرُ فَكَانُوا أَوَّلًا يَخْضُونَ بِهَذَا الْأَسْمِ
الْكَاتِبِ الْمُتَصَرِّفِ الْمَشَارِكِ لِلسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَأَنَّ عَطِيَّةَ وَعَبْدَ السَّلَامِ
الْكُويِّيَ وَكَانَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ
أَسْمُ الْوِزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ الدَّوَلَةِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ كَأَبْنِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنْ أَسْمُ
الْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ * وَأَمَّا بَنُو أَبِي حَنْضَلَةَ بِأَفْرِيقِيَّةِ فَكَانَتْ الرَّئِيسَةَ
فِي دَوْلَتِهِمْ أَوَّلًا وَالتَّقْدِمَ لَوْزِيرٍ وَالرَّأْيِ وَالْمَشُورَةَ وَكَانَ يَخْضُ بِاسْمِ شَيْخِ الْمُوَحِّدِينَ
وَكَانَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْوِلَايَاتِ وَالْعَزْلِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ وَالْحُرُوبِ وَأَخْضَصَ الْحَسْبَانُ
وَالدَّبَّانُ بِرُبَّةٍ أُخْرَى وَيُسَمَّى مُتَوَلِّيَهَا بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرَ الْمَطْلُوقَ فِي
الدَّخْلِ وَالخُرُوجِ وَيَحْاسِبُ وَيَسْتَخْضِصُ الْأَمْوَالَ وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّفْرِيطِ وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ
أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَأَخْضَصَ عِنْدَهُمُ الْقَلَمَ أَيْضًا بِمَنْ يَجِدُ التَّرْسِيلَ وَيُؤْتَمِنُ
عَلَى الْأَسْرَارِ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُنْتَحَلِ الْقَوْمِ وَلَا التَّرْسِيلَ بِلِسَانِهِمْ فَلَمْ
يُشْرَطْ فِيهِ النَّسَبُ وَاحْتِاجُ السُّلْطَانِ لِاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ الْمُرْتَرِقِينَ بِدَارِهِ إِلَى
قَهْرٍ مِمَّا يَدَارِهِ فِي أحوَالِهِ يُجْرِيهَا عَلَى قَدْرِهَا وَتَرْتَبُهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاةٍ وَكُسُوفَةٍ
وَنَفَقَةٍ فِي الْمَطَابِخِ وَالْإِصْطِبَاتِ وَغَيْرِهَا وَحَمْرِ الدَّخِيرَةِ وَتَنْفِيذِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي
ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْحِجَابَةِ فَخَصَّهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَلَى
السَّيِّلَاتِ إِذَا اتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ غَيْرَهُ وَأَسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى
ذَلِكَ وَحَجَبَ السُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ قِصَارَ هَذَا الْحَاجِبِ وَاسْطَةَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ أَهْلِ
الرُّتَبِ كُلِّهِمْ ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرَ الدَّوَلَةِ السَّيْفُ وَالْحَرْبُ ثُمَّ الرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ فَصَارَتْ الْحِطَّةُ
أَرْفَعَ الرُّتَبِ وَأَوْعِيَهَا لِلخَطِّ ثُمَّ جَاءَ الْأَسْتَبْدَادُ وَالْحَجْرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ الثَّانِي عَشَرَ
مِنْهُمْ ثُمَّ اسْتَبَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ حَفِيدُهُ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَذْهَبَ آثَارُ الْحَجْرِ

وَالْأَسْبَدَارِ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ الْحِجَابَةِ الَّتِي كَانَتْ سَامَةً إِلَيْهِ وَبِأَثَرِ أَمُورِهِ كَمَا بَنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ
أَسْتَعَانَهُ بِأَحَدٍ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهُذَا الْعَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَانَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مُرِينَ فَلَا أَثَرَ لِأَسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ
وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتَبَةُ الْقَلَمِ فِي الْحِسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ رَاحِعَةٌ
إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنْ أَخْتَصَّتْ بَعْضُ الْبُيُوتِ الْمُصْطَفِيَةِ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ
تَجَمَّعَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَفَرَّقَ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحُجْبَةُ عَنِ الْعَامَةِ فَهِيَ رُتَبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيَسْمَى
صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمِزْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمَقْدَمُ عَلَى الْجُنَادِ الرَّائِدِ الْمُتَمَصِّرِ فَبَيْنَ بَابِ السُّلْطَانِ فِي
تَنْفِيذِ أَمْرِهِ وَتَضَرُّفِ عَقُوبَاتِهِ وَإِنْ زَالَ سَطْوَاتِهِ وَحَفِظَ الْمُعْتَقِلِينَ فِي سَجُونِهِ وَالْعَرِيفَ
عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَالْبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ بِالْوُفُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَةِ رَاجِعٌ
إِلَيْهِ فَكَانَتْهَا وَزَارَةٌ صُغْرَى وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ
الْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزِ الْخِطَطِ لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَفُضُورِهَا وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِأَسْمِ الْحَاجِبِ فِي
بَعْضِ الْأَحْوَالِ مَنْفَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَنْصَلٍ وَقَدْ
يَجْمَعُونَ لَهُ الْحِسْبَانَ وَالسُّجُلَ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي
تَبِعَتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهُذَا الْعَهْدِ فَالْخِصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحِسْبَانِ وَتَنْفِيذُ حَالَ السُّلْطَانِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ
وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خِطَّةً عَلَى السُّجُلَاتِ كَمَا فُلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَامَةِ كَمَا الْغَيْرِ مِنْ الدُّوَلِ
وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضِعُ الْحَاكِمِ مِنْ أَهْلِ الشُّوَكَةِ وَهُمْ التُّرْكُ
يَنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوُضُفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَضُفَةِ
النَّبِيَاةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّبَاةِ التَّوَالِيَةِ وَالْعَزَلُ
فِي بَعْضِ الْوُضُفَاتِ عَلَى الْأَحْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبْتَهَا وَتَنْفِذُ أَمْرِهِ
كَمَا تَنْفِذُ الْمَرَاسِمِ السُّلْطَانِيَّةِ وَكَانَ لَهُ النَّبَاةُ الْمَطْلُوقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَالْحِجَابُ الْحُكْمُ فَقَطُّ
فِي طَبَقَاتِ الْعَامَةِ وَالْحُجْدُ عِنْدَ التَّرَافِعِ إِلَيْهِمْ وَاجْبَارٌ مِنْ أَبِي الْأَنْقِيَادِ لِلْحُكْمِ وَطُورُهُمْ
تَحْتَ طُورِ النَّبَاةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى
أَخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جَزِيَةٍ ثُمَّ فِي تَضَرُّفِهَا فِي الْأَنْفِقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ

أَوْ الْجَرَايَاتِ الْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ التَّوَلِيَّةُ وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعَمَالِ الْمُبَشِّرِينَ لَهُدِهِ
الْجَبَايَةِ وَالتَّنْفِيذِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا
الْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ الْقَبِيضِ الْقَائِمِينَ عَلَى دِيْوَانِ الْحِسْبَانِ وَالْجَبَايَةِ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ فِي
مِصْرٍ مِنْذُ عَصُورٍ قَدِيمَةٍ وَقَدْ يُوَلِّيهَا السُّلْطَانُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ لِأَهْلِ الشُّوْكَةِ مِنْ رِجَالَاتِ
الْتُرْكِ أَوْ أَبْنَاءِهِمْ عَلَى حَسَبِ الدَّاعِيَةِ لِذَلِكَ وَاللَّهُ مُدَبِّرُ الْأُمُورِ وَمُصَرِّفُهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

ديوان الاعمال والجبایات

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ مِنَ الْوُظَائِفِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْمَلِكِ وَهِيَ الْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ
الْجَبَايَاتِ وَحِفْظِ حُقُوقِ الدَّوْلَةِ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَإِحْصَاءِ الْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيرِ
أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفِ أَعْطِيَانِهِمْ فِي إِبَائَاتِهَا وَالرُّجُوعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوَانِينِ الَّتِي يُرْتَبِهَا قَوْمَةُ
تلك الْأَعْمَالِ وَقَهَارِمَةُ الدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذَلِكَ فِي
الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ مَبْنِيٍّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْمَهَرَّةُ مِنْ أَهْلِ
تلك الْأَعْمَالِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ الْكِتَابُ بِالْدِيْوَانِ وَكَذَلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ الْعَمَالِ
الْمُبَشِّرِينَ لَهَا * وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَنَّ كِسْرَى نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كِتَابِ
دِيْوَانِهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَانَهُمْ يُحَادِثُونَ فَقَالَ دِيْوَانُهُ أَيُّ مَجَانِينَ بَلَغَةَ الْفَرْسِ
فَسَمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِذَلِكَ وَحُذِفَتِ الْهَاءُ لِكثْرَةِ الْأِسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا فَقِيلَ دِيْوَانٌ ثُمَّ نَقِلَ هَذَا
الْإِسْمُ إِلَى كِتَابِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَالْحِسْبَانَاتِ وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمٌ
لِلشَّيَاطِينِ بِالتَّفَارِسِيَّةِ سُمِّيَ الْكِتَابُ بِذَلِكَ لِسُرْعَةِ تَفْوِذِهِمْ فِي فَهْمِ الْأُمُورِ وَوُقُوفِهِمْ عَلَى
الْخَلْقِ مِنْهَا وَالْخَفِيِّ وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَدَّ وَتَفَرَّقَ ثُمَّ نَقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتلك الْأَعْمَالِ
وَعَلَى هَذَا فَيَتَنَاوَلُ اسْمُ الدِّيْوَانِ كِتَابَ الرِّسَائِلِ وَمَكَانَ جُلُوسِهِ بِيَابِ السُّلْطَانِ عَلَى مَا
يَأْتِي بَعْدُ وَقَدْ تَفَرَّدَ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ بِنَظَرٍ وَاحِدٍ يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ يَفْرُدُ
كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَظَرٍ كَمَا يَفْرُدُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ النَّظَرُ فِي الْعَسَاكِرِ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ
وَحِسْبَانِ أَعْطِيَانِهِمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوْلَاؤها . وَاعْلَمْ
أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْعَلْبِ وَالْأَسْتِيْلَاءِ وَالنَّظَرِ فِي
أَعْطَافِ الْمَلِكِ وَفُؤُونِ التَّمَهِيدِ وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيْوَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لَسَبَبٌ مَالٌ أَتَى بِهِ أَبُوهُرَيْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَاسْتَكْتَرُوهُ
 وَتَعَبُوا فِي قَسَمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ الْعَطَاءِ وَالْحَقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ
 الْأَوْلَيْدِ بِالْأَدْيَوَانَ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يَدْوُونَ فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ
 الْهَرَمِزَانُ لَمَّا رَأَاهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيْوَانَ فَقَبِلَ لَهُ وَمَنْ بَعَلُمُ بَغِيْبَةً مِنْ بَغِيْبٍ مِنْهُمْ
 فَإِنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أَخْلَ بِمَكَانِهِ وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيْوَانًا وَسَأَلَ
 عُمَرُ عَنْ اسْمِ الدِّيْوَانَ فَعَبَّرَ لَهُ وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ عَقِيلٌ بِنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُخْرَمَةَ
 ابْنِ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرِ بْنِ مَطْعَمٍ وَكَانُوا مِنْ كِتَابِ فَرِيْشٍ فَكَتَبُوا دِيْوَانَ الْعَسَاكِرِ الْأِسْلَامِيَّةِ
 عَلَى تَرْيِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ
 فَأَلْفَرَبُ هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ دِيْوَانَ الْجَيْشِ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ بِنِ سَعِيدِ بْنِ الْمَسِيْبِ
 أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيْوَانُ الْخُرَاجِ وَالْحَبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ
 الْأِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ دِيْوَانَ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَدِيْوَانَ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ
 وَكِتَابِ الدَّوَانِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ
 الْأَمْرُ مُلْكًا وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْنِقِ الْخِضْرَةِ وَمِنْ سَدَاجَةِ
 الْأَمِيَّةِ إِلَى حِنَقِ الْكِتَابَةِ وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهْرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحِسْبَانِ
 فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سَلِيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَالْمَلِيَّ الْأَرْدَنِّ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيْوَانَ الشَّامِ إِلَى
 الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْحُونَ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ
 لِكِتَابِ الرُّومِ أَطْبَقُوا الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ . وَأَمَّا دِيْوَانُ
 الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ
 وَلَقِنَ ذَلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 ابْنَ الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ وَأَمْرَهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيْوَانَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ
 إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغِمَ لِنِ ذَلِكَ كِتَابُ الْفَرَسِ وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ دَرْ
 صَالِحٌ مَا أَعْظَمَ مَنَّتَهُ عَلَى الْكِتَابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
 مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوْبَخْتِ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا
 يَخْتَصُّ بِالْجَيْشِ أَوْ بَيْتِ الْمَالِ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَتَمْيِيزِ الدَّوَاخِي بِالصَّلْحِ وَالْعُنُوفِ وَفِي تَقْلِيدِ

هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ لِمَنْ يَكُونُ وَشُرُوطِ النَّظَرِ فِيهَا وَالْكَاتِبِ وَقَوَائِنِ الْحِسَابَاتِ فَأَمْرٌ رَاجِعٌ
إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَاكَ وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا تَسْتَكْمَلُ
فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّذِي تَحْتُنْ يَصْدُرُ الْكَلَامُ فِيهِ وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ
الْمَلِكِ بَلْ هِيَ ثَالِثُهُ أَرْكَانُهُ لِأَنَّ الْمَلِكَ لَا يَبْدُلُهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالنَّحَابَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ
فَأَحْتِاجُ صَاحِبِ الْمَلِكِ إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السِّيفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ فَيَنْفَرِدُ
صَاحِبُهَا لِلذَّكَ بِجُزْءٍ مِنْ رِئَاسَةِ الْمَلِكِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ
وَالطَّوَائِفِ بَعْدَهُمْ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوحِدِينَ
يَسْتَقْبَلُ بِالنَّظَرِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا وَتَعْقُبِ نَظَرِ الْوَلَاةِ وَالْعَمَالِ فِيهَا
ثُمَّ تَنْفِيذِهَا عَلَى قَدْرِهَا وَفِي مَوَاقِفِهَا وَكَانَ يُعْرَفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ وَكَانَ رُبَّمَا يَلِيهَا
فِي الْجِهَاتِ غَيْرِ الْمُوحِدِينَ مِمَّنْ يُحْسِنُهَا. وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُو أَبِي حَمْنَصٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَكَانَ شَأْنُ
الْجَالِيَةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ
مِثْلَ بَنِي سَعِيدٍ أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ جَوَارِغِ نَاطَةِ الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِي أَبِي الْحَسَنِ فَأَسْتَكْفَوْا بِهِمْ
فِي ذَلِكَ وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَدَاوُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْمُوحِدِينَ ثُمَّ اسْتَقْبَلُ بِهَا أَهْلَ الْحِسَابِ وَالْكَتَابِ وَخَرَجَتْ عَنِ الْمُوحِدِينَ ثُمَّ كَمَا
اسْتَعْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ وَنَفَّذَ أَمْرَهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ تَعَطَّلَ هَذَا الرَّسْمُ
وَصَارَ صَاحِبُهُ مُرُوَسًا لِلْحَاجِبِ وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجَبَاةِ وَذَهَبَتْ تِلْكَ الرِّئَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ
لَهُ فِي الدَّوْلَةِ. وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَحِسَابُ الْعَطَاءِ وَالخَرَاجِ جَمُوعٌ لِوَاحِدٍ
وَصَاحِبُ هَذِهِ الرُّتْبَةِ هُوَ الَّذِي يُصَحِّحُ الْحِسَابَاتِ كُلَّهَا وَيَرْجِعُ إِلَى دِيْوَانِهِ وَنَظَرِهِ
مُعَقَّبٌ بِنَظَرِ السُّلْطَانِ أَوْ الْوَزِيرِ وَخَطُهُ مُعْتَبَرٌ فِي صِحَّةِ الْحِسَابِ فِي الْخَارِجِ وَالْعَطَاءِ
هَذِهِ أَسْوَاطُ الرُّتْبِ وَالْخَطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ الرُّتْبُ الْعَالِيَةُ الَّتِي هِيَ عَامَّةُ النَّظَرِ وَمُبَاشَرَةٌ
لِلسُّلْطَانِ. وَأَمَّا هَذِهِ الرُّتْبَةُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ فَمُتَنَوِّعَةٌ وَصَاحِبُ دِيْوَانِ الْعَطَاءِ يُعْرَفُ
بِنَظَرِ الْجَيْشِ وَصَاحِبُ الْمَالِ مَخْصُوصٌ بِاسْمِ الْوَزِيرِ وَهُوَ النَّظَرُ فِي دِيْوَانِ الْجَبَاةِ الْعَامَّةِ
لِلدَّوْلَةِ وَهُوَ أَعْلَى رُتْبِ النَّظَرِينَ فِي الْأَمْوَالِ لِأَنَّ النَّظَرَ فِي الْأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى
رُتْبِ كَثِيرَةٍ لِإِنْفِاسِ دَوْلَتِهِمْ وَعَظَمَةِ سُلْطَانَتِهِمْ وَاتِّسَاعِ الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ عَنْ
أَنَّ يَسْتَقْبَلَ بِضَبْطِهَا الْوَاحِدِ مِنَ الرِّجَالِ وَلَوْ بَلَغَ فِي الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ فَمَعِينٌ لِلنَّظَرِ الْعَامِّ.

مِنْهَا هَذَا الْخُصُوصُ بِاسْمِ الْوَزِيرِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَدِيفٌ لِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي السُّلْطَانِ
 وَأَهْلٍ عَصَابَتِهِ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ فِي الدَّوْلَةِ يَرْجِعُ نَظْرُ الْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْتَنِدُ جِهَتَهُ
 فِي مُتَابَعَتِهِ وَيَسَى عِنْدَهُمْ أُسْتَاذُ الدَّوْلَةِ وَهُوَ أَحَدُ الْأَمْرَاءِ الْأَكْبَرِ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ
 الْجُنْدِ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَيَتَّبِعُ هَذِهِ الْخُطَّةَ خَطَطُ عِنْدَهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الْأَمْوَالِ
 وَالْحُسْبَانِ مَقْصُورَةٌ النَّظْرُ إِلَى أُمُورٍ خَاصَّةٍ مِثْلَ نَظَرِ الْخَاصِّ وَهُوَ الْمُبَاشَرُ لِلْأَمْوَالِ
 السُّلْطَانِ الْخَاصَّةِ بِهِ مِنْ إِقْطَاعَاتِهِ أَوْ سُهْمَانِهِ مِنْ أَمْوَالِ الْخِرَاجِ وَبِلَادِ الْجَبَايَةِ مِمَّا لَيْسَ
 مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ وَهُوَ تَحْتَ يَدِ الْأَمِيرِ أُسْتَاذِ الدَّارِ وَإِنْ كَانَ الْوَزِيرُ مِنْ
 الْجُنْدِ فَلَا يَكُونُ لِأُسْتَاذِ الدَّارِ نَظْرٌ عَلَيْهِ وَنَظْرُ الْخَاصِّ تَحْتَ يَدِ الْخَازِنِ لِأَمْوَالِ السُّلْطَانِ
 مِنْ مِمَالِيكِهِ الْمُسَمَّى خَازِنِ الدَّارِ لِإِخْتِصَاصِ وَظِيفَتَيْهَا بِمَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصِّ . هَذَا
 بَيَانُ هَذِهِ الْخُطَّةِ بِدَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ بَعْدَ مَا قَدَّمَ نَاهُ مِنْ أَرْهَابِ الْمَغْرِبِ وَاللَّهُ مُصَرِّفُ
 الْأُمُورِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

ديوان الرسائل والكتابة

هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ فِي الْمَلِكِ لِاسْتِغْنَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ عَنْهَا رَأْسًا كَمَا فِي
 الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبِدَاوَةِ الَّتِي لَمْ يَأْخُذْهَا تَهْدِيبُ الْحِضَارَةِ وَلَا اسْتِحْكَامُ الصَّنَاعِ وَإِنَّمَا
 أَكَّدَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي الدَّوْلَةِ الْأَيْسَلَامِيَّةِ شَأْنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَالْبَلَاغَةِ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ
 الْمَقَاصِدِ فَصَارَ الْكِتَابُ يُؤَدِّي كُنْهَ الْحَاجَةِ بِأَبْلَغٍ مِنَ الْعِبَارَةِ السَّانِيَّةِ فِي الْأَكْثَرِ
 وَكَانَ الْكَاتِبُ لِلْأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ وَمِنْ عِظَمَاءِ قَبِيلِهِ كَمَا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ وَأَمْرَاءِ
 الصَّخَابَةِ بِالسَّامِ وَالْعِرَاقِ لِعِظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ وَصَارَ
 صِنَاعَةً اخْتِصَّ بِمَنْ يُحْسِنُهُ وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِي الْعَبَّاسِ رَفِيعَةً وَكَانَ الْكَاتِبُ يُصَدِّرُ الْمَحَلَّاتِ
 مُطْلَقَةً وَيَكْتُبُ فِي آخِرِهَا اسْمَهُ وَيَخْتُمُ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ طَائِعٌ مَقْمُوسٌ فِيهِ
 اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ شَارَتْهُ يُعْمَسُ فِي طِينِ أَحْمَرَ مُدَابٍ بِالْمَاءِ وَيُسَمَّى طِينِ الْخَتْمِ
 وَيُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفِي السَّجَلِ عِنْدَ طَيْبِهِ وَالصَّاقِيهِ ثُمَّ صَارَتْ السَّجَلَاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصَدَّرُ
 بِاسْمِ السُّلْطَانِ وَيَضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا عَلَامَتَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا دَلِيَّ حَسَبِ الْإِخْتِيَارِ فِي مَحَلِّهَا
 وَفِي لَفْظِهَا ثُمَّ قَدْ تَنَزَّلَ هَذِهِ الْخُطَّةُ بِأَرْتِفَاعِ الْمَكَانِ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا مِنْ أَهْلِ
 الْمَرَاتِبِ فِي الدَّوْلَةِ أَوْ اسْتَبْدَادِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ فَتَصِيرُ عَلَامَةُ هَذَا الْكِتَابِ مِلْعَاةَ الْحُكْمِ

بِعَلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ يَسْتَدِلُّ بِهَا فَيَكْتُبُ صُورَةَ عَلَامَتِهِ الْمَعْبُودَةِ وَالْحُكْمَ الْعَلَامَةَ ذَلِكَ
 الرَّئِيسِ كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدَّوْلَةِ الْخَفِصِيَّةِ لَمَّا أَرْتَفَعَ شَأْنُ النُّجَابَةِ وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيزِ
 ثُمَّ الْأَسْتِبْدَادِ صَارَ حُكْمُ الْعَلَامَةِ الَّتِي لِلْكَاتِبِ مُلغَى وَصُورَتُهَا ثَابِتَةً إِتْبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا
 فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسِمُ لِلْكَاتِبِ إِمضَاءَ كِتَابِهِ ذَلِكَ بِخَطِّ بِنْعَمِهِ وَيَتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صِيغِ الْإِنْفَازِ
 مَا شَاءَ فَيَأْتِمُرُ الْكَاتِبُ لَهُ وَيَضَعُ الْعَلَامَةَ الْمَعْتَادَةَ وَقَدْ يُخْتَصُّ السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ بِوَضْعِ
 ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَبَدًّا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ فَيَرْسِمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِضَعْفِ عَلَامَتِهِ * وَمِنْ
 خَطِّ الْكِتَابَةِ التَّوْقِيعُ وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيْ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ
 وَفَضْلِهِ وَيُوقِعُ عَلَى الْقِصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهَا حُكَامَهَا وَالْفَصْلَ فِيهَا مُتَلَفَةً مِنَ السُّلْطَانِ بِأَوْجَرِ
 لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ فَإِمَّا أَنْ تَصْدَرَ كَذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ يَخْتَدُوَ الْكَاتِبُ عَلَى مِثَالِهَا فِي سِجْلِ يَكُونُ بِيَدِ
 صَاحِبِ الْقِصَّةِ وَيَحْتَاجُ الْمُوقِعُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبِلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا تَوْقِيعُهُ وَقَدْ كَانَ
 جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوقِعُ فِي الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَيْ الرَّشِيدِ وَيَرْمِي بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا
 فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلْغَاءُ فِي تَخْصِيمِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَالِبِ الْبِلَاغَةِ وَفُنُونِهَا
 حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تَبَاعُ كُلِّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ * وَأَعْلَمُ
 أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخِطَّةِ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْزَعَ طَبَقَاتِ النَّاسِ وَأَهْلَ الْمَرْوَةِ
 وَالْحِشْمَةَ مِنْهُمْ وَزِيَادَةَ الْعِلْمِ وَعَارِضَةَ الْبِلَاغَةِ فَإِنَّهُ مُعَرِّضٌ لِلنَّظَرِ فِي أُصُولِ الْعِلْمِ لِمَا
 يَعْزُضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَشْرَةٌ
 الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ وَالنَّخْلِ بِالْفَضَائِلِ مَعَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ
 مَقَاصِدِ الْكَلَامِ مِنَ الْبِلَاغَةِ وَأَسْرَارِهَا وَقَدْ تَكُونُ الرَّثْبَةُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ مُسْتَنْدَةً
 إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لِمَا يَقْتَضِيهِ طَبِيعُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ
 الْعِصِيَّةِ فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عِصِيَّتِهِ بِخَطِّ دَوْلَتِهِ وَسَائِرِ رُثْبَةِ يَقْلُدُ الْمَالَ وَالسِّيفَ
 وَالْكِتَابَةَ مِنْهُمْ فَأَمَّا رُثْبَةُ السِّيفِ فَتَسْتَعِينُ عَنْ مُعَانَاةِ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْمَالُ وَالْكِتَابَةُ
 فَيَضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ الْبِلَاغَةُ فِي هُدْيِهِ وَالْحِسْبَانُ فِي الْأُخْرَى فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ
 مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ وَيَقْلُدُونَهُ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَكُونُ يَدُ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْعِصِيَّةِ غَالِبَةً
 عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُنْصَرِفًا عَنْ نَظَرِهِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ التَّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ
 فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِ الْإِنْتِشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ يَدِ أَمِيرٍ مِنْ أَهْلِ

عَصِيَّةِ السُّلْطَانِ يُعْرِفُ بِالذَّوِيدَارِ وَتَعْوِيلِ السُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَأَسْتِنَامَتُهُ فِي غَالِبِ
أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَحْوَالِ الْبَلَاغَةِ وَتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكَيْفَانِ الْأَسْرَارِ
وَعَبْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا * وَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي يَلَاخِظُهَا
السُّلْطَانُ فِي اخْتِيَارِهِ وَأَنْتِقَائِهِ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ فَبِهَا كَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مَنْ اسْتَوْعَبَهَا
عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى الْكَتَّابِ وَهِيَ أَمَّا بَعْدُ حَفِظْكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ
صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطِظْكُمْ وَوَفِّقْكُمْ وَأَرْشِدْكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ
الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرَمِينَ
أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً وَصَرَّفْتُمْ فِي صُنُوفِ الصِّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ السُّمُوحَاتِ
إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ فَجَعَلَكُمْ مَعَشَرَ الْكَتَّابِ فِي أَشْرَفِ الْحَيَاتِ
أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَاتِ وَالْعِلْمِ وَالرِّزَانَةِ بِكُمْ يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مُحَاسِنَهَا وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا
وَيُنْصَحَ نَعْمَتُكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ لِلخَاقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمُرُ بُلْدَانَهُمْ لَا يَسْتَغْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ وَلَا
يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمُ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ
وَأَبْصَارُهُمُ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ وَالسِّنْتِيمُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ فَأَمَّعَكُمْ
اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا تَزِعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ
وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَجْوَجَ إِلَى أَجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ وَخِصَالِ
الْفَضْلِ الْمَدْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْكَتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا
الْكَتَّابِ مِنْ صِنْتِكُمْ فَإِنَّ الْكَاتِبَ يَحْتَاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَنْقُ
بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ فِيهَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ مَقْدَامًا
فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ مُخْتِمًا فِي مَوْضِعِ الْأَجْحَامِ مُؤْتِرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ
كَتُومًا لِلْأَسْرَارِ وَفِيًا عِنْدَ الشَّدَائِدِ عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ النَّوَازِلِ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا
وَالطَّوَارِقَ فِي أَمَا كَيْفَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهَا وَإِنْ لَمْ يَحْكَمْهَا أَخَذَ
مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعْرِفُ بَعْرِيزَةَ عَقْلِهِ وَحَسْنَ أَدَبِهِ وَفَضْلَ تَجْرِبَتِهِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ قَبْلَ
وَرُودِهِ وَعَاقِبَتَهُ مَا يَصْدُرُّ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيَعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عِدَّتَهُ وَعَتَادَهُ وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ
وَعَادَتَهُ فَيَتَنَافَسُوا يَا مَعَشَرَ الْكَتَّابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ وَتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَبَدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا تِقَافُ السِّنْتِكُمْ ثُمَّ أَحْيِدُوا الْخُلُظَ فَإِنَّهُ حَلِيَّةُ

كُتِبَ كُمْ وَأَرْوُوا الْأَشْعَارَ وَأَعْرَفُوا غَرَبَهَا وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالنَّجْمَ وَأَحَادِيثَهَا
 وَسِيرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمَعُونَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَا تُضِعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ
 فَإِنَّهُ قَوَامُ كُتَابِ الْخُرَاجِ وَأَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيهَا وَدَنِيهَا وَسَنَسَفِ
 الْأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مِدْلَةٌ لِلرِّقَابِ مُسَدَّةٌ لِلْكِتَابِ وَتَرْهُوَ صِنَاعَتِكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ
 وَأَرْبَابًا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعْيَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَبَالَاتِ وَأَيَّامِكُمْ وَالْكَبِيرِ
 وَالسَّخْفِ وَالْعِظْمَةِ فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَابَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ وَتَحَابُوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ
 وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ الْيَقِي لَأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ
 بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَأَعْظِفُوا عَلَيْهِ وَأَسْوَهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ وَيَتَوَبَّ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ
 أَحَدًا مِنْكُمْ الْكَبِيرَ عَنِ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَرُورُهُ وَعِظْمُوهُ وَسَاوِرُوهُ وَأَسْتَظْهِرُوا
 بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَلِيَكُنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَنَعَهُ وَأَسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ
 حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوْطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنَّ عَرَضَتْ فِي الشُّعْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا يَصْفِيهَا إِلَّا إِلَى
 صَاحِبِهَا وَإِنْ عَرَضَتْ مَدْمَةٌ فَلْيُحْمَلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَيُخَدَّرَ السَّقَطَةُ وَالزَّلَّةُ وَالْمَلَلُ عِنْدَ تَغْيِيرِ
 الْحَالِ فَإِنَّ الْعَيْبَ الْيَكْمَ مَعَشَرَ الْكُتَابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْقِرَاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهْمُ فَقَدْ
 عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْدُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ
 عَلَيْهِ أَنْ يَعْقِدَ لَهُ مِنْ وفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَأَحْسَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَكَيْفَ مَانِ سِرِّهِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ
 مَا هُوَ جَزَاءُ لِحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالْأَضْطِرَّارِ إِلَى مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْرُوا
 ذَلِكَ وَفَقَّكُمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ وَالشَّدَةِ وَالْحَرَمَانِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ
 وَالسَّرَاءِ وَالْفِرَاءِ فَنَعِمَتِ السِّيمَةُ هُدًى مِنْ وَسْمِهَا مِنْ أَهْلِ هُدًى الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا
 وُلِّيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْصِيَرُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ فَلْيُرَاقِبْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤَنِّزْ
 طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا وَالْمُظْلُومِ مُنْصِفًا فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَجْزُهُمْ إِلَيْهِ
 أَرْفَقُهُمْ بَعِيَالِهِ ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا وَلِلْفِيءِ مُؤَفِّرًا وَلِلْبِلَادِ
 عَامِرًا وَلِلرَّعِيَةِ مُتَأَلِّفًا وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفًا وَلِيَكُنْ فِي نَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي سِيَلَاتِ
 خِرَاجِهِ وَأَسْتَقْضَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا وَإِذَا صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فَلْيُخْتَبِرْ خَلَاتِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ
 حُسْنَهَا وَقُبْحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْحُسْنِ وَأَحْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقُبْحِ
 بِاللَّطْفِ حِيلَةٍ وَأَجْمَلَ وَسِيلَةٍ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَيْمَةِ إِذَا كَانَ بَصِيرًا بَسِيسَتِهَا

التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحاً لم يبرجها إذا ركبها وإن كانت شجوباً أنقأها
 من بين يديها وإن خاف منها شروداً توقأها من ناحية رأسها وإن كانت حروراً فمع
 برقي هوأها في طرقها فإن استمرت عطفها يسيراً فبسلس له قيادها وفي هذا الوصف
 من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجرهم ودخلهم والكتاب بفضل
 أدبه وشريف صنعه ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس وبنأضه وبفهم
 عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومدارائه وتقويم أوده من سائس الأبيمة
 التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تهتم خطاباً إلا بقدر ما يبصرها إليه صاحبها
 الرأكب عليها ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر وأعملوا ما أمكنكم فيه من
 الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستئفال والجفوة ويصير
 منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى الموافاة والشفقة إن شاء الله ولا يحاوزن
 الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير
 ذلك من فزون أمر وقدر حقه فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتمكم خدمة
 لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحمل منكم أفعال الضيع والتبذير
 واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا
 متالف السرف وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلها
 وسيما الكتاب وأرباب الآداب والأمر أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على
 مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ثم أسلكوا من مسالك التدبير أو فحها
 محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة وأعلموا أن للتدبير أفة متلفة وهو الوصف الشاغل
 لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من
 منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بجماع حججه فإن ذلك مصالحة لعله
 ومدفعة للشاغل عن إكثاره وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة
 وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن
 الذي برز من جميل صنعه وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد
 تعرض بظننه أو مقاتته إلى أن يكلمه الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير
 كافي وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل

لِعَبِّ التَّدْبِيرِ مِنْ مِرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ
 ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَأَى ظَهْرَهُ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِي
 طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نَعْمِ اللَّهِ جَلَّ تَنَاوُهُ مِنْ غَيْرِ
 اعْتِرَازٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةِ لِنَفْسِهِ وَلَا يُكَاثِرَ عَلَى أُخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ
 وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِالْتَوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَالتَّحَدُّثِ
 بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ مِنْ تَلَزُّمِ النَّصِيحَةِ بِلَزْمِ الْعَمَلِ
 وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغَرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَذَلِكَ
 جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّمْتُهُ بِهِ تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكِتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ
 سَبَقَ عِلْمَهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَبْدِهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

(الشرطة) * وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقَةِ الْحَاكِمِ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ
 الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي وَهِيَ وَظِيفَةٌ مَرُؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ
 فِي الدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَكَانَ أَسْلُ وَضَعَهَا فِي الدَّوْلَةِ
 الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُفْقِئُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَالِ اسْتِبْدَادِهَا أَوَّلًا ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا
 فَإِنَّ التَّهْمَ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلسَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلْمَدِينَةِ
 النَّظَرَ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارِ يَكْرَهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا أَحْتَفَّتْ بِهِ الْقُرَّانُ لِمَا
 تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الْاسْتِبْدَادِ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ
 بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ
 وَالْمَاءِ بِإِطْلَاقٍ وَأَفْرُدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي وَتَنَزَّ هُوَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَقَلَدُوهَا كِبَارُ الْقَوَادِ
 وَعُظَمَاءُ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيدِ فِي طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا كَانَتْ
 حُكْمُهُمْ عَلَى الدَّهْمَاءِ وَأَهْلِ الرَّيْبِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الرَّعَاعِ وَالْفَجْرَةِ ثُمَّ عَظُمَتْ
 نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَنُوعَتْ إِلَى شَرْطَةِ كِبْرَى وَشَرْطَةِ صُغْرَى وَجُعِلَ
 حُكْمُ الْكِبْرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَاللَّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ
 وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الظَّلَامَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ
 وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّغْرَى مَخْصُوصًا بِالْعَامَّةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ الْكِبْرَى كُرْسِيُّ بَابِ دَارِ
 السُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّؤُنَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَضَرُّفِهِ وَكَانَتْ

وَلَا يَتَّبِعُهَا لِأَكْبَرِ مِنْ رَجَالَاتِ الدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحًا لِلوَزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ
 وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِالْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حِظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُهَا
 عَامَةً وَكَانَ لَا يَلْبِسُهَا إِلَّا رَجَالَاتُ الْمُوحِدِينَ وَكِبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحْكُمُ عَلَى أَهْلِ
 الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمَ مَنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رَجَالِ الْمُوحِدِينَ وَصَارَتْ
 وَلَا يَتَّبِعُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ الْمُصْطَنَعِينَ وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ
 فَوَلَّيْتَهَا فِي بِيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ أَصْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِي رَجَالَاتِ
 التُّرْكِ أَوْ عَاقِبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ التُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَ مِنْهُمْ لَهَا فِي النَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ
 مِنَ الصَّلَابَةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأَحْكَامِ لِقَطْعِ مَوَادِّ الْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ الذَّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ
 مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا نَقَضَ بِهِ رِعَايَةَ
 الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ
 (قيادة الاساطيل) * وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَخِطَطِهَا فِي مَلِكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيْقِيَّةِ
 وَمَرْؤَسَةِ إِصْحَابِ السَّيْفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبِهَا فِي
 عَرَفِهِمُ الْبَلْمَنْدُ بِتَفْخِيمِ الْأَمِّ مَنقُولًا مِنْ لُغَةِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ فَإِنَّهُ اسْمُهَا فِي أَصْطِلَاحِ لُغَتِهِمْ
 وَإِنَّمَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ بِمَلِكِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمَا جَمِيعًا عَلَى ضِفَّةِ الْبَحْرِ
 الرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادِ الْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ مِنْ سَبْتَةِ إِلَى
 الشَّامِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالرُّومِ إِلَى بِلَادِ
 الشَّامِ أَيْضًا وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالْبَحْرُ الشَّامِيُّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدُوتِهِ وَالسَّاكِنُونَ
 بِسَيْفِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدُوتِهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لَا تَعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ
 الْبَحَارِ فَقَدْ كَانَتْ الرُّومُ وَالْإِفْرَنْجِيَّةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدُوتِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
 وَكَانَتْ أَكْثَرَ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ فَكَانُوا مَهْرَةً فِي رُكُوبِهِ وَالْحَرْبُ فِي
 السَّاطِئِ وَلَمَّا آسَفَ مِنْ أَسْفَ مِنْهُمْ إِلَى مَلِكِ الْعُدُوتِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ الرُّومِ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ
 وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا وَتَعَلَّبُوا عَلَى الْبَرْبَرِ بِهَا وَانْتَزَعُوا
 مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا الْمُدُنُ الْحَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجِنَةَ وَسَبِطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمَرِنَاقَ
 وَشَرِشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجِنَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبِيعُ
 الْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِالْعَسَاكِرِ وَالْعِدَدِ فَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ

ألسا كين حفايه معروفه في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر
 ابن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن صف لي البحر نكتب إليه
 إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فأوعز حينئذ بنع المسلمين
 من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب إلا من أفتت على عمر في ركوبه ونال من
 عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزدي سيد بجيلة لما أغراه عمان فبلغه غزوه
 في البحر فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا
 كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسب في ذلك
 أن العرب لبداهتهم لم يكونوا مهرة في ثقافته وركوبه والرؤم والأفرنجة لما رستهم
 أحواله ومر بأهم في التقلب على أعواده مرتوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته فلما
 استقر الملك للعرب وشح سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتمت أيديهم
 وتقرّب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم
 البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته واستخدموا بصراء بها فشرهوا إلى
 الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأطوها
 العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر وأختصوا بذلك من ممالكمهم
 وتغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس
 وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل أفريقية بأخذ دار صناعة
 بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصا نلى مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام
 زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيما وفتح
 قوصرة أيضا في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج أعزى صقلية أيام معاوية بن
 أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتح على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات
 وكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية والأندلس في دولة العبيد بين والأمويين نتعاقب
 إلى الإديهما في سبيل التمتنة فتجوس خلال السواحل بالإنفاس والتخريب وأنهى
 أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى ما تنى مركب أو نحوها وأسطول
 أفريقية كذلك مثله أو قريبا منه وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن دماحس
 ومرأها للخط والإفلاع بجاية والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك

مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تُتَّخَذُ فِيهِ السُّفُنُ اسْتَطُولُ يَرْجِعُ نَظْرَهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ النُّوَابِيَةِ يُدِيرُ أَمْرَ حَرْبِهِ
 وَسِلَاحِهِ وَمَقَاتِلَتِهِ وَرَأْسُ يُدِيرُ أَمْرَ جَرِيَّتِهِ بِالرَّيْحِ أَوْ بِالْمَجَازِفِ وَأَمْرَ إِزْسَائِهِ فِي
 مَرْفَئِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لَغْزٍ وَمُخْتَفِلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِيٍّ مِهِمَّ عَسَكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا
 الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادَ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيَهُ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ
 مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يَسِرُّهُمْ لَوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ
 أَيَّامَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالغَنِيمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هَذَا
 الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَرَائِهِ وَعَظُمَتِ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلأَمْرِ النَّصْرَانِيَّةِ
 قَبْلَ بِأَسَاطِيلِهِمْ شَيْءٌ مِنْ جَرَائِهِ وَأَمْتَطَوْا ظَهْرَهُ لِفَتْحِ سَائِرِ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمْ
 الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالغَنَائِمِ وَمَالِكُوا سَائِرِ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةَ عَنِ السَّوَاخِلِ
 فِيهِ مِثْلَ مَيُورِقَةَ وَمُنُورِقَةَ وَيَابَسَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ وَصِقْلِيَّةَ وَقَوْصِرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَفْرِيطِشَ
 وَقَبْرَسَ وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّيْبِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ
 أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنُودَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالغَنِيمَةِ وَافْتَتَحَ مُجَاهِدٌ الْعَامِرِيُّ
 صَاحِبُ دَانِيَّةٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سِرْدَانِيَّةِ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ
 وَأَرْبَعِينَ النَّصَارَى لَوْفَتْهَا وَالْمُسْلِمُونَ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هَذَا
 الْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَّةً وَذَاهِبَةً وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِي
 الْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقْلِيَّةِ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمَقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدُودِ الشَّمَالِيَّةِ تَتَوَقَّعُ بِمُلُوكِ
 الْإِفْرَنْجِ وَتُشْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحُسَيْنِ مُلُوكِ صِقْلِيَّةِ الْقَائِمِينَ
 فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَأَخْجَزَتْ أُمَّمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَنَابِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ
 مِنْهُ مِنْ سَوَاخِلِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لِأَعْدُونِهَا وَأَسَاطِيلِ الْمُسْلِمِينَ
 قَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءُ الْأَسَدِ عَلَى فَرِيستِهِ وَقَدْ مَلَأَتْ الْأَكْثَرُ مِنْ بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ
 عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِي طُرُقِهِ سَلْمًا وَحَرْبًا فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ الْوَاخُ حَتَّى إِذَا
 ادْرَكَتِ الدَّوْلَةُ الْعَبِيدِيَّةُ وَالْأُمُويَّةُ الْفُشْلُ وَالْوَهْنُ وَطَرَقَهَا الْأَعْتِلَالُ مَدَّ النَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ
 إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقْلِيَّةِ وَأَفْرِيطِشَ وَمَالِطَةَ فَمَلِكُوها ثُمَّ أَحْوَجُوا عَلَى سَوَاخِلِ الشَّامِ
 فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ وَمَلِكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّاكَ وَأَسْتَمُولُوا عَلَى جَمِيعِ النُّغُورِ
 بِسَوَاخِلِ الشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبَنُوا عَلَيْهِ كَنِيْسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

بَنِي خَزْرُونَ عَلَى طَرَابُلُسٍ ثُمَّ عَلَى قَائِسٍ وَصَفَائِسٍ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمُ الْحِزْبَةَ ثُمَّ مَلَكَوا الْمَهْدِيَةَ مَقَرَّ
 مَلُوكِ الْعَبِيدِيِّينَ مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بَلَكِينِ بْنِ زَيْرِي وَكَانَتْ لَهُمْ فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ
 الْكُرَّةُ بِهَذَا الْبَحْرِ وَضَعَتْ شَانَ الْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ إِلَى أَنْ انْقَطَعَ وَلَمْ
 يَعْتَنُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبِيدِيَّةِ عِنَايَةٌ تَجَاوَزَتْ
 الْحَدَّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ فَبَطَلَ رَسْمُ هَذِهِ الْوَلُؤَيْفَةِ هُنَاكَ وَبَقِيَتْ
 بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا وَكَانَ الْجَانِبُ الْغَرْبِيُّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ثَابِتَ الْقُوَّةَ لَمْ يَضْعِفْهُ عَدُوٌّ وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كُرَّةٌ فَكَانَ قَائِدُ
 الْأُسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لِمْتُونَةَ بَنِي مَيْمُونٍ رُؤَسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسٍ وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا
 عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَانْتَهَى عَدَدُ أُسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ بِلَادِ
 الْعُدُوتَيْنِ جَمِيعًا * وَلَمَّا اسْتَمْتَحَلَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَمَلَكَوا
 الْعُدُوتَيْنِ أَقَامُوا خِطَّةَ هَذَا الْأُسْطُولِ عَلَى أُمَّ مَاعُرِفَ وَأَعْظَمَ مَا عَهْدَ وَكَانَ قَائِدُ
 أُسْطُولِهِمْ أَحْمَدُ الصَّقَلِيُّ أَصْلُهُ مِنْ صَدِّ غِيَارِ الْمُؤْطِنِينَ بِجَزِيرَةِ سِرُوكِشِ اسْرَهُ النَّصَارَى
 مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبِّي عِنْدَهُمْ وَاسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صَقْلِيَّةِ وَاسْتَكْفَاهُ ثُمَّ هَلَكَ وَوَلِيَ ابْنُهُ
 فَأَسْخَطَهُ بَعْضُ التَّرْعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَحِقَ بِتُونَسَ وَنَزَلَ عَلَى السَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي
 عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَأَجَازَ مَرَائِشَ فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِالْمَبْرَةِ
 وَالْكَرَامَةِ وَأَجْزَلَ الصَّلَةَ وَقَدَّهَ أَمْرَ أُسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أُمَّ النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَتْ
 لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ * وَانْتَهَتْ أُسَاطِيلُ
 الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالِاسْتِحَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ فِيمَا
 عَهْدَنَاهُ وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ بِاسْتَرْجَاعِ
 نُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ أُمَّ النَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَتَابَعَتْ أُسَاطِيلُهُمْ بِالْمَدَدِ
 لِتِلْكَ التَّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانُوا قَدِ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ فَاْمُدُّوهُمْ
 بِالْعَدَدِ وَالْأَقْوَاتِ وَلَمْ يُقَاوِمُوهُمْ أُسَاطِيلُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ لِاسْتِمْرَارِ الْغَلْبِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ
 الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْبَحْرِ وَتَعَدَّدَ أُسَاطِيلُهُمْ فِيهِ وَضَعَفَ الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ
 عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ فَأَوْفَدَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ
 سُلْطَانَ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُوحِدِينَ رَسُولَهُ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ

مُلُوكٍ شِيزَرٍ وَكَانَ مَلِكُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَبَقِيَ عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ فَبَعَثَ عَبْدُ الْمُنْصِرِيِّمِ مِنْهُمْ
 هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ لِتَحْوُلِ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْأَجَانِبِ
 وَبَيْنَ مَرَاهِمِ مِنْ أَمْدَادِ النَّصْرَانِيَّةِ بِتُغُورِ الشَّامِ وَأَصْحَبَةِ كِتَابِهِ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ
 الْفَاضِلِ الْيَسَاسِيِّ يَقُولُ فِي أَفْتِنَا حِهِ فَتَحَ اللَّهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ وَالْمَيَامِنِ حَسْبَمَا
 نَقَلَهُ الْعَمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيِّ فَتَقِمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ نَجَافِيهِمْ عَنْ
 خَطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاجِحِ الْبَرِّ وَالْمَكْرَامَةِ وَرَدَّهُمْ
 إِلَى مَرْسُلِهِمْ وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ
 بِالْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِي الْأَجَانِبِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْأَسْتِطَالَةِ وَعَدَمِ
 عَنَايَةِ الدَّوْلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِنِشَانِ الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْأَسْتِعْدَادِ
 مِنْهَا لِلدَّوْلَةِ وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ وَأَعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ وَأَسْتَوْلَتْ أُمُومُ
 الْجَلَالِقَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَاوِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَمَلَكَوا
 الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْأَجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسِطِ هَذَا الْبَحْرِ وَأَشَدَّتْ
 شَوْكَتُهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمَسَاوَاةِ مَعَهُمْ
 كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ
 مَرَامِهِ الْجِهَادِ مِثْلَ عُدَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي
 الْأَسَاطِيلِ لِضَعْفِ الدَّوْلَةِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدْوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَانْقِطَاعِ
 الْعَوَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجْعِ النَّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمُ الْمَعْرُوفِ مِنَ الدُّرْبَةِ فِيهِ وَالْمِرَانِ
 عَلَيْهِ وَالْبَصْرَ بِأَحْوَالِهِ وَعَاقِبِ الْأُمَمِ فِي لُجَّتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ
 الْأَقْلِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمُ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ
 وَالْأَعْوَانِ أَوْ قَلَّةً مِنَ الدَّوْلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا وَتَوْضِيحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ مَسْلَكًا
 وَبَقِيَتْ الرُّتْبَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدَّوْلَةِ الْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةً وَارْتَسَمَ فِي مَعَانَاةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ
 وَالرُّكُوبِ مَعْبُودًا لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَّةُ مِنَ الْأَعْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ
 الْبَحْرِيَّةِ وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَرْهِنُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَمِنَ الْمَشْهُورِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
 عَنْ كُتُبِ الْخُدَاتَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكِرَّةِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ وَأَفْتِنَا حِهِ مَا وَرَاءَ
 الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على امره الا ان الحاجة في اول الدولة الى السيف ما دام أهلها في تمهيد امرهم اشد من الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فحتاج الدولة الى الاستظهار بأزباب السيف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن اول الامر في تمهيدها فيكون للسيف منية على القلم في الحالتين ويكون أزباب السيف حينئذ اوسع جاهاً وأكثر نعمة واسنى اقطاعاً واما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لانه قد تمهد امره ولم يبق هممه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصرفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع اغمارها الا اذا انابت نائبة او دعت الى سد فرجة ومما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون أزباب الافلام في هذه الحاجة اوسع جاهاً واعلى رتبة واعظم نعمة وثروة واقرب من السلطان مجلساً وأكثر اليه تردداً وفي خلواته نجياً لانه حينئذ الته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر الى اعطافه وثقيف اطرافه والمباهاة بأحواله ويكون الوزراء حينئذ واهل السيوف مستغني عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على انفسهم من بوارده * وفي معنى ذلك ما كتب به ابو مسلم المنصور حين امره بالقدوم اما بعد فانه مما حفظناه من وصايا الفرس اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهما سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى اعلم

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

اعلم ان للسلطان شارات واحوالاً اقتصمها الابهة والبذخ فيختص بها ويتميز

بِأَنْعَالِهَا عَنِ الرَّعِيَّةِ وَالْبَطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَأَنْدَكُرُ مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ مِنْهَا
بِمَبْلَغِ الْمَعْرِفَةِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ
الآلة * فَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ اتِّخَاذُ آلَاةٍ مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّيَاثِ وَقَرَعِ الطُّبُولِ
وَالنَّفْحِ فِي الْأَبْوَاقِ وَالْفُرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أَرِسْطُو فِي الْكِتَابِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ
أَنَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ إِرْهَابُ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ
بِالرُّوعَةِ وَالْعَمْرِي إِنَّهُ أَمْرٌ وَجَدَانِيٌّ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَهَذَا
السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ فَهُوَ صَحِيحٌ بَعْضُ الْأَعْتِبَارَاتِ * وَأَمَّا
الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النِّعَمِ وَالْأَصْوَاتِ يَدْرِكُهَا الْفَرَحُ وَالطَّرَبُ بِلَا
شَكٍّ فَيُصِيبُ مَزَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَسْمِلُ بِهَا الصَّعْبَ وَيَسْتَمِيتُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ
الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ بِأَنْفِعَالِ الْإِبِلِ بِالْحِدَاءِ وَالْخَيْلِ
بِالضَّرْبِ وَالصَّرِيحِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتْ الْأَصْوَاتُ مُنَاسِبَةً كَمَا
فِي الْغِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَحْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى لِأَجْلِ ذَلِكَ نَتَّخِذُ الْعُجْمَ فِي
مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةَ ^(١) لَا طَبَالًا وَلَا بَوَاقًا فَيَحْدِقُ الْمَغْنُونُ بِالسُّلْطَانِ فِي
مَوْكِبِهِ بِالْأَتَمِّ وَيَغْنُونُ فَيَجْرُ كَوْنُ نَفُوسِ الشُّجْعَانِ بَضْرِبِهِمْ إِلَى الْأَسْتِمَانَةِ وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا فِي
حُرُوبِ الْعَرَبِ مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ الْمَوْكِبِ بِالشَّعْرِ وَيُطْرِبُ فَيُجْلِسُ هُمُ الْإِبْطَالُ بِمَا فِيهَا
وَيَسَارِعُونَ إِلَى تَجَالِ الْحَرْبِ وَيَنْبَعِثُ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى قَوْمِهِ وَكَذَلِكَ زِنَانَةٌ مِنْ أُمَّةِ الْمَغْرِبِ
يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّنُوفِ وَيَتَغَنَّى فَيَجْرُكَ بِغِنَائِهِ الْجِبَالَ الرَّوَّاسِيَّ وَيَبْعَثُ عَلَى
الْأَسْتِمَانَةِ مَنْ لَا يَظُنُّ بِهَا وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ الْغِنَاءَ تَأْصُوكَايَ وَأَصْلُهُ كَلَّةٌ فَرَحٌ يَحْدُثُ فِي
النَّفْسِ فَتَنْبَعِثُ عَنْهُ الشُّجَاعَةُ كَمَا تَنْبَعِثُ عَنْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ بِمَا حَدَّثَ عَنْهَا مِنَ الْفَرَحِ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ وَأَمَّا تَكْثِيرُ الرِّيَاثِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطَالَتُهَا فَأَقْصَدُ بِهِ التَّهْوِيلَ لِأَنَّ كَثْرَتَهُ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ
فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي الْأَقْدَامِ وَأَحْوَالِ النُّفُوسِ وَتَلْوِينَاتُهَا غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ * ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالذُّوُلَ يَخْتَلِفُونَ فِي اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّارَاتِ فَمِنْهُمْ مَكْثَرٌ وَمِنْهُمْ
مَقْلِلٌ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ وَعَظَمِهَا فَأَمَّا الرِّيَاثُ فَإِنَّهَا شِعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيقَةِ

(١) فولة موسيقية وفي نسخة المرسية رية وهي صحبحة لاس الموسيقى بكر الالف بين التخبين اسم للنغم
والانحان وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر اول سفينة الشيخ محمد شهاب

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْفَزَوَاتِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ * وَأَمَّا قُرْعُ الطُّبُولِ وَالنَّفْعُ فِي الْأَبْوَابِ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ
الْمَلَّةِ مُتَجَانِفِينَ عَنْهُ تَنْزَهَا عَنْ غِلْظَةِ الْمَلِكِ وَرَفُضًا لِأَحْوَالِهِ وَاحْتِقَارًا لِأَبِيهِ الَّتِي لَبَسَتْ
مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ مَلِكًا وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَا بَسْمَهُمْ
الْمَوَالِي مِنَ الْفَرَسِ وَالرُّومِ أَهْلِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ وَأَرْوَاهُمْ مَا كَانَ أَوْلَكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ
مَذَاهِبِ الْبَدْعِ وَالتَّرَفِ فَكَانَ مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذُ الْأَلَةِ فَآخَذُواهَا وَأَذِنُوا لِعَمَالِهِمْ
فِي اتِّخَاذِهَا تَتْوِيهَا بِالْمَلِكِ وَأَهْلِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ التَّعَرُّ أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ
يَعْقِدُ لَهُ الْخِلَافَةَ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ أَوِ الْعَبِيدِيِّينَ لَوَاءَهُ وَيُخْرِجُ إِلَى بَعْتِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ
الْخِلَافَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوَكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ الرَّيَّاتِ وَالْآلَاتِ فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَوَكِبِ الْعَامِلِ
وَالْخِلَافَةِ إِلَّا بِكثيرةِ الْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا أَوْ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الْخِلَافَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ لِرَأْيَتِهِ كَالسُّوَادِ
فِي رَيَّاتِ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَيَّاتِهِمْ كَانَتْ سُودًا حُرًّا عَلَى شَهَدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَنَعِيمًا
عَلَى بَنِي أُمِيَّةٍ فِي قَتْلِهِمْ وَلِذَلِكَ سُمُّوا الْمَسُودَةَ * وَلَمَّا أَفْتَرَقَ أَمْرُ الْأَهَاشِمِيِّينَ وَخَرَجَ
الطُّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصَرَ ذَهَبُوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ فَاتَّخَذُوا
الرَّيَّاتِ بِيضًا وَسُمُّوا الْمَيْضَةَ لِذَلِكَ سَازَرُ أَيَّامِ الْعَبِيدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ الطُّالِبِيِّينَ فِي
ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالْمَسْرِقِ كَالدَّاعِي بِطَبْرِسْتَانَ وَدَاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا إِلَى بَدْعِ الرَّافِضَةِ
مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرَامِطَةَ وَلَمَّا نَزَعَ الْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ السُّوَادِ وَسَعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى
لَوْنِ الْخَضْرَاءِ فَجَعَلَ رَأْيَتَهُ خَضْرَاءَ وَأَمَّا الْأَسْتِكْبَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ
أَلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ الْعَزِيزُ إِلَى قَتْمِ الشَّامِ خَمْسِمِائَةَ مِنَ الْبُنُودِ وَخَمْسِمِائَةَ مِنَ
الْأَبْوَابِ وَأَمَّا مَلُوكُ الْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يُخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ
وَشَوْهَا بِالذَّهَبِ وَاتَّخَذُوا مِنَ الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مَلُونَةً وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْأَذْنِ فِيهَا لِعَمَالِهِمْ
حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَانَةِ قَصْرُوا الْأَلَةَ مِنَ الطُّبُولِ وَالْبُنُودِ
عَلَى السُّلْطَانَ وَحَظَرُواهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عَمَالِهِ وَجَمَلُوا لَهَا مَوَكِبًا خَاصًّا يَتَّبِعُ أَثَرَ السُّلْطَانَ
فِي مَسِيرِهِ يُسَمَّى السَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مَكْثَرٍ وَمَقْلٍ بِأَخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي ذَلِكَ
فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ الْعُدَدِ تَبَرُّكَ أَسْبَعَةٍ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَبَنِي
الْأَحْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَشْرَةَ وَالْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَانَةِ وَقَدْ بَلَغَتْ فِي

أَيَّامِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحُسَيْنِ فِيمَا أَدْرَكَ نَاهُ مِائَةً مِنَ الطُّبُولِ وَمِائَةً مِنَ الْبُنُودِ مَلُونَةً
بِالْحَرِيرِ مَسُوجَةً بِالذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَا ذُنُونَ لِلْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ وَالْقَوَادِ فِي
اتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْكُتْمَانِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ الْحَرْبِ لَا يَتَجَاوَزُونَ
ذَلِكَ وَامَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً وَفِي رَأْسِهَا
خِصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشَّعْرِ يُسَمُّونَهَا الشَّالِشَ وَالْجُزْرَ وَهِيَ شَعَارُ السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ اتَّعَدُّ
الرَّايَاتُ وَيُسَمُّونَهَا السَّنَاجِقَ وَاحِدُهَا سَنَجِقٌ وَهِيَ الرَّايَةُ بِلِسَانِهِمْ. وَامَّا الطُّبُولُ فَيُبَالِغُونَ
فِي الْأَسْتِكْثَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا الْكُوسَاتِ وَيُبِيحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدِ عَسْكَرٍ أَنْ
يَتَّخِذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا الْجُزْرَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالسُّلْطَانِ. وَامَّا الْجَلَالِقَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ
أُمَّمِ الْأَفْرَنْجِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمْ اتِّخَاذُ الْأَلْوِيَةِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةٍ فِي أَنْجُو صُعدَا
وَمَعَهَا قَرَعُ الْأَوْتَارِ مِنَ الطَّنَابِيرِ وَتَفْحُ الْغِيَطَاتِ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ الْغِنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مِوَاتِنِ
حُرُوبِهِمْ هَكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مَلُوكِ الْعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ

(السريين) . وَامَّا السَّرِيرُ وَالْمَنْبِرُ وَالتَّخْتُ وَالْكُرْسِيُّ فِيهَا أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَانِكٌ
مَنْصُودَةٌ جُلُوسُ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا مِنْ تَفْعَةٍ عَنْ أَهْلِ تَجْلِسِهِ أَنْ يَسَاوِيَهُمْ فِي الصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ
ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دَوْلِ الْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسْرَّةِ الذَّهَبِ
وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ كُرْسِيُّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ
إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ الدُّوَلُ إِلَّا بَعْدَ الْأَسْتِخْمَالِ وَالتَّرَفِ شَانَ الْأَهْبَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا
وَامَّا فِي أَوَّلِ الدُّوَلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ
مَعَاوِيَةُ وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ بَدَنْتُ فَأَذِنُوا لَهُ فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ
الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأَهْبَةِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِيِ بِمِصْرَ يَجْلِسُ
فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُقَوِّسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ
مَحْمُولٌ عَلَى الْأَيْدِي جُلُوسِهِ شَانَ الْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلَا يَغْيُرُونَ عَلَيْهِ وَفَاءً لَهُ
بِمَا اعْتَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ الدِّمَّةِ وَأَطْرَاحًا لِأَهْبَةِ الْمَلِكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبنِي الْعَبَّاسِ
وَالْعَبِيدِيَّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ الْأَسْرَةِ وَالْمَنَابِرِ وَالتَّخُوتِ مَا عَفَا عَنِ
الْأَكْسَرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(السكة) وهي الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس يطاع حديد ينقش
 فيه صوراً أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الديار أو الدرهم فنخرج رسوم تلك النقوش
 عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد
 أخرى وبعد تقدير اشخاص الدرهم والدنانير بوزن معين صحيح يظلم عليه فيكون
 التعامل بها عدداً وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً ولفظ السكة كان اسماً
 للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير
 والدرهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة
 فصارت علماً عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص
 من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها العيش بختم
 السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل
 تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدا أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع
 أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم . ولما جاء الإسلام
 أغفل ذلك لسداجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً وكانت
 دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون
 بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدرهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر
 عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدرهم وتمييز
 المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين
 ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد
 ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد
 القسري في تجوئها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدرهم
 مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله كما ولي الحجاز وكتب عليها
 في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة
 وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن
 الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دنانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع
 درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أَيَّامِ الْفَرَسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عَشْرُونَ قِيرَاطًا وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ
 وَمِنْهَا عَشْرَةٌ فَلَمَّا أَحْتِيجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزَّكَاةِ أُخِذَ الْاَوْسَطُ وَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ قِيرَاطًا
 فَكَانَ الْمِثْقَالُ دِرْهَمًا وَثَلَاثَةَ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٍ وَقِيلَ كَانَ مِنْهَا الْبُغْلِيُّ ثِمَانِيَةً دَوَانِقَ
 وَالطَّبْرِيُّ أَرْبَعَةَ دَوَانِقَ وَالْمَغْرِبِيُّ ثِمَانِيَةً دَوَانِقَ وَالْيَمَنِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يُنْظَرَ
 الْأَغْلَبُ فِي التَّعَامُلِ فَكَانَ الْبُغْلِيُّ وَالطَّبْرِيُّ اثْنَيْ عَشَرَ دَانِقًا وَكَانَ الدِّرْهَمُ سِتَّةَ
 دَوَانِقَ وَإِنْ زِدْتَ ثَلَاثَةَ أَسْبَاعِهِ كَانَ مِثْقَالًا وَإِذَا انْقَصَتْ ثَلَاثَةُ أَغْشَارِ الْمِثْقَالِ كَانَ
 دِرْهَمًا فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ اتِّخَاذَ السِّكَّةِ لِصِيَانَةِ التَّقْدِينِ الْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ
 الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغَشِّ عَيْنَ مِقْدَارِهَا عَلَى هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَاتَّخَذَ فِيهِ كَلِمَاتٍ لَا صُورًا لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَ الْكَلَامَ وَالْبَلَاغَةَ أَقْرَبَ مَنَاحِيهِمْ وَأَظْهَرَهَا
 مَعَ أَنَّ الشَّرْعَ يَنْهَى عَنِ الصُّورِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَمَرَ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَيَّامِ الْمَلَةِ كَلِمًا
 وَكَانَ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مُدَوَّرَيْنِ وَالْكِتَابَةُ عَلَيْهِمَا فِي دَوَائِرٍ مُتَوَازِيَةٍ
 يُكْتَبُ فِيهَا مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَصَلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وَفِي
 الْوَجْهِ الْأُخْرَى التَّارِيخُ وَأَسْمُ الْخُلَيْفَةِ وَكَذَا أَيَّامُ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْعَبِيدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ
 وَأَمَّا صَنْهَاجُهُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا سِكَّةً إِلَّا آخِرَ الْأَمْرِ اتَّخَذَهَا مَنْصُورٌ صَاحِبُ بَيْجَاهُ ذَكَرَ ذَلِكَ
 ابْنُ حَمَادٍ فِي تَارِيخِهِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ كَانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ الْمَهْدِيُّ اتِّخَاذَ
 سِكَّةِ الدِّرْهَمِ مَرْبَعِ الشَّكْلِ وَأَنْ يُرَسَمَ فِي دَائِرَةِ الدِّينَارِ شَكْلُ مَرْبَعٍ فِي وَسْطِهِ
 وَيَمْلَأَنَّ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَمِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ كِتَابًا فِي السُّطُورِ بِاسْمِهِ
 وَأَسْمِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَنَعَلَ ذَلِكَ الْمُوَحِّدُونَ وَكَانَتْ سِكَّتُهُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَقَدْ كَانَ الْمَهْدِيُّ فِيمَا يُنْقَلُ يَنْتَعُ قَبْلَ ظُهُورِهِ بِصَاحِبِ الدِّرْهَمِ الْمَرْبَعِ نَعْتَهُ بِذَلِكَ
 الْمَتَكَلِّمُونَ بِالْحَدِثَانِ مِنْ قَبْلِهِ الْمُخْبِرُونَ فِي مَلَاحِمِهِمْ عَنْ دَوْلَتِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ فَسَكَّتَهُمْ غَيْرُ مَقْدَرَةٍ وَإِنَّمَا يَتَعَامَلُونَ بِالْدَنَانِيرِ وَالدِّرَاهِمِ وَزَنًا بِالصَّنَجَاتِ
 الْمَقْدَرَةِ بَعْدَهُ مِنْهَا وَلَا يَطْبَعُونَ عَلَيْهَا بِالسِّكَّةِ نَقُوشَ الْكَلِمَاتِ بِالتَّهْلِيلِ وَالصَّلَاةِ وَأَسْمِ
 السُّلْطَانِ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
 وَلِتُخْتَمَ الْكَلَامَ فِي السِّكَّةِ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ الشَّرْعِيَيْنِ وَيَبَانَ
 حَقِيقَةُ مِقْدَارِهِمَا

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ مُخْتَلَفَا السِّكَّةِ فِي الْمَقْدَارِ وَالْمَوَازِينِ بِالْأَفَاقِ
 وَالْأَمْصَارِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالشَّرْعُ قَدْ تَعَرَّضَ لِذِكْرِهِمَا وَعَلَّقَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ
 بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بُدَّ لَهُمَا عِنْدَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَمَقْدَارٍ
 مَعِينٍ فِي تَقْدِيرِ تَجْرِي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُ دُونَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ
 مُتَعَقِّدٌ مِنْهُ صَدْرَ الْإِسْلَامِ وَعَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالنَّابِعِينَ أَنَّ الدِّرْهَمَ الشَّرْعِيُّ هُوَ الَّذِي تَزَنُ
 الْعَشْرَةُ مِنْهُ سَبْعَةٌ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَوْثِقَةُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا وَهُوَ عَلَى هَذَا سَبْعَةُ
 أَعْشَارِ الدِّينَارِ وَوَزْنُ الْمِثْقَالِ مِنَ الذَّهَبِ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ فَالدِّرْهَمُ
 الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَعْشَارِهِ خَمْسُونَ حَبَّةً وَخُمْسًا حَبَّةً وَهَذِهِ الْمَقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْإِجْمَاعِ
 فَإِنَّ الدِّرْهَمَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْوَاعٍ أَجْوَدَهَا الطَّبْرِيُّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقٍ وَالْبَغْلِيُّ
 وَهُوَ ثَمَانِيَةٌ دَوَانِقٍ لَجَعَلُوا الشَّرْعِيَّ بَيْنَهُمَا وَهُوَ سِتَّةُ دَوَانِقٍ فَكَانُوا يُوجِبُونَ الزَّكَاةَ
 فِي مِائَةِ دِرْهَمٍ بَغْلِيَّةً وَمِائَةِ طَبْرِيَّةٍ خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ وَسَطًا وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ
 كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ إِجْمَاعِ النَّاسِ بَعْدَ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ .
 ذَكَرَ ذَلِكَ الْأَخْطَامُ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ السَّنَنِ وَالْمَاوَزِدِيُّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ
 وَأَنْكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِمَا يَلْزِمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ الشَّرْعِيَّانِ
 مَجْهُولَيْنِ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مَعَ تَعَلُّقِ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي الزَّكَاةِ
 وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَأَحَقُّ أَنْهُمَا كَانَا مَعْلُومِي الْمَقْدَارِ فِي ذَلِكَ
 الْعَصْرِ لِحُرْيَانِ الْأَحْكَامِ يَوْمئِذٍ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنَ الْحُقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُسَخَّصٍ
 فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارِفًا بَيْنَهُمْ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمَقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا
 وَزَنْتَهُمَا حَتَّى اسْتَفْحَلَ الْإِسْلَامُ وَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ وَدَعَتِ الْحَالُ إِلَى تَشْخِصِهِمَا فِي
 الْمَقْدَارِ وَالْوِزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كَلْفَةِ التَّقْدِيرِ وَقَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي الذَّهْنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا
 السِّكَّةَ بِاسْمِهِ وَتَأْرِيخِهِ أَنْزَلَ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ رَأْسًا
 حَتَّى خَلَصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكَّةً وَتَلَاثَى وَجُودَهَا فِهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ
 وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السِّكَّةِ فِي الدَّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمَقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي
 الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَاخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَفْطَارِ وَالْأَفَاقِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مِقَادِيرِهِمَا

الشَّرْعِيَّةَ ذَهْنًا كَمَا كَانَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أُمَّةٍ يَسْتَخْرِجُونَ الْحَقُّوقَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ سَكَّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النَّسَبِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ الدِّيْنَارِ بِأَثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ الْوَسَطِ فَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ إِلَّا ابْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ حَبَّةً . نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْحَقِّ وَرَدَّهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَدُوهُ وَهَمًّا وَعَلَطًا وَهُوَ الصَّحِيحُ وَاللَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَلِكَ تَعَلَّمَ أَنَّ الْأَوْفِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْمُتَعَارَفَةُ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْمُتَعَارَفَةَ مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْأَفْطَارِ وَالشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةٌ ذَهْنًا لَا اخْتِلَافَ فِيهَا وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا

(الخاتم) وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ الْخَطِّطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْوُضَائِفِ الْمُلُوكِيَّةِ وَالْخَتْمُ عَلَى الرَّسَائِلِ وَالصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ قَيْلِ لَهُ إِنْ النَّعْجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ الْبُخَارِيُّ جَعَلَ الثَّلَاثَ الْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَخَتَمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَيْتِ أَرِيَسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةً الْمَاءُ فَلَمْ يُدْرِكْ قَعْرُهَا بَعْدَ وَأَعْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتْمِ بِهِ وَجُوهٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْأَلَةِ الَّتِي يُجْعَلُ فِي الْأَصْبَعِ وَمِنْهُ يَخْتَمُ إِذَا لَبَسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى النَّهَائِيَّةِ وَالنَّعْمِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا بَلَّغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ الْقُرْآنَ كَذَلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ الْأَمْرِ وَيُطْلَقُ عَلَى السَّدَادِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي وَالذَّنَانِ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى خِتَامُهُ مِسْكٌ وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالنَّهَائِيَّةِ وَالنَّعْمِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَاهِمِهِمْ رِيحُ الْمِسْكِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخِتَامِ الَّذِي هُوَ السَّدَادُ لِأَنَّ الْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي الدِّنِّ سَدَادٌ الطِّينِ أَوْ الْقَارِ يُحْفَظُهَا وَيُطَيَّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقُهَا فَبُورِغٌ فِي وَصْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بَأَنَّ سَدَادَهَا مِنَ الْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ الْقَارِ وَالطِّينِ الْمَعْبُودِينَ فِي الدُّنْيَا فَذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كَلِمَاتِهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى آخِرِهَا النَّاشِئِ عَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نَقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مِدْفَافٍ مِنَ الطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ الْقُرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ

فِي ذَلِكَ الصَّنْحِ وَكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمِ لَبْنٍ كَالشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ
 الْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتُهَا وَارْتَسَمَتْ فَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى
 إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ مِنَ الْيَمْنَى وَقَدْ يَقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيَمْنَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ
 مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى لِأَنَّ الْخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي الصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ
 أَوْ يَسَارٍ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخَتْمُ بِهَذَا الْخَتْمِ بَعْمَسِهِ فِي الْمِدَادِ أَوْ الطِّينِ وَوَضَعَهُ
 فِي الصَّفْحِ فَتَنْتَقِشُ الْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النَّهَايَةِ وَالْتِمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذَلِكَ
 الْمَكْتُوبِ وَتَفْوِذِهِ كَانَ الْكِتَابُ إِنَّمَا يَتِمُّ الْعَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا
 مُعْنَى لَيْسَ بِتِمَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَتْمُ بِالْخَطِّ آخِرَ الْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ
 مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ
 شَيْءٍ مِنْ نَوْعِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عِلْمًا عَلَى صِحَّةِ الْكِتَابِ وَتَفْوِذِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي
 الْمُتَعَارِفِ عِلْمًا وَيُسَمَّى خَتْمًا تَسْبِيحًا لَهُ بِأَثَرِ الْخَتْمِ الْأَصْنَى فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا
 خَاتَمُ الْفَاطِمِيِّ الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُضُومِ أَيَّ عِلْمَتَهُ وَخَطَّهُ الَّذِي يُنْفِذُ بِهِمَا أَحْكَامَهُ
 وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْخَلِيفَةِ أَيَّ عِلْمَتَهُ قَالَ الرَّشِيدُ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ
 يَسْتَوِزَرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَيِّهِمَا يَحْيَى يَا أَبْتَ إِنِّي أَرَدْتُ
 أَنْ أَحُولَ الْخَتْمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي فَكُنِّي لَهُ بِالْخَتْمِ عَنِ الْوِزَارَةِ لِمَا كَانَتْ الْعِلْمَةُ
 عَلَى الرَّسَائِلِ وَالصُّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ الْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَتَهَدُّ لَصِحَّةِ هَذَا الْإِطْلَاقِ مَا
 نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى الْحُسَيْنِ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي الصُّلْحِ صَحِيفَةً بِيضَاءَ
 خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ أَشْرَطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ
 فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى الْخَتْمِ هُنَا عِلْمَةُ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ
 فِي جِسْمِ لَبْنٍ فَتَنْتَقِشُ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ الْحُزْمِ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُزِمَ
 وَعَلَى الْمَوَدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ السَّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي الْوَجْهِينِ أَتَارُ الْخَتْمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ
 خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ الْخَتْمَ عَلَى الْكِتَابِ أَيَّ الْعِلْمَةَ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لِعَمْرَ بْنَ لُزَيْبٍ
 عِنْدَ زِيَادٍ بِالْكَوْفَةِ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَتَحَ الْكِتَابَ وَصَيَّرَ الْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادَ حِسَابَهُ
 فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ بِهَا عُمَرَ وَحَسَبَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَتَّخَذَ مُعَاوِيَةُ
 عِنْدَ ذَلِكَ دِيْوَانَ الْخَتْمِ ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ الْكِتَابَ وَلَمْ تَكُنْ

مُحْزَمٌ أَي جَعَلَ لَهَا السَّادَ وَدِيَوَانَ خَتَمَ عِبَارَةٌ عَنِ الْكُتَّابِ الْقَائِمِينَ عَلَى إِنْقَازِ
 كُتُبِ السُّلْطَانِ وَالْخَتَمِ عَلَيْهَا إِمَّا بِالْعَلَامَةِ أَوْ بِالْحَزْمِ وَقَدْ يُطْلَقُ الدِّيَوَانُ عَلَى مَكَانِ
 جُلُوسِ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي دِيَوَانِ الْأَعْمَالِ وَالْحَزْمُ لِلْكَتُبِ يَكُونُ
 أَمَّا يَدَسُّ الْوَرَقِ كَمَا فِي عَرَفِ كِتَابِ الْمَغْرِبِ وَإِمَّا بِإِصْطِقِ رَأْسِ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا
 تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْكُتَابِ كَمَا فِي عَرَفِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ الدَّسِّ أَوْ
 الْإِصْطِقِ عِلَامَةٌ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ فَتْحِهِ وَالْإِطْلَاقِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ الْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى
 مَكَانِ الدَّسِّ قِطْعَةً مِنَ الشَّمْعِ وَيَخْتَمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمٍ نَقَشَتْ فِيهِ عِلَامَةٌ لِذَلِكَ فَيَرْتَسِمُ
 النَّقْشُ فِي الشَّمْعِ وَكَانَ فِي الْمَشْرِقِ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ اللَّصِقِ بِخَاتَمٍ
 مَقْفُوشٍ أَيْضًا فَذَغَمِيسٌ فِي مَدَائِفِ مِنَ الطِّينِ مَعْدِنٌ لِذَلِكَ صَبَغُهُ أَحْمَرَ فَيَرْتَسِمُ ذَلِكَ
 النَّقْشُ عَلَيْهِ وَكَانَ هَذَا الطِّينُ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِينِ الْخَتَمِ وَكَانَ يُجَلَّبُ مِنْ
 سِدْرَافٍ فَيُظْهِرُ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهَذَا الْخَاتَمُ الَّذِي هُوَ الْعِلَامَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَوْ النَّقْشُ
 لِلسَّادِ وَالْحَزْمُ لِلْكَتُبِ خَاصٌّ بِدِيَوَانِ الرِّسَالِ وَكَانَ ذَلِكَ لِلْوَزِيرِ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
 ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعَرَفُ وَصَارَ لِمَنِ إِلَيْهِ التَّرْسِيلُ وَدِيَوَانُ الْكُتَّابِ فِي الدُّوَلَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي
 دَوْلِ الْمَغْرِبِ يَعُدُّونَ مِنْ عِلَامَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ الْخَاتَمَ لِلإِصْبَعِ فَيَسْتَجِيدُونَ صَوْنَهُ
 مِنَ الذَّهَبِ وَيُرْصَعُونَهُ بِالْفُصُوصِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْفَيْرُوزِجِ وَالزُّمْرُودِ وَيَلْبَسُهُ السُّلْطَانُ
 شَارَةً فِي عَرَفِهِمْ كَمَا كَانَتْ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْمِظَلَّةُ فِي الدُّوَلَةِ
 الْعَبِيدِيَّةِ وَاللَّهُ مَصْرِفُ الْأُمُورِ بِحُكْمِهِ

(الطراز) * مِنْ أَهْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَمَدَاهِبِ الدُّوَلِ أَنْ تُرْسَمَ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ
 عِلَامَاتُ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طِرَازِ أَثْوَابِهِمْ الْمَعْدِنَةُ لِلْبَاسِمِهِمْ مِنَ الْحَرِيرِ أَوْ الدَّبِيحِ أَوْ
 الْأَبْرِيسِمِ تُعْتَبَرُ كِتَابَةٌ خَطَّهَا فِي نَسْجِ الثَّوْبِ الْحَمَامُ وَإِسْدَاءٌ بِخَيْطِ الذَّهَبِ أَوْ مَا يُخَالِفُ
 لَوْنِ الثَّوْبِ مِنَ الْخَيْطِ الْمَلَوْتَةِ مِنْ غَيْرِ الذَّهَبِ عَلَى مَا يُحْكِمُهُ الصَّنَاعُ فِي تَقْدِيرِ ذَلِكَ
 وَوَضْعِهِ فِي صِنَاعَةِ نَسْجِهِمْ فَتَصِيرُ الثِّيَابُ الْمَلُوكِيَّةُ مَعْلَمَةً بِذَلِكَ الطَّرَازِ قَصْدَ التَّنْوِيهِ
 بِالإِسْبَهَاءِ مِنَ السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ أَوْ التَّنْوِيهِ بِمَنْ يَخْتَصُّهُ السُّلْطَانُ بِمَلْبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ
 تَسْرِيفَهُ بِذَلِكَ أَوْ وِلَايَتَهُ لَوْظِيفَةً مِنْ وِظَائِفِ دَوْلَتِهِ وَكَانَ مَلُوكُ الْعَجَمِ مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ
 يَجْعَلُونَ ذَلِكَ الطَّرَازَ بِصُورِ الْمَلُوكِ وَأَشْكَالِهِمْ أَوْ أَشْكَالِ وَصُورِ مَعِينَةٍ لِذَلِكَ ثُمَّ

اعْتَضَ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بَكْتَبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي تَجْرِي
 الْقَالِ أَوْ السَّجِلَاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أُمَّةِ الْأُمُورِ وَأَنْفِ الْأَحْوَالِ وَكَانَتْ
 الدُّورُ الْمُعَدَّةُ لِنَسْحِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ الطَّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى
 النَّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ الطَّرَازِ يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الصَّبَاغِ وَالْأَلَّةِ وَالْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ
 أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ الْإِتْمَانِ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا يَقْلُدُونَ ذَلِكَ لِنُحُوصِ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ
 مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي
 دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ لَمَّا صَاقَ
 نِطَاقُ الدُّوَلِ عَنِ التَّرَفِ وَالنَّفَنِ فِيهِ لِيُصِيقَ نِطَاقَهَا فِي الْأَسْتِيْلَاءِ وَتَعَدَّتِ الدُّوَلُ تَعَطَّلتْ
 هَذِهِ الوُضُوفَةُ وَالْوَلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ الدُّوَلِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ
 بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلَ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لَمَّا كَانُوا
 عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّدَاجَةِ الَّتِي لَقْنُوهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدَ بْنَ نُومَرْتِ الْمَهْدِيِّ
 وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ لِبَاسِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الوُضُوفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَاسْتَدْرَكَ
 مِنْهَا أَعْقَابَهُمْ أُخْرَى الدَّوْلَةَ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ التَّبَاهَةِ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ فَأَدْرَكْنَا بِالْمَغْرِبِ
 فِي الدَّوْلَةِ الْمُرَبِّيَّةِ لِعُنْفُونِهَا وَشُمُوحِهَا رَسْمًا جَلِيلًا لَقْنُوهَا مِنْ دَوْلَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ مُعَاصِرِهِمْ
 بِالْأَنْدَلُسِ وَاتَّبَعَ هُوَ فِي ذَلِكَ مُلُوكُ الطَّوَائِفِ فَأَتَى مِنْهُ بِسَخْمَةِ شَاهِدَةٍ بِالْأَثَرِ وَأَمَّا دَوْلَةُ
 التُّرْكَ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَفِيهَا مِنَ الطَّرَازِ تَجْرِي أَوْخَرُ عَلَى مَقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمُرَانِ
 بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُصْنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ وَضَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا
 يَنْسَجُ مَا تَطْلُبُهُ الدَّوْلَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صِنَاعِهِ مِنَ الْحَرِيرِ وَمِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَيُسَمُّونَهُ
 الْمَرْزُكَشَ لَفِظَةً أَعْجَمِيَّةً وَيُرْسَمُ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَبَعْدَهُ الصَّنَاعُ لَهُمْ فِيمَا
 يُعْدُونَهُ لِلدَّوْلَةِ مِنْ طَرَفِ الصَّنَاعَةِ الْإِتِّقَةِ بِهَا وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفساطيط والسياج

اعْلَمَنَّ أَنَّ مِنْ شَرَاتِ الْمُلْكِ وَتَرْفِهِ اتِّخَاذُ الْأَخْبِيَّةِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالْفَارَاتِ مِنْ نِيَابِ
 الْكُتَّانِ وَالصُّوفِ وَالنُّظُنِّ فَيُبَاهِي بِهَا فِي الْأَسْفَارِ وَتَتَوَعُّ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرِ
 وَصَغِيرِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ فِي التَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ فِي يَوْمِهِمْ
 الَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِاتِّخَاذِهَا قَبْلَ الْمُلْكِ وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ

انما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف ولم تنزل العرب لذلك
 العهد بادين الا الاقل منهم فكانت اسنارهم لغزواتهم وحرورهم بطعونهم وسائر
 حللهم واحياءهم من الالهل والوليد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم
 لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن
 نظر صاحبه من الاخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقية
 تحشد الناس على اثره ان يقيموا اذا ظعن ونقل انه استعمل في ذلك الحجاج حين
 اشار به روح بن زبناغ وقصتهما في احراق فساطيط روح وخيامه لاول ولايته
 حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف
 رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى ايرادهم على الظعن الا من يامن بوادى
 السفهاء من احيائهم بما له من العصية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك
 بهذه الرتبة ثقة بغنايه فيها بعصيته وصرامته فلما تفتت الدولة العربية في مذاهب
 الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى
 القصور ومن ظهر الخفت الى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في اسفارهم ثياب الكتان
 يستعملون منها بيوتاً مختلفة الاشكال مقدره الامثال من القوزاء والمستطيلة والمربعة
 ويحتفلون فيها بابلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير والقائد للعساكر على
 فساطيطه وفازاته من بينهم سجاجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي
 هو لسان اهل افراك بالكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون
 لغيره. واما في المشرق فيتخذ كل امير وان كان دون السلطان ثم جعت الدعة
 بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم نجف لذلك ظهرهم وتقاربت السجاج
 بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسطة
 زهواً ايقاً لاختلاف الوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بدخيا وتر فيها
 وكذا كانت دولة الموحدين وزناته التي اظلمت التي اظلمت كان سفرهم اول امرهم في بيوت سكناهم
 قبل الملك من الخيام والقياطين حتى اذا اخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى
 القصور وعادوا الى سكنى الاخبية والفساطيط بلغوا من ذلك فوق ما ارادوه وهو من
 الترف بمسكان الا ان العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم

فِيهِ الصِّحْحَةُ وَلِحَفَّتِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ الَّذِينَ تَكُونُ الْأِسْمَانَةُ دُونَهُمْ فَيَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى مَحْنَطٍ آخَرَ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ اخْتِلَافِيَّةٍ وَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ الْأِسْلَامِيِّ وَلَمْ يُعْرَفْ فِي غَيْرِ دَوْلِ الْأِسْلَامِ . فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ السُّلْطَانِ فَيَتَّخِذُ سِيَجَاً عَلَى الْخُرَابِ فَيَحُورُهُ وَمَا يَلِيهِ فَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَنِيَانَ حِينَ طَعَنَهُ الْخَارِجِيُّ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مَرُوانُ بْنُ الْحَكَمِ حِينَ طَعَنَهُ الْيَمَانِيُّ ثُمَّ اتَّخَذَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمْيِيزِ السُّلْطَانِ عَنِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ حُصُولِ التَّرَفِّ فِي الدُّوَلِ وَالْإِسْتِخْلَالَ شَأْنِ أَحْوَالِ الْأَبِيَّةِ كُلِّهَا وَمَا زَالَ الشَّانُ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الْأِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا وَعِنْدَ انْفِرَاقِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَعَدُّ الدُّوَلِ بِالْمَشْرِقِ وَكَلْدًا بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَتَعَدُّ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَكَانَ بَنُو الْأَغْلَبِ يَتَّخِذُونَهَا بِالْقَيْرَوَانَ ثُمَّ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدِيُّونَ ثُمَّ وَلاَتِهِمْ عَلَى الْمَغْرِبِ مِنْ صَنَاهُجَةَ بَنُو بَادِيسَ بِنَافَسَ وَبَنُو حَمَادٍ بِالْقَلْعَةِ ثُمَّ مَلِكُ الْمُوحِدُونَ سَائِرَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَنَحْوَهُ ذَلِكَ الرَّسْمُ عَلَى طَرِيقَةِ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ شِعَارُهُمْ وَلَمَّا اسْتَفْجَلَتِ الدَّوْلَةُ وَأَخَذَتْ بِمَحْطَظِهَا مِنَ التَّرَفِّ وَجَاءَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ثَالِثُ مُلُوكِهِمْ فَأَتَّخَذَ هَذِهِ الْمَقْصُورَةَ وَبَقِيَتْ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّةً لِمُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَهَكَذَا كَانَ الشَّانُ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ سُنَّةً لِلَّهِ فِي عِبَادِهِ . وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْخِطْبَةِ فَكَانَ الشَّانُ أَوَّلًا عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَلايَةَ الصَّلَاةِ بِأَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا يَدْعُونَ لِذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرِّضَى عَنْ أَصْحَابِهِ وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْمَنَابِرَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَنَى جَامِعَهُ بِمِصْرَ وَأَوَّلُ مَنْ دَعَا لِلْخُلَيْفَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ ابْنُ عَبَّاسٍ دَعَا الْعَلِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي خِطْبَتِهِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ عَامِلٌ لَهُ عَلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْصُرْ عَلِيًّا عَلَى الْحَقِّ وَاتَّصِلْ الْعَمَلَ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ وَبَعْدَ أَخَذِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ الْمَنَابِرَ بَلَّغَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمَا بَعْدُ فَقَدْ بَلَّغْتَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مَنَابِرًا تَرْتَفِي بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقَبِكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ فَلَمَّا حَدَّثَتْ الْأَبِيَّةُ وَحَدَّثَتْ فِي الْخُلَفَاءِ الْمَانِعِ مِنَ الْخِطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنْابُوا

فِيهَا فَكَانَ الْخَطِيبُ يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمَنِيرِ تَوْبِيهَا بِاسْمِهِ وَدَعَاءَ لَهُ بِمَا جَعَلَ
 اللَّهُ مَصْحَحَ الْعَالَمِ فِيهِ وَلَانَ تِلْكَ السَّاعَةَ مَظَنَّةً لِلْإِجَابَةِ وَلِمَا ثَبَتَ عَنِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ
 مَنْ كَانَتْ لَهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ فَلْيَضَعْهَا فِي السُّلْطَانِ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفْرَدُ بِذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَ
 الْحَجْرُ وَالْإِسْتِبْدَادُ صَارَ الْمُتَغَابِرُونَ عَلَى الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يُشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ
 وَيُشَادُّ بِأَسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ وَذَهَبَ ذَلِكَ بِذَهَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ
 السُّلْطَانِ بِالْإِدْعَاءِ لَهُ عَلَى الْمَنِيرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ وَحَظَرَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهِ أَحَدٌ أَوْ يَسْتَوْ
 إِلَيْهِ وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا الرَّسْمَ عِنْدَ مَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي
 اسْتِلْبَاقِ الْغَضَاظَةِ وَمَنَاحِي الْبِدَاوَةِ فِي التَّعَاوُلِ وَالْحُسُونَةِ وَيَقْنَعُونَ بِالْإِدْعَاءِ عَلَى الْإِبْهَامِ
 وَالْإِجْمَالِ لِمَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَيُسَمُّونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخَطْبَةَ إِذَا كَانَتْ عَلَى هَذَا
 الْمَنْحَى عَبَّاسِيَّةً يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعَبَّاسِيَّ تَقْلِيدًا فِي
 ذَلِكَ لِمَا سَلَفَتْ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا يَحْفَلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَعْيِينِهِ وَالتَّصْرِيحِ بِاسْمِهِ يُحْكِي
 أَنَّ يَغْمُرَ اسِنَّ بْنِ زِيَانَ عَاهِدَ دَوْلَةَ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ لَمَّا غَلَبَهُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَاءَ بَيْهِي بْنِ
 أَبِي حَنْصِ عَلَى تَلْمَسَانَ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى شَرْوِطٍ شَرْطَهَا كَانَ فِيهَا
 ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ فَقَالَ يَغْمُرَ اسِنَّ تِلْكَ أَعْوَادُهُمْ يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مَنْ شَاءَ وَ
 وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ عَاهِدَ دَوْلَةَ بَنِي مُرِينَ حَضَرَهُ رَسُولُ الْمُنتَصِرِ الْخَلِيفَةِ
 يَتُونِسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَنْصِ وَتَالَتْ مَلُوكِهِمْ وَتَخَلَّفَ بَعْضَ أَيَّامِهِ عَنْ شَهْرِ الْجُمُعَةِ فَقِيلَ
 لَهُ لَمْ يَحْضُرْ هَذَا الرَّسُولُ كَرَاهِيَةَ لُحُلِ الْخَطْبَةِ مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِهِ فَأَذِنَ فِي الدُّعَاءِ لَهُ
 وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي بَدَايَتِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الْغَضَاظَةِ
 وَالْبِدَاوَةِ فَإِذَا انْتَبَهَتْ عِيُونَ سِيَاسَتِهِمْ وَنَظَرُوا فِي أَعْطَافِ مَلِكِهِمْ وَأَسْتَحْشَوْا شِيَأَتِ
 الْحِضَارَةِ وَمَفَائِي الْبَدَخِ وَالْأَبْهَةِ اتَّحَلُّوا جَمِيعَ هَذِهِ السِّيَأَتِ وَتَفَنَّنُوا فِيهَا وَتَجَارَوْا إِلَى
 غَايَتِهَا وَأَقْفُوا مِنَ الْمَشَارِكَةِ فِيهَا وَجَزَعُوا مِنْ أَفْتِقَادِهَا وَخَلَوْا دَوْلَتِهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَالْعَالَمُ
 بُسْتَانٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الامم وترتيبها

اعْلَمَنَّ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تَزَلْ وَاقِعَةً فِي الْخَلِيقَةِ مُنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ وَأَصْلَهَا

إِرَادَةَ انْتِقَامِ بَعْضِ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَعَصَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا أَهْلٌ عَصِيَّتِهِ فَإِذَا تَدَامَرُوا لِذَلِكَ
 وَتَوَافَقَتِ الطَّائِفَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَطَلَّبُ الْإِنْتِقَامِ وَالْآخَرَى تُدَافِعُ كَأَنَّ الْحَرْبَ وَهُوَ أَمْرٌ
 طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا تَخْلُوعُهُ أُمَّةٌ وَلَا حِيلٌ وَسَبَبُ هَذَا الْإِنْتِقَامِ فِي الْأَكْثَرِ إِمَّا غَيْرَةٌ
 وَمُنَافَسَةٌ وَإِمَّا عُدْوَانٌ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلْمَلِكِ وَسَعْيٌ فِي تَمْهِيدِهِ
 فَلِأَوَّلِ أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِرَةِ وَالْعَشَائِرِ الْمُتَنَازِرَةِ وَالثَّانِي وَهُوَ
 الْعُدْوَانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأُمَّةِ الْوَحْشِيَّةِ السَّاكِنِينَ بِالْقَفْرِ كَالْعَرَبِ وَالْتُرْكِ
 وَالْتُرْكُمَانِ وَالْأَكْرَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ وَمَعَانِهِمْ نِيحًا
 بِأَيْدِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ أَذْنُوهُ بِالْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ فِيهَا وَرَأَى ذَلِكَ مِنْ
 رُتْبَةٍ وَلَا مَلِكٍ وَإِنَّمَا هُمُومٌ وَنُصْبٌ أَعْيُنُهُمْ غَلَبَ النَّاسِ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالثَّلَاثُ هُوَ
 الْمُسْمَى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ وَالرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ الدُّوَلِ مَعَ الْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَالْمَالِعِينَ
 لَطَاعَتِهَا فَبِهِدِهِ أَرْبَعُ أَصْنَافٍ مِنَ الْحُرُوبِ الصَّنِفَانِ الْأَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بُغْيٍ وَفِتْنَةٍ
 وَالصَّنِفَانِ الْآخِرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِنْفَةُ الْحُرُوبِ الْوَأَفَعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ مِنْذُ
 أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى نَوْعَيْنِ نَوْعٍ بِالرَّحْفِ صُنُوفًا وَنَوْعٍ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ أَمَّا الَّذِي بِالرَّحْفِ
 فَهُوَ قِتَالُ الْعُجَمِ كُلِّهِمْ عَلَى تَعَاقُبِ أَجْيَالِهِمْ وَأَمَّا الَّذِي بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ الْعَرَبِ
 وَالْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَقِتَالُ الرَّحْفِ أَوْثَقُ وَأَشَدُّ مِنْ قِتَالِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَذَلِكَ
 لِأَنَّ قِتَالَ الرَّحْفِ تَرْتَّبُ فِيهِ الصُّنُوفُ وَتُسَوَّى كَمَا تُسَوَّى الْقِدَاحُ أَوْ صُنُوفُ الصَّلَاةِ
 وَيَمْسُونَ بِصُفُوفِهِمْ إِلَى الْعُدُوِّ قَدَمًا فَلِذَلِكَ تَكُونُ أَنْتَبَتْ عِنْدَ الْمَصَارِعِ وَأَصْدَقُ فِي
 الْقِتَالِ وَأَرْهَبُ لِلْعُدُوِّ لِأَنَّهُ كَالْحَائِطِ الْمُمْتَدِّ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ لَا يُطْمَعُ فِي إِزَالَتِهِ وَفِي
 التَّنْزِيلِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَنًا كَانَتْهُمْ بَيْنَانُ مَرْضُوضٍ أَيْ يَشُدُّ
 بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَاتِ وَفِي الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا
 وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ لَكَ حِكْمَةُ إِجْبَابِ الثَّبَاتِ وَتَحْرِيمِ النُّوَلِيِّ فِي الرَّحْفِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ
 الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ حِفْظَ النِّظَامِ كَمَا قُلْنَا هُ فَمَنْ وُلَّى الْعُدُوَّ ظَهْرَهُ فَقَدْ أَخْلَى بِالْمَصَافِ
 وَبَاءَ بِأَيْشِ الْهَزِيمَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَأَنَّهُ جَرَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا مَكْنُ مِنْهُمْ عُدْوَانُهُمْ
 فَعَظَمَ الذَّنْبُ الْعُمُومَ الْمَفْسُودَةَ وَتَعَدَّىهَا إِلَى الدِّينِ بِحَرْقِ سِيَاحِهِ فَعُدُّ مِنَ الْكِبَارِ وَيَظْهَرُ
 مِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ أَنَّ قِتَالَ الرَّحْفِ أَشَدُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَأَمَّا قِتَالُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ

مِنَ الشَّدَّةِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الرَّحْفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَخَدُونَ وَرَاءَهُمْ فِي
 الْقِتَالِ مَصَافًا ثَابِتًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي الْكُرِّ وَالْفِرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ قِتَالِ الرَّحْفِ كَمَا
 نَذَرُهَا بَعْدُ ثُمَّ إِنَّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودِ الْمُنْسَبَةَ الْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ
 الْجِيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا يُسَمُّونَهَا كِرَادِيسَ وَيُسَوِّونَ فِي كُلِّ كِرْدُوسٍ صُنُوفَهُ وَسَبَبُ
 ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمُ الْكَثِيرَةَ الْبَالِغَةَ وَحَشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النَّوَاحِي اسْتَدْعَى
 ذَلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي نَجَالِ الْحَرْبِ وَأَعْتَوْرُوا مَعَ عَدُوِّهِمُ الطَّعْنَ
 وَالضَّرْبَ يُعَيِّنُ مِنْ تَدَاوُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ التَّنْكَرِ وَجَهْلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذَلِكَ كَانُوا
 يَقْسِمُونَ الْعَسَاكِرَ جُمُوعًا وَيَضْمُونَ الْمُتَعَارِفِينَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ وَيُرْتَبُونَهَا قَرِيبًا مِنَ التَّرْتِيبِ
 الطَّبِيعِيِّ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَرَبِيسُ الْعَسَاكِرِ كُلِّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هَذَا
 التَّرْتِيبَ التَّعْبِيَّةَ وَهُوَ مَذْكَورٌ فِي أَخْبَارِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالدُّوَلَتَيْنِ وَصَدَرَ إِلَّا سَلَامَ فَيَجْعَلُونَ
 بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ عَسْكَرًا مُنْفَرِدًا بِصُنُوفِهِ مَتَمِّيزًا بِقَائِدِهِ وَرَأْيَتِهِ وَسِعَارِهِ وَيَسْمَوْنَ الْمَقْدَمَةَ
 ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ نَاحِيَةِ الْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ الْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ الْمَيْمَنَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا
 آخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ كَذَلِكَ يُسَمُّونَهُ الْمَيْسِرَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ وَرَاءِ الْعَسْكَرِ
 يُسَمُّونَهُ السَّاقَةَ وَيَقِفُ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِفَهُ
 الْقَلْبَ فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هَذَا التَّرْتِيبُ الْحُكْمُ إِمَّا فِي مَدَى وَاحِدٍ لِلْبَصْرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ
 أَكْثَرَهَا الْيَوْمَ وَالْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَمَا أَعْطَاهُ حَالُ الْعَسَاكِرِ فِي
 الْقَلَمَةِ وَالْكَثْرَةَ فَجَمِينْدُ يَكُونُ الرَّحْفُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ التَّعْبِيَّةِ وَأَنْظُرْ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ
 الْفَتْوحَاتِ وَأَخْبَارِ الدُّوَلَتَيْنِ بِالْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتِ الْعَسَاكِرُ لِعَبْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْخَلَفَ
 عَنْ رَحِيلِهِ لِبُعْدِ الْمَدَى فِي التَّعْبِيَّةِ فَأَحْتَجَّ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعَيْنَ ذَلِكَ الْحُجَّاجِ
 ابْنِ يُوسُفَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي الدُّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
 بِالْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا أَدْرَكْنَا دَوْلًا قَلِيلَةَ الْعَسَاكِرِ
 لَا تَنْتَهِي فِي نَجَالِ الْحَرْبِ إِلَى التَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ الْجِيُوشِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مَعًا يَجْمَعُهُمْ
 لَدَيْنَا حَالَةً أَوْ مَدِينَةً وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِرْنَهُ وَيُنَادِيهِ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ بِاسْمِهِ وَلَقَبِهِ
 فَاسْتَعْنَى عَنْ تِلْكَ التَّعْبِيَّةِ

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفِرِّ فِي الْحُرُوبِ ضَرْبُ الْمَصَافِ رِزَاءِ عَسْكَرِهِمْ مِنْ

الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ فَيَتَّخِذُونَهَا مَلْجَأً لِلْخَيْالَةِ فِي كَرِّهِمْ وَفَرِّهِمْ يَطْلُبُونَ بِهِ ثَبَاتَ
 الْمَقَاتِلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ لِلْحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْعَلْبِ وَقَدْ بَعَلَهُ أَهْلُ الرَّحْفِ أَيْضًا
 لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتًا وَشِدَّةً فَقَدْ كَانَ الْفَرَسُ وَهُمْ أَهْلُ الرَّحْفِ يَتَّخِذُونَ الْفِيلَةَ فِي الْحُرُوبِ
 وَيَحْمَلُونَ عَلَيْهَا أَجْرًا مِنَ الْخَشَبِ أَمْثَالِ الصُّرُوحِ مَشْحُونَةً بِالْمَقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ وَالرَّيَاثِ
 وَيَصِفُونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَأَنَّهَا حُصُونٌ فَتَقْوَى بِذَلِكَ نَفْسَهُمْ وَيَزِدَادُ وَثُوقَهُمْ
 وَأَنْظُرُ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَادِسِيَّةِ وَإِنَّ فَارِسَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ أَشْتَدُّوا بِهِمْ عَلَى
 الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَشْتَدَّتْ رِجَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ فَمَخَالِطُومٌ وَبِعَجْوِهَا بِالسُّيُوفِ عَلَى خِرَاطِيمِهَا
 فَفَنَرَتْ وَتَكَصَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى مَرَايِطِهَا بِالْمَدَائِنِ فَجَفَا مَعْسُكُ فَارِسَ لِذَلِكَ وَأَنْهَزُوا
 فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ * وَأَمَّا الرُّومُ وَمَمْلُوكُ الْقُوْطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكْثَرُ الْعَجْمِ فَكَانُوا يَتَّخِذُونَ
 لِذَلِكَ الْأَسْرَةَ يَنْصُبُونَ لِلْمَلِكِ سَرِيرَهُ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ وَيَحْفُ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ وَحَاشِيَتِهِ
 وَجَنُودِهِ مِنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالْإِسْتِمَاتَةِ دُونَهُ وَتُرْفَعُ الرَّيَاثُ فِي أَرْكَانِ السَّرِيرِ وَيُحْدِقُ بِهِ سِيَّاحُ
 آخَرُ مِنَ الرِّمَاءِ وَالرَّجَالَةِ فَيَعْظُمُ هَيْكَلُ السَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِتْنَةً لِلْمَقَاتِلَةِ وَمَلْجَأً لِلْكَرِّ
 وَالْفَرِّ وَجَعَلَ ذَلِكَ الْفَرَسُ أَيَّامَ الْقَادِسِيَّةِ وَكَانَ رُسْتُمُ جَالِسًا عَلَى سَرِيرِ نَصَبَهُ لِحُلُوسِهِ
 حَتَّى اخْتَلَفَتْ صُفُوفُ فَارِسَ وَخَالَطَهُ الْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَلِكَ فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى الْفَرَاتِ وَقَتْلُ *
 وَأَمَّا أَهْلُ الْكُرِّ وَالْفَرِّ مِنَ الْعَرَبِ وَأَكْثَرُ الْأُمَمِ الْبَدَوِيَّةِ الرَّحَالَةَ فَيَصِفُونَ لِذَلِكَ
 إِبْلَهُمْ وَالظَّهْرَ الَّذِي يَحْمِلُ طَاعَانَهُمْ فَيَكُونُ فِتْنَةً لَهُمْ وَيَسْتَوْنَهَا الْحَبُودَةَ وَتِلْسَامَةَ
 مِنَ الْأُمَمِ الْإِلَوهِي تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي حُرُوبِهَا وَتَرَاهُ أَوْتَقَى فِي الْجَوْلَةِ وَأَمِنْ مِنَ الْغَرَّةِ وَالْهَرِيمَةِ
 وَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهِدٌ وَقَدْ أَغْنَيْتَهُ الدُّوْلُ لِعَهْدِنَا بِالْجَمَلَةِ وَأَعْتَاضُوا عَنْهُ بِالظَّهْرِ الْحَامِلِ لِلْإِنْتِقَالِ
 وَالْفَسَاطِيطِ يَجْعَلُونَهَا سَاقَةً مِنْ خَلْفِهِمْ وَلَا تُعْنِي غَنَاءَ الْفِيلَةِ وَالْإِبِلِ فَصَارَتْ الْعَسَاكِرُ
 بِذَلِكَ عُرْضَةً لِلْهَزَائِمِ وَمُسْتَشْعَرَةً لِلْفِرَارِ فِي الْمَوَاقِفِ * وَكَانَ الْحَرْبُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ
 كَلَّةَ زَحْمًا وَكَانَ الْعَرَبُ أَنْمَا يَعْرِفُونَ الْكُرَّ وَالْفَرَّ لَكِنْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَ
 الْإِسْلَامِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ كَانُوا يَقَاتِلُونَ زَحْفًا فَيَضْطَرُّونَ إِلَى مَقَاتِلَتِهِمْ
 بِمِثْلِ قِتَالِهِمْ الثَّانِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَمْتِعِينَ فِي جِهَادِهِمْ لِمَا رَغِبُوا فِيهِ مِنَ الصَّبْرِ وَلِمَا رَسَخَ
 فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالزَّحْفِ إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ أَقْرَبُ * وَأَوَّلُ مَنْ أَبْطَلَ الصَّفَّ فِي الْحُرُوبِ
 وَصَارَ إِلَى التَّعْبِثَةِ كِرَادِيْسَ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ فِي قِتَالِ الضَّحَّاكِ الْخَارِجِيِّ وَالْجَبْرِيِّ بَعْدَهُ

قَالَ الطَّبْرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ الْجَبْرِ بِي قَوْلِي الْخَوَارِجِ عَلَيْهِمْ شَيْبَانَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 الشُّكْرِيِّ وَيَلْقَبُ أَبَا الدَّفْلَاءِ قَاتَلَهُمْ مَرْوَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْكَرَادِيسِ وَأَبْطَلَ الصَّفَّ مِنْ
 يَوْمَيْدٍ أَنْتَهَى فَنُومِي قِتَالَ الزَّحْفِ بِأَبْطَالِ الصَّفِّ ثُمَّ تَنُومِي الصَّفِّ وَرَاءَ الْمُقَاتَلَةِ بِمَا
 دَاخَلَ الدُّوَلُ مِنَ التَّرَفِ وَذَلِكَ أَنَّهَا حِينَمَا كَانَتْ بَدْوِيَّةً وَسَكَنَتْهُمْ الْخِيَامُ كَانُوا
 يَسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْإِبِلِ وَسَكَنِي النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ مَعَهُمْ فِي الْأَحْيَاءِ فَلَمَّا حَصَلُوا عَلَى تَرْفِ
 الْمُلْكِ وَالْفَوَاسِكُنِي الْقُصُورِ وَالْحَوَاضِرِ وَتَرَكُوا شَأْنَ الْبَادِيَةِ وَالْقَفَرِ نَسُوا لِذَلِكَ عَهْدَ الْإِبِلِ
 وَالظُّعَانَ وَصَعَبَ عَلَيْهِمْ اتِّخَاذُهَا فَخَلَفُوا النِّسَاءَ فِي الْأَسْفَارِ وَحَمَلَهُمُ الْمُلْكَ وَالتَّرَفَ عَلَى اتِّخَاذِ
 الْفَسَاطِيطِ وَالْأَخْبِيَةِ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الظُّهْرِ الْحَامِلِ لِلْإِنْقَالِ ^(١) وَالْأَبْنِيَّةِ وَكَانَ ذَلِكَ صَنْتَهُمْ فِي
 الْحَرْبِ وَلَا يَغْنِي كُلَّ الْعِنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَى الْأَسْتِجَانَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا الْأَهْلُ وَالْمَالُ فَيَخْفُ
 الصَّبْرُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَتَضَرُّ فِيهِمُ الْهَوَاعِثُ وَتُخْرَمُ صُفُوفُهُمْ وَلِمَا ذَكَرْنَا مِنْ ضَرْبِ الْمَصَافِ
 وَرَاءَ الْعَسَاكِرِ وَتَأْكُدهِ فِي قِتَالِ الْكِرِّ وَالْفَرِّ صَارَ مُلُوكُ الْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنَ
 الْإِفْرَنْجِ فِي جُنْدِهِمْ وَأَخْتَصُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كُلِّهِ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ وَالسُّلْطَانَ
 يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ ضَرْبُ الْمَصَافِ لِيَكُونَ رَدًّا لِلْمُقَاتَلَةِ أَمَامَةً فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذَلِكَ
 الصَّفِّ مِنْ قَوْمٍ مَتَّعُوا دِينَ الثَّبَاتِ فِي الزَّحْفِ وَإِلَّا أَجْفَلُوا عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكِرِّ وَالْفَرِّ
 فَانْهَزَمَ السُّلْطَانُ وَالْعَسَاكِرُ بِأَجْفَالِهِمْ فَاحْتِاجَ الْمُلُوكُ بِالْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ الْمُتَعَوِّدَةِ الثَّبَاتِ فِي الزَّحْفِ وَهُمْ الْإِفْرَنْجُ وَيُرْتَبُونَ مَصَافَهُمْ الْمُحَدِّقِينَ مِنْهَا هَذَا عَلَى مَا
 فِيهِ مِنَ الْأَسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ وَإِنَّهُمْ اسْتَخَفُّوا ذَلِكَ لِلْفُرُورَةِ الَّتِي أَرَيْنَا كَمَا مِنْ
 تَخُوفِ الْإِجْتِمَاعِ عَلَى مَصَافِ السُّلْطَانَ وَالْإِفْرَنْجِ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الثَّبَاتِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّ
 عَادَتَهُمْ فِي الْقِتَالِ الزَّحْفُ فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَعَ أَنَّ الْمُلُوكَ فِي الْمَغْرِبِ
 إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَرْبِ مَعَ أُمَّةِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ وَقِتَالَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَأَمَّا فِي الْجِهَادِ
 فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذَرًا مِنْ مُمَالَاتِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ
 أَبَدْنَا سَبَبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَبَاغْنَا أَنْ أُمَّةَ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ قِتَالَهُمْ مُنَاصَلَةً
 بِالسَّهَامِ وَأَنَّ تَعْبِيَةَ الْحَرْبِ عِنْدَهُمْ بِالْمَصَافِ وَأَنَّهُمْ يُقْسِمُونَ بِثَلَاثَةِ صُفُوفٍ يَضْرِبُونَ
 صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خِيُولِهِمْ وَيَقْرَعُونَ سَهَامَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَتَنَاضَلُونَ

١ ! قولة للأنفال والابنية مراده بالابنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل المحدق الاتي قريبا اذا نزلوا وضربوا بينهم هـ

جُلُوسًا وَكُلُّ رَدِيٍّ لِلَّذِي أَمَامَهُ أَنْ يَكْتَسِبَهُمُ الْعَدُوُّ إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ النَّصْرُ لِاحْتِدَى الطَّائِفَتَيْنِ
 عَلَى الْأُخْرَى وَهِيَ تَعْبَةُ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ * وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَوَّلِ فِي حُرُوبِهِمْ حَفَرُ
 الْخُنَادِقِ عَلَى مَعْسُكِهِمْ عِنْدَ مَا يَتَقَارَبُونَ لِلزَّحْفِ حِدْرًا مِنْ مَعْرَةِ الْبِيَاتِ وَالْهَجْمِ عَلَى
 الْعَسْكَرِ بِاللَّيْلِ لِمَا فِي ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مَضَاعِفَةِ الْخُوفِ فَيَلْوِذُ الْجَيْشُ بِالْفَرَارِ
 وَيَجِدُ النَّفْسُ فِي الظُّلْمَةِ سِتْرًا مِنْ عَارِهِ فَإِذَا تَسَاوَوْا فِي ذَلِكَ أَرْجَفَ الْعَسْكَرُ وَوَقَعَتْ
 الْأَهْزِيمَةُ فَكَانُوا لِلذَّكَ يَحْتَفِرُونَ الْخُنَادِقَ عَلَى مَعْسُكِهِمْ إِذَا نَزَلُوا وَضَرَبُوا أَبْنِيَهُمْ
 وَيُدِيرُونَ الْحَفَائِرَ نَطَاقًا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ حَرِصًا أَنْ يُخَالِطَهُمُ الْعَدُوُّ بِالْبِيَاتِ
 فَيَتَخَذَلُوا وَكَانَتْ لِلدُّوَلِ فِي أُمَمَالِ هَذَا قُوَّةٌ وَعَلَيْهِ اقْتِدَارٌ بِاحْتِشَادِ الرَّجَالِ وَجَمْعِ
 الْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وَفُورِ الْعُمَرَانِ وَضَخَامَةِ الْمَلَكَ
 فَلَمَّا خَرِبَ الْعُمَرَانُ وَتَبِعَهُ ضَعْفُ الدُّوَلِ وَقَلَّةُ الْجُنُودِ وَعَدَمُ الْعِزَّةِ نُسِيَ هَذَا الشَّأْنُ
 جُمْلَةً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاللَّهِ خَيْرُ الْقَادِرِينَ وَأَنْظُرْ وَصِيَّةَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَحَرَّ بِضَهُ
 لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صَنِيعِ تَجِدٍ كَثِيرًا مِنْ عِلْمِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْصَرَ بِهَا مِنْهُ قَالَ فِي
 كَلَامِهِ لَهُ فَسَوْا صَفُوفَكُمْ كَالْبُنْيَانِ الْعَرِضُوصِ وَقَدِّمُوا الدَّارِعَ وَأَخْرِجُوا الْخَاسِرَ وَعَضُّوا
 عَلَى الْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى السِّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَالتَّوَأَى عَلَى اطَّرَافِ الرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَصَوْنُ الْأَسِنَّةِ
 وَعَضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ الْجَبَاشِ وَأَسْكِنُ الْقُلُوبَ وَاخْتَتَمُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرُدُ الْفَشَلَ
 وَأَوْقَى بِالْوَقَارِ وَأَقِيمُوا رَايَاتِكُمْ فَلَا تُهَيَّلُوهَا وَلَا تُجَعِّلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ وَأَسْعَمُوا
 بِالْصِدْقِ وَالصَّبْرِ فَإِنَّهُ يَقْدِرُ الصَّبْرُ يَنْزِلُ النَّصْرُ وَقَالَ الْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يَحْرُسُ الْأَزْدَ عَضُّوا
 عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْأَضْرَاسِ وَأَسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِهَاكُمُ وَشَدُّوا شِدَّةَ قَوْمٍ مَوْتُورٍ بِنَارُونَ
 بِأَبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدِّمُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لِيُتَلَّ بِسَبْقُوا بُونِ
 وَلَا يَلْحَقَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصَّادِقُ فِي شَاعِرٍ لِمَتُونَةَ
 وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا تَاشَفِينَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يُوسُفَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ
 شَهَدَهَا وَيَذَكِّرُهُ بِأُمُورِ الْحَرْبِ فِي وَصَايَا تَحْدِيرَاتٍ تَنْبِهَا عَلَى مَعْرِفَةٍ كَثِيرٍ مِنْ

سِيَّاسَةِ الْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَّقَنَعُ مِنْ مَنِكُمْ الْمَلِكُ الْهَمَامُ الْأَرْوَعُ
 وَمَنْ الَّذِي غَدَرَ الْعَدُوَّ بِهِ دُجَى فَأَنْفَضَ كُلُّهُ وَهُوَ لَا يَنْزَعُ

تَمْضِي الْفُؤَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصْدُهَا
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَعِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ
أَنْتَ فَرَعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَةَ
إِنْسَانٍ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْكُمْ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشَفِينٍ وَإِنَّهُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أُسُودٌ خَفِيَّةٌ
يَا تَاشَفِينُ أَمَّ لِحْيَتِكَ عُذْرَهُ

ومنها في سياسة الحرب

أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ
لَا إِنِّي أَدْرِي بِهَا لِكِنِّي
وَالْبَسَ مِنْ أَلْحَتِي الْمَضَاعِفَةَ الَّتِي
وَالْهِنْدُوَانِي الرَّفِيقَ فَإِنَّهُ
وَأَرْكَبُ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عِدَّةً
خَنْدِيقَ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَخْلَةً
وَالْوَادِ لَا تَعْبُرُهُ وَأَنْزِلْ عِنْدَهُ
وَأَجْعَلْ مُنَاجِرَةَ الْجَبُوشِ عَشِيَّةً
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجَبُوشُ بِمَعْرِكَ
وَأَصْدَمْتَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثُ
وَأَجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ
لَا تَسْمَعِ الْكُذَّابَ جَاءَكَ رُجُئًا

قَوْلُهُ وَأَصْدَمْتَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثُ الْبَيْتُ مُخَالَفٌ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ
فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ التَّقْفِي لَمَّا وُلَاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَالْعِرَاقَ فَقَالَ لَأَسْمَعَ
وَأَطِيعَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكُهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَا يُجِيبُنَّ مُسْرِعًا
حَتَّى تَنْتَبِهَنَّ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ
وَالْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوْمَرَ سَابِطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ

وَفِي التَّسْرُعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَن بَيَانِ ضِيَاعِ وَاللَّهِ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَمْرُهُ لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا
 يُضَحِّهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ هَذَا كَلَامُ عُمَرَ وَهُوَ شَاهِدٌ بَانَ التَّفَاوُلُ فِي الْحَرْبِ أَوْلَى
 مِنَ الْخُمْوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ الصَّبْرُ فِي الْآنَ أَنْ يَرِيدَ
 أَنَّ الصَّدَمَ بَعْدَ الْبَيَانِ فَلَهُ وَجْهٌ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ * وَلَا وَثُوقَ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ
 حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالْغَلْبُ مِنْ قَبِيلِ الْبَحْثِ وَالْإِتْفَاقِ
 وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْغَلْبِ فِي الْأَكْثَرِ مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَهِيَ الْجِيُوشُ
 وَوُفُورُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجْعَانِ وَتَرْتِيبُ الْمَصَافِ وَمِنْهُ صِدْقُ
 الْقِتَالِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِمَامَةٌ مِنْ خِدَاعِ الْبَشَرِ وَحِيلِهِمْ فِي
 الْأَرْجَافِ وَالشَّانِيعِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا التَّخْذِيلُ وَفِي التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَّا كِنِ الْمُرْتَقِعَةِ لِيَكُونَ
 الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيْتَوَهُمُ الْمُخَفِّضُ لِلذَّكَ وَفِي الْكُمُونِ فِي الْغِيَاضِ وَمُطْمَئِنِّ الْأَرْضِ
 وَالتَّوَارِي بِالْكَدَى حَوْلَ الْعَدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوَلَهُمُ الْعَسْكَرُ دَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَمَّحُونَ
 إِلَى النَّجَاةِ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَإِمَامَةٌ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْخَفِيَّةُ أُمُورًا سَمَاوِيَّةً لَا فِدْرَةَ
 لِلْبَشَرِ عَلَى اِكْتِسَابِهَا تَلْقَى فِي الْقُلُوبِ فَيَسْتَوِي الرِّهْبُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَخْتَلُ مَرَكَزُهُمْ
 فَتَقَعُ الْهَزِيمَةُ وَأَكْثَرُ مَا نَفَعُ الْهَزَائِمُ عَنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ اِكْثَرَةٌ مَا يَعْتَمَلُ لِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْغَلْبِ فَلَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ التَّأْثِيرِ فِي ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا
 ضَرُورَةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَمِنْ أَمثالِ الْعَرَبِ رَبُّ حَيْلَةٍ
 أَنْفَعُ مِنْ قَبِيلَةٍ فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ وُقُوعَ الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ غَالِبًا عَنِ أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ
 وَوُقُوعِ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ هُوَ مَعْنَى الْبَحْثِ كَمَا أَتَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْتَبَرَهُ وَتَفَهَّمْ
 مِنْ وُقُوعِ الْغَلْبِ عَنِ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَرْتُ
 بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَمَا وَقَعَ مِنْ غَلْبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ وَغَابَ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ فِي الْفَتْوحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلَ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ
 الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ حَتَّى يَسْتَوِي عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزُوا مُعْجَزَةً لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا
 أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعَيُونِ * وَقَدْ ذَكَرَ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلْبِ فِي الْحَرْبِ أَنْ
 تَفْضَلَ عِدَّةُ الْفَرَسَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي الْجَانِبِ

الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي
 الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد
 في ذلك وأبدى وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وإنما الصحيح
 المعتبر في الغلب حال العصية أن يكون في أحد الجانبين عصية واحدة جمعة لكليهما
 وفي الجانب الآخر عصائب متعددة لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من
 التخاذل ما يقع في الوجدان المتفرقين الناقدين للعصية تنزل كل عصاية منهم منزلة
 الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبته واحدة لأجل
 ذلك ففهمه وأعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك
 الأنسيان شأن العصية في حلة وبلدية وأنهم إنما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة
 إلى الوجدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصية ولا نسبا وقد بينا ذلك
 أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحه إنما هو من الأسباب الظاهرة
 مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها فكيف يجعل
 ذلك كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئا منها لا يعارض الأسباب الخفية
 من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي فافهمه وتفهم
 أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار * ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن سبابه
 خفية وغير طبيعية حال الشهرة وأصبت فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات
 الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتمولين للفضائل على العموم وكثير ممن
 اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد
 تصادف موضعها وتكون طبقة على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة وأصبت إنما
 هما بالأخبار والأخبار يدخلها الدهول عن المقاصد عند التناول ويدخلها التعصب
 والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال خلفها
 بالتاميس والتصنع أو لجهل التأمل ويدخلها التقرب لأصحاب التجارة والمراتب الدنيوية
 بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك والنفوس مولة بحب النناء
 والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو نزوة وليسوا من الأكثر براغبين في
 الفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتختل الشهرة عن

أَسْبَابُ خَيْفَةٍ مِنْ هَذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خَيْفٍ فَهُوَ الَّذِي يُعْبَرُ عَنْهُ
بِالْبَيْتِ كَمَا نَقَرَّرَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قتلها وكثرتها

اعْلَمْ أَنَّ الْجَبَايَةَ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةً الْوَزَائِعُ كَثِيرَةً الْجُمْلَةَ وَآخِرَ الدَّوْلَةِ تَكُونُ
كَثِيرَةً الْوَزَائِعُ قَلِيلَةً الْجُمْلَةَ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سَنَنِ الدِّينِ فَلَيْسَتْ
تَقْتَضِي إِلَّا الْمَعَارِمَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخَرَاجِ وَالْحِزْبِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ الْوَزَائِعُ لِأَنَّ مِقْدَارَ
الرِّكَاتِ مِنَ الْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا رِكَاتُ الْحُوبِ وَالْمَاشِيَةِ وَكَذَا الْحِزْبِيَّةُ وَالْخَرَاجُ
وَجَمِيعُ الْمَعَارِمِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سَنَنِ التَّغْلِبِ وَالْعَصَبِيَّةِ
فَلَا بُدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا نَقَدَّمُ وَالْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي الْمُسَامَحَةَ وَالْمُكَارَمَةَ وَخَضَّ
الْحِجَابَ وَالتَّجَافِيَّ عَنِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالغَنَلَةَ عَنِ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ فَيَقِلُّ لِذَلِكَ
مِقْدَارُ الْوِظَائِمِ الْوَاحِدَةِ وَالْوِظِيَّةُ الَّتِي يُجْمَعُ الْأَمْوَالُ مِنْ تَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتْ الْوَزَائِعُ
وَالْوِظَائِفُ عَلَى الرَّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغِبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ الْأَعْتِمَارُ وَتَزِيدُ لِحُصُولِ
الْإِعْتِبَاطِ بِقَلَّةِ الْمَعْرُومِ وَإِذَا كَثُرَ الْأَعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوِظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ
فَكَثُرَتْ الْجَبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدَّوْلَةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِدًا
بَعْدَ وَاحِدٍ وَاتَّصَفُوا بِالْكَيْسِ وَذَهَبَ سِرُّ الْبِدَاوَةِ وَالسَّادَجَةِ وَخَلَقَهَا مِنَ الْإِعْضَاءِ وَالتَّجَافِي
وَجَاءَ الْمَلِكُ الْعَضُوضُ وَالْحِضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْكَيْسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ
بِمُخْلِقِ التَّحَدُّقِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا أَنْعَمَسُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ
فِي كَثْرَةِ الْوِظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ حِينَئِذٍ عَلَى الرَّعَايَا وَالْأَكْرَةِ وَالْفَلَاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ
الْمَعَارِمِ وَبَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيْفَةٍ وَوِزِيْفَةٍ مِقْدَارًا عَظِيمًا لِمَا كَثُرَ لَهُمُ الْجَبَايَةُ وَيَضَعُونَ
الْمُكْرُوسَ عَلَى الْمُبَايَعَاتِ وَفِي الْأَبْوَابِ كَمَا نَذَرْنَا بَعْدُ ثُمَّ تَنْدَرُجُ الزِّيَادَاتُ فِيهَا بِمِقْدَارِ
بَعْدَ مِقْدَارٍ تَنْدَرُجُ عَوَائِدُ الدَّوْلَةِ فِي التَّرَفِ وَكَثْرَةِ الْحُلَاجَاتِ وَالْإِنْتِاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تَنْقَلِ
الْمَعَارِمُ عَلَى الرَّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرُ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ تَنْدَرُجَتْ قَلِيلًا
قَلِيلًا وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ مِنْ زَادِهَا عَلَى التَّعْيِينِ وَلَا مِنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا نَبَتَ عَلَى الرَّعَايَا فِي
الْأَعْتِمَارِ لِدَهَابِ الْأَمَلِ مِنْ نَفْسِهِمْ بِقَلَّةِ النِّفَعِ إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَعَارِمِهِ وَبَيْنَ

تَمَرَّتْهُ وَفَائِدَتِهِ فَتَنْقِصُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنِ الْأَعْتِمَارِ جُمْلَةً فَتَنْقِصُ جُمْلَةَ الْجَبَايَةِ
 حِينَئِذٍ بِنَقْصَانِ تِلْكَ الْوَزَائِعِ مِنْهَا وَرُبَّمَا يَزِيدُونَ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ النَّقْصَ
 فِي الْجَبَايَةِ وَيَحْسِبُونَهُ جَبْرًا لِمَا نَقَصَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيرَةٍ إِلَى غَايَةِ لَيْسَ وَرَاءَهَا
 نَفْعٌ وَلَا فَائِدَةٌ إِلَّا كَثْرَةُ الْإِنْفَاقِ حِينَئِذٍ فِي الْأَعْتِمَارِ وَكَثْرَةُ الْمَعَارِمِ وَعَدَمُ وَفَاءِ الْفَائِدَةِ
 الْمَرْجُوعَةِ بِهِ فَلَا تَرَالُ الْجُمْلَةُ فِي نَقْصٍ وَمِقْدَارُ الْوَزَائِعِ وَالْوُظَائِفِ فِي زِيَادَةٍ لِمَا
 يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ جَبْرِ الْجُمْلَةِ بِهَا إِلَى أَنْ يَنْتَقِصَ الْعُمَرَانُ بِذَهَابِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْتِمَارِ
 وَبَعُودِ وَبَالٍ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ لِأَنَّ فَائِدَةَ الْأَعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا وَإِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ
 أَنَّ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي الْأَعْتِمَارِ تَقَايُلُ مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمَرِينَ مَا أَمْكَنَ
 فِذَلِكَ تَبَسُّطُ التَّمُوسِ إِلَيْهِ لِثِقَتِهَا بِإِدْرَاكِ الْمُنْتَعَةِ فِيهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكِ الْأُمُورِ
 كُلِّهَا وَيَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس واخر الدولة

إِعْلَمَنَّ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا بَدْوِيَّةً كَمَا قُلْنَا فَتَنْكُورُ لِذَلِكَ قَلِيلَةَ الْحَاجَاتِ
 لِعَدَمِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ فَيَكُونُ خَرْجُهَا وَإِنْفَاقُهَا قَلِيلًا فَيَكُونُ فِي الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ وَفَاءً
 بِأَزِيدٍ مِنْهَا كَثِيرٌ عَنِ حَاجَاتِهِمْ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَأْخُذَ بِيَدِيں الْحِضَارَةِ فِي التَّرَفِ وَعَوَائِدِهَا
 وَتَجْرِي عَلَى نَهْجِ الدُّوَلِ السَّابِقَةِ فَيَكْثُرُ لِذَلِكَ خَرَاجُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَيَكْثُرُ خَرَاجُ
 السُّلْطَانِ خُصُوصًا كَثْرَةَ بِالْعَةِ بِنَفَقَتِهِ فِي خَاصَّتِهِ وَكَثْرَةَ عَطَائِهِ وَلَا تَبْقَى بِذَلِكَ الْجَبَايَةُ
 فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي الْجَبَايَةِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَامِيَةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالسُّلْطَانُ مِنَ
 النَّفَقَةِ فَيَزِيدُ فِي مِقْدَارِ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ أَوَّلًا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ يَزِيدُ الْخَرَاجُ وَالْحَاجَاتُ
 وَالتَّدْرِجُ فِي عَوَائِدِ التَّرَفِ وَفِي الْعَطَاءِ لِلْحَامِيَةِ وَيُدْرِكُ الدَّوْلَةَ الْهَرَمُ وَتَضَعُ عِصَابَتُهَا
 عَنِ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْقَاصِيَةِ فَتَقْلُ الْجَبَايَةُ وَتَكْثُرُ الْعَوَائِدُ وَيَكْثُرُ
 بِكَثْرَتِهَا أَرْزَاقُ الْجُنْدِ وَعَطَاؤُهُمْ فَيَسْتَحْدِثُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْوَاعًا مِنَ الْجَبَايَةِ يَضُرُّ بِهَا
 عَلَى الْبِيَعَاتِ وَيَفْرُضُ لَهَا قَدْرًا مَعْلُومًا عَلَى الْأَثْمَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَعَلَى أَعْيَانِ السَّلْعِ فِي
 أَمْوَالِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَعَ هَذَا مُضْطَرٌّ لِذَلِكَ بِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ طُرُقُ النَّاسِ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ
 مِنْ زِيَادَةِ الْجِيُوشِ وَالْحَامِيَةِ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ زِيَادَةً بِالْعَةِ فَتَكْسُدُ

الأسواقُ لفسادِ الأماكِلِ وَيُؤْذِنُ ذَلِكَ بِاخْتِلَالِ الْعُمُرَانِ وَيَعُودُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ إِلَى أَنْ تَضْحَلَ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ الْمَشْرِقِ فِي أُخْرِيَاتِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْعَبِيدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِضَتْ الْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى الْحَاجِّ فِي الْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صَالِحُ الدِّينِ أَبُو بَلْتَأْسِ تِلْكَ الرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاذَهَا بِأَنْتَارِ الْخُبْرِ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ الْعَهْدِ الطَّوَائِفِ حَتَّى مَعَى رَسْمِهِ يُوسُفُ بْنُ بَاشِشِينَ أَمِيرُ الْمُرَابِطِينَ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ حِينَ اسْتَبَدَّ بِهَا رُوَسَاؤُهَا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الاربعون

في ان التجارة من السلطان مضره بالرعايا ومفسده للجبایة

إِعْلَمَنَّ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا ضَاعَتْ جَبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمَاهُ مِنَ التَّرْفِ وَكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ وَالنَّفَقَاتِ وَقَصْرِ الْخَالِصِ مِنْ جَبَايَتِهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَأَحْتَاجَتْ إِلَى مَزِيدِ الْمَالِ وَجَبَايَةِ فَنَادَتْ تُوَضَعُ الْمُكُوسُ عَلَى بِيَاعَاتِ الرِّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ فِي الْقَابِ الْمُكُوسِ إِنْ كَانَ قَدِ اسْتَحْدِثَ مِنْ قَبْلُ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ الْعُمَّالِ وَالْجَبَايَةِ وَامْتِكَالِ عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ لَا يَظْهَرُ الْحِسْبَانُ وَتَارَةً بِاسْتِحْدَاثِ التِّجَارَةِ وَالْفَلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ التُّجَّارَ وَالْفَلَاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى الْفَوَائِدِ وَالغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ الْأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُوَسِ الْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي أَكْتِسَابِ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ لِاسْتِعْلَالِهِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَالتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ مِنْ إِدْرَارِ الْجَبَايَةِ وَتَكْثِيرِ الْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِذَا خَالَ الضَّرْرُ عَلَى الرِّعَايَا مِنْ وُجُوهِ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوْلَى مَضَايِقَةُ الْفَلَاحِينَ وَالتُّجَّارِ فِي شِرَاءِ الْحَيَوَانَ وَالْبَضَائِعِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِ ذَلِكَ فَإِنَّ الرِّعَايَا مَتَكْفِئُونَ فِي الْيَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُزَاهِمَةٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقَرُّبِ وَإِذَا رَافَقَهُمُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى النَّفُوسِ مِنْ ذَلِكَ غَمٌّ وَتَكَدُّ ثُمَّ إِنْ السُّلْطَانُ قَدْ يَنْتَزِعُ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَضًا أَوْ بِأَيْسَرِ ثَمَنٍ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يَنْقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَنْخَسُ ثَمَنُهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ الْفَلَاحَةِ وَمَعْلَاهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سَكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

الْغَلَّتْ وَحَصَلَتْ بَضَائِعُ التِّجَارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ فَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ وَلَا
 نِفَاقَ الْبِيعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ فَيُكَلِّفُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْأَصْنَافِ مِنْ
 تَاجِرٍ أَوْ فَلَاحٍ بِشِرَاءِ تِلْكَ الْبَضَائِعِ وَلَا يَرْضَوْنَ فِي أَنْمَانِهَا إِلَّا الْقِيمَ وَأَزِيدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ
 فِي ذَلِكَ نَاضًا أَمْوَالَهُمْ وَتَبَقَى تِلْكَ الْبَضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عَرُوضًا جَامِدَةً وَيَدْمَكُوثُونَ عَطْلًا
 مِنَ الْإِدَارَةِ الَّتِي فِيهَا كَسَبُهُمْ وَمَعَاشَهُمْ وَرُبَّمَا تَدْعُوهُمْ الْفَرُورَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ
 فَيَبِيعُونَ تِلْكَ السَّلْعَ عَلَى كَسَادٍ مِنَ الْأَسْوَاقِ بِأَبْخَسِ ثَمَنِ وَرُبَّمَا يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ عَلَى
 التَّاجِرِ وَالْفَلَاحِ مِنْهُمْ بِمَا يَذْهَبُ رَأْسَ مَالِهِ فَيَقْعُدُ عَنْ سُوقِهِ وَيَتَعَدَّدُ ذَلِكَ وَيَتَكَرَّرُ
 وَيَدْخُلُ بِهِ عَلَى الرِّعَايَا مِنَ الْعُنْتِ وَالْمُضَايِقَةِ وَفَسَادِ الْأَرْبَاحِ مَا يَقْبِضُ أَمْوَالَهُمْ عَنْ
 السَّعْيِ فِي ذَلِكَ جُمْلَةً وَيُؤَدِّي إِلَى فِسَادِ الْجِبَايَةِ فَإِنَّ مَعْظَمَ الْجِبَايَةِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْفَلَاحِينَ
 وَالتَّجَارِ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ وَضْعِ الْمَكُوسِ وَنُمُو الْجِبَايَةِ بِهَا فَإِذَا انْقَضَ الْفَلَاحُونَ عَنْ
 الْفَلَاحَةِ وَقَعَدَ التَّجَارُ عَنْ التِّجَارَةِ ذَهَبَتِ الْجِبَايَةُ جُمْلَةً أَوْ دَخَلَهَا النِّقْصُ الْمُتَفَاحِشُ وَإِذَا
 قَاسَ السُّلْطَانُ بَيْنَ مَا يَحْضُرُ لَهُ مِنَ الْجِبَايَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَاحِ الْقَلِيلَةِ وَجَدَهَا بِالنِّسْبَةِ
 إِلَى الْجِبَايَةِ أَقَلَّ مِنَ الْقَلِيلِ ثُمَّ إِنَّهُ وَلَوْ كَانَ مُفِيدًا فَيَذْهَبُ لَهُ بِحِطِّ عَظِيمٍ مِنَ الْجِبَايَةِ فِيمَا
 يِعَانِيهِ مِنْ شِرَاءٍ أَوْ بَيْعٍ فَإِنَّهُ مِنَ الْبُعِيدِ أَنْ يُوجَدَ فِيهِ مِنَ الْمَكْسِ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ فِي
 تِلْكَ الصَّنَفَاتِ لَكَانَ تَكْسِبُهَا كَلْبًا حَاصِلًا مِنْ جِهَةِ الْجِبَايَةِ ثُمَّ فِيهِ التَّعَرُّضُ لِأَهْلِ
 عُمُرَانِهِ وَاخْتِلَالُ الدَّوْلَةِ بِفَسَادِهِمْ وَنَقْصِهِمْ فَإِنَّ الرِّعَايَا إِذَا قَعَدُوا عَنْ تَشْمِيرِ أَمْوَالِهِمْ
 بِالْفَلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ نَقَصَتْ وَتَلَاشَتْ بِالنِّفَقَاتِ وَكَانَ فِيهَا تَلَافٌ أَحْوَالِهِمْ فَأَفْهَمَ ذَلِكَ
 وَكَانَ الْفَرَسُ لَا يُمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ ثُمَّ يَخْتَارُونَهُ مِنْ أَهْلِ
 الْفَضْلِ وَالِدِينَ وَالْأَدَبِ وَالسَّخَاءِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ ثُمَّ يَشْتَرُطُونَ عَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ
 الْعَدْلَ وَأَنْ لَا يَتَّخِذَ صِنْعَةً فَيُضْرِبَ بِحَيْرَانِهِ وَلَا يَتَّحِرَ فَيُجِبَّ غَلَاءَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَضَائِعِ
 وَأَنْ لَا يَسْتَعْدِمَ الْعَبِيدَ فَإِنَّهُمْ لَا يُشِيرُونَ بِخَيْرٍ وَلَا مَصْلَحَةٍ وَأَعْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا
 يُنْبِئُ مَالَهُ وَلَا يَدْرُ مَوْجُودَهُ إِلَّا الْجِبَايَةَ وَإِدْرَارُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَدْلِ فِي أَهْلِ الْأَمْوَالِ
 وَالنَّظَرِ لَهُمْ بِذَلِكَ فَبِذَلِكَ تَبْسِطُ أَمْوَالَهُمْ وَتَنْشَرِحُ صُدُورُهُمْ لِلْإِخْذِ فِي تَشْمِيرِ الْأَمْوَالِ
 وَتَنْمِيَّتِهَا فَتَعْظُمُ مِنْهَا جِبَايَةُ السُّلْطَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ قَلْبٍ فَإِنَّمَا هُوَ مُضَرَّةٌ
 عَاجِلَةٌ لِلرِّعَايَا وَفَسَادٌ لِلْجِبَايَةِ وَنِقْصٌ لِلْعِمَارَةِ وَقَدْ بَتَّتْهُي الْحَالُ بِهِؤَلَاءِ الْمُنْسَلِّخِينَ لِلتِّجَارَةِ

وَالْفَلَاحَةَ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْمُتَغَابِينَ فِي الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ الْغَلَّاتِ وَالسَّاعِ
 مِنْ أَرْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بِلَدِهِمْ وَيَفْرَضُونَ لِنَفْسِهِمْ مِنَ الثَّمَنِ مَا يَشَاءُونَ وَيَبِيعُونَ بِهَا فِي
 وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرِّعَابِيَّاتِ بِمَا يَفْرَضُونَ مِنَ الثَّمَنِ وَهَدِيهِ أَشَدَّ مِنَ الْأُولَى
 وَأَقْرَبُ إِلَى فِسَادِ الرَّعِيَّةِ وَاخْتِلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ
 يَدَاخِلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَعْيُ التُّجَّارِ وَالْفَلَاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ
 السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَمِهِمْ لِنَفْسِهِ لِيَحْضَلَ عَلَى عَرْضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعًا
 وَلَا سِيمًا مَعَ مَا يَحْضُلُ لَهُ مِنَ التُّجَارَةِ بِلاَ مَعْرَمٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّهَا أَجْدَرُ بِشُمُوكِ الْأَمْوَالِ
 وَأَسْرَعُ فِي تَتْمِيمِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الضَّرْرِ بِنَقْصِ حَبَابَتِهِ فَيَنْبَغِي
 لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيُعْرَضَ عَنْ سَعَايَتِهِمْ الْمَضْرُوقِ بِحَبَابَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ
 يُلْهِمُنَا رُشْدًا أَنْفُسَنَا وَيَنْفَعَنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والاربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجَبَايَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصَبِيَّةِ
 بِحَقْدَارِ غَنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ
 فَزَيْسُهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَافٍ لَهُمْ عَمَّا يُسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْتِبْدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ
 وَلَهُ الْيَهُمْ حَاجَةٌ فَلَا يَطِيرُ فِي سُهْمَانِهِ مِنَ الْجَبَايَةِ إِلَّا الْأَقْلُ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ
 لِذَلِكَ وَأَذْيَالَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي الْغَالِبِ وَجَاهِهِمْ مُتَقَلِّصٌ
 لِأَنَّهُ مِنْ جَاهِ مُخَدِّمِهِمْ وَنِطَاقُهُ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُرَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا اسْتَفْخَلَتْ
 طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْأَسْتِبْدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبْضُ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْجَبَايَاتِ
 إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي سُهْمَانِهِمْ وَنَقْلُ حُطُوطِهِمْ إِذْ ذَاكَ لِقَلَّةِ غَنَائِهِمْ فِي
 الدَّوْلَةِ بِمَا أَنْكَبَ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَصَارَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي الْقِيَامِ بِالدَّوْلَةِ
 وَتَمْهِيدِ الْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِالْجَبَايَةِ أَوْ مُعْظَمِهَا وَيَحْتَوِي عَلَى الْأَمْوَالِ
 وَيَحْتَجِجُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مِهْمَاتِ الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرَوَتُهُ وَتَمْتَلِكُ خَزَائِنُهُ وَيَتَسَّعُ نِطَاقُ
 جَاهِهِ وَيَعْتَرِ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيَعْظُمُ حَالُ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ
 وَمَوْلَى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَسَّعُ جَاهَهُمْ وَيَقْتَنُونَ الْأَمْوَالِ وَيَتَأْتَلُونَهَا ثُمَّ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي

أَهْرَمَ بِتَلَاثِي الْعَصِيَّةِ وَفَنَاءَ الْقَلِيلِ الْمُعَاهِدِينَ لِلدَّوْلَةِ أَحْتَاَجُ صَاحِبُ الْأَمْرِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ لِكَثْرَةِ الْخَوَارِجِ وَالْمَنَازِعِينَ وَالشُّوَارِجِ وَتَوَهُّمِ الْإِنْتِقَاضِ فَصَارَ خَرَابُهُ لظَهْرَائِهِ وَأَعْوَانِهِ وَهُمْ أَرْبَابُ السُّيُوفِ وَأَهْلُ الْعَصِيَّاتِ وَأَنْفَقَ خَزَائِنَهُ وَحَاصِلَهُ فِي مَهْمَاتِ الدَّوْلَةِ وَقَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ الْجَبَايَةُ لِمَا قَدَّمَ نَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ وَالْإِنْفَاقِ فَيَقِلُّ الْخَرَاجُ وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ فَيَتَقَلَّصُ ظِلُّ النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ عَنِ الْخَوَاصِّ وَالنَّجَابِ وَالْكَتَابِ بِتَقْلُصِ الْجَاهِ عَنْهُمْ وَضَبْقِ نَطَاقِهِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ تَشْتَدُّ حَاجَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ وَتَنْفِقُ أَبْنَاءُ الْبَطَانَةِ وَالْحَاشِيَةِ مَا تَأْتَلُهُ أَبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا مِنْ إِعَانَةِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَيَقْبُلُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَبَاؤُهُمْ وَسَلَفُهُمْ مِنَ الْمُنَاصِحَةِ وَيَرَى صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي أُكْتَسِبَتْ فِي دَوْلَةِ سَلَفِهِ وَبِجَاهِهِمْ فَصَطَلِمَهَا وَيَنْزِعُهَا مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَوَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى نِسْبَةِ رُتَبِهِمْ وَتَنْكُرُ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِنَفَاءِ حَاشِيَتِهَا وَرَجَالِهَا وَأَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ مِنْ بَطَانَتِهَا وَيَتَقَوَّضُ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مَبَايِ الْعَمَلِ بَعْدَ أَنْ يَدْعُمَهُ أَهْلُهُ وَيَرْفَعُوهُ . وَأَنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ لَوُزَرَائِكَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي بَنِي قَحْطَبَةَ وَبَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ وَبَنِي طَاهِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ثُمَّ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ انْحِلَالِهَا أَيَّامَ الطَّوَائِفِ فِي بَنِي شَهِيدٍ وَبَنِي أَبِي عَبْدِ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بَرْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا لِعَهْدِنَا سَنَهُ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ

فصل * وَلِمَا يَتَوَقَّعُهُ أَهْلُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَنْزِعُونَ إِلَى الْفِرَارِ عَنِ الرُّتَبِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ رِبْقَةِ السُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ مَالِ الدَّوْلَةِ إِلَى فُطْرٍ آخَرَ وَيُرُونَ أَنَّهُ أَهْنٌ لَهُمْ وَأَسْلَمٌ فِي إِتْقَانِهِ وَحُصُولِ ثَمَرَتِهِ وَهُوَ مِنَ الْأَعْلَاطِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَوْهَامِ الْمُفْسِدَةِ لِأَحْوَالِهِمْ وَدُنْيَائِهِمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْخُلَاصَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْغَرَضِ إِذَا كَانَ هُوَ الْمَلِكُ نَفْسَهُ فَلَا تُمْكِنُهُ الرَّعِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْمُرَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَدْمٌ لِمَلِكِهِ وَإِنْتِزَاعٌ لِنَفْسِهِ بِجَارِي الْعَادَةِ بِذَلِكَ لِأَنَّ رِبْقَةَ الْمَلِكِ يَعْسُرُ الْخُلَاصَ مِنْهَا وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اسْتِنْحَالِ الدَّوْلَةِ وَضَبْقِ نَطَاقِهَا وَمَا يَعْزِضُ فِيهَا مِنَ الْبَعْدِ عَنِ الْعَمَلِ وَالْخِلَالِ وَالتَّخَلُّقِ بِالسَّرِّ وَمَا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْغَرَضِ مِنْ بَطَانَةِ السُّلْطَانِ

وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلَ الرَّبِّ فِي دَوْلَتِهِ فَقَالَ أَنْ يُغْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ أَمَا أَوْلًا فَلَمَّا يَرَاهُ
 الْمَلُوكُ أَنْ ذُوهُمْ وَحَاشِيَتِهِمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مِمَّا لِيكَ لَهُمْ مَطَاعُونَ لِي ذَاتِ صُدُورِهِمْ
 فَلَا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ الْخِدْمَةِ ضِنًا بِأَسْرَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَغَيْرَةٌ
 مِنْ خِدْمَتِهِ لِسَوَاهُمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِفَرِيضَةِ
 الْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وَقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ فَلَمْ يُحَجَّ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
 دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ الْحَجُّ لِأَهْلِ الدَّوْلِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ قَرَأَعِ شَأْنِ الْأُمَوِيَّةِ وَرُجُوعِهَا
 إِلَى الطَّوَائِفِ وَأَمَّا ثَانِيًا فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِالتَّجَافِي عَنْ ذَلِكَ
 الْمَالِ لِمَا يَرُونَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرُونَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُكْتَسَبْ
 إِلَّا بِهَا وَفِي ظِلِّ جَاهِيَا فَتَحُمُّ نَفْسُهُمْ عَلَى أَنْتَزَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ وَالتَّقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ
 مِنَ الدَّوْلَةِ يَنْتَعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خَاصٌّ بِذَلِكَ الْمَالِ إِلَى قَطْرِ آخِرٍ وَهُوَ فِي
 النَّادِرِ الْأَقْلُ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْمَلُوكِ بِذَلِكَ الْقَطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِالْإِرْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ
 تَعَرِيضًا أَوْ بِالتَّقَهَّرِ ظَاهِرًا لِمَا يَرُونَ أَنَّهُ مَالُ الْجَبَايَةِ وَالدَّوْلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي
 الْمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالسَّارِ الْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وُجُوهِ
 الْمَعَاشِ فَأَحْرَى بِهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ وَالدَّوْلِ الَّتِي تَجِدُ السَّبِيلَ إِلَيْهَا بِالشَّرْعِ
 وَالعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ السُّلْطَانُ أَبُو بَحِيٍّ زَكْرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ اللَّخْيَانِيَّ تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مَلُوكِ
 الْخَفْصِيِّينَ بِأَفْرِيقَةَ الْخُرُوجَ عَنْ عَهْدَةِ الْمَلِكِ وَالتَّلَاقَ بِمِصْرَ فِرَارًا مِنْ طَلَبِ صَاحِبِ
 الثُّغُورِ الْغَرْبِيَّةِ لَمَّا اسْتَجْمَعَ لِعَزْوِ نُونَسَ فَاسْتَعْمَلَ اللَّخْيَانِيَّ الرَّحْلَةَ إِلَى نَعْرِ دَرَابَسَ
 يُوْرِي بِتَمَهِيدِهِ وَرَكِبَ السَّفِينِ مِنْ هُنَالِكَ وَخَلَصَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ
 جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بَيْنَ الْمَالِ مِنَ الصَّامِتِ وَالدَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخِزَانَتِهِمْ مِنْ
 الْمَتَاعِ وَالْعَقَارِ وَالْجَوْهَرِ حَتَّى الْكُتُبِ وَأَحْتَمَلَ ذَلِكَ كَلَّةً إِلَى مِصْرَ وَنَزَلَ عَلَى
 الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نَزْلَهُ وَرَفَعَ
 مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِالْأَعْرَاضِ إِلَى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ
 مَعَاشُ ابْنِ اللَّخْيَانِيَّ إِلَّا فِي جِرَائِيَتِهِ الَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ ثَمَانِ وَعِشْرِينَ
 حَسَبَمَا نَدَّ كُرُهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهَذَا وَآمِثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يَعْتَرِي أَهْلَ الدَّوْلِ
 لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مَلُوكِهِمْ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنْ اتَّفَقَ لَهُمْ الْخِلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ

وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنَ الْحَاجَةِ فَعَلَطُوا وَهُمْ وَالَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الشُّهُرَةِ بِخِدْمَةِ الدُّوَلِ كَافٍ فِي وَجْدَانِ الْمَعَاشِ لَهُمْ بِالْجَرَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِالْجَاهِ فِي اتِّعَالِ طُرُقِ الْكَسْبِ مِنَ التِّجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ وَالدُّوَلِ أَنْسَابُ لَكِنِ

الذَّنْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبْتَهَا وَإِذَا تُرِدُ إِلَى قَلِيلٍ تَقَعُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الرَّزَاقُ وَهُوَ الْمُوفِيُّ بِمَنِّهِ وَقَضِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والاربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ الْعُمَرَانِ فَإِذَا احْتَجَّ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ أَوْ الْجَبَايَاتِ أَوْ فُقِدَتْ فَلَمْ يَصْرِفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينَئِذٍ مَا بَأَيْدِي الْحَاشِيَةِ وَالْحَامِيَةِ وَأَنْتَقَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ السُّوَادِ وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةِ الْأَسْوَاقِ مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ الْكَسَادُ حِينَئِذٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَضَعُفُ الْأَزْبَاحُ فِي الْمَتَاجِرِ فَيَقِلُّ الْخُرَاجُ لِذَلِكَ لِأَنَّ الْخُرَاجَ وَالْجَبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْأَعْتِمَارِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ النَّاسِ لِلْفَوَائِدِ وَالْأَزْبَاحِ وَوَبَالَ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالنَّقْصِ لِقَلَّةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينَئِذٍ بِقَلَّةِ الْخُرَاجِ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَا هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ أَمْ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي الدُّخْلِ وَالخُرْجِ فَإِنَّ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْزِدُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضًا فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ وَالسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ الرَّعِيَّةُ سَنَةً اللَّهُ فِي عِبَادِهِ

الفصل الثالث والاربعون

في ان الظلم موذن بخراب العمران

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُدْوَانَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِأَمْوَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَأَكْتِسَابِهَا لِمَا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا أَنْتَهَابُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي أَكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا انْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ السَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَعَلَى قَدْرِ الْأَعْتِدَاءِ وَنِسْبَتِهِ يَكُونُ انْقِبَاضُ الرِّعَايَا عَنِ السَّعْيِ فِي الْأَكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ الْأَعْتِدَاءُ كَثِيرًا عَامًّا فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ كَانَ الْقَعُودُ عَنِ الْكَسْبِ كَذَلِكَ لِدَهَابِهِ بِالْأَمْوَالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ

مِنْ جَمِيعِ آبَائِهَا وَإِنْ كَانَ الْأَعْتَادُ يَسِيرًا كَانَ الْأَنْقِبَاضُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى نَسَبَتِهِ
 وَالْعُمْرَانُ وَوُفُورُهُ وَتَفَاقُ أَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالْأَعْمَالِ وَسَعْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَالِحِ
 وَالْمَكْسَبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِنَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ الْمَعَاشِ وَانْتَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ
 الْمَكْسَبِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمْرَانِ وَانْتَقَضَتْ الْأَحْوَالُ وَابْدَعَرَ النَّاسُ فِي الْأَفَاقِ مِنْ
 غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَاقِهَا فَخَفَّتْ سَاكِنُ الْقُطْرِ وَخَلَّتْ
 دِيَارُهُ وَخَرَجَتْ أَمْصَارُهُ وَاخْتَلَّ بِاخْتِلَالِهِ حَالُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ لِمَا أَنَّهَا صُورَةٌ
 لِلْعُمْرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَادَّتِهَا ضَرُورَةٌ وَانظُرْ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَخْبَارِ
 الْفَرَسِ عَنِ الْمُؤَبَّدَانِ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَيَّامَ بَهْرَامِ بْنِ بَهْرَامٍ وَمَا عَرَّضَ بِهِ لِلْمَلِكِ
 فِي انْكَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالغَفْلَةِ عَنْ عَائِدَتِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِضَرْبِ الْمَثَالِ فِي
 ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الْبُومِ حِينَ سَمِعَ الْمَلِكُ أَصْوَاتَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فَهْمِهِمْ كَلَامِهَا فَقَالَ لَهُ إِنَّ بُومًا
 ذَكَرَ أَيُّوْمَ نِكَاحِ بَوْمِ أَثْنِي وَإِنَّمَا شَرِطَتْ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْيَةً مِنَ الْخَرَابِ فِي أَيَّامِ بَهْرَامِ
 فَقِيلَ شَرِطَهَا وَقَالَ لَهَا إِنْ دَامَتْ أَيَّامُ الْمَلِكِ أَقْطَعْتُكَ أَلْفَ قَرْيَةٍ وَهَذَا أَسْهَلُ مَرَامٍ فَتَدَبَّهَ
 الْمَلِكُ مِنْ غَفْلَتِهِ وَخَلَا بِالْمُؤَبَّدَانِ وَسَأَلَهُ عَنْ مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ
 لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ بِمَحْتِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِيَامَ
 لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِيَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ وَلَا
 سَبِيلَ إِلَى الْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ
 بَيْنَ الْخَلِيقَةِ نَصَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيمًا وَهُوَ الْمَلِكُ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ عَمَدَتُ إِلَى الضِّيَاعِ
 فَأَنْزَعْتَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا وَعِمَارَهَا وَهُمْ أَرْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تَوَخَّذَ مِنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَأَقْطَعْتَهَا
 الْحَاشِيَةَ وَالْخُدْمَ وَأَهْلَ الْبِطَالَةِ فَتَرَكُوا الْعِمَارَةَ وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يَصِلُحُ الضِّيَاعِ
 وَسُوِّحُوا فِي الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ الْخَيْفُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَرْبَابِ الْخَرَاجِ وَعِمَارِ
 الضِّيَاعِ فَأَنْجَلُوا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلَوْا دِيَارَهُمْ وَأَوُوا إِلَى مَا تَعَدَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا
 فَقَلَّتْ الْعِمَارَةُ وَخَرِبَتْ الضِّيَاعُ وَقَلَّتْ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرَّعِيَّةُ وَطَمَعَ فِي
 مَلِكِ فَارِسَ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنَ الْمَلُوكِ لِعَلْمِهِمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ دَعَائِمُ
 الْمَلِكِ إِلَّا بِهَا فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مَلِكِهِ وَأَنْزَعَتْ الضِّيَاعُ مِنْ
 أَيْدِي الْخَاصَّةِ وَرَدَّتْ عَلَى أَرْبَابِهَا وَحَمَلُوا عَلَى رُسُومِهِمْ السَّالِفَةَ وَأَخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ وَقَوِي

مِنْ ضَعْفِ مِنْهُمْ فَعَمَرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْصَبَتِ الْبِلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ جُبَاةِ الْخُرَابِ
 وَقَوِيَتِ الْجُنُودُ وَقُطِعَتِ مَوَادُّ الْأَعْدَاءِ وَشَحِنَتِ الثُّغُورُ وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى مَبَاشَرَةِ أُمُورِهِ
 بِنَفْسِهِ فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَهَزَ مَلَكَهُ فَتَفَهَّمُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ مَخْرِبٌ لِلْعُمُرَانِ
 وَأَنَّ عَائِدَةَ الْخُرَابِ فِي الْعُمُرَانِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالْفَسَادِ وَالْإِنْتِقَاضِ وَلَا تَنْظُرُ فِي ذَلِكَ إِلَى
 أَنَّ الْأَعْتِدَاءَ قَدْ يُوجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي بِهَا وَلَمْ يَقَعْ فِيهَا خُرَابٌ وَأَعْلَمُ
 أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْأَعْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ
 الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمُرَانُهُ كَثِيرًا وَأَوْ حَوَالَهُ مُتَّسِعَةً بِمَا لَا يَنْحَصِرُ كَانَ وَقُوعُ النَّقْصِ فِيهِ بِالْأَعْتِدَاءِ
 وَالظُّلْمِ بَسِيرًا لِأَنَّ النَّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِالتَّدْرِيجِ فَإِذَا خَفِيَ بِكَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَعَ
 الْأَعْمَالُ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرَ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ تَذَهَبُ تِلْكَ الدَّوْلَةُ الْمُعْتَدِيَةُ مِنْ
 أَصْلِهَا قَبْلَ خُرَابِ الْمِصْرِ وَتَحْيِيهِ الدَّوْلَةُ الْأُخْرَى فَبَرَقَعَهُ بِجِدَّتِهَا وَتَجَبَّرُ النَّقْصَ الَّذِي كَانَ
 خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يُشْعَرُ بِهِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ فِي الْأَقْلَى النَّادِرِ وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنْ حُصُولَ
 النَّقْصِ فِي الْعُمُرَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ أَمْرٌ وَقِيعٌ لَا يَدُ مِنْهُ لِمَا قَدَّمَاهُ وَوَبَّالَهُ عَائِدَةُ عَلَى
 الدُّوَلِ وَلَا تَحْسَبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخْذُ الْمَالِ أَوْ الْمَلِكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ
 وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِالظُّلْمِ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مَلِكًا أَحَدًا أَوْ عَصَبَةً
 فِي عَمَلِهِ أَوْ طَالَبَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَفِرْضُهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فَجُبَاةُ
 الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلْمَةٌ وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا ظَلَمَةٌ وَالْمُتَمَتِّهِونَ لَهَا ظَلْمَةٌ وَالْمَانِعُونَ
 لِحُقُوقِ النَّاسِ ظَلْمَةٌ وَخِصَابُ الْأَمْوَالِ عَلَى الْعُمُومِ ظَلْمَةٌ وَوَبَّالُ ذَلِكَ كَلِمَةُ عَائِدَةَ عَلَى الدَّوْلَةِ
 بِخُرَابِ الْعُمُرَانِ الَّذِي هُوَ مَادَتُهَا لِإِذْهَابِهِ الْأَمْوَالِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ
 الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فِسَادِ الْعُمُرَانِ وَخُرَابِهِ وَذَلِكَ
 مُؤَدِّنٌ بِانْقِطَاعِ النُّوعِ الْبَشَرِيِّ وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ
 مَقَاصِدِهِ الصَّرُورِيَةِ الْخَمْسَةِ مِنْ حِفْظِ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ فَلَمَّا كَانَ
 الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا بِانْقِطَاعِ النُّوعِ لِمَا آدَى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيْبِ الْعُمُرَانِ كَانَتْ
 حِكْمَةُ الخَطَرِ فِيهِ مُوجِبَةً فَكَانَ تَحْرِيمُهُ مُهِمًّا وَآدِلَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ أَكْثَرَ
 مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضَّبْطِ وَالْحَصْرِ وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى الظُّلْمِ لَوَضِعَ بِإِزَائِهِ
 مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةِ مَا وَضِعَ بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ لِلنُّوعِ الَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى

أَقْرَبَهَا مِنَ الزَّنا وَالْقَتْلِ وَالسُّكْرِ إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ
إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَيَوْلَعُ فِي ذِمَّتِهِ وَتَكْرِيرِ الْوَعِيدِ فِيهِ عَسَى أَنْ يَكُونَ
أَوْازِعُ فِيهِ لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَمِيدِ . وَلَا نَقُولَنَّ إِنَّ الْعُقُوبَةَ قَدِ وُضِعَتْ
بِإِزَاءِ الْحِرَابَةِ فِي الشَّرْعِ وَهِيَ مِنْ ظُلْمِ الْقَادِرِ لِأَنَّ النُّحَابَ زَمَنَ حِرَابَتِهِ قَادِرٌ فَإِنَّ فِي
الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ طَرِيقَيْنِ . أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ الْعُقُوبَةُ عَلَى مَا يَقْتَرِفُهُ مِنَ الْحِنَايَاتِ فِي نَفْسِ
أَمْوَالِ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ . وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِجِنَايَتِهِ
وَأَمَّا نَفْسُ الْحِرَابَةِ فِيهِ خُلُوفٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ . الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ النُّحَابُ لَا يُوَصَّفُ
بِالْقُدْرَةِ لِأَنَّا إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ الظُّلْمِ الْيَدِ الْمَبْسُوطَةِ الَّتِي لَا تَعَارِضُهَا قُدْرَةٌ فِيهِ الْمُؤَذَنُ
بِالْحِرَابِ وَأَمَّا قُدْرَةُ النُّحَابِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً لِإِخْذِ الْأَمْوَالِ وَالْمُدَافَعَةِ
عَنْهَا بِيَدِ الْكُلِّ مَوْجُودَةٌ شَرْعًا وَسِيَاسَةً فَلَيْسَتْ مِنَ الْقَدْرِ الْمُؤَذِنِ بِالْحِرَابِ وَاللَّهُ
قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ . وَمِنْ أَشَدِّ الظُّلْمَاتِ وَأَعْظَمِهَا فِي إِفْسَادِ الْعُمَرَانِ تَكْلِيفُ الْأَعْمَالِ
وَتَسْخِيرُ الرَّعَايَا بِغَيْرِ حَقٍّ . وَذَلِكَ أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَمَمَّلاتِ كَمَا سَبَّحْنَا فِي
بَابِ الرِّزْقِ لِأَنَّ الرِّزْقَ وَالْكَسْبَ إِنَّمَا هُوَ قِيمٌ أَعْمَالِ أَهْلِ الْعُمَرَانِ فَإِذَا مَسَّاعِيهِمْ
وَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا مُتَمَمَّلاتٌ وَمَكَّاسِبٌ لَهُمْ بَلْ لَا مَكَّاسِبَ لَهُمْ سِوَاهَا فَإِنَّ الرِّعِيَّةَ
الْمُعْتَمِلِينَ فِي الْعِمَارَةِ إِنَّمَا مَعَاشُهُمْ وَمَكَّاسِبُهُمْ مِنْ أَعْتِمَالِهِمْ ذَلِكَ فَإِذَا كَلَّفُوا الْعَمَلَ
فِي غَيْرِ شَأْنِهِمْ وَاتَّخَذُوا سِخْرِيًّا فِي مَعَاشِهِمْ بَطَلَ كَسْبُهُمْ وَأَعْتَصَبُوا قِيَمَةَ عَمَلِهِمْ ذَلِكَ
وَهُوَ مُتَمَمَّ لَهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّرَرُ وَذَهَبَ لَهُمْ حِظٌّ كَبِيرٌ مِنْ مَعَاشِهِمْ بَلْ هُوَ مَعَاشُهُمْ
بِالْجُمْلَةِ وَإِنْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَفْسَدَ أَمْوَالَهُمْ فِي الْعِمَارَةِ وَقَعَدُوا عَنِ السَّعْيِ فِيهَا
جُمْلَةً فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى انْتِقَاضِ الْعُمَرَانِ وَتَغْرِيْبِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ
وَأَعْظَمُ مَنْ ذَلِكَ فِي الظُّلْمِ وَإِفْسَادِ الْعُمَرَانِ وَالِدَوْلَةُ التَّسَلُّطُ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ
بِشِرَاءٍ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ ثُمَّ فَرَضَ البُّضَائِعَ عَلَيْهِمْ بِأَرْزَاقِ الْأَثْمَانِ عَلَى
وَجْهِ الغَضَبِ وَالْإِكْرَاهِ فِي الشِّرَاءِ وَالبَّيْعِ . وَرُبَّمَا تُفَرِّضُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَثْمَانَ عَلَى
التَّوَّاحِي وَالتَّعْجِيلِ فَيَتَعَلَّلُونَ فِي تِلْكَ الْخِسَارَةِ الَّتِي تَلْحَقُهُمْ بِمَا يُحْدِثُهُمُ الدُّعَامُغُ مِنْ جَبْرِ
ذَلِكَ بِحَوْلَةِ الْأَسْوَاقِ فِي تِلْكَ البُّضَائِعِ الَّتِي فَرَضَتْ عَلَيْهِمْ بِالْغَلَاءِ إِلَى بَيْعِهَا بِأَبْخَسِ
الْأَثْمَانِ وَتَعَوُّدِ خِسَارَتِهَا مَا بَيْنَ الصَّنَفَتَيْنِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَقَدْ يَعْمُ ذَلِكَ أَصْنَافُ

التَّجَارَةُ الْمُقِيمِينَ بِالْمَدِينَةِ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْأَفَاقِ فِي الْبُضَائِعِ وَسَائِرِ السُّوقِ وَأَهْلَ
الدِّكَاكِينَ فِي الْمَاكِيلِ وَالْفَوَاكِهِ وَأَهْلَ الصَّنَائِعِ فِيمَا يَتَّخِذُ مِنَ الْأَلَاتِ وَالذَّمَالِ وَالْمَوَاعِينِ
فَتَشْمَلُ الْخِيسَارَةَ سَائِرَ الْأَصْنَافِ وَالطَّبَقَاتِ وَتَمَوَّلَى عَلَى السَّاعَاتِ وَتُجَحِّفُ بِرُؤُوسِ
الْأَمْوَالِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَلِيحَةً إِلَّا الْقَعُودَ عَنِ الْأَسْوَاقِ لِذَهَابِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فِي
جَبْرِهَا بِالْأَرْبَاحِ وَيَتَنَاقَلُ الْوَارِدُونَ مِنَ الْأَفَاقِ لِشِرَاءِ الْبُضَائِعِ وَيَبْعُهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
فَتَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ الرِّعَايَا لِأَنَّ عَامَتَهُ مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَإِذَا كَانَتْ
الْأَسْوَاقُ عَطْلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ وَتَنْقُصُ جِبَايَةُ السُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ
أَوْسَطِ الدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الدُّمُكُوسِ عَلَى الْبَيْعَاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَيُؤْوِلُ ذَلِكَ
إِلَى تَلَاثِي الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمُرَانِ الْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَذَا الْخَلَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَلَا يَشْعُرُ
بِهِ هَذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الذَّرَائِعِ وَالْأَسْبَابِ إِلَى اخْتِذِ الْأَمْوَالِ وَأَمَّا اخْتُذَاهَا مَجَانًا
وَالْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي
إِلَى الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْقِصُ الدَّوْلَةَ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ الْمُفْضِي إِلَى
الْإِنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الدُّمُكَايَسَةَ فِي
الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَطْلِ سَدًّا لِأَبْوَابِ الْمَفَاسِدِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى
انْتِقَاضِ الْعُمُرَانِ بِالْهَرَجِ أَوْ بَطْلَانِ الْمَعَاشِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّاعِيَ لِذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ
حَاجَةُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى الْإِكْتِثَارِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَعْضُ لَهُمْ مِنَ التَّرَفِ فِي الْأَحْوَالِ
فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَعْظُمُ الْخَرْجُ وَلَا يَبْقَى بِهِ الدَّخْلُ عَلَى الْقَوَانِينِ الْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ
الْقَبَابَ وَوُجُوهًا يُوسِعُونَ بِهَا الْجَبَايَةَ لِيَفِي لَهُمْ الدَّخْلُ بِالْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّرَفُ يَزِيدُ
وَالْخَرْجُ يَسْبِيهِ يَكْثُرُ وَالْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ بِذَلِكَ يَزِيدُ
إِلَى أَنْ تَحْمِيَ دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرِسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع والاربعون

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يعظم عند الهرم
إِعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنِ مَنَازِعِ الْمُلْكِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ
لِأَنَّه لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ اسْتِبْلَاؤُهَا وَالْبِدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ
الْعَصَبِيَّةِ وَالْدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِالذِّمَنِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا

بِعِزِّ الْغَلْبِ فَقَطَّ فَالْبِدَاوَةُ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ الْغَلْبُ بَعِيدَةٌ أَيْضًا عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَمَذَاهِبِهِ
 فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بَدْوِيَّةً كَانَتْ صَاحِبِيهَا عَلَى حَالِ الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ
 وَالْقُرْبِ مِنَ النَّاسِ وَسَهْوَلَةِ الْإِذْنِ فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْإِنْتِرَادِ بِنَفْسِهِ عَنِ
 النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِّ شُرُوقِهِ لِمَا يَكْثُرُ حَيْثُئِذٍ بِحَاشِيَتِهِ فَيَطْلُبُ
 الْإِنْتِرَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَا اسْتَطَاعَ وَيَتَّخِذُ الْإِذْنَ بِبَابِهِ عَلَى مَنْ لَا يَأْمَنُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ
 دَوْلَتِهِ وَيَتَّخِذُ حَاجِبًا لَهُ عَنِ النَّاسِ يَقْبِضُهُ بِبَابِهِ لِهَيْدِهِ الْوَلِيْفِيَّةَ ثُمَّ إِذَا اسْتَفْجَلَ الْمَلِكُ
 وَجَاءَتْ مَذَاهِبُهُ وَمَنَازِعُهُ اسْتَحْتَمَاتِ أَخْلَاقِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَخْلَاقِ الْمَلِكِ وَهِيَ أَخْلَاقُ
 غَرِيبَةٍ مُخْصُوصَةٌ يَحْتَاجُ مَبَاشَرُهَا إِلَى مُدَارَاتِهَا وَمَعَامَلَتِهَا بِمَا يَجِبُ لَهَا وَرُبَّمَا جَهَلَ تِلْكَ
 الْأَخْلَاقَ مِنْهُمْ بَعْضُ مَنْ يَبَاشِرُهُمْ فَوْقَ فِيمَا لَا يُرْضِيهِمْ فَسَخَطُوا وَصَارُوا إِلَى حَالَةِ الْإِنْتِقَامِ
 مِنْهُ فَأَنْتَرَدَ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَدَابِ الْخَوَاصِّ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَحَجَّبُوا غَيْرَ أَوْلِيكَ الْخَاصَّةِ
 عَنِ لِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حِفْظًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُعَايِنَةِ مَا يُسْخِطُهُمْ عَلَى النَّاسِ مِنْ
 التَّعَرُّضِ لِعِقَابِهِمْ فَصَارَ لَهُمْ حَجَابٌ آخَرٌ أَخْصُ مِنْ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ
 خَوَاصُّهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إِلَى
 مَجَالِسِ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ
 الدَّوْلَةِ كَمَا ذَكَرْنَا كَمَا حَدَّثَ لِيَأْمُرَ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَخُلَفَاؤُكَ بَنِي أُمَيَّةَ وَكَانَ
 الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسَمَّى عِنْدَهُمُ الْحَاجِبُ جَرَبًا عَلَى مَذَهَبِ الْإِسْتِشْقَاقِ الصَّحِيحِ
 ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ وَجَدَتِ الدَّوْلَةَ مِنَ التَّرَفِ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ
 وَكَمَلَتْ خَلْقُ الْمَلِكِ عَلَى مَا يَجِبُ فِيهَا فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِجَابِ الثَّانِي وَصَارَ اسْمُ الْحَاجِبِ
 أَخْصَّ بِهِ وَصَارَ بِبَابِ الْخُلَفَاءِ دَارَانَ لِلْعَبَّاسِيَّةِ دَارَ الْخَاصَّةِ وَدَارَ الْعَامَّةِ كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ
 فِي أَخْبَارِهِمْ ثُمَّ حَدَّثَ فِي الدَّوْلِ حَجَابٌ ثَالِثٌ أَخْصُ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ الْحَجَرِ
 عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَخَوَاصَّ الْمَلِكِ إِذَا نَصَبُوا الْإِنْبَاءَ مِنَ الْأَعْقَابِ
 وَحَاوَلُوا الْإِسْتِبْدَادَ عَلَيْهِمْ فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْتَبْدَأُ أَنْ يَحْجُبَ عَنْهُ بِطَانَةَ ابْنِهِ
 وَخَوَاصَّ أَوْلِيَائِهِ يَوْمَهُ أَنْ فِي مَبَاشَرَتِهِمْ إِيَّاهُ خَرَقَ حِجَابَ الْهَيْبَةِ وَفَسَادَ قَانُونِ الْأَدَبِ
 لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ لِقَاءَ الْغَيْرِ وَيَعُودَهُ مَلَاسَةً أَخْلَاقِهِ هُوَ حَتَّى لَا يَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُ إِلَى أَنْ
 يَسْتَحْكِمَ الْإِسْتِبْدَاءَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ هَذَا الْحِجَابُ مِنْ دَوَاعِيهِ وَهَذَا الْحِجَابُ لَا يَقَعُ فِي

الغالب إلا وأخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لأن القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم إما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه

الفصل الخامس والاربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد ويفرد به ويأنف حينئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم وتزعوا إلى القاصية إليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاعتزاز والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وأنظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حزيناً مجتمعاً ونطاقاً ممتداً في الاتساع وعصية بني عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينقض عزق من الخلافة سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لذراحتهم العصية القوية ثم لما خرج الأور من بني أمية واستقل بنو العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف واذنت بالتقص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدثت بها ملكاً واقطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البربرة من أوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة نقلاً فاضطرب الأغالبة في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتاباة وصناجة واستولوا على أفريقية والمغرب ثم مضر والشام والحجاز وغلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس

مَرَكَزَ الْعَرَبِ وَأَصْلَهُمْ وَمَادَّتُهُمُ الْإِسْلَامُ وَدَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ الْمُجَدِّدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ
 مَلِكُهُمُ الْقَدِيمُ وَخِلَافَتُهُمْ بِالْمَشْرِقِ وَدَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ
 وَالْمَ تَزَلْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ أَنْقِرَاضُهَا مُتَقَارِبًا أَوْ جَمِيعًا وَكَذَلِكَ انْقَسَمَتِ دَوْلَةُ
 بَنِي الْعَبَّاسِ بِدَوْلِ أُخْرَى وَكَانَ بِالْقَاصِيَّةِ بَنُو سَاسَانَ فِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَخُرَّاسَانَ وَالْعُلُوبِيَّةَ
 فِي الدَّلِيمِ وَطَبْرِسْتَانَ وَالَّذِي إِلَى أَسْتِيْلَاءِ الدَّلِيمِ عَلَى الْعِرَاقِينَ وَعَلَى بَغْدَادَ وَالْخَلْفَاءُ
 ثُمَّ جَاءَ السُّجُوفِيَّةُ فَمَلَكَوا جَمِيعَ ذَلِكَ ثُمَّ انْقَسَمَتِ دَوْلَتُهُمْ أَيْضًا بَعْدَ الْإِسْتِفْحَالِ كَمَا
 هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَكَذَلِكَ أَعْتَبِرُهُ فِي دَوْلَةِ صَنْهَاجَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ لَمَّا بَلَغَتْ
 إِلَى غَايَتِهَا أَيَّامَ بَادِيَسَ بْنِ الْمَنْصُورِ خَرَجَ عَلَيْهِ عَمَّهُ حَمَادٌ وَأَقْطَعَ مَا لِكَ الْعَرَبِ لِنَفْسِهِ
 مَا بَيْنَ جَبَلِ أُوْرَاسَ إِلَى تَلْمُسَانَ وَمَلُوكِيَّةَ وَأَخْتَطَّ الْقَلْعَةَ بِجَبَلِ كِتَامَةَ حِيَالَ الْمَسِيلَةِ وَنَزَلَهَا
 وَأَسْتَوْلَى عَلَى مَرَكَزِهِمْ أَشِيرَ بِجَبَلِ تَيْطَرِي وَأَسْتَحْدَثَ مُلْكًا آخَرَ قَسِيمًا لِمُلْكِ آلِ بَادِيَسَ
 وَبَقِيَ آلُ بَادِيَسَ بِالْقَيْرَوَانَ وَمَا إِلَيْهَا وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَرَضَ أَمْرُهَا جَمِيعًا وَكَذَلِكَ
 دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ لَمَّا تَقَلَّصَ ظَاهِبًا ثَارَ بِأَفْرِيقِيَّةَ بَنُو أَبِي حَنْصِ فَاسْتَقْبَلُوا بِهَا وَأَسْتَحْدَثُوا
 مُلْكًا لِأَعْقَابِهِمْ بِنُوحِيَّيْهَا ثُمَّ لَمَّا اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ وَأَسْتَوْلَى عَلَى الْغَايَةِ خَرَجَ عَلَى الْمَمَالِكِ
 الْغَرْبِيَّةِ مِنْ أَعْقَابِهِمُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَاءَ يَحْيَى ابْنُ السُّلْطَانِ أَبِي اسْتَحْقَ ابْنِ رَاهِمِ رَابِعَ خُلَفَائِهِمْ
 وَأَسْتَحْدَثَ مُلْكًا بِجَبَايَةَ وَقَسَنْطِينَةَ وَمَا إِلَيْهَا أَوْرَثَهُ بَنِيهِ وَقَسَمُوا بِهِ الدَّوْلَةَ قَسْمَيْنِ
 ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّ الْخَضِرِ وَبُتُوسَ ثُمَّ انْقَسَمَ الْمُلْكُ مَا بَيْنَ أَعْقَابِهِمْ ثُمَّ عَادَ الْإِسْتِيْلَاءُ
 فِيهِمْ وَقَدْ يَنْتَهِي الْإِنْقِسَامُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ دَوْلَتَيْنِ وَثَلَاثٍ فِي غَيْرِ أَعْيَاصِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمِهِ
 كَمَا وَقَعَ فِي مَلُوكِ الطُّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمَلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ وَفِي مُلْكِ صَنْهَاجَةَ بِأَفْرِيقِيَّةَ
 فَقَدْ كَانَ لِآخِرِ دَوْلَتِهِمْ فِي كُلِّ حِصْنٍ مِنْ حِصُونِ أَفْرِيقِيَّةَ ثَائِرٌ مُسْتَقِلٌّ بِأَمْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ
 ذِكْرُهُ وَكَذَا حَالَ الْجُرَيْدِ وَالزُّبَابِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ قَبِيلِ هَذَا الْعَهْدِ كَمَا نَدَّ كُرُهُ وَهَكَذَا شَأْنُ
 كُلِّ دَوْلَةٍ لِأَبَدٍ وَأَنْ يَعْزُضَ فِيهَا عَوَارِضُ الْهَرَمِ بِالْتَرَفِ وَاللَّعَّةِ وَتَقْلُضُ ظِلَّ الْعَلَبِ فَيَنْقَسِمُ
 أَعْيَاصُهَا وَمَنْ يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا لِأَمْرٍ وَيَتَعَدَّدُ فِيهَا الدُّوَلُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل السادس والاربعون

في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحدٍ وبيناً أنها

تَحَدَّثُ لِلدَّوْلَةِ بِالطَّبَعِ وَأَنَّهَا كَلَّمَهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لَهَا وَإِذَا كَانَ الْهَرَمُ طَبِيعِيًّا فِي الدَّوْلَةِ
كَانَ حَدُوثُهُ بِمِثَابَةِ حَدُوثِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ كَمَا يَحْدُثُ الْهَرَمُ فِي الْمِرْجَاحِ الْحَيَوَانِيِّ
وَالْهَرَمُ مِنَ الْأَرَاضِ الْمَزْمَنَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ دَوَائِهَا وَلَا زِنْفَاعَهَا بَلْ أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ وَالْأُمُورُ
الطَّبِيعِيَّةُ لَا تَنْبَدِلُ وَقَدْ يَنْبَغُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلِ مِنْ لَهْ يَقْظَةُ فِي السِّيَاسَةِ فَيَرَى مَا
نَزَلَ بِدَوْلَتِهِمْ مِنْ عَوَارِضِ الْهَرَمِ وَيُظَنُّ أَنَّهُ مُمَكِّنُ الِارْتِفَاعِ فَيَأْخُذُ نَفْسَهُ بِتَلَا فِي الدَّوْلَةِ
وَإِصْلَاحِ مِرْجَاحِهَا عَنْ ذَلِكَ الْهَرَمِ وَيَحْسِبُهُ أَنَّهُ لِحَقِّهَا بِتَقْصِيرِ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ
وَعَفْوَتِهِمْ وَأَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ وَالْعَوَائِدُ هِيَ الْمَانِعَةُ لَهُ مِنْ تَلَا فِيهَا
وَالْعَوَائِدُ مَنَزَلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ أُخْرَى فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ مِثْلًا أَبَاهُ وَأَكْثَرَ أَهْلَ بَيْتِهِ يَلْبَسُونَ
الْحَرِيرَ وَالذَّبِيحَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِالذَّهَبِ فِي السَّلَاحِ وَالْمَرَكَبِ وَيَمْتَحِجُونَ عَنِ النَّاسِ فِي
الْمَجَالِسِ وَالصَّلَوَاتِ فَلَا يُمَكِّنُهُ مُخَالَفَةُ سَلْفِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْخُشُونَةِ فِي اللَّبَاسِ وَالزِّيِّ
وَالْإِخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ إِذِ الْعَوَائِدُ حِينَئِذٍ تَمْنَعُهُ وَتُقْبِحُ عَلَيْهِ رُتْبَتَهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَرُمِيَ
بِالْجُنُونِ وَالْوَسْوَاسِ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْعَوَائِدِ دَفْعَةً وَخَشْيَ عَلَيْهِ عَائِدَةُ ذَلِكَ وَعَاقِبَتُهُ فِي
سُلْطَانِهِ وَأَنْظُرْ شَأْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي انْكَارِ الْعَوَائِدِ وَتَخَالُفَتِهَا لَوْلَا الذِّأْيِدُ الْإِلَهِيُّ وَالنَّصْرُ
السَّمَاوِيُّ وَرُبَّمَا تَكُونُ الْعَصِيَّةُ قَدْ ذَهَبَتْ فَتَكُونُ الْأَبِيَّةُ تَعَوُّضٌ عَنْ مَوْفِعِهَا مِنْ
النَّفُوسِ فَإِذَا أُرِيَتْ تِلْكَ الْأَبِيَّةُ مَعَ ضَعْفِ الْعَصِيَّةِ تَجَاسَرَتْ الرَّعَايَا عَلَى الدَّوْلَةِ بِذَهَابِ
أَوْهَامِ الْأَبِيَّةِ فَتَنْدَرِعُ الدَّوْلَةُ بِتِلْكَ الْأَبِيَّةِ مَا أَمَكَّنَهَا حَتَّى يَنْقُضِيَ الْأَمْرُ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ
عِنْدَ آخِرِ الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ تُوهِمُ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ ارْتَفَعَ عَنْهَا وَيَوْهَضُ ذُبَالُهَا إِيمَاضَةَ الْخُمُودِ
كَمَا يَقَعُ فِي الذُّبَالِ الْمُسْتَعْلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مَقَارَبَةِ انْطِفَائِهِ يَوْهَضُ إِيمَاضَةَ تُوهِمُ أَنَّهَا اشْتَعَالٌ
وَهِيَ انْطِفَاءٌ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَلَا تَغْفُلْ سِرًّا اللَّهُ تَعَالَى وَحِكْمَتُهُ فِي أَجْرَادِ وُجُودِهِ عَلَى مَا
قَدَّرَ فِيهِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

الفصل السابع والاربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إِعْلَمَنَّ أَنَّ مَبْنَى الْمَلِكِ عَلَى أَسَاسِينَ لَا بَدَّ مِنْهُمَا فَالْأَوَّلُ الشُّوْكَ وَالْعَصِيَّةُ وَهُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ
بِالْجُنْدِ وَالثَّانِي الْمَالُ الَّذِي هُوَ قَوَامُ أَوْلِيكَ الْجُنْدِ وَإِقَامَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ
الْأَحْوَالِ وَالْخُلَلِ إِذَا طَرَقَ الدَّوْلَةَ طَرَقَهَا فِي هُدَيْنِ الْأَسَاسِينَ فَلَنْذَكَرُ أَوَّلًا طَرُوقَ

الْخَلَلِ فِي الشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى طُرُوقِهِ فِي الْمَالِ وَالْحَبَابَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّ تَمْهِيدَ
 الدَّوْلَةِ وَتَأْسِيسَهَا كَمَا فَلَنَاهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَأَنَّهُ لَا بَدْ مِنْ عَصِيَّةٍ كَبْرَى جَامِعَةٍ
 لِلْعَصَائِبِ مُسْتَنْبَعَةٍ لَهَا وَهِيَ عَصِيَّةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْخَاصَّةِ مِنْ عَشِيرَةٍ وَقَبِيلَةٍ فَإِذَا جَاءَتِ
 الدَّوْلَةُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ مِنَ التَّرَفِ وَجَدَعَ أَنْوْفَ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ كَانَ أَوَّلُ مَا يُجَدَعُ أَنْوْفَ
 عَشِيرَتِهِ وَذَوِي قُرْبَاهُ الْمُقَامِسِينَ لَهُ فِي اسْمِ الْمَلِكِ فَيَسْتَبِدُّ فِي جَدْعِ أَنْوْفِهِمْ بِمَا بَلَغَ
 مِنْ سَوَادِهِمْ لِمَكَانِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَالْعِزِّ وَالغَلْبِ فَيَحْبِطُ بِهِمْ هَادِمَانَ وَهَمَّا التَّرَفُ وَالْقَهْرُ
 ثُمَّ يَصِيرُ الْقَهْرُ آخِرًا إِلَى الْقَتْلِ لِمَا يَحْضُلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ رُسُوحِ الْمَلِكِ لِصَاحِبِ
 الْأَمْرِ فَيَقْلُبُ غَيْرَتَهُ مِنْهُمْ إِلَى الْخَوْفِ عَلَى مَلِكِهِ فَيَأْخُذُهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْإِهَانَةِ وَسَبِّ
 النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي تَعَوَّدُوا الْكَثِيرَ مِنْهُ فَيُهْلِكُونَ وَيَقْلُونَ وَتَفْسُدُ عَصِيَّةُ صَاحِبِ
 الدَّوْلَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ الْعَصِيَّةُ الْكَبْرَى الَّتِي كَانَتْ يُجْمَعُ بِهَا الْعَصَائِبُ وَتَسْتَبْعِيهَا فَتَحُلُّ
 عُرْوَتَهَا وَتَضَعُ شِكَمَتَهَا وَتُسْتَبَدُّ عَنْهَا بِالطَّانَةِ مِنْ مَوَالِي النِّعْمَةِ وَصَنَائِعِ الْإِحْسَانِ
 وَتَتَّخِذُ مِنْهُمْ عَصِيَّةً إِلَّا أَنَّهُمَا لَيْسَتْ مِثْلَ تِلْكَ الشَّدَةِ الشُّكِيمَةِ لِفَقْدَانِ الرَّحْمِ وَالْقَرَابَةِ
 مِنْهَا وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ شَأْنَ الْعَصِيَّةِ وَقُوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِالْقَرَابَةِ وَالرَّحْمِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ
 فِي ذَلِكَ فَيَفْرُدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَنِ الْعَشِيرِ وَالْأَنْصَارِ الطَّبِيعِيِّ وَيُحْسِنُ بِذَلِكَ أَهْلَ
 الْعَصَائِبِ الْآخَرَى فَيَتَجَاسَرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بَطَانَتِهِ تَجَاسَرًا طَبِيعِيًّا فَيُهْلِكُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ
 وَيَتَبِعُهُمْ بِالْقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَقْلُدُ الْآخَرَ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ الْأَوَّلِ مَعَ مَا
 يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مَهْلِكَةِ التَّرَفِ الَّذِي قَدَمْنَا فَيَسْتَوِلِي عَلَيْهِمْ الْهَلَاكُ بِالتَّرَفِ
 وَالْقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِبْغَةِ تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَيَفْشُوا بِعِزَّتِهَا وَتَوَرَّتْهَا وَيَصِيرُوا أَوْجَرَ
 عَلَى الْحِمَايَةِ وَيَقْلُونَ لِلذَّكَاءِ فَتَقِلُّ الْحِمَايَةُ الَّتِي تَنْزَلُ بِالْأَطْرَافِ وَالتَّغْوِيرُ فَتَتَجَاسَرُ الرَّعَايَا
 عَلَى بَعْضِ الدَّعْوَةِ فِي الْأَطْرَافِ وَيُبَادِرُ الْخَوَارِجُ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى
 تِلْكَ الْأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ حَيْثُ مِنْهُمْ حُصُولَ غَرْضِهِمْ بِمَبَايَعَةِ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ لَهُمْ
 وَأَمْنِهِمْ مِنْ وُصُولِ الْحَامِيَةِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَدَرَّجُ وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ يَتَضَايِقُ حَتَّى
 تَصِيرُ الْخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ الْأَمَاكِنِ إِلَى مَرَكِّزِ الدَّوْلَةِ وَرُبَّمَا انْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ عِنْدَ
 ذَلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدَرِ قُوَّتِهَا فِي الْأَصْلِ كَمَا فَلَنَاهُ وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْلِ
 عَصِيَّتِهَا لَكِنِ إِذْ عَانَا لِأَهْلِ عَصِيَّتِهَا وَغَلَبِهِمْ الْمَعْبُودِ وَأَعْتَبَرْنَا هَذَا فِي دَوْلَةِ الْعَرَبِ فِي

الْإِسْلَامَ كَيْفَ أَنْتَهتْ أَوْ لَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ نَافِذًا فِي جَمِيعِ
 الْعَرَبِ بِعَصِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ حَتَّى لَقِدَ أَمْرَ سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمَشْقٍ بِقَتْلِ
 عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ بِقَرْطَبَةَ فَقَتِلَ وَلَمْ يَرِدْ أَمْرُهُ ثُمَّ تَلَاشَتْ عَصِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةٍ
 بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّرَفِ فَأَقْرَضُوا وَجَاءَ بَنُو الْعَبَّاسِ فَغَضُّوا مِنْ أَعْنَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا
 الطَّالِبِيِّنَ وَشَرَّدُوهُمْ فَأَتَحَلَّتْ عَصِيَّةُ عَبْدِ مَنْفٍ وَتَلَاشَتْ وَتَجَاسَرَ الْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَاسْتَبَدَّ
 عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْقَاصِيَةِ مِثْلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَأَنْفَسَتِ
 الدَّوْلَةُ ثُمَّ خَرَجَ بَنُو آدْرِيسَ بِالْمَغْرِبِ وَقَامَ الْبَزْبُزُ بِأَمْرِهِمْ إِذْ عَانَا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي لَهُمْ
 وَأَمْنًا أَنْ تَصْلَهُمْ مَقَاتِلُهُ أَوْ حَامِيَةُ الدَّوْلَةِ فَإِذَا خَرَجَ الدَّعَاةُ آخِرًا فَيَتَعَلَّبُونَ عَلَى الْأَطْرَافِ
 وَالْقَاصِيَةِ وَتَحْصُلُ لَهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةٌ وَمَلِكٌ تَنْقَسِمُ بِهِ الدَّوْلَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ مَتَى زَادَتْ
 الدَّوْلَةُ ثِقَلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرْكَزِ وَتَضَعُفُ الْبَطَانَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَخَذَ مِنْهَا التَّرَفُ
 فَتَهْلِكُ وَتَضَعُفُ الدَّوْلَةُ الْمُنْقَسِمَةُ كُلُّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمْدُهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَسْتَعِينِي
 عَنِ الْعَصِيَّةِ بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الصَّبْغَةِ فِي نَفْسِ أَهْلِ إِيَالَتِهَا وَهِيَ صِبْغَةُ الْأَنْقِيَادِ وَالتَّسْلِيمِ
 مِنْذُ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَا يَعْقِلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ مَبْدَأَهَا وَلَا أَوَّلِيَّتَهَا فَلَا يَعْقِلُونَ إِلَّا
 التَّسْلِيمَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعِينِي بِذَلِكَ عَنْ قُوَّةِ الْعَصَائِبِ وَبِكُفِّي صَاحِبَهَا بِمَا حَصَلَ
 لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا الْإِجْرَاءِ عَلَى الْحَامِيَةِ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمُرْتَزِقٍ وَيَعْضُدُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي
 النُّفُوسِ عَامَةً مِنَ التَّسْلِيمِ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ عَصِيَانًا أَوْ خُرُوجًا إِلَّا وَالْجُمْهُورُ
 مُنْكَرُونَ عَلَيْهِ مُخَافُونَ لَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّصَدِّي لِنِزَالِكِ وَلَوْ جَبَدَ جَبْدَهُ وَرُبَّمَا كَانَتْ
 الدَّوْلَةُ فِي هَذَا الْحَالِ أَسْلَمَ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُنَازَعَةِ لِاسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ التَّسْلِيمِ وَالْأَنْقِيَادِ
 لَهُمْ فَلَا تَكَادُ النُّفُوسُ تُحَدِّثُ سِرَّهَا بِمُخَالَفَةٍ وَلَا يَخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا انْحِرَافٌ عَنِ
 الطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ الْهَرْجِ وَالْإِنْتِقَاضِ الَّذِي يَحْدُثُ مِنَ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ
 ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ تَنَلَّاشِي فِي ذَاتِهَا شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ
 الْعَادِمِ لِلغِذَاءِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ
 أَمَدٌ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . وَأَمَّا الْخُلَلُ الَّذِي يَتَطَرَّقُ مِنْ جِهَةِ
 الْمَالِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا تَكُونُ بِدَوِيَّةٍ كَمَا مَرَّ فَيَكُونُ خُلُقُ الرَّفِي فِي بِالرَّعَايَا
 وَالْقَصْدِ فِي النَّفَقَاتِ وَالتَّعَفُّفِ عَنِ الْأَمْوَالِ فَتَنْتَجَبِي عَنِ الْإِمْعَانِ فِي الْجَبَايَةِ وَالتَّحَدُّقِ

وَالْكَيْسِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحِسْبَانِ الْعَمَالِ وَلَا دَاعِيَةً حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النِّفْقَةِ
فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ الْمَالِ ثُمَّ يَحْضُلُ الْأَسْتِيْلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْجِلُ الْمَلِكُ فَيَدْعُو
إِلَى التَّرْفِ وَيَكْثُرُ الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَيَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعَمُومِ
بَلْ يَتَدَعَى ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرْفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النِّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرَّعِيَةِ
لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مَلُوكِهِا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمَكُوسِ عَلَى
أَثْمَانِ الْبِيَاعَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ لِإِذْرَارِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرْفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ
بِالزَّرْفِ وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرْفِ
فَلَا تَبْقَى بَهَا الْمَكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدْ اسْتَفْجَلَتْ فِي الْأَسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهَا
مِنَ الرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ
فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشِبْهِهِ أَوْ بَعِيرِ شِبْهِهِ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى
الدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفِشْلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَدَاوَى بِسَكِينَةِ
الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَليجَهَةً وَتَكُونُ جَبَاةَ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ
قَدْ عَظُمَتْ ثُرُوهُمْ فِي هَذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجَبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا أَسْعَ لِدَلِكِ
مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِأَحْجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَتَفْشُو السَّعَايَةَ فِيهِمْ بَعْضُهُمْ
مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحَقْدِ فَتَعْمَهُمُ النَّكَبَاتُ وَالْمُصَادِرَاتُ وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ
تَذْهَبَ ثُرُوهُمْ وَتَنَلِشَى أَحْوَالَهُمْ وَيَفْقَدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأَهْبَةِ وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا
أَصْطَلَمَتْ نَعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمْ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرَّعَايَا سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهْنُ
فِي هَذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشُّوْكَهَ وَضَعُفَتْ عَنِ الْأَسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ
الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى مَدَارَةِ الْأُمُورِ بِيَدِ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعُ مِنَ السِّيفِ لِقَلَّةِ غِنَائِهِ فَيَعْظُمُ
حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النِّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلَا يَعْزِي فِيهَا يَرِيدُ وَيَعْظُمُ الْهَرَمُ
بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النُّوَاحِي وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى
أَنْ تُقْضَى إِلَى الْهَلَاكِ وَتَنْعَوِّضُ مِنَ الْأَسْتِيْلَاءِ الْكَمَلِ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ أَنْزَعَهَا مِنْ
أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَالْأَبْقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَاشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السِّرَاحِ إِذَا
فِي زَيْتِهِ وَطَفِيءَ وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

اعلم ان نشأة الدول وبيدائها اذا اخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص
تكون على نوعين إما بان يستبد ولاية الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص
ظلمها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يسجد لها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه
عنه أبناؤه أو مواليه ويستفحل أهم الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك الملك
ويتقارعون عليه وتتارعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على
صاحبه ويتزعم ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين اخذت دولتهم في الهرم
وتقلص ظلمها عن القاصية واستبد بنو ساسان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام
وبنو طولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالاندلس واقترق ملكها في الطوائف
الذين كانوا ولايتها في الأعمال وانقسمت دولاً وملوكاً اورثوها من بعدهم من
قرابتهم أو مواليهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرباً لانهم
مستقرون في رئاستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وإنما
الدولة ادر كها الهرم وتقلص ظلمها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني
بان يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس
عليها كما اشرنا اليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيراً في قومه قد استفحل أمره
فيسمو بهم الى الملك وقد حدثوا به انفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة
المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالطالبة
الى ان يظفروا بها ويزنون^(١) كما يتبين والله سبحانه وتعالى اعلم

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستقرة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الأطراف اذا
تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهو لا يقع منهم مطالبة للدولة في الاكثر
كما قدمناه لان فصارهم القنوع بما في ايديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثاني نوع

(١) توله ويزنون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء اه

الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك
 انما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاه ذلك وواف به
 فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تنكوز وتصل الى ان يقع لهم
 الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة والسبب في
 ذلك ان الظفر في الحروب انما يقع كما قدمناه بامور نفسانية وهمية وان كان
 العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما
 مر ولذا كان الخداع من ارفع ما يستعمل في الحرب واكثر ما يقع الظفر به وفي
 الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورة
 واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة
 ويكثر من همم اتباعه واهل شوكته وان كان الاقربون من بطانته على بصيرة في
 طاعته ومؤازرته الا ان الاخرين اكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم
 للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستقرة يرجع
 الى الصبر والمطولة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة فتضحل عقائد التسليم لها
 من قومه وتنبعث منهم الهم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وايضا
 فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكمت لهم من الملك وتوسع من النعم
 واللدات واخصوا به دون غيرهم من اموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول
 واستحادة الاسلحة وتعظم فيهم الابهة الماكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم
 اختيارا واضطرابا فيرهبون بذلك كله عدوهم واهل الدولة المستجدة بمعزل عن
 ذلك لما هم فيه من البدوة واحوال الفقر والخصاصة فيسبق الى قلوبهم اوهام
 الرغب بما يأنهم من احوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من اجل ذلك
 فيصير امرهم الى المطولة حتى تاخذ المستقرة مأخذا من الهرم ويستحكمت
 الخلل فيها في العصبية والجبابة فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في
 الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عبادته وايضا فاهل الدولة المستجدة
 كلهم مباينون للدولة المستقرة بانسابهم وعوائدهم وفي سائر مناجرتهم ثم هم مفخرون
 لهم ومنايدون بما وقع من هذه المطالبة ويعلمهم في الاستيلاء عليه فنتمكن

الْمُبَاعَدَةَ بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ سِرًّا وَجَبْرًا وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ خَبْرٌ عَنْ
 أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ يَصِيدُونَ مِنْهُ غَرَّةً^(١) بَاطِنًا وَظَاهِرًا لِانْقِطَاعِ الْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ
 فَيَقِيمُونَ عَلَى الْمَطَالَبَةِ وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكَلُونَ عَنِ الْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ بِزَوَالِ
 الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ وَفَنَاءِ عُمُرِهَا وَوُفُورِ الْخِلَالِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَاتِّضاحِ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ
 الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ دَرَمِهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ فُوتُومُهُمْ بِمَا أَقْطَعُوهُ
 مِنْ أَعْمَالِهَا وَتَقْصُوهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَبَعَتْهُمْ بِدَا وَاحِدَةً لِلْمُنَاجَزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ
 بَثٌ فِي عَزَائِهِمْ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي الْمَطَاوِلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ الْإِسْتِيْلَاءُ آخِرًا
 بِالْمُعَاجَلَةِ وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ ظَهَرُوا حِينَ قَامَ الشَّيْخَةُ بِخُرَّاسَانَ
 بَعْدَ انْقِطَاعِ الدَّعْوَةِ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْمَطَالَبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدُ وَحِينَئِذٍ تَمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ
 وَأَسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا الْعُلُوِيَّةِ بِطَبْرِسْتَانَ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ فِي الدَّيْلَمِ
 كَيْفَ كَانَتْ مَطَاوِلَتُهُمْ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى أَمْرُ الْعُلُوِيَّةِ وَسَمَا
 الدَّيْلَمِ إِلَى مَلِكِ فَارِسَ وَالْعَرَاقَيْنِ فَمَكَّثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً يَطَاوِلُونَ حَتَّى أَقْطَعُوا
 أَصْبَهَانَ ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَى الْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ وَكَذَا الْعَبِيدُونَ أَقَامَ دَاعِيَتَهُمْ بِالْمَغْرِبِ
 أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْبِيُّ بِنِي كِتَامَةَ مِنْ قِبَاةِ الْبُرْبُرِ عَشْرَ سِنِينَ وَبَزِيدُ تَطَاوُلُ بَنِي الْأَغْلَبِ
 بِأَفْرِيقِيَّةِ حَتَّى ظَفَرُوا بِهِمْ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْمَغْرِبِ كُلِّهِ وَسَمَّوْا إِلَى مَلِكِ مِصْرَ فَمَكَّثُوا
 ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي ظَلَمِهَا يَجْهَرُونَ إِلَيْهَا الْعَسَاكِرَ وَالْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ
 الْمُدَدُ لِمُدَاعَفَتِهِمْ بَرًّا وَبَحْرًا مِنْ بَغْدَادَ وَالشَّامِ وَمَلَكُوا الْإِسْكَندَرِيَّةَ وَالْفَيْيُومَ
 وَالصَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْحِجَازِ وَأَقِيمَتِ بِالْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ فَأَدْبَمَ
 جَوْهَرَ الْكَاتِبِ بَعْسَاكَرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَأَقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طَعْنَجٍ مِنْ أَصُولِهَا
 وَأَخْطَطَّ الْقَاهِرَةَ لِبِغَاءِ الْخَلِيفَةِ بَعْدَ الْمَعزِّ لِدِينِ اللَّهِ فَزَلَّهَا لِسِتِّينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا مِنْذُ
 اسْتِيْلَائِهِمْ عَلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَكَذَا السُّجُوقِيَّةِ مُلُوكِ التُّرْكِ لَمَّا اسْتَوْلُوا عَلَى بَنِي سَاسَانَ
 وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مَكَّثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يَطَاوِلُونَ بَنِي سَبَكْتِكِينَ بِخُرَّاسَانَ
 حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى دَوْلَتِهِ ثُمَّ زَحَنُوا إِلَى بَغْدَادَ فَاسْتَوْلُوا عَلَيْهَا وَعَلَى الْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ
 مِنَ الدَّهْرِ وَكَذَا التُّرْكِ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَارِزَةِ عَامَ سَبْعَةِ عَشْرَ وَسِتِّمِائَةٍ فَلَمْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْإِسْتِيْلَاءُ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَذَا أَهْلَ الْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ الْمُرَابِطُونَ مِنْ

(١) قولة شره بكسر العين اي غفلة

لِمُتُونَةٍ عَلَى مَلُوكِهِ مِنْ مَغْرَاوَةٍ فَطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ الْمُوحِدُونَ
بِدَعْوَتِهِمْ عَلَى لِمُتُونَةٍ فَمَكَّثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى
كُرْسِيِّهِمْ بِمِرَاكِشٍ وَكَذَا بَنُو مَرَيْنَ مِنْ زَنَاتَةَ خَرَجُوا عَلَى الْمُوحِدِينَ فَمَكَّثُوا يُطَاوَلُونَهُمْ
نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَاسْتَوْلُوا عَلَى فَاسٍ وَأَقْطَعُوهَا وَأَعْدَالَهَا مِنْ بَيْنِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا
فِي مُحَارَبَتِهِمْ ثَلَاثِينَ أُخْرَى حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمِرَاكِشٍ حَسَبَمَا نَدَّ كُرْ ذَلِكَ
كَلْمَةً فِي تَوَارِيخِ هَذِهِ الدُّوَلِ فَهَكَذَا حَالُ الدُّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْمَطَالِبَةِ
وَالْمَطَاوَلَةِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي
الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ اسْتِبْلَاؤُهُمْ عَلَى فَارِسٍ وَالرُّومِ لثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ
وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا
سِرُّهَا اسْتِمَاتَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ اسْتِبْعَادًا بِالْإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ
عَدُوِّهِمْ مِنَ الرَّعْبِ وَالتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذَلِكَ كَلْمَةً خَارِفًا لِلْعَادَةِ الْمُقَرَّرَةِ فِي مَطَاوَلَةِ الدُّوَلِ
الْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقَرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِفًا فَهُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ
الْمُتَعَارِفِ ظُهُورُهَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمُعْجَزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا الْأُمُورُ الْعَادِيَّةُ وَلَا
يُعْتَرَضُ بِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخمسون

في وفور العمران اخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات
إِعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيْمَا سَأَلْتَ أَنَّ الدُّوَلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بَدَّ لَهَا مِنَ الرِّفْقِ
فِي مَلَكَتِهَا وَالْأَعْتِدَالِ فِي إِبَالَتِهَا إِمَّا مِنَ الدِّينِ إِنْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ
الْمُكَارَمَةِ وَالْمُحَاسَنَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الْبِدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلدُّوَلِ وَإِذَا كَانَتْ الْمَلَكَةُ
رَفِيقَةً حَسَنَةً انْبَسَطَتْ أَمَالُ الرِّعَايَا وَانْتَشَطُوا لِلْعُمُرَانِ وَأَسْبَابُهُ تَتَوَفَّرُ وَيَكْثُرُ التَّنَاسُلُ
وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَلْمَةً بِالتَّدرِجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الْأَقْلِ وَفِي
انْقِضَاءِ الْجِيلَيْنِ تُشْرِفُ الدُّوَلَةُ عَلَى نِهَائِهِ عُمْرُهَا الطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينئِذٍ الْعُمُرَانُ فِي
غَايَةِ الْوُفُورِ وَالنَّمَاءِ وَلَا نَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ أَوَّخِرَ الدُّوَلَةِ يَكُونُ فِيهَا الْإِحْجَافُ
بِالرِّعَايَا وَسُوءِ الْمَلَكَةِ فَذَلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلْنَاهُ لِأَنَّ الْإِحْجَافَ وَإِنْ حَدَثَ
حِينئِذٍ وَقَلَّتِ الْجَبَايَا فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ أَجْلِ التَّدرِجِ

فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ثُمَّ إِنَّ الْجَمَاعَاتِ وَالْمَوْتَانَ تَكَثَّرَ عِنْدَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدُّوَلِ
وَالسَّبَبُ فِيهِ إِمَّا الْجَمَاعَاتُ فَلِقَبْضِ النَّاسِ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْقَلْحِ فِي الْأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَقَعُ
فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْعُدُونِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ أَوْ الْفِتَنِ الْوَاتِعَةِ فِي انْتِقَاصِ الرِّعَايَا
وَكَثْرَةِ الْخَوَارِجِ لِيَوْمِ الدَّوْلَةِ فَيَقْبَلُ احْتِكَارُ الزَّرْعِ غَالِبًا وَلَيْسَ صِلَاحُ الزَّرْعِ وَشِمْرَتُهُ
بِمُسْتَمِرِّ التَّوَجُّدِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَطَبِيعَةُ الْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ وَقَلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ
وَالْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضَعُفُ وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَالزَّرْعُ وَالتِّمَارُ وَالزَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ
النَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَابِهِمْ بِالْإِحْتِكَارِ فَإِذَا فُقِدَ الْإِحْتِكَارُ عَظُمَ تَوَقُّعُ النَّاسِ لِلْجَمَاعَاتِ
فَعَلَا الزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أَوْلُو الْخُصَاصَةِ فِيهِلِكُوا وَكَانَ بَعْضُ السَّنَوَاتِ الْإِحْتِكَارُ مَفْقُودًا
فَشَمَلَ النَّاسَ الْجُوعُ وَآمَّا كَثْرَةُ الْمَوْتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ الْجَمَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَا
أَوْ كَثْرَةِ الْفِتَنِ لِاخْتِلَالِ الدَّوْلَةِ فَيَكْثُرُ الْمَرْجُ وَالْقَتْلُ أَوْ وَفُوعُ الْوَبَاءِ وَسَبَبُهُ فِي
الْغَالِبِ فِسَادُ الْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ لِكَثْرَةِ مَا يَخَالطُهُ مِنَ الْعَفْنِ وَالرُّطُوبَاتِ الْفَاسِدَةِ
وَإِذَا فَسَدَ الْهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَمَلَابِسُهُ دَائِمًا فَيَسْرِي الْفَسَادُ إِلَى
مَزَاجِهِ فَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ الدَّرَضُ فِي الرِّئَةِ وَهَذِهِ هِيَ الطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاضُهَا
مَخْصُوصَةٌ بِالرِّئَةِ وَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ دُونَ الْقَوِيِّ وَالْكَثِيرِ فَيَكْثُرُ الْعَفْنُ وَيَتَضَاعَفُ
فَتَكْثُرُ الْحُمَمَاتُ فِي الْأَرْجِ وَتَمْرَضُ الْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ وَسَبَبُ كَثْرَةِ الْعَفْنِ وَالرُّطُوبَاتِ
الْفَاسِدَةِ فِي هَذَا كُلِّهِ كَثْرَةُ الْعُمَرَانِ وَوُفُورُهُ آخِرُ الدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حَسَنِ
الْمَلِكَةِ وَرَفِيقِهَا وَقِلَّةِ الْمَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَلِهَذَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ
تَخَلُّلَ الْخَلَاءِ وَالْقَفْرِ بَيْنَ الْعُمَرَانِ ضَرُورِيٌّ لِيَكُونَ تَمَوْجُ الْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصِلُ فِي
الْهَوَاءِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْعَفْنِ بِمُخَالَطَةِ الْحَيَوَانَاتِ وَيَأْتِي بِالْهَوَاءِ الصَّحِيحِ وَلِهَذَا أَيْضًا فَإِنَّ
الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمَدِينِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمَرَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ كَمَصْرٍ بِالْمَشْرِقِ
وَفَاسٍ بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ

الفصل الحادي والخمسون

في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره

اعلم انه قد تقدم لنا في غير موضع ان الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى
العمران الذي نتكلم فيه وانه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون

إِلَيْهِ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنْدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوجِبُ اتِّقَادَهُمْ
 إِلَيْهِ إِيْمَانُهُمْ بِالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلَّغُهُ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ يُوجِبُ
 اتِّقَادَهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابِ ذَلِكَ الْحَاكِمِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ فَالْأُولَى
 يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ وَلِمُرَاعَاتِهِ نَجَاةَ
 الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّانِيَةُ إِنَّمَا يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطَّ وَمَا تَسْمَعُهُ مِنَ السِّيَاسَةِ
 الْمَدِينِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ فِي نَفْسِهِ وَخَلْقِهِ حَتَّى يَسْتَعْنُوا عَنْ الْحُكْمِ رَأْسًا
 وَيُسَمُّونَ الْمَجْتَمَعَ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ مَا يُسَمَّى مِنْ ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ الْفَاصِلَةِ وَالْقَوَانِينِ
 الْمُرَاعَاةَ فِي ذَلِكَ بِالسِّيَاسَةِ الْمَدِينِيَّةِ وَلَيْسَ مُرَادُهُمُ السِّيَاسَةَ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ
 الْإِجْتِمَاعِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ الْفَاصِلَةُ عِنْدَهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ
 بَعِيدَةٌ الْوُجُوعِ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى جِهَةِ الْفَرَضِ وَالْقَدِيرِ ثُمَّ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ
 الَّتِي قَدَّمَانَهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا يُرَاعَى فِيهَا الْمَصَالِحُ عَلَى الْعُمُومِ وَمَصَالِحُ
 السُّلْطَانِ فِي اسْتِقَامَةِ مَلِكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ وَهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةَ الْفَرَنْسِ وَهِيَ عَلَى جِهَةِ
 الْحِكْمَةِ وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الْمِلَّةِ وَلِعَبْدِ الْخِلَافَةِ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ
 مُغْنِيَةٌ عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَأَحْكَامُ الْمَلِكِ مُنْدرِجَةٌ فِيهَا. الْوَجْهَ الثَّانِي
 أَنَّ يُرَاعَى فِيهَا مَصْلَحَةُ السُّلْطَانِ وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمَلِكُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ وَتَكُونُ
 الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْإِجْتِمَاعِ الَّتِي لِسَائِرِ
 الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا أَنَّ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا نَقَضِيهِ
 الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةَ بِحَسَبِ جَهْدِهِمْ فَقَوَانِينُهَا إِذَا اجْتَمَعَتْ مِنْ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ وَادَابِ
 خَلْقِيَّةٍ وَقَوَانِينِ فِي الْإِجْتِمَاعِ طَبِيعِيَّةٍ وَأَشْيَاءَ مِنْ مُرَاعَاةِ الشُّوْكَةِ وَالْعَصْبِيَّةِ ضَرُورِيَّةٍ
 وَالْإِقْتِدَاءِ فِيهَا بِالشَّرْعِ أَوْلَا ثُمَّ الْحُكَمَاءُ فِي آدَابِهِمْ وَالْمُلُوكُ فِي سَيْرِهِمْ وَمِنْ أَحْسَنِ
 مَا كَتَبَ فِي ذَلِكَ وَأُورِدَ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لَمَّا وُلَاهُ
 الْمَأْمُونُ الرَّقَّةَ وَمَضَرَ وَمَا بَيْنَهُمَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ طَاهِرٌ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ عِنْدَ إِلَيْهِ
 فِيهِ وَوَصَّاهُ بِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دَوْلَتِهِ وَسُلْطَانَتِهِ مِنَ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالْخَلْقِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ
 الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُلُوكِيَّةِ وَحَثَّهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيَمِ بِمَا لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ مُلْكٌ

وَلَا سَوْفَةً . وَنَصُّ الْكِتَابِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَمَا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدِّهِ
 لِأَشْرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْ آيَةِ سُخْطِهِ وَأَحْظَرِ رِعْيَتِكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَالزَّمَنِ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْفُوفٌ عَلَيْهِ
 وَمَسْتَوْفٍ عَنْهُ وَالْعَمَلِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعصمُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَجِّيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ
 عِقَابِهِ وَالْيَمْرِ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ مِنْ أَسْرَعَاكَ
 أَمْرُهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَالزَّمَكِ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالِدْفَعَ
 عَنْ حَرَمِيهِمْ وَمَنْصِبِيهِمْ وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَالْأَمْنَ لِسِرِّيهِمْ وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ
 وَمَوْأَدِكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ وَمَوْفِقَكَ عَلَيْهِ وَسَائِكَ عَنْهُ وَمُثَبِّكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ
 فَفَرَّغَ لِدَلِّكَ فِهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصْرَكَ وَلَا يُشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أَوْرِكَ وَمَلَاكُ
 شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَكُنُّ أَوَّلُ مَا تَلْزَمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْسُبُ إِلَيْهِ فَعَلَّكَ
 الْمَوَاطِبَةَ عَلَيَّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ
 قَبْلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتْلِ
 فِي قِرَاءَتِكَ وَتَدَمُّكُنَّ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَأَشْهَدُكَ وَتَلْتَصِرْفُ فِيهِ رَأْيِكَ وَنَيْتِكَ
 وَأَحْضُضُ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مَعْنَى مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَأَدَابَ عَائِيهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ أَتَّبِعَ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَالْمُشَارَةَ عَلَى خَلَاتِقِهِ وَافْتِنَاءَ أَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَعَاكَ أَمْرٌ نَاسَعَنَ
 عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبَازُومٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرٍ
 وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَأَتَمِّمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ
 مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ الْفَقْهَ وَآهْلَهُ وَالِدِينَ وَحَدَّثَتَهُ وَكِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ
 بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُّ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهَ فِي الدِّينِ وَالطَّابَ لَهُ وَنَحْتُ عَلَيْهِ وَالِدَعْرِفَةَ
 بِمَا يَنْتَقِرُّ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ بِهِ وَالنَّاهِي
 عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَوْبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزِدَادُ الْمَرْءَ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالًا
 لَهُ وَدَرَكَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظَهْرِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَالْيَمِينَةِ
 لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنَسَةِ بِكَ وَالثَّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ

نَفْعًا وَلَا أَحْصَأَ أَمْنًا وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا مِنْهُ وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ وَالرُّشْدُ دَائِلٌ عَلَى
 التَّوْفِيقِ وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَقِيَامُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْاِقْتِصَادِ وَكَذَا فِي
 دُنْيَاكَ كُلِّهَا وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَالْآجِرِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ
 وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ وَالْإِعَانَةِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْبُرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ إِذَا كَانَ يُطَلَّبُ بِهِ وَجَهَ اللَّهُ
 تَعَالَى وَمَرْضَاتُهُ وَمِرَافِقَةَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا
 يُورِثُ الْعِزَّ وَيُمَحِّصُ مِنَ الذُّنُوبِ وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ مِنْ قَائِلٍ وَلَا تَنْصَلِحَ أُمُورَكَ
 بِأَفْضَلِ مَنْهَ فَاتِهِ وَاهْتَدِ بِهِ نَتَمُّ أُمُورِكَ وَتَزِدْ مَقْدِرَتَكَ وَتَصْلِحْ عَامَتَكَ وَخَاصَّتَكَ وَأَحْسِنِ
 ظَنِّكَ بِاللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ تَسْتَقِيمَ لَكَ رِعْيَتِكَ وَالتَّمَسُّبِ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا تَسْتَدِمُ
 بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَلَا تُتِهَمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تُوَلِّيهِ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ
 أَمْرَهُ فَإِنَّ إِيقَاعَ النَّهْمِ بِالْبِرِّ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بِهِمْ أَتَمُّ إِثْمٍ فَأَجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حَسَنَ
 الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ وَأَطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ وَأَرْضُهُ فِيهِمْ يُعْنِكَ ذَلِكَ عَلَى اسْتِطَاعَتِهِمْ
 وَرِيَاضَتِهِمْ وَلَا يُجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانَ فِي أَمْرِكَ مَغْمَرًا فَإِنَّهُ يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنْ
 وَهْنِكَ وَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ مَا يَنْقُصُ لِنَادَاةِ عَيْشِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ
 تَجِدُ بِحَسَنِ الظَّنِّ قُوَّةَ وَرَاحَةً وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ وَتَدْعُو بِهِ
 النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ وَالْإِسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَلَا يَمْنَعُكَ حَسَنُ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ
 وَالرَّأْفَةُ بِرِعْيَتِكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْئَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ
 وَحِيَاطَةَ الرَّعِيَّةِ وَالنَّظَرَ فِي حَوَائِجِهِمْ وَحَمَلَ مَوْوَلَاتِهِمْ أَيْسَرُ عِنْدَكَ مِمَّا سَوَى ذَلِكَ
 فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ وَأَحْيَا لِلسُّنَةِ وَأَخْلَصُ نِيَّتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا وَتَفَرَّدَ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ
 تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْئَلٌ عَمَّا صَنَعَ وَبِحُجْرِيٍّ بِمَا أَحْسَنَ وَمُوَآخِذُهُ بِمَا أَسَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
 وَجَلَّ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ وَأَسْلَكَ بِمَنْ تَسُوَّهُ وَتَرَاعَاهُ
 نَهَجَ الدِّينِ وَطَرِيقَةَ الْهَيْدَى وَأَقَمَ حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ
 وَمَا اسْتَحَقُّوه وَلَا تُعْطَلُ ذَلِكَ وَلَا تَهَاوَنَ بِهِ وَلَا تُؤَخَّرُ عِقُوبَةُ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ فَإِنَّ فِي
 تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ مَا يَفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ ظَنِّكَ وَأَعْتَزِمُ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسُّنَنِ
 الْمَعْرُوفَةِ وَجَانِبِ الْبِدْعِ وَالشُّبُهَاتِ يَسْلَمُ لَكَ دِينُكَ وَنَقَمُ لَكَ مُرُوتُكَ وَإِذَا عَاهَدْتَ
 عَهْدًا فَأَوْفِ بِهِ وَإِذَا وَعَدْتَ خَيْرًا فَأَنْجِزْهُ وَأَقْبَلِ الْحَسَنَةَ وَأَدْفَعْ بِهَا وَأَعْمِضْ عَنْ عَيْبِ

كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَشَدُّ لِسَانِكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِيبِ وَالزُّورِ وَأَبْغَضُ
 أَهْلِ النَّمِيمَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَآجِلِهَا تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ وَالْمُجْرِمَةِ
 عَلَى الْكَذِيبِ لِأَنَّ الْكَذِيبَ رَأْسُ الْمَأْتِمِ وَالزُّورَ وَالنَّمِيمَةَ خَاتِمَتُهَا لِأَنَّ النَّمِيمَةَ لَا
 يَسْلُمُ صَاحِبُهَا وَقَاتِلُهَا لَا يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ وَأَحْسِبُ أَهْلَ الصَّلَاحِ
 وَالصِّدْقِ وَأَعِزَّ الْأَشْرَافِ بِالْحَقِّ وَأَسِ الضُّعْفَاءِ وَصِلِ الرَّحِمَ وَأَبْغِ بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهُ
 تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ وَالتَّمَسُّنِ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ وَأَجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورِ
 وَأَصْرِفْ عَنْهُمَا رَايَكَ وَأَظْهِرْ بِرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمِ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ
 وَتَمَّ بِالْحَقِّ فِيهِمْ وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالْمَلِكِ تَفْسِكَ عِنْدَ الْغَضَبِ
 وَآثِرِ الْحِلْمِ وَالْوَقَارِ وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيِّشَ وَالغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ
 أَنَا مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى تَقْصُرِ الرَّأْيِ وَقَلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 وَأَخْلِصْ لِلَّهِ وَحْدَهُ النَّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ وَعَلِّمْ أَنَّ الْمَلِكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَلَكِنْ تَجِدُ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّعْمَةِ عَلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ
 النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا كَفَرُوا نِعْمَ اللَّهُ وَإِحْسَانَهُ
 وَاسْتِظْلَمُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَدَعَّ عَنْكَ شَرَّهُ تَفْسِكَ وَلَتَكُنْ ذَخَائِرُكَ
 وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْتُمُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِصْلَاحَ الرَّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمُ وَالتَّفَقُّدَ
 لِأُمُورِهِمْ وَالْحَنَظَ لِذِمَائِهِمْ وَالْإِعَانَةَ لِمَلِكِهِمْ وَعَلِّمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا اكْتُنِزَتْ وَأُدْخِرَتْ
 فِي الْخِزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صِلَاحِ الرَّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّتِ الْأَذْيَةَ
 عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرْتَبَتْ بِهَا الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتَقَدَ
 فِيهَا الْعَزْ وَالْمَنْفَعَةُ فَلَئِنْ كُنْتَ خِزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ
 وَوَقْرٍ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حُقُوقِهِمْ وَأَوْفٍ مِنْ ذَلِكَ حِصَّةً مِنْهُمْ وَتَعَهَّدَ مَا
 يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّبْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَاسْتَوْجِبْتَ الْمَزِيدَ
 مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَابَةِ خَرَجِكَ وَتَجَمُّعِ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَفْذَرُ
 وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِمَا طَاعَتِكَ وَأَطِيبَ أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا
 أَرَدَتْ وَأَجْهَدَ تَفْسِكَ فِيمَا حَدَّثَتْ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَلْيُعْظَمْ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا بَقِيَ مِنَ
 الْمَالِ مَا أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَارَفَ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَأَثْبَهُمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ

تُسْمِيكَ الدُّنْيَا وَعُرُودُهَا هَوَلُ الْآخِرَةِ وَفَتَنَهَا وَنَبَا يُحِقُّ عَلَيْكَ فَإِنَّ التَّهَانُونَ يُورِثُ التَّفْرِيطَ
وَالتَّفْرِيطَ يُورِثُ الْبُورَةَ وَلَيْسَ كُنْ عَمَلُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَرْجُ الثَّوَابَ فِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ
سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَأَعْتَصِمَ بِالشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَأَعْتَمِدْ بِرِذِّكَ اللَّهُ خَيْرًا
وَإِحْسَانًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ وَإِحْسَانَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا
تُحْفَرَنَّ ذَنْبًا وَلَا تُمَالَنَّ حَاسِدًا وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا وَلَا تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا
وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَامًا وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا وَلَا تُؤَلِّقَنَّ فِاسِقًا وَلَا تُتَمِعَنَّ غَاوِيًا وَلَا تُحْمَدَنَّ
مُرَائِيًا وَلَا تُحْفَرَنَّ إِنْسَانًا وَلَا تُرَدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا وَلَا تُحْسِنَنَّ بَاطِلًا وَلَا تُلَاخِظَنَّ مُضْحِكًا
وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا وَلَا تَزْهَوَنَّ فَخْرًا وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا وَلَا تُبَايِنَنَّ رَجَاءً وَلَا تُتَمِشَنَّ مَرْحًا
وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَلَا تَزْغِ لِلنَّمَامِ عَيْنًا وَلَا تُغْمِضَنَّ عَن ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ
أَوْ مُحَابَاةً وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَةَ الْفُقَهَاءِ وَأَسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ
بِالْحِلْمِ وَخُذْ عَن أَهْلِ التَّجَارِبِ وَدَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي
مَشُورَتِكَ أَهْلَ الرِّقَّةِ وَالْبُخْلِ وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ
وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِيهِ أَمْرٌ رَعَيْتَكَ مِنَ الشَّيْءِ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا
كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ
أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْقُدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْيَكْفِ عَن أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُورِ
عَلَيْهِمْ وَأَبْتَدِئْ مِنْ صَافَاكَ مِنْ أَوْلِيَانِكَ بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحَسِّنِ الْعَطِيَّةَ لَهُمْ وَاجْتَنِبِ
الشَّيْءَ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَوْلُ مَا عَصَى الْإِنْسَانُ بِهِ رَبَّهُ وَإِنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يُوقِ شَيْئًا نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ وَاجْعَلْ
لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ فَيْتِكَ حِطًّا وَنَصِيبًا وَاقْنِ أَنَّ الْجُودَ أَفْضَلُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَأَعِدْهُ لِنَفْسِكَ
خَلْقًا وَأَرْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا وَتَفَقَّدِ الْجُنْدَ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ وَأَدِرَّ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ
وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ يُذْهِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَاقْتَمَهُمْ فَيَقْوَى لَكَ أَمْرُهُمْ وَتَزِيدُ
قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَأَنْشِرَاحًا وَحَسْبُ ذِي السُّلْطَانِ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ
يَكُونَ عَلَى جُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ذَا رَحْمَةٍ فِي عَدْلِهِ وَحَيْطَتِهِ وَإِنْصَافِهِ وَعِنَايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ
وَتَوْسِعَتِهِ فَزَابِلُ مَكْرُوهٍ أَحَدِ الْبَابِينَ بِأَسْتَشْعَارِ فَضِيلَةِ الْبَابِ الْآخِرِ وَزُومِ الْعَمَلِ بِهِ
تَلَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَكَانِ

الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تَعَدَّلُ عَلَيْهِ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي
 الْأَرْضِ وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ أَحْوَالُ الرَّعِيَةِ وَتَأْتِي السُّبُلُ
 وَيَتَصَفَّى الْمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ النَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ الدِّعَالَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ الطَّاعَةِ
 وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْعَايَةَ وَالسَّلَامَةَ وَيُقِيمُ الدِّينَ وَيَجْرِي السُّنَنَ وَالشَّرَائِعَ فِي تِجَارِيهَا وَأَشَدَّ
 فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعَ عَنِ النَّطْفِ وَأَنْصَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَأَقْبَلَ الْعِجْمَةَ وَأَبْعَدَ
 عَنِ الصَّبْرِ وَالْفَلَقِ وَأَفْنَعَ بِالْقِسْمِ وَأَنْتَفَعَ بِتِجْرَتِكَ وَأَنْتَبَهَ فِي صَمْتِكَ وَأَسَدَّدَ فِي مَنْطِقِكَ
 وَأَنْصَفَ الْخِصْمَ وَقَفَّ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَأَبْلَغَ فِي الْحِجَّةِ وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ
 مُحَابَاةً وَلَا بِمُجَامَلَةٍ وَلَا لَوَمَةٍ لِأَمْرِ. وَثَبَّتَ وَتَنَاوَلَتْ رَأْفَتُكَ وَأَنْظُرْ وَتَنَكَّرْ وَتَدَبَّرْ وَأَعْتَبِرْ
 وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَارْزُقْ بِجَمِيعِ الرَّعِيَةِ وَسَاطِطِ الْحَقِّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَنِّكَ
 دَمٍ فَإِنَّ الدِّمَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ أَنْهَاكَ مَا بَغَيْرِ حَقِّهَا وَأَنْظُرْ هَذَا
 الْخُرَاجَ الَّذِي اسْتَنْقَمْتَ عَلَيْهِ الرَّعِيَةَ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرَفْعَةً وَلِأَهْلِهِ
 تَوْسِعَةً وَمَنْعَةً وَلِعُدُوِّهِمْ وَعَدُوِّهِمْ كِتَابًا وَعِظًا وَلِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ مَعَادِيهِمْ ذَلًّا وَصَغَارًا
 فَوَزَعَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ
 لَشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيِّ لِعِنَاهُ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لِكَ تَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَّتِكَ وَلَا
 تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ الْأَحْتِمَالِ وَلَا تُكَلِّفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ وَأَحْمِلِ النَّاسَ كَلِمَتَهُمْ
 عَلَى أَمْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعٌ لِنَفْسِهِمْ وَأَلْزَمٌ لِرِضَاءِ الْعَامَّةِ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ جُمِعْتَ بِوِلَايَتِكَ
 خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ لِأَنَّكَ رَاعَيْتَهُمْ وَقِيمْتَهُمْ فَخُذْ
 مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفْذِهِ فِي قِوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحَتِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوْدَعِهِمْ وَأَسْتَعْمِلْ
 عَلَيْهِمْ أُولِي الرَّأْيِ وَالتَّجْدِيدِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالتَّخْبِرَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَدْلِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعِنَافِ وَوَسِّعْ
 عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ الِلاَزِمَةِ لَكَ فِيهَا تَقَلَّدْتَ وَأَسْنَدَ إِلَيْكَ فَلَا
 يُشْعَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَبْصُرُكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى أَثْرَتَهُ وَقَمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ
 اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحَسُنَ الْأَحْدُوتَةُ فِي عَمَلِكَ وَأَجْتَرْتِ بِهِ
 الْحِجْمَةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعْنَتْ عَلَى الصَّلَاحِ فَدَرَّتْ الْخَيْرَاتُ بِبِلَدِكَ وَفَشَتْ الْعِمَارَةُ
 بِتَاجِرَتِكَ وَظَهَرَ الْخِصْبُ فِي كُورِكَ وَكَثُرَ خَرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى
 ارْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكَانَتْ مَحْجُودِ السِّيَاسَةِ

مَرَضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكَذَّتْ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَاللَّهُ وَقَوَّةٍ وَعَدَّةٍ
 فَنَافَسَ فِي ذَلِكَ وَلَا تَقْدِمُ عَلَيْهِ شَيْئًا تُحَمَّدُ عَاقِبَةَ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَجْعَلْ فِي
 كُلِّ كَوْرَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَلِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِرِّهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ
 حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ
 فَأَنْظِرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ رَأْيَ السَّلَامَةِ فِيهِ وَالْعَاقِبَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ
 حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالصَّنْعِ فَأَمُضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ
 فِيهِ عِدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقَدْرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَأَغْوَاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ
 فَإِنَّ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنَقَضَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ
 وَبَاشِرُهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ وَأَكْثِرْ مِنْ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ
 وَأَفْرَغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِعَدِّكَ وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لِعَدِّهِ مَوْرًا وَحَوَادِثَ
 تُلْهِمُكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا
 أَخْرَجْتَ عَمَلَهُ أَجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَثْقُلُكَ ذَلِكَ حَتَّى تَمْرُضَ مِنْهُ وَإِذَا أَمْضَيْتَ
 لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أُرْحَتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَأَنْظُرْ أَحْرَارَ النَّاسِ
 وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيلَتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتِهِمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتِهِمْ
 بِالنُّصْحِ وَالْحِفَاظَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنِ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبِيَوَاتِ مِمَّنْ
 قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ وَأَحْتَمِلَ مَوْثِقَتَهُمْ وَأَصْلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِحَاتِمِهِمْ مَسًّا
 وَأَفْرُدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ
 وَالْمُخَنَقَرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلْ عَنْهُ أَحْفَى مَسْئَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ
 مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرْتَمِّمْ بَرَفِعِ حَوَائِجَهُمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ
 وَتَعَاهَدَ ذَوِي الْبِأْسَاءِ وَابْتِمَامَهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ وَأَجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً
 بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَاةِ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ
 عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَةً وَزِيَادَةً وَأَجْرًا لِلْأَضْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمِ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ
 مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجُرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأَنْصِبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا
 تَأْوِيهِمْ وَقَوَامًا يَرْفَعُونَ بِهِمْ وَأَطْبَاءً يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفِيهِمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ
 ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حَقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ

لَمْ يُرْضِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَالِهِمْ إِلَى وَلَائِهِمْ طَمَعًا فِي نَيْلِ
الزِّيَادَةِ وَفَضْلِ الرَّفْقِ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ
وَيُشْغَلُ فِكْرُهُ وَذَهْنُهُ فِيهَا مَا يَبَالُغُهُ بِهِ مِنْ مَوْثِقَةٍ وَمَشَقَّةٍ وَلَيْسَ مَنْ يَرَعِبُ فِي الْعَدْلِ
وَيَعْرِفُ مَحَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يَقْرَبُهُ إِلَى
اللَّهِ تَعَالَى وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ وَأَكْثَرَ الْإِذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبْرَزَ لَهُمْ وَجْهَكَ وَسَكَنَ
لَهُمْ حَوَاسِكَ وَأَخْفَضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ بَشْرَكَ وَلَنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ
وَأَعْطَفَ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ وَإِذَا أَعْطَيْتَ فَأَعْطِ بِسَاحَةِ وَطِيبِ نَفْسٍ وَالنَّيَاسِ
لِلصَّنِيعَةِ وَالْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا أَمْتِنَانِ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ
وَالرَّيَّاسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ ثُمَّ اعْتَصِمْ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَحَبَّتِهِ وَالْعَمَلِ بِشِرَاعَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَبِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاجْتِنَابِ
مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا إِلَى سُخْطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عُمَّالِكَ مِنْ
الْأَمْوَالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا تَجْمَعُ حَرَامًا وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافًا وَأَكْثَرَ مُجَاسَلَةِ الْعُلَمَاءِ
وَمُشَاوَرَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَلَيْسَ كُنْ هَوَاكَ أَتْبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا وَإِيثَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
وَمَعَالِيهَا وَلَيْكُنْ أَكْرَمُ دُخْلَانِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عَيْبًا فِيكَ لَمْ تَمْنَعُهُ
هَيْبَتِكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ وَإِعْلَانِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ فَإِنَّ أَوْلِيكَ أَنْصَحُ
أَوْلِيَانِكَ وَمُظَاهِرُونَ لَكَ وَأَنْظُرْ عُمَّالِكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكُتَابِكَ فَوْقَ لِكُلِّ
رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكُتُبِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ
عُمَّالِكَ وَأُمُورِ الدُّوَلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورِدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصْرَكَ وَفَهْمَكَ
وَعَقْلَكَ وَكَرِّرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدَبُّرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضِهِ وَأَسْتَحْزِرْ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالِفًا لِلذِّكْرِ فَاصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْئَلَةِ عَنْهُ وَالتَّشْتِيبُ فِيهِ وَلَا تَمْتَنَنَّ
عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفِ تَوْثِيهِ إِلَيْهِمْ وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْوَفَاءَ وَالْأَسْتِقَامَةَ
وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ وَتَهْتَمَنَّ كِتَابِي
إِلَيْكَ وَأَنْعِمِ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَأَسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَسْتَحْزِرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّالِحِ وَأَهْلِهِ وَلَيْكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ رَعِيَّتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ رَضَى وَلِدِنِهِ نِظَامًا وَلِأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمَكَّنًا وَلِلْمَلَّةِ وَالِدِمَّةِ عَدْلًا وَصَلَاحًا وَأَنَا
 أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتُوفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكِلَاءَتَكَ وَالسَّلَامُ . وَحَدَّثَ الْأَخْبَارُ يُونَ
 أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أُعْجِبَ بِهِ النَّاسُ وَاتَّصَلَ بِالْمَأْمُونِ فَلَمَّا قُرِيَ
 عَلَيْهِ قَالَ مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ يَعْنِي طَاهِرًا شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَالتَّدْبِيرِ وَالرَّأْيِ
 وَالسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ الْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ وَحَنْظِ السُّلْطَانِ وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ إِلَّا
 وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ فُكِّتَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ الْعَمَالِ فِي النُّوَاحِي
 لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هَذَا أَحْسَنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والخمسون

في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

اعْلَمَنَّ أَنَّ فِي الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْكُفَّافَةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَمَرِ الْأَعْصَارِ أَنَّهُ لَا بَدَّ
 فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُؤَيِّدُ الدِّينَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَتَّبِعُهُ
 الْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوِلِي عَلَى الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُسَمَّى بِالْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ
 الدَّجَالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الثَّابِتَةِ فِي الصَّحِيحِ عَلَى آتَرِهِ وَأَنَّ عَيْسَى يَنْزِلُ مِنْ
 بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ الدَّجَالَ أَوْ يَنْزِلُ مَعَهُ فَيَسَاعِدُهُ عَلَى قِتْلِهِ وَيَأْتِي بِالْمَهْدِيِّ فِي صَلَاتِهِ وَيَحْتَجُونَ
 فِي الشَّانِ بِأَحَادِيثَ خَرَجَهَا الْأَئِمَّةُ وَتَكَكَّمَ فِيهَا الْمُنْكَرُونَ لِذَلِكَ وَرُبَّمَا عَارِضُوهَا
 بَعْضُ الْأَخْبَارِ وَالْمُتَّصِفَةِ الْمُتَّخِرِينَ فِي أَمْرِ هَذَا الْفَاطِمِيِّ طَرِيقَهُ أُخْرَى وَنَوْعٌ مِنْ
 الْأَسْتِدْلَالِ وَرُبَّمَا يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى الْكُشْفِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ طَرَائِقِهِمْ . وَنَحْنُ
 الْآنَ نَذَكُرُ هُنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الشَّانِ وَمَا لِلْمُنْكَرِينَ فِيهَا مِنَ الْمَطَاعِينَ
 وَمَا لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ مِنَ الْمُسْتَنْدِثِ نَتَّبِعُهُ بِذِكْرِ كَلَامِ الْمُتَّصِفَةِ وَرَأْيِهِمْ لِتَبَيُّنِ
 لِكَ الصَّحِيحِ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَئِمَّةِ خَرَجُوا أَحَادِيثَ
 الْمَهْدِيِّ مِنْهُمْ التُّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالْبَزْازِيُّ بْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ وَالطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو يَعْنَى الْمَوْصِلِيُّ
 وَأَسْنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلَ عَلِيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَطَلْحَةَ وَابْنَ
 مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأُمِّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ وَتُوبَانَ وَفُرَّةَ
 ابْنِ إِبَاسٍ وَعَلِيٍّ الْهَلَالِيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزَاءٍ بِأَسَانِيدِ رُبَّمَا يَعْرِضُ لَهَا

الْمُنْكَرُونَ كَمَا نَذَرَهُ إِلَّا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى
 التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْمًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ بَغْلَةً أَوْ سُوءَ حِفْظٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ
 سُوءَ رَأْيٍ تَطَّرَقَ ذَلِكَ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلُ ذَلِكَ رُبَّمَا يَتَطَّرَقُ
 إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحِينَ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدْ اتَّصَلَ فِي الْأُمَّةِ عَلَى تَلْقِيهِمَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ
 بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَعْظَمُ حِمَايَةٍ وَأَحْسَنُ دَفْعًا وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحِينَ بِمِثَابَتِهِمَا
 فِي ذَلِكَ فَقَدْ تَجِدُ مَجَالَ الْكَلَامِ فِي أَسَانِيدِهَا بِمَا نَقَلَ عَنْ أُمَّةِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ .
 وَقَدْ تَوَعَّلَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَيْشَمَةَ عَلَى مَا نَقَلَ السَّمِيلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ لِلْحَادِيثِ
 الْوَارِدِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَعْرَبِهَا اسْتِدَادًا مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْكَافُ فِي فَوَائِدِ
 الْأَخْبَارِ مُسْتَدَادًا إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَذَبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَبَ بِالْذُّجَالِ فَقَدْ كَذَبَ
 وَقَالَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَا حَسِبُ وَحَسِبُكَ هَذَا غُلُوبًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافَ عِنْدَهُمْ مَتَّهَمٌ وَضَاعٌ .
 وَأَمَّا التُّرْمِذِيُّ فَفَرَّجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسِنْدَيْهِمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ أَبِي
 النَّجُودِ أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زُرَّارِ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ
 رَجُلًا مَتِيًّا أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَأَسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي . هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ
 وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ
 وَلَفْظُ التُّرْمِذِيِّ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي
 وَفِي لَفْظِ آخَرَ حَتَّى يَلِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَكِلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضًا
 مِنْ طَرِيقِ مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ الْحَاكِمُ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ
 أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ وَطَرَفُ عَاصِمٍ عَنْ زُرَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَلِمًا صَحِيحَةً عَلَى
 مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْأَحْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ (إِنْ تَهَيَّأَ) إِلَّا
 أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارِنًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثِقَةً وَالْأَعْمَشُ
 أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيثِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْعَمَلِيُّ كَانَ يَخْتَلِفُ
 عَلَيْهِ فِي زُرَّارِ وَابْنِ وَائِلٍ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رَوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ

كَانَ ثِقَةً إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ أَضْرَابٌ
 وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنْ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةٌ فَقَالَ
 لَيْسَ مَحَلُّهُ هَذَا وَقَدْ تَكَلَّمْتُ فِيهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ كُلُّ مَنْ أَسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّئٌ الْحَفِظُ
 وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصِّدْقِ صَالِحِ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الْحَافِظُ
 وَأَخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ النَّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ حَرَّاشٍ فِي حَدِيثِهِ نَكَرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ
 الْعَقِيلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُوءُ الْحَفِظِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ فِي حَفِظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى
 الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلًا أَسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحَفِظِ وَقَالَ أَيضًا سَمِعْتُ
 شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي النَّجُودِ فِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبَتَ فِي
 الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَإِنْ أَحْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَاقُولُ أَخْرَجَاهُ
 مَقْرُونًا بغيرِهِ لَا أَصْلًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ
 رِوَايَةِ قَطَنِ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مَرْثَةَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي بِمَدْلَاهَا
 عَدْلًا كَمَا مَلَّتْ جَوْرًا وَقَطَنِ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثِقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى ابْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ
 مَعِينٍ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعَجَلِيَّ قَالَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشْيَعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ ابْنُ
 مَعِينٍ مَرَّةً ثِقَةٌ شَيْعِيٌّ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قَطَنِ وَهُوَ مَطْرُوحٌ
 لَا نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدْعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ لَا يُحْتَجُّ
 بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا سُوءَ مَذْهَبِهِ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ
 زَائِعٌ غَيْرُ ثِقَةٍ أَنْتَهَى وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيضًا بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ
 ابْنَ الْمَغِيرَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي اسْتِحَاقِ النَّسْفِيِّ
 قَالَ قَالَ عَلِيُّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ إِنْ أَبْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَخَّرَ مِنْ صَلَاحِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشَبِّهُهُ فِي
 الْخُلُقِ يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مَطْرِفِ بْنِ طَرِيفٍ
 عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ هَالِدِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يُخْرِجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ عَلَى مَقْدَمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوَطِّي
 أَوْ يَمَكِّنُ لِأَلِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنْتَ فَرِيشَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَّ

عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي
 هَارُونَ هُوَ مِنْ وُلْدِ الشَّبَعَةِ وَقَالَ السُّلَيْمَانِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ
 لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَأٌ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ صَدَقَ لَهُ أَوْهَامٌ وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبِيُّ وَإِنَّ
 خَرَجَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِينَ فَقَدْ نَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمُرِهِ وَرَوَاتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مَنْقُطَةٌ
 وَكَذَلِكَ رَوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمَغِيرَةِ . وَأَمَّا السُّنَدُ الثَّانِي فَاِبُو الْحَسَنِ فِيهِ
 وَهَلَالُ بْنُ عُمَرَ مَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرِفْ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رَوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْهُ
 أَنْتَهَى وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ طَرِيقِ عَلِيٍّ
 ابْنَ نَقِيلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ يَقُولُ الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا
 غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ وَقَالَ لَا يُتَابِعُ عَلِيُّ بْنُ نَقِيلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرِفُ إِلَّا بِهِ
 وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رَوَايَةِ صَالِحِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ صَاحِبِ لَهُ عَنْ
 أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ يَكُونُ اخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِبًا
 إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُغَيِّرُ جُوهَهُ وَهُوَ كَارِهٌِ فَيَبَايَعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ
 فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعَثٌ مِنَ الشَّامِ فَيُخَسِفُ بِهِمْ بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسَ
 ذَلِكَ أَنَّهُ أَنْبَالَ أَهْلِ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيَبَايَعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ
 أَحْوَالُهُ كَلْبٌ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعَثًا فَيُظْهِرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعَثُ كَلْبٍ وَالْحَبِيبَةُ لَمَنْ لَمْ
 يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيُقَسِّمُ الْمَالَ وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسَنَةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَيُلْقِي الْأِسْلَامَ بِبَجْرَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبَثُ سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ
 أَبُو دَاوُدَ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ
 الْمَسْئَلَةَ فِي الْأَسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرَجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِينَ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَعْمَرٌ وَقَدْ
 يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رَوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ وَقَتَادَةُ مُدَلِّسٌ وَقَدْ غَنَّعَهُ وَالْمُدَلِّسُ لَا يَقْبَلُ
 مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صَرَّحَ فِيهِ بِالسَّمْعِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَضَرُّعٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ
 نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبِيهِ وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا وَتَابِعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ
 الْحَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجَلُ الْجِبَّةِ أَقْبَى

الْأَنْفَ يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتَ ظُلْمًا وَجَوْرًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ هَذَا لَفْظُ
 أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ الْمَهْدِيِّ مِمَّا أَهْلُ الْبَيْتِ أَشَمُّ الْأَنْفِ أَفْنَى أَجَلِي
 يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتَ جَوْرًا وَظُلْمًا يَعِيشُ هَكَذَا وَيَبْسُطُ يَسَارَهُ
 وَإِصْبَعَيْنِ مِنْ يَمِينِهِ السَّبَابَةِ وَالْأَيْبَاهِمِ وَعَقَدَ ثَلَاثَ قَالِ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ
 عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجْ جَاهُ ٥٠٠ هـ. وَعُمَرَانُ الْقَطَّانُ مُخْتَلَفٌ فِي الْأَحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّهُ أَخْرَجَ
 لَهُ الْجُبَّارِيُّ اسْتِشْهَادًا لَا أَصْلًا وَكَانَ يَحْيَى الْقَطَّانُ لَا يُحَدِّثُ عَنْهُ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ
 لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِشَيْءٍ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحًا
 الْحَدِيثُ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيًّا وَكَانَ يَرَى السَّيْفَ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلَةِ وَقَالَ
 النَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عَيْبَةَ الْأَجْرِيُّ سَأَلْتُ أَبَا دَاوُدَ عَنْهُ فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ
 وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ ضَعِيفٌ أَفْنَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بَقِيَ شَدِيدَةً فِيهَا سَفَكَ الدَّمَاءَ وَخَرَجَ التُّرْمُذِيُّ وَأَبْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ
 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ الْأَعْمِيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
 الْخُدْرِيِّ قَالَ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَّثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 إِنْ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا زَيْدُ الشَّائِكُ قَالَ قُلْنَا وَمَا ذَاكَ
 قَالَ سِنِينَ قَالَ فَجِيءَ إِلَيْهِ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ اعْطِنِي قَالَ فَيَحْتَوِلُهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ
 يَحْمَلَهُ لَفْظُ التُّرْمُذِيِّ وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصَرَ
 فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَتَسْعٌ فَتَنْعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ ثَوْتِي الْأَرْضُ أَكْلَهَا وَلَا
 يُدْخِرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَالْمَالُ يَوْمئِذٍ كَدُوسٌ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ اعْطِنِي فَيَقُولُ خذْ
 أَنْتَهُ وَيَزِيدُ الْعَمِيَّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ الدَّارُ قُطْنِي وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مُعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ
 وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدِ الرَّقَاشِيِّ وَفَضَّلَ ابْنَ عَسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ضَعِيفٌ
 يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يَحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لَأَشْيَاءٍ وَقَالَ مَرَّةً
 يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ مَتَمَّاسِكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ بِقَوِيِّ وَاهِي
 الْحَدِيثُ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ
 وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ عَامَةٌ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يَرْوِي عَنْهُمْ ضَعْفَاءُ عَلَيَّ أَنْ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ

شُعبَةَ لَمْ يَرْوِ عَنْ أَضْعَفَ مِنْهُ وَفَدَّ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ الزُّمَيْدِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ
فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي
خَلِيفَةٌ يَحْتَوِ الْمَالَ حَتَّى لَا يَبْعُدَهُ عَدَاؤُهَا وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ مِنْ خَلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ
يَحْتَوِ الْمَالَ حَتَّى لَا يَبْعُدَهُ عَدَاؤُهَا وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ
وَلَا يَبْعُدُهُ أَنْتَهُ وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقَعْ فِيهَا ذِكْرُ الْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ
مِنْهَا وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي
سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُعْمَلَا الْأَرْضُ
جَوْرًا وَظُلْمًا وَعُدُونَا ثُمَّ يُخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي رَجُلٌ يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ ظُلْمًا
وَعُدُونَا وَقَالَ فِيهِ الْحَاكِمُ هَذَا صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجْ جَاهُ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ
أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَسْفِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ
وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ نَبَاتَهَا وَيُعْطِي الْمَالَ صِحَابًا وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ يَعْمُشُ سَبْعًا
أَوْ ثَمَانِيًا يَعْنِي حَجَبًا وَقَالَ فِيهِ حَدِيثُ صَحِيحِ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجْ جَاهُ مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ
عُبَيْدٍ لَمْ يُخْرِجْ لَهُ أَحَدًا مِنَ السُّنَنِ لَكِنْ ذَكَرَهُ أَبُو حَبَانَ فِي الثَّقَاتِ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ أَحَدًا
تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ
مَطَرِ الزُّرَّاقِ وَابْنِ هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تُعْمَلُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيُخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عَنَتِي
فَيَمْلَأُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا وَقَالَ الْحَاكِمُ
فِيهِ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ شَيْخِهِ
مَطَرِ الزُّرَّاقِ وَأَمَّا شَيْخُهُ الْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ فَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ
جِدًّا مَتَّهَمٌ بِالْكَذِبِ وَلَا جَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ الْأئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ وَأَمَّا الرَّاوي لَهُ
عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى يَلْقَبُ أَسَدَ السُّنَّةِ وَإِنْ قَالَ الْبُخَارِيُّ مَشْهُورٌ
الْحَدِيثُ وَأَسْتَشْهَدُ بِهِ فِي صَحِيحِهِ وَأَحْتَجُّ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى
ثِقَةٌ لَوْ لَمْ يُصَنَّفْ كَانَ خَيْرًا لَهُ وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ مِنْبَكَّرُ الْحَدِيثِ وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ
فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْوَاوِلِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ

النَّاجِي عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحَدِ بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ
 رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُخْرَجُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بِسْمِ اللَّهِ يُزِيلُ اللَّهُ عِزَّ
 وَجَلَّ لَهُ الْقَطْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَيُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا وَيَمْلَأُ الْأَرْضَ مِنْهُ قَسْطًا وَتَدْلًا كَمَا
 مَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَعْدِلُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيُنْزَلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالَ
 الطَّبْرَانِيُّ فِيهِ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي
 سَعِيدٍ أَحَدًا إِلَّا أَبَا الْوَاصِلِ فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنْتَهَى وَهَذَا
 الْحَسَنِ بْنُ يَزِيدَ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يَعْرِفْهُ بَأْ كَثْرٍ مِمَّا فِي هَذَا الْإِسْنَادِ مِنْ
 رَوَاتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَرَوَايَةُ أَبِي الصَّدِّيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ إِنَّهُ يُجْهَلُ
 لَيْكُنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ فَلَمْ
 يُخْرِجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ
 يَرْوَى عَنْ أَنَسٍ رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَابُ بْنُ بُشَيْرٍ وَخَرَّجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ
 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
 قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا
 رَأَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَّالُ نَرَى
 فِي وَجْهِكَ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَقَالَ إِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنَّ أَهْلَ
 بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بِلَاءً وَتَشْرِيْدًا وَتَطْرِيْدًا حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ
 رَايَاتٌ سُودٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَبَرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيَقَاتِلُونَ وَيُنْصَرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا
 فَلَا يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قَسْطًا كَمَا مَلَأُهَا جَوْرًا
 فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى التَّلْحِجِ أَنْتَهَى . وَهَذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ
 عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّايَاتِ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ رَوَاهُ فِيهِ شُعْبَةُ كَانَ رَفِيعًا
 يَعْنِي يَرْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ مِنْ كِبَارِ أُمَّةِ
 الشُّعْبَةِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ وَقَالَ مَرَّةً حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ وَقَالَ يَحْيَى
 ابْنُ مُعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْعَجَلِيُّ جَائِزُ الْحَدِيثِ وَكَانَ بِأَخْرِهِ يَلْقَنُ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ
 بِكُتْبِ حَدِيثِهِ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ سَمِعْتُهُمْ
 يُضَعِفُونَ حَدِيثَهُ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا تَرَكَ حَدِيثَهُ وَعَيْزُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ وَقَالَ

ابْنُ عَدِيٍّ هُوَ مِنْ شِيعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَعَ ضَعْفِهِ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ
 لَكِنْ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى ضَعْفِهِ وَقَدْ صَرَّحَ الْأَيْمَةُ بِتَضْعِيفِ
 هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ حَدِيثُ الرَّايَاتِ وَقَالَ
 وَكَيْعُ بْنُ الْجُرَّاحِ فِيهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبُو قُدَامَةَ سَمِعْتُ
 أَبَا سَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّايَاتِ لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِينًا
 أُسَامَةَ مَا صَدَّقْتُهُ أَهَذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ أَهَذَا مَذْهَبُ عَلْقَمَةَ أَهَذَا مَذْهَبُ عَبْدِ اللَّهِ وَأُورِدَ
 الْعَقْلِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي الضُّعْفَاءِ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعَجَلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُصَلِّحُ اللَّهُ بِهِ فِي لَيْلَةٍ وَيَاسِينَ الْعَجَلِيُّ
 وَإِنْ قَالَ فِيهِ ابْنُ مُعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنْ أَصْطِلَاحِهِ
 قَوِيَّةٌ فِي التَّضْعِيفِ جَدًّا وَأُورِدَ لَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَمَالِ وَالذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ هَذَا
 الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ الْأَسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ
 عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِنَّا الْمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا
 يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ بَلْ مِنْ بَنِي بَيْتِي كَمَا بَنَى فَتَحَ وَبَنَى يَسْتَنْقِذُونَ مِنَ الشَّرِكِ وَبَنَى
 يُؤَلِّفُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ عِدَاوَةٍ بَيْنَهُ كَمَا بَنَى الْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عِدَاوَةِ الشَّرِكِ قَالَ
 عَلِيُّ أَمْؤُمُونَ أَمْ كَافِرُونَ قَالَ مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ أَنْتَ هِيَ وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيعةٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ
 مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرِ الْخَضْرَمِيِّ وَهُوَ أَوْضَعُ مِنْهُ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
 رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ مِنْ أَكْبَرِ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ لَيْسَ بِثِقَّةٍ وَقَالَ كَانَ ابْنُ
 لَهِيعةٍ شَيْخًا أَحْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ عَلِيُّ فِي السَّحَابِ وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبْصِرُ
 سَحَابَةً يَقُولُ هَذَا عَلِيُّ قَدْ مَرَّ فِي السَّحَابِ وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَحْصِلُ النَّاسُ فِيهَا
 كَمَا يَحْصِلُ الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسْبُوا أَهْلَ الشَّامِ وَلَكِنْ سَبُوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِمْ
 الْأَبْدَالَ يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَفْرِقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ
 قَاتَلْتَهُمُ الثَّعَالِبُ غَلَبْتَهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ الْمُكْرَرُ
 يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمَقْلُ يَقُولُ بِهِمْ اثْنًا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمَّارَتُهُمْ أُمَّتٌ يَلْقَوْنَ

سَبْعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ الْمَلِكَ فَيَقْتُلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا وَيَرُدُّ اللَّهُ إِلَى
الْمُسْلِمِينَ الْفِتْمَةَ وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَتَهُمْ وَرَأْيَهُمْ ١٠٠٠. وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ لَهَيْعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ
مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحٌ إِلَّا سَنَادَهُ وَلَمْ يُخْرِجْ جَاهُ فِي رِوَايَتِهِ
ثُمَّ يَظْهَرُ الْهَاشِمِيُّ فَيَرُدُّ اللَّهُ النَّاسَ إِلَى الْفِتْمَةِ ائِخْ وَأَيْسَ فِي طَرِيقِهِ ابْنُ لَهَيْعَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ
صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ
أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ
الْمَهْدِيِّ فَقَالَ لَهُ هِيَ بَاتٌ ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا فَقَالَ ذَلِكَ يُخْرِجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا قَالَ
الرَّجُلُ اللَّهُ اللَّهُ قُتِلَ وَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ قَوْمًا فَرَعًا كَفَرَجِ السَّحَابِ يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ فَلَا يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِدَّتُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ
بَدْرٍ لَمْ يَسْتَقْبَهُمُ الْأَوْلَى وَلَا يَدْرِكُهُمُ الْآخِرُونَ وَعَلَى عَدَدِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ
جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ قَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ أَرِيدُهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنْ
بَيْنِ هَذَيْنِ الْأَخَشَبَيْنِ قُلْتُ لَا جَرَمَ وَاللَّهِ وَلَا أَدْعُهَا حَتَّى أَمُوتَ وَمَاتَ بِهَا بَعْضُ مَكَّةَ
قَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ أَنْتَهَى وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ
فَقَطَّ فَإِنَّ فِيهِ عَمَّارَ الذَّهَبِيِّ وَيُونُسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ وَلَمْ يُخْرِجْ لِهَذَا الْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو
بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَمِقِيُّ وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ أَحْتِجَاجًا بَلْ اسْتِشْهَادًا مَعَ مَا بَيَّنَّمُ إِلَى ذَلِكَ
مِنْ تَشْبِيعِ عَمَّارِ الذَّهَبِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثِقَهُ أَحْمَدُ وَأَبْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ
فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ عَنْ سَفِيَّانَ أَنَّ بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عِرْقَ قَوْمِهِ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ
قَالَ فِي التَّشْبِيعِ وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ
عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زِيَادِ الْيَمَامِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ إِسْحَاقَ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُخْبَرُ وُلْدُ
عَبْدِ الْمُطَّلَبِ سَادَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمَهْدِيُّ
أَنْتَهُ وَعِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابِعَةٌ وَقَدْ ضَعَفَهُ بَعْضُ
وَوَثِقَهُ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ هُوَ مُدْلِسٌ فَلَا يَقْبَلُ إِلَى أَنْ يُصْرَحَ بِالسَّمْعِ
عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ لَا تَدْرِي مَنْ هُوَ ثُمَّ قَالَ الصَّوَابُ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَإِنْ وَثِقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ

مَعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثَّوْرِيُّ قَالُوا لِأَنَّهُ رَأَى يَفِي فِي مَسَائِلٍ وَيُحْطَى
 فِيهَا وَقَالَ ابْنُ حَبَّانَ كَانَ مِمَّنْ فَحَسَّ عَطَاؤُهُ فَلَا يُحْتَجُّ فِيهِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَعِيدُ
 ابْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ يَدْعِي أَنَّهُ سَمِعَ عَرَضَ كُتُبِ مَالِكٍ وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَهُوَ
 هُنَا بَبْغَدَادٍ لَمْ يُحْتَجَّ فَكَيْفَ سَمِعَهَا وَجَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مِمَّنْ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامٌ مِنْ تَكَلَّمَ
 فِيهِ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوقًا عَلَيْهِ قَالَ
 مُجَاهِدٌ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا حَدَّثْتُكَ هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ
 فَقَالَ مُجَاهِدٌ فَإِنَّهُ فِي سَنَرٍ لَا أَذْكَرُهُ لِمَنْ يَكْرَهُ قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ
 أَرْبَعَةٌ مَنَا السَّنَاحُ وَمَنَا الْمُنْدِرُ وَمَنَا الْمَهْدِيُّ قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدُ بَيْنَ لِي هُوَ لِأَنَّ الْأَرْبَعَةَ
 فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَا السَّنَاحُ فَرُبَّمَا قُتِلَ أَنْصَارُهُ وَعَفَا عَنْ عَدُوِّهِ وَأَمَا الْمُنْدِرُ أَرَاهُ قَالَ
 فَإِنَّهُ يُعْطَى الْمَالَ الْكَثِيرَ وَلَا يَتَعَاضَمُ فِي نَفْسِهِ وَيُمْسِكُ الْقَلِيلَ مِنْ حَقِّهِ وَأَمَا الْمَنْصُورُ
 فَإِنَّهُ يُعْطَى النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ الشَّطْرَ مِمَّا كَانَ يُعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَيَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ وَالْمَنْصُورُ يَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ
 وَأَمَا الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَتَأْمِنُ الْبِهَائِمُ السِّيَاحَ وَتَلْقَى
 الْأَرْضُ أَفْلَاحًا كَيْدِهَا قَالَ قُلْتُ وَمَا أَفْلَاحُ كَيْدِهَا قَالَ أَمْثَالُ الْأَسْطُوانَةِ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجْ جَاهُ وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ
 ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مِهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ وَإِسْمَاعِيلُ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ
 فَلَا كَثْرُونَ عَلَى تَضْعِيفِهِ ١٠٠٠. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْتُلُ عِنْدَ كِبَرِكُمْ ثَلَاثَةَ كَلْبِمْ ابْنُ خَلِيفَةَ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ
 ثُمَّ تَطَّلِعُ الرِّيَاطُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ مِنْكُمْ ذَكَرَ شَيْئًا
 لَا أَحْفَظُهُ قَالَ فَإِذَا رَأَى يَتَمُوهُ فَبَايَعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى التَّلْحِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ ١٠٠٠.
 وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّيْحَانِ إِلَّا أَنْ فِيهِ أَبَا قَلَابَةَ الْجُرْنِيِّ وَذَكَرَ الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ مَدْلَسٌ
 وَفِيهِ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِالتَّمْلِيسِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنَّعَنَ وَلَمْ يَصْرَحْ بِالسَّمَاعِ
 فَلَا يُقْبَلُ وَقِيَهُ عَبْدِ الرَّزَاقِ بْنِ هَمَّامٍ وَكَانَ مَشْهُورًا بِالتَّشْيِيعِ وَعَمِي فِي آخِرِ وَقْتِهِ فَخَلَطَ
 قَالَ ابْنُ عَدِيٍّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثٍ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَسَبَّوهُ إِلَى التَّشْيِيعِ
 أَنْتَهَى. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءِ الزَّيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ

لهيعة عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحارث بن جزة قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطنون للمهدي يعني
 سلطانه قال الطبراني تفرّد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرجه
 الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف
 منه وخرج البزار في مسنده والطبراني في معجمه الأوسط واللفظ للطبراني عن
 أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يكون في أمي المهدي إن قصر فسبع
 وإلا فثمان وإلا فتسع تنعم فيها أمي نعمة لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدراراً
 ولا تدرخ الأرض شيئاً من النبات والثمار كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدي اعطني
 فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرّد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا نعلم
 أنه تابعه عليه أحد وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات
 وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة
 ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي
 حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها تركتها على عمه وكتب بعض أصحابنا عنه
 كأنه ضعيف وخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي هريرة وقال حديثي خالي
 أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل
 بيتي فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق قال قلت وكم يملك قال خمسا وأثنى قال قلت وما
 خمسا وأثنى قال لا أدري . اهـ وهذا السند غير محتج به وإن قال فيه بشير بن نهيك
 وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا إلى قول
 أبي حاتم لا يحتج به إلا أنه قال فيه رجاء ابن أبي رجاء الشكري وهو مختلف فيه قال
 أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق
 له البخاري في صحيحه حديثاً واحداً وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في
 معجمه الكبير والأوسط عن قرة بن إياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لتملأن الأرض جوراً وظلماً فإذا ملئت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من أمي اسمه
 اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً فلا تمنع السماء
 من قطرها شيئاً ولا تدرخ الأرض شيئاً من نباتها يلبث فيكم سبعا أو ثمانية أو تسعاً

يَعْنِي سَنِينَ ٥٠. وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْحُجْبِيِّ بْنِ الْحُجْرِمِ عَنِ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا وَخَرَجَ
الطَّبْرَانِيُّ فِي مُجْمَعِهِ الْأَوْسَطِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنِ سَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ
تَلَّحَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَغْلَطَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمَلَأَ الْأَرْضَ جَوْرًا
وظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمَلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ
بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَابَةِ الْمَهْدِيِّ. انْتَهَى. وَفِيهِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهَيْعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ ٥٠. وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُجْمَعِهِ
الْأَوْسَطِ عَنِ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَكُونُ فِتْنَةٌ
لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنْ أَمِيرُكُمْ فُلَانٌ.
٥٠. وَفِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَوَلَيْسَ فِي الْأَحْدِيثِ تَصْرِيحٌ بِدِكْرِ الْمَهْدِيِّ
وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجَمْتِهِ أَسْتَنْسَأُ فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَجَهَا
الْأئِمَّةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتُمْ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مَنْ
النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقْلُ مِنْهُ وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُنْكَرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَرَاوَاهِ مُحَمَّدِ بْنِ
خَالِدِ الْجُنْدِيِّ عَنِ أَبَانَ بْنِ صَالِحٍ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ عَنِ الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا أَعْيَسَى بْنُ مَرْزِيمٍ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ
مُعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثَقَّةٌ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ تَقَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ
إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَأَخْتَلَفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةٌ يَرْوُونَهُ كَمَا نَقَدْتُمْ وَيُنَسَبُ ذَلِكَ
لِمُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةٌ يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنِ أَبَانَ عَنِ الْحُسَيْنِ عَنِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُسُلًا قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ
مَجْهُولٌ عَنِ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ وَهُوَ مَثْرُوكٌ عَنِ الْحُسَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَلْحَدِيثِ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ وَقَدْ قِيلَ أَنَّ لِمَهْدِيِّ الْأَعْيَسَى أَيْ
لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِيِّ الْأَعْيَسَى يُحَاوِلُونَ هَذَا التَّأْوِيلَ رَدَّ الْأَحْتِجَاجِ بِهِ أَوْ الْجَمْعِ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَذْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ. وَأَمَّا التَّصَوُّفَةُ فَلَمْ
يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْجَاهِلَةِ

بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَحْضُلُ عَنْهَا مِنْ تَتَائِجِ الْمَوَاجِدِ وَالْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ
 مِنَ الشَّيْعَةِ فِي تَفْصِيلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَالْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ وَادِّعَاءِ الْوَصِيَّةِ لَهُ
 بِذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّبَرُّيِّ مِنَ الشَّيْخَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَذَاهِبِهِمْ
 ثُمَّ حَدَّثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَكَثُرَتِ التَّأْلِيفُ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَجَاءَ
 الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدْعُونَ الْوَهْبِيَّةَ الْإِمَامِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحُلُولِ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ رَجْعَةَ
 مِنْ مَاتَ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِنَوْعِ التَّنَاسُخِ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ مَجِيئِيٍّ مِنْ يَقْطَعُ بِوُجُوهِهِمْ
 وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَ نَاهُ مِنْ
 الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا ثُمَّ حَدَّثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْكَلَامُ
 فِي الْكُشْفِ وَفِيهَا وَرَاءَ الْحُسْنِ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْحُلُولِ
 وَالْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا الْإِمَامِيَّةَ وَالرَّافِضَةَ لِقَوْلِهِمْ بِالْوَهْبِيَّةِ الْآئِمَّةِ وَحُلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ
 وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْإِبْدَالِ وَكَانَهُ يُحَاكِي مَذْهَبَ الرَّافِضَةِ فِي الْإِمَامِ
 وَالنُّقْبَاءِ وَأَشْرَبُوا أَقْوَالَ الشَّيْعَةِ وَتَوَعَّلَوْا فِي الدِّيَانَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ حَتَّى جَعَلُوا مُسْتَدَلِّ طَرِيقِهِمْ
 فِي لُبْسِ الْحُرُوفَةِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلْبَسَهَا الْحُسَيْنَ الْبَصْرِيَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ
 بِالْإِزْمِ الطَّرِيقَةَ وَاتَّصَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِالْجَنِيدِ مِنْ شَيْوَحِهِمْ وَلَا يَعْلَمُ هَذَا عَنْ عَلِيٍّ مِنْ
 وَجْهِ صَحِيحٍ وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بَلِ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ
 أُسُوةٌ فِي طَرِيقِ الْهُدَى وَفِي تَخْصِصِ هَذَا بِعَلِيِّ دُونِهِمْ رَاحَةٌ مِنَ التَّشْيَعِ قُوَّةٌ يَنْهَمُ
 مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقَوْمِ دَخَلَهُمْ فِي التَّشْيَعِ وَانْتِزَاعِهِمْ فِي سَلِكِهِ وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا
 الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَامْتَلَأَتْ كُتُبُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ الرَّافِضَةِ وَكُتِبَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ
 الْمُتَّصِفَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الْفَلَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُمَالِيهِ عَلَى بَعْضٍ وَيَلْقَنَهُ بَعْضُهُمْ
 عَنْ بَعْضٍ وَكَانَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أُصُولٍ وَاهِيَةٍ مِنَ الْفَرِيقِينَ وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّ بَعْضُهُمْ بِكَلَامِ
 الْمُجْتَمِعِينَ فِي الْقَرَانَاتِ وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ فِي الْمَلَا حِمِّ وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا
 فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِي هَذَا وَكَثُرَ مِنْ تَكَلُّمٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي شَأْنِ
 الْفَلَاطِمِيِّ ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَلَامِيِّ فِي كِتَابِ عُنُقَاءِ مَغْرِبِ وَأَبْنُ قَسِيٍّ فِي كِتَابِ خَلْعِ
 التَّعْلِينِ وَعَبْدُ الْحَقِّ بْنُ سَبْعِينَ وَأَبْنُ أَبِي وَاصِلِ تَلْمِيذُهُ فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ خَلْعِ التَّعْلِينِ
 وَكَثُرَ كَلِمَاتِهِمْ فِي شَأْنِهِ الْغَازِ وَامْتِثَالِ وَرُبَّمَا يَصْرِحُونَ فِي الْأَوَّلِ أَوْ يَصْرِحُ مَفْسِرُو

كَلَامِهِمْ وَحَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ أَنَّ النُّبُوَّةَ بِهَا ظَهَرَ الْحَقُّ
 وَالْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ وَالْعَمَى وَأَنَّهَا تَعْقِبُهَا الْخِلَافَةُ ثُمَّ يَعْقِبُ الْخِلَافَةَ الْمَلِكُ ثُمَّ يَعُودُ مُجِبًّا
 وَتَكْبِيرًا وَبَاطِلًا قَالُوا وَلَمَّا كَانَ فِي الْمَعْرُودِ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ رُجُوعَ الْأُمُورِ إِلَى مَا كَانَتْ وَجِبَ
 أَنْ يَحْيَا أَمْرَ النُّبُوَّةِ وَالْحَقُّ بِالْوِلَايَةِ ثُمَّ بِخِلَافَتِهَا ثُمَّ يَعْقِبُهَا الدَّجَلُ مَكَانَ الْمَلِكِ وَالنَّسْطِ
 ثُمَّ يَعُودُ الْكُفْرُ بِحَالِهِ يُشِيرُونَ بِهَذَا إِمَّا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ بَعْدَهَا وَالْمَلِكُ
 بَعْدَ الْخِلَافَةِ هَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ وَكَذَلِكَ الْوِلَايَةِ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْفَاطِمِيِّ وَالِدَّجَلِ بَعْدَهَا
 كِتَابَةٌ عَنْ خُرُوجِ الدَّجَالِ عَلَى أَثَرِهِ وَالْكَفْرُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِيهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ عَلَى نِسْبَةِ
 الثَّلَاثِ الْمَرَاتِبِ الْأُولَى قَالُوا وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالْإِجْمَاعِ
 الَّذِي لَا يُوهِنُهُ انْكَارٌ مِنْ لَمْ يَزُولِ عِلْمُهُ وَجِبَ أَنْ تَكُونَ الْإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَحْصَى
 مِنْ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَّا ظَاهِرًا كِبْنِي عَبْدِ الطَّلَبِ وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ
 كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ آلِ وَالْآلِ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يَلْقَبْ مَنْ هُوَ آلُهُ وَأَبْنُ الْعَرَبِيِّ
 الْخَاتَمِيُّ سَمَّاهُ فِي كِتَابِهِ عَقَاءَ مُغْرِبٍ مِنْ تَأْلِيفِهِ خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَتَبَ عَنْهُ بِابْنَةِ
 الْفِضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي بَابِ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا وَكَمَلَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ
 إِلَّا مَوْضِعُ لُبْنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ اللَّبْنَةُ فَيَفْسِرُونَ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ بِاللُّبْنَةِ حَتَّى أَكْمَلْتُ الْبُنْيَانَ
 وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النُّبُوَّةُ الْكَمَالَةُ وَيُمَثِّلُونَ الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا
 بِالنُّبُوَّةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ أَيْ حَازِرَ الرُّبُوبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ
 الْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ حَازِرًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ النُّبُوَّةِ نَكَنِي الشَّارِحُ
 عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْخَاتِمَةَ بِاللُّبْنَةِ الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ وَهُمَا عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ
 فِيهِمَا فِيهِ لُبْنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّمَثِيلِ فِي النُّبُوَّةِ لُبْنَةٌ ذَهَبٌ وَفِي الْوِلَايَةِ لُبْنَةٌ فِضَّةٌ لِلتَّفَاوُتِ
 بَيْنَ الرُّبُوبِيَيْنِ كَمَا بَيْنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجْعَلُونَ لُبْنَةَ الذَّهَبِ كِتَابَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلُبْنَةَ الْفِضَّةِ كِتَابَةً عَنِ هَذَا الْوَلِيِّ الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَذَلِكَ خَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ
 وَهَذَا خَاتِمُ الْأَوْلِيَاءِ وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِيمَا نَقَلَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهَذَا الْإِمَامُ
 الْمُنْتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَظُهُورُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُضِيِّ خ ف ج مِنْ
 الْهَجْرَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يَرِيدُ عِدْدَهَا بِحِسَابِ الْجَمَلِ وَهُوَ الْخَاءُ الْمُهْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ

فَوْقُ سِتْمِائَةٍ وَالْقَائِمُ أَخْتُ الْقَافِ بِثَمَانِينَ وَالْجِيمُ الْمُجْمَعَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلِ ثَلَاثَةٍ
وَذَلِكَ سِتْمِائَةٌ وَثَلَاثٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقُرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا أَنْصَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ
وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلُ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلَاهُ وَعَبَّرَ
بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلَاهُ وَإِنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشْرِ وَالسَّبْعِ الْمِائَةِ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ النَّاجِمُ مِنْ
بَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ قَالَ وَإِذَا كَانَ مَوْلَاهُ كَمَا زَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ
وَسِتْمِائَةٍ فَيَكُونُ عُمْرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَالِ
يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ وَابْتِدَاءُ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ
عِنْدَهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَمَامِ أَلْفِ سَنَةٍ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ
فِي شَرْحِهِ كِتَابَ خَلْعِ الْعَلَمِينَ الْوَلِيُّ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِمُحَمَّدِ
الْمُهَدِيِّ وَخَاتِمِ الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ وَوَلِيُّهُ أَتَعْتَهُ رُوحَهُ وَحَبِيْبُهُ قَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَالِمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَقَالَ عَلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَلَمْ تَزَلِ الْبَشَرَى تَتَّبَعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَى قَبِيلِ الْخُمْسِمِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ
وَتَأَكَّدَتْ وَتَضَاعَفَتْ بِتَبَاشِيرِ الْمَشَاحِبِ بِتَقْرِيْبِ وَقْتِهِ وَأَزْدِ لَافِ زَمَانِهِ مِنْذُ انْقَضَتْ
إِلَى هَلْمِ جَرًّا قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ
وَيُجَدِّدُ الْإِسْلَامَ وَيُظَهِّرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَةٍ فَيَفْتَحُهَا
وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهَا وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مَلِكُ الْأَرْضِ فَيَنْقَوِي
الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلُو الْإِسْلَامُ وَيُظَهِّرُ دِينَ الْخَنِيفِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ
وَقْتِ صَلَاةٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتٍ وَقَالَ الْكِنْدِيُّ أَيْضًا
الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُجْمَعَةِ يَعْنِي الْمَفْتُوحَ بِهَا سُورَةُ الْقُرْآنِ جُمْلَةً عَدَدَهَا سَبْعِمِائَةٌ
وَثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ وَسَبْعٌ دَجَالِيَّةٌ ثُمَّ يَنْزِلُ عَيْسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصَلِّحُ الدُّنْيَا
وَتَمَشِي الشَّاةُ مَعَ الذَّنْبِ ثُمَّ مَبْلَغُ مَلِكِ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عَيْسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عَامًا
عَدَدُ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَهِيَ قِيَامُ دَوْلَةِ الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ
وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدِي إِلَّا عَيْسَى فَمَعْنَاهُ لَا مَهْدِي تُسَاوِي هِدَايَتَهُ هِدَايَتَهُ وَقِيلَ لَا
يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عَيْسَى وَهَذَا مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَغَيْرِهِ وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ
أَنَّهُ قَالَ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاءَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً

يَعْنِي قُرْشِيًّا وَقَدْ أَعْطَى الْوُجُودَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ
 سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ وَقَالَ الْخُلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتَّ وَثَلَاثُونَ
 وَانْقِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ الْحُسَيْنِ وَأَوَّلُ أَمْرٍ مُعَاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرٍ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةَ أَخْذًا
 بِأَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ الْخُلَفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْبَائِقُونَ
 خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَّةِ عَلِيٍّ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ إِنَّكَ لَدُو قُرَيْشِيهَا يُرِيدُ الْأُمَّةَ أَيَّ إِنَّكَ
 لَخَلِيفَتُهُ فِي أَوْلِيَّهَا وَذُرِّيَّتِكَ فِي آخِرِهَا وَرُبَّمَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَائِلُونَ بِالرَّجْعَةِ
 فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي تَقْسِي
 بِبَيْدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُبُورُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَنْفَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُبُورَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِي يَهْلِكُ قَيْصَرٌ وَيَنْفَقُ كُبُورُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنْتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ
 الْقِسْطَانِيَّةَ فَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ كَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ وَمَدَّةُ حُكْمِهِ بَضْعٌ وَالْبِضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ وَقِيلَ إِلَى عَشْرِ وَجَاءَ ذِكْرُ
 أَرْبَعِينَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ وَأَمَّا الْأَرْبَعُونَ فَأَيُّهَا مَدَّتُهُ وَمَدَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةَ
 الْبَائِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمْ السَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ أَصْحَابُ
 النُّجُومِ وَالْقِرَانَاتِ أَنَّ مَدَّةَ بَقَاؤِ أَمْرِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا
 فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا جَارِيًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَالْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ
 فَتَكُونُ مُلْكًا أَنْتَهَى كَلَامُ ابْنِ أَبِي وَاصِلٍ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ نَزُولُ عَيْسَى
 يَكُونُ فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنَ الْيَوْمِ الْحَمْدِيِّ حِينَ تَمْضِي ثَلَاثَةٌ أَرْبَعَةٌ قَالَ وَذَكَرَ
 الْكِنْدِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْجُفْرِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْقِرَانَاتِ أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ
 الْقُرْآنُ إِلَى الثَّوْرِ عَلَى رَأْسِ فِجْجٍ بَعْرَفَيْنِ الضَّادِ ^(١) أَلَمْ مَعْجَمَةً وَأَلْحَاءُ الْمَهْمَلَةَ يُرِيدُ ثَمَانِيَةً
 وَتِسْعِينَ وَسَمَّيْنَاهُ مِنَ الْعُجْرَةِ بِنَزْلِ الْمَسِيحِ فَيَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
 قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عَيْسَى يَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرَفِي دِمَشْقَ يَنْزِلُ مِنْ
 مَهْرُودَتَيْنِ يَعْنِي حَلَّتَيْنِ مَرْعَفَتَيْنِ صَرَائِينَ مَمَصَّرَتَيْنِ وَأَضِعًا كَذَبَهُ عَلَى الْجَنَّةِ الْمَالِكِينَ
 لَهُ لِمَةٌ كَأَنَّهَا خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ فَطَوَّرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُدَانٌ

(١) الضاد عند البخاري بـ تسعين والصاد بسنين ٥١٠ قاله نصر

كَالْوَلُو كَثِيرٌ خِيَلَانَ الْوَجْهِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ وَإِلَى الْبِيَاضِ وَالْحُمْرَةِ
 وَفِي آخَرَ أَنَّهُ يَنْزُوجُ فِي الْغَرْبِ وَالْغَرْبُ دَلُّ الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَنْزُوجُ مِنْهَا وَتَلِدُ زَوْجَتَهُ
 وَذَكَرَ وَقَاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَامًا وَجَاءَ أَنَّ عَيْسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عُمَرَ
 ابْنِ الْخَطَّابِ وَجَاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يُحْتَشِرَانِ بَيْنَ نَبِيِّنِ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاطِيلٍ وَالشَّيْخَةُ
 تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَاحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلَ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ
 حَدِيثٌ لَا مَهْدِيٍّ إِلَّا عَيْسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِيٌّ إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نَسَبْتُهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ
 الْحَمْدِيَّةِ نَسَبَهُ عَيْسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُؤَسَّوِيَّةِ فِي الْإِتْبَاعِ وَعَدَمِ النَّسَخِ إِلَى كَلَامٍ
 مِنْ أَمْثَالِ هَذَا يَعْنُونَ فِيهِ الْوَقْتُ وَالرَّجُلُ وَالْمَكَانُ بِأَدَلَّةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحَكُّمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ
 فَيَنْقُضِي الزَّمَانَ وَلَا أَثَرَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيِ آخَرَ مُنْتَحَلٍ كَمَا
 تَرَاهُمْ مِنْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءٍ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ نَجْمِيَّةٍ فِي هَذَا انْقَضَتْ أَعْمَارُ الْأَوَّلِ
 مِنْهُمْ وَالْآخِرِ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَاهُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظُهُورِ رَجُلٍ
 مُجَدِّدٍ لِأَحْكَامِ الْمَلَّةِ وَمَرَاسِمِ الْحَقِّ وَيَتَّعِنُونَ ظُهُورَهُ لِمَا قَرَّبَ مِنْ عَصْرِنَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ
 مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطَبِّقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمْعِنَاهُ مِنْ جَمَاعَةٍ أَكْثَرُهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِسِيُّ
 كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ حَافِدُهُ صَاحِبُنَا
 أَبُو يَحْيَى زَكْرِيَاءُ عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَدْكُورِ
 هَذَا آخِرُ مَا أَطَّلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَّغْنَا مِنْ كَلَامِهِ هُوَ لِأَنَّ الْمُتَصَوِّفَةَ وَمَا أَوْرَدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ
 مِنْ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ قَدْ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغِ طَاقَتِنَا وَالْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ
 لَدَيْكَ أَنَّهُ لَا نَتَمُّ دَعْوَةَ مَنْ الدِّينِ وَالْمَلِكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ عَصِيَّةٍ تَظْهِرُهُ وَتُدَافِعُ
 عَنْهُ مِنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِ وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ بِالْبَرْهَمِينَ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي
 أَرَبْنَاكَ هُنَاكَ وَعَصِيَّةِ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَفَرِيشِ أَجْمَعَ قَدْ تَلَّشْتَ مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاقِ وَوُجِدَ
 أَمْرٌ آخَرُونَ قَدْ اسْتَمَلَّتْ عَصِيَّتَهُمْ عَلَى عَصِيَّةِ فَرِيشِ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ فِي مَكَّةَ وَيَنْبَغُ
 بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِينَ مِنْ بَنِي حَسَنِ وَبَنِي حُسَيْنِ وَبَنِي جَعْفَرٍ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ
 وَغَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَمَائِبُ بَدْوِيَّةٍ مُتَفَرِّقُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ وَإِمَارَاتِهِمْ وَأَرَائِهِمْ يَبْلُغُونَ
 الْأَفَاقَ مِنَ الْكَثْرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظُهُورُ هَذَا الْمَهْدِيِّ فَلَا وَجْهَ لظُهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بَأَن يَكُونَ
 مِنْهُمْ وَيُؤَانِفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِ حَتَّى نَتِمَّ لَهُ شَوْكَةُ وَعَصِيَّةٌ وَفِيهِ بِإِظْهَارِ

كَلِمَتِهِ وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مِثْلُ أَنْ يَدْعُو فَاطِمِي مِنْهُمْ إِلَى
 مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَفْقٍ مِنَ الْأَفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مَجْرَدَ نِسْبَةٍ فِي أَهْلِ
 الْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ وَلَا يُمَكِّنُ لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنَ الْبُرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ وَأَمَّا مَا تَدْعِيهِ الْعَامَّةُ
 وَالْأَعْمَارُ مِنَ الدَّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عَقْلِ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ
 ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ تَقْلِيدًا لِمَا أَشْتَهَرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ
 حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَأَكْثَرُ مَا يُجِيبُونَ فِي ذَلِكَ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ
 الْعُمَرَانِ مِثْلِ الزَّبَابِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَتَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ ضِعْفَاءِ الْبَصَائِرِ
 يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةٍ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الرِّبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُتَمَثِّبِينَ مِنْ كِدَالَةٍ وَأَعْنَاقِدِهِمْ
 أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ الْأُمْرِ وَبَعْدَهُمْ عَنْ
 يَقِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةِ أَوْ قِلَّةِ أَوْ ضَعْفِ أَوْ قُوَّةِ وَابْعَدِ الْقَاصِيَةَ عَنْ مَنَالِ
 الدَّوْلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْدَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بَخْرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ
 الدَّوْلَةِ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَبْرِ وَلَا تَحْصُلُ لَدَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هَذَا وَقَدْ يَقْصِدُ ذَلِكَ
 الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضِعْفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةِ يَمِيَّةٍ تَمَامِهَا وَسَوَاسًا وَحَدَقًا وَقَتْلَ
 كَثِيرٍ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيُّ قَالَ خَرَجَ رِبَاطًا مَاسَةً لِأَوَّلِ
 الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَصَرَ السُّلْطَانَ يُوسُفَ بْنَ بَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُتَخَلِّي التَّصَوُّفِ يُعْرَفُ
 بِالتَّوَيْزِرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تُوَزَّرٍ مَصْعَرًا وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَاتَّبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ
 أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَّةٍ وَكَرْوَلَةٍ وَعَظْمِ أَمْرِهِ وَخَافَهُ رُؤْسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ
 عَلَيْهِ السَّكْسُوسِيُّ مِنْ قَتْلِهِ بَنَاتًا وَأَمْحَلَ أَمْرَهُ وَكَذَلِكَ ظَهَرَ فِي عِمَارَةِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ
 السَّابِعَةِ وَعَشْرَ التَّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَاتَّبَعَهُ الدَّهْمَاءُ
 مِنْ عِمَارَةِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عَنُودَ وَحَرَّقَ أَسْوَاقَهَا وَارْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَرْزَمَةِ فَقُتِلَ بِهَا
 غِيْلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَلَمْدُ كُورُ بَغْرِيَّةٍ فِي مِثْلِ هَذَا
 وَهُوَ أَنَّهُ صَحْبِي فِي حَجَّةٍ فِي رِبَاطِ الْعِبَادِ وَهُوَ مَدْفُنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ فِي جَبَلِ تَلْمَسَانَ
 الْمَطَّلِ عَلَيْهَا رَجُلَانِ مِنَ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتَّبِعًا مَعْظَمًا كَثِيرَ التَّلْمِيذِ
 وَالْحَادِمِ قَالَ وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالْبَفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ قَالَ
 وَتَاكَدَتِ الصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ فَأَنْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنْهَمُ إِنَّمَا جَاءُوا

مِنْ مَوَاطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لَطَلَبَ هَذَا الْأَمْرَ وَانْتَحَالَ دَعْوَةَ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَايَنَ
 دَوْلَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَيُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مَنَازِلَ تَلَمَّسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ أَرْجِعُوا فَقَدْ
 أَرَزَى بِنَا الْعَلَطُ وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقَتْنَا وَيَدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ
 مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنْ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ
 غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطْنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مُرَيْنَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يُقَاوِمُهَا أَحَدٌ
 مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ اسْتَسْكَانَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَفْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ
 أَنَّ عَصِيَّةَ الْفَوَاطِمِ وَفُرَيْشٍ أَجْمَعٍ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيمَا فِي الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ
 لِشَأْنِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهَذَا الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَتْ بِالْمَغْرِبِ إِهْدِيهِ
 الْعُصُورَ الْقَرِيبَةَ نَزْعَةً مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسَّنَةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ
 وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْوَاحِدُ فَالْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ السَّنَةِ
 وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُعُونَ بِإِصْلَاحِ السَّالِبَةِ
 لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ الْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِرِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ
 الْمُنْكَرِ بِمَا اسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تُسْتَحْكَمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ الْعَرَبِ
 وَرُجُوعَهُمْ إِلَى الدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا الْإِفْصَارَ عَنِ الْغَارَةِ وَالنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ
 وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي الدِّيَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ الْمَقْرُبَةِ وَمِنْهَا
 تَوْبَتُهُمْ فَجِدَّ ذَلِكَ الْمُنْتَحِلُ لِلدُّعْوَةِ وَالْقَائِمُ بِزَعْمِهِ بِالسَّنَةِ غَيْرَ مُتَمَعِّقِينَ فِي فُرُوعِ
 الْإِفْتِدَاءِ وَالْإِتْبَاعِ إِنَّمَا دِينَهِمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّهْبِ وَالْبَغْيِ وَأَفْسَادِ السَّالِبَةِ ثُمَّ
 الْإِقْبَالُ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْمَعَاشِ بِأَفْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَانَ بَيْنَ هَذَا الْأَجْرِ مِنْ إِصْلَاحِ
 الْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا فَاتَّقَاهُمَا مُمْتَنِعٌ لَا تَسْتَحْكَمْ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الدِّينِ وَلَا يَكْمُلُ
 لَهُ نَزْوَعٌ عَنِ الْبَاطِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ الدُّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي
 اسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوِلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ أُنْحَلَّ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّتُهُمْ
 وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِرَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَاسِمَ بْنَ مَرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي
 الْمِائَةِ السَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَّاحٍ مِنْ بَطْنِ مَنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ
 وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةَ وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ الْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ
 يَسْتَبْأَ أَمْرَ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسْبَمَا يَا فِي ذِكْرٍ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سُلَيْمٍ وَرِيَّاحٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيَلْبَسُونَ
فِيهَا وَيَنْتَحِلُونَ اسْمَ السَّنَةِ وَيَلْبَسُوا عَلَيْهَا إِلَّا الْأَقْلَّ فَلَا يَتِمُّ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ
مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والامم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسعى الجفر

إِعْلَمَنَّ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ التَّشَوُّقَ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعَلِمَ مَا يَخْدُثُ
لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيمَا الْخَوَادِثُ الْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ
مُدَدِ الدُّوَلِ أَوْ تَقَاتُلِهَا وَالتَّلَطُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةٌ مَجْبُورُونَ عَلَيْهَا وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ
النَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الْوُفُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ وَالْأَخْبَارِ مِنَ الْكُهَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ
مِنَ الْمُلُوكِ وَالسُّوْفِيَّةِ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ تَجِدُ فِي الْمَدُنِ صِنْفًا مِنَ النَّاسِ يَنْتَحِلُونَ الْمَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ
لِعَالِمِهِمْ يَجْرِصُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْكَافِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ
يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَعْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرُوحُ نِسْوَانُ الْمَدِينَةِ وَصَنِيَانِهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ
يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أَمْرِهِمْ فِي الْكَسْبِ وَالْجَاهِ وَالْمَعَاشِ وَالْمُعَاشِرَةِ وَالْعِدَاوَةِ وَأَمْثَالِ
ذَلِكَ مَا بَيْنَ خَطِّ فِي الرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ الْمَجْمِمْ وَطَرِيقَ الْخَصِي وَالْحُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ الْحَاسِبَ
وَنَظَرَ فِي الْمَرَايَا وَالْمِيَاهِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ الْمَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الْفَاسِيَةِ فِي
الْأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذَلِكَ وَإِنَّ الْبَشَرَ مَجْبُورُونَ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا مَنْ
أَطَّلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ لَوْلَاةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَعْتَنِي بِذَلِكَ وَيَتَطَّلَعُ إِلَيْهِ الْأَمْرَاءُ
وَالْمُلُوكُ فِي أَمَادِ دَوْلَاتِهِمْ وَلِذَلِكَ أَنْصَرَفَتِ الْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنْ
الْأُمَّةِ يُوجَدُ لَهُمْ كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُجْمِمٍ أَوْ وَليٍّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ
دَوْلَةٍ يَخْدَتُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَخْدُثُ لَهُمْ مِنَ الْحَرْبِ وَالْمَلَاحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ الدَّوْلَةِ وَعَدَدِ
الْمُلُوكِ فِيهَا وَالتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلَ ذَلِكَ الْخَدَثَانِ وَكَانَ فِي الْعَرَبِ الْكُهَّانُ
وَالْعَرَّافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ الْمَعْرَبُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْدَوْلَةِ
كَأَنَّ وَقَعَ شَيْءٌ وَسَطِخٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رِيْبَعَةَ بْنِ نَضْرٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ
الْحَبَشَةِ بِأَدْنَاهُمْ ثُمَّ رُجِعَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُلْكُ وَالْدَوْلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَكَذَا

تَأْوِيلُ سَطِيحِ لِرُؤْيَا الْمُؤْبَدَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كَسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ الْمَسِيحِ وَأَخْبَرَهُمْ
بِظُهُورِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ وَكَذَا كَانَ فِي جَبَلِ الْبُرَيْرِ كَهَانٌ مِنْ أَشْهُرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِنْ
بَنِي يَفْرَنْ وَيُقَالُ مِنْ عَمْرَةٍ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَّثَانِيَّةٌ عَلَى طَرِيقَةِ الشَّعْرِ بِرِطَانَتِهِمْ وَفِيهَا حَدَثَانٌ
كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ لِرِنَاتِهِ مِنَ الْمَلِكِ وَالِدَوْلَةِ بِالْمَغْرِبِ وَهِيَ مِتْدَاوِلَةٌ بَيْنَ
أَهْلِ الْجَبَلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيُّ تَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ زَعَامِهِمْ أَنَّهُ
كَانَ نَبِيًّا لِأَنَّ تَارِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَقَدْ يَسْتَدُّ الْجَبَلُ إِلَى
خَبَرِ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمْ الْمُتَعَاوِينَ فِيهِمْ
كَانُوا يُخْبِرُونَ وَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا يَعْنُوهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ
مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمِدَّتْهَا عَلَى الْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا
عَلَى الْخُصُوصِ وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ فِي مَنْ صَدَرَ الْإِسْلَامُ لِأَنَّ تَارَ مَقُولَةٍ عَنِ الصَّحَابَةِ
وْخُصُوصًا مَسْلَمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مَنِئِبَةَ وَأَمثالِهِمَا وَرُبَّمَا
أَقْتَبَسُوا بَعْضُ ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرِ مَا تُورَثُ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ وَوَقَعَ لِحُجْرٍ وَأَمثالِهِ مِنْ أَهْلِ
الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنْدَمٌ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْكَشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوِلَايَةِ وَإِذَا
كَانَ مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَيْدَةِ الرُّتْبِ الشَّرِيفَةِ وَالْكَرَامَاتِ
الْمَوْهُوبَةِ وَأَمَّا بَعْدَ صَدْرِ الْمِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ النَّاسُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ
وَتُرْجِمَتْ كُتُبُ الْحُكَمَاءِ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَأَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ
الْمُنْجِمِينَ فِي الْمَلِكِ وَالِدَوْلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِنَ الْقِرَانَاتِ وَفِي الْمَوَالِيدِ وَالْمَسَائِلِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ مِنَ الطَّوَالِعِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ الْفَلَكِ عِنْدَ حُدُوثِهَا فَاذْكُرْ الْآنَ
مَا وَقَعَ لِأَهْلِ الْأَثَرِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ الْمُجْمَعِينَ. أَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ فَلَهُمْ فِي
مُدَّةِ الْمَلِكِ وَبَقَاءِ الدُّنْيَا عَلَى مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ الشُّهُبِيِّ فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ الطَّبْرِيِّ مَا
يَقْتَضِي أَنْ مَدَّةَ بَقَاءِ الدُّنْيَا مِنْهُ الْمِلَّةُ خَمْسُمِائَةَ سَنَةٍ وَنَقِضَ ذَلِكَ بِظُهُورِ كَذِبِهِ وَاسْتَنْدُ
الطَّبْرِيِّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الدُّنْيَا جُمِعَتْ مِنْ جَمْعِ الْآخِرَةِ وَلَمْ يَذْكُرْ
لِذَلِكَ دَلِيلًا وَسِرَّهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ تَقْدِيرُ الدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهِيَ سَبْعَةٌ
ثُمَّ الْيَوْمُ بِالْفِ سِتَّةٌ لِقَوْلِهِ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنَّ سَنَةً مِمَّا تَعُدُّونَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي

الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
 مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ وَقَالَ بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاءَةَ كِهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ
 وَالْوُسْطَى وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ
 مِثْلِيهِ يَكُونُ عَلَى التَّقْرِبِ نِصْفَ سَبْعٍ وَكَذَلِكَ وَصَلَ الْوُسْطَى عَلَى السَّبَابَةِ فَتَكُونُ هَذِهِ
 الْمُدَّةُ نِصْفَ سَبْعٍ الْجُمُعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ خَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَنْ يُعْجَزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةُ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَلَةِ
 خَمْسَةَ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةَ سَنَةٍ وَعَنْ وَهَبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَسِتِّمِائَةَ سَنَةٍ أَعْنِي
 الْمَاضِيَّ وَعَنْ كَعْبِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا كُلُّهَا سِتَّةُ آلَافٍ سَنَةٍ قَالَ السُّهَيْلِيُّ وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثَيْنِ
 مَا يَشْهَدُ لِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وَفُوعِ الْوُجُودِ بِخِلَافِهِ فَمَا قَوْلُهُ لَنْ يُعْجَزَ اللَّهُ أَنْ
 يُؤَخَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةُ نِصْفَ يَوْمٍ فَلَا يَقْتَضِي نَفْيَ الزِّيَادَةِ عَلَى النِّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بَعَثْتُ
 أَنَا وَالسَّاءَةَ كِهَاتَيْنِ فَإِنَّمَا فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْبِ وَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاءَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ
 وَلَا شَرَعٌ غَيْرُ شَرَعِهِ ثُمَّ رَجَعَ السُّهَيْلِيُّ إِلَى تَعْيِينِ أَمَدِ الْمَلَةِ مِنْ مَدْرَكِ آخِرِ لَوْ سَاعَدَهُ
 التَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ الْحُرُوفَ الْمُقْطَعَةَ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بَعْدَ حَذْفِ الْمَكْرَرِ قَالَ
 وَهِيَ أَرْبَعَةٌ عَشْرَ حَرْفًا يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (الم يسطع نص حق كره) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ
 الْجَمَلِ فَكَانَ سَبْعِمِائَةً وَثَلَاثَةً ^(١) أَضَافَهُ إِلَى الْمُنْقُضِي مِنَ الْأَلْفِ الْآخِرِ قَبْلَ بَعَثْتِهِ
 فِهَذِهِ هِيَ مُدَّةُ الْمَلَةِ قَالَ وَلَا يَبْعُدُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا
 قُلْتُ وَكَوْنُهُ لَا يَبْعُدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا التَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَالَّذِي حَمَلَ السُّهَيْلِيُّ عَلَى ذَلِكَ
 إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السِّيَرِ لِابْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ابْنِي أَخْطَبَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ
 وَهُمَا أَبُو بَاسِرٍ وَأَخُوهُ حَيْثُ حِينَ سَمِعَا مِنَ الْأَحْرَفِ الْمُقْطَعَةِ أَلَمْ وَتَاءً وَلَاهَا عَلَى بَيَانِ
 الْمُدَّةِ بِهَذَا الْحِسَابِ قَبِلَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَاسْتَقْلًا الْمُدَّةَ وَجَاءَ حَيْثُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ فَقَالَ الْمَصُّ ثُمَّ اسْتَزَادَ الرَّثْمُ ثُمَّ اسْتَزَادَ الْمَرْفُ فَكَانَتْ
 إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَاسْتَطَالَ الْمُدَّةَ وَقَالَ قَدْ لَيْسَ عَلَيْنَا أَمْرٌ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى
 لَا نَدْرِي أَقِيلًا أَعْطَيْتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَاسِرٍ مَا يَدْرِيكُمْ
 لَعَلَّهُ أَعْطَى عَدَدَهَا كُلُّهَا تِسْعِمِائَةً وَأَرْبَعِ سِنِينَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فَتَزَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

١ هذا العدد غير مطابق كما كان المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٢٠ وإنما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٢

آيات مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ١٠. وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ تَلِي
 تَقْدِيرَ الْمَلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لِأَنَّ دَلَالَتهُ هُدَى الْخُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا
 عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُعِ وَالِاصْطِلَاحِ الَّذِي يَسْمُوهُ حِسَابَ الْجَمَلِ نَعَمَ إِنَّهُ قَدِيمٌ
 مَشْهُورٌ وَقَدِيمُ الْاصْطِلَاحِ لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو بَاسِرٍ وَأَخُوهُ حَيٌّ مِمَّنْ يُوْخَذُ رَأْيُهُ
 فِي ذَلِكَ دَلِيلًا وَلَا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِأَدْيَةِ بِالْحِجَازِ غُفْلًا عَنِ الصَّنَائِعِ
 وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنِ عِلْمِ شَرِيعَتِهِمْ وَفِقْهِ كِتَابَتِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَقَفُّونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ
 كَمَا نَتَلَفَّهُ الْعَوَامُ فِي كُلِّ مَلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ لِلْسُّبْحِيِّ دَلِيلٌ تَلِي مَا أَدْعَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَوَقَعَ
 فِي الْمَلَّةِ فِي حَدِيثَانِ دَوْلَتَهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٍّ فِي حَدِيثِ خَرَجَهُ
 أَبُو دَاوُدَ عَنْ حَدِيثِ بَنِي الْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذَّهَبِيِّ عَنْ سَعِيدِ
 ابْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرُوحَ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدِ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ
 ذُوَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حَدِيثُهُ بِنِ الْيَمَانِ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَسِيَّ أَحْسَابِي أُمَّ تَنَاسَوْهُ
 وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَائِدِ فَيْتَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقُضِي الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ مِنْ
 مَعَهُ ثَلَاثِمِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَاهُ بِاسْمِهِ وَأَسْمُ أَبِيهِ وَقَبِيَلَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ وَقَدْ
 تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ إِذَا كَانَ
 صَحِيحًا فَهُوَ مُجْمَلٌ وَيَنْتَقِرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مَبَاهِطِهِ إِلَى آثَارِ أُخْرَى يُجُودُ
 أَسَانِيدُهَا وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ فَوْقَ
 فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ حَدِيثِهِ أَيضًا قَالَ نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيبًا
 فَأَمَّا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ عَنْهُ حِفْظُهُ مِنْ حِفْظِهِ وَنَسِيَهُ
 مِنْ نَسِيهِ قَدْ عَلِمَهُ أَحْسَابُهُ هُوَ لِأَنَّ ١٠. وَلَفْظَ الْبُخَارِيِّ مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا
 ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ التُّرْمُذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمَّ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ
 إِلَّا أَخْبَرْنَا بِهِ حِفْظُهُ مِنْ حِفْظِهِ وَنَسِيَهُ مِنْ نَسِيهِ ١٠. وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا تَحْمُولَةٌ عَلَى مَا
 ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْأَشْرَاطِ لِأَنَّ الْمَعْمُودَ مِنَ الشَّارِعِ صَوَاتُ
 اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَقَرَّرَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي
 هَذِهِ الطَّرِيقِ شَاذَةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأَيْمَةَ اخْتَلَفُوا فِي رَجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ فِي

ابْنِ فَرُوحٍ أَحَادِيثُهُ مَنَا كَبِيرٌ وَقَالَ الْبُخَارِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ وَيُنْكِرُ وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ
 أَحَادِيثُهُ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ فِي الصَّحِيحِينَ وَوَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ
 فَإِنَّمَا خَرَجَ لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَادًا وَضَعْفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ابْنُ
 حَاتِمٍ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يَخْتَجُّ بِهِ وَأَبُو قَبِيصَةَ ابْنُ ذُوئَيْبٍ مَجْهُولٌ فَتَضَعُفُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ
 الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ شَذُوذِهَا كَمَا مَرَّ . وَقَدْ
 يَسْتَنْدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجَفْرِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمَ ذَلِكَ
 كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَثَارِ وَالنُّجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذَلِكَ وَلَا
 مُسْتَنْدِيهِ وَعَلِمَ أَنَّ كِتَابَ الْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدٍ الْعَجَلِيُّ وَهُوَ رَأْسُ
 الزِّيَادَةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَزُودُهُ عَنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى
 الْعُمُومِ وَبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ وَقَعَ ذَلِكَ لَجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ مِنْ رِجَالِهِمْ
 عَلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَ
 جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونَ الْعَجَلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَاهُ الْجَفْرَ بِاسْمِ الْجِلْدِ
 الَّذِي كَتَبَ فِيهِ لِأَنَّ الْجَفْرَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْاسْمُ عَلَمًا عَلَى هَذَا الْكِتَابِ
 عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ الْمَعَانِي مَرْوِيَةٌ عَنِ جَعْفَرِ
 الصَّادِقِ وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ يَتَّصِلْ رِوَايَتُهُ وَلَا عَرَفَتْ عَيْنُهُ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَازٌ مِنْ
 الْكَلِمَاتِ لَا يَضْمَحُهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ السَّنَدُ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نِعْمَ الْمُسْتَنْدُ
 مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ فَهَمْ أَهْلُ الْكِرَامَاتِ وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ بَعْضَ
 قَرَابَتِهِ بِوَقَائِعٍ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصَحُّ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَدَّثَ يَحْيَى ابْنُ عَمِّهِ زَيْدٌ مِنْ مِصْرَ عِ
 وَعَصَاهُ مَخْرَجٌ وَقُتِلَ بِالْجُوزْجَانَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِذَا كَانَتِ الْكِرَامَةُ تَقَعُ لِغَيْرِهِمْ
 فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْمًا وَدِينًا وَأَثَارًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَعِنَايَةٍ مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ الْكَرِيمِ تَشْهَدُ
 لِفُرُوعِهِ الطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى
 أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَأَنْظُرْ مَا حَكَاهُ ابْنُ الرَّقِيقِ فِي لِقَاءِ أَبِي
 عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْبِيِّ لِعَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مَعَ ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْحَبِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ
 بَعَثَاهُ إِلَى ابْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِالْيَمَنِ فَاثْرَمَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَبَثَّ الدَّعْوَةَ
 فِيهِ عَلَى عِلْمٍ لِقَبْنِهِ أَنَّ دَعْوَتَهُ تَمَّ هُنَاكَ وَأَنَّ عَبِيدَ اللَّهِ لَمَّا بَنَى الْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ اسْتِخْفَالِ

دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ قَالَ بَنِيْتَهَا لِعَصْمٍ بِهَا الْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ مَهَارٍ وَأَرَاهُمْ مَوْفَقَ صَاحِبِ
 الْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِالْهُدْيَةِ وَكَانَ يُسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْفِقِهِ حَتَّى جَاءَهُ الْخَبْرُ بِبُلُوغِهِ إِلَى
 الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ جَدُّهُ أَبُو عَيْبِدٍ اللَّهُ فَأَيَّقَنَ بِالظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ الْبَلَدِ فَمَزَمَهُ وَاتَّبَعَهُ
 إِلَى نَاحِيَةِ الزَّابِ فَظَفَرَ بِهِ وَقَتَلَهُ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ وَأَمَّا الْمُنَجِّمُونَ فَيَسْتَنْدُونَ
 فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ إِلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ أَمَّا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِثْلَ الْمَلِكِ وَالِدُولِ
 فَمِنْ الْقِرَانَاتِ وَخُصُوصًا بَيْنَ الْعُلُوِّ بَيْنَ وَذَلِكَ أَنَّ الْعُلُوِّ بَيْنَ زَحَلٍ وَالْمُشْتَرِي يَقْتَرِنَانِ فِي
 كُلِّ عَشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ الْقِرَانُ إِلَى بُرْجِ آخَرَ فِي تِلْكَ الْمَثَلَةِ مِنَ الثَّلَاثِ
 الْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرَ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي الْمَثَلَةِ الْوَاحِدَةِ ثِنْتِي عَشْرَةَ
 مَرَّةً تَسْتَوِي بِرُوجِهِ الثَّلَاثَةَ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ
 ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي الْمَثَلَةِ بِثِنْتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَرْبَعُ عَوَدَاتٍ فِي مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ
 سَنَةً وَيَكُونُ انْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى الثَّلَاثِ الْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمَثَلَةِ إِلَى الْمَثَلَةِ
 الَّتِي تَلِيهَا أَعْنَى الْبُرْجِ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ الْآخِرَ مِنَ الْقِرَانِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمَثَلَةِ وَهَذَا
 الْقِرَانُ الَّذِي هُوَ قِرَانُ الْعُلُوِّ بَيْنَ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسَطٍ فَالْكَبِيرُ هُوَ أَجْمَاعُ
 الْعُلُوِّ بَيْنَ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكَ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمَائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً
 وَاحِدَةً وَالْوَسَطُ هُوَ أَقْتِرَانُ الْعُلُوِّ بَيْنَ فِي كُلِّ مَثَلَةٍ اثْنَتِي عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِئَتَيْنِ
 وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مَثَلَةٍ أُخْرَى وَالصَّغِيرُ هُوَ أَقْتِرَانُ الْعُلُوِّ بَيْنَ فِي دَرَجَةٍ بُرْجٍ
 وَبَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجِ آخَرَ عَلَى ثَلَاثِيهِ الْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ دَقَائِقِهِ
 مِثَالِ ذَلِكَ وَقَعَ الْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلَ دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَمَلِ وَبَعْدَ عَشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ
 الْأَسَدِ وَهَذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ وَهَذَا كُلُّهُ قِرَانُ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ
 سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرَ الْقِرَانِ وَعَوْدُ الْقِرَانِ وَبَعْدَ مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّارِيَّةِ إِلَى
 التَّرَابِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهَذَا قِرَانُ وَسَطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْهَوَائِيَّةِ ثُمَّ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى
 أَوَّلِ الْحَمَلِ فِي تِسْعِمَائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْقِرَانُ الْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ
 الْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ الْمَلِكِ وَالِدَوْلَةِ وَانْتِقَالِ الْمَلِكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَالْوَسَطُ عَلَى ظُهُورِ
 الْمُتَغَالِبِينَ وَالطَّالِبِينَ لِلْمَلِكِ وَالصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ الْخَوَارِجِ وَالدُّعَاةِ وَخَرَابِ الْمَدُنِ أَوْ
 عُمَرَانِهَا وَيَقَعُ فِي اثْنَاءِ هَذِهِ الْقِرَانَاتِ قِرَانُ التَّحْسِينِ فِي بُرْجِ السَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ

سَنَةً مَرَّةً وَيُسَمَّى الرَّابِعَ وَبُرْجُ السَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ الْعَالَمِ وَفِيهِ وَبَالُ زُحَلٍ وَهَبُوطُ
الْمَرِيخِ فَتَعْظُمُ دَلَالَةُ هَذَا الْقِرَانِ فِي الْفَنَنِ وَالْحُرُوبِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ وَظُهُورِ الْخَوَارِجِ
وَحَرَكَةِ الْعَسَاكِرِ وَعَضْيَانِ الْجُنْدِ وَالْوَبَاءِ وَالْقَحْطِ وَيَدُومُ ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدْرِ
السَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدْرِ تَبْسِيرِ الدَّلِيلِ فِيهِ قَالَ جِرَاسُ بْنُ أَحَدَدٍ
الْحَاسِبِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَلْفَهُ لِنِظَامِ الْمَلِكِ وَرُجُوعِ الْمَرِيخِ إِلَى الْعَقْرَبِ لَهُ أَثَرٌ
عَظِيمٌ فِي الْمِلَّةِ الْأِسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلًا فَالْمَوْلِدُ النَّبَوِيُّ كَانَ عِنْدَ قِرَانِ الْعَلَوِيِّينَ
بِبُرْجِ الْعَقْرَبِ فَلَمَّا رَجَعَ هُنَاكَ حَدَثَ التَّشْوِيشُ عَلَى الْخُلَفَاءِ وَكَثُرَ الْمَرَضُ فِي أَهْلِ
الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَنَقَصَتْ أحوَالُهُمْ وَرُبَّمَا أَهْمَدَمَ بَعْضُ نُيُوتِ الْعِبَادَةِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ
عِنْدَ قَتْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالْمَتَوَكِّلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِذَا
رُوعِيَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ مَعَ أَحْكَامِ الْقِرَانَاتِ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْأِحْكَامِ وَذَكَرَ شَاذَانَ
الْبَلْخِيَّ أَنَّ الْمِلَّةَ تَنْتَهِي إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُ هَذَا الْقَوْلِ وَقَالَ
أَبُو مَعْشَرٍ يَظْهَرُ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْهَا اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ وَلَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ وَقَالَ خِرَاشُ
رَأَيْتُ فِي كُتُبِ الْقَدَمَاءِ أَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ أَخْبَرُوا كَسْرِي عَنْ مَلِكِ الْعَرَبِ وَظُهُورِ النُّبُوَّةِ
فِيهِمْ وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ الزُّهْرَةُ وَكَانَتْ فِي شَرْفِهَا فَيَبْقَى الْمَلِكُ فِيهِمْ أَنْ بَعِيَتْ سَنَةٌ وَقَالَ
أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِ الْقِرَانَاتِ الْقِسْمَةُ إِذَا أَنْتَبَتْ إِلَى السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْخُوتِ فِيهَا
شَرْفُ الزُّهْرَةِ وَوَقَعَ الْقِرَانُ مَعَ ذَلِكَ بِبُرْجِ الْعَقْرَبِ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ
دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ وَيَكُونُ قُوَّةُ مَلِكِهِ وَمُدَّتُهُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ دَرَجَاتِ شَرْفِ
الزُّهْرَةِ وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً بِتَقْرِيْبٍ مِنْ بُرْجِ الْخُوتِ وَمُدَّةُ ذَلِكَ سِتِّمِائَةٍ وَعِشْرُ
سِنِينَ وَكَانَ ظُهُورُ أَبِي مُسْلِمٍ عِنْدَ انْتِقَالِ الزُّهْرَةِ وَوُقُوعُ الْقِسْمَةِ أَوَّلَ الْحَمَلِ وَصَاحِبُ
الْجُدِّ الْمُشْتَرِي وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ اسْتِحَاقِ الْكِنْدِيِّ إِنَّ مُدَّةَ الْمِلَّةِ تَنْتَهِي إِلَى سِتِّمِائَةٍ
وَتَلَاثٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ لِأَنَّ الزُّهْرَةَ كَانَتْ عِنْدَ قِرَانِ الْمِلَّةِ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً
وَتَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ الْخُوتِ فَالْبَاقِي إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانٍ عَشْرَةَ دَقِيقَةً وَدَقَائِقُهَا
سِتُونَ فَيَكُونُ سِتِّمِائَةً وَثَلَاثًا وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ وَهَذِهِ مُدَّةُ الْمِلَّةِ بِاتِّفَاقِ الْحُكَمَاءِ
وَيَعْضُدُ الْخُرُوفُ الْوَاقِعَةُ فِي أَوَّلِ السُّورِ بِحَدْفِ الْمُبَكَّرِ وَأَعْتَابَهُ بِحِسَابِ الْجُمَّلِ
قُلْتُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ وَالْغَالِبُ أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ مُسْتَمَدُّ السُّهَيْلِيِّ فِيمَا نَقَلْتَاهُ

عنه قال خراش سأل هرمز إفرید الحكيم عن مدة أردشير وولده ملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها أن بعمائة وسبعاً وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل العرب فيملكون لأن طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد لخمسة وأربعين من دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري بغوص إلى الزهرة وينتقل القران من الهوائية إلى العقر وهو مائي وهو دليل العرب فهداه الأدلة نفضي للملثة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة وسأل كسرى أبرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر وقال توفيل الروي العنجم في أيام بني أمية إن ملة الإسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة فإذا عاد القران إلى برج العقر كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة فينثد إيمان بفقر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن قال خراش وتفوقوا على أن خراب العالم يكون بأسنيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكنونات وذلك عند ما يقطع قلب الأسد أربعمائة وعشرين درجة وهي حد المريخ وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة وذكر خراش أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان اتحفه به في هديته وأنه تصرف للمأمون في الاختيارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهر وأن المأمون أعظم حكيمته فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بأنقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه وأن العجم يتعابون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين ويكون ما يريده الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكون إلى الشام والفرات وسيعون وسيملكون بلاد الروم ويكون ما يريده الله فقال له المأمون من أين لك هذا فقال من كتب الحكماء ومن أحكام صصة بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع قال خراش وانتقال القران إلى المثثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة

لِيَزِدَّ جَرْدًا وَبَعْدَهَا إِلَى بُرْجِ الْعَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ الْمِلَّةِ سَنَةً ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ قَالَ وَالَّذِي
 فِي الْحُوتِ هُوَ أَوَّلُ الْإِنْتِقَالِ وَالَّذِي فِي الْعَقْرَبِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ الْمِلَّةِ قَالَ وَمَعْوِيلُ
 السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَانِ الْأَوَّلِ فِي الْمَثَلثَاتِ الْمَائِيَّةِ فِي تَأْنِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانَ وَسِتِينَ
 وَثَمَانِيَّةٍ وَلَمْ يَسْتَوْفِ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ. وَأَمَّا مُسْتَدُّ الْمُتَجَمِّعِينَ فِي دَوْلَةِ عَلِيِّ الْحُصُوصِ
 فَمِنَ الْقِرَانِ الْأَوْسَطِ وَهَيْمَةَ الْفُلْكَ عِنْدَ وَقُوعِهِ لِأَنَّ لَهُ دَلَالََةً عِنْدَهُمْ عَلَى حَدُوثِ الدَّوْلَةِ
 وَجِهَاتِهَا مِنَ الْعُمَرَاءِ وَالْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ وَعَدَدِ مُلُوكِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَتَحْلِيمِ
 وَأَدْبَانِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِهِ فِي الْقِرَانَاتِ وَقَدْ تَوَجَّدَ هَذِهِ
 الدَّلَالَةُ مِنَ الْقِرَانِ الْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ الْأَوْسَطُ دَالًّا عَلَيْهِ فَمِنْ هَذَا يُوجَدُ الْكَلَامُ فِي الدُّوَلِ
 وَقَدْ كَانَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْمَاعِيلِ الْكِنْدِيِّ مُتَّخِذًا الرَّشِيدَ وَالْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي الْقِرَانَاتِ الْكَائِنَةَ
 فِي الْمِلَّةِ كِتَابًا سَمَاهُ الشَّيْبَةَ بِالْجُفْرِ بِأَسْمِ كِتَابِهِمُ الْمَنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَذَكَرَ
 فِيهِ فِيمَا يُقَالُ حَدَّثَانِ دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَنَّهَا نَهَيْتُهُ وَأَشَارَ إِلَى أَنْقِرَاضِهَا وَالْحَادِثَةَ عَلَى
 بَعْدَادِ أَنَّهَا نَفَعَتْ فِي انْتِصَافِ الْمَائَةِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهَا أَنْقِرَاضِهَا يَكُونُ أَنْقِرَاضُ الْمِلَّةِ وَلَمْ نَقِفْ
 عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَذَا الْكِتَابِ وَلَا رَأَيْنَا مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غُرِقَ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي طَرَحَهَا
 هَلَاكُ كَوْمَلِكِ التَّيْرِي فِي رَجَلَةٍ عِنْدَ اسْتِيْلَائِهِمْ عَلَى بَعْدَادِ وَقَتْلِ الْمُسْتَعْصِمِ آخِرِ الْخُلَفَاءِ وَقَدْ
 وَقَعَ بِالْمَغْرِبِ جُزْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ يُسَمُّونَهُ الْجُزْءَ الصَّغِيرَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَضَعَ لِبَنِي
 عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ فِيهِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَمُطَابَقَةً مِنْ تَقَدَّمَ عَنْ
 ذَلِكَ مِنْ حَدِيثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ الْكِنْدِيِّ مُنْجَمُونَ
 وَكُتُبٌ فِي الْخُدَاتَانِ وَأَنْظَرُ مَا نَقَلَهُ الطَّيْرِيُّ فِي أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ عَنْ أَبِي بُدَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِ
 صَنَائِعِ الدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ الرَّبِيعُ وَالْحَسَنُ فِي غَزَاتِهِمَا مَعَ الرَّشِيدِ أَيَّامَ أَبِيهِ فُجِحْتُهُمَا
 جَوْفَ اللَّيْلِ فَإِذَا عِنْدَهُمَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ الدَّوْلَةِ بَعْنِي الْخُدَاتَانِ وَإِذَا مَدَّةُ الْمَهْدِيِّ فِيهِ
 عَشْرُ سِنِينَ فَقُلْتُ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُخْفَى عَلَى الْمَهْدِيِّ وَقَدْ مَضَى مِنْ دَوْلَتِهِ مَا مَضَى فَإِذَا
 وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قَدْ نَعَيْتُمْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ قَالَا فَمَا الْخِيَلَةُ فَاسْتَدْعَيْتُ عُنْبَسَةَ الْوَرَّاقَ مَوْلَى
 آلِ بُدَيْلٍ وَقُلْتُ لَهُ أَسْخِ هَذِهِ الْوَرْتَةَ وَأَكْتُبْ مَكَانَ عَشْرِ أَرْبَعِينَ فَفَعَلَ فَوَاللَّهِ لَوْلَا
 أَنِّي رَأَيْتُ الْعَشْرَةَ فِي تِلْكَ الْوَرْتَةِ وَالْأَرْبَعِينَ فِي هَذِهِ مَا كُنْتُ أَشْكُ أَنَّهَا هِيَ ثُمَّ كُتِبَ
 النَّاسُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِي حَدِيثَانِ الدُّوَلِ مَنْظُومًا وَمَنْثُورًا وَرَجَزًا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ

وَبِأَيْدِي النَّاسِ مُمْتَرَّةٌ كَثِيرٌ مِنْهَا وَتَسْمَى الْمَلَاحِمَ وَبَعْضُهَا فِي حَدَثَانِ الْمَلَّةِ عَلَى الْعُمُومِ
 وَبَعْضُهَا فِي دَوْلَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَسُوبَةٌ إِلَى مَشَاهِيرِ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَأَبْسَ مِنْهَا أَصْلٌ
 يُعْتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ عَنْ وَاضِعِهِ الْمَسُوبِ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذِهِ الْمَلَاحِمِ بِالْمَغْرِبِ قَصِيدَةُ ابْنِ
 مُرَّانَةَ مِنْ بَجْرِ الطُّوَيْلِ عَلَى رُؤْيِ الرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ وَتَحْسِبُ الْعَامَّةُ أَنَّهَا مِنْ
 الْحَدَثَانِ الْعَامِّ فَيُطْلَقُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا عَلَى الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ شَيْوَخِنَا
 أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِدَوْلَةِ لِمْتُونَةَ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ قَبِيلَ دَوْلَتِهِمْ وَذَكَرَ فِيهَا اسْتِيْلَاءَهُمْ عَلَى
 سَبْتَةَ بْنِ يَدِ مَوَالِي بَنِي حَمُودٍ وَمَلِكِهِمُ الْعُدُوَّةَ الْأَنْدَلُسِ وَمِنَ الْمَلَاحِمِ بِيَدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
 أَيْضًا قَصِيدَةٌ تُسَمَّى التَّبَعِيَّةَ أَوَّلُهَا

طَرِبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرَبٌ وَقَدْ يَطْرَبُ الطَّائِرُ الْمُعْتَصَبُ

وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلَّهِوِ أَرَاهُ وَلَكِنْ ابْتَدَكَارَ بَعْضُ السَّبَبِ

قَرِيبًا مِنْ خَمْسِمِائَةِ بَيْتٍ أَوْ أَلْفٍ فِيمَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَأَشَارَ
 فِيهَا إِلَى الْفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَمِنَ الْمَلَاحِمِ بِالْمَغْرِبِ أَيْضًا مَلْعِبَةٌ
 مِنَ الشُّعْرِ الزَّجَلِيِّ مَسُوبَةٌ لِبَعْضِ الْيَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحْكَامَ الْقِرَانَاتِ لِعَصْرِهِ الْعُلُوِّ بَيْنَ
 وَالنَّحْسِينَ وَغَيْرِهَا وَذَكَرَ مِمَّنْ تَهْتَكُ قَتِيلًا بِفَاسَ وَكَانَ كَذَلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ وَأَوَّلُهُ

فِي صَبْغِ ذَا الْأَزْرَقِ لَشَرْفِهِ خِيَارًا فَافْهَمُوا هَذِيهِ الْإِشَارَا

نَجْمِ زَحَلِ اخْبِرْ بِذِي الْعِلْمَا وَبَدَلِ الشُّكْلَا وَهِيَ سِلَامَا

شَاشِيَةَ زَرْفَا بَدَلِ الْعِلْمَا وَشَاشِ الْأَزْرَقِ بَدَلِ الْفِرَارَا

يَقُولُ فِي آخِرِهِ

قَدْ تَمَّذَا التَّجْنِيسَ لِنَاسَانِ يَهُودِي يَصَلُّبِ فِي بِلْدَةِ فَاسَ فِي يَوْمِ عِيدِ

حَتَّى يَجِيَهُ النَّاسُ مِنَ الْبُودَايِ وَقَتْلَهُ يَأْقُومُ عَلَى الْفِرَادِ

وَأَبْيَانُهُ نَحْوُ الْخَمْسِمِائَةِ وَهِيَ فِي الْقِرَانَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَمِنَ الْمَلَاحِمِ الْمَغْرِبِ
 أَيْضًا قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ الْمُتَقَارِبِ عَلَى رُؤْيِ الْبَاءِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصِ
 بَتُونَسَ مِنَ الْمُوحِدِينَ مَسُوبَةٌ لِابْنِ الْأَبَّارِ وَقَالَ لِي قَاضِي فُسْطَاطِيَّةِ الْخَطِيبِ الْكَبِيرِ
 أَبُو عَلِيٍّ بْنُ بَادِيسَ وَكَانَ بَصِيرًا جَمًّا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ فِي التَّنْجِيمِ فَقَالَ لِي إِنَّ هَذَا ابْنُ الْأَبَّارِ
 لَيْسَ هُوَ الْحَافِظُ الْأَنْدَلُسِيِّ الْكَاتِبِ مَقْتُولِ الْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خِيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ

تُونِسَ تَوَاطَاتٍ شُهْرَتُهُ مَعَ شُهْرَةِ الْحَافِظِ وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يُنْسِدُ هَذِهِ
الْآيَاتِ مِنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي حِفْظِي مَطْلَعُهَا

عَدِيرِي مِنْ زَمَنِ قَلْبٍ يَغْرُ بِبَارِقِهِ الْأَشْتَبِ
وَبِعَتْ مِنْ جَانِبِهِ فَائِدًا وَبَقِيَ هُنَاكَ عَلَى مَرَقِبِ
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ فَيُقْبَلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ مِنْ عَدْلِهِ سِيرَةً وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجَابِ

ومنها في ذكر احوال تونس على العموم

فَأَمَّا^(١) رَأَيْتِ الرُّسُومَ أَمَحَّتْ وَلَمْ يُرْعَ حَقُّ لَدِيهِ مَنْصِبِ
نُحْدَ فِي التَّرْحُلِ عَنْ تُونِسِ وَوَدِعَ مَعَالِمَهَا وَأَذْهَبِ
فَسَوَتْ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةٌ تُضَيِّفُ الْبَرِيءَ إِلَى الْمَذْنِبِ

وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي رِوَالَةِ بَنِي أَبِي حَنْصِ هُوَ لِأَنَّ تُونِسَ فِيهَا بَعْدَ
السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّهِيرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذَكَرُ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ يَقُولُ فِيهَا
وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ شَقِيقُهُ وَيُعْرَفُ بِالْوَثَابِ فِي نُسْخَةِ الْأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يَمْنَى بِذَلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَبِ
المَلَا حِمٍ فِي الْمَغْرِبِ أَيْضًا الْمَلْعَبَةُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى الْهَوَاتِي عَلَى لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي عَرُوضِ الْبَلَدِ

دعني بدمعي الهتان فترت الامطار ولم تفر
واستقت كلها الوبدان واني تملى وتغدر

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى وَالْغَالِبِ عَلَيْهَا الْوَضْعُ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْهَا
قَوْلٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلٍ تُعْرِفُهُ الْعَامَّةُ أَوْ الْحَارِفُ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنَ الْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ
عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِأَبْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ شَبِهَ الْأَلْغَازَ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا
اللَّهُ لِيَحْتَلِلَهُ إِلَى أَوْفَاقٍ عَدَدِيَّةٍ وَرَمُوزٍ مَلْعُوزَةٍ وَأَشْكَالٍ حَيَوَانَاتٍ تَامَةٍ وَرُؤُوسٍ مَقْطَعَةٍ
وَتَمَاثِيلٍ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ وَفِي آخِرِهَا قَصِيدَةٌ عَلَى رُويِ الْأَلَمِ وَالْغَالِبِ أَنَّهَا كُتِبَتْ
غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلِ عِلْمِيٍّ مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَسَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ

١ قوله فاما رابت اصله فان رابت زبدت ما رادغمت في ان الشرطية المحذوف نونها خطأ وفي نسخة فلما
رابت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية ٥٠٠هـ قاله نصر

مَلَا حِمٌّ أُخْرَى مَسْبُوبَةٌ لِأَبْنِ سِينَاءَ وَأَبْنِ عَقَابٍ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصَّحَّةِ لِأَنَّ
 ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقَرَّانَاتِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضًا عَلَى مَلْحَمَةٍ مِنْ حَدَثَانِ دَوْلَةِ
 التُّرْكِ مَسْبُوبَةٌ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى الْبَاجِرِ بَنِي وَكَلَّمَهَا الْغَازِ بِالْحُرُوفِ أَوَّلَهَا
 إِنْ شِئْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سُؤْلِي مِنْ عِلْمِ جَنْزٍ وَصِيٍّ وَالِدِ الْحَسَنِ
 فَافْتَهُمْ وَكُنْ وَاعِيًا حَرْفًا وَجُمْلَةً وَالْوَصْفُ فَافْتَهُمْ كَفَعَلَ الْحَاذِقِ الْفَطْنِ
 أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَصْرِي لَسْتُ أَذْكَرُهُ لَكِنِّي أَذْكَرُ الْآتِي مِنَ الزَّمَنِ
 بِشَهْرِ بِيْرَسَ بَقِي بَعْدَ خَمْسَتِهَا بِحَاءٍ مِيمٍ بَطِيْشٌ نَامٌ فِي الْكُنَنِ
 شَيْنٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ لَهُ الْقَضَاءُ قَضَى أَي ذَلِكَ الْمِنَنِ
 فَمَضْرُ وَالشَّامُ مَعَ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ وَآذَرَ بِيْجَانُ فِي مُلْكِ إِلَى الْيَمَنِ
 وَأَبْيَاتُهَا كَثِيرَةٌ وَالْغَالِبُ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَمِثْلُ صِنْعَتِهَا كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ كَثِيرٌ
 وَمَعْرُوفُ الْإِنْتِحَالِ

حَكَمَى الْمَوْزِخُونَ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامُ الْمُقْتَدِرِ وَرَاقُ ذِكْرِي يُعْرَفُ
 بِالْدَانَالِيِّ بَيْلِ الْأَوْزَاقِ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِحَطِّ عَتِيقٍ يَرْمُزُ فِيهِ بِحُرُوفٍ مِنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ
 الدَّوْلَةِ وَيَشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يُعْرَفُ مِيْلَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الرَّفْعَةِ وَالْجَاهِ كَانَهَا مَلَا حِمٌّ وَيَحْصُلُ
 عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ وَضَعَ فِي بَعْضِ دَفَاتِرِهِ مِيمًا مُكْرَرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
 وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحٍ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ فَقَالَ لَهُ هَذَا كِتَابَةٌ عَنْكَ وَهُوَ مُفْلِحٌ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ
 وَذَكَرَ عَنْهُ مَا يَرْضَاهُ وَيُنَالُهُ مِنَ الدَّوْلَةِ وَنَصَبَ لِنَيْكَ عِلَامَاتٍ يُمَوِّدُ بِهَا عَلَيْهِ فَبَدَّلَ لَهُ
 مَا أَغْنَاهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلْوَزِيرِ ابْنِ الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ عَلَى مُفْلِحٍ هَذَا وَكَانَ مَعْرُوفًا لِجَاءَهُ
 بِالْأَوْزَاقِ مِثْلَهَا وَذَكَرَ اسْمَ الْوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَبِعِلَامَاتِ ذَكَرَهَا وَإِنَّهُ يَلِي
 الْوِزَارَةَ لِلثَّانِي عَشْرَ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَتَسْتَقِيمُ الْأُمُورُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَقْبُرُ الْأَعْدَاءَ وَتَعْمُرُ الدُّنْيَا
 فِي أَيَّامِهِ وَأَوْقَفَتْ مُفْلِحًا هَذَا عَلَى الْأَوْزَاقِ وَذَكَرَ فِيهَا كَوَائِنَ أُخْرَى وَمَلَا حِمٌّ مِنْ هَذَا
 النَّوْعِ مِمَّا وَقَعَ وَمِمَّا لَمْ يَقَعْ وَنَسَبَ حَمِيْعَهُ إِلَى دَانَالٍ فَأَعْجَبَ بِهِ مُفْلِحٌ وَوَقَفَ عَلَيْهِ
 الْمُقْتَدِرُ وَأَهْنَدَى مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ وَالْعِلَامَاتِ إِلَى ابْنِ وَهْبٍ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِوِزَارَتِهِ
 بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْكُذِبِ وَالْجَهْلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلْغَازِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ
 الْمَلْحَمَةَ الَّتِي يَنْسِبُونَهَا إِلَى الْبَاجِرِ بَنِي مِنْ هَذَا النَّوْعِ وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَكْمَلَ الدِّينِ ابْنَ

شَيْخِ الْحَنْفِيَّةِ مِنَ الْأَجْمَمِ بِالذَّبَارِ الْمَصْرِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَعَنْ هَذَا الرَّجُلِ
الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَهُوَ الْبَاجِرِيُّ وَقَانَ عَارِفًا بِطَرَائِقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنْ
الْقَلَنْدَرِيَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ فِي حَاقِ اللَّحِيَّةِ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الْكُشْفِ وَيُؤَيِّ
إِلَى رِجَالٍ مُعَيَّنِينَ عِنْدَهُ وَيَأْخُذُ عَلَيْهِمْ بِمُحْرُوفٍ يُعَيِّنُهَا فِي ضَمَنِهَا لَعَنَ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرَبَّمَا
يُظْهِرُ نَظْمُ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهَدُهَا فَتَنَوَّقَتْ عَنْهُ وَوَلِعَ النَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا
مَلْحَمَةً مَرْمُوزَةً وَزَادَ فِيهَا الْخُرَاصُونَ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَشَغَلَ الْعَامَّةُ بِفِكَ
رُمُوزِهَا وَهُوَ أَمْرٌ مُسْتَنْعَجٌ إِذِ الرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونَ يُعْرِفُ قَبْلَهُ وَيُوضَعُ
لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِدَلَالَتُهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا بِمَخْصُوصَةٍ بِهَذَا النِّظْمِ لَا يَتَجَاوِزُهُ
فَرَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ شَفَاءً لِمَا كَانَ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ
وَمَا كُنَّا نَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الرابع

من الكتاب الاول

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال
وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول

في ان الدول من المدن والامصار وانما توجد ثانية عن الملك
وَيَبَيِّنُهُ أَنَّ الْبِنَاءَ وَأَخْطَاطَ الْمَنَازِلِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ الْحِضَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
التَّرَفُّ وَاللَّعَّةُ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ وَذَلِكَ مَتَّخِرٌ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَوَذَارِعُهَا وَأَيْضًا فَالْمُدُنُ وَالْأَمْصَارُ
ذَاتُ هِيََاكِلٍ وَأَجْرَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ لِالْخُصُوصِ فَتَحْتَاجُ
إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ وَكَلِمَتِ مِنَ الْأُمُورِ الْفَرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي تَعْمُرُ بِهَا
الْبَلَدُ حَتَّى يَكُونَ نَزْوَعُهُمْ إِلَيْهَا أَضْطِرَّارًا بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَسَوْفَهُمْ
إِلَيْهِ مُضْطَهَدِينَ بَعْضُ الْمَلِكِ أَوْ مُرْغَبِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَبْقَى بِكَثْرَتِهِ إِلَّا

الْمَلِكُ وَالِدَوْلَةَ فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَأَخْطِطَاطِ الْمَدِينِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمَلِكِ ثُمَّ إِذَا
 بَنِيَتِ الْمَدِينَةَ وَكَمُلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدَهَا وَبِمَا أَقْتَضَتْهُ الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ
 وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعُمِّرَ الدَّوْلَةَ حَيْثُ دُ عُمُرُ لَهَا فَإِنْ كَانَ عُمُرُ الدَّوْلَةِ قَصِيرًا وَقَفَتِ الْحَالُ فِيهَا
 عِنْدَ أَنْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمُرَانِهَا وَخَرَبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ الدَّوْلَةِ طَوِيلًا وَمَدَّتْهَا مُنْفَسِحَةً
 فَلَا تَزَالُ الْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُ وَالْمَنَازِلُ الرَّحِيْبَةُ تَكْتُمُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ الْأَسْوَاقِ
 يَتَبَاعَدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَنْسَعِ الْخُطَّةُ وَتَبْعُدَ الْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرَعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ
 بَبْغَدَادَ وَأَمْثَالِهَا. ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحَمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا بِبَغْدَادَ الْعَهْدِ
 الْمَأْمُونِ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ. وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى بُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ
 تُجَاوِزُ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةً وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ الْعُمُرَانِ وَكَذَا حَالُ
 الْقَيْرَوَانِ وَقُرْطُبَةَ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي أَلْمَلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَغْنَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْمُشِيدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَمَا أَنْ يَكُونَ لِصَوَاحِي تِلْكَ
 الْمَدِينَةِ وَمَا قَارِبَهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَسَائِطِ بَادِيَةً يُمِدُّهَا الْعُمُرَانُ دَائِمًا فَيَكُونُ ذَلِكَ
 حَافِظًا لِوُجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمُرُهَا بَعْدَ الدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِنَاسٍ وَبِجَابَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبِعِرَاقِ
 النَّجْمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودِ لَهَا الْعُمُرَانُ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبِدَاوَةِ إِذَا أَنْتَهَتْ
 أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الرَّفِّهِ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ
 الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمَدِينُ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمَوْسَسَةِ
 مَادَةٌ تُفِيدُهَا الْعُمُرَانُ بِتَرَادُفِ السَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ انْقِرَاضُ الدَّوْلَةِ خَرْفًا
 لِسِيَاجِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقِصُ عُمُرَانِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَبْدَعَ سَاكِنُهَا وَيَخْرُبَ
 كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَبْغَدَادَ وَالْكُوفَةَ بِالْمَشْرِقِ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْمَهْدِيَّةِ وَقَلْعَةَ بِنِي حَمَادَ
 بِالْمَغْرِبِ وَأَمْثَالِهَا فَتَفْهَمُهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ انْقِرَاضِ مُحْتَطِطِهَا الْأَوَّلِينَ مَلِكٌ
 آخَرَ وَدَوْلَةٌ تَانِيَةٌ يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًا يَسْتَعْنِي بِهَا عَنِ أَخْطِطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ
 تِلْكَ الدَّوْلَةَ سِيَاجِهَا وَتَنْزَائِدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعِهَا بِتَزَايُدِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَتَرْفِئُ
 وَتَسْتَجِدُّ بِعُمُرَانِهَا عُمُرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِنَاسٍ وَالْقَاهِرَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني

في ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبَائِلَ وَالْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمَلِكُ اضْطُرُّوا لِلْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَمْصَارِ
لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْمَلِكُ مِنَ الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَحَطَّ الْأَثْقَالَ وَأَسْتِكْمَالَ
مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أُمُورِ الْعُمَرَانِ فِي الْبَدْوِ وَالثَّانِي دَفْعُ مَا يَتَوَقَّعُ عَلَى الْمَلِكِ مِنْ أَمْرِ
الْمُنَازَعِينَ وَالْمَشَاغِبِينَ لِأَنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رَبَّمَا يَكُونُ مَلْجَأً
لِمَنْ يَرُومُ مُنَازَعَتَهُمْ وَالخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَأَتَرَاعَ ذَلِكَ الْمَلِكُ الَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ
فَيَعْتَصِمُ بِذَلِكَ الْمِصْرِ وَيُغَالِبُهُمْ وَمُغَالِبَةُ الْمِصْرِ عَلَى نَهَابِهِ مِنَ الصُّعُوبَةِ وَالْمَشَقَّةِ
وَالْمِصْرُ بِقَوْمٍ مَقَامَ الْعَسَاكِرِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْتِنَاعِ وَنِكَايَةِ الْحَرْبِ مِنْ
وَرَاءِ الْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرٍ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمٍ شَوْكَةٍ لِأَنَّ الشُّوْكَةَ وَالْعَصَابَةَ
إِنَّمَا أَحْتِيجُ إِلَيْهَا فِي الْحَرْبِ لِثَبَاتِهَا لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ الْقَوْمِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ
الْجَوْلَةِ وَثَبَاتِ هَؤُلَاءِ بِالْجُدْرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَبِيرِ عَصَابَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ
هَذَا الْحُضْنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الْمُنَازَعِينَ مَا يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَرُومُ الْأَسْتِيْلَاءَ
وَيُخَضُّ شَوْكَةَ أَسْتِيْلَائِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارٌ أَنْتَضَمُوهَا فِي أَسْتِيْلَائِهِمْ لِأَنَّ
مِنْ مِثْلِ هَذَا الْأِنْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِصْرٌ اسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِلتَّكْمِيلِ عُمُرَانِهِمْ
أَوَّلًا وَحَطَّ اثْقَالَهُمْ وَلِيَكُونَ سَجًّا فِي حَاقِي مَنْ يَرُومُ الْعِزَّةَ وَالْإِمْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ
وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمَلِكَ يَدْعُو إِلَى نَزُولِ الْأَمْصَارِ وَالْأَسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبِ سِوَاهُ

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي آثَارِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نَسْبِهَا وَذَلِكَ أَنَّ
تَشْيِيدَ الْمَدِينِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً
مُتَّسِعَةً الْمَالِكِ حُشِرَ الْفَعْلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا وَرُبَّمَا اسْتَعِينَ فِي
ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ بِالْهِنْدَامِ الَّذِي يُضَاعَفُ الْقَوِيُّ وَالْقَدْرُ فِي حَمْلِ اثْقَالِ الْبِنَاءِ

لِعَجْزِ الْقُوَّةِ اللَّشْرِيَّةِ وَضَعْفِهَا عَنْ ذَلِكَ كَالْحِخَالِ وَعَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ
إِذَا نَظَرَ إِلَى آثَارِ الْأَقْدَمِينَ وَمَصَانِعِهِمُ الْعَظِيمَةِ مِثْلَ إِيوَانَ كِسْرَى وَأَهْرَامِ مِصْرَ
وَحَنَابِيَا الْمُعَلَّقَةِ وَشَرِّشَالِ بِالْمَغْرِبِ إِنَّمَا كَانَتْ بِقُدْرِهِمْ مَتَفَرِّقِينَ أَوْ مُجْتَمِعِينَ فَيَتَخِيلُ
لَهُمْ أَجْسَامًا تَنَاسُبُ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ بِكَثِيرٍ فِي طَوْلِهَا وَقُدْرَتِهَا لِتَنَاسُبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
الْقُدْرِ الَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ الْمَبَانِي عَنْهَا وَيُغْفَلُ عَنْ شَأْنِ الْهِنْدَامِ وَالْحِخَالِ وَمَا أَقْتَضَتْهُ فِي
ذَلِكَ الصَّنَاعَةُ الْهِنْدَسِيَّةُ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ فِي الْبِلَادِ يُعَايِنُ فِي شَأْنِ الْبِنَاءِ وَأَسْتَعْمَالَ
الْحِجَالِ فِي نَقْلِ الْأَجْزَامِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُعْتَنِينَ بِذَلِكَ مِنَ الْعُجْمِ مَا يَشْهَدُ لَهُ بِمَا قُلْنَا
عَيَانًا وَكَثُرًا نَارِ الْأَقْدَمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَسْمِيَّتِهَا الْعَامَّةُ عَادِيَّةً نَسَبَةً إِلَى قَوْمِ عَادٍ لِتَوَهُّمِهِمْ
أَنَّ مَبَانِي عَادٍ وَمَصَانِعِهِمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ لِعَظْمِ أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرَتُهُمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
فَقَدْ نَجِدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ تُعْرَفُ مُقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَهِيَ فِي
مِثْلِ ذَلِكَ الْعَظْمِ أَوْ أَعْظَمَ كِإِيوَانَ كِسْرَى وَمَبَانِي الْعَبِيدِيِّينَ مِنَ الشَّيْخَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ
وَالصَّهْبَاجِيِّينَ وَأَثَرُهُمْ بَادٍ إِلَى الْيَوْمِ فِي صَوْمَعَةٍ قَلَعَةٍ بِنِي حَمَادٍ وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْأَعَالِمَةِ فِي
جَامِعِ الْقَيْرَوَانَ وَبِنَاءُ الْمُوحِدِيِّينَ فِي رِبَاطِ الْفَتْحِ وَرِبَاطِ السُّلْطَانَ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ
أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِأَرَاةِ تَلْمَسَانَ وَكَذَلِكَ الْحَنَابِيَا الَّتِي جَابَ إِلَيْهَا أَهْلُ قُرْطَابَةِ
الْمَاءِ فِي الْفِتْنَةِ الرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا مَا تَلَّهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَعَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَبَانِي وَالْهَيْكَلِ الَّتِي نَقَلَتْ
الْبِنَاءُ أَخْبَارَ أَهْلِهَا قَرِيبًا وَبَعِيدًا وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مُقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا
هَذَا رَأْيٌ وَلَعِبٌ بِهِ الْقَصَاصُ عَنْ قَوْمِ عَادٍ وَتَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَنَجِدُ بِيوتَ تَمُودَ فِي الْحَجَرِ مَخْتُونَةً
إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ نَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا بِيوتُهُمْ يَمُرُّ بِهَا الرُّكْبُ الْحِجَازِيُّ
أَكْثَرَ السَّنِينَ وَيُشَاهِدُونَهَا لِاتِّزِيدِ فِي جَوْهَا وَمَسَاحَتِهَا وَسَمَكِهَا عَلَى الْمُتَعَاهِدِ وَإِنَّهُمْ
لَيُبَالِغُونَ فِيهَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعُمُونَ أَنَّ عَوْجَ بَنِ عِنَاقٍ مِنْ حَيْلِ الْعَمَالِقَةِ
كَانَ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيئًا فَيَسْوِيهِ فِي السَّمْسِ يَزْعُمُونَ بِذَلِكَ أَنَّ السَّمْسَ حَارَّةٌ
فِي مَا قُرْبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ فِيهَا لِدِينَا هُوَ الضَّوْءُ لِأَنَّ عِكَاسَ الشُّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ
الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَأَمَّا السَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ
لَا مِرَاجَ لَهُ وَقَدْ نَقَدَّمْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ الدَّوْلَةِ عَلَى
نَسَبَةِ قَوْمِهَا فِي أَصْلِهَا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُحْكِمُ مَا يُرِيدُ

الفصل الرابع

في ان الهياكل العظيمة جدا لا تستقل بينها الدولة الواحدة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْبِنَاءِ إِلَى التَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ الْقُدْرِ الْبَشَرِيَّةِ
 وَقَدْ تَكُونُ الْمَبَانِي فِي عَظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْقُدْرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِالْهِنْدَامِ كَمَا قَانَاهُ
 فَيُحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدْرٍ أُخْرَى مِثْلَهَا فِي أَرْزَمَتِهِ مُعَايَبَةً إِلَى أَنْ تَتِمَّ فَيَتَدَيُّ الْأَوَّلُ
 مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ
 الْقَمَلَةِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْمُلُ وَيَكُونُ مَائِلًا لِلْعِيَانِ بَظَنَّهُ
 مِنْ بَرَاهٍ مِنَ الْأَخْرَبِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَنْظُرْ فِي ذَلِكَ مَا تَقَلَّهُ الْمَوْرَثُونَ فِي بِنَاءِ
 سِدِّ مَارِبَ وَأَنَّ الَّذِي بَنَاهُ سَبَابُ بْنُ يَسْحَبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَاذِيًا وَعَاقَفَهُ الْمَوْتُ عَنْ
 اِتِّمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حَمِيرٍ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هَذَا مَا نُقِلَ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَنَةَ وَقَنَاتِهَا الرَّابِثَةَ
 عَلَى الْحَنَائِبِ الْعَادِيَّةِ وَأَكْثَرَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ فِي الْعَالَمِ هَذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ
 الْمَبَانِي الْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ الْمَلِكَ الْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي اخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعْ
 أَثَرَهُ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْمُلُوكِ فِي اِتِّمَامِهَا بَقِيَتْ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ الْقَصْدُ فِيهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ
 أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ تَعْجِزُ الدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتُخْرِجُهَا مَعَ
 أَنَّ الْهَدْمَ أَبْسَرُ مِنَ الْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ الْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ وَالْبِنَاءُ
 عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضَعُفُ قُوَّتُنَا الْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سَهُولَةِ الْهَدْمِ
 عَلِمْنَا أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي اسْتَسْتَهْمُ مَفْرَطَةٌ الْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَبَسَتْ أَثَرُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا مِثْلُ مَا
 وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي إِيوَانَ كِسْرَى لَمَّا اعْتَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ
 وَهُوَ فِي مَحْبَسَةٍ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَاتْرُكْهُ مَائِلًا يَسْتَدَلُّ
 بِهِ عَلَى عَظِيمِ مُلْكِ آبَائِكَ الَّذِينَ سَلَبُوا الْمُلْكَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الْهَيْكَلِ فَأَتَمَّتْهُ فِي النَّصِيحَةِ
 وَقَالَ أَخَذْتَهُ الثُّعْرَةَ لِلْعَجْمِ وَاللَّهُ لَأَصْرَعَنَّهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي عَلَيْهِ وَأَخَذَ
 لَهُ الْفُؤُسَ وَحَمَاهُ بِالنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ الْحُلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ بَعْدَ ذَلِكَ كَلَّهُ وَخَافَ
 الْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي التَّحْفِافِ عَنِ الْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ وَأَسْتَمِرَّ
 عَلَى ذَلِكَ لِيَلَّا يُقَالَ عَجْزَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَلَكَ الْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ مَصْنَعِ الْعَجْمِ
 فَعَرَفَهَا الرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ الْأَهْرَامِ الَّتِي بِمِصْرَ

وَجَمَعَ الْفَعْلَةَ لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي نَقْبِهِ فَأَنْتَبَهُوا إِلَى جَوْ بَيْنَ الْحَائِطِ وَالظَّاهِرِ
 وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْخَيْطَانِ وَهُنَاكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْفَذُ ظَاهِرُهُ
 وَيَزْعُمُ الزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ الْخَيْطَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَكَذَلِكَ حَنَابَا الْمَعْلَقَةِ
 إِلَى هَذَا الْعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلَ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلَى انْتِخَابِ الْحِجَارَةِ لِإِنْبَاءِهِمْ وَتَسْتَجِيدُ الصَّنَاعُ
 حِجَارَةَ تِلْكَ الْحَنَابَا فَيَحَاوِلُونَ عَلَى هَدْمِهَا الْأَيَّامَ الْعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ الصَّغِيرُ مِنْ جُدْرَانِهَا
 إِلَّا بَعْدَ عَصَبِ الرِّبْقِ وَتَجْتَمِعُ لَهُ الْحِجَارَاتُ الشَّهْرَةَ شَهِدَتْ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صَبَايَ
 كَثِيرًا وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن المراعاة
 اعلم ان المدن قرار بشخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه
 فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك القرار
 والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع
 وتسهيل المرافق لها فاما الحماية من المضار فيرعى لها أن يدار على منازلها جميعاً
 سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متباعد من الأمكنة إما على هضبة متوعرة
 من الجبل وإما باستدارة ببحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر
 أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يرعى في ذلك
 للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض فإن الهواء إذا كان
 راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها
 العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن
 التي لم يرعى فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر
 المغرب بلد فاس من بلاد الجربيد بأفريقية فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من
 حمى العفن بوجهه ولقد يقال إن ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل ونقل
 البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفرة ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص
 فلما فُضَّ ختمه صعد منه دخان إلى الجوّ وانقطع وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات
 فيه وأراد بذلك أن الإناء كان مشتتلاً على بعض أعمال الطسّمات لوبائه وأنه

ذَهَبَ سِرُّهُ بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفْنُ وَالْوَبَاءُ وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعُلَمَاءِ وَمَبَاحِثِهِمْ
 الرَّكِيكَةِ وَالْبَكْرِيِّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَأَسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِحَيْثُ يَدْفَعُ مِثْلَ هَذَا
 أَوْ يَتَبَيَّنُ خَرَفَهُ فَنَقَلَهُ كَمَا سَمِعَهُ وَالَّذِي يَكْشِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوِيَةَ
 الْعَفْنَةَ أَكْثَرُ مَا يَهَيِّئُهَا لِتَغْفِينِ الْأَجْسَامِ وَأَمْرَاضِ الْحُمَمِيَّاتِ رُكُودُهَا فَإِذَا تَخَلَّتْهَا الرِّيحُ
 وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا خَفَّ شَأْنُ الْعَفْنِ وَالْمَرَضِ الْبَلَدِيِّ مِنْهَا لِلْحَيَوَانَاتِ وَالْبَلَدِ
 إِذَا كَانَ كَثِيرَ السَّاكِنِينَ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمَوَّجُ الْأَهْوَاءُ ضَرُورَةً وَتَحْدُثُ
 الرِّيحُ الْمُتَخَلِّلَةَ لِلْهَوَاءِ الرَّائِدِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِينًا لَهُ عَلَى الْحَرَكََةِ وَالتَّمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ
 السَّاكِنُ لَمْ يَجِدِ الْأَهْوَاءَ مُعِينًا عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوَّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِنًا رَاكِدًا وَعَظُمَ عَفْنُهُ
 وَكَثُرَ ضَرَرُهُ وَبَلَدٌ قَابَسَ هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ مَا كَانَتْ أَفْرِيقِيَّةً مُسْتَجِدَّةً الْعُمُرَانَ كَثِيرَةً
 السَّاكِنِينَ تَمَوَّجُ بِأَهْلِهَا مَوْجًا فَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى تَمَوُّجِ الْأَهْوَاءِ وَأَضْطَرَّابِهِ وَتَخْفِيفِ
 الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرُ عَفْنٍ وَلَا مَرَضٍ وَعِنْدَ مَا خَفَّ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا
 الْمُتَمَعِّنِينَ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ الْعَفْنُ وَالْمَرَضُ فَهَذَا وَجْهُهُ لَا غَيْرُ وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ
 ذَلِكَ فِي بِلَادٍ وَضَعَتْ وَلَمْ يَرَاعَ فِيهَا طِيبُ الْأَهْوَاءِ وَكَانَتْ أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّاكِنِينَ فَكَانَتْ
 أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَّانُهَا أَثْقَلَ حَالُهَا عَنِ ذَلِكَ وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمَلِكِ بِفَاسَ
 لِهَذَا الْعَهْدِ الْمَسْمُومِ بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعَالَمِ فَتَهْتَمُّ بِتَجِدُّ مَا فَتُنْتَهَى لَكَ
 وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ مِنْهَا الْمَاءُ بِأَنَّ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى
 نَهْرٍ أَوْ بِإِزَائِهَا عِيونٌ عَذْبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنَّ وُجُودَ الْمَاءِ قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ يُسَهِّلُ عَلَى السَّاكِنِينَ
 حَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَةً وَمِمَّا يُرَاعَى
 مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمَدِينِ طِيبُ الْمَرَاعِيِّ لِسَائِمَتِهِمْ إِذْ صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
 دَوْجِنِ الْحَيَوَانَاتِ لِلنَّبَاتِ وَالضَّرْعِ وَالرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمَرَاعِيِّ فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا
 طِيبًا كَانَ ذَلِكَ أَرْزَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يَعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي بَعْدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضًا
 الْمَرَاعِيُّ فَإِنَّ الزَّرْعَ هِيَ الْأَنْفُوتُ فَإِذَا كَانَتْ مَرَاعُ الْبَلَدِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ
 اسَهْلَ فِي اتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ لِلْحَطَبِ وَالنَّبَاتُ فَإِنَّ الْحَطَبَ مِمَّا
 تَعْمَلُ الْبَلَدِيُّ فِي اتِّخَاذِهِ لِوُقُودِ النَّبَاتِ لِلِاصْطِلَاءِ وَالطَّبَخِ وَالْحَشْبِ أَيْضًا ضَرُورِي
 لِسَقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْحَشْبُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضًا قُرْبُهَا مِنَ

أَلْبَحْرَ لَتَسْبِيْلِ الْحَاجَاتِ الْقَاصِيَةِ مِنَ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ الْأَوَّلِ
 وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ الْحَاجَاتِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ السَّاكِنِ وَقَدْ يَكُونُ الْوَأَضِعُ
 غَافِلًا عَنِ حُسْنِ الْأَخْتِيَارِ الطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهْمٌ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَلَا
 يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينِ الَّتِي أَخْطَطُوهَا
 بِالْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلَّا الْأَهْمَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي الْأَيْلِ وَمَا يَصُحُّ
 لَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ الْمَالِحِ وَلَمْ يُرَاعُوا الْمَاءَ وَلَا الْمَزَارِعَ وَلَا الْحَطَبَ وَلَا مَرَاعِي
 السَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ الظُّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ كَالْقَيْرَوَانَ وَالْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَأَمْثَالِهَا
 وَلِهَذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْخُرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا الْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ

وَمَا يُرَاعَى فِي الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي عَلَى الْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ بَيْنَ
 مَاءٍ مِنَ الْأَمَمِ مَوْفُورَةٍ الْعَدَدِ تَكُونُ صَرِيحًا لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَفَهَا طَارِقٌ مِنَ الْعَدُوِّ
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا عُمَرَانٌ
 لِلْقَبَائِلِ أَهْلُ الْعَصِيَّاتِ وَالْمَوْضِعُهَا مُتَوَعَّرٌ مِنَ الْجَبَلِ كَانَتْ فِي غِرَّةِ اللَّيَّاتِ وَسَبِيلِ طُرُوقِهَا
 فِي الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحْفِيفُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وُجُودِ الصَّرِيحِ لَهَا وَإِنْ
 أَخْضَرَ الْمُتَوَعَّرِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ الْمُقَاتَلَةِ وَهَذِهِ
 كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَطَرَابُوسَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَا وَمَتَى كَانَتْ الْقَبَائِلُ
 وَالْعَصَائِبُ مُوَطَّنِينَ بِقُرْبِهَا يَحِثُّ بِلِغْهِمُ الصَّرِيحِ وَالنَّعِيرِ وَكَانَتْ مُتَوَعَّرَةً الْمَسَالِكِ عَلَى
 مَنْ يَرُومُهَا بِأَخْطَاطِهَا فِي هَضَابِ الْجِبَالِ وَتَلَى أَسْنَمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذَلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ
 وَيَسُوءًا مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يَكَابِدُونَهُ مِنْ وَعَرَهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيحِهَا كَمَا فِي
 سَبْتَةِ وَبِجَابَةِ وَبَلَدِ الْقَلِّ عَلَى صَغَرِهَا فَأَفْهِمُ ذَلِكَ وَاعْتَبِرْهُ فِي اخْتِصَاصِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ
 بِأَسْمِ الثَّغْرِ مِنْ لَدُنِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ الدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بَازِقَةٌ وَأَفْرِيقِيَّةٌ وَإِنَّمَا اعْتَبِرَ
 فِي ذَلِكَ الْخِيفَةَ الْمُتَوَقَّعَةَ فِيهَا مِنَ الْبَحْرِ لِسَهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ الْعَدُوِّ
 لِلْإِسْكَندَرِيَّةِ وَطَرَابُوسَ فِي الْمِلَّةِ مَرَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضْلَ مِنَ الْأَرْضِ بِقَاعًا أَخْضَمَهَا بِشَرِيفِهِ وَجَعَلَهَا مَوَاطِنَ

لِعِبَادَتِهِ بِضَاعَتْ فِيهَا التَّوَابُ وَبَنُمُو بِهَا الْأَجْرُ وَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ عَلَى السِّنِّ رُسُلُهُ وَأَنْبِيَائِهِ
 لَطْفًا بِعِبَادِهِ وَتَسْبِيلًا لَطْرُقِ السَّعَادَةِ لَهُمْ. وَكَانَتْ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلُ بَقَاعِ
 الْأَرْضِ حَسْبَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَمَا الْبَيْتُ
 الْحَرَامُ الَّذِي بِمَكَّةَ فَهُوَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ اللَّهُ بِنِيبَانِهِ وَأَنْ
 يُؤْذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّهُ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ
 فِيهِ وَسَكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجَرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرْهُمٍ إِلَى أَنْ قَبَضَهُمَا اللَّهُ وَدَفِنَا
 بِالْحِجْرِ مِنْهُ. وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسَايِمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَمْرَهُمَا اللَّهُ بِبِنَائِهِ
 مَسْجِدِهِ وَنَصَبَ هَيْكَلَهُ وَدَفِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وُلْدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَيْهِ.
 وَالْمَدِينَةُ مَهَاجِرُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحِجْرَةِ إِلَيْهَا
 وَإِقَامَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْبَتِهَا
 فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قِرَّةٌ عَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَفْئِدَتِهِمْ وَعَظْمَةٌ دِينِهِمْ وَفِي الْأَثَارِ
 مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ التَّوَابِ فِي مَجَاوِرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ فَلَنْشُرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ
 الْخَبَرِ عَنْ أَوْلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدَرَّجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ كَمُلَ ظُهُورُهَا
 فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوْلِيَّتُهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بَنَاهَا فُبَالَةَ الْبَيْتِ
 الْمَعْمُورِ ثُمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ يَعُولُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَقْتَبَسُوهُ
 مِنْ مَحْمَلِ آيَةِ فِي قَوْلِهِ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ
 إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَانَ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا مِنْ هَاجَرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَوْحَى
 اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَبْرُكْ أَبْنَتُهُ إِسْمَاعِيلُ وَأُمَّهُ هَاجَرَ بِالْفَلَاقِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ
 عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ اللَّطْفِ فِي تَبَعِ مَاءِ زَمْزَمَ وَمُرُورِ الرُّفْقَةِ مِنْ جُرْهُمٍ
 بِهَا حَتَّى أَحْتَمَلُوهَا وَسَكَنُوا إِلَيْهَا وَنَزَلُوا مَعَهَا حَوْلَى زَمْزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ
 فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَاوِي إِلَيْهِ وَادَارَ عَلَيْهِ سِيَاجًا مِنَ الرَّدَمِ وَجَعَلَهُ
 زَرْبًا لِنَعْمِهِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مَرَارًا لِيُزَيَّرْتَهُ مِنَ الشَّامِ أَمْرٌ فِي آخِرِهَا
 بِنَاءِ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزَّرْبِ فَبَنَاهُ وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
 حَجِّهِ وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ وَلَمَّا قَبِضَتْ أُمَّهُ هَاجَرَ وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ
 مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُرْهُمٍ ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ

إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفُقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ لِأَنَّ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ دَنَاءِ
 أَوْ نَأَى فَقَدْ نَقِلَ أَنَّ التَّبَاعَةَ كَانَتْ تَحْجُ الْبَيْتَ وَتُعَظِّمُهُ وَأَنَّ تَبَعًا كَسَاهَا الْمَلَاءُ
 وَالْوَصَائِلَ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا وَنَقِلَ أَيْضًا أَنَّ الْفَرَسَ كَانَتْ تَحْجُهُ وَتُقَرَّبُ
 إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ أَحْفَرَزَمَ كَانَا مِنْ
 قَرَابَتِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ جُرُومُ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ خَوْفِهِمْ حَتَّى إِذَا
 خَرَجَتْ خَزَاعَةٌ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ كَثُرَ وُلْدُ إِسْمَاعِيلَ وَأَنْتَشَرُوا وَأَشْعَبُوا إِلَى
 كِنَانَةَ ثُمَّ كِنَانَةَ إِلَى فَرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وِلَايَةُ خَزَاعَةَ فَغَلَبَتْهُمْ فُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ
 وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبَيْتِ وَمَلَكَوْا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قَصِيَّ بْنَ كِلَابٍ فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ
 الدُّومِ وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعَشَى

خَلَقْتُ بِبَنِي رَاهِبِ الدُّورِ وَالَّتِي بَنَاهَا قَصِيٌّ وَالْمِضَاضُ بْنُ جُرُومِ

ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهْدَمُ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النَّفَقَةَ لِذَلِكَ مِنْ
 أَمْوَالِهِمْ وَأَنْكَسَرَتْ سَفِينَةُ بِسَاحِلِ جَدَّةٍ فَأَشْتَرُوا خَشَبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ
 الْقَامَةِ لَجَعَلُوهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ لَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لِمَلَأَ
 تَدْخُلَهُ السُّيُولُ وَقَصَرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصَرُوا عَنْ قَوَاعِيدِهِ وَتَرَكَوْا مِنْهُ سِتَّةَ
 أَذْرُعٍ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارِ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ النَّجْرُ وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا
 الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحْصَنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَرَحِمَتْ إِلَيْهِ جِيُوشُ يَزِيدَ
 بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرِ السَّكُونِيِّ وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ فَأَصَابَهُ
 حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ
 أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ وَأَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ
 وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا فَهَدَمَهُ وَكَشَفَتْ عَنْ أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَعَ
 الْوُجُوهَ وَالْأَكْبَارَ حَتَّى عَابُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالتَّحْرِي فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ
 فَأَادَرَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَسْتَارَ حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنَعَاءَ
 فِي الْفِضَّةِ وَالْكِلْسِ لِيَحْمِلَهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ الْأُولَى لِيَجْمَعَ مِنْهَا مَا أَحْتَاجُ
 إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ

ذِرَاعًا وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لِاصْقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فُرْشَهَا وَإِزْرَهَا
 بِالرَّخَامِ وَصَاحَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَنَعَ الْأَبْوَابَ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ جَاءَ الْحَجَّاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامًا
 عَبْدَ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَجْنُونَاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَانُهَا ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ
 بَابِنِ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهَدْمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتَ
 عَلَى قَوَاعِدِ فُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ وَيُقَالُ إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رَوَايَةِ ابْنِ
 الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَقَالَ وَدِدْتُ أَنْي كُنْتُ حَمَلْتُ أَبَا حَبِيبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبِنَائِهِ
 مَا تَحْمَلُ فَهَدَمَ الْحَجَّاجُ مِنْهَا سِتَّ أَذْرَعٍ وَشَبْرًا مَكَانَ الْحَجَرِ وَبَنَاهَا عَلَى أُسَاسِ فُرَيْشٍ
 وَسَدَّ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ وَمَا تَحْتَ عَتَبَةِ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يَغْيِرْ
 مِنْهُ شَيْئًا فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبِنَاءُ الْحَجَّاجِ فِي الْخَائِطِ صَلَّةُ
 ظَاهِرَةُ الْعِيَانِ لِحُجَّةِ ظَاهِرَةُ بِنِ الْبِنَاءِ بِنِ الْبِنَاءِ مُمْتَبِزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِمَقْدَارِ إِصْبَعٍ شِبْهُ
 الصَّدْعِ وَقَدْ حُجِمَ وَبِعَرَضٍ هُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ النُّقْبَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوُافِ
 وَيَحْذَرُ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرِ وَأَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَى أُسَاسِ الْجُدْرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ
 طَوَافُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُدْرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأُسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ وَهُوَ
 مَكَانُ الشَّاذِرِ وَأَنَّ قَالُوا فِي تَقْبِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بَدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنْ
 التَّقْبِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ فَأَمَّا أَيْمَانًا لِبَعْضِ طَوَافِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتْ الْجُدْرَانُ
 كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بَنَى عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوهُ
 وَلَا مَخْلَصَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِأَحَدٍ أَوْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا أَنْ يَكُونَ الْحَجَّاجُ هَدَمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ
 وَقَدْ نَقَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالْحَتَامِ مَا بَيْنَ الْبِنَاءِ بِنِ وَتَمْيِزِ أَحَدِ
 الشَّقِيَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخِرِ فِي الصَّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ
 الْبَيْتَ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِبَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحَجَرِ فَقَطَّ لِيَدْخُلَهُ فِيهِ
 الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا بَعِيدٌ وَلَا يَحْتَجُّ مِنْ
 هَذَيْنِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فِضَاءً لِلطَّائِفِينَ
 وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدْرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ كَثُرَ
 النَّاسُ فَأَشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَارًا
 دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بِعُمْدِ

الرَّحَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ الْمَنْصُورُ وَابْنُهُ الْمَهْدِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ الزِّيَادَةُ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ لِعَهْدِنَا . وَشَرِيفُ اللَّهِ إِيَّاهُ الْبَيْتِ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهْبِطًا لِلْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَفَرَضَ شَرَائِعَ الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهَا وَأَوْجَبَ لِحَرَمِهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ التَّعْظِيمِ وَالْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لغيرِهِ فَمَنَعَ كُلَّ مَنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَجْرِدَ مِنَ الصَّخِيطِ إِلَّا إِزَارًا يَسْتُرُهُ وَحَمَى الْعَائِدَ بِهِ وَالرَّائِعَ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ الْأَفَاتِ فَلَا يُرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يُصَادُ لَهُ وَحَشٌّ وَلَا يُحْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ . وَحَدُّ الْحَرَمِ الَّذِي يُخْتَصُّ بِهِذِهِ الْحُرْمَةُ مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةٌ أَمْيَالٍ إِلَى التَّنْعِيمِ وَمِنْ طَرِيقِ الْعِرَاقِ سَبْعَةٌ أَمْيَالٍ إِلَى الثَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ الْمُنْقَطِعِ وَمِنْ طَرِيقِ الطَّائِفِ سَبْعَةٌ أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمْرَةَ وَمِنْ طَرِيقِ جَدَّةِ سَبْعَةٌ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطِعِ الْعَشَائِرِ . هَذَا شَأْنُ مَكَّةَ وَخَبَرُهَا وَتُسَمَّى أُمَّ الْقُرَى وَتُسَمَّى الْكُعبَةَ لِعُلُوقِهَا مِنْ أَسْمِ الْكُعبِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا بَكَّةَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ لِأَنَّ النَّاسَ يَبْكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءَ بَكَّةَ أَبَدَلُوهَا مِيمًا كَمَا قَالُوا لَازِبٌ وَلَازِمٌ لِقُرْبِ الْحَجْرَيْنِ وَقَالَ الصَّخِيُّ بِأَبَاءَ وَبِالْمِيمِ الْبَلَدُ وَقَالَ الرَّهْزِيُّ بِأَبَاءَ لِلْمَسْحِدِ كُلِّهِ وَبِالْمِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ مِنْذُ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ تُعْظِمُهُ وَالْمُلُوكُ تَبْعَتُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهِ وَقِصَّةُ الْأَسْيَافِ وَغَزَا إِلَى الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ أَحْتَفَرَ زَمْزَمَ مَعْرُوفَةً وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَفْتَتَحَ مَكَّةَ فِي أَحْبَبِ الَّذِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يَهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ مُكْرَرَةً . مَرَّتَيْنِ بِمَا تَنِي فَنَطَّارٌ وَزَنَا وَقَالَ لَهُ عَائِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اسْتَعْنَتَ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ فَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يُحَرِّكْهُ هَكَذَا قَالَ الْأَزْرَقِيُّ وَفِي الْبُخَارِيِّ . يُسْنَدُهُ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عَثْمَانَ وَقَالَ جَلَسْتُ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعَ فِيهَا صَنَمًا وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا اسْمَتَهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قُلْتُ مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ قَالَ وَلَمْ قُلْتُ فَلَمْ يَفْعَلْ صَاحِبَاكَ فَقَالَ هُمَا اللَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا وَخَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَأَبْنُ مَاجَةَ وَأَفَامَ ذَلِكَ الْمَالِ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ الْأَفْطَسِ وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحُسَيْنِ ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ حِينَ غَلَبَ مَكَّةَ عُمَدٌ إِلَى

الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً فيها لا ينفع به
 نحن أحق به نستعين به على حربنا وأخرجه وتصرفت فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة
 من يومئذ (واما بيت المقدس) وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة
 موضع الزهرة وكانوا يقرّبون إليه الزيت فيما يقرّبونه يصوبونه على الصخرة التي هناك
 ثم ذر ذلك الهيكل وأخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبله لصلاتهم . وذلك أن
 موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتسليمهم بيت المقدس كما
 وعد الله آباهم إسرائيل وأباه إسحق من قبله وأقاموا بأرض التيّه أمره الله باتخاذ
 قبته من خشب السنتع عيرن بالوحي مقدارها وصفتها وهياكلها وتماتيلها وأن يكون
 فيها التابوت ومائدة يصحافها ومنارة يقناديلها وأن يصنع مذبحاً للقربان وصف ذلك
 كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة ووزع فيها تابوت العهد وهو التابوت
 الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكليات العشر لما تكسرت
 ووضع المذبح عندها . وعهد الله إلى موسى بأن يكون هارون صاحب القربان وتصبوا
 تلك القبة بين خيامهم في التيّه يصلون إليها وتتقرّبون في المذبح أمامها وتتعرّضون
 للوحي عندها . ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قباتهم ووضعوها على الصخرة
 ببيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له
 ذلك وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه وخمسمائة سنة من وفاة
 موسى عليه السلام وأخذ عمده من الصخر وجعل به صرح الزجاج وعشى أبوابه
 وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماتيله وأوعيته ومنارته وفتحاه من الذهب وجعل
 في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من
 صهيون بلد أبيه داود تحمله الأسباط والكهنوتية حتى وضعه في القبر ووضعت القبة
 والأوعية والمذبح كل واحدٍ حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ما شاء الله ثم
 خربته بخت نصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهيكل ونثر
 الأحجار ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عزيز نبي بني إسرائيل لعهد باعانه بهمن
 ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سي بخت نصر وحد لهم في
 بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليها السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم

مُلُوكِ يُونَانَ وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْجَلَ الْمَلِكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ لِبَنِي
 حَشَمَنِيٍّ مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِصُهْرِهِمْ هِيرُودُسَ وَلِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْقُدْسِ
 عَلَى بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأْتَقُ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طَيْطِشُ
 مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَغَابَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرَبَ بَيْتَ الْقُدْسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ
 مَكَانُهُ ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بَدِينِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ اخْتَلَفَ حَالَ
 مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِدِينِ النَّصَارَى تَارَةً وَتَرَكَهُ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ
 وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَرَأْسَتْ إِلَى الْقُدْسِ فِي سَبَبِ الْخَشْيَةِ الَّتِي صَلَبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ
 بِزِعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رَمَى بِخَشْبَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَأَتَقَى عَلَيْهَا الْقَهَامَاتِ وَالْقَادُورَاتِ
 فَأَسْتَفْرَجَتْ الْخَشْبَةَ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ الْقَهَامَاتِ كَنِيسَةَ الْقَهَامَةِ كَانَهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزِعْمِهِمْ
 وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الزَّبَلِ وَالْقَهَامَاتِ عَلَى الصَّخْرَةِ حَتَّى
 غَطَّاهَا وَخِنَى مَكَانَهَا جِزَاءً بِزِعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ الْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ الْقَهَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ
 وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ
 وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ الْقُدْسِ وَسَأَلَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَأُرِيَ مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَاهَا الزَّبَلُ
 وَالتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَدْنَى اللَّهُ
 مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمَّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَتَ ثُمَّ أَحْفَلَ الْوَلِيدُ بْنُ
 عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سِنَنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْأِحْتِفَالِ
 كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَفِي
 مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ بِاللَّاطِ الْوَلِيدِ وَالزَّمَّ مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ النُّعْلَةَ
 وَالْمَالَ لِبِنَائِهِ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ وَأَنْ يَنْحَقُّوَهَا بِالْحَسِيفِ فَأَضَاعَ لِذَلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى
 مَا اقْتَرَحَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخُلَافَةِ أَعْوَامَ الْخُمْسِيَّةِ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي آخِرِهَا
 وَكَانَتْ فِي مَلَكََةِ الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءَ الْقَاهِرِ مِنَ السَّيِّئَةِ وَاخْتَلَأَ أَمْرُهُمْ زَحَفَ الْفَرَنْجِيَّةُ
 إِلَى بَيْتِ الْقُدْسِ فَمَلَكَوهُ وَمَلَكَوْهُ مَعَهُ عَامَةٌ تُعَوَّرُ الشَّامَ وَبَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعْظِمُونَهَا وَيَتَخَرَّوْنَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقَلَّ صِلَاحُ الدِّينِ بْنِ
 أَيُّوبَ الْكُرْدِيِّ بِمَلِكِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ الْعَبِيدِيِّينَ وَبَدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ
 وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْفَرَنْجِيَّةِ حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْقُدْسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكَوهُ

مِنْ نُغُورِ الشَّامِ وَذَلِكَ لِنَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ الْكَنِيسَةَ
 وَأَظْهَرَ الصَّخْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى الدَّحْوِ الَّذِي دُوَّ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِوَيْدَا الْعَهْدِ وَلَا يَعْزُضُ
 لَكَ إِلَّا شِكَاكُ الْمَعْرُوفِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ
 أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ نَفْسِكُمْ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ
 سَنَةً فَإِنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسَائِمَانَ
 لِأَنَّ سَائِمَانَ بَابِيهِ وَهُوَ يُنْفِثُ عَلَى الْأَلْفِ بِكَثِيرٍ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ
 لَيْسَ الْبِنَاءُ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عِينِ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَيْنَ
 لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سَائِمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ الصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ هَيْكَلَ
 الزُّهْرَةَ فَعَلَّ ذَلِكَ أَمَّا كَانَتْ مَسْكَنًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ وَالْتِمَائِيلَ
 حَوَالِي الْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ الزُّهْرَةَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ مَدَّةَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَائِمَانُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَفَهَّمْهُ فِيهِ حَلَّ هَذَا الْإِشْكَالِ ، وَأَمَّا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمَسْمُوعَةُ بِثَرَبٍ
 فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَئِيلَ مِنَ الْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا
 مَلَكَوهُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَزَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ غَسَّانَ وَعَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَتَلَّى حَصُونَهَا .
 ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِهَا فَجَازَ إِلَيْهَا
 وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعَهُ أَجْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَيُوتِيهِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ
 قَدَّاعَهُ لِدَلِّكَ وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَرْزَاهِ وَأَوَاهُ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ وَنَصَرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمُّوا الْأَنْصَارَ
 وَتَمَّتْ كَلِمَةُ الْأَنْصَارِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَتْ عَلَى قُوَّمِهِ وَفَتَحَ
 مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَمَرَهُمْ ذَلِكَ نَخَاطِبُهُمْ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُلْحَدُهُ الشَّرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا خِيفَةَ
 بِهِ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا ثَبَتَ
 عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّصِّ الصَّرِيحِ عَنْ رَفِيعِ بْنِ مُخْذَجٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَّابِ فِي الْعَوْنَةِ إِلَى أَحَادِيثِ أُخْرَى

تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ وَخَالَتْ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيَّ ! وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةً
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَمَعَ إِلَيْهَا الْأُمَمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ فَأَنْظَرُ كَيْفَ تَدَرَّجَتْ
 الْفَضِيلَةَ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْمُعْظَمَةِ لِمَسْبِقِ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ لَهَا وَتَفَهُمِ سِرِّ اللَّهِ فِي الْكُونِ
 وَتَدْرِيجِهِ عَلَى تَرْتِيبِ مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ
 فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ
 جَزَائِرِ الْهِنْدِ لِكَتَبَتْهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعْوَلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ
 يُعْظَمُونَهَا عَلَى جِهَةِ الدِّيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بِيُوتُ النَّارِ لِلنُّرْسِ وَهِيَ كُلُّ بُونَانَ وَبِيُوتُ الْعَرَبِ
 بِالْحِجَازِ أَلْيَ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِدْيَهَا فِي غُرْوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا
 بِيُوتًا لَسْنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقِ دِينِي وَلَا يَلْتَمَسُ
 إِلَيْهَا وَلَا إِلَى الْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْبِي فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي النُّوَارِ بِنِجْ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ
 فَعَلَيْهِ بِهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بافرريقية والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَنْطَارَ كَانَتْ لِلْبَزِيرِ مُنْذُ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنِينَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 وَكَانَ عُمُرُهَا كُلُّهُ بَدَوِيًّا وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمْ الْحَضَارَةُ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَحْوَالُهَا وَالِدُولُ
 أَلْيَ مَلَكَتَهُمْ مِنَ الْأَفْرِئِجَةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطْلُ أَمْدُ مَلَكَتِهِمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْمَخَ الْحَضَارَةُ
 مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْبِدَاوَةِ وَشُدُودُهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكُنْ مَبَانِيهِمْ وَأَيْضًا
 فَالْصَّنَائِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَزِيرِ لِأَنَّهَا أَعْرَقُ فِي الْبَدْوِ وَالصَّنَائِعُ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ وَإِنَّمَا
 نَتَمَّ الْمَبَانِي بِهَا فَلَا بَدَّ مِنْ الْخَدَقِ فِي تَعْلُمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَزِيرِ انْتِحَالٌ لَهَا لَمْ يَكُنْ
 لَهُمْ شَوْقٌ إِلَى الْمَبَانِي فَضَلَّ عَنْ الْمَدُنِ وَأَيْضًا فِيهِمْ أَهْلُ عَصَبِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلَوُ
 عَنْ ذَلِكَ جَمْعُهُ مِنْهُمْ وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصَبِيَّةُ أَجْنَحُ إِلَى الْبَدْوِ وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الْمَدُنِ
 الدَّعْوَةُ وَالسُّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنًا عَيْلًا عَلَى حَامِيَّتِهَا فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ لِدَاكِ يَسْتَنْكِفُونَ
 عَنْ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوْ الْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ إِلَّا التَّرْفُ وَالغَنَى وَقَلِيلٌ مَا هُوَ
 فِي النَّاسِ فَلِذَلِكَ كَانَ عُمُرَانُ أَفْرِئِجِيَّةً وَالْمَغْرِبُ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيًّا أَهْلُ خِيَامٍ
 وَظُلُوعِنَ وَقِيَاظِنَ وَكَثَنَ فِي الْجِبَالِ وَكَانَ عُمُرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ قُرَى

وَأَمَّارًا وَرَسَائِقَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقَ الْعَجَمِ وَأَمَثَالًا لِأَنَّ
 الْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَّبِعُونَ فِي مِرَاحِمِهَا وَتَلْبَامِهَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ
 وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لِحْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ فَتَكُونُ
 عَصَائِمَهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَافِي عَنِ الْمِصْرِ الَّذِي يَذْهَبُ
 بِالْبَسَالَةِ وَيَصِيرُهُ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فَأَفْهَمُهُ وَقَسَّ عَلَيْهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها

والى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَرْبَرِ بَعِيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضًا أَعْرَقُوا فِي الْبَدْوِ
 وَأَبْعَدُوا عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَيُّضًا كَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 وَلَمَّا تَمَلَّكُوها لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمْدُ حَتَّى تَسْتَوْفِي رُسُومَ الْحِضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمْ اسْتَعْنَوْا بِمَا
 وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيُّضًا فَكَانَ الَّذِينَ أَوَّلَ الْأَمْرِ مَانِعًا مِنَ الْمَغَالَاةِ أَوْ الْبِنْيَانِ
 وَاللَّاسِرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَهَدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي بِنَاءِ الْكُوفَةِ
 بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ أَفْعَلُوا وَلَا يَزِيدَنَّ
 أَحَدٌ عَلَي ثَلَاثَةِ أَيْكَاتٍ وَلَا تَطَالُوا فِي الْبِنْيَانِ وَالزُّمُوا السَّنَةَ تَلَزَمَكُمْ الدَّوْلَةُ وَعَهْدِي إِلَى
 الْوَفْدِ وَتَقَدَّمَ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَزِفَعُوا بِنِيَانًا فَوْقَ الْقَدْرِ قَالُوا وَمَا الْقَدْرُ قَالَ لَا يَقْرَبُكُمْ
 مِنَ السَّرْفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَصْدِ فَلَمَّا بَعْدَ الْعَهْدِ بِالرِّدِّينِ وَالتَّخْرِجِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ
 الْمَقَاصِدِ وَعَلِمَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَالرِّفِّ وَاسْتَعْتَمَدَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفَرَسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمْ
 الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِي وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالُ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ فَيُحْبِثُ شَيْدُوا الْعَبَانِي وَالْمَصَانِعَ
 وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيبًا بِاتِّفَاقِ الدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمْدُ لِكثَرَةِ الْبِنْيَانِ وَأَخْطَطَ
 الْمَدِينُ وَالْأَمَّارُ إِلَّا قَلِيلًا وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ فَالْفَرَسُ طَالَتْ مَدَّتُهُمْ الْأَفَافُ
 مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقَبْطُ وَالتَّبَطُّ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأُولَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَالِقَةَ
 وَالتَّبَابِعَةَ طَالَتْ أَمَادُهُمْ وَرَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهِيَ كُلُّهُمْ أَكْثَرُ
 عَدَدًا وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ أَثَرًا وَسَبَّحُورًا فِي هَذَا تَجِدُهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ
 وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْبِدَاوَةِ وَالْبَعْدُ عَنِ الصَّنَائِعِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَا تَكُونُ الْمَبَانِي
وَالثِقَمَةُ فِي تَشْيِيدِهَا وَلَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَجْهَهُ آخِرٌ وَهُوَ أَمْسٌ بِهِ وَذَلِكَ قَلَّةٌ مُرَاعَاهِمُ حُسْنِ
الْإِخْتِيَارِ فِي اخْتِطَاطِ الْمَدُنِ كَمَا قَلْنَا فِي الْمَكَانِ وَطِيبِ الْهَوَاءِ وَالْمِيَاهِ وَالْمَزَارِعِ
وَالْمُرَاعِي فَإِنَّهُ بِالْتَفَاوُتِ فِي هَذَا انْتَفَاوَتْ جُودَةُ الْمَضْرُورِ وَرَدَاءَتُهُ مِنْ حَيْثُ الْعُمَرَانُ
الطَّبِيعِيُّ وَالْعَرَبُ بَعَزَلٌ عَنْ هَذَا وَإِنَّمَا يُرَاعُونَ مُرَاعِي إِبْلَاهِمُ خَاصَّةً لَا يُبَالُونَ بِالْمَاءِ
طَابَ أَوْ خَبَثَ وَلَا قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْ زَكَاةِ الْمَزَارِعِ وَالْمَنَابِتِ وَالْأَهْوِيَةِ
لَا نَتَقَالِهِمْ فِي الْأَرْضِ وَتَقْلِيمِهِمْ الْحُبُوبِ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ وَأَمَّا الرِّيحُ فَالْقَفْرُ مُخْتَلِفٌ لِلْمَهَابِ
كُلِّهَا وَالظَّنُّ كَثِيرٌ لَهُمْ بِطَبِيعِهَا لِأَنَّ الرِّيحَ إِنَّمَا تَجِبُ مَعَ الْقَرَارِ وَالسُّكْنَى وَكَثْرَةُ
الْفَضَلَاتِ وَأَنْظُرْ لِمَا اخْتَطَوْا الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَالْقَيْرَانَ كَيْفَ لَمْ يُرَاعُوا فِي اخْتِطَاطِهَا
إِلَّا مُرَاعِي إِبْلَاهِمُ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ الْقَفْرِ وَمَسَالِكِ الظَّنِّ فَكَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْوَضْعِ
الطَّبِيعِيِّ لِلْمَدُنِ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا مَادَةٌ تَمُدُّ عُمَرَانَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي
الْعُمَرَانِ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاطِنَهَا غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلْقَرَارِ وَلَمْ تَكُنْ فِي وَسْطِ الْأُمَمِ فَيَعْمَرُهَا النَّاسُ
فَالْأَوَّلُ وَهَلِيَّةٌ مِنَ الْإِخْلَالِ أَمْرُهُمْ وَذَهَابُ عَصَبِيَّتِهِمْ الَّتِي كَانَتْ سِيَاجًا لَهَا أُنِي عَلَيْهَا الْخُرَابُ
وَالْإِخْلَالُ كَانَ لَمْ تَكُنْ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لِمَا مَعَبَّ لِحُكْمِهِ

الفصل العاشر

في مباني الخراب في الامصار

اعْلَمَنَّ أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا اخْتَطَّتْ أَوْلَا تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَسَاكِينِ وَقَلِيلَةَ آلَاتِ الْبِنَاءِ
مِنَ الْحَجَرِ وَالْجَبْرِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى الْخِيْطَانِ عِنْدَ التَّائِقِ كَالرُّخَامِ وَالرَّخَامِ وَالرَّيْحِ
وَالرُّجَاجِ وَالْفُسَيْفَسَاءِ وَالصَّدْفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمَئِذٍ بَدْوِيًّا وَالْآتِهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ
عُمَرَانُ الْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ الْآلَاتُ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ الصَّنَائِعُ
إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذَلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا فَإِذَا تَرَاجَعَ عُمَرَانُهَا وَخَفَّتْ سَاكِنُهَا
قَلَّتِ الصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَفَقِدَتِ الْإِجَادَةَ فِي الْبِنَاءِ وَالْإِحْكَامِ وَالْمَعَالَاةِ عَلَيْهِ بِالتَّنْمِيقِ
ثُمَّ نَقَلَ الْأَعْمَالَ لِغَدَمِ السَّاكِنِ فَيَقْلُ جَلْبُ الْآلَاتِ مِنَ الْحَجَرِ وَالرَّخَامِ وَغَيْرِهِمَا

فَتَفْقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَسْيِدُهُمْ مِنَ الْأَلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيُنْقَلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقَلَّةِ الْعُمَرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوْلَاثُهُمْ لَا تَزَالُ تَنْقُلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يَفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا حِمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ وَاتَّخَاذِ الطُّوبِ عَوِضًا عَنِ الْحِجَارَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكَلِمَةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقَرْيِ وَالْمَدَرِ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ الْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الْخُرَابِ إِنْ قَدَّرَ لَهَا بِهِ سِنَّةٌ لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق

انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنْتَهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعًا فِي عُمُرَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَالْحَاجَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةً الْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافًا فَالْقُوتُ مِنَ الْخِنْطَةِ مِثْلًا لَا يَسْتَقِلُّ الْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصْنِهِ مِنْهُ وَإِذَا انْتَدَبَ لِتَحْصِيلِهِ السَّنَةَ أَوْ الْعَشْرَةَ مِنْ حَدَادٍ وَتِجَارٍ لِلآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقْرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَحِصَادِ السَّبِيلِ وَسَائِرِ مَوَاقِفِ الْفَلَحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَوْ اجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الْقُوتِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوتٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ الْعَامِلِينَ وَضُرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضُرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ أَكْتَفَى فِيهَا بِالْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةً عَلَى الضَّرُورَاتِ فَتُضَرَفُ فِي حَالَاتِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَابِهِ وَفِيهِمْ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ حِظٌّ مِنَ الْغِنَى وَقَدْ بَيَّنَّ لَكَ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ فِي بَابِ الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ أَنَّ الْمَكْسَبَ إِنَّمَا هِيَ فِيمَ الْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَعْمَالُ كَثُرَتْ فِيمَهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكْسَبُهُمْ ضَرُورَةً وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ الرِّفَةِ وَالْغِنَى إِلَى التَّرْفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ التَّنَاقُصِ فِي الْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِسِ وَاسْتِجَادَةِ الْآلِيَةِ وَالْمَاعُونِ وَاتِّخَاذِ الْخِدْمِ وَالْمَرَائِبِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمَتِهَا وَيُخْتَارُ الْمَهْرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا فَتَنْفُقُ أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ الْمِصْرِ

وَخَرَجَهُ وَيَحْضُلُ الْبِسَارُ يُنْتَحَلِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِمْ وَمَتَى زَادَ الْعُمُرَانُ زَادَتِ الْأَعْمَالُ
 ثَانِيَةً ثُمَّ زَادَ التَّرْفُ تَابِعًا لِلْكَسْبِ وَزَادَتْ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ وَأَسْتَنْبَطَتِ الصَّنَائِعُ
 لِتَحْصِيلِهَا فَزَادَتْ فِيهَا وَتَضَاعَفَ الْكَسْبُ فِي الْمَدِينَةِ لِذَلِكَ ثَانِيَةً وَنَفَقَتْ سُوقُ الْأَعْمَالِ
 بِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ وَكَذَا فِي الزِّيَادَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الزَّائِدَةَ كُلَّهَا
 تَخْتَصُّ بِالتَّرْفِ وَالغِنَى بِخِلَافِ الْأَعْمَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمَعِاشِ فَالْمِصْرُ إِذَا
 فَضَلَ بَعْمُرَانٍ وَاحِدٍ فَفَضْلُهُ زِيَادَةٌ كَسَبَ وَرَفَهُ بِعَوَائِدٍ مِنَ التَّرْفِ لَا تُوْجَدُ فِي الْآخِرِ
 فَمَا كَانَ عُمُرَانُهُ مِنَ الْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي التَّرْفِ أَبْلَغَ مِنْ حَالِ
 الْمِصْرِ الَّذِي دُونَهُ عَلَى وَتَبَرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَصْنَافِ الْقَاضِيَةِ مَعَ الْقَاضِيِ وَالتَّاجِرِ مَعَ
 التَّاجِرِ وَالصَّانِعِ مَعَ الصَّانِعِ وَالسُّوقِيِّ مَعَ السُّوقِيِّ وَالْأَمِيرِ مَعَ الْأَمِيرِ وَالشَّرْطِيِّ مَعَ
 الشَّرْطِيِّ * وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ مَثَلًا بِحَالِ فَاسٍ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مِثْلَ بَجَايَةِ
 وَتَلْمَسَانَ وَسَبْتَةَ تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا كَثِيرًا عَلَى الْجُمْلَةِ ثُمَّ عَلَى الْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ الْقَاضِيِ
 بِفَاسٍ أَوْسَعُ مِنْ حَالِ الْقَاضِيِ بِتَلْمَسَانَ وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ وَكَذَا
 أَيْضًا حَالُ تَلْمَسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوْ الْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَالْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنْ
 تَنْتَهِيَ إِلَى الْمَدْرَ الَّذِينَ اعْتَمَلَهُمْ فِي ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فَقَطُّ وَيَقْصِرُونَ عَنْهَا وَمَا
 ذَلِكَ إِلَّا لِتَفَاوُتِ الْأَعْمَالِ فِيهَا فَكَانَتْهَا كُلُّهَا أَسْوَاقَ الْأَعْمَالِ وَالخُرُجِ فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَى
 نِسْبَتِهِ فَالْقَاضِيِ بِفَاسٍ دَخَلَهُ كِفَاةُ خَرَجِهِ وَكَذَا الْقَاضِيِ بِتَلْمَسَانَ وَحَيْثُ الدَّخْلُ وَالخُرُجُ
 أَكْثَرُ تَكُونُ الْأَحْوَالُ أَعْظَمَ وَهِيَ بِفَاسٍ أَكْثَرُ لِتَفَاقِ سُوقِ الْأَعْمَالِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ
 التَّرْفُ فَالْأَحْوَالُ أَعْظَمُ ثُمَّ كَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَفَسَنْطِينِيَّةِ وَالْجَزَائِرِ وَبِسُكْرَةَ حَتَّى
 تَنْتَهِيَ كَمَا قُلْنَا إِلَى الْأَمْصَارِ الَّتِي لَا تُؤْتِي أَعْمَالُهَا بِضَرُورَاتِهَا وَلَا تُعَدُّ فِي الْأَمْصَارِ إِذَا
 هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْقُرَى وَالْمَدْرَ فَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ ضَعْفَاءَ الْأَحْوَالِ
 مُتَقَارِبِينَ فِي الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَقِي بِضَرُورَاتِهِمْ وَلَا يَفْضُلُ مَا يَتَأْتُونَهُ
 كَسْبًا فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ وَهُمْ لِذَلِكَ مَسَاكِينٌ مُخَاوِجٌ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ النَّادِرِ وَاعْتَبِرْ
 ذَلِكَ حَتَّى فِي أَحْوَالِ الْفُقَرَاءِ وَالسُّؤَالِ فَإِنَّ السُّؤَالَ بِفَاسٍ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ السُّؤَالِ بِتَلْمَسَانَ
 أَوْ وَهْرَانَ وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِفَاسٍ السُّؤَالَ يَسْأَلُونَ أَيَّامَ الْأَضْحَى اثْمَانًا ضَحَايَاهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
 يَسْأَلُونَ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ التَّرْفِ وَأَقْبَرِاحِ الْمَا كُلِّ مِثْلِ سُؤَالِ الْحَمِّ وَالسَّمَنِ

وَعَلَّاجِ الطَّبِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَاعُونِ كَالْغُرْبَالِ وَالْأَيْنَةِ وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هَذَا
 بِتَلْمَسَانَ أَوْ وَهْرَانَ لَأَسْتَنْكَرَ وَعَدَفَ وَزَجَرَ وَيَبْلُغُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ الْقَاهِرَةِ
 وَمِصْرَ مِنَ التَّرَفِ وَالْغِنَى فِي عَوَالِدِهِمْ مَا يُفْضِي مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ
 بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ الثَّقَلَةِ إِلَى مِصْرَ لِذَلِكَ وَإِنَّمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنْ شَأْنِ الرَّفِهِ بِمِصْرَ
 أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَيَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لَزِيَادَةِ إِيْثَارٍ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْأَفَاقِ
 عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالٍ مُخْتَزَنَةٍ لَدَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ وَإِثَارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ
 الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ لَمَّا تَعَرَّفَهُ مِنْ أَنَّ عُمَرََانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرَ مِنْ
 عُمَرََانَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ فَعَظُمَتْ لَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ. وَأَمَّا حَالُ الدَّخْلِ وَالْخُرُوجِ
 فَمَتَّكَافِي فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَمَتَّى عَظُمَ الدَّخْلُ عَظُمَ الْخُرُوجُ وَبِالْعَكْسِ وَمَتَّى عَظُمَ
 الدَّخْلُ وَالْخُرُوجُ اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ السَّاكِنِينَ وَوَسَّعَ الْمِصْرُ كُلَّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا
 فَلَا تُنْكِرُهُ وَاعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ الْعُمَرََانَ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَكْسَبَةِ الَّتِي
 يَسْهَلُ بِسَبَبِهَا الْبَدَلُ وَالْإِثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مَعَ يَبُوتِ الْمَدِينَةِ
 الْوَاحِدَةِ وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهَا فِي هِجْرَانِهَا أَوْ عَشْيَانِهَا فَإِنَّ يَبُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالزُّرُوعِ
 وَالْمَوَائِدِ الْخَصِيصَةِ مِنْهَا تَكَثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَفْنِيئِهَا يَنْزُرُ الْحُبُوبُ وَسَوَاقِطُ الْفَتَاتِ فَيَزْدَحِمُ
 عَلَيْهَا غَوَاشِي النَّمْلِ وَالْحِنَشَاسِ وَيَلْحَقُ فَوْقَهَا عَصَابُ الطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بَطَانًا وَتَمْتَلِي شَبَعًا
 وَرِيًّا وَيَبُوتُ أَهْلُ الْخِصَاصَةِ وَالْفُقَرَاءُ الْمَكْسِدَةُ أَرْزَاقُهُمْ لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَيْبٌ وَلَا
 يَحْلِقُ بِجَوَّهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا يَبُوتِهِمْ فُأَرَّةٌ وَلَا هِرَّةٌ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ
 تَسْقُطُ الطُّيُورُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ الْحَبَّ م وَتَغْشَى مَنَازِلَ الْكُرْمَاءِ

فَتَأْمَلُ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَاعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الْإِنْسَانِي بِغَاشِيَةِ الْعُجْمِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَفَتَاتِ
 الْمَوَائِدِ بِفَضْلَاتِ الرِّزْقِ وَالتَّرَفِ وَسَهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْدُلُهَا لِاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ
 لِمَوْجُودِ أَمْثَالِهَا لَدَيْهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ اتِّسَاعَ الْأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ النِّعَمِ فِي الْعُمَرََانَ تَابِعَ الْكَثْرَةَ
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَدْنَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

الفصل الثاني عشر

في اسعار المدن

اعْلَمْ أَنَّ الْأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَمِنْهَا الضَّرُورِيُّ وَهِيَ الْأَقْوَاتُ

مِنَ الْخَنْطَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَالْبَقْلَاءِ وَالْبَصْلِ وَالثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَهِيَ الْحَاجِي وَالْكَمَالِي
 مِثْلُ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَاعُونِ وَالْمَرَكَبِ وَسَائِرِ الْمَصَانِعِ وَالْمَبَانِي فَإِذَا
 اسْتَبَجَرَ الْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخِصَتْ أَسْعَارُ الضَّرُورِيِّ مِنَ الْقُوْتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَعَلَتْ
 أَسْعَارُ الْكَمَالِي مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ الْمِصْرِ وَضَعْفَ
 عُمُرَانُهُ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحُبُوبَ مِنْ ضَرُورَاتِ الْقُوْتِ فَنَتَوَقَّرُ
 الدَّوَاعِي عَلَى اتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يَهْتَمُّ بِقُوْتِ نَفْسِهِ وَلَا قُوْتِ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِ وَأَوْ سَائِهِ
 فَيَعْمَلُ اتِّخَاذَهَا أَهْلُ الْمِصْرِ أَجْمَعُ أَوْ الْأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ أَوْ نِهَا قَرَبَ مِنْهُ
 لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ وَكُلُّ مَتَخَذٍ لِقُوْتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تُسَدُّ خَلَّةَ
 كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمِصْرِ فَتَفْضُلُ الْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ الْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَكِّ
 فَتَرْخِصُ أَسْعَارُهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ السِّنِّينِ مِنَ الْأَفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَلَوْلَا
 احْتِكَارُ النَّاسِ لَهَا لِمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الْأَفَاتِ لَبَدَلَتْ دُونَ ثَمَنِ وَلَا عَوْضَ لِكَثْرَتِهَا
 بِكَثْرَةِ الْعُمُرَانِ . وَمَا سَائِرُ الْمَرَاقِقِ مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ بِهَا
 الْبَلَوَى وَلَا يَسْتَعْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ ثُمَّ إِنْ
 الْمِصْرُ إِذَا كَانَ مُسْتَبَجِرًا مَوْفُورًا الْعُمُرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرْفِ تَوَفَّرَتْ حِينَئِذٍ الدَّوَاعِي
 عَلَى طَلَبِ تِلْكَ الْمَرَاقِقِ وَالْإِسْتِكْتَارِ مِنْهَا كُلُّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ الْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى
 الْحَاجَاتِ قُصُورًا بِالْغَاوِ وَيَكْثُرُ الْمُسْتَمَانُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَزِدُ حُمُ أَهْلِ الْأَغْرَاضِ
 وَيَبْدُلُ أَهْلُ الرِّفَةِ وَالتَّرْفِ أَنْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا
 فَيَقَعُ فِيهَا الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا الصَّنَائِعُ وَالْأَعْمَالُ أَيْضًا فِي الْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمُرَانِ
 فَسَبَبُ الْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ الْأَوَّلُ كَثْرَةُ الْحَاجَةِ لِمَكَانِ التَّرْفِ فِي الْمِصْرِ بِكَثْرَةِ
 عُمُرَانِهِ وَالثَّانِي اعْتِرَازُ أَهْلِ الْأَعْمَالِ لِحُدُومَتِهِمْ وَأَمْتِيَانِ أَنْفُسِهِمْ لِسَهُولَةِ الْمَعَاشِ فِي
 الْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَانِهَا وَالثَّالِثُ كَثْرَةُ الْمَتْرَفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى أَمْتِيَانِ غَيْرِهِمْ
 وَإِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَاعِ فِي مِهْنَتِهِمْ فَيَبْدُلُونَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيَمَةِ
 أَعْمَالِهِمْ مَرُوحَةً وَمُنَافَسَةً فِي الْإِسْتِنْتَارِ بِهَا فَيَعْتَرِ الْعَمَالُ وَالصَّنَاعُ وَأَهْلُ الْحَرْفِ وَتَعْلُو
 أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْمِصْرِ فِي ذَلِكَ . وَأَمَّا الْأَمْصَارُ الصَّغِيرَةُ وَالْقَلِيلَةُ
 السَّاكِنِ فَأَقْوَانُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقَلَّةِ الْعَمَلِ فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ الْقُوْتِ

فَيَمَسُّكَ بِنَ بَمَا يَحْمَلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ وَيَحْتَكِرُونَهُ فَيَعِزُّ وَجُودُهُ لَدَيْهِمْ وَيَبْغُلُو ثَمَنَهُ
 عَلَى مُسْتَأْمِنِهِ وَأَمَّا مُرَافِقُهُمْ فَلَا تَدْعُو إِلَيْهَا أَيْضًا حَاجَةٌ بِقِلَّةِ السَّاكِنِ وَضَعْفِ الْأَحْوَالِ
 فَلَا تَنْفَقُ لَدَيْهِمْ سُوقَةٌ فَيَتَخَصُّ بِالرُّخْصِ فِي سِعْرِهِ وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ
 قِيَمَةٌ مَا يَعْزُضُ عَلَيْهَا مِنَ الدُّكُوسِ وَالْمَعَارِمِ لِلسُّلْطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبَابِ الْحَفْرِ
 وَالْحَيَاةِ فِي مَنَافِعِ وَصُولِهَا عَنِ الْبِيُوعَاتِ لِمَا يَمَسُّهُمْ وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْأَسْعَارُ فِي الْأَمْصَارِ
 أَعْلَى مِنَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَادِيَةِ إِذِ الدُّكُوسُ وَالْمَعَارِمُ وَالْفَرَائِضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ
 مَعْدُومَةٌ وَكَثُرَتْهَا فِي الْأَمْصَارِ لِأَسِيمَا فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ تَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ
 قِيَمَةٌ عِلَاجِيَّتُهَا فِي الْفَلْحِ وَيُحَافِظُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا الْجَاءَهُمُ النَّصْرِيُّ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَبِلَادِهِ الْمُتَوَعَّرَةِ الْخَبِيثَةِ الزَّرَاعَةِ
 النَّصِيدَةِ النَّبَاتِ وَمَلَكَوْا عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الرَّكِيَّةَ وَالْبَلَدَ الطَّيِّبَ فَاحْتَاجُوا إِلَى عِلَاجِ
 الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ لِإِصْلَاحِ نَبَاتِهَا وَفَلْحِهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْعِلَاجُ بِأَعْمَالِ ذَاتِ قِيَمٍ وَمَوَادِّ
 مِنَ الزُّبَيْلِ وَغَيْرِهِ لَهَا مَوْتَةٌ وَصَارَتْ فِي قَلْبِيهِمْ نَقَقَاتٌ لَهَا خَطَرٌ فَاعْتَبَرُوا فِي سِعْرِهِمْ
 وَأَخْتَصَّ قَطْرُ الْأَنْدَلُسِ بِالْغَلَاءِ مِنْذُ اضْطَرَّ لَهُمُ النَّصْرِيُّ إِلَى هَذَا الْمَعْمُورِ بِالْإِسْلَامِ
 مَعَ سَوَاحِلِهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَيَحْسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِالْغَلَاءِ الْأَسْعَارِ فِي قُطْرِهِمْ أَنَّهَا لِقِلَّةِ
 الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِيهِمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَعْمُورِ فَحَمَّا فِيمَا عَلِمْنَاهُ
 وَأَقْوَمُهُمْ عَلَيْهِ وَقَدْ أَنْ يَخْلُو مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سُوقَةٌ عَنِ فِدَانٍ أَوْ مَزْرَعَةٍ أَوْ فَلَاحٍ إِلَّا
 قَلِيلٌ مِنَ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ وَالْمِينِ أَوْ الطَّرَائِقِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْعَزَاةِ الْجَاهِلِينَ وَلِهَذَا
 يَخْتَصُّهُمُ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْأَعْلَى وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ وَإِنَّمَا السَّبَبُ
 فِي غَلَاءِ سِعْرِ الْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ
 فِي زَكَاةِ مَنَافِعِهِمْ وَطَيِّبِ أَرْضِهِمْ أَرْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْعَوْنُ جُمْلَةً فِي الْفَلَاحِ مَعَ كَثْرَتِهِ
 وَعُمُومَتِهِ فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِلَدِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ
 الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث عشر

في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمُرَانَ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَتَكْثُرُ

حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ وَتُعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضَرُورَاتٍ
وَتَصِيرُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيْزَةً وَالْمُرَافِقُ غَالِيَةً بِأَزْدِ حَامِ الْأَعْرَاضِ عَلَيْهَا
مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ وَيَالَهُ عَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْبِيَعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي
فِيْمِ الْمَبِيَعَاتِ وَيَعْظُمُ فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمُرَافِقِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَالِ فَيَكْثُرُ لِلذَّكَ
نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بِالْعَةِ عَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهِ وَيَعْظُمُ خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ
الْكَبِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِمُ وَالْبَدْوِيِّ لَمْ
يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيْرًا سَاكِنًا بِمَسْكَانِ كَاسِدِ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكَسْبِ
فَلَمْ يَتَأْتَلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا فَيَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَكَنِي الْمِصْرِ الْكَبِيرِ لِعَلَاءِ
مُرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلْتَهُ بِأَقْلِ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَائِلٌ عَوَائِدِ التَّرَفِ
فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَوْثِقَتِهِ فَلَا يُضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَشْتَوِي إِلَى الْمِصْرِ وَسَكَنَاهُ
مِنْ الْبَادِيَةِ فَسَرِيْعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي اسْتِطَاعَتِهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِمُ مِنْهُمْ تَائِلٌ
الْمَالِ وَيَحْضُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمْرَانِ مِنَ
الدَّعَاةِ وَالتَّرَفِ حِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالَهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ
وَتَرْفِهِمْ وَهَكَذَا شَأْنُ بَدَاةِ عُمْرَانِ الْأَمْصَارِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ خَبِيرٌ

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقير مثل الامصار

اعلم ان ما توفّر عُمْرَانُهُ مِنَ الْأَقْطَارِ وَتَعَدَّدَتِ الْأُمَمُ فِي جَيَانِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ
اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتِ دَوْلَتُهُمْ وَمِمَّا لَكُمُ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ وَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَبٌ
لِلثَّرْوَةِ بِمَا يُفْضَلُ عَنْهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ بِالضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ السَّاكِنِ مِنَ الْفَضْلَةِ الْبَالِغَةِ
عَلَى مِقْدَارِ الْعُمْرَانِ وَكَثْرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ حَسْبَمَا نَدَّ كُرُ ذَلِكَ فِي
فَصْلِ الْمَعَاشِ وَيَبَانُ الرِّزْقِ وَالْكَسْبِ فَيَتَزَيَّدُ الرَّفَهُ لِدَلَاكِ وَتَتَسَّعُ الْأَحْوَالُ وَيَجِيءُ
التَّرَفُ وَالْغِنَى وَتَكْثُرُ الْحَبَابِيَةُ لِلدَّوْلَةِ بِنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ فِي كَثْرَةِ مَالِهَا وَيَسْمَعُ سُلْطَانُهَا
وَتَتَمَتَّنُ فِي اتِّخَاذِ الْعَاقِلِ وَالْحُضُونِ وَأَخْطِاطِ الْمَدِينِ وَتَشْيِيدِ الْأَمْصَارِ . وَأَعْتَبَرُ ذَلِكَ
بِأَقْطَارِ الْمَشْرِقِ مِثْلَ مِصْرَ وَالشَّامِ وَعِرَاقِ الْعَجْمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَنَاحِيَةِ الشَّمَالِ لِمَلِكِهَا

وَأَفْطَارَهَا وَرَاءَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ الْأَمْالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ
 دَوْلَتُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَدِينُهُمْ وَخَوَاضِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ فَالَّذِي نَشَاهِدُهُ
 لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أحوالِ تِجَارَةِ الْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ الْوَارِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِي
 رِفْهِهِمْ وَأَتْسَاعِ أَحْوَالِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الْوَصْفُ وَكَذَا تِجَارَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ
 الْأَفْصَى مِنْ عِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغِنَى وَالرِّفَةِ عَرَائِبُ
 تَسْبُرُ أَرْبَابَانِ يُحَدِّثُهَا وَرَبَّمَا أَتَلَقْتِي بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ وَيَحْسَبُ مَنْ يَسُدُّهَا مِنَ
 الْعَامَّةِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِبَادَةِ فِي أَمْوَالِهِمْ أَنَّهُ لَأَنَّ الْمَعَادِنَ النَّهْبِيَّةَ وَالْفِضَّةَ أَكْثَرَ بَارِئِهِمْ
 أَوْ لَأَنَّ ذَهَبَ الْأَفْدَمِينَ مِنَ الْأُمَمِ اسْتَأْتَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ مُعَدِّنُ
 الذَّهَبِ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَفْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ
 أَقْرَبُ وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يُجَابُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتِّجَارَةِ فَلَوْ
 كَانَ الْأَمْالُ عَنِيدًا مَوْفُورًا لَدَيْهِمْ لَمَّا جَاءُوا بِضَائِعَهُمْ إِلَى سَوَاهِمِ يَتَغَفُونَ بِهَا الْأَمْوَالَ وَلَا
 اسْتَعْنَوْا عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْجُمْلَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ الْمُنْجَمُونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ وَاسْتَعْرَبُوا
 مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَأَتْسَاعِهَا وَوُفُورِ أَمْوَالِهَا فَقَالُوا بَارِئًا عَطَايَا الْكُوكِبِ
 وَالسَّهَامِ فِي مَوَالِدِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصَصًا فِي مَوَالِدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَذَلِكَ
 صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ الْجُمُومِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَا هُمْ
 إِنَّمَا أَعْطَوْا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ الْجُومِيَّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا
 ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعُمْرَانِ وَأَخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَأَفْطَارِهِ وَكَثْرَةِ الْعُمْرَانِ
 تَفِيدُ كَثْرَةَ النَّسَبِ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُهُ فَلِذَلِكَ اخْتَصَّ الْمَشْرِقُ بِالرِّفَةِ
 مِنْ بَيْنِ الْأَفَاقِ لِأَنَّ ذَلِكَ لِيَجْرِدَ الْأَنْزِلَ الْجُومِيَّ فَقَدْ فَهِمْتَ مَا أَشْرْنَا لَكَ أَوَّلًا أَنَّهُ
 لَا يَسْتَقِلُّ بِذَلِكَ وَإِنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمْرَانِ الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْ لَا بَدَّ مِنْهُ .
 وَاعْتَبِرْ حَالَ هَذَا الرَّفِّهِ مِنَ الْعُمْرَانِ فِي قَطْرِ أَفْرِيقِيَّةَ وَبَرْقَةَ لَمَّا خَفَتْ سَكْنَهَا وَتَنَاسَّصَ
 عُمْرَانُهَا كَيْفَ تَلَاسَّتْ أحوالُ أَهْلِهَا وَأَتَتْهَا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَضَعَتْ جَبَابِئِهَا
 فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دَوْلَتِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلَ الشَّيْخَةِ وَصَنَاجِحَ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ الرَّفِّهِ
 وَكَثْرَةِ الْجَبَابِئِ وَأَتْسَاعِ الْأَحْوَالِ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ لِأَمْوَالِ
 نَرْفَعُ مِنَ الْقَيْرِ وَإِنِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمِهْنَاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدَّوَلَةِ بِحَيْثُ حَمَلُ

جَوْهَرِ الْكَاتِبِ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ الْفَحْمَلِ مِنَ الْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَزَاقِ
الْجُنُودِ وَأَعْطِيَتِهِمْ وَنَفَقَاتِ الْغَزَاةِ وَقَطْرُ الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَّةَ
فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ فِي ذَلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجَبَابَتُهُ مَوْفُورَةً
وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ أَفْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمُرَانِ فِيهِ وَنَاقُصَهُ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمُرَانِ
الْبَزْبَرِ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعْبُودِهِ نَقْصًا ظَاهِرًا مُحْسُوسًا وَكَأَنَّ يَحْقُقَ فِي أَحْوَالِهِ
بِمِثْلِ أَحْوَالِ أَفْرِيقِيَّةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمُرَانُهُ مُتَّصِلًا مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ
السُّمِدَانِ فِي طُولِ مَا بَيْنَ السُّوسِ الْأَنْصَبِيِّ وَرِفْقَةَ وَهِيَ الْيَمِّمُ كُنَّا أَوْ أَكْثَرُهَا فَتَارَةً
وَخَلَاةً وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ وَاللَّهِ وَارِثُ
الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تامل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها

اعْلَمْ أَنَّ تَأْتِلَ الْعَقَارُ وَالضِّيَاعُ الْكَثِيرَةُ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً
وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرِ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ التَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ الْأَمْلَاكُ
الَّتِي تَخْرُجُ فِيحْتَمُهَا عَنِ الْحَدِّ وَلَوْ بَلَّغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي الرَّفْعِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ وَإِنَّمَا يَكُونُ
مُلْكُهُمْ وَتَأْتِلُهُمْ لَهَا تَدْرِيجًا إِمَّا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحْمِهِ حَتَّى تَنَادَى أَمْلَاكُ
الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى الْوَاحِدِ وَأَكْثَرَ لِدَلِكِ أَوْ أَنْ يَكُونَ بِمَجْوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ الْعَقَارَ
فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ الْأُخْرَى عِنْدَ فَنَاءِ الْحَامِيَةِ وَخَرَقِ السِّيَاحِ وَتَدَاعِي الدِّمْرِ إِلَى
الْحَرَابِ نَقْلُ الْغَبْطَةِ بِهِ لِقَلَّةِ الْمَنْعَةِ فِيهَا بِتَلَاشِي الْأَحْوَالِ فَتَرُخُّ قِيمَتَهَا وَتَمْلِكُ
بِالْإِثْمَانِ الْيَسِيرَةِ وَتُنْخَطِ بِالْمِيرَاثِ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ وَفِي أَسْجَدِ أَمِصْرَ شَبَابَهُ بِاسْتِحْجَالِ
الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَانْتَضَمَتْ لَهُ أَحْوَالُ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ تَحْصُلُ مَعَهَا الْغَبْطَةُ فِي الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ
بِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيمَتُهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَوَّلِ وَهَذَا مَعْنَى الْحَوَالَةِ
فِيهَا وَيُصْبِحُ مَالِكُهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَعِيهِ وَأَكْتِسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ
تَعْجُزُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ لِمَالِكِهَا فِي حَاجَاتِ
مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لَا تَفِي بِعَوَائِدِ التَّرْفِ وَأَسْبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْغَالِبِ لِسِدِّ الْخَلَّةِ وَضُرُورَةِ
الْمَعَاشِ وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ مُسَيِّخَةِ الْبُلْدَانِ أَنَّ الْقَصْدَ بِاقْتِنَاءِ الْمَلِكِ مِنَ الْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ

أَنَّمَا هُوَ الْخُشْيَةُ عَلَى مَنْ يَتْرُكُ خَلْفَهُ مِنَ الذَّرِيَّةِ الضَّعْفَاءِ لِيَكُونَ مَرَبَاهُمْ بِهِ وَرِزْقُهُ فِيهِ وَتَشْوَهُمْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْاِكْتِسَابِ فَإِذَا اقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَكْسَبِ سَعَوْا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ الْوَالِدِ مَنْ يَعْجِزُ عَنِ التَّكْسِبِ لِضَعْفِ فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ الْمَعَاشِيِّ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَقَارُ قِيَامًا لِحَالِهِ هَذَا قَصْدُ الْمُتَرَفِّينَ فِي اِقْتِنَائِهِ وَأَمَّا التَّمَوُّلُ مِنْهُ وَاجْتِرَاءُ أَحْوَالِ الْمُتَرَفِّينَ فَلَا وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ أَوْ النَّادِرِ بِمَحْوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ الْكَثْرَةِ الْبَالِغَةِ مِنْهُ وَالْعَالِي فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ فِي الْمَضْرِ الْأَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا اِمْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْأَمْرَاءِ وَالْوَالِدَةِ وَأَعْتَصَبُوهُ فِي الْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْهُمْ وَنَالَتْ اِصْحَابَهُ مِنْهُ مَضَارٌ وَمَعَاطِبٌ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الفصل السادس عشر

في حاجات المتولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة

وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضِرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ وَكَثُرَ لِلْعَقَارِ وَالضِّيَاعِ تَأْتَلُهُ وَأَصْبَحَ اَغْنَى أَهْلَ الْمَضْرِ وَرَمَقَتْهُ اَلْعَيْنُ بِذَلِكَ وَانْفَسَحَتْ أَحْوَالُهُ فِي التَّرَفِّ وَالْعَوَائِدِ زَاخَمَ عَلَيْهَا الْأَمْرَاءُ وَالْمُلُوكُ وَعَصَمُوا بِهِ وَلِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ تَمْتَدُّ اَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَتَعَمَّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يَحْصُلُوهُ فِي رِبْقَةٍ حَكِيمٍ سُلْطَانِيٍّ وَسَبَبٍ مِنَ الْمَوْاخِذَةِ ظَاهِرٍ يَنْتَزِعُ بِهِ مَالَهُ وَأَكْثَرَ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ جَائِرَةً فِي الْغَالِبِ إِذِ الْعَدْلُ الْمَحْضُ اِنْمَاهُرَ فِي اِخْتِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ اَللَّيْثُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اِخْتِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مَلَكًا عَضُوضًا فَلَا بَدَّ حَيْثُ لِيَصَاحِبِ اَلْمَالِ وَالنَّرْوَةَ الشَّهِيرَةَ فِي اَلْعُمُرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَدُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَمَّاهَا السُّلْطَانُ فَيَسْتَنْظِلُ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ اَلْهَدْيِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهَبًا بِوُجُوهِ التَّخْيَلَاتِ وَأَسْبَابِ الْحُكَامِ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا نَعْقِبُ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها والسبب في ذلك ان الحضارة هي احوال عادية زائدة على الضروي من احوال

الْعُمَرَانُ زِيَادَةً تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الرَّفِّهِ وَتَفَاوُتِ الْأَمْرِ فِي الْقَلَّةِ وَالْكَثْرَةِ تَفَاوُتًا غَيْرَ
 مُنْحَصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ التَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ
 وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ وَالْمَهْرَةِ فِيهِ وَيَقْدَرُ مَا يَزِيدُ مِنْ أَصْنَافِهَا
 تَزِيدُ أَهْلَ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ لِجَلِيلِ بِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتْ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتْ تِلْكَ الصَّنَاعَاتُ
 حَذَقُوا لِتِلْكَ الصَّنَاعِ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْيَارُ يَطْوِلُهَا وَأَنْفَسَاحُ أَمَدِهَا
 وَتَكَرَّرَ أَمْثَالُهَا تَزِيدُهَا اسْتِغْنَاءً كَمَا وَرُسُوخًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ لِاسْتِجَارِ
 الْعُمَرَانِ وَكَثْرَةِ الرَّفِّهِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ
 تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرَّعِيَّةِ وَتَنْفِقُهَا فِي بَطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَنْسَعُ أحوَالَهُمْ بِأَجْلَاهِ أَكْثَرَ مِنْ
 اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنَ الرَّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي
 مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ وَهُمْ الْأَكْثَرُ فَتَعْظُمُ لِدَيْكَ ثَرْوَتُهُمْ وَيَكْثُرُ غَنَاهُمْ وَتَزِيدُ
 عَوَائِدُ التَّرْفِ وَمَدَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمُ لِدَيْهِمْ الصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ الْحِضَارَةُ .
 وَلِهَذَا تَحِيدُ الْأَمْصَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةً الْعُمَرَانُ تَعَلَّبُ عَلَيْهَا أحوَالُ الْبِدَاوَةِ
 وَتَبْعُدُ عَنِ الْحِضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَدَاهِبِهَا بِخِلَافِ الْمُدُنِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي هِيَ
 مَرْكَزُ الدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِجَوَازَةِ السُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَلَّمَاءُ
 يَخْضَرُ مَا قَرَّبَ مِنْهُ فَمَا قَرَّبَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجَنُوفِ عَلَى الْبَعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا
 أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدَّوْلَةَ سَوَقٌ لِلْعَالَمِ فَالْبُضَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَمَا قَرَّبَ مِنْهُ وَإِذَا
 أَبْعَدَتْ عَنِ السُّوقِ أَفْتَقَدَتْ الْبُضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتْ تِلْكَ الدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَتْ
 مَلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ اسْتَحْكَمَتْ الْحِضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخًا
 وَاعْتَبَرَتْ ذَلِكَ فِي الْيَهُودِ لَمَّا طَالَ مُلْكُهُمْ بِالشَّامِ نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ سَنَةٍ رَسَخَتْ
 حَضَارَتُهُمْ وَحَدَّثُوا فِي أحوَالِ الْمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ الْمَطَاعِمِ
 وَالْمَلَابِسِ وَسَائِرِ أحوَالِ الْمَنْزِلِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤَخَذُ عَنْهُمْ فِي الْغَالِبِ إِلَى الْيَوْمِ وَرَسَخَتْ
 الْحِضَارَةُ أَيْضًا وَعَوَائِدُهَا فِي الشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ الرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتْمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا
 فِي غَايَةِ الْحِضَارَةِ . وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْقَبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي الْخَلِيقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ
 فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ فِي بِلَدِهِمْ مِصْرَ وَأَعْيُنُهُمْ بِهَا مَلِكُ الْيُونَانِ وَالرُّومِ ثُمَّ مَلِكُ
 الْإِسْلَامِ النَّاسِخُ لِلْكَفْلِ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضًا رَسَخَتْ

عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ بِالْيَمَنِ لِاتِّصَالِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ بِهَا مُنْذُ عَهْدِ الْعِمَالِمَةِ وَالتَّبَاعَةِ الْآفَاءَ
 مِنَ السِّنِينَ وَأَعْقِبَهُمْ مُلْكُ مِصْرَ وَكَذَلِكَ الْحِضَارَةُ بِالْعِرَاقِ لِاتِّصَالِ دَوْلَةِ الْبَطِّ وَالْفُرْسِ
 بِهَا مِنْ لَدُنِ الْكِلْدَانِيِّينَ وَالْكَيْبَانِيَّةِ وَالْكَسْرَوِيَّةِ وَالْعَرَبِ بَعْدَهُمُ الْآفَاءَ مِنَ السِّنِينَ فَلَمْ
 يَكُنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْضَرُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ وَكَذَا أَيْضًا
 رَسَخَتْ عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ وَأَسْتَحْكَمَتْ بِالْأَنْدَلُسِ لِاتِّصَالِ الدُّوَلَةِ الْعَظِيمَةِ فِيهَا لِلْقُوَطِ
 ثُمَّ مَا أَغْنَبَهَا مِنْ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةِ الْآفَاءَ مِنَ السِّنِينَ وَكَلَّمَا الدُّوَلَتَيْنِ عَظِيمَةَ فَأَنْصَلَتْ فِيهَا
 عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ وَأَسْتَحْكَمَتْ. وَأَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ
 مُلْكٌ ضَخْمٌ إِذْ قَطَعَ الْإِفْرَنْجِيُّ إِلَى أَفْرِيقِيَّةِ الْبَحْرِ وَمَا كَوَّ السَّاحِلَ وَكَانَتْ طَائِعَةً
 الْبَرْبَرِ أَهْلِ الضَّاحِيَةِ لَهُمْ طَاعَةٌ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ فَكَانُوا عَلَى قَلْعَةٍ وَأَوْقَازٍ وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ
 لَمْ يُجَاوِزْهُمْ دَوْلَةٌ وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْعَثُونَ بِطَاعَتِهِمْ إِلَى الْقُوَطِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ وَلَمَّا جَاءَ
 اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَمَلَكَ الْعَرَبُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ لَمْ يَلْبَثْ فِيهِمْ مُلْكُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلًا
 أَوَّلَ الْإِسْلَامِ وَكَانُوا لِدَوْلَةِ الْعَهْدِ فِي طُورِ الْبِدَاوَةِ وَمِنْ أَسْفَرَهُ مِنْهُمْ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ
 لَمْ يَجِدْ بِهِمَا مِنَ الْحِضَارَةِ مَا يَقْلُدُ فِيهِ مِنْ سَلْفِهِ إِذْ كَانُوا بَرَابِرَ مُنْعَمَسِينَ فِي الْبِدَاوَةِ
 ثُمَّ انْتَقَضَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى لِأَقْرَبِ الْعُيُودِ عَلَى يَدِ مَيْسَرَةَ الْمُطَفَّرِيِّ أَيَّامَ هِشَامِ
 ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَرُاجِعُوا أَمْرَ الْعَرَبِ بَعْدَ وَاسْتَقْلَوْا بِأَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ بَايَعُوا
 لِأَدْرِيسٍ فَلَا تُعَدُّ دَوْلَتُهُ فِيهِمْ عَرَبِيَّةً لِأَنَّ الْبَرَابِرَ هُمُ الَّذِينَ تَوَلَّوْهَا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَرَبِ
 فِيهَا كَثِيرٌ عَدَدًا وَبَقِيَتْ أَفْرِيقِيَّةٌ لِلْأَغَالِبَةِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ فَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْحِضَارَةِ
 بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ تَرْفِ الْمُلْكِ وَنَعِيمِهِ وَكَثْرَةِ عُمَرَانَ الْقَيْرَوَانَ وَوَرِثَ
 ذَلِكَ عَنْهُمْ كِتَامَةً ثُمَّ صَنَاهَا مِنْ بَعْدِهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ قَلِيلٌ لَمْ يَبْلُغْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 وَأَنْصَرَمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَأَسْتَحَالَتْ صِبْغَةُ الْحِضَارَةِ بِمَا كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ وَتَغَلَّبَ
 بَدْوُ الْعَرَبِ الْهَلَالِيِّينَ عَلَيْهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَقِيَ أَثَرُ خَفِيِّ مِنَ حِضَارَةِ الْعُمَرَانَ فِيهَا وَإِلَى هَذَا
 الْعَهْدِ يُنْسَى فِيمَنْ سَلَفَ لَهُ بِالْقَلْعَةِ أَوْ الْقَيْرَوَانَ أَوْ الْمَهْدِيَّةِ سَلَفٌ فَتَجِدُ لَهُ مِنَ الْحِضَارَةِ
 فِي شُؤْنِ مَنْزِلِهِ وَعَوَائِدِ أَحْوَالِهِ آثَارًا مُلْتَبَسَةً بِغَيْرِهَا يُدِيرُهَا الْخَضِرِيُّ الْبَصِيرُ بِهَا وَكَذَا
 فِي أَكْثَرِ أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةِ وَنَيْسَ كَذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ لِرُسُوخِ الدُّوَلَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ
 أَكْثَرًا مِمَّا مُنْذُ عَهْدِ الْأَغَالِبَةِ وَالشَّيْعَةِ وَصَنَاهَا وَمَا الْمَغْرِبُ فَأَنْتَقَلَ إِلَيْهِ مِنْ دَوْلَةٍ

الْمَوْجِدِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْخِصَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِهِ عَوَائِدُهَا بِمَا كَانَ
 لِدَوْلَتِهِمْ مِنَ الْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَانْتَقَلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعًا
 وَكَرْهًا وَكَانَتْ مِنْ اتِّسَاعِ النَّطَاقِ مَا عَلِمْتَ فَكَانَ فِيهَا حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ الْخِصَارَةِ
 وَاسْتَحْكَمَتْهَا وَمُعَظَمُهَا مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ انْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَةِ
 الْأَنْصَارِيِّ إِلَى أَفْرِيقِيَّةٍ فَأَبْقَوْا فِيهَا وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ الْخِصَارَةِ آثَارًا وَمُعَظَمُهَا بِتُونِسَ
 امْتَزَجَتْ بِخِصَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْقُلُهُ الْمَسَافِرُونَ مِنْ عَوَائِدِهَا فَكَانَ بِذَلِكَ لِلْمَغْرِبِ
 وَأَفْرِيقِيَّةِ حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ الْخِصَارَةِ عِنْفِي عَيْنِهِ الْخُلَاءُ وَرَجَعَ إِلَى أَعْقَابِهِ وَعَادَ الْبَزِيرُ
 بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَدْيَانِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَأَثَارُ الْخِصَارَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ
 أَكْثَرُ مِنْهَا بِالْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ بَاتَ تَدَاوُلٌ فِيهَا مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمَغْرِبِ
 وَلِقُرْبِ عَوَائِدِهِمْ مِنْ عَوَائِدِ أَهْلِ مِصْرَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَهُمْ فَتَفَطَّنَ لِهَذَا
 السِّرِّ فَإِنَّهُ خَفِيَ عَنِ النَّاسِ وَعَلِمَ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبَةٌ وَهِيَ حَالُ الدُّوَلَةِ فِي الْقُوَّةِ
 وَالضَّعْفِ وَكَثْرَةِ الْأُمَّةِ أَوْ الْجِيلِ وَعَظْمِ الْمَدِينَةِ أَوْ الْمِصْرِ وَكَثْرَةِ النِّعْمَةِ وَالْيَسَارِ
 وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلَةَ وَالْمَلِكَ صُرَّةُ الْخَلِيقَةِ وَالْعُمْرَانُ وَكُلُّهَا مَادَةٌ لِهَامِنِ الرَّعَايَا وَالْأَمْصَارِ
 وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَأَمْوَالِ الْجَبَايَةِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَسَارُهُمْ فِي الْغَالِبِ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ
 وَإِذَا أَفَاضَ السُّلْطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي أَهْلِهَا أَنْبَتَتْ فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ
 فَهِيَ ذَاهِبَةٌ عَنْهُمْ فِي الْجَبَايَةِ وَالْخِرَاجِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْعَطَاءِ فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ الدُّوَلَةِ
 يَكُونُ يُسَارُ الرَّعَايَا وَعَلَى نِسْبَةِ يُسَارِ الرَّعَايَا وَكَثْرَتِهِمْ يَكُونُ مَالُ الدُّوَلَةِ وَأَصْلُهُ
 كُلُّهُ الْعُمْرَانُ وَكَثْرَتُهُ فَأَعْتَبَرُهُ وَتَأَمَّلْهُ فِي الدُّوَلِ تَجِدُهُ وَاللَّهُ يُحْكِمُ وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثامن عشر

فِي أَنَّ الْخِصَارَةَ غَايَةُ الْعُمْرَانِ وَنَهَايَةُ لِعَمْرِهِ وَانْهِيَ مَوْذَنَةٌ بِفَسَادِهِ
 قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَتْ أَنَّ الْمَلِكَ وَالدُّوَلَةَ غَايَةُ الْعِصِيَّةِ وَأَنَّ الْخِصَارَةَ غَايَةُ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّ
 الْعُمْرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَخِصَارَةٍ وَمَلِكٍ وَسُوقَةٍ لَهُ عُمَرٌ مَحْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنْ
 اشْتِخَاصِ الْمَكُونَاتِ عُمَرًا مَحْسُوسًا وَتَبَيَّنَ فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ
 غَايَةٌ فِي تَرْيَادِ قُوَّاهُ وَنُمُوهَا وَإِنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَّ الْأَرْبَعِينَ وَقَفَّتِ الطَّبِيعَةُ عَنْ أَثَرِ الشُّؤْمِ
 وَالشُّمُورِ بَرَهَةً ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَنْحِطَاطِ فَلْتَعَلَّمَنَّ أَنَّ الْخِصَارَةَ فِي الْعُمْرَانِ أَيْضًا

كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران
دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والنخلة بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفتن
في الترف واستجداد الأحوال والكلف بالصنائع التي توثق من أصنافه وسائر فنونه
من الصنائع المهيمة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأبنية ولسائر
أحوال المنزل وللتأني في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند
البدوة وعدم التأني فيها وإذا بلغ التأني في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة
الشهوات فنتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها
ولا دنياها أما دنياها فلا تستحكام صبغة العوائد التي يفسر نزوعها وأما دنياها فلكثرة
الحاجات والهوات التي تطالب بها العوائد ويحجز وينسكب عن الوفاء بها. وبيانه أن
المصر بالتفتن في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة تنفاوت بتفاوت العمران فمتى
كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كفا قدمنا أن المصر الكثير
العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيد المكوس علاء لأن
الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استنفالها وهو زمن وضع المكوس في
الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والدكوس تعود إلى البياعات بالغلاء لأن
السوق والتجار كلهم يحسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة
أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلًا في قيم البيعات وأثمانها فعظم نفقات أهل
الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من
آثر العوائد وطاعتها وتدب بكاسيهم كلها في النفقات ويتابعون في الإملاق
والخاصة ويغلب عليهم الفقر ويقبل المستأمن للمبائع فيكسد الأسواق ويفسد
حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة
على العموم في الأسواق والعمران وأما ساد أهلها في ذاتهم واحدًا واحدًا على الخصوص
فإن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بالألوان الشر في تخصيصها وما يعود على
النفس من الضرر بعد تخصيصها بحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق
والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف
النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فجدد أجرياء على

الْكُذْبِ وَالْمُقَامَرَةِ وَالْعَشِّ وَالْخِلَابَةِ وَالسَّرِقَةِ وَالنَّجْوَرِ فِي الْإِيمَانِ وَالزُّبَانِ فِي الْبَيَاعَاتِ
 ثُمَّ تَجِدُهُمْ أَبْصَرَ بِطُرُقِ الْفُسْقِ وَمَذَاهِبِهِ وَالنَّجَاهَةِ بِهِ وَبِدَوَاعِيهِ وَأَطْرَاحِ الْحِشْمَةِ
 فِي الْخَوْضِ فِيهِ حَتَّى بَيْنَ الْأَقْرَابِ وَذَوِي الْحَرَامِ الَّذِينَ تَقْتَضِي الْبِدَاؤَ الْحَيَاءُ مِنْهُمْ
 فِي الْإِقْدَاعِ بِذَلِكَ وَتَجِدُهُمْ أَيْضًا أَبْصَرَ بِالْمَكْرِ وَالْخُدَيْعَةِ يَدْعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَهُمْ
 مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تِلْكَ الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخَلْقًا
 لَا كَثْرَهُمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَيَمُوجُ بَحْرُ الْمَدِينَةِ بِالسَّنَلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ
 وَبِجَارِهِمْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ نَاشِئَةِ الدُّوَلَةِ وَوُلْدَانِهِمْ مِمَّنْ أَهْمِلَ عَنِ التَّأْدِيبِ وَعَلَبَ عَلَيْهِ
 خَلْقُ الْجَوَارِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ أَنْسَابٍ وَبُيُوتَاتٍ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ بَشَرٌ مُتَمَاثِلُونَ وَإِنَّمَا
 تَنَاضَلُوا وَتَمَيَّزُوا بِالْخَلْقِ وَأَكْتَسَابِ الْفَضَائِلِ وَأَجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ فَمَنْ اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ
 لَمْ يَنْفَعَهُ زَكَاةُ نَسَبِهِ وَلَا طَيْبُ مَنْتَبِهِ وَإِنَّمَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ أَعْقَابِ الْبُيُوتِ وَذَوِي
 الْأَحْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ مُنْطَرِحِينَ فِي الْعُمَارِ مُنْتَحِلِينَ لِلْجُرْفِ الدَّنِيئَةِ فِي
 مَعَاشِهِمْ بِمَا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِبْغَةِ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ
 فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْأُمَّةِ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِجَرَابِهَا وَانْقَرَضَ بِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
 نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا وَوَجَّهَهُ حِينَئِذٍ
 أَنْ مَكَاسِبِهِمْ حِينَئِذٍ لَا تَبْقَى بِجَاجَاتِهِمْ لِكثْرَةِ الْعَوَائِدِ وَمُطَابَقَةِ النَّفْسِ بِهَا فَلَا تَسْقِيمُ
 أَحْوَالُهُمْ وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ وَاحِدًا وَاحِدًا اخْتَلَّ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ
 وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرَسُ النَّارَنِجِ
 تَأَذَّنَتْ بِالْجُرَابِ حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْعَامَّةِ يَتَحَامَى غَرَسُ النَّارَنِجِ بِالدُّورِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ
 ذَلِكَ وَلَا أَنَّهُ خَاصِيَّةٌ فِي النَّارَنِجِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَاجْرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ
 تَوَابِعِ الْحِضَارَةِ ثُمَّ إِنَّ النَّارَنِجَ وَاللَّيَّةَ وَالسَّرْوَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنْفَعَةَ
 هُوَ مِنْ غَايَةِ الْحِضَارَةِ إِذْ لَا يَقْصَدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينَ إِلَّا أَشْكَالَهَا فَقَطْ وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ
 التَّنْفِيزِ فِي مَذَاهِبِ التَّرْفِ وَهَذَا هُوَ الطُّورُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَالِكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ كَمَا
 قُلْنَا هُوَ وَلَقَدْ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدِّفْلِيِّ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِذِ الدِّفْلِيُّ لَا يَقْصَدُ بِهَا إِلَّا
 تَلَوْنُ الْبَسَاتِينَ بِنُورِهَا مَا بَيْنَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرْفِ وَمِنْ مَفَاسِدِ
 الْحِضَارَةِ لِأَنَّهَا فِي الشَّهَوَاتِ وَالْإِسْرَسَالِ فِيهَا لِكثْرَةِ التَّرْفِ فَيَقَعُ التَّنْفِيزُ فِي شَهَوَاتِ

الْبَطْنِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَلَاذِ فَيُفْضِي ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ النَّوعِ فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَأَعْتَبَرَهُ بِهِ
 أَنَّ غَايَةَ الْعُمُرَانِ هِيَ الْخِضَارَةُ وَالتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ انْقَلَبَ إِلَى الْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي
 الْهَرَمِ كَالْأَعْدَارِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ بَلْ نَقُولُ إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْخَاصَّةَ مِنَ الْخِضَارَةِ وَالتَّرَفِ
 هِيَ عَيْنُ الْفَسَادِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِاِقْتِدَارِهِ عَلَى جَنْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِهِ
 وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَالْحَضْرِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مِبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِذَا عَجَزَ لِمَا
 حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّعَةِ أَوْ تَرَفًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّرَبِيِّ فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَكَلَا الْأَمْرَيْنِ
 ذَمِيمٌ وَكَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْمَضَارِّ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذَلِكَ وَالْحَضْرِي بِمَا
 قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ الْإِنْسَانِ بِالتَّرَفِ وَالتَّعِيمِ فِي قَهْرِ التَّأْدِيبِ فَيُؤْتِي بِذَلِكَ عِيَالًا عَلَى الْحَامِيَةِ
 الَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا عَالِمًا بِمَا فَسَدَتْ مِنْهُ الْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ
 النَّفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِّ النَّادِرِ وَإِذَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ
 عَلَى أَخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخًا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَبِهَا الْإِعْتِبَارُ كَانَ
 الَّذِينَ يَتَرَبَّوْنَ عَلَى الْخِضَارَةِ وَخُلُقِهَا مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِضَارَةَ هِيَ
 سُنُّ الْوُقُوفِ لِعُمُرِ الْعَالَمِ فِي الْعُمُرَانِ وَالِدَوْلَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ
 لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنِ شَأْنٍ

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تحرب بحراب الدولة وانقراضها
 قَدْ اسْتَقْرَبْنَا فِي الْعُمُرَانِ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا اخْتَلَّتْ وَانْتَقَضَتْ فَإِنَّ الْمِصْرَ الَّذِي
 يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمُرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي انْتِقَاضِهِ إِلَى الْخُرَابِ وَلَا يَكَادُ
 ذَلِكَ يَتَخَلَّفُ وَالسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ الْأَوَّلُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَا بَدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ الْمُقْتَضِيَةِ
 لِلتَّجَارِي فِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَابْتِدَاءً عَنِ التَّحَدُّقِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ الْجَبَايَةِ وَالْمَغَارِمِ
 الَّتِي مِنْهَا مَادَةُ الدَّوْلَةِ فَتَقُلُّ الْفَتَقَاتُ وَيَقِلُّ التَّرَفُ فَإِذَا صَارَ الْمِصْرُ الَّذِي كَانَ كُرْسِيًّا
 لِلْمَلِكِ فِي مَلَكَتِهِ هَذِهِ الدَّوْلَةُ الْمُتَجَدِّدَةَ وَنَقَصَتْ أحوالُ التَّرَفِ فِيهَا نَقَصَ التَّرَفُ
 فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ لِأَنَّ الرِّعَايَا تَبِعَ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ الدَّوْلَةِ
 أَمَا طَوْنًا لِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتَّبِعِيهِمْ أَوْ كُرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ الدَّوْلَةِ
 مِنَ الْإِنْتِبَازِ عَنِ التَّرَفِ فِي جَمِيعِ الْأحوالِ وَقَلَّةِ الْفَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مَادَةُ الْعَوَائِدِ فَتَقْصُرُ

لتلك حضارة المصّر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب
 المصّر . الأمر الثاني أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وإنما
 يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر
 أحدهما على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتنافسين يذهب بالمنافي
 الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكراً عند أهل الدولة ومستبشعةً وفيحةً
 وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج
 عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصود الحضارة
 الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصّر . الأمر الثالث أن كل أمة لا
 يد لهم من وطن وهو منشأهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً
 للأول وأمصاره تابعة لامصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط
 الكرسي نخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن
 مكان الكرسي الأول وهوى أئدة الناس من أجل الدولة والسطان فينتقل إليه
 العمران ويخف من مصّر الكرسي الأول والحضارة إنما هي توفّر العمران كما
 قدمناه فتتقصّ حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسجوقية في عدولهم
 بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة
 والبصرة ولبنو العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبنو مرّين بالغرب في
 العدول عن مراكن إلى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصّر
 يحلّ بعمران الكرسي الأول . الأمر الرابع أن الدولة الثانية لا بد فيها من تبع
 أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى فطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة
 وأكثر أهل المصّر الكرسي أشياع الدولة إما من الحامية الذين نزلوا به أول
 الدولة أو أعيان المصّر لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم
 بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شعبة لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم
 بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة نحو آثار الدولة السابقة فينقلهم
 من مصّر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب
 والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في

مِصْرَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا الْبَاعَةَ وَالْمَمْلُوكَةَ مِنْ أَهْلِ الْفَلَاحِ وَالْعِبَارَةِ وَسَوَادِ الْعَامَةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ
 حَامِيَةً وَأَشْيَاعَهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ الْمِصْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ الْمِصْرِ أَعْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ
 سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمَرَانِهِ ثُمَّ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمَرَانُ آخَرَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ
 الْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلُ فِيهِ حِضَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدَرِ الدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمِثَابَةِ مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى
 أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَأَظْهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ
 وَيَقْتَرِحُهُ فَيَخْرُبُ ذَلِكَ الْبَيْتَ ثُمَّ بَعِيدٌ بِنَاءُهُ ثَانِيًا وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي
 هِيَ كُرْسِيُّ الْمَلِكِ وَشَاهِدَانَاهُ وَعَلِمَانَاهُ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ
 فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمَلِكَ لِلْعُمَرَانِ بِمِثَابَةِ الصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ وَهُوَ الشَّكْلُ الْخَافِظُ
 بِنَوْعِهِ لَوْجُودِهَا وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُنَّ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ
 فَالدَّوْلَةُ دُونَ الْعُمَرَانِ لَا تُتَصَوَّرُ وَالْعُمَرَانُ دُونَ الدَّوْلَةِ وَالْمَلِكُ مُتَعَدِّثٌ بِمَا فِي طَبَاعِ
 الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ الدَّاعِي إِلَى الْوِزَاعِ فَتَتَمَعَّنُ السِّيَاسَةُ لِذَلِكَ إِمَّا الشَّرْعِيَّةَ أَوِ الْمَلِكِيَّةَ
 وَهُوَ مَعْنَى الدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَا فَاخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي اخْتِلَالِ الْآخَرِ
 كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَالْخَلْلُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلْلِ الدَّوْلَةِ الْكَلِمَةِ
 مِثْلَ دَوْلَةِ الرُّومِ أَوِ الْفَرَسِ أَوِ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ بِنِي أَمِيَّةٍ أَوْ بِنِي الْعَبَّاسِ كَذَلِكَ
 وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الشَّخْصِيَّةُ مِثْلَ دَوْلَةِ الْأَنْشُرِيَّةِ أَوْ هُرْفَلِ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوْ
 الرَّشِيدِ فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمَرَانِ حَافِظَةٌ لَوْجُودِهِ وَبِقَائِهِ وَقَرِيبَةٌ الشَّبَهِ بَعْضُهَا
 مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرٌ اخْتِلَالُ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالْحَقِيقَةِ الْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ الْعُمَرَانِ إِنَّمَا
 هِيَ الْعَصَبِيَّةُ وَالشُّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمْرَةٌ عَلَى أَشْخَاصِ الدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا
 عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثِّرَةٌ فِي الْعُمَرَانِ ذَهَبَتْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَعَظُمَ الْخَلْلُ كَمَا
 قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا لِمَا فِي طَبِيعَةِ
 الْعُمَرَانِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ الْأَعْمَالِ يَخْتَصُّ بِبَعْضِ أَهْلِ الْمِصْرِ فَيَقُومُونَ عَلَيْهِ
 وَيَسْتَبْصِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَحْتَصُونَ بِوُظُفَتِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُمُومِ

البلوى به في المصير والحاجة إليه وما لا يستدعي في المصير يكون غفلاً إذ لا فائدة
لمنتحلته في الاعتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصير
كالخياط والحداد والنجار ومثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد
في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج
والصانع والدهان والطباخ والصنار والفراس والدباج ومثال هذه وهي متفاوتة
وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع
فتوجد بذلك المصدرون غيره ومن هذا الباب الحمايات لأنها إنما توجد في الأمصار
المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التعمم ولذلك
لا تكون في المدن المتوسطة وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيحفظها
ويجري أحوالها إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب
وتفر عنها القومة لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض
من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب
واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون بالنسب وأنه تحصل به العصبية بعضاً ما
تحصل بالنسب وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالضر ينجذب بعضهم بعضاً إلى
أن يكونوا حمماً حمماً وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصدقة ما يكون بين
القبائل والعشائر مثله فيفترون شيعاً وعصائب فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل
الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم
ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنسوس بطباعها متطاوله إلى الغلب
والرئاسة فطمح المشيخة لخلاء الجوّ من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد
وينازع كل صاحب ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيع والأحلاف ويتبدلون
ما في أيديهم للأوغاد والأوساب فيعضو صب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف
على أكتافه ليقص من أعتهم ويتبعهم بالقتل أو التعريب حتى يخضع منهم الشوكات
الدافذة ويقلم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكاً

بِرُؤْيُهِ عَقِبَهُ فَيَحْدُثُ فِي ذَلِكَ الْمَلِكِ الْأَصْغَرَ مَا يَحْدُثُ فِي الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ مِنْ عَوَارِضِ
 الْحِدَّةِ وَالْبَهْرَمِ وَرُبَّمَا يَسْمُو بَعْضُ هَؤُلَاءِ إِلَى مَنَازِعِ الْمُلُوكِ الْأَعَاظِمِ أَصْحَابِ الْقَبَائِلِ
 وَالْعَشَائِرِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَالزُّحُوفِ وَالخُرُوبِ وَالْأَفْطَارِ وَالْمَمَالِكِ فَيَنْتَحِلُونَ بِهَا مِنَ الْجُلُوسِ
 عَلَى السَّرِيرِ وَاتِّحَاذِ الْأَلَةِ وَإِعْدَادِ الْمَوَائِكِ لِلسَّيْرِ فِي أَفْطَارِ الْبَلَدِ وَالنَّخْمِ وَالْحُسْبِيَّةِ
 وَالخَطَابِ بِالْتَّمْوِيلِ مَا يَسْتَحْرِ مِنْهُ مَنْ يَشَاهِدُ أَحْوَالَهُمْ لِمَا أَنْتَحَلُوهُ مِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ الَّتِي
 لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ إِنَّمَا دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقْلُصُ الدَّوْلَةِ وَالنِّجَامِ بَعْضُ الْقَرَابَاتِ حَتَّى صَارَتْ عَصَبِيَّةً
 وَقَدْ يَنْزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَجْرِي عَلَى مَذْهَبِ السَّدَاجَةِ فِرَارًا مِنَ التَّعْرِيزِ بِنَفْسِهِ لِلشُّخْرِيَّةِ
 وَالْعَبْتِ وَقَدْ وَقَعَ هَذَا بَأْفْرِ بَقِيَّةِ لِهْدِ الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجُرَيْدِ
 مِنْ طَرَابُلُسَ وَقَائِسَ وَتُؤزَّرَ وَنَفْطَةَ وَقَفْصَةَ وَبُسْكِرَةَ وَالزَّابِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ سَمَوْا إِلَى
 مِثْلِهَا عِنْدَ تَقْلُصِ ظِلِّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مِنْدُ عَقُودِ مِنَ السَّنِينَ فَاسْتَعْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ
 وَاسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْحَيَاةِ وَأَعْطَوْا طَاعَةً مَعْرُوفَةً وَصَفَقَةً
 مُمْرَضَةً وَأَقْطَعُوهَا جَانِبًا مِنَ الْمَلَانِيَّةِ وَالْمَلَاظِفَةِ وَالْإِنْقِيَادِ وَهُمْ بِمَعَزِلِ عَنْهُ وَأُورُثُوا
 ذَلِكَ أَعْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَحَدَثَ فِي خَلْفِهِمْ مِنَ الْغَلْظَةِ وَالتَّجْبُرِ مَا يَحْدُثُ لِأَعْقَابِ الْمُلُوكِ
 وَخَلْفِيهِمْ وَنَظَّمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ السَّلَاطِينِ عَلَى قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوقَةِ حَتَّى نَحَا ذَلِكَ
 مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَأَنْتَزَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَرُ فِي
 أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَاسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجُرَيْدِ
 أَهْلُهَا وَاسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَتَّى انْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُؤَحِّدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ
 بِنُ عَلِيٍّ وَتَقْلَهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ بِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَنَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ أَثَارَهُمْ كَمَا
 نَذَرُ فِي أَخْبَارِهِ وَكَذَا وَقَعَ بِسَبْتَةِ لِآخِرِ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ
 غَالِبًا فِي أَهْلِ السَّرَوَاتِ وَالْبَيْوَاتِ الْمُرْتَشِحِينَ لِلْمَشِيخَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِي الْحَضَرِ وَقَدْ يَحْدُثُ
 التَّغْلِبُ لِبَعْضِ السَّفَلَةِ مِنَ الْغَوْغَاءِ وَالدهمَاءِ وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ وَاللِّجَامُ بِالْأَوْعَادِ
 لِأَسْبَابِ يَجْرُمَا لَهُ الْمَقْدَارُ فَيَتَغْلَبُ عَلَى الْمَشِيخَةِ وَالْعَلِيَّةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْعَصَابَةِ وَاللَّهُ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثاني والعشرون

في لغات اهل الامصار

اعلم ان لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجليل الغالين عليها او
 النحطيين لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالشرق والغرب لهذا
 العهد عربية وان كان اللسان العربي المضرى قد فسدت ملكته وتغير اعزابه
 والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامة والدين والملة صورة
 للوجود للملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والدين انما يستفاد من
 الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى
 اللسان العربي من الالسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه
 عن بطانة الاعاجم وقال انها خب ابي مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية
 وكان لسان القانمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان
 الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام
 وطاعة العرب وهجر الامة لغاتهم ولسنتهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان
 العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسن
 العجمية دخيلة فيها وعربية ثم فسدت اللسان العربي بمخالطتها في بعض احكامه وتغير
 واخره وان كان بقي في الدلالات على اصله وسمي لسانا حضريا في جميع امصار
 الاسلام وايضا فاكثرت اهل الامصار في الملة لهذا العهد من اعقاب العرب المالكين
 لها الهالكين في ترها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا ارضهم وديارهم واللغات
 متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الاباء وان فسدت احكامها بمخالطة
 الاعجم شيئا فشيئا وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف
 لغة البدو من العرب فانها كانت اعزق في العروبية ولما تملك العجم من الديلم
 والسجوقية بعدهم بالشرق وزانته والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء
 على جميع الممالك الاسلامية فسدت اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه
 من عنابة المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وسار ذلك مرجحا
 لبقاء لغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا بالامصار فلما ملك التتر

وَالْمَعُولُ بِالْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَرْجِحَ وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ
 الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ
 وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الْهِنْدِ وَالسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الشِّمَالِ وَبِلَادِ الرُّومِ وَذَهَبَتْ
 أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الشَّعْرِ وَالْكَلَامِ الْإِقْلَائِيَّ يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِالْقَوَانِينِ
 الْمَتَدَارِسَةِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَحَنِظَ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِذَلِكَ وَرُبَّمَا بَقِيَتْ
 اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَضْرِيَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ بِالْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الدِّينِ طَلَبًا لَهَا
 فَأُحْفِظَتْ بَعْضُ الشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ
 حَتَّى إِنْ كُتِبَ الْعُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِسُهُ فِي الْعَجَالِسِ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الخامس

من الكتاب الاول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله
 من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويموته في حالته واطواره من لدن نشوئه
 الى اشده الى كبره والله الغني وانتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للانسان
 وامن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال خلق لكم ما في السموات وما في الارض جميعا
 منه ومخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من شواهد يد
 الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وايدي البشر منتشرة
 فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الاخر الا يعوض فالانسان متى
 اقتدر على نفسه وتجاوز الضعفت سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها
 في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعواض عنها قال الله تعالى فابتغوا عند الله

الرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطَرِ الْمُصْلِحِ لِلزَّرَاعَةِ وَآمَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا
تَكُونُ مُعَيَّنَةً وَلَا بَدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكْسَبُ مَعَاشًا إِنْ
كَانَتْ بِمَقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ وَرِيَاشًا وَمُتَمَوْلًا إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ إِنْ ذَلِكَ
الْحَاصِلِ أَوْ الْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنَعَتْهُ عَلَى الْعَبْدِ وَحَصَّتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِتْقَانِهِ فِي مَصَالِحِهِ
وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَلِكَ رِزْقًا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ
فَأَنْفَيْتَ أَوْ لَبِيتَ فَأَبَيْتَ أَوْ نَصَدَقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ
وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَالِكِ رِزْقًا وَالْمَتَمَلِّكَ مِنْهُ حَيْثُ يُدْعَى بِسَعْيِ الْعَبْدِ
وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْبًا وَهَذَا مِثْلُ التَّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْهَالِكِ كَسْبًا وَلَا يُسَمَّى
رِزْقًا إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مَنْتَفِعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى انْتَبَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقًا هَذَا حَقِيقَةٌ
سُمِّيَ الرِّزْقُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ اشْتَرَطَ الْمُعْتَزِلُ فِي تَسْمِيَتِهِ رِزْقًا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ
يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ وَمَا لَا يَتَمَلَّكَ عِنْدَهُمْ لَا يُسَمَّى رِزْقًا وَأَخْرَجُوا الْعُصُوبَاتِ وَالْحَرَامَ كُلَّهُ
عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقًا وَاللَّهُ تَعَالَى بِرِزْقِ الْعَاصِبِ وَالظَّالِمِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ
بِرَحْمَتِهِ وَهُدَايَتِهِ مِنْ يَسَاءٍ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجْجٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعٌ بَسْطِهَا ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ
الْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالسَّعْيِ فِي الْاِئْتِنَاءِ وَالْقَصْدِ إِلَى التَّحْصِيلِ فَلَا بَدَّ فِي الرِّزْقِ مِنْ
سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاوُلِهِ وَابْتِغَائِهِ مِنْ وَجْهِهِ قَالَ تَعَالَى فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَالسَّعْيَ
إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْهَامِ فَالْكَفْلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا بَدَّ مِنَ الْأَعْمَالِ
الْإِنْسَانِيَةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوْلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلًا بِنَفْسِهِ مِثْلَ الصَّنَاعِ نَظَاهِرُ
وَإِنْ كَانَ مُقْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانَ وَالذَّبَابِ وَالِدَعْدِينِ فَلَا بَدَّ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا
تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ انْتِفَاعٌ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْحَجَرَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قِيَمَةً اِكْتُلُ مَتَمَوْلٍ وَهُمَا الذَّخِيرَةُ وَالْقَنِيَةُ لِأَهْلِ الْعَالَمِ فِي الْعَالِيَةِ
وَإِنْ أَقْتَنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَأِنَّمَا هُوَ الْقَصْدُ تَحْصِيلُهُمَا بِمَا يَقَعُ فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالِهِ
الْأَسْوَاقِ الَّتِي هُمَا عَنْهَا يَهْزَلُ فَعَمَّا أَصْلُ الْمَكْسَبِ وَالْقَنِيَةِ وَالذَّخِيرَةَ وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا
كُلُّهُ فَاعْلَمْ أَنَّ مَا يَفِيدُهُ الْإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ الْمَتَمَوْلَاتِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّنَائِعِ
فَالْمَقْدَارُ الْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيَمَةُ عَمَلِهِ وَهُوَ الْقَصْدُ بِالْقَنِيَةِ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَلَيْسَ
بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ الْقَنِيَةُ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ الْبَيْعَةِ وَالْحَيَاكَةِ

مَعَهَا الْخَشَبُ وَالْغَزْلُ إِلَّا أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرُ فَعِيْمَتُهُ أَكْثَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ
الصَّنَاعِ فَلَا بُدَّ مِنْ قِيْمَةِ ذَلِكَ الْمَقَادِرِ وَالْقَنِيَةِ مِنْ دُخُولِ قِيْمَةِ الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ
بِهِ إِذْ لَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْضَلْ قِنِيَتُهَا وَقَدْ تَكُونُ مَلَا حِظَةَ الْعَمَلِ ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا
فَتَجْعَلُ لَهُ حِصَّةً مِنَ الْقِيْمَةِ عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ وَقَدْ تَخْفَى مَلَا حِظَةَ الْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْعَارِ
الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ أَعْتَبَارَ الْأَعْمَالِ وَالنَّفَقَاتِ فِيهَا مَلَا حِظُ فِي أَسْعَارِ الْحُبُوبِ كَمَا
قَدَّمْنَاهُ لِكِنَّهُ خَفِيَ فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي عِلَاجُ الْفَلْحِ فِيهَا وَمَوْتُهُ بِسِيرَةٍ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا
الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْحِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمَقَادِرَ وَالْمَكْتَسِبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا هِيَ
تِيْمُ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ وَتَبَيَّنَ مَسْمَى الرَّزْقِ وَأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِهِ فَقَدَّ بَانَ مَعْنَى الْكَسْبِ
وَالرَّزْقِ وَشَرَحَ مَسْمَاهَا وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا فَقَدْتَ الْأَعْمَالَ أَوْ قَلْتَ بِانْتِقَاصِ الْعُمُرَانِ
تَأْذَنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْكَسْبِ الَّتِي تَرَى إِلَى الْأَمْصَارِ الْقَلِيلَةِ السَّاكِنِ كَيْفَ يَقْلُ الرِّزْقُ
وَالْكَسْبُ فِيهَا أَوْ يُفْقَدُ لِقَلَّةِ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي يَكُونُ عُمُرَانُهَا
أَكْثَرَ يَكُونُ أَهْلِهَا أَوْسَعَ أَحْوَالًا وَأَشَدَّ رَفَاهِيَةً كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ نَقُولُ
الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عُمُرَانُهَا إِنَّمَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا حَتَّى أَنْ الْأَنْهَارَ وَالْعِيُونَ
يَنْقَطِعُ جَرِيْمُهَا فِي الْقَفْرِ لَمَّا أَنْ قَوَّرَ الْعِيُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاطِ وَالْإِمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ
بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ فَلَمَّا يَكُنْ إِنْبَاطٌ وَلَا أَمْتِرَاءٌ نَضَبَتْ وَضَارَتْ
بِالْجُمْلَةِ كَمَا يَجْفُ الضَّرْعُ إِذَا تَرَكَ أَمْتِرَاؤُهُ وَأَنْظَرُهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تَعْتَدُ فِيهَا الْعِيُونَ
لِأَيَّامِ عُمُرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا الْخُرَابُ كَيْفَ تَعَوَّرُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَانَتْ لَمْ تَكُنْ وَاللَّهُ
مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

أَعْلَمَ أَنَّ الْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ اتِّبْعَاءِ الرَّزْقِ وَالسَّعْيِ فِي تَحْصِيلِهِ وَهُوَ مَفْعَلٌ مِنْ
الْعَيْشِ كَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَيْشُ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ لَا يَحْضَلُ إِلَّا بِهَيْدِهِ جُعِلَتْ مَوْضِعًا لَهُ عَلَى
طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ ثُمَّ إِنَّ تَحْصِيلَ الرَّزْقِ وَكَسْبَهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ
وَأَنْتِزَاعِهِ بِالْإِقْتِدَارِ عَلَيْهِ عَلَى قَانُونِ مَتَعَارِفٍ وَيُسَمَّى مَغْرَمًا وَجِبَايَةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
مِنْ الْحَيَوَانَ الْوَحْشِيِّ بِأَفْتِرَاسِهِ وَأَخْذِهِ بِرَمِيهِ مِنَ الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ وَيُسَمَّى أَصْطِيَادًا

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فُضُولِهِ الْمُنْصَرَفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي
 مَنَافِعِهِمْ كَاللَّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرِيرِ مِنْ دُوْدِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ
 فِي الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هَذَا كَلَّةً فَالْحَا وَوَأَمَّا
 أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادِّ مَعِينَةٍ وَاسْمَى الصَّنَاعِ مِنْ كِتَابَةِ
 وَنِجَارَةٍ وَخِيَاطَةٍ وَحَيَاكَةِ وَفُرُوسِيَّةٍ وَأَمثال ذلك أَوْ فِي مَوَادِّ غَيْرِ مَعِينَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ
 الْأُمْتِرَاتِ وَالْتَصْرِفَاتِ وَوَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبُضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ
 إِمَّا بِالْتَقَلُّبِ بَهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَأَرْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمَّى هَذَا تِجَارَةً
 فَهَذِهِ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ
 كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِالاحَةِ وَصِنَاعَةٌ فَأَمَّا الْإِمَارَةُ
 فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ نَقَدَّمْ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ
 الْحَبَابِيَّاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَأَمَّا الْفِالاحَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ فَهِيَ وَجُوهُ
 طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ إِمَّا الْفِالاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كَلِمًا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بِسِطَّةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ
 فِطْرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهَذَا تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ
 مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ وَأَمَّا
 الصَّنَاعَةُ فَهِيَ تَأْتِيهَا وَمَتَأَخَّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصْرَفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ
 وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْخِصْرِ الَّذِي هُوَ مَتَأَخَّرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ وَمِنْ هَذَا
 الْمَعْنَى أُسِّبَتْ إِلَى أَدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ
 بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا التِّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعِيَّةً فِي الْكَسْبِ فَالْأَكْثَرُ مِنْ
 طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحْيَلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيَمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ
 لِتَحْصُلِ فَائِدَةٍ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ وَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمُكَاسَبَةَ لِمَا أَنَّهُ
 مِنْ بَابِ الْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذًا لِمَالِ الْغَيْرِ مِجْمَانًا فَلِهَذَا اخْتَصَّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في ان الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمَلِكِ
 الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشَّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ يَعْلَمُ

غناؤه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها
 إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة والملك الأعظم هو ينوع جداولهم وأما ما
 دون ذلك من الخدمة فسيبها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون
 عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق النعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه
 أجراً من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان إذ الثقة
 بكل أحد عجز ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث الذي ينبغي
 في مذهب الرجولية التنزه عنهما إلا أن العوائد تقبل طابع الإنسان إلى ما لوها فهو
 ابن عوائده لا ابن نسيه ومع ذلك فالخديم الذي يستمكن به ويوثق بغنايه كالمفقود
 إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات إما مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل
 بيده وإما بالعكس في أحدهما فقط مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقاً غير
 مضطلع فأما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداً استعماله بوجه إذ
 هو بأضطلاله وثقته غيبي عن أهل الرتب الدينية وتختقر لمثال الأجر من الخدمة
 لا قدره على أكثر من ذلك فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض العموم
 الحاجة إلى الجاه وأما الصنف الثاني وهو ممن ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي
 لعاقل استعماله لأنه يجحف بخدومه في الأمرين معاً فيضيع عليه لعدم الأصطناع
 تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذان الصنفان لا
 يطمع أحد في استعمالهما ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع
 ومضطلع غير موثوق وللتناس في الترتيب بينهما مذهبان ولكل من الترتيبين وجه
 إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضايعه ويحاول على التحرز
 من خيانتة جهده الاستطاعة وأما المضطلع ولو كان مؤمناً فضرره بالتضيق أكثر من
 نفعه فاعلم ذلك واتخذ قانوناً في الاستيكان بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر
 على كل شيء

الفصل الرابع

في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكوز ليس بمعاش طبيعي

اعلم ان كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرسون على استخراج الأموال من

تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَتَبَعُونَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ مَخْتَزَنَةٌ
كُلُّهَا تَحْتَ الْأَرْضِ مَخْتَمٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِطِلَاسِمِ سِحْرِيَّةٍ لَا يَفْضُ خَتَامَهَا ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَتَرَ
عَلَى عِلْمِهِ وَاسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ الْبُخُورِ وَالِدُعَاءِ وَالْقُرْبَانَ فَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِأَفْرِيقَةٍ يَرَوْنَ
أَنَّ الْأَفْرِيقَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذَلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي
الْصُّخْرِ بِالْكَتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّبِيلَ إِلَى اسْتِغْرَاجِهَا وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَشْرِقِ
يَرَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أُمَّمِ الْقَيْطِ وَالرُّومِ وَالْفَرَسِ وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ تُشَبِّهُ حَدِيثَ
خُرَافَةٍ مِنْ أَنْتَهَاءِ بَعْضِ الطَّالِبِينَ لِذَلِكَ إِلَى حَنْزِ مَوْضِعِ الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طَلْسَمَهُ
وَلَا خَبْرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَعْمُورًا بِالرِّيدَانِ أَوْ يُشَاهِدُ الْأَمْوَالَ وَالْجُوهَرَ مَوْضِعَةً
وَالْحَرَسَ دُونَهَا مُنْتَضِينَ سِيُوفِهِمْ أَوْ تَمِيدَ بِهِ الْأَرْضَ حَتَّى يَطْنَهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ
مِنْ الْهَلْدَرِ وَيَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلِبَةِ الرُّبْرِ بِالْمَغْرِبِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ
وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِالْأَوْرَاقِ الْمُتَحَرِّمَةِ الْحَوَاشِي إِمَّا بِخُطُوطٍ مَجْمِيَّةٍ أَوْ
بِمَا تُرْجِمُ بَرَعَمِهِمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ الدِّقَانِ بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَا كَيْهَا
يَتَبَعُونَ بِذَلِكَ الرِّزْقَ مِنْهُمْ بِمَا يَبْعَثُونَهُ عَلَى الْحَفْرِ وَالطَّلَبِ وَيَمُوهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا
حَمَلَهُمْ عَلَى الْأِسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ الْحَاجَةِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكَّامِ وَالْعُقُوبَاتِ وَرَبَّمَا
تَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةً أَوْ غَرِيبَةً مِنَ الْأَعْمَالِ السِّحْرِيَّةِ يَمُوهُ بِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا
بَقِيَ مِنْ دَعْوَاهُ وَهُوَ بِمَعزَلٍ عَنِ السِّحْرِ وَطَرَفِهِ فَتَوَلَّعَ كَثِيرٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ بِجَمْعِ
الْأَيْدِي عَلَى الْأَحْنَفَارِ وَالتَّسْتَرِ فِيهِ بِظُلُمَاتِ اللَّيْلِ مَخَافَةَ الرُّقَبَاءِ وَعُيُونِ أَهْلِ الدُّوَلِ فَإِذَا
لَمْ يَبْعَثُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذَلِكَ إِلَى الْجُهْلِ بِالطَّلَسِمِ الَّذِي خُتِمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ
يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنِ إِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْعَالِبِ زِيَادَةً
عَلَى ضَعْفِ الْعَقْلِ إِنَّمَا هُوَ الْعَجْزُ عَنِ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنْ
التَّجَارَةِ وَالْفَلْحِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَطْلُبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمُتَحَرِّفَةِ وَعَلَى غَيْرِ الْعَجْزِيِّ الطَّبِيعِيِّ مِنْ
هَذَا وَأَمثالِهِ عَجْزًا عَنِ السِّعْيِ فِي الْمَكَاسِبِ وَرُكُونًا إِلَى تَنَاوُلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ
وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَأَكْتِسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوفِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِبْتِغَاءِ ذَلِكَ مِنْ
غَيْرِ وَجْهِهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَجَهْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ ذَلِكَ
لِمَنَالِ الْعُقُوبَاتِ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ زِيَادَةَ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَخُرُوجَهَا

عَنْ حَدِّ النَّهَابَةِ حَتَّى تُقَصِّرَ عَنْهَا وَجُوهَ الْمَكْسَبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَقْبِي بِمَطَالِبِهَا فَإِذَا عَجَزَ
عَنِ الْمَكْسَبِ بِالْعَجْزِ الطَّبِيعِيِّ لَمْ يُجِدْ وَلِجَّةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا التَّمَنِّيَ لَوْجُودِ الْمَالِ الْعَظِيمِ
دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كَلْفَةٍ لِيَقْبِي لَهُ ذَلِكَ بِالْعَوَائِدِ الَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرَهَا فَيُحْرَصُ عَلَى ابْتِغَاءِ ذَلِكَ
وَيَسْعَى فِيهِ جُبْدَهُ وَلِهَذَا فَأَكْثَرَ مِنْ تَرَاهُمْ يَحْرَصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمْ الْمُتَرَفُونَ مِنْ أَهْلِ
الدَّوْلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ الْأَنْصَارِ الْكَثِيرَةِ التَّرَفِ الْمُسْتَعْمَةِ الْأَحْوَالِ مِثْلَ مِصْرَ وَمَا فِي
مَعْنَاهَا فَتُجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُعْرِضِينَ بِابْتِغَاءِ ذَلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمُسَاءَلَةَ الرَّكْبَانِ عَنْ شَوَادِهِ
كَمَا يَحْرَصُونَ عَلَى الْكِيمِيَاءِ هَكَذَا بَلَّغَنِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مَفَاوِضِهِ مِنْ بَلَقُونَهُ مِنْ
طَلَبَةِ الْمَعَارِبِ لَعَلَّهُمْ يَعْتَرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ الْجَبْثَ عَنْ
تَغْوِيرِ الْمِيَاهِ لِمَا يَرُونَ أَنَّ غَالِبَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الدَّفِينَةِ كَلْبَهَا فِي تِجَارَةِ النَّبْلِ وَأَنَّهَا أَكْظَمُ
مَا يَسْتَرُ دَفِينًا أَوْ مُخْتَزِنًا فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ وَيَوْمَهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ الدَّفَاتِرِ الْمُفْتَعَلَةِ
فِي الْإِعْتِدَارِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجَزِيَةِ النَّبْلِ تَسْرًا بِذَلِكَ مِنَ الْكَيْدِ حَتَّى يَحْصَلَ
عَلَى مَعَاشِهِ فَيُحْرَصُ سَامِعٌ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ الْمَاءِ بِالْأَعْمَالِ السَّخِرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ مُبْتِغَاهِ
مِنْ هُدَاهُ كَلْفًا بِشَأْنِ السَّخِرِ مُتَوَارِنًا فِي ذَلِكَ الْقَطْرِ عَنْ أَوْلِيهِ فَعَلُوهُمْ السَّخِرِيَّةَ وَأَنَارَهَا
بِأَقِيمَةٍ بِأَرْضِهِمْ فِي الْبَرَارِيِّ وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِأَخْصَابِهِمْ بِذَلِكَ
وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ قِصِيدَةً يَنْسُبُونَهَا إِلَى حُكْمَاءِ الْمَشْرِقِ تُعْطَى فِيهَا كَيْفِيَّةُ
الْعَمَلِ بِالتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةِ سَخِرِيَّةٍ حَسَبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هَذِهِ

بَا طَالِبًا لِلسَّرِّ فِي التَّغْوِيرِ	إِسْمَعِ كَلَامَ الصِّدْقِ مِنْ خَيْرِ
دَع عَنْكَ مَا قَدْ صَنَفُوا فِي كُتُبِهِمْ	مِنْ قَوْلِ بَهْتَانٍ وَلَقَطِ غُرُورِ
وَأَسْمَعِ لِصِدْقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي	إِنْ كُنْتَ مَحَنًّا لَا يَرَى بِالرُّورِ
فَإِذَا أَرَدْتَ تَعَوُّرَ الْبُئْرِ الَّتِي	حَارَتْ لَهَا الْأُدْهَامُ فِي التَّدْبِيرِ
صَوَّرَ كُصُورَتِكَ الَّتِي أَوْفَقْتَهَا	وَالرَّأْسُ رَأْسُ النَّبْلِ فِي التَّقْوِيرِ
وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْجَبْلِ الَّذِي	فِي الدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ الْبِيرِ
وَيَصْدَرُهُ هَاءٌ كَمَا عَابَتْهَا	عَدَدُ الطَّلَاقِ أَحَدٌ مِنَ التَّكْرِيرِ
وَيَطَأُ عَلَى الطَّاءَاتِ غَيْرَ مَلَامِسِ	مَشِيِ اللَّيْبِ الْكَيْسِ النِّجْرِيِّ
وَيَكُونُ حَوْلَ الْكَلِّ خَطُّ دَائِرِ	تَرْبِيعُهُ أَوَّلَى مِنَ التَّكْوِيرِ

وَأَذْبَحَ عَلَيْهِ الطَّيْرَ وَالطَّحْطُ بِهِ
بِالسَّنْدُرُوسِ وَبِالْبَابَانِ وَمِيعَةٍ
مِنْ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ لَا أَرْزَقُ
وَيَشْدُهُ خِطَّانٌ صُوفٍ أَيْضِي
وَالطَّلُوحُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ بَيْنُوا
وَالْبَدَنُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عَطَارِدٍ
وَأَقْصِدُهُ عُنْبُ الدَّبْحِ بِالتَّبْخِيرِ
وَالْقِسْطُ وَاللِّسْنَةُ بِشَوْبِ حَرِيرٍ
لَا أَخْضَرَ فِيهِ وَلَا تَكْنَدِيرٍ
أَوْ أَحْمَرَ مِنْ خَالِصِ التَّحْمِيرِ
وَيَكُونُ بَدْءُ الشَّمْرِ غَيْرَ مُنِيرٍ
فِي يَوْمِ سَبْتِ سَاعَةِ التَّدْبِيرِ

بِعَنِي أَنَّ تَكُونُ الطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ
تَمْوِيهَاتِ الْمُتَخَرِّفِينَ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَأَصْطِلَاحَاتٌ عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي التَّخْرِفَةَ
وَالكُذْبَ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ الْمَشْهُورَةَ وَالذُّورَ الْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هَذِهِ
وَيَخْتَفِرُونَ الْخَفْرَ وَيَضَعُونَ الْمَطَابِقَ فِيهَا وَالشُّوَاهِدَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفِ كَلْبِهِمْ
ثُمَّ يَقْضُونَ ضَعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصَّحَائِفِ وَيَعْتُونَ عَلَى كِبَرَاءِ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ
وَسُكْنَاهَا وَيُوهَمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ الْمَالِ لَا يَعْبُرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيَطَالِبُونَ بِالْمَالِ لِاشْتِرَاءِ
الْعَقَاقِيرِ وَالْبُخُورَاتِ لِحُلِّ الطَّلَاسِمِ وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ الشُّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعْدَوْهَا هُنَاكَ
بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَغِثُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا
يَشْعُرُ وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ أَصْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يَلْتَسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيُخْفِيَ عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ
فِيمَا يَتَلَوْنَهُ مِنْ حَفَرٍ وَبُخُورٍ وَذَبْحِ حَيَوَانَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عَلَى
الْحَقِيقَةِ فَلَا أَصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرَ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ لِكُنْهَا
فِي حُكْمِ النَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ الْإِتْفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَصْدِ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَمْرٍ تَعَمُّ
بِهِ الْبَلَوَى حَتَّى يَدْخِرَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَتَحْتَمُونَ عَلَيْهَا بِالطَّلَاسِمِ لَا
فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ وَالرَّكَازُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينٌ
الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوْجَدُ بِالْعَثُورِ وَالْإِتْفَاقِ لَا بِالْقَصْدِ وَالطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنْ أَخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ
عَلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةِ فَقَدْ بَالِغٌ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصَبُ عَلَيْهِ الْأَدَلَّةَ وَالْأَمَارَاتِ
لِمَنْ يَبْتَغِيهِ وَيَكْتَسِبُ ذَلِكَ فِي الصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْأَفَاقِ
هَذَا يَنْقُضُ قَصْدَ الْإِخْفَاءِ وَأَيْضًا فَأَفْعَالُ الْعُقُلَاءِ لَا بَدْءَ وَأَنْ تَكُونَ لِعَرَضٍ مَقْصُودٍ
فِي الْإِتْفَاقِ وَمَنْ أَخْتَزَنَ الْمَالِ فَإِنَّهُ يَخْتَزِنُهُ لِوَلَدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤْتِرُهُ وَأَمَّا أَنْ

يَقْصِدُ اخْتِئَاءَهُ بِالْكَلِمَةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْبَلَاءِ وَالْهَلَاكِ أَوْ لِمَنْ لَا يَعْرِفُهُ
بِالْكَلِمَةِ مَعْنَى سِيَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ فَبِهَذَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعُقَلَاءِ بَوَاجِهِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
أَبْنِ أَمْوَالَ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَمَا عَلِمَ فِيهَا مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْوُفُورِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْوَالَ مِنْ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوْاهِرِ وَالْأَمْتَعَةِ إِنَّمَا هِيَ مَعَادِنُ وَمَكَاسِبُ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ
وَالرِّصَاصِ وَسَائِرِ الْعَقَارَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالْعُمَرَانِ يُظَهَرُهَا بِالْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَزِيدُ
فِيهَا أَوْ يُنْقِصُهَا وَمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِأَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ مُتَنَاقِلٌ مُتَوَارِثٌ وَرُبَّمَا أُنْتَقَلَ مِنْ
قَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ وَمِنْ دَوْلَةٍ إِلَى أُخْرَى بِحَسَبِ أَعْرَاضِهِ وَالْعُمَرَانُ الَّذِي يَسْتَدْعِي لَهُ فَإِنْ
نَقَصَ الْمَالُ فِي الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ فَلَمْ يَنْقُصْ بِيَلَادِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجِ وَإِنْ نَقَصَ فِي
مِصْرَ وَالشَّامِ فَلَمْ يَنْقُصْ فِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَإِنَّمَا هِيَ الْأَلَاتُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْعُمَرَانُ
يُوقِرُهَا أَوْ يُنْقِصُهَا مَعَ أَنَّ الْمَعَادِنَ يَدْرِكُهَا الْبَلَاءُ كَمَا يُدْرِكُ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ
وَيُسْرِعُ إِلَى الْوُلُوءِ وَالْجَوْهَرِ الْعَظِيمِ مِمَّا يُسْرِعُ إِلَى غَيْرِهِ وَكَذَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنَّحَاسُ
وَالْحَدِيدُ وَالرِّصَاصُ وَالْقَصْدِيرُ يَبَالِغُ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفَنَاءِ مَا يَذْهَبُ بِأَعْيَانِهَا لِأَقْرَبِ وَقْتِ
وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي مِصْرَ مِنْ أَمْرِ الْمَطَالِبِ وَالْكُذُوبِ فَسَبَبُهُ أَنَّ مِصْرَ فِي مَلَكَةِ الْقُبْطِ
مُنْذُ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُ مِنَ السَّنِينَ وَكَانَ مَوْتَاهُمْ يُدْفَنُونَ بِمَوْجُودِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْجَوْهَرِ وَالْأَلْيَاءِ عَلَى مَذْهَبٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ فَلَمَّا انْقَضَتْ دَوْلَةُ الْقُبْطِ وَمَلَكَ
الْفَرَسُ بِلَادَهُمْ تَقَرُّوا عَلَى ذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ فَكَشَفُوا عَنْهُ فَأَخَذُوا مِنْ قُبُورِهِمْ مَا لَا يُوصَفُ
كَالْأَهْرَامِ مِنْ قُبُورِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهَا وَكَذَا فَعَلَ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَصَارَتْ قُبُورُهُمْ
مَظَنَّةً لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَبْدِ وَيَعْتَرِ عَلَى الدَّفِينِ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْأَوْقَاتِ أَمَّا مَا يَدْفِنُونَهُ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ أَوْ مَا يَكْرُمُونَ بِهِ مَوْتَاهُمْ فِي الدَّفْنِ مِنْ أَوْعِيَةٍ وَتَوَابِيَتْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
مَعْدَةٌ لِذَلِكَ فَصَارَتْ قُبُورُ الْقُبْطِ مِنْذُ آلَافٍ مِنَ السَّنِينَ مَظَنَّةً لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا فَلِذَلِكَ
عَنِ أَهْلِ مِصْرَ بَالْتِمَحُّنِ عَنِ الْمَطَالِبِ لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتِخْرَاجِهَا حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَ ضَرِبَتْ
الْمَكُوسُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرَ الدَّوَلَةِ ضَرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ وَصَدَرَتْ ضَرْبَةً عَلَى مَنْ
يَسْتَعْمَلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَقَمِيِّ وَالْمَهُوسِينَ فَوَجَدَ بِذَلِكَ الْمُتَعَاطُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَطْمَاعِ
الذَّرِيعَةَ إِلَى الْكُشْفِ عَنْهُ وَالذَّرْعَ بِاسْتِخْرَاجِهِ وَمَا حَصَلُوا إِلَّا عَلَى الْخَلْبِيَّةِ فِي جَمِيعِ
مَسَاعِيهِمْ نَعُودًا بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ فَيَحْتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ وَابْتُلِيَ بِهِ أَنْ

يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ فِي طَلَبِ مَعَاشِهِ كَمَا تَعَوَّذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَبَنَصَرَ عَنْ طُرُقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ وَلَا يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِالْمَحَالَّاتِ وَالْمَكَاذِبِ مِنَ الْحِكَايَاتِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للمال

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ صَاحِبَ الْمَالِ وَالْحُظْوَةَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرَ يَسَارًا وَثَرْوَةً مِنْ فَاوِدِ الْجَاهِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ مَخْدُومٌ بِالْأَعْمَالِ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّنْزِلِ وَالْحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ فَالِنَّاسُ مُعِينُونَ لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ مِنْ ضَرُورِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَا لِي فَتَحْصُلُ قِيمَةُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا مِنْ كَسْبِهِ وَجَمِيعِ مَعَاشَاتِهِ أَنْ تُبَدَلَ فِيهِ الْأَعْوَاضُ مِنَ الْعَمَلِ يَسْتَعْمَلُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ فَنَتَوَقَّرُ قِيمَةَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِ فَبِهِ بَيْنَ قِيمَةِ لِلْأَعْمَالِ بِكَتْسِهَا وَقِيمَةِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الضَّرُورَةُ إِلَى إِخْرَاجِهَا فَنَتَوَقَّرُ عَلَيْهِ وَالْأَعْمَالُ لِصَاحِبِ الْجَاهِ كَثِيرَةٌ فَتُقَيِّدُ الْغَنَى لِاقْرَبِ وَقْتٍ وَيَزْدَادُ مَعَ الْأَيَّامِ يَسَارًا وَثَرْوَةً وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ الْإِمَارَةُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبُ مَالٍ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَالِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ سَعْيِهِ وَهُوَ لَا هُمْ أَكْثَرُ التُّجَّارِ وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْجَاهِ مِنْهُمْ يَكُونُونَ أَيْسَرَ بِكَثِيرٍ وَمِمَّا يَشْهَدُ لِنِلكِ أَنَّا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النُّقْمَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ إِذَا اشْتَهَرُوا حَسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ وَأَعْتَقَدَ الْجُمْهُورُ مُعَامَلَةَ اللَّهِ فِي إِزْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالْإِعْتِمَالِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَأَسْرَعَتِ إِلَيْهِمُ الثَّرْوَةُ وَأَضْبَعُوا مِيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنَى إِلَّا مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِيمَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتِ الْمَعُونَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ رَأْيًا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الْأَمْصَارِ وَالْمَدِينِ وَفِي الْبَدْوِ يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الْقَلْبِ وَالتَّجْرِ وَكُلُّهُ هُوَ قَاعِدٌ بِمَنْزِلِهِ لَا يَبْرَحُ مِنْ مَسْكَانِهِ فَيَنْجُو مَالَهُ وَيَعْظُمُ كَسْبُهُ وَيَتَأَثَّلُ الْغَنِيُّ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ وَيَعْجَبُ مَنْ لَا يَفْطَنُ لِهَذَا السِّرِّ فِي حَالِ ثَرْوَتِهِ وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الفصل السادس

في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتملق

وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيمٌ أَعْمَالِهِمْ
وَلَوْ قَدِرَ أَحَدٌ عَطْلٌ عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدَ الْكَسْبِ بِالْكَامِيَةِ وَعَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ
وَشَرَفِهِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْرُ قِيَمَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ ذَلِكَ نُمُو كَسْبِهِ
أَوْ نَقْصَانُهُ وَقَدْ بَيَّنَّا إِنْفَاءً أَنَّ الْجَاهُ يُفِيدُ الْمَالَ لِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ النَّاسِ إِلَيْهِ
بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ
أَوْ مَالٍ عَوْضًا عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْجَاهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ وَتَصِيرُ
تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمَتِهَا أَمْوَالٌ وَتَرَوُهُ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ الْغَنَى وَالْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ
ثُمَّ إِنَّ الْجَاهَ مُتَوَزِعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرْتَّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ بِنْتَهِي فِي الْعُلُوِّ إِلَى
الْمَمْلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ قُوَّتُهُمْ بِدُعَالِيَةٍ وَفِي السُّفْلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ خُرًّا وَلَا نَعْمًا بَيْنَ أَبْنَاءِ
جِنْسِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ حِكْمَةً اللَّهُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشَهُمْ وَتُنَسِّرُ
مَصَالِحَهُمْ وَيَتِمُّ بِقَاوِمِهِمْ لِأَنَّ النَّوْعَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ وَإِنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ
فَقَدْ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَصِحُّ بِقَاوِمِهِمْ ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ
عَلَيْهِ لِحِيلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ النَّوْعِ وَلِمَا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ
إِنَّمَا تَصْدُرُ بِالْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ لَا بِالطَّبْعِ وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الْمَعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا
بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرَهُ بُنَاءُ النَّوْعِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَمِّمِ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي بَقَاءِ هَذَا
النَّوْعِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سَفَرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَعُونَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَاهَ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى
التَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسَلُّطِ بِالْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ
لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْعَدْلِ بِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَعَلَى
أَعْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعِبَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالنَّاتِ وَالثَّانِي
دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وُجُودُ
الْخَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ الْخَيْرُ بِذَلِكَ بَلْ يَقَعُ

عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْبَسِيرِ وَهَذَا مَعْنَى وَقُوعِ الظُّلْمِ فِي الخَلِيقَةِ فَتَنَهُمْ ثُمَّ إِنَّ
 كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَاقِ أَهْلِ العُمَرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مِنْ دُونَهَا مِنْ
 الطَّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِدِي الْجَاهِ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ
 وَيَزِدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَالْجَاهُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلٌ
 عَلَى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ المعَاشِ وَيَتَسَّعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ الطَّبَقَةِ وَالطُّورِ الَّذِي فِيهِ
 صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ الْجَاهُ مُتَسَعًا كَانَ الكَسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيْقًا قَلِيلًا
 فَشَلَّةٌ وَقَاقِدُ الْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ
 سَعِيهِ ذَاهِبًا وَآيِبًا فِي تَنَمُّيَتِهِ كَمَا كَثُرَ التُّجَّارُ وَأَهْلُ الفِلاحَةِ فِي العَالَمِ وَأَهْلُ الصَّنَائِعِ
 كَذَلِكَ إِذَا فَقَدُوا الْجَاهَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى الفَقْرِ
 وَالخُصَاصَةِ فِي الِأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ اليَهُمْ نَزْوَةٌ وَإِنَّمَا يَرْمَقُونَ العَيْشَ تَرْمِيمًا وَيَدْفَعُونَ
 ضَرُورَةَ الفَقْرِ مَدَافِعَةً وَإِذَا نَقَرَّ ذَلِكَ وَأَنَّ الْجَاهَ مُنْفَرِّعٌ وَأَنَّ السَّعَادَةَ وَالخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ
 بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَدْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجَلًا وَأَنَّ بَازِلَهُ مِنْ أَجْلِ المُنْعَمِينَ
 وَإِنَّمَا يَبْدُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَدْلُهُ بِيَدِ عَالِمَةٍ وَعِزَّةٌ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلَى
 خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ العِزِّ وَالْمُلُوكُ وَالِأَفْتَعَدُرُ حُصُولَهُ فَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ
 الخُضُوعَ وَالتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هَذَا الْجَاهِ النُّحْصِلِ لِلسَّعَادَةِ وَالْكَسْبِ وَإِنْ
 أَكْثَرَ أَهْلُ النَّزْوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهَذَا التَّمَلُّقِ وَلِهَذَا نُحْمَدُ الكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِالتَّرْفِعِ
 وَالتَّسَمُّمِ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ الْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي التَّكْسَبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ
 إِلَى الفَقْرِ وَالخُصَاصَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الكِبْرَ وَالتَّرْفِعَ مِنَ الأخْلَاقِ المَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ
 مِنْ تَوْهَمِ الكَمَالِ وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى بَضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالعَالِمِ المُتَجَبَّرِ
 فِي عِلْمِهِ وَالكَاتِبِ العَجِيبِ فِي كِتَابَتِهِ أَوْ الشَّاعِرِ البَلِغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلُّ مُحْسِنٍ فِي
 صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ فَيُحَدِّثُ لَهُ تَرْفِعٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ
 أَهْلُ الأنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طُورِ يُعْبَرُونَ بِهِ بِمَا
 رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ آبَائِهِمْ فِي المَدِينَةِ وَبِتَوَهُمُونَ أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذَلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ
 إِلَيْهِمْ وَوَرِاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مَتَمَسِّكُونَ فِي الحَاضِرِ بِالأَمْرِ المَعْدُومِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ
 الحِيلَةِ وَالبَصْرِ وَالتُّجَّارِ بِالأُمُورِ قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاحْتِياجًا

إِلَيْهِ وَيَجِدُ هَوْلًا الْأَصْنَافَ كُلَّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ الْجَاهِ وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ
هُوَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَيَسْتَصْغِرُونَ مِنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمُ الْفَضْلَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَنْكِفُ أَحَدُهُمْ
عَنِ الْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَهْبًا وَيَحْسِبُ النَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ
إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ
وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْعُيُوبُ وَالْأَحْزَانُ مِنْ نَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ فِي عِنَاءٍ عَظِيمٍ
مِنْ إِجْبَابِ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِيَابَةِ النَّاسِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَحْصُلُ لَهُ الْمَقْتُ مِنَ النَّاسِ لِمَا فِي
طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ النَّالِ وَقُلَّ أَنْ يَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي الْكَمَالِ وَالْتِرْفَعِ عَلَيْهِ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ وَالْأَسْطِلَالَةِ وَهَذَا كُلُّهُ فِي زِمْنِ الْجَاهِ فَإِذَا
فَقَدَ صَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ الْجَاهَ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقْتَهُ النَّاسُ بِهَذَا التَّرْفَعِ وَلَمْ
يَحْصُلْ لَهُ حِظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفُقِدَ الْجَاهُ لِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ
الْمَقْتِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ الْقُعُودِ عَنْ تَعَاهُدِهِمْ وَعَشْيَانِ مَنَازِلِهِمْ فَفَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ
فِي خِصَاصَةٍ وَقَفَرَ أَوْ فُوقَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ وَأَمَّا الثَّرْوَةُ فَلَا تَحْصُلُ لَهُ أَصْلًا وَمِنْ هَذَا اسْتَهْرَبَ
بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْكَمَالَ فِي الْمَعْرِفَةِ مَحْرُومٌ مِنَ الْحِظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رَزَقَ مِنْ
الْمَعْرِفَةِ وَأَفْطِنَ لَهُ ذَلِكَ مِنَ الْحِظِّ وَهَذَا مَعْنَاهُ وَمَنْ خَلِقَ لِشَيْءٍ يُسِرُّ لَهُ وَاللَّهُ الْمَقْدُرُ
لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلَقَدْ يَقَعُ فِي الدُّوَلِ أَضْرَابٌ فِي الْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ الْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ
مِنَ السَّفَلَةِ وَيَنْزِلُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلِيَّةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلِ إِذَا بَلَغَتْ نَهَايَتَهَا
مِنَ التَّعَلُّبِ وَالْأَسْطِلَالِ أَنْفَرَدَ مِنْهَا مَنِيَّتُ الْمَلِكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَسَّسَ مِنْ سِوَاهُمْ
مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبِ دُونَ رَتَبَةِ الْمَلِكِ وَتَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ وَكَانَهُمْ حَوْلُ
لَهُ فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدُّوَلَةُ وَسَخَّحَ الْمَلِكُ تَسَاوَى حَيْثُئِذٍ فِي الْمَنَزَلَةِ عِنْدَ السُّلْطَانِ كُلُّ
مَنْ أُنْتَمَى إِلَى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَأَصْطَنَعَهُ السُّلْطَانُ لِعِنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ
مُهَيِّمَاتِهِ فَجَدَّ كَثِيرًا مِنَ السُّوْفَةِ يَسْعَى فِي التَّقَرُّبِ مِنَ السُّلْطَانِ بِجِدِّهِ وَنُضْحِهِ وَيَنْزَلُفُ
إِلَيْهِ بِوَجْهِ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ الْخُضُوعِ وَالْتِمَاقِ لَهُ وَلِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلُ
نَسَبِهِ حَتَّى يَرْسُخَ قَدَمَهُ مَعَهُمْ وَيَنْظِمَهُ السُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ حِظٌّ عَظِيمٌ
مِنَ السَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ فِي عَدَدِ أَهْلِ الدُّوَلَةِ وَتَاشِئَةُ الدُّوَلَةِ حَيْثُئِذٍ مِنْ أِبْنَاءِ قَوْمِهَا الَّذِينَ
ذَلَّلُوا أَضْغَانَهُمْ وَمَهَدُوا كَنَافَتَهُمْ مُغْتَرِبِينَ بِمَا كَانَ لِأَبَائِهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ لَمْ

تَسْمَعُ بِهِ نَفْسُهُمْ عَلَى السُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِأَثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مَضْمَارِ الدَّوْلَةِ بِسَبَبِهِ
فِيحَقَّتْهُمُ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيَبَاعِدُهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى هَوْلَاءِ الْمُصْطَفِعِينَ الَّذِينَ لَا يَعْتَدُونَ
بِقَدِيمِهِ وَلَا يَدْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرْفَعُ أَيْمَانَهُمْ خُضُوعًا لَهُ وَالتَّحَلُّقُ وَالْإِعْتِمَالُ فِي
غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ الْوُجُوهُ وَالْخُوطَرُ
بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى نَاشِئَةُ الدَّوْلَةِ فِيهَا هُمْ فِيهِ مِنْ
التَّرْفَعِ وَالْإِعْتِدَادِ بِالْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدًا مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِثَارًا لِهَوْلَاءِ
الْمُصْطَفِعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَقْرَضَ الدَّوْلَةَ وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيُّ فِي الدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ
الْمُصْطَفِعِينَ فِي الْغَالِبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبِ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان

ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَالسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ كَمَا قَدَمْتَاهُ قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمَرَانِ عَامَّةً الْبُلُوكَى بِهِ كَانَتْ قِيَمَتُهَا
أَعْظَمَ وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الدِّيْنِيَّةِ لَا تَضُرُّهُمُ الْيَهْمُ عَامَّةً الْخَلْقِ
وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِنْ أَقْبَلِ عَلَى دِينِهِ وَإِنْ أَحْتِجَّ إِلَى الْفِتْيَانِ وَالْقَضَاءِ
فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَضْطِرَّارِ وَالْعُمُومِ يَقَعُ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَوْلَاءِ فِي الْأَكْثَرِ
وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَامِهِمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ
حِظًا مِنَ الرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى التَّخَوُّلِ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ لَا يَسْأَلُوهُمْ بِأَهْلِ
الشُّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ الدِّيْنِ وَالْمَرَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ
عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ الْعُمَرَانِ فَلَا يَبْصَحُ فِي قِسْمِهِمْ إِلَّا الْأَقْلِيلُ وَهُمْ أَيْضًا لَشَرَفِ
بِضَائِعِهِمْ أَعِزَّةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ نَفْسِهِمْ فَلَا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حِظًا
يَسْتَدْرُونَ بِهِ الرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرُغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهَذِهِ الْبِضَائِعِ
الشَّرِيفَةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالْبَدَنِ بَلْ وَلَا يَسْعَهُمْ أَنْبَدَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ
الدُّنْيَا لَشَرَفِ بِضَائِعِهِمْ فَهُمْ بِمَعْرُوفٍ عَنْ ذَلِكَ فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثُرُوتُهُمْ فِي الْغَالِبِ وَقَدْ
بَاحَتْ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ فَانْكُرْ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوْقَ بِيَدِي أَوْ رَاقٍ مَخْزُوقَةٍ مِنْ حِسَابَاتِ الدَّوَابِّ

بِدَارِ الْمَأْمُونِ تَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَكَانَ فِيمَا طَالَعَتْ فِيهِ أَرْزَاقُ
الْقَضَاءِ وَالْأَيْمَةِ وَالْمَوْذَنِينَ فَوْقَ قَفْتِهِ عَلَيْهِ وَعَلِمَ مِنْهُ صِحَّةُ مَا قَلْبُهُ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَضَيْنَا الْعَجَبَ
مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ وَاللَّهُ الْخَالِقُ الْقَادِرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَصِيلٌ فِي الطَّبِيعَةِ وَبَسِيطٌ فِي مَنْحَاهُ وَوَلَدِكَ لَا تَجِدُهُ يَنْتَحِلُهُ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ الْحَضَرِ فِي الْغَالِبِ وَلَا مِنَ الْمُتَرَفِينَ وَيَخْتَصُّ مَنْتَحِلُهُ بِالْمَذَلَّةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَقَدْ رَأَى السُّكَّةَ بَعْضُ دُورِ الْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَةَ الذُّلُّ
وَحَمَلَهُ الْبُخَارِيُّ عَلَى الْأَسْتِكْثَارِ مِنْهُ وَتَرَجَمَ عَلَيْهِ بَابَ مَا يُحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأَشْتِغَالِ
بِالْأَرْضِ أَوْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَالسَّبَبُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ
الْمُفْضِي إِلَى التَّحْكُمِ وَالْيَدِ الْعَالِيَةِ فَيَكُونُ الْغَارِمُ ذَلِيلًا بَالِسًا بِمَا تُنْأَوِلُهُ أَيْدِي
الْقَهْرِ وَالْأَسْتِطَالَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ الزَّرْكَاهُ مَغْرَمًا
إِشَارَةً إِلَى الْمَلِكِ الْعَضُوضِ الشَّامِرِ لِلنَّاسِ الَّذِي مَعَهُ التَّسْلُطُ وَالْجُورُ وَنَسِيَانُ حُتُوقِ اللَّهِ
تَعَالَى فِي الْمَتَمَوْلَاتِ وَاعْتِبَارُ الْحُقُوقِ كُلِّهَا مَغْرَمٌ لِلْمَلُوكِ وَالذُّوُلِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

اعْلَمْ أَنَّ التِّجَارَةَ مُحَاوَلَةٌ الْكَسْبِ بِتَنْمِيَةِ الْمَالِ بِشِرَاءِ السَّلْعِ بِالرُّخْصِ وَيَبِيعُهَا
بِالْغَلَاءِ أَيَّامٌ كَانَتْ السَّلْعَةُ مِنْ دَقِيقٍ أَوْ زَرْعٍ أَوْ حَيْوَانٍ أَوْ قِمَاشٍ وَوَلَدِكَ الْقَدْرُ النَّامِي
يَسْمَى رِبْحًا فَالْمُحَاوَلُ لِنِزَالِ الرِّبْحِ إِمَّا أَنْ يَخْتَزِنَ السَّلْعَةَ وَيَتَحَيَّنَ بِهَا حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ
مِنَ الرُّخْصِ إِلَى الْغَلَاءِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ وَإِمَّا بِأَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ تَنْفَقُ فِيهِ تِلْكَ السَّلْعَةُ
أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا فِيهِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ وَوَلَدِكَ قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ التَّجَّارِ
لِطَلَبِ الْكَشْفِ عَنْ حَقِيقَةِ التِّجَارَةِ أَنَا أَعْلَمُهَا لَكَ فِي كَلِمَتَيْنِ اشْتَرَاءِ الرُّخِصِ وَيَبِيعِ
الْغَالِي فَقَدْ حَصَلَتْ التِّجَارَةُ إِشَارَةً مِنْهُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي قَرَّرْنَاهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العاشر

في اي اصناف الناس يجتري بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها
 قَدْ قَدَمْنَا أَنَّ مَعْنَى التِّجَارَةِ تَنْمِيَةُ الْمَالِ بِشِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةً يَبْعُهَا بِأَعْلَى مِنْ
 تَمَنِ الشِّرَاءِ إِمَّا بِانْتِظَارِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ أَوْ تَقْلِبِهَا إِلَى بَلَدٍ فِيهِ أَنْفَقَ وَأَعْلَى أَوْ يَبْعُهَا
 بِالْغَلَاءِ عَلَى الْأَجَالِ وَهَذَا الرَّبْحُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ الْمَالِ يَسِيرٌ إِلَّا أَنَّ الْمَالَ إِذَا
 كَانَ كَثِيرًا عَظُمَ الرَّبْحُ لِأَنَّ الْقَلِيلَ فِي الْكَثِيرِ كَثِيرٌ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ هَذِهِ
 التَّنْمِيَةِ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمَالِ بِأَيْدِي الْبَاعَةِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَيَبْعُهَا وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي
 تَقَاضِي أَثْمَانِهَا وَأَهْلُ النِّصْفَةِ قَلِيلٌ فَلَا بُدَّ مِنَ الْغَشِّ وَالتَّطْفِيفِ الْمُخْجَفِ بِالْبَضَائِعِ
 وَمِنْ الْمِطْلِ فِي الْأَثْمَانِ الْمُخْجَفِ بِالرَّبْحِ كَمُتْعِطِيلِ الْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَبِهَا نَمَاوُهُ
 وَمِنْ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ الْمُسْحَتِ لِرَأْسِ الْمَالِ إِنْ لَمْ يَتَّقِدْ بِالْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ
 وَعِنَى الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ قَلِيلٌ لِأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الظَّاهِرِ فَيُعَانِي التَّاجِرُ مِنْ ذَلِكَ
 أحوالاً صَعْبَةً وَلَا يَكَادُ يَحْصُلُ عَلَى ذَلِكَ التَّافَهُ مِنَ الرَّبْحِ إِلَّا بِعَظْمِ الْعَنَاءِ وَالْمَشَقَّةِ
 أَوْ لَا يَحْصُلُ أَوْ يَتَلَشَّى رَأْسُ مَالِهِ فَإِنْ كَانَ جَرِيئًا عَلَى الْخُصُومَةِ بَصِيرًا بِالْحَسْبَانِ شَدِيدًا
 الْمُمَاحَكَةِ مُقَدِّمًا عَلَى الْحُكْمِ كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى النِّصْفَةِ بِجُرْأَتِهِ مِنْهُمْ
 وَمُمَاحَكَتِهِ وَإِلَّا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدْرِعُ بِهِ يُوقِعُ لَهُ الْهَيْبَةَ عِنْدَ الْبَاعَةِ وَيَحْمِلُ
 الْحُكْمَ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ مُعَامِلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ النِّصْفَةَ فِي مَالِهِ طَوَعًا فِي الْأَوَّلِ
 وَكُرْهًا فِي الثَّانِي وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِدًا لِلْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ فَاقْدِ الْجَاهِ مِنَ الْحُكْمِ
 فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ الْأَحْتِرَافَ بِالتِّجَارَةِ لِأَنَّهُ يُعْرِضُ مَالَهُ لِلْبُضَائِعِ وَالذَّهَابِ وَيَصِيرُ
 مَا كَلَّةَ الْبَاعَةِ وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي النَّاسِ وَخُصُوصًا الرَّعَاعُ وَالْبَاعَةُ
 شَرُّهُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ سِوَاهُمْ مُتَوَثِّبُونَ عَلَيْهِ وَلَوْلَا وَازِعُ الْأَحْكَامِ لَأَصْبَحَتْ
 أَمْوَالُ النَّاسِ نَهَبًا وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك
 وَذَلِكَ أَنَّ التِّجَارَةَ فِي غَالِبِ أحوالِهِمْ إِنَّمَا يُعَانُونَ الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ

المُكَايَسَةَ ضَرُورَةً فَإِنْ أَقْتَصَرَ عَلَيْهَا أَقْتَصَرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَعْنِي خُلُقَ الْمُكَايَسَةِ
بَعِيدَةٌ عَنِ الْمُرُوءَةِ الَّتِي تَخْلُقُ بِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنْ اسْتَزَدَلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتَّبِعُ
ذَلِكَ فِي أَهْلِ الطَّمَقَةِ السُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ الْمَمَاحِكَةِ وَالْعُشْرِ وَالْخِلَابَةِ وَتَعَاهُدِ الْإِيمَانِ
الْكَاذِبَةِ عَلَى الْإِثْمَانِ رَدًّا وَقَبُولًا فَأَجِدُ بِذَلِكَ الْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ الْمَدَلَّةِ لِمَا
هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرَّئِيسَةِ يَتَحَامُونَ الْأَحْرَافَ بِهَذِهِ الْحَرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يَكْسِبُ
مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكِرَمِ
جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِرِ بَيْنَ الْوُجُودِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكِرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

النَّاجِرُ الضَّيْرُ بِالتَّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ السَّلْعِ إِلَّا مَا تَعْمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْعَنِيِّ وَالْفَقِيرِ
وَالسُّلْطَانِ وَالسُّوْفِيَةِ إِذْ فِي ذَلِكَ نَفَاقٌ سَلْعِيهِ وَأَمَّا إِذَا اخْتَصَّ ثِقَلَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَعْضُ
فَقَطُّ فَقَدْ يَتَعَدَّرُ نَفَاقُ سَاعَتِهِ حِينَئِذٍ بِأَعْوَاظِ الشَّرَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ
فَتَكْسُدُ سَوْفُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ وَكَذَلِكَ إِذَا نَقَلَ السَّلْعَةَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ
الْوَسْطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ الْعَالِيَّ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ السَّلْعِ إِنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الثَّرْوَةِ
وَحَاشِيَةُ الدَّوْلَةِ وَهُمْ الْأَفْلُ وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أُسُورَةً فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطِ مِنْ كُلِّ
صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّرْ ذَلِكَ جُهْدُهُ فِيهِ نَفَاقُ سَاعَةٍ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذَلِكَ نَقْلُ السَّلْعِ مِنَ الْبَلَدِ
الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الطَّرِيقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتَّجَّارِ وَأَعْظَمَ
أَرْبَاحًا وَأَكْفَلَ بِجَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ لِأَنَّ السَّلْعَةَ الْمَنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعُوزَةً
لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا وَيَعْرِضُ وُجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ
غَلَّتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ وَالطَّرِيقُ سَابِلًا بِالْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ
يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْتَخِصُ أَثْمَانُهَا وَلِهَذَا تَجِدُ التَّجَّارَ الَّذِينَ يُولَعُونَ بِالذَّخُولِ إِلَى
بِلَادِ السُّودَانَ أَرْفَهُ النَّاسُ وَأَكْثَرُهُمْ أَمْوَالًا لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَعَارِضِ الْمَفَازَةِ
الصَّعْبَةِ الْخُظْرَةِ بِالْخُوفِ وَالْعَطَشِ لَا يُوْجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَا كُنْ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي
إِلَيْهَا أَدِلَّةُ الرَّكْبَانِ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هَذَا الطَّرِيقِ وَبَعْدَهُ إِلَّا الْأَفْلُ مِنَ النَّاسِ فَتَجِدُ

سَلَعِ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً لَدَيْنَا فَتَخْتَصُّ بِالْعَلَاءِ وَكَذَلِكَ سَاعِنَا لَهُمْ فَنَعْظُمُ بَضَائِعَ الشُّجَارِ
 مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْغَنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الْمَسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا
 إِلَى الْمَشْرِقِ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ أَيْضًا وَأَمَّا الْمُنْتَرِدُونَ فِي أَفْقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبَلَدَانِهِ
 ففَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْبَاحُهُمْ نَافِيَةٌ كَثِيرَةٌ السَّلَعِ وَكَثِيرَةٌ نَافِلِيهَا وَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا اشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَرِ وَالتَّجْرِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ احْتِكَارَ الزَّرْعِ تَحْبِيْنٌ
 أَوْقَاتِ الْعَلَاءِ مَشْهُومٌ وَأَنَّهُ يُعَوِّدُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالتَّلَفِ وَالْخُسْرَانِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ
 النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَرُونَ إِلَى مَا يَبْدُلُونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ اضْطِرَارًا فَتَبَقَى
 النَّفْسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ نَجَانًا وَلَعَلَّهُ
 الَّذِي أُعْتَبِرَهُ الشَّارِعُ فِي اخْتِادِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَجَانًا فَالنَّفْسُ
 مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعُذْرِ فَهُوَ كَالْمُكْرَمِ وَمَا عَدَا الْأَقْوَاتِ
 وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْمَبِيعَاتِ لَا اضْطِرَارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا التَّفَنُّ فِي
 الشَّمَاهَاتِ فَلَا يَبْدُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَحِرْصٍ وَلَا يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أُعْطَوْهُ
 فَلِهَذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِالِاحْتِكَارِ يَجْتَمِعُ الْقَوَى النَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ
 أَمْوَالِهِمْ فَيُفْسِدُ رِيحَهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ فِيمَا يَنَاسِبُ هَذَا حِكَايَةَ ظَرِيفَةٍ عَنْ بَعْضِ
 مَشِيخَةِ الْعَرَبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلِيُّ قَالَ حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِنَاسِ لِعَهْدِ
 السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ الْقَيِّمُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَكَلِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ
 الْأَلْقَابِ الْخُزْنِيَّةَ لِمَجْرَاتِهِ قَالَ فَاطْرُقْ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ مِنْ مَكْسِ الْخَمْرِ فَاسْتَصْحَبَكَ الْخَاضِرُونَ
 مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتِ الْجَبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَامًا
 فَاخْتَارَ مِنْهَا مَا لَا يُتَابَعُهُ نَفْسٌ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قُلٌّ أَنْ يَبْدَلَ فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ
 طَرِبَ مُسْرُورٌ بِوُجُودِهِ غَيْرُ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقٌ بِهِ نَفْسُهُ وَهَذِهِ مِلَاحِظَةٌ غَرِيبَةٌ
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ الصُّدُورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مضر بالمخترفين بالرخص

وَذَلِكَ أَنَّ الْكَسْبَ وَالْمَعَاشَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالصَّنَاعِ أَوْ التَّجَارَةِ
وَالتَّجَارَةِ هِيَ شِرَاءُ البَضَائِعِ وَالسَّلْعِ وَادِّخَارُهَا بِيَحْيَنَ بِهَا حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ بِالزِّيَادَةِ فِي
أَثْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحًا وَيَحْصُلُ مِنْهُ الْكَسْبُ وَالْمَعَاشُ لِلْمُخْتَرِفِينَ بِالتَّجَارَةِ دَائِمًا فَإِذَا
اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي سَاعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مَتَمَوْلٍ عَلَى الْجُمْلَةِ
وَلَمْ يَحْصُلْ لِلتَّاجِرِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ فَسَدَ الرَّبْحُ وَالنَّمَاءُ يَطُولُ تِلْكَ الْمُدَّةَ وَكَسَدَتْ
سُوقُ ذَلِكَ الصَّنِيفِ فَفَعَدَ التَّجَارُ عَنِ السَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ
أَوَّلًا بِالزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَدِيمَ رُخْصُهُ يَفْسُدُ بِهِ حَالُ الْمُخْتَرِفِينَ بِسَائِرِ أَطْوَارِهِ مِنْ
الْفَلْحِ وَالزَّرْعَةِ لِقَلَّةِ الرَّبْحِ فِيهِ وَنَدَارَتِهِ أَوْ فَقْدِهِ فَيَفْقِدُونَ النَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ
يَجِدُونَهُ عَلَى قَلَّةٍ وَيَعُودُونَ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ
إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ فَسَادُ حَالِ الْمُخْتَرِفِينَ أَيْضًا بِالطَّحْنِ وَالتَّحْبِزِ وَسَائِرِ مَا
يَتَعَلَّقُ بِالزَّرْعَةِ مِنَ الْحَرْثِ إِلَى صَبْرُورَتِهِ مَا كُؤُلًا وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ الْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ
أَرْزَاقُهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَهْلِ الْفَلْحِ زَرْعًا فَإِنَّهَا تُنْقَلُ جِبَابَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْجِزُونَ عَنِ
إِقَامَةِ الْجُنْدِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِسَبَبِهَا وَمُطَالَبُونَ بِهَا وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَكَذَا إِذَا
اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي السُّكَّرِ أَوْ الْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَقَعَدَ الْمُخْتَرِفُونَ عَنِ
التَّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا الْمَلْبُوسَاتِ إِذَا اسْتَدِيمَ فِيهَا الرَّخْصُ فَإِذَا الرَّخْصُ الْمَفْرُطُ يُخْجَفُ
بِمَعَاشِ الْمُخْتَرِفِينَ بِذَلِكَ الصَّنِيفِ الرَّخِصِ وَكَذَلِكَ الْغَلَاءُ الْمَفْرُطُ أَيْضًا وَإِنَّمَا مَعَاشُ
النَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي التَّوَسُّطِ مِنْ ذَلِكَ وَسُرْعَةُ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَعَلِمُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى
الْعَوَائِدِ الْمُتَقَرَّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ وَإِنَّمَا يُخْجَفُ الرَّخْصُ فِي الزَّرْعِ مِنْ بَيْنِ الْمَبِيعَاتِ
لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَأَضْطِرَّارِ النَّاسِ إِلَى الْأَقْوَاتِ مِنْ بَيْنِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَالْعَالَةِ مِنَ
الْخَلْقِ هُمْ الْأَكْثَرُ فِي الْعُمَرَانِ فَيَعْمُرُ الرَّفِيقُ بِذَلِكَ وَيُرْجِعُ جَانِبَ الْقَوْتِ عَلَى جَانِبِ
التَّجَارَةِ فِي هَذَا الصَّنِيفِ الْخَاصِّ وَاللَّهُ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الروء ساء وبعيدة من المروءة
 قَدْ قَدَمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ التَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مَعَانَاةِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَجَلِبُ الْفَوَائِدِ
 وَالْأَرْبَاحِ وَلَا بَدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَا حِكْمَةِ وَالتَّخْدَاقِ وَمَا رَسَةَ الْخُصُومَاتِ وَاللِّجَاجِ
 وَهِيَ عَوَارِضُ هَذِهِ الْحَرْفَةِ وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ نَقَصٌ مِنَ الذِّكَاةِ وَالْمَرْوَةِ وَتَجَرَّحٌ فِيهَا لِأَنَّ
 الْأَفْعَالَ لَا بَدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى النَّفْسِ فَأَفْعَالُ الْخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ الْخَيْرِ وَالزُّكَاةُ
 وَأَفْعَالُ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذَلِكَ فَتَتَمَكَّنُ وَتَرْتَسِخُ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْقُصُ
 خِلَالَ الْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ آثَارِهَا الْمَذْمُومَةِ فِي النَّفْسِ شَأْنَ الْمَلِكَاتِ
 النَّاشِئَةِ عَنِ الْأَفْعَالِ وَتَنْفَاوَتْ هَذِهِ الْآثَارُ بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ التُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ
 كَانَ مِنْهُمْ سَافِلَ الطُّورِ مُحَالِفًا لِأَشْرَارِ الْبَاعَةِ أَهْلِ الْغَشِّ وَالْخَلَابَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَمَانِ
 إِفْرَارًا وَإِنْكَارًا كَانَتْ رَدَاءَةٌ تِلْكَ الْخَلْقِ عَنْهُ أَشَدَّ وَغَابَتْ عَلَيْهِ السَّفْسَفَةُ وَبَعْدَ عَنِ
 الْمَرْوَةِ وَآ كِتْسَابِهَا بِالْجُمْلَةِ وَإِلَّا فَلَا بَدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَا حِكْمَةِ فِي
 مَرْوَتِهِ وَفَقْدَانِ ذَلِكَ مِنْهُمْ فِي الْجُمْلَةِ وَوُجُودِ الصَّنِفِ الثَّانِي مِنْهُمْ الَّذِي قَدَمْنَاهُ فِي الْفَصْلِ
 قَبْلَهُ أَنَّهُمْ يَدْرَعُونَ بِالْجَاهِ وَيَعْوِضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ فَهَمْ نَادِرٌ وَأَقْلٌ مِنَ النَّادِرِ
 وَذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ الْمَالُ قَدْ يُوْجَدُ عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعِ غَرِيبٍ أَوْ وَرَثَةً عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ
 بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ تَرْوَةٌ تُعِينُهُ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَتَكْسِبُهُ ظُهُورًا وَشُهْرَةً بَيْنَ أَهْلِ
 عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ وَكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ
 وَيَسْهَلُ لَهُ الْحُكْمُ النَّصْفَةَ فِي حَقُوقِهِمْ بِمَا يُؤَسِّسُونَهُ مِنْ بَرِّهِ وَإِتِّخَافِهِ فَيُعِدُّونَهُ عَنْ
 تِلْكَ الْخَلْقِ بِالْبُعْدِ عَنْ مَعَانَاةِ الْأَفْعَالِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ فَتَكُونُ مَرْوَتُهُمْ أَرْتَسِخَ
 وَأَبْعَدَ عَنِ تِلْكَ الْمُحَاجَاةِ إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ فَإِنَّهُمْ
 يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أَوْلِيَاءِ الْوُكَلَاءِ وَرِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَدْرُونَ
 مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لها من العلم
 اعْلَمُ أَنَّ الصَّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرِ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَيَكُونُهُ عَمَلِيًّا هُوَ جَسْمَانِيٌّ

مَحْسُوسٌ وَالْأَحْوَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ الْمَحْسُوسَةُ فَنَقَلَهَا بِأَنْبَاشِرَةٍ أَوْعَبَ لَهَا وَأَكْمَلَ لِأَنَّ
 الْمُبَاشِرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ أَمُّ فَائِدَةٍ وَالْمَلَكَةُ صِنْفٌ رَاسِخَةٌ تَحْضُلُ
 عَنِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ النَّعْلِ وَتُكْرَرُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرَسِخَ صُورَتُهُ وَعَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ
 تَكُونُ الْمَلَكَةُ وَتَقَلُّ الْمَعْيَنَةُ أَوْعَبُ وَأَمُّ مِنْ نَقْلِ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ
 عَنِ الْخَبَرِ عَلَى قَدَرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةُ الْمُتَعَلِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ ثُمَّ
 إِنَّ الصَّنَاعِعَ مِنْهَا الْبَسِيطُ وَمِنْهَا الْمَرْكَبُ وَالْبَسِيطُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ
 وَالْمَرْكَبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ وَالْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هُوَ الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ
 أَوَّلًا وَلِإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيِّ الَّذِي نَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِيَ عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ
 وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ نَاقِصًا وَلَا يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمَرْكَبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ
 بِالْإِسْتِنْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى التَّدْرِيجِ حَتَّى تَكْمَلَ وَلَا يَحْضُلُ ذَلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَحْضُلُ
 فِي أَرْزَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ خَرُجَ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى النَّعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيمَا
 فِي الْأُمُورِ الصَّنَاعِيَّةِ فَلَا بَدَلَهُ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ وَلِهَذَا تَجِدُ الصَّنَاعِعَ فِي الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ
 نَاقِصَةً وَلَا يُوْجَدُ مِنْهَا إِلَّا الْبَسِيطُ فَإِذَا تَزَايَدَتْ حَضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورَ التَّرَفِ فِيهَا إِلَى
 اسْتِعْمَالِ الصَّنَاعِعِ خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَتَنْقَسِمُ الصَّنَاعِعُ أَيْضًا إِلَى مَا يَخْتَصُّ
 بِأَمْرِ الْمَعَاشِ ضَرُورِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرِ ضَرُورِيٍّ وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ خَاصِيَّةُ
 الْإِنْسَانِ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَاعِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَمِنَ الْأَوَّلِ الْحَيَاكَةِ وَالْحِزَارَةَ وَالنَّجَارَةَ
 وَالْحِدَادَةَ وَمِثَالَهَا وَمِنَ الثَّانِي الْوَرَاقَةَ وَهِيَ مَعَانَاةُ الْكُتُبِ بِالْإِنْتِسَاخِ وَالنَّجْمِيَّةِ وَالغِنَاءِ
 وَالشَّعْرُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَمِثَالُ ذَلِكَ وَمِنَ الثَّلَاثِ الْجُنْدِيَّةِ وَمِثَالُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السابع عشر

في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرتة
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ الْعُمْرَانُ الْحَضْرِيَّ وَاتَّمَدَّنَ الْمَدِينَةُ
 إِنَّمَا هَمَّهُمْ فِي الضَّرُورِيِّ مِنَ الْمَعَاشِ وَهُوَ تَحْضِيلُ الْأَقْوَاتِ مِنَ الْخِطَّةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا
 تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَزَايَدَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ وَوَقَّتْ بِالضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ صَرْفَ الزَّائِدِ
 حِينَئِذٍ إِلَى الْكَمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ ثُمَّ إِنَّ الصَّنَاعِعَ وَالْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ
 حَيْثُ فِكْرُهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْقُوَّةُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالغَدَائِيَّةِ فَهُوَ

مقدم لضرورته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران
البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستجدادة ما يطلب منها بحيث تتوفر
دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا
البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو
جزار وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجددة وإنما يوجد منها بمقدار
الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها وإذا زخر بجزر العمران
وظلت فيه الكمالات كان من جملة التأنيق في الصنائع واستجدادها فكملت
بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من
جزار ودباغ وخرزاز وصانغ وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران
إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات والتأنيق فيها في الغاية وتكون من وجود المعاش
في المضر لمنتجها بل تكون فائدها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف
في المدينة مثل الدهان والصفار والحماشي والطباخ والشعاع والهرايس وعلم الغناء
والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة أنساخ
الكتب وتجليدها وتصحيحها فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة
من الأشغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك وقد يخرج عن الحد إذا كان العمران
خارجاً عن الحد كما بلغنا عن أهل مضر أن فيهم من يعلم الطيور النجم والحمر
الأنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهاهم قلب الأعيان وتعلم الحداء والرقص
والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من
الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مضر والقاهرة
إدام الله عمراتها بالمسلمين

الفصل الثامن عشر

في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امده
والسبب في ذلك ظاهر وهو ان هذه كلها عوائد للعمران والاولان والعوائد انما
ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال
وإذا استحكمت الصبغة عسر نزوعها ولهذا نجد في الامصار التي كانت استبحرت في

الْحِضَارَةَ لَمَّا تَرَاجَعَ عَمْرَانُهَا وَتَنَاقَصَ بَقِيَّتَ فِيهَا أَنَارٌ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا
 مِنَ الْأَمْصَارِ الْمُسْتَحْدَثَةِ الْعُمْرَانَ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغَهَا فِي الْوُفُورِ وَالْمَكْرَزَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا
 لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ الْعُمْرَانَ مُسْتَحْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ بِطُولِ الْأَحْتَابِ وَتَدَاوُلِ الْأَحْوَالِ
 وَتَكَرُّرِهَا وَهَذِهِ لَمْ تَبْلُغِ الْعَالِيَةَ بَعْدُ وَهَذَا كَلِّحَالٍ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ
 فِيهَا رُسُومَ الصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالَهَا مُسْتَحْكِمَةً رَاسِخَةً فِي جَمِيعِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ
 أَمْصَارِهَا كَالْمَبَانِي وَالطَّبِيخِ وَأَصْنَافِ الْغِنَاءِ وَاللَّهْوِ مِنَ الْأَلَاتِ وَالْأَلْوَانِ وَالرَّنْصِ
 وَتَنْصِيدِ الْفُرُشِ فِي الْقُصُورِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ وَالْأَفْضَاعِ فِي الْبِنَاءِ وَصَوْنِ الْإِنِيَّةِ مِنَ
 الْمَعَادِنِ وَالْخَزَفِ وَجَمِيعِ الْمَوَاعِينِ وَإِقَامَةِ الْوَلَائِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَسَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي
 يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرَفُ وَعَوَائِدُهَا فَيَجِدُهَا أَقْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ بِهَا وَنَجِدُ صُنَائِعَهَا مُسْتَحْكِمَةً
 لَدَيْهِمْ فَهُمْ عَلَى حِصَّةٍ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَحِظٌ مُتَمَيِّزٌ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانَ
 عَمْرَانُهَا قَدْ تَنَاقَصَ وَالْكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عَمْرَانَ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْعُدُودِ وَمَا ذَاكَ
 إِلَّا لِمَا قَدَّمَ نَاهُ مِنْ رُسُوحِ الْحِضَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوحِ الدَّوْلَةِ الْأُمُويَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ
 الْقُوطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ الطَّوَائِفِ وَهَلُمَّ جَرًّا فَبَلَغَتْ الْحِضَارَةُ فِيهَا مَبَالِغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قَطْرِ
 الْأَمَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ أَيْضًا لِطُولِ أَمَارِ الدُّوَلِ فِيهَا فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا
 الصَّنَائِعُ وَكَمَلَتْ جَمِيعُ أَصْنَافِهَا عَلَى الْأَسْبِجَادَةِ وَالتَّنْحِيْقِ وَبَقِيَّتْ صِبْغَتُهَا ثَابِتَةً فِي ذَلِكَ
 الْعُمْرَانَ لَا تَفَارِقُهُ إِلَى أَنْ يَنْقَضَ بِالْكَلْبَةِ حَالُ الصَّنِيعِ إِذَا رَسَخَ فِي الثُّبُوبِ وَكَذَا
 أَيْضًا حَالُ تُونِسَ فِيهَا حَصَلَ فِيهَا بِالْحِضَارَةِ مِنَ الدُّوَلِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَالْمَوْحِدِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ وَمَا اسْتَحْكَمَ لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ
 دُونَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا أَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ بِرُسُومِهَا مِنْهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ لِقُرْبِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا
 وَتَرُدُّ الْمَسَافِرِينَ مِنْ قَطْرِهَا إِلَى قَطْرِ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ
 عُسُورًا فَيَنْقَلُونَ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَمُحْكَمِ صُنَائِعِهِمْ مَا يَقَعُ لَدَيْهِمْ مَوْجِعَ الْأَسْتِحْسَانِ
 فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذَلِكَ مُشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ
 لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنِيهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ حِينَ الْجَلَاءِ لِعَهْدِ الْمَائَةِ السَّابِعَةِ وَرَسَخَ
 فِيهَا مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالُ وَإِنْ كَانَ عَمْرَانُهَا لَيْسَ بِمُنَاسِبٍ لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّ الصَّنِيعَةَ
 إِذَا اسْتَحْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَحْوَلُ إِلَّا بِزَوَالِ مَعْلَمِهَا وَكَذَا نَجِدُ بِالْقَيْرَوَانِ وَمَرَاكَشَ وَقَلْعَةَ

أَبْنُ حَمَادٍ أَثَرًا بَاقِيًا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا أَلْيَوْمِ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ الْخُرَابِ
وَلَا يَتَفَنَّ نَ لَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ فَيَجِدُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ أَثَرًا تَدُلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا
كَأَثَرِ الْخَطِّ الْمَسْحُورِ فِي الْكِتَابِ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الفصل التاسع عشر

فِي أَنْ الصَّنَائِعِ إِنَّمَا تَسْجَدُ وَتَكْثُرُ إِذَا كَثُرَ طَالِبُهَا
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْمَعُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ مَجَانًّا لِأَنَّهُ كَسَبُهُ
وَمِنْهُ مَعَاشُهُ إِذْ لَا فَايِدَةَ لَهُ فِي سَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَصْرِفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ
فِيهِ فِي مَضْرُوعِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ وَإِنْ كَانَتْ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا النِّفَاقُ
كَانَتْ حِينَئِذٍ الصَّنَاعَةُ بِمِثَابَةِ السَّاعَةِ الَّتِي تَنْفَقُ سُوقُهَا وَتَجَلِبُ لِلْبَيْعِ فَتَجْتَمِعُ النَّاسُ فِي
الْمَدِينَةِ لِيَتَعَلَّمَ تِلْكَ الصَّنَاعَةَ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشَهُمْ وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ
تَنْفَقْ سُوقُهَا وَلَا يُوجَّهْ قَصْدٌ إِلَى تَعَلُّمِهَا فَاخْتَصَّتْ بِالْتَرَكِ وَفَقِدَتْ لِإِلَهَامِهَا وَلِهَذَا يُقَالُ
عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُ بِمَعْنَى أَنْ صِنَاعَتَهُ هِيَ قِيَمَتُهُ أَيْ
قِيَمَةُ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ وَأَيْضًا فَبُنَا سِرٌّ آخَرَ وَهُوَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَاجِدَتُهَا إِنَّمَا
تَطْلُبُهَا الدَّوْلَةُ فِيهِ الَّتِي تَنْفَقُ سُوقُهَا وَتُوجَّهُ الطَّالِبَاتُ إِلَيْهَا وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ الدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا
يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ الْمَضْرُوعِ فَلَيْسَ عَلَى نَسَبِهَا لِأَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ وَفِيهَا
نَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْقَلِيلُ وَالكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نَسَبِهَا وَاحِدَةٌ فَمَا تَنْفَقُ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرِيًّا
ضَرُورَةً وَالسُّوقَةَ وَإِنْ طَلَبُوا الصَّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلِبُهُمْ بِعَامٍّ وَلَا سُوقُهُمْ بِنَافِقَةٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ

الفصل العشرون

فِي أَنْ الْأَمْصَارَ إِذَا قَارَبَتْ الْخُرَابَ انْتَقَضَتْ مِنْهَا الصَّنَائِعُ
وَذَلِكَ لِمَا بَيْنَنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَسْجَدُ إِذَا أَحْتَجَّ إِلَيْهَا وَكَثُرَ طَالِبُهَا وَإِذَا ضَعُفَتْ
أَحْوَالُ الْمَضْرُوعِ وَآخَذَ فِي الْهَرَمِ بِانْتِقَاضِ عُمْرَانِهِ وَقَلَّتْ سَاكِنَتُهُ تَنَاقَصَ فِيهِ التَّرَفُ وَرَجَعُوا
إِلَى الْأَفْصَارِ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فَتَقَلُّ الصَّنَائِعُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ تَوَابِعِ التَّرَفِ لِأَنَّ
صَاحِبَهَا حِينَئِذٍ لَا يَصِحُّ لَهُ بِهَا مَعَاشُهُ فَيَفِرُّ إِلَى غَيْرِهَا أَوْ يَمُوتُ وَلَا يَكُونُ خَلْفٌ مِنْهُ

فِيذْهَبُ رَسْمُ تِلْكَ الصَّنَائِعِ جُمْلَةً كَمَا يَذْهَبُ النَّقَاشُونَ وَالصُّوَاعُ وَالْكِتَابُ وَالنِّسَاجُ وَأَمْثَلُهُمْ
مِنَ الصَّنَائِعِ لِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَلَا تَزَالُ الصَّنَاعَاتُ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى أَنْ تَضْحَلَ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ وَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

الفصل الحادي والعشرون

في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدُوا عَنِ الْعُمَرَانِ الْخَضِرِيِّ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ
مِنَ الصَّنَائِعِ وَعَبْرَهَا وَالنَّجْمُ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمُ النُّصْرَانِيَّةِ عُدُوَّةُ النَّجْرِ الرَّومِيِّ
أَقْوَمُ النَّاسِ عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْعُمَرَانِ الْخَضِرِيِّ وَأَبْعَدُوا عَنِ الْبَدْوِ وَعُمُرَانِهِ حَتَّى
إِنَّ الْأَيْلَ الَّتِي آدَنَتِ الْعَرَبَ عَلَى التَّوْحُشِ فِي الْفَقْرِ وَالْإِعْرَاقِ فِي الْبَدْوِ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ
بِالْجُمْلَةِ وَمَفْقُودَةٌ مَرَاعِيهَا وَالرِّمَالُ الْمُهَيَّئَةُ لِنَتَاجِجِهَا وَنَهْدًا نَجِدًا أَوْطَانُ الْعَرَبِ وَمَا مَلَكَوهُ
فِي الْإِسْلَامِ قَالُوا الصَّنَائِعُ بِالْجُمْلَةِ حَتَّى تَجَلِبَ إِلَيْهِ مِنْ فِطْرٍ آخَرَ وَانظُرْ بِلَادَ النَّجْمِ
مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَأَرْضَ التُّرْكِ وَأُمَمَ النُّصْرَانِيَّةِ كَيْفَ اسْتَكْرَهَتْ فِيهِمْ الصَّنَائِعُ
وَأَسْتَجْلَبَهَا الْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ وَعَجِمَ الْمَغْرِبُ مِنَ الْبَرْبَرِ مِثْلُ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لِرُسُوخِهِمْ
فِي الْبِدَاوَةِ مِنْذُ أَحْقَابِ مِنَ السَّنِينَ وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ قَلَّةُ الْأَمْصَارِ بِقَطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمَاهُ
فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ لِلذِّكِّ قَائِلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةٍ إِلَّا مَا كُنَّ مِنْ صِنَاعَةِ الصُّوفِ مِنْ
نَسْمِهِ وَالْجُدِّ فِي خَرْزِهِ وَدَبْغِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَحْضَرُوا بَلَّغُوا فِيهَا الْمَبَالِغَ الْعُمُومَ الْبَلْوَى بِهَا
وَكَوْنُ هُدَيْنِ أَعْلَبَ السَّلْعِ فِي فِطْرِهِمْ لَمَّا هُمُ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَقَدْ
رَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِ مِنْذُ مَلِكِ الْأُمَمِ الْأَفْدَمِينَ مِنَ الْفُرْسِ وَالنَّبَطِ وَالْقَبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ
وَيُونَانَ وَالرُّومَ أَحْقَابًا مُتَطَاوِلَةً فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ وَمِنْ جَمَلَتِهَا الصَّنَائِعُ
كَمَا قَدَّمَاهُ فَلَمْ يَبِجْ رَسْمُهَا وَأَمَّا الْبَيْمَنُ وَالْبَحْرَانُ وَعُمَانُ وَالْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَهُ
الْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مَلَكَهَ الْأَقَا مِنَ السَّنِينَ فِي أُمَّمٍ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ وَأَخْتَطُّوا
أَمْصَارَهُ وَمُدُنَهُ وَبَلَّغُوا الْعَايَةَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَحَمِيرَ
مِنْ بَعْدِهِمُ وَالتَّبَاعَةَ وَالْأَذْوَاءَ فَطَالَ أَمَدُ الْمَلِكِ وَالْحَضَارَةِ وَالصَّنَائِعُ صَبَغَتْهَا وَتَوَقَّرَتْ
الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ فَلَمْ تَبَلْ بِلَى الدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمَاهُ فَبَقِيَتْ مُسْتَحْدَةً حَتَّى الْآنَ وَأَخْتَصَّتْ بِذَلِكَ
الْوَطَنِ كَصِنَاعَةِ الْوَشْيِ وَالْعَصَبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْكِ الثِّيَابِ وَالْحَرِيرِ فِيهَا وَاللَّهُ وَارِثُ

الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثاني والعشرون

فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعد في ملكة اخرى
وَمِثَالُ ذَلِكَ الْخِيَاطُ إِذَا أَجَادَ مَلِكَةَ الْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا
يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلِكَةَ النِّجَارَةِ أَوْ الْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأُولَى لَمْ تَسْتَحْكَمْ بَعْدُ وَلَمْ
تَرَسَخْ صِبْغَتُهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَاتِ صِفَاتُ النَّفْسِ وَأَلْوَانُهَا فَلَا تَزْدَحِمُ دَفْعَةً
وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ الْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا لِحُصُولِهَا فَإِذَا
تَلَوَّتِ النَّفْسُ بِالْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ الْفِطْرَةِ ضَعُفَتْ فِيهَا الْاسْتِعْدَادُ بِاللَّوْنِ
الْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَاتِ أضعفَ وَهَذَا بَيْنَ يَشْهَدُ لَهُ الْوُجُودُ
فَقُلْ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا
عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِجَادَةِ حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ مَلَكَتَهُمْ فِكْرِيَّةٌ فُهُمْ يَهْدِيهِ
الْمَثَابَةَ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَاتٍ مِنْ الْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلْ أَنْ يَجِيدَ
مَلَكَاتٍ عِلْمٍ آخَرَ عِلْمٍ نَسَبِيٍّ بَلْ يَكُونُ مُقْصِرًا فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِنَ
الْأَحْوَالِ وَمَبْنِي سَبَبُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ وَتَلْوِينِهِ بِلَوْنِ الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي
النَّفْسِ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبِّ سِوَاهُ

الفصل الثالث والعشرون

في الاشارة الى امهات الصنائع

إِعْلَمُ أَنَّ الصَّنَائِعَ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكثَرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي
الْعُمُرَانِ فِيهِ بِحَيْثُ تَشْدُّ عَنِ الْحَضَرِ وَلَا يَأْخُذُهَا الْعَدُّ إِلَّا أَنْ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ
فِي الْعُمُرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِالْمَوْضِعِ فَنَخْضُهَا بِالذِّكْرِ وَنَتْرُكُ مَا سِوَاهَا فَأَمَّا الضَّرُورِيُّ
فَالْفَلَاحَةُ وَالْبِنَاءُ وَالْخِيَاطَةُ وَالنِّجَارَةُ وَالْحَيَاكَةُ وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ بِالْمَوْضِعِ فَكَالتَوْلِيدُ
وَالْكِتَابَةُ وَالْوَرِاقَةُ وَالْفَنَاءُ وَالطَّبُّ فَأَمَّا التَّوْلِيدُ فَانْبَاءُ ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمُرَانِ
وَعَامَّةُ الْبَلَوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ الْمَوْلُودِ وَتَنْمُو غَالِبًا وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُونَ
وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ وَالطَّبُّ فَهُوَ حِفْظُ الصِّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنْهُ وَبِتَفَرُّعٍ

عَنْ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ وَمَوْضِعُهُ مَعَ ذَلِكَ بَدَنَ الْإِنْسَانِ وَأَمَّا الْكِتَابَةُ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ
 الْوَرِاقَةِ فِيهَا حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمَقِيدَةٌ لَهَا عَنِ النَّسْيَانِ وَمُبَلِّغَةٌ ضَمَائِرَ
 النَّفْسِ إِلَى الْبَعِيدِ الْعَائِبِ وَخَلْدَةٌ تَتَأَمَّرُ الْأَفْكَارَ وَالْعُلُومَ فِي الصُّحُفِ وَرَافِعَةٌ رُتَبَ
 الْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَأَمَّا الْغِنَاءُ فَهُوَ نَسَبُ الْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلِاسْتِمَاعِ وَكُلُّ هَذِهِ
 الصَّنَائِعِ الثَّلَاثُ دَاعٍ إِلَى مَخَالَطَةِ الْمَلُوكِ الْأَعَاطِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَتَجَالِسِ أُنْسِهِمْ فَلَهَا
 بِذَلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُعْتَمَنَةٌ فِي الْعَالِمِ وَقَدْ
 يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ وَالِدَوَاعِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ تَمَرَّتْهَا اتِّخَاذُ الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ بِالْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ الْأَرْضِ لَهَا
 أَزْدَادُ رَاعِيهَا وَعِلاجِ نَبَاتِهَا وَتَعْمِيرِهَا بِالسَّقْفِ وَالتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهَا ثُمَّ حِصَادِ سَبِيلِهَا
 وَأَسْتِخْرَاجِ حَبِّهَا مِنْ غِلَافِهَا وَإِحْكَامِ الْأَعْمَالِ لِذَلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهَا وَدَوَاعِيهَا وَهِيَ
 أَقْدَمُ الصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا مَخْصَلَةٌ لِلْقُوَّةِ الْمُكْمَلِ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ عَالِمًا إِذْ يُمْكِنُ وُجُودُهُ
 مِنْ دُونَ الْقُوَّةِ وَلِهَذَا اخْتِصَّتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ بِالْبَدْوِ إِذْ قَدْ مَنَّا أَنَّهُ أَقْدَمُ مِنَ الْحَضَرِ
 وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِذَلِكَ بَدْوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ
 أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى الْبَدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَةٌ عَنِ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى مَقِيمُ الْعِبَادِ فِيهَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْعَمَلِ فِي اتِّخَاذِ
 الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ لِلْكِنِ وَالْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي الْمَدِينِ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لِمَا جَبَلَ
 عَلَيْهِ مِنَ الْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ لَا يَدَّ أَنْ يَفْكَرَ فِيهَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى مِنَ الْحَرِّ
 وَالْبُرْدِ كَاتِخَاذِ الْبُيُوتِ الْمَكْتَنَّةِ بِالسَّقْفِ وَالْحَيْطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا وَالْبَشَرُ مُخْتَلِفٌ
 فِي هَذِهِ الْجِبَلَةِ الْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمْ الْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَخَذُونَ ذَلِكَ بِاعْتِدَالِ أَهْلِ الثَّنَائِي
 وَالثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنِ اتِّخَاذِ ذَلِكَ لِقُصُورِ

أَفْكَارِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَصْنَاعِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَبَادِرُونَ لِلغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ الْمَعْدَةِ مِنْ غَيْرِ
 عِلَاجٍ ثُمَّ الْمَعْتَدِلُونَ الْمَعْتَدِلُونَ لِلْمَأْوَى قَدْ يَتَكَاتَرُونَ فِي الْبَسِيطِ الْوَاحِدِ بَحِثُ
 يَتَنَاكُرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ فَيَحْشُونَ طَرِقَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَيَحْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمَعِهِمْ بِإِدَارَةِ
 مَاءٍ أَوْ أَسْوَارٍ يَحُوطُهُمْ وَيَصِيرُ جَمِيعًا مَدِينَةً وَاحِدَةً وَمِصْرًا وَاحِدًا وَيَحُوطُهُمُ الْحَكْمُ
 مِنْ دَاخِلٍ يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَقَدْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِتِّصَافِ وَيَتَّخِذُونَ الْمَعَاقِلَ
 وَالْمَحْصُونَ لَهُمْ وَلِحْمَنِ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِثْلَ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَكِبَارِ
 الْقَبَائِلِ فِي الْمُدُنِ كُلِّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ وَيَصْطَلِحُونَ عَلَيْهِ وَيُنَاسِبُ مَزَاجَ هَوَائِهِمْ
 وَأَخْتِلَافَ أَحْوَالِهِمْ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَكَذَا حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ
 يَتَّخِذُ الْقُصُورَ وَالْمَصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبَيْوتِ وَالغُرُفِ
 الْكَبِيرَةِ لِكَثْرَةِ وُلْدِهِ وَحَشَمِهِ وَعِيَالِهِ وَتَابِعِهِ وَيُؤَسِّسُ جُدْرَانَهَا بِالْحِجَارَةِ وَيَلْعَمُ بَيْنَهَا
 بِالْكَسِّ وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْغَةِ وَالْخِصِّ وَيَبَالِغُ فِي ذَلِكَ بِالتَّجْهِدِ وَالتَّنْمِيقِ إِظْهَارًا
 لِلبَسِيطَةِ بِالْعِنَابَةِ فِي شَأْنِ الْمَأْوَى وَيَهَيِّئُ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْرَابَ وَالْمَطَامِيرَ لِلِاخْتِرَانِ
 لِأَقْوَاتِهِ وَالْإِسْطَبَالَاتِ لِرَبْطِ مَقَرِّبَاتِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْخُجُودِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ وَالْحَاشِيَةِ
 كَالْأَمْرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِي الدُّوِيرَةَ وَالْبَيْوتَ لِنَفْسِهِ وَسَكَدِهِ وَوُلْدِهِ لَا
 يَبْتَغِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِقُصُورِ حَالِهِ عَنْهُ وَأَقْتِصَارِهِ عَلَى الْكِنِّ الطَّبِيعِيِّ لِلبَشَرِ وَبَيْنَ
 ذَلِكَ مَرَاتِبُ غَيْرُ مُنْخَصَرَّةٍ وَقَدْ يَحْتَاجُ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْضًا عِنْدَ تَأْسِيسِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ
 الدُّوَلِ الْمُدُنِ الْعَظِيمَةِ وَالْهَيْكَلِ كُلِّ الْمُرْتَفَعَةِ وَيَبَالِغُونَ فِي إِتْقَانِ الْأَوْضَاعِ وَعُلُوِّ الْأَجْرَامِ
 مَعَ الْأَحْكَامِ لِتَبْلُغِ الصَّنَاعَةِ مَبَالِغَهَا وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ الَّتِي يَحْصُلُ الدَّوَاعِي لِذَلِكَ وَأَكْثَرُ
 مَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْأَقَالِيمِ الْمَعْتَدِلَةِ مِنَ الرَّابِعِ وَمَا حَوْلَ إِلَيْهِ إِذَا الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ
 لَا بِنَاءَ فِيهَا وَإِنَّمَا يَتَّخِذُونَ الْبَيْوتَ حِطَّائِرَ مِنَ الْقَصَبِ وَالطِّينِ وَإِنَّمَا يَوْجَدُ فِي الْأَقَالِيمِ
 الْمَعْتَدِلَةِ لَهُ وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا مُتَفَاوِتُونَ فَمِنْهُمْ الْبَصِيرُ الْمَاهِرُ وَمِنْهُمْ
 الْقَاصِرُ ثُمَّ هِيَ تَنْتَوِعُ أَنْوَاءً كَثِيرَةً فَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْتَجِدَةِ يُقَامُ بِهَا الْجُدْرَانُ
 مُلْصَقًا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِالطِّينِ وَالْكَسِّ الَّذِي يَعْقُدُ مَعَهَا وَيَلْحَمُّ كَأَنَّهَا جِسْمٌ وَاحِدٌ
 وَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالتُّرَابِ خَاصَّةً يَتَّخِذُ لَهَا لَوْحَانٍ مِنَ الخَشَبِ مَقْدَرَانِ طَوْلًا وَعَرْضًا بِاخْتِلَافِ
 الْعَادَاتِ فِي التَّقْدِيرِ وَأَوْسَطُهُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ فَيَنْصَبَانِ عَلَى أَسَاسٍ وَقَدْ بُوْعِدَ

مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ الْبِنَاءِ فِي عَرْضِ الْأَسَاسِ وَيُوصِلُ بَيْنَهُمَا بِأَذْرَعٍ مِنَ الْخَشَبِ
 يُرْبِطُ عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ وَالْجُدْرِ وَيَسُدُّ الْجِهَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ مِنْ ذَلِكَ الْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِالْوَحِينِ
 آخَرِينَ صَغِيرِينَ ثُمَّ يُوَضَعُ فِيهِ التُّرَابُ مُخَلَّطًا بِالْكَيْسِ وَيُرَكِّزُ بِالْمَرَكَزِ الْمَعْدَةَ
 حَتَّى يَنْعَمَ رُكُوزُهُ وَيَخْتَلِطُ أَجْزَاؤُهُ ثُمَّ يَزَادُ التُّرَابُ تَابِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِي ذَلِكَ الْخَلَاءُ
 بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ أَجْزَاءُ الْكَيْسِ وَالتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا ثُمَّ يَعَادُ
 نَصْبُ اللَّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ وَيُرَكِّزُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيَنْظَمَ الْأَلْوَاحُ كُلُّهَا سَطْرًا مِنْ
 فَوْقِ سَطْرِ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ الْخَائِطُ كُلُّهُ مَلْتَمَجًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى الطَّايِبَةَ
 وَصَانِعَهُ الطَّوَابِ وَمِنْ صَنَائِعِ الْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ يُجَلَّلَ الْحَيْطَانُ بِالْكَيْسِ بَعْدَ أَنْ يُعَلَّ
 بِالْمَاءِ وَيُخْمَرُ أَسْبُوعًا أَوْ أَسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَعْتَدِلُ مِرْاجُهُ عَنْ إِفْرَاطِ النَّارِ يَتَلَفُفُ
 لِلْإِلْحَامِ فَإِذَا تَمَّ لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَلِكَ عِلَاةٌ مِنْ فَوْقِ الْخَائِطِ وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَجِمَ وَمِنْ
 صَنَائِعِ الْبِنَاءِ عَمَلُ السَّقْفِ بِأَنْ يُمَدَّ الْخَشَبُ الْمُحْكَمَةُ التَّجَارَةَ أَوْ السَّازِجَةَ عَلَى حَائِطِي
 الْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا الْأَلْوَاحُ كَذَلِكَ مَوْصُولَةً بِالْدَسَائِرِ وَيُصَبُّ عَلَيْهَا التُّرَابُ وَالْكَيْسُ
 وَيُسَبَّطُ بِالْمَرَكَزِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَجِمَ وَيَعَالَى عَلَيْهَا الْكَيْسُ كَمَا يُعَالَى
 عَلَى الْخَائِطِ وَمِنْ صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ مَا يَرْجِعُ إِلَى التَّنْمِيقِ وَالتَّزْيِينِ كَمَا يُضَعُّ مِنْ فَوْقِ
 الْحَيْطَانِ الْأَشْكَالُ الْجِسْمَةُ مِنَ الْحِصْنِ يُخْمَرُ بِالْمَاءِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَسَدًا وَفِيهِ بَقِيَّةُ
 الْبَلَلِ فَيَشْكَلُ عَلَى التَّنَاسُبِ تَخْرِيْمًا بِمِثْقَابِ الْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ رَوْنَقٌ وَرَوَاءُ
 وَرُبَّمَا عُولِي عَلَى الْحَيْطَانِ أَيْضًا يَقَطَعُ الرَّخَامَ وَالْأَجْرَ وَالْحَزْفَ أَوْ بِالصِّدْفِ أَوْ
 السَّبَّجِ يُفَصِّلُ أَجْزَاءً مُجَانِسَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً وَتُوَضَعُ فِي الْكَيْسِ عَلَى نِسْبٍ وَأَوْضَاعٍ
 مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ الْخَائِطُ لِلْعِيَانِ كَأَنَّهُ قِطْعُ الرِّيَاضِ الْمُنْمَنَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
 مِنْ بِنَاءِ الْجِبَابِ وَالصَّهَارِيجِ لِسَمْعِ الْمَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي الْبُيُوتِ قِصَاعُ الرَّخَامِ الْقَوَرَاءِ
 الْمُحْكَمَةُ الْخُرْطُ بِالْفُوهَاتِ فِي وَسْطِهَا لِيَنْبَعِ الْمَاءُ الْجَارِي إِلَى الصَّهْرِيجِ يُجَلَّبُ إِلَيْهِ مِنْ
 خَارِجِ الْقُنُوتِ الْمُقَصِّبَةِ إِلَى الْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِنَاءِ وَتَخْتَلِفُ الصَّنَاعُ فِي
 جَمِيعِ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْحَذْقِ وَالْبَصْرِ وَيَعْظُمُ عُمُرَانُ الْمَدِينَةِ وَيَتَسَعُّ فَيَكْثُرُونَ وَرُبَّمَا
 يَرْجِعُ الْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِ هَوْلَاءِ فِيمَا هُمْ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْبِنَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ
 فِي الْمَدِينِ كَثْرَةٌ الْإِزْدِحَامِ وَالْعُمُرَانِ يَتَشَاوُونَ حَتَّى فِي الْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ الْأَعْلَى

وَالْأَسْفَلَ وَمِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِظَاهِرِ الْبِنَاءِ مِمَّا يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ الضَّرَرِ فِي الْحَيْطَانِ فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِي اسْتِحْقَاقِ الطَّرُقِ وَالْمَنَافِدِ لِلْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَالْفَضَلَاتِ الْمُسْرَبَةِ فِي الْقَنْوَاتِ وَرُبَّمَا يَدَّعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَائِطِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاتِهِ لِتَضَائِقِ الْجَوَارِ أَوْ يَدَّعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ اخْتِلَالَ حَائِطِهِ خَشْيَةَ سَقُوطِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ يَهْدِمُهُ وَدَفَعَ ضَرَرَهُ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرَصَةٍ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فُسَادٌ فِي الدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ لِمَنْفَعَتِهَا وَأَمثالُ ذَلِكَ وَيَخْفَى جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْبَصَرِ الْعَارِفِينَ بِالْبِنَاءِ وَأَحْوَالِهِ الْمُسْتَدَلِّينَ عَلَيْهَا بِالْمَعَاوِدِ وَالْقَمَطِ وَمَرَاكِزِ الخَشْبِ وَمِثْلِ الْحَيْطَانِ وَأَعْتَدَ لَهَا وَقَسَمَ الْمَسَاكِينَ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِبِ الْمِيَاهِ فِي الْقَنْوَاتِ مَجْلُوبَةً وَمَرْفُوعَةً بِحَيْثُ لَا تَضُرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْحَيْطَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُمْ هَذَا كُلُّهُ الْبَصَرُ وَالخُبْرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُونَ بِالْجُودَةِ وَالْقُصُورِ فِي الْأَجْيَالِ بِاعْتِبَارِ الدُّوَلِ وَقُوَّتِهَا فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ وَكَمَالَهَا إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ الحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الطَّلَبِ لَهَا فَذَلِكَ عِنْدَ مَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ بَدْوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَفْتَقِرُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قُطْرِهَا كَمَا وَقَعَ لِلوَلِيدِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ بِالشَّامِ فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الْفَعْلَةِ الْمَهْرَةَ فِي الْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ حَصَلَ لَهُ عَرْضُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَشْيَاءَ مِنَ الْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ الْحَيْطَانِ بِالْوِزْنِ وَإِجْرَاءِ الْمِيَاهِ بِأَخْذِ الْأَرْتِفَاعِ وَأَمثالِ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْبَصَرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ وَكَذَلِكَ فِي جَرِّ الْأَنْتِقَالِ بِالْهَنْدَامِ فَإِنَّ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ إِذَا شِيدَتْ بِالْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ يَعْجزُ قَدْرُ الْفَعْلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الخَائِطِ فَيَتَحِيلُ لِذَلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الحَبْلِ بِإِدْخَالِهِ فِي المَعَالِقِ مِنْ أَنْتَابِ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسْبِ هَنْدَسِيَّةٍ تُصِيرُ التَّحْمِيلَ عِنْدَ مَعَانَاةِ الرَّفْعِ خَفِيفًا فَيَتِمُّ المُرَادُ مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ لَفْظَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأَصُولِ هَنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ بَيْنَ البَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ الْهَيْمَاءِ كُلِّ الْمَائِلَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ أَبْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي الْعَظْمِ الْجِسْمَانِيِّ وَليْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْحِيلِ الْهَنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا هُنَا فَتَفْهَمُ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا يتحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا بيست وأول منافعها أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للآتيك والدود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأمّا أهل البدو فيمتخذون منها العمد والأوتاد لقيامهم والحدوج لظعائهم والرماح والقسي والسهام لسلاحتهم وأمّا أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير إلى الصرورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر منه أو الواح ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعه أعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء ذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنّف من سقف أو باب أو كرسي أو ما عاون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كما ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخراط يحكم برتبها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالأسائر فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجئ أنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الخوت واعتبار سنجيه في الماء بقوادمه وكله لكي يكون ذلك الشكل اعون

لَهَا فِي مُضَادِمَةِ الْمَاءِ وَجُعِلَ لَهَا عَوْضُ الْحَرَكَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لِلسَّمَكِ تَحْرِيكُ الرِّيَّاحِ
 وَرَبَّمَا أُعِينَتْ بِحَرَكَةِ الْمَقَادِفِ كَمَا فِي الْأَسَاطِيلِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَصْلَابِهَا مُتَحَاجَةٌ
 إِلَى أَصْلِ كَبِيرٍ مِنَ الْمُهَنْدَسَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِهَا لِأَنَّ إِخْرَاجَ الصُّورِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ
 عَلَى وَجْهِ الْأَحْكَامِ مُتَحَاجٌّ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّنَاسُبِ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا عُمُومًا أَوْ خُصُوصًا
 وَتَنَاسُبُ الْمَقَادِيرِ لَا يَدُّ فِيهِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمُهَنْدِسِ وَلِهَذَا كَانَتْ أَيْمَةُ الْمُهَنْدَسَةِ
 الْيُونَانِيُونَ كُلُّهُمْ أَيْمَةً فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَكَانَ ابْنُ قَلِيدُوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْأَصُولِ فِي
 الْمُهَنْدَسَةِ تَجَارًا وَبِهَا كَانَ يُعْرَفُ وَكَذَلِكَ ابْنُ بَلُونِيوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْخَرْطُوطَاتِ وَمِيلَاوُوسُ
 وَغَيْرُهُمْ وَفِيمَا يُقَالُ أَنَّ مَعْلَمَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْخَلِيقَةِ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهَا أُنشِئَتْ
 سَفِينَةُ النِّجَاةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مُعْجَزَتُهُ عِنْدَ الطُّوفَانِ وَهَذَا الْخَبْرُ وَإِنْ كَانَ مُمْتَكِنًا أَعْيَى
 كَوْنَهُ تَجَارًا إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَّمَهَا أَوْ تَعَلَّمَهَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ مِنَ النُّقْلِ عَلَيْهِ لِبُعْدِ
 الْأَمَادِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْإِشَارَةُ إِلَى قِدَمِ النِّجَارَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ حِكَايَةُ عَنْهَا
 قَبْلَ خَبْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجُعِلَ كَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَعَلَّمَهَا فَتَفَهَّمُ أَسْرَارَ الصَّنَائِعِ فِي
 الْخَلِيقَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الخياطة والحياطة

هَاتَانِ الصَّنَاعَتَانِ صَرُورَتَانِ فِي الْعُمُرَانِ لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الرَّفْعِ فَالْأُولَى
 لِنَسْجِ الْعَزْلِ مِنَ الصُّوفِ وَالْكُتَّانِ وَالْقَطَنِ إِسْدَاءً فِي الطُّولِ وَالْحَمَامًا فِي الْعَرْضِ
 لِذَلِكَ النَّسْجُ بِالْإِتِّحَامِ الشَّدِيدِ فَيَتِمُّ مِنْهَا قِطْعٌ مُقَدَّرَةٌ مِنْهَا الْأَكْسِيَّةُ مِنَ الصُّوفِ
 لِلِاشْتِيَالِ وَمِنْهَا الثِّيَابُ مِنَ الْقَطَنِ وَالْكُتَّانِ لِلْبَاسِ وَالصَّنَاعَةُ الثَّانِيَةُ لِتَقْدِيرِ الْمَنْسُوجَاتِ
 عَلَى اخْتِلَافِ الْأَشْكَالِ وَالْعَوَائِدِ تَفْصَلُ بِالْمَقْرَاضِ قِطْعًا مُنَاسِبَةً لِلْأَعْضَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ
 تُلْحَمُ تِلْكَ الْقِطْعُ بِالْخِيَاطَةِ الْمُحْكَمَةِ وَصَلًا أَوْ تَنْبِيئًا أَوْ تَنْسُجًا عَلَى حَسَبِ نَوْعِ
 الصَّنَاعَةِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْعُمُرَانِ الْخَضِرِيِّ لِمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ يَسْتَعْنُونَ عَنْهَا
 وَإِنَّمَا يَسْتَمْلُونَ الْأَنْوَابَ اشْتِيَالًا وَإِنَّمَا تَفْصِيلُ الثِّيَابِ وَتَقْدِيرُهَا وَالْحَمَامُ بِالْخِيَاطَةِ
 لِلْبَاسِ مِنْ مَدَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَفُنُونِهَا وَتَفَهَّمُ هَذِهِ فِي سِرِّ تَحْرِيمِ الْأَخْيَاطِ فِي الْحَجِّ لِمَا
 أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْحَجِّ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَبْدِ الْعَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى لَا يَعْلُقَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِ لَا طَيْبًا وَلَا نِسَاءً
وَلَا مَخْبِطًا وَلَا خُنًا وَلَا يَتَعَرَّضُ لِصَيْدٍ وَلَا لَشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ الَّتِي تَلَوَّتْ بِهَا نَفْسُهُ وَخَلَقَهُ
مَعَ أَنَّهُ يَفْقُدُ مَا بَالَمَوْتِ ضَرُورَةٌ وَإِنَّمَا يَجْعَى كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى الْمَحْشَرِ ضَارِعًا بِقَلْبِهِ مُخْلِصًا
لِرَبِّهِ وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلَاصُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ
سُبْحَانَكَ مَا أَرْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ الصَّنَعَتَانِ
قَدِيمَتَانِ فِي الْخَلْقَةِ لِمَا أَنْ الدَّفءَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ فِي الْعُمُرَانِ الْمُعْتَدِلِ وَأَمَّا الْمُنْحَرَفُ
إِلَى الْحَرِّ فَلَا يَحْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دَفءٍ وَلِهَذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّودَانِ
أَنَّهُمْ عَرَاةٌ فِي الْغَالِبِ وَاقْدِمَ هَذِهِ الصَّنَائِعِ يَنْسِبُهَا الْعَامَّةُ إِلَى أَدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَرُبَّمَا يَنْسَبُونَهَا إِلَى هِرْمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هِرْمِسَ هُوَ أَدْرِيسُ
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يَعْرِفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَوْلُودِ الْأَدِمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ
الرَّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَمَثُّةٌ أَسْبَابُ ذَلِكَ ثُمَّ مَا يُصْلِحُهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ عَلَى مَا
تَذَكَّرُوا وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ لِمَا أَنَّهُنَّ الظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى عَوْرَاتِ
بَعْضٍ وَتُسَمَّى الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُنَّ الْقَائِلَةُ اسْتَعْبِرَ فِيهَا مَعْنَى الْأَعْطَاءِ وَالْقَبُولِ
كَأَنَّ النِّسَاءَ تُعْطِيهَا الْجَنِينَ وَكَأَنَّهَا تُقْبَلُهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا اسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ
فِي الرَّحِمِ وَأَطْوَرَهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدَّةُ الَّتِي قَدَرَهَا اللَّهُ لِمَكْنَتِهِ هِيَ تِسْعَةٌ
أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْمَوْلُودِ مِنَ التُّزْوَعِ لِذَلِكَ وَيَضِيقُ
عَلَيْهِ الْمَنْفَذُ فَيَعْسُرُ وَرُبَّمَا مَرَّقَ بَعْضُ جَوَانِبِ الْفَرْجِ بِالضَّغْطِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ بَعْضُ
مَا كَانَ مِنَ الْأَغْشِيَةِ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَالْإِلْتِحَامِ بِالرَّحِمِ وَهَذِهِ كُلُّهَا الْأَمُّ يَسْتَدُ
بِهَا الْوَجْعَ وَهُوَ مَعْنَى الطَّلُقِ فَتَكُونُ الْقَائِلَةُ مُعِينَةً فِي ذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْءِ بِغَمَزِ الظَّهِرِ
وَالْوَرَكَيْنِ وَمَا يُحَاذِي الرَّحِمَ مِنَ الْأَسَافِلِ تُسَاقُ بِذَلِكَ فَعِلَ الدَّافِعَةُ فِي إِخْرَاجِ الْجَنِينِ
وَتَسْبِيلِ مَا يَضَعُ مِنْهُ بِمَا يُمْكِنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرَةٍ ثُمَّ إِنْ أَخْرَجَ الْجَنِينَ
بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحِمِ الْوَصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَغَدَّى مِنْهَا مَتَّصِلَةً مِنْ سُرَّتِهِ بِمَعَاةِ تِلْكَ

الْوَصْلَةَ عَضْوُ فَضْلِي لِتَعْدِيَةِ الْمَوْلُودِ خَاصَةً فَتَقَطِعُهَا الْقَابِلَةُ مِنْ حَيْثُ لَا تَتَعَدَّى مَكَانَ
 الْفَضْلَةِ وَلَا تُضَرُّ بِمَعَاةٍ وَلَا بِرَحِمِ أُمِّهِ ثُمَّ تَدْمِلُ مَكَانَ الْجِرَاحَةِ مِنْهُ بِالْكَبِيِّ أَوْ بِمَا
 تَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ الْأَنْدِمَالِ ثُمَّ إِنَّ الْجَبِينِ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْفَذِ الْيَقِي وَهُوَ رَطْبُ
 الْعِظَامِ سَهْلُ الْأَنْعِطَافِ وَالْإِتْنَاءِ قَرِيبًا نَتَعَيَّرُ أَشْكَالُ أَعْضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا الْقُرْبُ
 التَّكْوِينِ وَرُطُوبَةُ الْمَوَادِّ فَيَتَنَاوَلُهُ الْقَابِلَةُ بِالْغَمَزِ وَالْإِصْلَاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إِلَى
 شَكْلِهِ الطَّبِيعِيِّ وَوَضَعِهِ الْمَقْدَرِّ لَهُ وَيَرْتَدُّ خَلْقَهُ سَوِيًّا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُرَاجِعُ النَّفْسَاءُ
 وَتَحَاذِرُهَا بِالْغَمَزِ وَالْمَلَايِنَةِ لِمَخْرُجِ أَعْشِيَةِ الْجَبِينِ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَنَازَرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا
 وَيُخَشَى عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْمَاسِكَةَ حَالِهَا الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ خُرُوجِ الْأَعْشِيَةِ
 وَهِيَ فَضَلَاتٌ تُفَعِّنُ وَيَسْرِي عَنْهَا إِلَى الرَّحِمِ فَيَقَعُ الْهَلَاكُ فَتَحَاذِرُ الْقَابِلَةُ هَذَا وَتَحَاوُلُ
 فِي إِعَانَةِ الدَّفْعِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ بِلَيْكِ الْأَعْشِيَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْمَوْلُودِ
 فَتَمْرِّحُ أَعْضَاءَهُ بِالْأَدْهَانِ وَالذَّرُورَاتِ الْقَابِضَةِ لِتَشُدَّهُ وَتُخَفِّفُ رُطُوبَاتِ الرَّحِمِ
 وَتُخَفِّكُهُ لِرَفْعِ لَهَا تَهْوُسَ عِطْهُ لِاسْتِفْرَاحِ نُطُوفِ دِمَاجِهِ وَتُعْرِغُهُ بِالْعُوقِ لِدَفْعِ السُّدْرِ
 مِنْ مَعَاةٍ وَتَجُوفِيهَا عَنِ الْإِلْتِصَاقِ ثُمَّ تَدَاوِي النَّفْسَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَمَنِ الَّذِي أَصَابَهَا
 بِالطَّلَقِ وَمَا لِحَقِّ رَحِمِهَا مِنَ أَلْمِ الْإِنْفِصَالِ إِذِ الْمَوْلُودُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَضْوًا طَبِيعِيًّا فَحَالَةً
 التَّكْوِينِ فِي الرَّحِمِ صَبْرَتَهُ بِالْإِلْتِمَامِ كَالْعَضْوِ الْمَتَّصِلِ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي انْفِصَالِهِ أَلْمٌ
 يَقْرُبُ مِنَ أَلْمِ الْقَطْعِ وَتَدَاوِي مَعَ ذَلِكَ مَا يَلْحَقُ النَّرْجَ مِنَ أَلْمِ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمْزِيقِ
 عِنْدَ الضَّغْطِ فِي الْخُرُوجِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءٌ نَجِدُ هُوَ لَاءَ الْقَرَابِلِ أَبْصَرَ بِدَوَائِهَا وَكَذَلِكَ
 مَا يَعْزُضُ لِلْمَوْلُودِ مَدَّةَ الرِّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ الْفِصَالِ نَجِدُهُنَّ أَبْصَرَ بِهَا
 مِنَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنُ إِنْسَانِيٍّ
 بِالْقُوَّةِ فَقَطْ فَإِذَا جَاوَزَ الْفِصَالُ صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا بِالْفِئْلِ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلَى الطَّبِيبِ
 أَشَدَّ فِهَذِهِ الصَّنَاعَةُ كَمَا تَرَاهُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمُرَانِ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ لِأَيَّتِمُّ كَوْنُ
 أَشْخَاصِهِ فِي الْغَالِبِ دُونِهَا وَقَدْ يَعْزُضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ النَّوْعِ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ إِمَّا بِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْجَزَةٌ وَخَرَقًا لِلْعَادَةِ كَمَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ
 اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ بِالْهَامِ وَهِدَايَةِ يُلَهُمْ لَهَا الْمَوْلُودُ وَيَنْظُرُ عَلَيْهَا فَيَتِمُّ وَجُودُهُمْ
 مِنْ دُونِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَأَمَّا شَأْنُ الْمَعْجَزَةِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ كَثِيرًا وَمِنْهُ مَا رُوِيَ أَنَّ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَلَدَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا وَأَضَعَا يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ شَاخِصًا يَبْصُرُهُ
 إِلَى السَّمَاءِ وَكَذَلِكَ شَأْنُ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَأَمَّا شَأْنُ الْإِلْهَامِ فَلَا يَنْكَرُ
 وَإِذَا كَانَتِ الْحَيَوَانَاتُ الْعَجْمُ مُخْتَصُّ بِغَرَائِبِ الْإِلْهَامَاتِ كَمَا نَحَلُّ وَغَيْرَهَا فَمَا ظَنُّكَ
 بِالْإِنْسَانِ الْمُفْضَلِ عَلَيْهَا وَخُصُوصًا بِمَنْ اخْتَصَّ بِكَرَامَةِ اللَّهِ ثُمَّ الْإِلْهَامُ الْعَامُّ
 لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْأَقْبَالِ عَلَى التَّدْيِ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى وُجُودِ الْإِلْهَامِ الْعَامِّ لَهُمْ فَشَأْنُ
 الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَحَاطَ بِهِ وَمِنْ هُنَا يَفْهَمُ بَطْلَانُ رَأْيِ الْفَارَابِيِّ وَحِكْمَاءِ
 الْأَنْدَالِسِ فِيمَا أَحْتَجُّوهُ لِعَدَمِ انْفِرَاضِ الْأَنْوَاعِ وَأَسْتَحَالَةِ انْقِطَاعِ الْمَكُونَاتِ
 وَخُصُوصًا فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ وَقَالُوا أَوْ انْقَطَعَتْ أَشْخَاصُهُ لَأَسْتَحَالَ وَجُودُهَا بَعْدَ ذَلِكَ
 لِتَوْفِيقِهِ عَلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا إِذْ لَوْ قَدَرْنَا مَوْلُودًا دُونَ
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَفَّالَتِهَا إِلَى حِينِ الْفَصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَصْلًا وَوُجُودُ الصَّنَائِعِ دُونَ
 الْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّهَا ثَمَرَتُهُ وَتَابِعَةٌ لَهُ وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ لِخِلَافَتِهِ
 آيَاهُ وَذَهَابِهِ إِلَى إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ ثُمَّ عَوَدِهِ ثَانِيًا
 لِأَقْبِضَاتِ فَلَكِيَّةٍ وَأَوْضَاعِ غَرْبَةِ تَنْدُرٍ فِي الْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَحْمِيرِ طَبِئَةٍ مُنَاسِبَةٍ
 لِمَزَاجِهِ بِحَرَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَانًا ثُمَّ يَقْبِضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ الْهَامَا لِتَرْبِيَتِهِ
 وَالْحَنُوقِ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَجُودُهُ وَفَصَالُهُ وَأَطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فِي الرَّسَالَةِ الَّتِي سَمَّاهَا
 رِسَالَةَ حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ وَهَذَا الْأَسْتِدْلَالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى انْقِطَاعِ
 الْأَنْوَاعِ لَكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ فَإِنَّ دَلِيلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَنْعَالِ إِلَى الْعَلَّةِ
 الْمُوجِبَةِ وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَسِطَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ
 بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا الْمَكْتَفِ ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَاهُ جَدًّا فَعَايَةَ
 مَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَطْرَادُ وَجُودِ هَذَا الشَّخْصِ بِخُلُقِ الْإِلْهَامِ لِتَرْبِيَتِهِ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ وَمَا
 الْضَّرُورَةُ الدَّاعِيَةُ لِذَلِكَ وَإِذَا كَانَ الْإِلْهَامُ يُخْلَقُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ فَمَا الْمَانِعُ مِنْ
 خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَخَلَقَ الْإِلْهَامُ فِي شَخْصٍ لِصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ
 خَلْقِهِ فِيهِ لِصَالِحِ غَيْرِهِ فَكَلَّا الْمَذْهَبِينَ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبَطْلَانِ فِي مَنَاحِيهِمَا
 لِمَا قَرَّرْتُهُ لَكَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرفت من فائدتها فان تمرتها حفظ الصحة
 للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرزخ من امراضهم واعلم
 ان اصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث
 الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواك واصل كل داء
 البردة فاما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهره واما قوله الحمية رأس الدواك فالحمية
 الجوع وهو الاحتياج من الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواك العظيم الذي هو اصل
 الادوية واما قوله اصل كل داء البردة فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام
 في المعدة قبل ان يتم هضم الاول وشرح هذا ان الله سبحانه خلق الانسان وحفظ
 حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى ان يصير دما
 ملائما لاجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تاخذه النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى
 الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من
 البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل في الفم ولا كنهه الاشداق اثرت فيه حرارة
 الفم طبخا يسيرا وقالت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة اذا تناولتها طعاما
 ثم اجدها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة
 المعدة الى ان يصير كيموسا وهو صنو ذلك المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل
 ما رسب منه في المعى ثفلا ينفذ الى المخزجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك
 الكيموس الى ان يصير عيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء وترسب
 منه اجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه
 فهو الباغم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول وياخذها طبخ الحال
 الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني
 وتأخذ النامية ما خذها في الدم فيكون لحما ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن ما
 يفضل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه
 صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما ثم ان اصل الامراض ومعظمها هي

الْحَمِيَّاتِ وَسَبَبُهَا أَنَّ الْحَارَّ الْغَرِيظِيَّ قَدْ يَضَعُ عَنْ تَمَامِ النَّضْجِ فِي طَبَعِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ
 مِنْ هُدُوهِ فَيَبْقَى ذَلِكَ الْغَدَاءُ دُونَ نَضْجٍ وَسَبَبُهُ عَالِمًا كَثْرَةُ الْغَدَاءِ فِي الْمَعِدَةِ حَتَّى
 يَكُونَ أَغْلَبَ عَلَى الْحَارِّ الْغَرِيظِيِّ أَوْ إِدْخَالَ الطَّعَامِ إِلَى الْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفِيَ طَبْعُ
 الْأَوَّلِ فَيَسْتَقِلُّ بِهِ الْحَارُّ الْغَرِيظِيُّ وَيَبْرُكُ الْأَوَّلُ بِحَالَةٍ أَوْ يَتَوَزَعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ
 تَمَامِ الطَّبْخِ وَالنَّضْجِ وَتُرْسِلُهُ الْمَعِدَةُ كَذَلِكَ إِلَى الْكَبِدِ فَلَا تَقْوَى حَرَارَةُ الْكَبِدِ
 أَيْضًا عَلَى إِنْضَاجِهِ وَرُبَّمَا بَقِيَ فِي الْكَبِدِ مِنَ الْغَدَاءِ الْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٍ وَتُرْسَلُ
 الْكَبِدُ جَمِيعَ ذَلِكَ إِلَى الْعُرُوقِ غَيْرِ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ فَإِذَا أَخَذَ الْبَدَنُ حَاجَتَهُ الْمَلَأَمَةَ
 أَرْسَلَهُ مَعَ الْفَضَلَاتِ الْأُخْرَى مِنَ الْعَرَقِ وَالذَّمَعِ وَالْعَلَابِ إِنْ أَقْتَدَرَ عَلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا
 يَعْجُزُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنْهُ فَيَبْقَى فِي الْعُرُوقِ وَالْكَبِدِ وَالْمَعِدَةِ وَتَتَزَايَدُ مَعَ الْأَيَّامِ وَكُلُّ
 ذِي رُطُوبَةٍ مِنَ الْمُمْتَزِجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ الطَّبْخُ وَالنَّضْجُ يَعْنِي فَيَتَعَنَّ ذَلِكَ الْغَدَاءُ
 غَيْرُ النَّاضِجِ وَهُوَ الْمَسْمِيُّ بِالْخَلِطِ وَكُلُّ مَتَعَنَّ فِيهِ حَرَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتِلْكَ هِيَ الْمَسْمَاةُ فِي
 بَدَنِ الْإِنْسَانِ بِالْحَمَى وَاخْتَبَرَ ذَلِكَ بِالطَّعَامِ إِذَا تَرَكَ حَتَّى يَتَعَنَّ وَفِي الرَّبْلِ إِذَا
 تَعَنَّ أَيْضًا كَيْفَ تَنْبَعُ فِيهِ الْحَرَارَةُ وَتَأْخُذُ مَا خَدَّهَا فَهَذَا مَعْنَى الْحَمِيَّاتِ فِي الْأَبْدَانِ
 وَهِيَ رَأْسُ الْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَهَذِهِ الْحَمِيَّاتُ عِلَاجُهَا بِقَطْعِ الْغَدَاءِ
 عَنِ الْمَرِيضِ أَسَابِعَ مَعْلُومَةٍ ثُمَّ يَتَنَاوَلُ الْأَغْذِيَةَ الْمَلَأَمَةَ حَتَّى يَتِمَّ بَرُؤُهُ ذَلِكَ فِي
 حَالِ الصِّحَّةِ عِلَاجٌ فِي التَّخَفُّظِ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ
 ذَلِكَ الْعَنَنْ فِي عَضْوٍ مَخْصُوصٍ فَيَتَوَلَّدُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذَلِكَ الْعَضْوِ وَيَحْدُثُ جِرَاحَاتٌ فِي
 الْبَدَنِ إِمَّا فِي الْأَعْضَاءِ الرَّئِيسِيَّةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا وَقَدْ يَمْرُضُ الْعَضْوُ وَيَحْدُثُ عَنْهُ مَرَضٌ
 الْقَوِيُّ الْمَوْجُودَةُ لَهُ هَذِهِ كَمَا جُدَّعَ الْأَمْرَاضِ وَأَصَابَهَا فِي الْغَالِبِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَهَذَا
 كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى الطَّيِّبِ وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ الْخُصْرِ وَالْأَمْصَارِ أَكْثَرُ
 لِحَيْصِ عَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ مَا كَلِمَهُمْ وَقِلَّةِ اقْتِصَارِهِمْ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَعَدَمِ
 تَوْقِيفَتِهِمْ لِتَنَاوُلِهَا وَكَثْرَتِهَا مَا يَخْلُطُونَ بِالْأَغْذِيَةِ مِنَ التَّنَابُلِ وَالْبُقُولِ وَالْفَوَاكِهِ رَطْبًا وَبَاسِيًا
 فِي سَبِيلِ الْعِلَاجِ بِالطَّبْخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ فَرُبَّمَا عَدَدَتْهَا فِي
 الْيَوْمِ الْوَاحِدِ مِنْ أَلْوَانِ الطَّبْخِ أَرْبَعِينَ نَوْعًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ فَيَصِيرُ الْغَدَاءُ رِزَاقُ
 غَرِيبٍ وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا عَنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ ثُمَّ إِنَّ الْأَهْوِيَّةَ فِي الْأَمْصَارِ

فَسَدُّ بِمُخَالَفَةِ الْأَنْجَرَةِ الْعَنْتَةِ مِنْ كَثْرَةِ الْفَضَلَاتِ وَالْأَهْوِيَةِ مُنْشِطَةً لِلرَّوْحِ وَمُقَوِّبَةً
 بِنَشَاطِهَا الْأَثَرَ الْحَارَّ الْغَرِيزِيَّ فِي الْهَضْمِ ثُمَّ الرِّيَاضَةُ مَفْقُودَةٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذْ هُمْ
 فِي الْعَالِبِ وَادِعُونَ سَاكِنُونَ لَا تَأْخُذُ مِنْهُمْ الرِّيَاضَةُ شَيْئًا وَلَا تُؤْتِرُ فِيهِمْ أَثَرًا فَكَانَ
 وَفُوعُ الْأَمْرَاضِ كَثِيرًا فِي الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ وَفُوعِهِ كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَمَا كَوَّلَهُمْ قَلِيلٌ فِي الْعَالِبِ وَالْجُوعُ أَغْلَبَ عَلَيْهِمْ نَقْلَةَ الْحُجُوبِ
 حَتَّى صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ عَادَةً وَرُبَّمَا يَطْنُ مِنْهَا جَمِيلَةً لِاسْتِمْرَارِهَا ثُمَّ الْأَدَمُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ
 أَوْ مَفْقُودَةٌ بِالْجَمِيلَةِ وَعِلَاجُ الطَّبَخِ بِالتَّوَابِلِ وَالْفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى تَرْفِ الْحِضَارَةِ
 الَّذِينَ هُمْ بِمَعزَلٍ عَنْهُ فَيَتَنَاوَلُونَ أَغْذِيَتَهُمْ بِسِبْطَةٍ بَعِيدَةٍ عَمَّا يُحَاطِطُهَا وَيَقْرَبُ مِرَاجِعَهَا
 مِنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَمَّا أَهْوِيَتُهُمْ فَقَلِيلَةٌ الْعَفْنِ لِقَلَّةِ الرُّطُوبَاتِ وَالْعَفُونَاتِ إِنْ كَانُوا
 طَوَاعِنَ ثُمَّ إِنْ الرِّيَاضَةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ لِكَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي رَكْضِ الْخَيْلِ أَوْ الصَّيْدِ أَوْ
 طَلَبِ الْحَاجَاتِ لِمَهْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَحْسِنُ بِذَلِكَ كُلَّهُ الْهَضْمَ وَيَجُودُ وَيَقْدُ
 إِذْ خَالَ الطَّعَامَ عَلَى الطَّعَامِ فَتَكُونُ أَمْزِجَتُهُمْ أَصْلَحَ وَابْعَدَ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَتَقِلُّ حَاجَتُهُمْ
 إِلَى الطَّبِّ وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ الطَّبِيبُ فِي الْبَادِيَةِ بَوَجْهِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ إِذْ
 لَوْ أَحْتِيجَ إِلَيْهِ لُوجِدَ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ فِي الْبَدْوِ مَعَاشٌ يَدْعُوهُ إِلَى سُكْنَاهُ سَنَةَ اللَّهُ
 فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

الفصل الثلاثون

في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية
 وَهُوَ رُسُومٌ وَأَشْكَالٌ حَرْفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْمَسْمُوعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا فِي النَّفْسِ
 فَهُوَ ثَانِي رُتْبَةٍ مِنَ الدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَهُوَ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ إِذِ الْكِتَابَةُ مِنْ خَوَاصِّ الْإِنْسَانِ
 الَّتِي يَمِيزُ بِهَا عَنِ الْحَيَوَانَ وَآيْضًا فِيهِ تَطْلُعُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ وَتُنَادِي بِهَا الْأَغْرَاضُ
 إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ فَتَمْتَضِي الْحَاجَاتِ وَقَدْ دَفَعَتْ مَوْئِنَةَ الْمُبَاشَرَةِ لَهَا وَيَطْلُعُ بِهَا عَلَى الْعُلُومِ
 وَالْمَعَارِفِ وَصَحْبِ الْأَوَّلِينَ وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فَهِيَ شَرِيفَةٌ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ
 وَالْمَنَافِعِ وَخُرُوجِهَا فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّعْلِيمِ وَعَلَى قَدَرِ
 الْأَجْتِمَاعِ وَالْعُمُرَانِ وَالتَّنَافُعِ فِي الْكِمَالَاتِ وَالطَّلَبِ لِلذَّكَ تَكُونُ جُودَةُ الْخَطِّ فِي
 الْمَدِينَةِ إِذْ هُوَ مِنْ جَمَلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ قَدَمْنَا أَنَّ هَذَا شَأْنُهَا وَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْعُمُرَانِ وَلِهَذَا

نَجِدُ أَكْثَرَ الْبَدُوِّ أَمِينِينَ لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ أَوْ كَتَبَ فَيَكُونُ
خَطُّهُ قَاصِرًا أَوْ قِرَاءَتُهُ غَيْرَ نَافِذَةٍ وَنَجِدُ تَعْلِيمَ الْخَطِّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمُرَانِهَا عَنِ
الْحَدِّ أَبْلَغَ وَأَحْسَنَ وَأَسْمَلَ طَرِيقًا لِاسْتِحْكَامِ الصَّنْعَةِ فِيهَا تَمَا يُحْكِي لَنَا عَنْ مَضْرُ
لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَنَّ بَهَا مُعَلِّمِينَ مُنْتَصِبِينَ لِلتَّعْلِيمِ الْخَطِّ يَأْتُونَ عَلَى التَّمَعُّلِ قَوَائِنَ وَأَحْكَامًا
فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ فَيَتَعَضَّدُ لَدَيْهِ رُبَّةُ الْعِلْمِ
وَالْحُسْنِ فِي التَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أُمَّةِ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا آتَى هَذَا مِنْ كَمَالِ الصَّنَائِعِ
وَوُفُورِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمُرَانِ وَالتَّنَسُّحِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ بَالِغًا مَبَالِغَهُ
مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِنْفَانِ وَالْجُودَةِ فِي دَوْلَةِ التَّبَاعَةِ بِنَا بَلَّغَتْ مِنَ الْخِصَارَةِ وَالتَّرْفِ وَهُوَ
الْمَسْمِيُّ بِالْخَطِّ الْحَمِيرِيِّ وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْخَيْرَةِ لِمَا كَانَ بَهَا مِنْ دَوْلَةِ آلِ الْمُنْذِرِ
أَسْبَاءِ التَّبَاعَةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ وَالْحَجْدِيدِ لِمَلِكِ الْعَرَبِ بَارِضِ الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنْ الْخَطُّ عِنْدَهُمْ
مِنَ الْإِجَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ التَّبَاعَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ وَكَانَتِ الْخِصَارَةُ وَتَوَابِعُهَا
مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا قَاصِرَةً عَنِ ذَلِكَ وَمِنَ الْخَيْرَةِ لِقَمَّةِ أَهْلِ الطَّائِفِ وَقُرَيْشٍ فِيمَا ذَكَرَ
وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ مِنَ الْخَيْرَةِ هُوَ سَفِيَانُ بْنُ أُمِيَّةٍ وَيُقَالُ حَرْبُ بْنُ أُمِيَّةٍ
وَأَخَذَهَا مِنْ أَسَلَمِ بْنِ سُدْرَةَ وَهُوَ قَوْلٌ مُمَكِّنٌ وَأَقْرَبُ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا
مِنَ إِيَادِ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةٌ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَدِيدًا وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ

وَهُوَ قَوْلٌ بَعِيدٌ لِأَنَّ إِيَادَ وَإِنْ نَزَلُوا سَاحَةَ الْعِرَاقِ فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ
وَالْخَطِّ مِنَ الصَّنَائِعِ الْخِصْرِيَّةِ وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْخَطِّ وَالْقَلَمِ
مِنَ الْعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ الْأَمْصَارِ وَضَوَاحِيهَا فَالْقَوْلُ بِأَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ إِنَّمَا لَقِنُوهَا
مِنَ الْخَيْرَةِ وَلَقِنُوهَا الْخَيْرَةُ مِنَ التَّبَاعَةِ وَحَمِيرٌ هُوَ الْأَلْيَقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَكَانَ لِحْدِيرِ كِتَابَةِ
تُسَمَّى الْمُسْنَدَ حُرُوفُهَا مُنْفَصِلَةٌ وَكَانُوا يَمْنَعُونَ مِنْ تَعَلُّمِهَا إِلَّا بِأَذْنِهِمْ وَمِنْ حَمِيرٍ تَعَلَّمَتْ
مَضْرُ الْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا نَجِيدِينَ لَهَا شَأْنِ الصَّنَائِعِ إِذَا وَقَمَتْ بِالْبَدْوِ
فَلَا تَكُونُ مُحْكَمَةً الْمَذَاهِبِ وَلَا مَائِلَةً إِلَى الْإِنْفَانِ وَالتَّنَمِيقِ لِيُؤْنِ مَا بَيْنَ الْبَدْوِ
وَالصَّنَاعَةِ وَاسْتَفْنَاءِ الْبَدْوِ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ وَكَانَتْ كِتَابَةُ الْعَرَبِ بَدْوِيَّةً مِثْلَ كِتَابَتِهِمْ أَوْ
قَرِيبًا مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَوْ نَقُولُ إِنَّ كِتَابَتَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْسَنُ صِنَاعَةٍ لِأَنَّ هُوَ لَأَوْلَى

أَقْرَبُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَمَخَالَطَةِ الْأَمْصَارِ وَالِدُّوْلِ وَأَمَّا مُضَرٌّ فَكَانُوا أَعْرَقَ فِي الْبَدْوِ وَأَبَدَ
عَنِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ فَكَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ لِأَوَّلِ
الْإِسْلَامِ غَيْرَ بَالِغٍ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِنْفَانِ وَالْإِجَادَةِ وَلَا إِلَى التَّوَسُّطِ
لِمَكَانِ الْعَرَبِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالتَّوَحُّشِ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَنْظُرْ مَا وَرَعَ لِأَجْلِ ذَلِكَ
فِي رَسْمِهِمُ الْمُضْحَفِ حَيْثُ رَسَمَهُ الصَّحَابَةُ بِخُطُوطِهِمْ وَكَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكِمَةٍ فِي الْإِجَادَةِ
فَخَالَفَ الْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِهِمْ مَا افْتَضَتْهُ رُسُومُ صِنَاعَةِ الْخَطِّ عِنْدَ أَهْلِهَا ثُمَّ أَقْتَنَى التَّابِعُونَ
مِنَ السَّلَفِ رَسْمَهُمْ فِيهَا تَبَرُّكَ كَمَا بِمَا رَسَمَهُ أَصْحَابُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرُ
الْخَلْقِ مِنْ بَعْدِهِ الْمُتَلَقُونَ لَوْحِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ كَمَا يُقْتَنَى لِهَذَا الْعَهْدِ خَطُّ وَلِيٍّ
أَوْ عَالِمٍ تَبَرُّكَ كَمَا وَبُتَّعَ رَسْمُهُ خَطًّا أَوْ صَوَابًا وَأَيْنَ نِسْبَةُ ذَلِكَ مِنَ الصَّحَابَةِ فِيمَا كَتَبُوهُ
فَاتَّبَعَ ذَلِكَ وَأَثَبَتْ رَسْمًا وَنَبَهَ الْعُلَمَاءُ بِالرَّسْمِ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَلَا تَلْتَفَتَنَّ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا
يُرْسَمُهُ بَعْضُ الْمُعْتَلِينَ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْكَمِينَ لِصِنَاعَةِ الْخَطِّ وَأَنَّ مَا يَتَخَيَّلُ مِنْ
مُخَالَفَةِ خُطُوطِهِمْ لِأَصُولِ الرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يَتَخَيَّلُ بَلْ لِكَلِمَاتِهَا وَجَهٌ يَقُولُونَ فِي مِثْلِ
زِيَادَةِ الْأَنْبِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ إِنَّهُ تَنبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّبْحَ لَمْ يَقَعْ وَفِي زِيَادَةِ الْيَاءِ فِي بَأَيْدِ
إِنَّهُ تَنبِيهُ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَأَمثال ذلك مما لا أصل له إلا التَّحْكُمُ
الْمُحَضُّ وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَعْتَقَادُهُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْزِيهًا لِلصَّحَابَةِ عَنِ تَوْهُمِ
النَّقْصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ الْخَطِّ وَحَسِبُوا أَنَّ الْخَطَّ كَمَالٌ فَتَزَهَّرُ عَنْ نَقْصِهِ وَنَسَبُوا إِلَيْهِمْ
الْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ وَطَلَبُوا تَعْلِيلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ مِنْ رَسْمِهِ وَذَلِكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ إِذِ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَعَاشِيَّةِ
كَمَا رَأَيْتَهُ فِيمَا مَرَّ وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ إِضَافِي بِكَمَالٍ مُطْلَقٍ إِذْ لَا يَعُودُ نَقْصُهُ عَلَى
النَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْخِلَالِ وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ وَبِحَسَبِ الْعُمُرَانِ وَالتَّعَاوُنِ
عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ . وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيًّا وَكَانَ
ذَلِكَ كَمَالًا فِي حَقِّهِ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لِشَرَفِهِ وَتَنْزُّهِهِ عَنِ الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ
أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْعُمُرَانِ كُلِّهَا وَابْتَسَتْ الْأُمِّيَّةُ كَمَالًا فِي حَقِّهَا تَحْنُ إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى
رَبِّهِ وَتَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَانَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا حَتَّى الْعُلُومِ الْأِصْطِلَاحِيَّةِ فَإِنَّ
الْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَنْزُّهُهُ عَنْهَا جَمَلَةً بِمُخَالَفَتِنَا ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الدَّلِيلُ لِلْعَرَبِ وَفَتَحُوا

الْأَمْصَارَ وَمَلَكَوا الْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَاحْتاجَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى الْكِتَابَةِ
 اسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمَهُ وَتَدَاوَلُوهُ فَتَرَقَّتِ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَاسْتَحْكَمَ وَبَلَغَ
 فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ زُبْنَةً مِنَ الْإِثْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ الْعَالِيَةِ وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ
 مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ ثُمَّ انْتَشَرَ الْعَرَبُ فِي الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ وَافْتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ
 وَالْأَنْدَلُسَ وَاخْتَطَبَ بَنُو الْعَبَّاسِ بَعْدَادَ وَتَرَقَّتِ الْخَطُوطُ فِيهَا إِلَى الْعَالِيَةِ لَمَّا اسْتَبَجَرَتْ فِي
 الْعُمُرَانَ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرَّزَتِ الدَّوْلَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَكَانَ خَطُّ الْبَغْدَادِيِّ مَعْرُوفَ
 الرَّسْمِ وَتَبِعَهُ الْأَفْرِيقِيُّ الْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ الْقَدِيمُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَيَقْرُبُ مِنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ
 الْمَشْرِقِيِّ وَتَحْيِرَ مَلِكِ الْأَنْدَلُسِ بِالْأَمْوِيِّينَ فَتَمَيَّزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالصَّنَائِعِ
 وَالْخَطُوطِ فَتَمَيَّزَ صِنْفُ خَطِّهِمُ الْأَنْدَلُسِيِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَطَمَّابَجْرَ
 الْعُمُرَانَ وَالْحِضَارَةَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ فُطْرٍ وَعَظْمُ الْمَلِكِ وَنَفَقَتِ أَسْوَاقُ
 الْعُلُومِ وَأَنْتَسَخَتْ الْكُتُبُ وَأُجِيدَ كِتَابُهَا وَتَجَايَدَهَا وَمَلِكَتْ بِهَا الْقُصُورُ وَالْحَزَائِنُ
 الْمَلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ الْأَقْطَارِ فِي ذَلِكَ وَتَنَاعَوْا فِيهِ ثُمَّ لَمَّا انْحَلَّ نِظَامُ
 الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَاقَصَتْ تَنَاقَصَ ذَلِكَ أَجْمَعُ وَدُرِسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادَ بِدُرُوسِ الْخِلَافَةِ
 فَانْتَقَلَ شَأْنُهَا مِنَ الْخَطِّ وَالْكِتَابَةِ بِلِ وَالْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ فَلَمْ تَنْزَلْ أَسْوَاقُهَا
 نَافِقَةً لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ بِهَا مَعْلُومُونَ يَرْتَمُونَ لِتَعَلِيمِ الْحُرُوفِ بِقَوَانِينِ فِي وَضْعِهَا وَأَشْكَالِهَا
 مَتَعَارَفَةً بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ الْمُتَعَلِّمُ أَوْ يُحْكِمُ أَشْكَالَ تِلْكَ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَوْضَاعِ
 وَقَدْ لَقِّنَهَا حَسَنًا وَحَدِّقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخَذَهَا قَوَانِينِ عِلْمِيَّةٍ فَتَجِبُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ
 وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَافْتَرَقُوا فِي الْأَقْطَارِ عِنْدَ تَلَاثِي مَلِكِ الْعَرَبِ بِهَا وَمَنْ خَلَفَهُمْ مِنْ
 الْبَرَبَرِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَّةُ النُّصْرَانِيَّةِ فَانْتَشَرُوا فِي عُدُوةِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ مِنَ لَدُنِ
 الدَّوْلَةِ اللَّيْثُونِيَّةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَشَارَكُوا أَهْلَ الْعُمُرَانَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الصَّنَائِعِ وَتَعَلَّقُوا
 بِأَذْيَالِ الدَّوْلَةِ فَغَلَبَ خَطُّهُمْ عَلَى الْخَطِّ الْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَنَسِيَ خَطُّ الْقَاهِرِيَّاتِ
 وَالْمَهْدِيَّةِ بِنِسْبَانِ عَوَائِدِهِمَا وَصَنَائِعِهِمَا وَصَارَتْ خَطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الرَّسْمِ
 الْأَنْدَلُسِيِّ بِنُوسٍ وَمَا لَيْهَا لَتَوْفُرُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِهَا عِنْدَ الْجَالِيَّةِ مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ
 وَبَقِيَ مِنْهُ رَسْمُ بِلَادِ الْجَرِيدِ الَّذِينَ لَمْ يُخَالَطُوا كِتَابَ الْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِحَوَارِهِمْ
 إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ الْمَلِكِ بِنُوسٍ فَصَارَ خَطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةِ مِنْ أَحْسَنِ خَطُوطِ

أهل الأندلس حتى إذا انقضى ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة
والذرف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه
التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما
كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر نحوها
وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي
لقرب جزائهم وسقوط من خرج منهم إلى فارس قريبا واستعمالهم إياهم سائر
الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط
بأفريقية والمغربيين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا
انسخت فلا فائدة تحصل لم تصححها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من
الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد
عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها
بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب
ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية
بحر زاجر بالعراق والأندلس إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة
وتفاق أسواق ذلك لدمهما فكثرت التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس على
تتأقلمها في الآفاق والأعمار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين
للانتساح والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتيبة والدواوين واختصت بالأمصار
العظيمة العمران وكانت السجلات أولاً لا تنتسح العلوم وكتب الرسائل السلطانية
والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهبأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرقه وقلة
الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فأقتصروا على الكتاب في الرق شريفاً
للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والأيقان ثم طمأ بحر التأليف والتدوين وكثر
ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة

الكاغِدِ وَصَنَعَهُ وَكَتَبَ فِيهِ رَسَائِلَ السُّلْطَانِ وَصُكُوكَهُ وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ
 صُحُفًا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَبَلَغَتْ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَاءَتْ ثُمَّ وُفِّتْ
 عَنَائِهِ أَهْلُ الْعُلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدُّوَلِ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَاوِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَتَضَحُّجِهَا بِالرِّوَايَةِ
 الْمُسْنَدَةِ إِلَى مُؤَلِّفِيهَا وَوَضْعِيهَا لِأَنَّهُ الشَّانُ الْأَمُّهُ مِنَ التَّضَحُّجِ وَالضَّبْطِ فَبِذَلِكَ تَسْنُدُ
 الْأَقْوَالِ إِلَى قَائِلِيهَا وَالْفُتْيَا إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا الْعَجْتَهْدِ فِي طَرِيقِ اسْتِنْبَاطِهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ
 تَضَحُّجُ الْمُتُونِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مُدَوِّنِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِ لَهُمْ وَلَا فُتْيَا وَهَكَذَا كَانَ
 شَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَتِهِ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ وَالْأَفَاقِ حَتَّى لَقَدْ قُصِرَتْ فَائِدَةُ الصِّنَاعَةِ
 الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرَّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ إِذْ تَمَرَّتْهَا الْكُبْرَى مِنْ مَعْرِفَةِ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ
 وَحُسْنِهَا وَمُسْنَدِهَا وَمُرْسَلِهَا وَهَقُوعِهَا وَمَوْفُوفِهَا مِنْ مَوْضِعِهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَتَمَخَّضَتْ زُبْدَةٌ
 فِي ذَلِكَ الْأَمَهَاتِ الْمُتَقَاتِ بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْأُمَّةِ وَصَارَ الْقَصْدُ إِلَى ذَلِكَ لَعَوًا مِنَ الْعَمَلِ
 وَلَمْ تَبْقُ ثَمَرَةٌ الرَّوَايَةِ وَالْإِشْغَالِ بِهَا إِلَّا فِي تَضَحُّجِ تِلْكَ الْأَمَهَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ وَسِوَاهَا
 مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ لِالْفُتْيَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَاوِينِ وَالتَّأَلُّفِ الْعِلْمِيَّةِ وَاتِّصَالَ سَنَدِهَا
 بِمُؤَلِّفِيهَا لِيَصِحَّ النَّقْلُ عَنْهُمْ وَالْإِسْنَادُ إِلَيْهِمْ وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ
 مَعْبَدَةَ الطَّرِيقِ وَاضِحَةً الْمَسَالِكِ وَلِهَذَا تُجَدُّ الدَّوَاوِينُ الْمُنْتَسَخَةُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي أَقْطَارِهِمْ
 عَلَى غَايَةِ مِنَ الْأَنْقَانِ وَالْإِحْكَامِ وَالصَّحَّةِ وَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَيْدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ
 أُصُولٌ عَتِيقَةٌ تَشْهَدُ بِمُلُوحِ غَايَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَهْلُ الْأَفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآنِ
 وَيَشُدُّونَ عَلَيْهَا يَدَ الضَّمَانَةِ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْعَهْدِ جَمَلَةٌ بِالْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ
 لَانْقِطَاعِ صِنَاعَةِ الْخَطِّ وَالضَّبْطِ وَالرِّوَايَةِ مِنْهُ بِانْتِقَاصِ عُمُرَانِهِ وَبِدَاوَةِ أَهْلِهِ وَصَارَتْ
 الْأَمَهَاتُ وَالِدَّوَاوِينُ تُنَسَخُ بِالْخَطِّ الْيَدَوِيِّ تَنْسَخُهَا طَلَبَةُ الْبُرْزُورِ صَحَائِفُ مُسْتَحْجَمَةٌ بِرَدَاءَةِ
 الْخَطِّ وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ وَالتَّضَحُّجِ فَتَسْتَعْلِقُ عَلَى مُتَضَحِّجِيهَا وَلَا يَحْصُلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
 النَّادِرِ وَأَيْضًا فَقَدْ دَخَلَ الْخَلَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْفُتْيَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَعْرُوفَةِ غَيْرِ مَرْوِيَّةِ
 عَنِ أُمَّةِ الْمَذْهَبِ وَإِنَّمَا تَتَلَقَّى مِنْ تِلْكَ الدَّوَاوِينِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَتَبَعُ ذَلِكَ أَيْضًا مَا
 يَبْصُرُ إِلَيْهِ بَعْضُ أُمَّتِهِمْ مِنَ التَّأَلُّفِ لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ وَعَدَمِ الصَّنَاعَةِ الْوَالِفِيَّةِ
 بِمِقَاصِدِهِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الرَّسْمِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا آثَارُهُ خَفِيَّةٌ بِالْإِحْمَاكِ وَهِيَ الْإِضْجَالُ
 فَقَدْ كَادَ الْعِلْمُ يَنْقَطِعُ بِالْكَلِيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَبَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ

أَنَّ صِنَاعَةَ الرَّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالْمَشْرِقِ وَتَصْحِيحُ الدَّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى
 مُبْتَغِيهِ لِمَتَنَاقِ اسْوَاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَمَا نَذَرَهُ بَعْدَ إِلاَّ أَنَّ الْخَطَّ الَّذِي بَقِيَ مِنَ
 الْإِجَادَةِ فِي الْإِنْتِسَاخِ هُنَاكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجْمِ وَفِي خَطُوطِهِمْ وَأَمَّا النَّسْخُ بِمِصْرَ ففَسَدَ
 كَمَا فَسَدَ بِالْمَغْرِبِ وَأَسَدَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ لِحَيْنِ الْأَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ بِتَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نِسْبٍ مُنْتَظِمَةٍ
 مَعْرُوفَةٍ يُوقَعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعًا عِنْدَ قِطْعِهِ فَيَكُونُ نِعْمَةً ثُمَّ تَوَانُفٌ تِلْكَ النِّعْمُ بَعْضُهَا
 إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسْبٍ مُتَعَارِفَةٍ فَيَلِدُ سَمَاعَهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّنَاسُبِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنْ
 الْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَتُنَاسَبُ
 فَيَكُونُ صَوْتٌ نِصْفَ صَوْتٍ وَرُبْعَ آخَرَ وَخُمْسَ آخَرَ وَجُزْءٌ مِنْ أَحَدِ عَشَرَ مِنْ آخَرَ
 وَاخْتِلَافٌ هَذِهِ النِّسْبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى السَّمْعِ بِخُرُوجِهَا مِنَ الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّرْكِيبِ
 وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْدُودًا عِنْدَ السَّمْعِ بَلْ لِلْمَلْدُودِ تَرْكِيبٌ خَاصَّةٌ وَهِيَ الَّتِي حَصَرَهَا
 أَهْلُ عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاقُ ذَلِكَ التَّحْوِينُ
 فِي النِّعْمَاتِ الْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنَ الْجَمَادَاتِ إِمَّا بِالْقَرَعِ أَوْ بِالنَّفْحِ فِي
 الْأَلَاتِ تُتَّخَذُ لِذَلِكَ قَرِي لَهَا لَذَّةٌ عِنْدَ السَّمْعِ فَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَصْنَافٌ مِنْهَا مَا يُسَمُّونَهُ
 الشَّبَابَةَ وَهِيَ قِصْبَةٌ جَوْفَاءٌ بِالْبُخَّاشِ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٌ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ فَيُخْرِجُ الصَّوْتُ
 مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَيَقْطَعُ الصَّوْتُ بِوَضْعِ الْأَصَابِعِ مِنَ الْيَدَيْنِ
 جَمِيعًا عَلَى تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَضَعًا مُتَعَارِفًا حَتَّى تَحْدُثَ النِّسْبُ بَيْنَ الْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتُنْتَصِلَ
 كَذَلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَمِذُ السَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ جِنْسِ هَذِهِ
 الْأَلَةِ الْمَرْمَارُ الَّذِي يُسَمَّى الرِّزْلَامِيَّ وَهُوَ شَكْلُ الْقِصْبَةِ مَخْنُوتَةٌ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الْخَشَبِ
 جَوْفَاءٌ مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ائْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ مُنْفَرِدَتَيْنِ كَذَلِكَ بِالْبُخَّاشِ مَعْدُودَةٌ
 يُنْفَخُ فِيهَا بِقِصْبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوصَلُ فَيَنْفِذُ النَّفْحُ بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنِعْمَةٍ حَادَةٍ يُجْرِي
 فِيهَا مِنْ نَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ بِالْأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يُجْرِي فِي الشَّبَابَةِ
 وَمِنْ أَحْسَنِ الْأَلَةِ الرِّزْمَرُ لِهَذَا الْعَهْدِ الْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نِخَاسٍ أَجْوَفُ فِي مِقْدَارِ

الزَّرَاعِ يَتَسَعُ إِلَى أَنْ يَكُونَ أَنْفِرَاجٌ مَخْرَجِهِ فِي مِقْدَارِ دُونَ الْكَفِّ فِي شَكْلِ بَرِي
 الْقَلَمِ وَيَنْفَخُ فِيهِ بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّي الرِّيحَ مِنَ الْقَمِّ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ ثَمِينًا دَوِيًّا
 وَفِيهِ أَبْجَاشٌ أَيْضًا مَعْدُودَةٌ وَتُقَطَّعُ نَعْمَةٌ مِنْهَا كَذَلِكَ بِالْأَصَابِعِ عَلَى الْإِنْسَابِ فَيَكُونُ
 مَلْدُودًا وَمِنْهَا آلَاتُ الْأَوْتَارِ وَهِيَ جَوْفَاءُ كُلُّهَا إِمَّا عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الْكُرَّةِ مِثْلَ
 الْمَرْبِطِ وَالرَّبَابِ أَوْ عَلَى شَكْلِ مُرْبَعٍ كَالْقَانُونِ تُوضَعُ الْأَوْتَارُ عَلَى بَسَائِطِهَا مَشْدُودَةٌ
 فِي رَأْسِهَا إِلَى دَسْرِ جَانِبَيْهَا لِتَأْتِي شِدُّ الْأَوْتَارِ وَرِخْوَتُهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا ثُمَّ
 تُفْرَعُ الْأَوْتَارُ إِمَّا بَعْدَ آخِرٍ أَوْ بِوَتَرٍ مَشْدُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ
 يُطْلَى بِالشَّعْرِ وَالْكَنْدَرِ وَيُقَطَّعُ الصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْفِيفِ الْيَدِ فِي إِهْرَارِهِ أَوْ تَقْلِهِ مِنْ
 وَتَرٍ إِلَى وَتَرٍ وَالْيَدُ الْيُسْرَى مَعَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ آلَاتِ الْأَوْتَارِ تُوقَعُ بِأَصَابِعِهَا عَلَى
 أَطْرَافِ الْأَوْتَارِ فِيمَا يَفْرَعُ أَوْ يَحُكُّ بِالْوَتَرِ فَتَحْدُثُ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً مَلْدُودَةً
 وَقَدْ يَكُونُ الْقَرْعُ فِي الطُّسُوتِ بِالْقُضْبَانِ أَوْ فِي الْأَعْوَادِ بَعْضُهَا يَبْعُضُ عَلَى تَوْقِيعٍ مُنَاسِبٍ
 يَحْدُثُ عَنْهُ التَّنَادُّ بِالْمَسْمُوعِ وَلِنَبِينِ لَكَ السَّبَبُ فِي اللَّذَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْغِنَاءِ وَذَلِكَ أَنْ
 اللَّذَّةَ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ هِيَ إِدْرَاكُ الْمَلَائِمِ وَالْحَسُّوسِ إِنْمَا تُدْرِكُ مِنْهُ كَيْفِيَّةٌ
 فَإِذَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً لِلْمُدْرِكِ وَمَلَائِمَةً كَانَتْ مَلْدُودَةً وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةً
 كَانَتْ مُؤَالِمَةً فَالْمَلَائِمُ مِنَ الطُّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتَهُ حَاسَةً الذَّوْقِ فِي مِرَاجِحِهَا وَكَذَا
 الْمَلَائِمُ مِنَ الْمَلْمُوسَاتِ وَفِي الرِّوَائِحِ مَا نَاسَبَ رِزَاجَ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ الْبَخَّارِيِّ لِأَنَّهُ
 الْمُدْرِكُ وَالْيَهُ تُوَدَّى بِهِ الْحَاسَّةُ وَلِهَذَا كَانَتْ الرِّيَّاحِينَ وَالْأَزْهَارُ الْعَطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ
 رَائِحَةٍ وَأَشَدَّ مَلَاءِمَةً لِلرُّوحِ لِعَلْبَةِ الْحَرَارَةِ فِيهَا الَّتِي هِيَ مِرَاجُ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ وَأَمَّا
 الْمَرِيَّاتُ وَالْمَسْمُوعَاتُ فَالْمَلَائِمُ فِيهَا تَنَاسُبُ الْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا فَهُوَ
 أَنْسَبُ عِنْدَ النَّفْسِ وَأَشَدُّ مَلَاءِمَةً لَهَا فَإِذَا كَانَ الْمَرِيئُ مُتَنَاسِبًا فِي أَشْكَالِهِ وَمَخَاطِطِهِ
 الَّتِي لَهُ بِحَسَبِ مَادَّتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ مَادَّتُهُ الْخَاصَّةُ مِنْ كَمَالِ الْمُنَاسِبَةِ
 وَالْوَضْعِ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي كُلِّ مُدْرِكٍ كَانَ ذَلِكَ حِينَئِذٍ مُنَاسِبًا
 لِلنَّفْسِ الْمُدْرِكَةِ فَتَلْتَدُّ بِإِدْرَاكِهَا وَلِهَذَا تَجِدُ الْعَاشِقِينَ الْمُسْتَهْتَرِينَ فِي الْحُبِّ
 يُعَابِرُونَ عَنْ غَايَةِ مَحَبَّتِهِمْ وَعَشْفِهِمْ بِأَمْتِرَاجِ أَرْوَاحِهِمْ بِرُوحِ الْمَحْبُوبِ وَفِي هَذَا سِرٌّ
 تَقَهَّمُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ اتِّحَادُ الْمَبْدَأِ وَإِنْ كَانَ مَا سِوَاكَ إِذَا نَظَرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَهُ

رَأَيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ اتِّحَادًا فِي الْبِدْءِ إِشْهَادًا بِهٖ اتِّحَادًا كَمَا فِي الْكَوْنِ وَمَعْنَاهُ مِنْ
وَجْهِ آخَرَ أَنَّ الْوُجُودَ يُشْرِكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ فَتَوَدُّ أَنْ يَمَازِجَ
بِمُشَاهَدَاتٍ فِيهِ الْكَمَالَ لِتَتَّخِذَ بِهِ بَلَّ تَرُومُ النَّفْسِ حِينَئِذٍ الْخُرُوجَ عَنِ الْوَجْهِ إِلَى
الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّحَادُ الْمَبْدِئِ وَالْكَوْنِ وَلَمَّا كَانَ أَنْسَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْرَبُهَا
إِلَى أَنْ يُدْرِكَ الْكَمَالَ فِي تَنَاسُبِ مَوْضُوعِهَا هُوَ شَكْلُهُ الْإِنْسَانِي كَانَ إِدْرَاكُهُ لِلْجَمَالِ
وَالْحُسْنِ فِي تَخَاطُطِهِ وَأَصْوَاتِهِ مِنَ الْمَدَارِكِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ فَيُلْهَجُ كُلُّ
إِنْسَانٍ بِالْحُسْنِ مِنَ الْمَرْيِيِّ أَوِ الْمَسْمُوعِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْحُسْنِ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ
تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً لَا مُتَنَافِرَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَّاتٌ مِنَ الْهَمْسِ
وَالْجَهْرِ وَالرَّخَاوَةِ وَالشَّدَّةِ وَالْقَلْقَلَةِ وَالضَّغَطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ
لَهَا الْحُسْنَ فَأَوْلَى أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى مَدِّهِ دَفْعَةً بَلَّ بِتَدْرِيجٍ ثُمَّ يَرْجِعُ كَذَلِكَ
وَهَكَذَا إِلَى الْمَثَلِ بَلَّ لَا بَدَّ مِنْ تَوْسُطِ الْمَعَايِرِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ وَتَأْمَلْ هَذَا مِنْ أَفْتِاحِ
أَهْلِ اللِّسَانِ التَّرَاكِبِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ أَوْ الْمُتَقَارِبَةِ الْمَخْرَاجِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ
وَتَأْنِيًا تَنَاسُبُهَا فِي الْأَجْزَاءِ كَمَا مَرَّ أَوَّلَ الْبَابِ فَيَخْرُجُ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى نِصْفِهِ أَوْ ثُلُثِهِ أَوْ
جُزْءٍ مِنْ كَدِّهَا مِنْهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّنْقُلُ مُتَنَاسِبًا عَلَى مَا حَصَرَهُ أَهْلُ الصَّنَاعَةِ فَإِذَا
كَانَتْ الْأَصْوَاتُ عَلَى تَنَاسُبٍ فِي الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ كَانَتْ مَلَأْمَةً
مَلْدُودَةً وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَكُونُ بَسِطًا وَيَكُونُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ
لَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى تَعْلِيمٍ وَلَا صُنَاعَةٍ كَمَا نَحْنُ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْمَوَازِينِ الشَّعْرِيَّةِ وَتَوْفِيعِ
الرَّقِصِ وَآمِثَالِ ذَلِكَ وَتُسَمَّى الْعَامَّةُ هَذِهِ الْقَابِلِيَّةَ بِالْمَضْمَارِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ بِهَذِهِ
الْمَثَابَةِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ فَيَجِدُونَ فِي تَلَاحِينِ أَصْوَاتِهِمْ كُنْهًا الْمَزَامِيرِ فَيَطْرَبُونَ
بِحُسْنِ مَسَاقِيمِهِمْ وَتَنَاسُبِ نَعْمَاتِهِمْ وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يُخْتَلَفُ بِالْتَّرَكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ
يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَا كُلُّ الطَّبَاعِ تَوَافِقُ صَاحِبِيهَا فِي الْعَمَلِ بِهِ إِذَا عَلِمَ وَهَذَا هُوَ التَّلْحِينُ
الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِهِ عِلْمُ الْمَوْسِيقِيِّ كَمَا نَشْرَحُهُ بَعْدَ عِنْدَ ذِكْرِ الْعُلُومِ وَقَدْ أَنْكَرَ مَالِكُ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقِرَاءَةَ بِالْتَّلْحِينِ وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالتَّلْحِينِ
الْمَوْسِيقِي الصَّنَاعِي فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي حَظِّهِ إِذْ صِنَاعَةُ الْعَنَاءِ مُبَايَنَةٌ لِلْقُرْآنِ
بِكُلِّ وَجْهِ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالْأَدَاءَ نَحْتَاجُ إِلَى مَقْدَارٍ مِنَ الصَّوْتِ لِتَعِينِ أَدَاءِ الْحُرُوفِ لَا

مِنْ حَيْثُ اتَّبَعَ الْحَرَكَاتُ فِي مَوْضِعِهَا وَمَقْدَارِ الْمَدِّ عِنْدَ مَنْ يُطْلَقُ أَوْ يُقْصَرُ وَأَمثالُ
 ذَلِكَ وَالتَّلْحِينُ أَيْضًا يَتَّبِعُ لَهُ مَقْدَارٌ مِنَ الصَّوْتِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي
 قُلْنَا فِي حَقِيقَةِ التَّلْحِينِ وَاعْتِبَارِ أَحَدِهَا قَدْ يُخْلُ بِأَخْرَاجِهَا تَعَارُضًا وَتَقْدِيمُ الرَّوَايَةِ مُتَعَيِّنٌ
 مِنْ تَغْيِيرِ الرَّوَايَةِ الْمَنْقُولَةِ فِي الْقُرْآنِ فَلَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُ التَّلْحِينِ وَالْأَدَاءِ الْمَعْتَبَرِ فِي
 الْقُرْآنِ بَوَاجِهِ وَإِنَّمَا مَرَادُهُمُ التَّلْحِينُ الْبَسِيطُ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمَضْمَارِ بِطَبْعِهِ كَمَا
 قَدَّمَاهُ فَيُرَدُّ دُأْصَوَانُهُ تَرْدِيدًا عَلَى نَسَبِ يَدْرُكُهَا الْعَالَمُ بِالْغِنَاءِ وَغَيْرِهِ وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ
 بَوَاجِهِ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ هَذَا هُوَ مَحَلُّ الْخِلَافِ وَالظَّاهِرُ تَنَزُّهُهُ الْقُرْآنُ عَنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا
 ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ الْقُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ يَذْكَرُ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ
 وَلَيْسَ مَقَامُ التَّنَادُازِ بِإِدْرَاكِ الْحَسَنِ مِنَ الْأَصْوَاتِ وَهَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ أَوْتِي زِمَارًا مِنْ زِمَامِيرِ
 آلِ دَاوُدَ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّرْدِيدُ وَالتَّلْحِينُ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حَسُنُ الصَّوْتِ وَأَدَاءُ الْقِرَاءَةِ
 وَالْإِيَانَةُ فِي خَارِجِ الْحُرُوفِ وَالتَّلْحِينُ بِهَا وَإِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى الْغِنَاءِ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ يَحْدُثُ
 فِي الْعُمُرَانِ إِذَا تَوَقَّرَ وَتَجَاوَزَ حَدَّ الضَّرُورِيِّ إِلَى الْحَاجِيِّ ثُمَّ إِلَى الْكَمَالِيِّ وَتَنَبَّأُوا
 فَتَحَدَّثُوا هَذِهِ الصَّنَاعَةَ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَعَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ
 وَالْمُهَيَّبَةِ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا الْفَارِغُونَ عَنْ سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ
 تَفَنَّنًا فِي مَذَاهِبِ الْمَلَكُودَاتِ وَكَانَ فِي سُلْطَانِ الْعَجَمِ قَبْلَ الْمَلَّةِ مِنْهَا بَجْرٌ زَاخِرٌ فِي
 أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُوعُونَ بِهِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ
 الْفَرَسِ أَهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ
 وَتَجَمُّعَهُمْ وَيَغْنُونُ فِيهَا وَهَذَا شَأْنُ الْعَجَمِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِهِمْ وَمَمْلَكَةِ
 مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَأَمَّا الْعَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوْلًا فَنُ الشَّعْرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ الْكَلَامَ أَجْزَاءً
 مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنِهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ وَالسَّاكِنَةِ وَيَقْصِلُونَ الْكَلَامَ
 فِي تِلْكَ الْأَجْزَاءِ تَفْصِيلًا يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلًّا بِالْإِفَادَةِ لَا يَتَعَطَّفُ عَلَى الْآخِرِ
 وَيُسَمَّوْنَهُ الْبَيْتَ فَتَلَاغَمُ الطَّبَعِ بِالتَّجْزِئَةِ أَوْلًا ثُمَّ يَتَنَاسَبُ الْأَجْزَاءُ فِي الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِيءِ
 ثُمَّ يَتَأَدِّيهِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَتَطْبِيقُ الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَلْيَهْجُوا بِهِ فَأَمْتَازَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِمْ
 بِحِطِّ مِنَ الشَّرْفِ لَيْسَ لغيرِهِ لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ بِهَذَا التَّنَاسُبِ وَجَعَلُوهُ دِيوانًا لِأَخْبَارِهِمْ

وَحُكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَتَحَكُّمًا لِقُرَائِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِبِ وَأَسْتَمَرُّوا
 عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ الْأَجْزَاءِ وَالْمُتَحَرِّكِ وَالسَّاكِنِ مِنَ الْحُرُوفِ
 قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كِتَابِ الْمَوْسِقِيِّ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ
 يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَتَّجِلُوا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً وَكَانَتِ الْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ
 لِحَالِهِمْ ثُمَّ تَغَيَّرَ الْخِدَاةُ مِنْهُمْ فِي حِدَاةِ إِبْلِهِمْ وَالْفَتْيَانِ فِي فِضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَعُوا الْأَصْوَاتِ
 وَتَرَنَّمُوا وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّرَنُّمَ إِذَا كَانَ بِالشَّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ
 الْقِرَاءَةِ تَغْيِيرًا بِالغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَعَلَّهَا أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَاجُ بِأَنَّهَا تَذَكُّرٌ
 بِالغَايِرِ وَهُوَ الْبَاقِي أَيْ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النِّعَمَاتِ مُنَاسَبَةً
 بَسِيطَةً كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو رَشِيْقٍ آخَرَ كِتَابَ الْعُمْدَةِ وَغَيْرَهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ السِّنَادَ
 وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْخَفِيفِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيَمْشَى بِالذِّفِّ وَالزَّمَارِ
 فَيَضْرِبُ وَيَسْتَحْفِظُ الْحُلُومَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا الْمَرْجَ وَهَذَا الْبَسِيطُ كُلُّهُ مِنَ التَّلَاحِينِ
 هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَنَفِظَنَّ لَهُ الطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ شَأْنَ الْبَسَائِطِ كُلِّهَا مِنَ
 الصَّنَائِعِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَ الْعَرَبِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَأَسْتَوَلُوا
 عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْعَجْمِ وَغَلَبُوهُ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْعَضَاضَةِ عَلَى
 الْحَالِ الَّتِي عَرَفَتْ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ أَحْوَالِ الْفِرَاقِ وَمَا لَيْسَ
 بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَبْثًا مَا وَلَمْ يَكُنِ الْمَلْدُودُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعُ
 الْقِرَاءَةِ وَالتَّرَنُّمِ بِالشَّعْرِ الَّذِي هُوَ دِينُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ
 الرِّفَةُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ الْأَنْهَمِ صَارُوا إِلَى نِضَارَةِ الْعَيْشِ وَرَفَقَةِ الْحَاشِيَةِ وَاسْتِحْلَاءِ
 الْفِرَاقِ وَافْتِرَاقِ الْمَغْنُونِ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ فَوَقَعُوا إِلَى الْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِي لِّلْعَرَبِ
 وَغَنَوْا حِمِيًّا بِالْعِمْدَانِ وَالطَّنَابِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالزَّمَامِيرِ وَسَمِعَ الْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ
 فَحَنُّوا عَلَيْهِمْ أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ نَشِيطُ الْفَارِسِيِّ وَطُوَيْسُ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ مَوْلَى عُبَيْدِ
 اللَّهِ ابْنِ جَعْفَرٍ فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَحَنُّوهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرُهُ ثُمَّ أَخَذَ عَنْهُمْ
 مَعْبَدٌ وَطَبَقْتُهُ وَأَبْنُ شَرِيْحٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تُتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ كَمَلَتْ أَيَّامُ بَنِي الْعَبَّاسِ
 عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ وَأَبْنِهِ إِسْحَاقَ وَأَبْنِهِ حَمَّادَ وَكَانَ مِنْ
 ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ بَعْدَادًا مَا تَبِعَهُ الْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِعْجَالِيسِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَعُوا فِي اللَّهِ

وَاللَّبِ وَأُتُّخِذَتِ الْآتُ الرَّفِصُ فِي الْمَلْبَسِ وَالْقُضْبَانُ وَالْأَشْعَارُ الَّتِي يَرْتَمُ بِهَا عَلَيْهِ
وَجَعَلَ صِنْفًا وَحَدَهُ وَأُتُّخِذَتِ الْآتُ أُخْرَى لِلرَّفِصِ تُسَمَّى بِالْكَرْجِ وَهِيَ تَمَائِيلُ خَيْلٍ
مُسْرَجَةٌ مِنَ الْخُسْبِ مَعْلُوقَةٌ بِأَطْرَافِ أَقْبِيَةِ بِلْبَسِهَا النَّسْوَانُ وَيُحَاكِبُنَ بِهَا امْتِطَاءُ الْخَيْلِ
فَيَفْكِرُونَ وَيَقْرُونَ وَيَتَأَفَّفُونَ وَأَمثالُ ذَلِكَ مِنَ اللَّبِ الْمَعْدِدُ لِلْوَالِمِ وَالْأَعْرَاسُ وَأَيَّامُ
الْأَعْيَادِ وَمَجَالِسُ الْفَرَاغِ وَاللَّهُوُ وَكَثُرَ ذَلِكَ بِبَغْدَادَ وَأَمْصَارِ الْعِرَاقِ وَانْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى
غَيْرِهَا وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ عُلَامٌ اسْمُهُ زَرْيَابٌ أَخَذَ عَنْهُمْ الْعِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَّرْفُوهُ إِلَى
الْمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِالْحَكْمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخِلِ أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ
فَبَالَغَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِقَائِهِ وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالْإِفْطَاعَاتِ وَالْجَرَايَاتِ وَأَحَاهَهُ
مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدِمَاتِهِ بِمَكَانٍ فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْعِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ
الطَّوَائِفِ وَطَمًا مِنْهَا بِأَشْيَلِيَّةِ بَحْرٍ زَاخِرٍ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ الْعُدُودِ
بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَانْتَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا الْآنَ مِنْهَا صِبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمُرَانِهَا
وَتَنَاقُصِ دَوْلَتِهَا وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ أُخْرَى مَا يَحْصُلُ فِي الْعُمُرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ لِأَنَّهَا كَمَا لِيَتْ فِي
غَيْرِ وَظِنِيَّةٍ مِنَ الْأَوْطَائِفِ إِلَّا وَظِيْفَةُ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنْ
الْعُمُرَانِ عِنْدَ اخْتِلَالِهِ وَتَرَاجُعِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب
قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تُوْجَدُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَأَنَّ
خُرُوجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ الْعُلُومِ وَالْإِدْرَاكَاتِ عَنِ الْمَحْسُوسَاتِ
أَوَّلًا ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِالْقُوَّةِ النَّظْرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكَاً بِالْفِعْلِ وَعَقْلاً مُحَضَّراً
فَتَكُونُ ذَاتاً رُوحَانِيَّةً وَتَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وَجُودَهَا فَوْجَبَ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ
مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظْرِ يُفِيدُهَا عَقْلاً فَرِيداً وَالصَّنَائِعُ أَبَدًا يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَلَكَتِهَا قَانُونٌ
عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَكَةِ فَلِذَا كَانَتِ الْحُكْمَةُ فِي التَّجْرِبَةِ تُفِيدُ عَقْلاً وَالْحِصَارَةُ
الْكَامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلاً لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعٍ فِي شَأْنِ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ وَمُعَاشَرَةِ أَبْنَاءِ
الْجِنْسِ وَتَحْصِيلِ الْأَدَابِ فِي مَخَالِطِهِمْ ثُمَّ الْقِيَامُ بِأُمُورِ الدِّينِ وَأَعْتِبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائِطِهَا
وَهَذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينٌ تَنْتَظِمُ عُلُومًا فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ عَقْلِ وَالْكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ الصَّنَائِعِ

أَكْثَرُ إِفَادَةٍ لِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْأَنْظَارِ بِخِلَافِ الصَّنَائِعِ وَبَيَانُهُ أَنَّ فِي
 الْكِتَابَةِ انْتِقَالَ مِنَ الْحُرُوفِ الْخَطِيئَةِ إِلَى الْكَلِمَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ وَمِنَ الْكَلِمَاتِ
 اللَّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي فِي النَّفْسِ ذَلِكَ دَائِمًا فَيَحْضُرُ لَهَا مَلَكَةُ الْإِنْتِقَالِ مِنْ
 الْأَدِلَّةِ إِلَى الْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَكْسِبُ الْعُلُومَ الْعَجْهَوْلَةَ
 فَيَكْسِبُ بِذَلِكَ مَلَكَةً مِنَ التَّعَقُّلِ تَكُونُ زِيَادَةً عَقْلٍ وَيَحْضُرُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ فِي
 الْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْإِنْتِقَالِ وَلِذَلِكَ قَالَ كَسْرَى فِي كِتَابِهِ لَمَّا رَأَى هُمْ بِتِلْكَ
 الْفِطْنَةِ وَالْكَيسِ فَقَالَ دِيَوَانُهُ أَيُّ شَيْطَانِينَ وَجُنُونٍ قَالُوا وَذَلِكَ أَصْلُ اشْتِقَاقِ الدِّيَوَانِ
 لِأَهْلِ الْكِتَابَةِ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ الْحِسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي الْعَدَدِ
 بِالْأَضْمِ وَالتَّفْرِيقِ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مَتَعَوِّدًا لِلِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ
 وَهُوَ مَعْنَى الْعَقْلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ



الفصل السادس

من الكتاب الاول

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله
 من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

الفصل الاول

في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَتَهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ الْحِسِّ وَالْحَرَكَةِ
 وَالْغَدَاءِ وَالْكِنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ تَحْصِيلَ مَعَاشِهِ
 وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِإِنْبَاءِ جَنْسِهِ وَالْإِحْتِمَاعِ الْمُهَيَّءِ لِذَلِكَ التَّعَاوُنِ وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ
 عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلِ بِهِ وَاتِّبَاعِ صَلَاحِ أَخْرَافِهِ فَهُوَ مُذَكَّرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا
 يَفْتَرُ عَنِ الْفِكْرِ فِيهِ طَرَفَةٌ عَيْنٌ بَلِ اخْتِلَاجُ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمَعِ الْبَصَرِ وَعَنْ هَذَا
 الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعُلُومُ وَمَا قَدَّمَ نَاهٍ مِنَ الصَّنَائِعِ ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جَبَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ
 بَلِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ الطَّبَاعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاغِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ

عنده من الإدراكات فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك أو
أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على
أخذه وعلمه ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض
له لذاته واحداً بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحقائق العوارض بتلك الحقيقة
ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً وتنفوس نفوس
أهل الجليل النشء إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويحیی التعليم من هذا
فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعيتي في البشر

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الخلق في العلم والتفنن فيه والأستدلاء عليه إنما هو بحصول ملكة
في الإحاطة بمبادئه وقواعده وألوفه على مسانله وأسنباط فروعه من أصوله وما
لم تحصل هذه الملكة لم يكن الخلق في ذلك الفن المتناول حاصلاً وهذه الملكة
هي في غير الفهم والوعي لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيتها
مشتركة بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العاني الذي لم
يعرف علماً وبين العالم النحرير والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من
سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي والملكات كلها جسمانية سواء
كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة
فتفتقر إلى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير
العلميين فيها معتبراً عند كل أهل أفتي وجيل ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة
أختلاف الأصلاحات فيه فليكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم
يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان
واحداً عند جميعهم ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين
والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته بعد
الاصطلاحات في تعليمه مخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه
وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن أهل المغرب

بِاخْتِلَالِ عُمَرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الصَّنَائِعِ وَفَقْدَانِهَا
 كَمَا مَرَّ ذَلِكَ أَنَّ الْقَيْرَوَانَ وَفَرْطِبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَأَسْتَجْبَرَ عُمَرَانُهُمَا
 وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبُحُورٌ زَاخِرَةٌ وَرَسَخَ فِيهِمَا التَّعْلِيمُ لِامْتِدَادِ
 عَصُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ فَلَمَّا خَرِبَتَا انْقَطَعَ التَّعْلِيمُ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا
 كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِمَرَّاكِشٍ مُسْتَفَادًا مِنْهَا وَلَمْ تَرَسُخِ الْحَضَارَةُ بِمَرَّاكِشٍ لِبِدَاوَةِ
 الدَّوْلَةِ الْمُوحِدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبِ عَهْدِ انْقِرَاضِهَا بِمَبْدَأِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ
 فِيهَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَبَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ بِمَرَّاكِشٍ أَرْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةِ
 الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ زَيْتُونِ لِعَهْدِ أَوَاسِطِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ فَأَدْرَكَ تَلْمِيذَ الْإِمَامِ ابْنَ
 الْخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَحَدِّقَ فِي الْعَقَلِيَّاتِ وَالنَّقَلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ
 يَعْلَمُ كَثِيرًا وَتَعْلِيمُهُ حَسَنٌ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شُعَيْبِ الدَّكَّالِيُّ
 كَانَ أَرْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْرِبِ فَأَخَذَ عَنْ مَشِيخَةِ مِصْرَ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَأَسْتَقَرَّ بِهَا
 وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مُفِيدًا فَأَخَذَ عَنْهُمَا أَهْلُ تُونِسَ وَاتَّصَلَ سُنْدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلَامِيذِهَا جِيلًا
 بَعْدَ جِيلٍ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ شَارِحِ بْنِ الْحَاجِبِ وَتَلْمِيذِهِ
 وَانْتَقَلَ مِنْ تُونِسَ إِلَى تَلْمَسَانَ فِي ابْنِ الْإِمَامِ وَتَلْمِيذِهِ فَإِنَّهُ قَرَأَ مَعَ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَى
 مَشِيخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَجَالِسَ بَاعِيَانَهَا وَتَلْمِيذِهَا ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ بِتُونِسَ وَابْنُ الْإِمَامِ بِتَلْمَسَانَ
 لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْقَلَّةِ بَحَيْثُ يَخْشَى انْقِطَاعُ سُنْدِهِمْ ثُمَّ أَرْتَحَلَ مِنْ زَاوَاةٍ فِي
 آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الْمَشْدَلِيُّ وَأَدْرَكَ تَلْمِيذَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ
 الْحَاجِبِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَقَرَأَ مَعَ شَهَابِ الدِّينِ الْقَرَائِي فِي مَجَالِسَ وَاحِدَةٍ
 وَحَدِّقَ فِي الْعَقَلِيَّاتِ وَالنَّقَلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى الْمَغْرِبِ يَعْلَمُ كَثِيرًا وَتَعْلِيمُهُ مُفِيدٌ وَنَزَلَ
 بِبِجَايَةَ وَاتَّصَلَ سُنْدُ تَعْلِيمِهِ فِي طَلَبَتِهَا وَرُبَّمَا انْتَقَلَ إِلَى تَلْمَسَانَ عُمَرَانُ الْمَشْدَلِيُّ مِنْ
 تَلْمِيذِهِ وَأَوْطَنَهَا وَبَثَّ طَرِيقَتَهُ فِيهَا وَتَلْمِيذُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ بِبِجَايَةَ وَتَلْمَسَانَ قَلِيلٌ أَوْ أَقْلٌ
 مِنَ الْقَلِيلِ وَبَقِيَ فَاكِسُ وَسَائِرُ أَقْطَارِ الْمَغْرِبِ خُلُوعًا مِنْ حُسْنِ التَّعْلِيمِ مِنْ لَدُنْ
 انْقِرَاضِ تَعْلِيمِ فَرْطِبَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَلَمْ يَتَّصِلْ سُنْدُ التَّعْلِيمِ فَعَسِرَ عَلَيْهِمْ حُصُولُ الْمَلَكَةِ
 وَالْحَدِّقُ فِي الْعُلُومِ وَأَيْسَرُ طَرِيقُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَقَى اللِّسَانَ بِالْمَحَاوِرَةِ وَالْمَنَاظَرَةِ فِي
 الْمَسَائِلِ الْعَالِمِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي يُقَرَّبُ شَأْنَهَا وَيُحْصَلُ مَرَامُهَا فَتَجِدُ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْهُمْ بَعْدَ

ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوناً لا ينطقون ولا
 يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف
 في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجرد ملكته قاصرة في
 علمه إن فاوض أو ناظر أو علم وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده
 وإلا لحفظهم أبغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة
 العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طالبة
 العلم بالمدراس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدراس
 على المتعارف هي أقل مما يتأق فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو
 الأياس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرهما من قلة الجودة
 في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من
 بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين
 ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والآداب اقتصرُوا عليه وأحفظ سند
 تعليمه بينهم فأحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو واثرت بعد عين وأما العقليات
 فلا اثر ولا عين وما ذلك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو
 على عامتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعاشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله
 غالب على أمره . وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه ناقة وبحوره
 زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وإن كانت الأمصار العظيمة التي
 كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله تعالى قد
 أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء
 النهر من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها
 متصلة وسند التعليم بها قائماً فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم
 العلم وفي سائر الصنائع حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق
 في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد
 نباهة وأعظم كياسة بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس
 أهل المغرب ويعتقدون التماوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويشيعون لذلك

وَيُؤَلِّمُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ
 فُطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ مِثْلُ الْمَقْدَارِ الَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ
 اللَّهُمَّ إِلَّا الْأَفَالِيمَ الْمُنْحَرَفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ فَإِنَّ الْأَمْزَجَةَ فِيهَا مُنْحَرَفَةٌ
 وَالنُّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَّلَ بِهِ أَهْلُ الْمَشْرِقِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ
 هُوَ مَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ الْحِضَارَةِ مِنَ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ كَمَا نَقَدَّمْ فِي
 الصَّنَائِعِ وَتَزِيدُهُ الْآنَ تَحْقِيقًا وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي
 الْمَعَاشِ وَالْمَسْكِنِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ
 وَمَعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقِفُ عِنْدَهَا فِي جَمِيعِ
 مَا يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكِ حَتَّى كَانَتْهَا حُدُودٌ لَا تُتَعَدَى وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ
 صَانِعٌ يَتَلَقَّهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرْتَبَةٌ بِرَجْعِ
 مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلًا جَدِيدًا اسْتَعَدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَتَهَيَّأُ بِهَا
 الْعَقْلُ بِسُرْعَةٍ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَّغْنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَايَاتٍ
 لَا تُدْرِكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْحُمْرَ الْإِنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمَ مِنَ الْمَاشِي وَالطَّائِرِ
 مُفْرَدَاتٍ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَعْرَبُ نَدْوَرُهَا وَيَعْجُزُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحَسْنِ
 الْمَلَكَاتِ فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَّةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ ذِكَاً فِي عَقْلِهِ
 وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ الْخَاصَّةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَمْنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ
 بِالْإِدْرَاكَاتِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ فَيَزِدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْسًا لِمَا يَرْجِعُ إِلَى
 النَّفْسِ مِنَ الْآثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَيُظَنُّ الْعَامِي تَفَاوُتًا فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ
 إِلَّا تَرَى إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْحَضْرِيَّ مُحَلِّمًا بِالذِّكَاةِ مُمْتَلِئًا
 مِنَ الْكَيْسِ حَتَّى إِنْ الْبَدْوِيَّ أَيْظَنَّهُ أَنَّهُ قَدْ فَانَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ
 كَذَلِكَ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ
 الْحَضْرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدْوِيُّ فَلَمَّا أَمْتَلَأَ الْحَضْرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحَسْنِ
 تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا كِمَالٌ فِي عَقْلِهِ وَإِنَّ نَفْسَ أَهْلِ الْبَدْوِ
 قَاصِرَةٌ يَفْطُرُهَا وَجَبَلَتْهَا عَنْ فُطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي
 أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ النَّهْمِ وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفُطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ

ذَلِكَ هُوَ رَوْقُ الصَّنَائِعِ وَالتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهَا آثَارًا تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَكَذَا
 أَهْلُ الْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ
 أَقْرَبَ إِلَى الْبِدَاوَةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَ هَذَا ظَنَّ الْمَغْفُلُونَ فِي بَادِيءِ الرَّأْيِ أَنَّهُ
 لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اخْتَصَمُوا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَوَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَهَبَّهُ
 وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

الفصل الثالث

في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جُمَلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا
 أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي الْأَمْصَارِ وَعَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهَا فِي الْكَثْرَةِ وَالْقَلَّةِ وَالْحَضَارَةِ
 وَالتَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَائِعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثْرَةِ لِأَنَّ أُمْرًا زَائِدًا عَلَى الْمَعِاشِ فَمَتَى
 فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمْرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ أَنْصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعِاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ
 فِي خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَمَنْ تَشَوَّفُ بِفِطْرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي
 الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّدَةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِي لِفَقْدَانِ الصَّنَائِعِ
 فِي أَهْلِ الْبَدْوِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا بَدَلَهُ مِنَ الرَّحَلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى الْأَمْصَارِ الْمُسْتَسْجِرَةِ
 شَأْنِ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَأَعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادِ وَفَرْطَبَةِ وَالْقَيْرَوَانَ وَالْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ
 لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامُ وَأَسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ الْعِلْمِ
 وَتَفَنَّنُوا فِي أَصْطِلَاحَاتِ التَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ الْعُلُومِ وَأَسْتَنْبَاطِ الْمَسَائِلِ وَالْفُنُونِ حَتَّى أَرْبَوُا عَلَى
 الْمُتَقَدِّمِينَ وَفَانُوا الْمُتَأَخِّرِينَ وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا وَأَبْدَعَرُ سَكَّانُهَا أَنْطَوَى ذَلِكَ الْبَسَاطُ
 بِمَا عَلَيْهِ جُمَلَةٌ وَقُدَّ الْعِلْمُ بِهَا وَالتَّعْلِيمُ وَأَنْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ وَنَحْنُ
 لِهَذَا الْعَهْدِ نَرَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِالْقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لَمَّا أَنَّ عُمْرَانَهَا مُسْتَجْرِمٌ
 وَحَضَارَتُهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ الْآفِ مِنَ السِّنِينَ فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ
 جُمَلَتِهَا تَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَكَّدَ ذَلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهَذِهِ الْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مَاتَتَيْنِ مِنَ
 السِّنِينَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكَ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّرَاءَ
 التُّرْكَ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَخْلَفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
 الرِّقِّ أَوِ الْوِلَاةِ وَلِمَا يَخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ الْمَلِكِ وَنِكَابَتِهِ فَأَسْتَكْتَرُوا مِنْ بِنَاءِ الْمَدَارِسِ

وَالزَّوْيَا وَالرُّطْبِ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ الْمَغْلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شِرْكَاً لَوْلِدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ
يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ عَالِماً مَنْ أُجْزِئَ إِلَى الْخَيْرِ وَالنَّمَاسِ الْأَجْرُ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ
فَكَثُرَتِ الْأَوْقَافُ لِنَدَاكَ وَعَظُمَتِ الْعَلَاتُ وَالنَّوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمَعَلَّمُهُ بِكَثْرَةِ
جَرَايَتِهِمْ مِنْهَا وَأَزْتَحَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ
الْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارِهَا وَاللَّهُ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

اعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي الْأَمْصَارِ تَحْصِيلاً وَعَلِيماً هِيَ
عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٍ طَبِيعِيٍّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ وَصِنْفٍ تَقْلِيٍّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ
وَضَعَهُ وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعُلُومُ الْحِكْمِيَّةُ الْفَلْسَفِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُسَكِّنُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ
بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا
وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ ^(١) نَظَرُهُ وَيُحْتَهُ عَلَى الصَّوَابِ مِنَ الْخَطِئِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ
إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ وَالثَّانِي هِيَ الْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ
الْأَوْضَاعِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا بِجَمَالٍ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي إِحْتِاقِ الْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِالْأَصُولِ
لِأَنَّ الْجُزْئِيَّاتِ الْحَادِثَةَ الْمُتَعَابِقَةَ لَا تَنْدَرِجُ تَحْتَ النِّقْلِ الْكُلِّيِّ بِمَجْرَدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ
إِلَى الْإِلْتِحَاقِ بِوَجْهِ قِيَاسِيٍّ إِلَّا أَنْ هَذَا الْقِيَاسُ يَتَفَرَّغُ عَنِ الْخَبَرِ بِثَبُوتِ الْحُكْمِ
فِي الْأَصْلِ وَهُوَ تَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هَذَا الْقِيَاسُ إِلَى النِّقْلِ لِتَفَرُّغِهِ عَنْهُ وَأَصْلُ هَذِهِ الْعُلُومِ
النَّقْلِيَّةِ كُلُّهَا هِيَ الشَّرْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ الَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تَهَيَّئُهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَتِيعُ ذَلِكَ عُلُومُ
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانُ الْمَلَّةِ وَبِهِ نُزِلَ الْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هَذِهِ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ
كَثِيرَةٌ لِأَنَّ الْمَكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ
وَعَلَى آبَائِهِ جِنْسِهِ وَهِيَ مَا أُخِذَتْ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ بِالذَّمِّ أَوْ بِالْإِجْمَاعِ أَوْ
بِالْإِلْتِحَاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ بِالْكِتَابِ بَيَانِ النَّظَاهِ أَوَّلًا وَهَذَا هُوَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ ثُمَّ
بِإِسْنَادِ نَقْلِهِ وَرَوَايَتِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاخْتِلَافِ

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعبداً فنزل وقفته على كلا أي اطلمته عليه قاله نصر

رَوَايَاتِ الْقُرَّاءِ فِي قِرَائَتِهِ وَهَذَا هُوَ عِلْمُ الْقُرَّاءَاتِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ السُّنَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَالْكَلَامِ
 فِي الرُّوَاةِ النَّاقِلِينَ لَهَا وَمَعْرِفَةَ أَحْوَالِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ لِيَقَعَ الْوُثُوقُ بِأَخْبَارِهِمْ يَعْلَمُ مَا يَجِبُ
 الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ هِيَ عُلُومُ الْحَدِيثِ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي اسْتِنْبَاطِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ
 مِنْ أُصُولِهَا مِنْ وَجْهِ قَانُونِي يُفِيدُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ هَذَا الْاسْتِنْبَاطِ وَهَذَا هُوَ أُصُولُ الْفَقْهِ
 وَبَعْدَ هَذَا تَحْصُلُ الثَّمَرَةُ بِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَعْمَالِ الدُّمُكَلِّفِينَ وَهَذَا هُوَ
 الْفَقْهُ ثُمَّ إِنَّ التَّكَالِيفَ مِنْهَا بَدَنِيٌّ وَمِنْهَا قَلْبِيٌّ وَهُوَ الْإِخْتِصَاصُ بِالْإِيمَانِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ
 مِمَّا لَا يُعْتَقَدُ وَهَذِهِ هِيَ الْعُقَايِدُ الْإِيمَانِيَّةُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَأُمُورِ الْحُشْرِ وَالنَّعِيمِ
 وَالْعَذَابِ وَالْقَدْرِ وَالْحِجَاجِ عَنْ هَذِهِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي
 الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لَا بُدَّ أَنْ نَتَقَدَّمَ الْعُلُومَ اللَّسَانِيَّةَ لِأَنَّهُ مُتَوَقَّفٌ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصْنَافُ
 فَنَيْهَا عِلْمُ اللُّغَةِ وَعِلْمُ النَّحْوِ وَعِلْمُ الْبَيَانِ وَعِلْمُ الْأَدَابِ حَسْبَمَا تَمَكَّمُ عَلَيْهَا كَلِمًا وَهَذِهِ
 الْعُلُومُ الثَّقَلِيَّةُ كُلُّهَا مُخْتَصَّةٌ بِالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَهْلِهَا وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مِلَّةٍ عَلَى الْجُمْلَةِ
 لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَفِيهِ مُشَارَكَةٌ لَهَا فِي الْجِنْسِ الْبَعِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ
 الْمُنَزَّلَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْمُبْلَغِ لَهَا وَأَمَّا عَلَى الْإِخْتِصَاصِ فَمَبَايِنَةٌ
 لِجَمِيعِ الْمِلَلِ لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لَهَا وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ عُلُومِ الْمِلَلِ فَمَهْجُورَةٌ وَالنَّظَرُ فِيهَا مَحْظُورٌ
 فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الدُّنْيَا غَيْرِ الْقُرْآنِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لَا تَصَدَّقُوا أَهْلَ الْكُتُبِ وَلَا تُكَدِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ
 وَالْهِنَاءُ وَالْهَيْكُمُ وَاحِدٌ وَرَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِ عُمَرَ رَدْفِيَّ اللَّهِ عَنْهُ
 وَرَفَّةٌ مِنَ التَّوْرَةِ فَعَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ أَلَمْ آتِكُمْ بِهَا بَيِّنَاتٍ نَفِيَّةً
 وَاللَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِيٌّ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ الثَّقَلِيَّةَ قَدْ
 نَفَقَتْ أَسْوَاقُهَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَانْتَهَتْ فِيهَا مَدَارِكُ النَّاطِرِينَ إِلَى
 الْغَايَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَهَدَّيَتْ الْأَصْطِلَاحَاتُ وَرَتَبَتْ الْفُنُونُ جِجَاءَتْ مِنْ رِزَاءِ الْغَايَةِ فِي
 الْحُسْنِ وَالنَّمِيقِ وَكَانَ لِكُلِّ قَبِيلٍ رَجَالٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَأَوْضَاعٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا التَّعْلِيمُ
 وَأَخْتِصَّ الْمَشْرِقُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمَغْرِبُ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنْهَا حَسْبَمَا نَذَكْرُهُ الْآنَ عِنْدَ
 تَعْدِيدِ هَذِهِ الْفُنُونِ وَقَدْ كَسَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَسْوَاقُ الْعِلْمِ بِالْمَغْرِبِ لِتَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ
 فِيهِ وَانْقِطَاعِ سِنْدِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ كَمَا قَدَمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ وَمَا أَدْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ

بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتَّصَلَ التَّعَلُّمُ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ
الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكثْرَةِ عُمُرَانِهِ وَالْحِضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْحِرَابِيَّةِ
مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ
وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنزَلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفْتَيْهِ الْمَحْضُوفُ وَهُوَ
مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طُرُقٍ
مُخْتَلَفَةٍ فِي بَعْضِ أَنْفَازِهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي آدَائِهَا وَتَنَوُّقِ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنْ
اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٌ تَوَاتَرَتْ نَقْلُهَا أَيْضًا بِآدَائِهَا وَاخْتَصَّتْ بِالِاتِّسَابِ إِلَى مَنْ
اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْحِجْمِ الْغَنِيِّرِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أَصُولًا لِلْقِرَاءَةِ وَرُبَّمَا
زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخْرِي حَقَّتْ بِالسَّبْعِ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتُهَا
فِي النُّقْلِ وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا وَقَدْ خَالَفَتْ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ
طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْآدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضِطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي
تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ وَأَبَاهُ إِلَّا كَثُرَ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْآدَاءِ مِنْهَا
كَالْمَدِّ وَالسَّهْبِ لِإِدْمَامِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَلَمْ يَزَلِ الْقِرَاءَةُ
يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتِهَا إِلَى أَنْ كَتَبَتْ الْعُلُومُ وَدُونَتْ فَكُتِبَتْ فِيهَا كُتُبٌ
مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْمًا مُفْرَدًا وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ
فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ
مُعْتَمِدًا بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لَمَّا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ
وَأَجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرَضَهُ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي
ذَلِكَ وَافِرًا وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَّةِ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَنَفَقَتْ بِهَا سُوقُ
الْقِرَاءَةِ لِمَا كَانَ هُوَ مِنْ أئِمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَاتِ
خُصُوصًا فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّائِي وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَأَنْتَهَتْ إِلَى
رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَأْلِيفُهُ فِيهَا وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَّلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَأَعْتَمَدُوا

مِنْ بَيْنَهَا كِتَابَ التَّيْسِيرِ لَهُ ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهَا مِنْ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ أَبُو الْقَاسِمِ
 ابْنُ فَيْرُزَةَ مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةِ فَعَمِدَ إِلَى تَهْدِيدِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَخَيَّصَهُ فَنَظَّمَ ذَلِكَ
 كَلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزٍ فِيهَا أَسْمَاءُ الْقُرَاءِ بِحُرُوفِ ا ب ج د تَرْتِيبًا أَحْكَمَهُ لِتَيْسِيرِ عَلَيْهِ مَا
 قَصَدَهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا الْفَنَّ اسْتِعْمَالًا
 حَسَنًا وَعَنَى النَّاسَ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى أَعْمَلٌ عَلَى ذَلِكَ فِي مَصَارِ
 الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ الْقُرَاءَاتِ فَنُّ الرَّسْمِ أَيْضًا وَهِيَ أَوْضَاعُ
 حُرُوفِ الْقُرْآنِ فِي الْمَصْحَفِ وَرُسُومُهُ الْخَطِيَّةُ لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى
 غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ الْخَطِّ كَرِيبَادَةِ الْيَاءِ فِي بَابِ يَدٍ وَزِيَادَةِ الْأَلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ
 وَلَا أَوْضَعُوا وَالْوَاوِ فِي جَزَاءِ وَالظَّالِمِينَ وَحَذْفِ الْأَلِفَاتِ فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا
 رُسِمَ فِيهِ مِنَ النَّتَائِجِ مَعْدُودًا وَالْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى شَكْلِ الْمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ
 مَرَّ تَعْلِيلُ هَذَا الرَّسْمِ الْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي الْخَطِّ فَلَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ
 لِأَوْضَاعِ الْخَطِّ وَقَانُونِهِ أُخْتِجَ إِلَى حَصْرِهَا فَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا أَيْضًا عِنْدَ كَتِبِهِمْ
 فِي الْعُلُومِ وَأَنْتَهتْ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو الدَّانِي الْمَذْكُورِ فَكَتَبَ فِيهَا كِتَابًا مِنْ
 أَشْهَرِهَا كِتَابَ الْمَقْنَعِ وَأَخَذَ بِهِ النَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَنَظَّمَهُ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّاطِبِيُّ فِي
 قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى رِوِيِّ الرَّاءِ وَوَلَّعَ النَّاسَ بِحِفْظِهَا ثُمَّ كَثُرَ الْخِلَافُ فِي الرَّسْمِ فِي
 كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ نُبَاحٍ مِنْ مَوَالِي نُبَاهِدٍ فِي
 كِتَابِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي عَمْرٍو الدَّانِيِّ وَالْمَشْتَهَرُ بِحَمَلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كِتَابِهِ ثُمَّ نُقِلَ
 بَعْدَهُ خِلَافٌ آخَرَ فَنَظَّمَ الْخُرَّازِيُّ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ أَرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا
 عَلَى الْمَقْنَعِ خِلَافًا كَثِيرًا وَعَزَاهُ لِتَاقِلِيهِ وَأَشْتَهَرَتْ بِالْمَغْرِبِ وَأَقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا
 وَهَجَرُوا بِهَا كِتَابَ أَبِي دَاوُدَ وَأَبِي عَمْرٍو وَالشَّاطِبِيِّ فِي الرَّسْمِ

(وَمَا التَّيْسِيرُ) . فَأَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِالغَةِ الْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِبِ بِلَاغَتِهِمْ

فَكَانُوا كَلِّمُهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَاكِيْبِهِ وَكَانَ يَنْزَلُ جَمَلًا جَمَلًا
 وَأَيَاتٍ لِبَيَانِ التَّوْحِيدِ وَالْفُرُوضِ الدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْعَقَائِدِ
 الْإِيمَانِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ الْجَوَارِحِ وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ
 نَاسِخًا لَهُ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْجَمَلِ وَيُمَيِّزُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ

وَيَعْرِفُهُ أَصْحَابُهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ الْآيَاتِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولًا عَنْهُ كَمَا
 عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إِنَّمَا نَعِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ النَّابِعُونَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ
 عُلُومًا وَدَوَّنتِ الْكُتُبُ فَكُتِبَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنَقِلَتِ الْأَثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ
 الصَّحَابَةِ وَالنَّابِعِينَ وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الطَّبْرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ وَالنَّعَالِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ
 الْمَفْسِّرِينَ فَكُتِبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ الْأَثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ اللِّسَانِ
 صِنَاعِيَّةً مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضِعَاتِ اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ الْإِعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ فِي التَّرَاكِبِ
 فَوَضِعَتِ الدَّوَابِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلِ وَلَا
 كِتَابٍ فَنُتَوَسَّيَ ذَلِكَ وَصَارَتْ تُنْتَلَقَى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ اللِّسَانِ فَاحْتِيجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ
 الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَاجِ بِلَاغَتِهِمْ وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَفْسِيرٍ نَقْلِيٍّ
 مُسْتَدِلٍّ إِلَى الْأَثَارِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابِ النُّزُولِ
 وَمَقَاصِدِ الْآيِ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالنَّابِعِينَ وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ
 فِي ذَلِكَ وَأَوْعَوْا إِلَّا أَنْ كُتِبَتْ مِنْهُمْ وَمَنْقُولًا مِنْهُمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَالْمَقْبُولِ
 وَالْمَرْدُودِ وَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ
 عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ وَالْأُمِّيَّةُ وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا نَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ
 فِي أَسْبَابِ الْمُكْرَمَاتِ وَبَدَأَ الْخَلِيقَةَ وَأَسْرَارَ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ
 الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ مِنَ
 النَّصَارَى وَأَهْلُ التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا
 مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حَمِيرِ الَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ
 فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَخْتَلِطُونَ
 لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدَأِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْخِدَتَانِ وَالْمَلَا حِمِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَهُوَ لِأَنَّ
 مِثْلَ كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَوَهَبُ بْنُ مُنَبِّهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَمْثَالُهُمْ فَأَمْثَلَاتِ التَّفَاسِيرِ
 مِنَ الْمَنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْفُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا
 يَرْجَعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَتَنَحَّرَ فِي الصِّحَّةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ وَتَسَاهَلُ الْمَفْسِّرُونَ فِي

مثل ذلك ومأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة
 الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم معرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد
 صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت
 بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس إلى التحقيق والتخصيص وجاء أبو محمد بن
 عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى
 الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنفى
 وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق
 والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والأعراب
 والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب وهذا الصنف من التفسير قل
 أن ينفرد عن الأول إذ الأول هو المقصود بالذات وإنما جاء هذا بعد أن صار
 اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض التفاسير غالباً ومن أحسن ما اشتمل
 عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزخشري من أهل خوارزم العراق
 إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فإني بالاحتجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث
 تعرض في أي القرآن من طرق البلاغة فصار ذلك للتحققين من أهل السنة الخراف
 عنه وتخير الجمهور من مكانه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة
 وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للاحتجاج عنها فلا جرم
 أنه ما مؤن من عوائله فلتغتنم مطالعته لغرابه فنونه في اللسان ولقد وصل إلينا في
 هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل تويريز من
 عراق العجم شرح فيه كتاب الزخشري هذا وتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في
 الاعتزال بأدلة تزيهاً وبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة
 لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة
 وفوق كل ذي علم عليم

الفصل السادس

في علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما ينظر في ناسخه ومسوخه

وَذَلِكَ بِمَا ثَبَّتَ فِي شَرِيعَتَنَا مِنْ جَوَازِ النَّسْخِ وَوُقُوعِهِ لُظْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَتَخْنِيفًا عَنْهُمْ
 بِأَعْتَابِ مَصَالِحِهِمُ الَّتِي تَكْفَلُ لَهُمْ بِهَا قَالَ تَعَالَى مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
 مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا فَإِذَا تَعَارَضَ الْخُبْرَانُ بِالْتَفَنِّي وَالْإِنْبَاتِ وَتَعَدَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِبَعْضِ التَّأْوِيلِ
 وَعَلِمَ تَقَدُّمُ أَحَدِهِمَا تَعَيَّنَ أَنَّ الْمَتَأَخَّرَ نَاسِخٌ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِ
 الْحَدِيثِ وَأَضْعَفُهَا قَالَ الزُّهْرِيُّ أَعْيَاءُ الْفُقَهَاءِ وَأَعْجَزُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْسُوخِهِ وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رِضِي اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ وَمِنْ
 عُلُومِ الْأَحَادِيثِ النَّظَرُ فِي الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ
 عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ الشَّرْطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجِبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ
 أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَجْتَهِدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُحْصِلُ ذَلِكَ الظَّنَّ وَهُوَ
 بِمَعْرِفَةِ رِوَاةِ الْحَدِيثِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ الدِّينِ
 بِتَعَدُّلِهِمْ وَبِرَاءَتِهِمْ مِنَ الْجُرْحِ وَالْعَفْئَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْقَبُولِ أَوْ التَّرْكِ
 وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ هَذِهِ النُّقْلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفَاوُتُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ
 وَاحِدًا وَاحِدًا وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتُ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونَ الرَّاوي لَمْ يَلِقَ
 الرَّاوي الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِاسْلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَالِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ
 فَحُكْمُ يَقْبُولُ الْأَعْلَى وَرَدَّ الْأَسْفَلُ وَيُخْتَلَفُ فِي الْمَتَوَسِّطِ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ عَنْ
 أَيْمَةِ الشَّانِ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَاطُ أَصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ مِثْلَ
 الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمَنْقَطِعِ وَالْمُعْضِلِ وَالشَّاذِ وَالْغَرِيبِ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ مِنَ الْقَابِهِ الْمَتَدَاوِلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَوَّبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ
 لِأَيْمَةِ اللِّسَانِ أَوْ الْوُفَاقِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِ الرَّوَايَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةِ
 أَوْ كِتَابَةِ أَوْ مَنَاقِلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتُ رُتَبُهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ
 وَالرَّدِّ ثُمَّ اتَّبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي الْفَاطُ نَفَعُ فِي مَتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ
 أَوْ ضَعِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلَفٍ وَمَا يَنَاسِبُ ذَلِكَ هَذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظَرُ فِيهِ أَهْلُ
 الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ نَقْلَةِ الْحَدِيثِ فِي عَصُورِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ
 مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ
 بِالشَّامِ وَمِصْرَ بِالْجَمْعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَعْصَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ

فِي أَعْصَارِهِمْ فِي الْأَسَانِيدِ أَعْلَى مِمَّنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّنَ فِي الصَّحَّةِ لِاسْتِدَادِهِمْ فِي شُرُوطِ
 النَّقْلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَتَجَانِبِهِمْ عَنِ قَبُولِ الْجَبُولِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ وَسَدِّ الطَّرِيقَةِ
 الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلَفِ الْإِمَامِ مَالِكٍ عَالِمِ الْمَدِينَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ثُمَّ أَحْبَابُهُ مِثْلُ
 الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَانَ عِلْمُ
 الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدَأِ هَذَا الْأَمْرِ نَقْلًا وَمِرْقًا ثُمَّ لَهَا السَّلَفُ وَتَحَرَّوْا الصَّحِيحَ حَتَّى أَكْمَلُوهَا
 وَكَتَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ الْمُوطَأِ أَوْدَعَهُ أُصُولَ الْأَحْكَامِ مِنَ الصَّحِيحِ
 الْمَتَّفِقِ عَلَيْهِ وَرَبَّنُهُ عَلَى أَبْوَابِ النِّقْهِ ثُمَّ عَنِ الْحَافِظِ بِعَرَفَةَ طُرُقَ الْأَحَادِيثِ وَأَسَانِيدِهَا
 الْمُخْتَلِفَةِ وَرَبَّمَا يَفْعُ اسْتِنَادَ الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ زَوَاهِ مُخْتَلَفِينَ وَقَدْ يَفْعُ الْحَدِيثُ
 أَيْضًا فِي أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِاخْتِلَافِ الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ
 إِمَامُ الْحَدِيثِ نِينَ فِي عَصْرِهِ فَخَرَّجَ أَحَادِيثَ السُّنَّةِ عَلَى أَبْوَابِهَا فِي مُسْنَدِهِ الصَّحِيحِ بِجَمِيعِ الطَّرِيقِ
 الَّتِي لِلْحِجَازِيِّينَ وَالْعَرَبِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ وَأَعْتَمَدُوا مِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ دُونَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ
 وَكَرَّرَ الْأَحَادِيثَ يَسُوفُهَا فِي كُلِّ بَابٍ بِعَنْ ذَلِكَ الْبَابِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْحَدِيثُ فَتَكَرَّرَتْ
 لِذَلِكَ أَحَادِيثُهُ حَتَّى يُقَالُ إِنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى تِسْعَةِ ^(١) آفِ حَدِيثٍ وَمِائَتَيْنِ مِنْهَا ثَلَاثَةٌ
 آفٌ مُتَكَرِّرَةٌ وَفِرْقُ الطَّرِيقِ وَالْأَسَانِيدِ عَلَيْهَا مُخْتَلَفَةٌ فِي كُلِّ بَابٍ ثُمَّ جَاءَ الْإِمَامُ
 مُسْلِمُ بْنُ الْحِجَّاجِ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَأَلْفَ مُسْنَدَهُ الصَّحِيحَ حَذَا فِيهِ حَدُوثُ
 الْبُخَارِيِّ فِي نَقْلِ الْجَمْعِ عَلَيْهِ وَحَذَفَ الْمُتَكَرَّرَ مِنْهَا وَجَمَعَ الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ
 وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ النِّقْهِ وَتَرَاجَمَهُ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَوْعِبِ الصَّحِيحَ كُلَّهُ وَقَدْ اسْتَدْرَكَ
 النَّاسُ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ السُّجِسْتَانِيُّ وَأَبُو عَيْسَى التُّرْمُذِيُّ وَأَبُو
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ بِأَوْسَعِ مِنَ الصَّحِيحِ وَفَصَدُّوا مَا تَوَقَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ
 الْعَمَلِ إِمَّا مِنَ الرَّثْبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْأَسَانِيدِ وَهُوَ الصَّحِيحُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِمَّا مِنَ الَّذِي
 دُونَهُ مِنَ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ إِمَامًا لِلسُّنَّةِ وَالْعَمَلِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَسَانِيدُ الْمَشْهُورَةُ
 فِي الْمِلَّةِ وَهِيَ أَمْهَاتُ كِتَابِ الْحَدِيثِ فِي السُّنَّةِ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ
 فِي الْأَعْلَى وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَالْأَصْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ الْحَدِيثِ وَرَبَّمَا يَفْرُدُ
 عَنْهَا النَّاسِخُ وَالْمُسُوخُ فَيَجْعَلُ فَنَاءَ بَرَأْسِهِ وَكَذَا الْغَرِيبُ وَاللِّسَانِ فِيهِ تَأْلِيفٌ مَشْهُورَةٌ

١ قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين فحزره

ثُمَّ الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ وَقَدْ آلَفَ النَّاسُ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَكَثُرُوا وَمِنْ فُجُولِ عُلَمَائِهِ
 وَأَعْيُنِهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ وَتَأَلَّفَهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ وَهُوَ الَّذِي هَدَبَهُ وَأَظْهَرَ مَحَاسِنَهُ
 وَأَشْهَرَ كِتَابَ الْمُتَأَخَّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ كَانَ لِعَبْدِ أَوْائِلِ الْمِائَةِ
 السَّابِعَةِ وَتَلَاهُ مَحْبِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَالْفَنُّ شَرِيفٌ فِي مَعْرَاةٍ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا
 يُحْفَظُ بِهِ السُّنَنُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ وَقَدْ انْقَطَعَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنْ
 الْأَحَادِيثِ وَاسْتَدْرَاكُهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ إِذِ الْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةَ عَلَى
 تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَا حَقِ عَصْرِهِمْ وَكَيْفَاتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا لِيُغْنُوا شَيْئًا مِنَ السُّنَنِ أَوْ
 يَتْرُكُوهُ حَتَّى يَغْتَابَ عَلَيْهِ الْمُتَأَخَّرُ هَذَا بَعِيدٌ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا تَنْصَرِفُ الْعِنَايَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَى
 تَصْحِيحِ الْأَمْهَاتِ الْمَكْتُوبَةِ وَضَبْطِهَا بِالرِّوَايَةِ عَنِ مُصَنِّفِهَا وَالنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِهَا إِلَى
 مَوَائِدِهَا وَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ مِنَ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ لِتَتَّصِلَ
 الْأَسَانِيدُ مُحْكَمَةً إِلَى مَنبَاهَا وَلَمْ يَزِيدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذِهِ
 الْأَمْهَاتِ الْخَمْسِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . فَأَمَّا الْبُخَارِيُّ وَهُوَ أَعْلَاهَا رُتْبَةً فَأَسْتَصْعَبَ النَّاسُ شَرْحَهُ
 وَاسْتَعَاقُوا مَنَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَرِجَالِهَا مِنْ
 أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِمْ وَلِذَلِكَ
 يُحْتَاجُ إِلَى إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي التَّفْقُّهِ فِي تَرَاجِمِهِ لِأَنَّهُ يَتْرَجِمُ التَّرْجَمَةَ وَيُورِدُ فِيهَا الْحَدِيثَ
 يُسَنِّدُهُ أَوْ طَرِيقٍ ثُمَّ يَتْرَجِمُ أُخْرَى وَيُورِدُ فِيهَا ذَلِكَ الْحَدِيثَ بَعِينَهُ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْمَعْنَى
 الَّتِي تَرَجَّمُ بِهِ الْبَابُ وَكَذَلِكَ فِي تَرْجَمَةٍ وَتَرْجَمَةٍ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ الْحَدِيثُ فِي أَبْوَابٍ
 كَثِيرَةٍ بِحَسَبِ مَعَانِيهِ وَاخْتِلَافِهَا وَمِنْ شَرْحِهِ وَلَمْ يَسْتَوْفِ هَذَا فِيهِ فَلَمْ يُؤَفِّ حَقَّ الشَّرْحِ
 كَأَبْنِ بَطَّالٍ وَأَبْنِ الْمُهَلَّبِ وَأَبْنِ التَّيْنِ وَنَحْوِهِمْ وَلَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيرًا مِنْ شَيْخِنَا رَجَمَهُ
 اللَّهُ يَقُولُونَ شَرْحَ كِتَابِ الْبُخَارِيِّ دَبْنٌ عَلَى الْأُمَّةِ يَعْنُونَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ لَمْ
 يُؤَفِّ مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الشَّرْحِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ . وَأَمَّا صَحِيحُ مُسْلِمٍ فَكَثُرَتْ عِنَايَةُ عُلَمَاءِ
 الْمَغْرِبِ بِهِ وَأَكْبُوا عَلَيْهِ وَأَجْعَعُوا عَلَى تَنْضِيلِهِ عَلَى كِتَابِ الْبُخَارِيِّ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ
 مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى شَرْطِهِ وَأَكْثَرُ مَا وَقَعَ لَهُ فِي التَّرَاجِمِ وَأَمَلَى الْإِمَامُ الْمَارِزِيُّ مِنْ
 فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ عَلَيْهِ شَرْحًا وَسَمَّاهُ الْمُعَلِّمَ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ اشْتَمَلَ عَلَى عِيُونٍ مِنْ عِلْمِ
 الْحَدِيثِ وَفُتُونٍ مِنَ الْفِقْهِ ثُمَّ أَكْمَلَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَمَّمَهُ وَسَمَّاهُ إِكْمَالَ

الْمُعْلَمِ وَتَلَاهُمَا مُجِيبِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ بِشَرْحِ اسْتَوْفَى مَا فِي الْكُتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا
 جَاءَ شَرْحًا وَافِيًا . وَأَمَّا كُتُبُ السُّنَنِ الْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَا خِذَ الْفُقَهَاءُ فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا
 فِي كُتُبِ الْفِقْهِ إِلَّا مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْحَدِيثِ فَكُتِبَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ
 مَا يُخْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَالْأَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ
 الْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ السُّنَّةِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبًا لِهَذَا الْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ
 وَحَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَعَبْرَهَا تَنْزِلُهَا أئِمَّةُ الْحَدِيثِ وَجَهًا بَدْنُهُ وَعَرَفُوهَا وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ
 فِي تَصْحِيحِ مَا يَصِحُّ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَانَ الْأئِمَّةُ فِي الْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ الْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا
 وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ قَلَبَ عَنْ
 وَضَعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ
 وَقَصَدَ الْمُحَدِّثُونَ امْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَبِلُوا أَسَانِيدَهَا فَقَالَ لَا أَعْرِفُ هَذِهِ
 وَإِكْنَ حَدِيثِي فَلَانَ ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ
 مَنْ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقْرَبُوا لَهُ بِالْإِمَامَةِ . وَأَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ الْأئِمَّةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي
 الْأَكْثَارِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْإِقْلَالِ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ
 رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثًا أَوْ نَحْوَهَا وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ
 الْمَوْطَأِ ^(١) وَعَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ نَحْوَهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي
 مَسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلِّ مَا آدَاهُ إِلَيْهِ أَجْتِهَادُهُ فِي ذَلِكَ وَقَدْ نَقَوْلُ بَعْضُ
 الْمُبْغِضِينَ الْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ فِي الْحَدِيثِ فَلِهَذَا قَلَّتْ رِوَايَتُهُ
 وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا الْمُعْتَقَدِ فِي كِبَارِ الْأئِمَّةِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُوَخَّذُ مِنَ الْكِتَابِ
 وَالسُّنَّةِ وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ مِنَ الْحَدِيثِ فَيَتَعَبَّنَ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَالْجِدُّ وَاللِّتْمَانُ
 فِي ذَلِكَ لِيَأْخُذَ الدِّينَ عَنْ أَصُولٍ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى الْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُبْلِغِ لَهَا
 وَإِنَّمَا قَلَّتْ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّتْ الرِّوَايَةُ لِأَجْلِ الْمَطَاعِنِ الَّتِي تَعَرَّضُ فِيهَا وَالْعِلَلِ الَّتِي تَعَرَّضُ
 فِي طُرُقِهَا سِيَمًا وَأَجْرَحَ مُقَدِّمٌ عِنْدَ الْأَكْثَرِ فَيُؤَدِّيهِ الْأَجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ الْأَخْذِ بِمَا
 يَعْرُضُ مِثْلَ ذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَطُرُقِ الْأَسَانِيدِ وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فَتَقَلُّ رِوَايَتُهُ

(١) الذي في شرح الزرقاني على المطا حكاية افعال خمسة في عدة احاديثه اولها ٥٠٠ ثابها ٧٠٠
 ثالها الف ونيف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الموربي

لضعف في الطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن
 المدينة دار الهجرة وماوى الصحابة ومن أنقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد
 أكثر والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل
 وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسى وقتت من أجلها رواية نقل
 حديثه لأنه ترك رواية الحديث متعمداً لخشاه من ذلك ويدل على أنه من كبار
 المجتهدين في علم الحديث أعجام مذهبه بينهم والنعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً
 وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل
 عن اجتهاد وقد توسع اصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الخطاوي
 فأكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين لأن الشروط
 التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما نجعت عليهما بين الأئمة كما قالوه وشروط
 الخطاوي غير متفق عليها كإلزامه عن المستور الحال وغيره فلهذا قدم الصحيحين
 بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قيل في
 الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما من الشروط
 المتفق عليها فلا تأخذك ريبه في ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم
 والناس الخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أعمال المكلفين بالوجوب والحذر والنذر
 والكراهة والإباحة وهي متفقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها
 من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف
 يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ولا بد من وقوعه ضررة أن
 الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضات الفاظها لكثير من معانيها
 اختلاف بينهم معروف وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتعارض في الأكثر
 أحكامها فتحتمل إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها
 وأيضاً فالوقائع المعجدة لا توثق بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في المنعصر

فَيَعْمَلُ عَلَى الْمَنصُوصِ لِمِثَابِهِ يَنْهَمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا إِشَارَاتٌ لِلْخِلَافِ ضَرُورِيَّةٌ أَوْفُوعٌ
 وَمِنْ هُنَا وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ إِنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا
 أَهْلَ فِتْيَا وَلَا كَانَ الدِّينُ يُؤْخَذُ عَنْ جَمِيعِهِمْ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِالْحَامِلِينَ لِلْقُرْآنِ
 الْعَرَابِينَ بِنَابِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ وَمِثَابِهِ وَمُحْكَمِهِ وَسَائِرِ دَلَالَتِهِ بِمَا تَلَقَّوهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مِمَّنْ سَمِعَهُ مِنْهُمْ وَمِنْ عَلَيْهِمْ وَكَانُوا يَسْمُونَ لِذَلِكَ الْقُرَاءَةَ أَيَّ الدِّينِ
 يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أُمَّةً أُمَّةً فَأَخْتَصَّ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ قَارِئًا لِلْكِتَابِ
 بِهَذَا الْأِسْمِ لِعَرَابِيَّتِهِ يَوْمَئِذٍ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ صَدَرَ الْمَلَّةُ ثُمَّ عَظُمَتْ أَمْصَارُ الْإِسْلَامِ
 وَذَهَبَتْ الْأُمَّةُ مِنَ الْعَرَبِ بِمَارَسَةِ الْكِتَابِ وَتَمَكَّنَ الْأَسْتِنْبَاطُ وَكَمَّلَ الْفِقْهُ
 وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْمًا فَبَدَّلُوا بِأَسْمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَاءَةِ وَأَنْقَسَمَ الْفِقْهُ فِيهِمْ إِلَى
 طَرِيقَتَيْنِ طَرِيقَةَ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَطَرِيقَةَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُمْ
 أَهْلُ الْحِجَازِ وَكَانَ الْحَدِيثُ قَبِيلاً فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمَا قَدَّمَاهُ فَاسْتَكْرَهُوا مِنَ الْقِيَاسِ
 وَمَهَرُوا فِيهِ فَذَلِكَ قِيلَ أَهْلُ الرَّأْيِ وَمَقْدَمُ جَمَاعَتِهِمْ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ وَفِي
 أَصْحَابِهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَإِمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ أَنْكَرَ
 الْقِيَاسَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهِ وَهُمْ الظَّاهِرِيَّةُ وَجَعَلُوا الْمَدَارِكَ كُلِّهَا
 مُخْتَصِرَةً فِي النُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ وَرَدُّوا الْقِيَاسَ الْجُلِّيَّ وَالْعِلْمَةَ الْمَنْصُوصَةَ إِلَى النَّصِّ
 لِأَنَّ النَّصَّ عَلَى الْعِلْمَةِ نَصٌّ عَلَى الْخُبْرِ فِي جَمِيعِ مَحَالِّهَا وَكَانَ إِمَامُ هَذَا الْمَذْهَبِ دَاوُدُ
 ابْنُ عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَأَصْحَابُهُمَا وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الثَّلَاثَةُ فِي مَذَاهِبِ الْجُمْهُورِ الْمَشْهُورَةِ
 بَيْنَ الْأُمَّةِ وَشَدَّ أَهْلُ الْبَيْتِ بِمَذَاهِبِ ابْتَدَعُوهَا وَفِقْهُ أَنْفَرَدُوا بِهِ وَبَنَوْهُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ
 فِي تَنَاوُلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْقَدْحِ وَعَلَى قَوْلِهِمْ بِعِصْمَةِ الْأَئِمَّةِ وَرَفَعَ الْخِلَافَ عَنْ
 أَقْوَالِهِمْ وَهِيَ كَلِمَاتُ أَصُولٍ وَاهِيَةٌ وَشَدَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْخَوَارِجُ وَلَمْ يَحْتَفِلِ الْجُمْهُورُ بِمَذَاهِبِهِمْ
 بَلْ أَوْسَعُوهَا جَانِبَ الْأِنْكَارِ وَالْقَدْحِ فَلَا نَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ مَذَاهِبِهِمْ وَلَا نَرَوِي كِتَابَهُمْ
 وَلَا أَثَرَ لَشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنِهِمْ فَكُتِبَ الشَّيْعَةَ فِي بِلَادِهِمْ وَحَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ
 قَائِمَةً فِي الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْيَمَنِ وَالْخَوَارِجُ كَذَلِكَ وَلِكُلِّ مِنْهُمْ كُتِبَ وَتَأَلَّفَ
 وَرَأَى فِي الْفِقْهِ غَرِيبَةٌ ثُمَّ دُرِسَ مَذْهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ الْيَوْمَ بِدُرُوسِ أَيْمَتِهِ وَإِنْكَارِ
 الْجُمْهُورِ عَلَى مَنْتَجِلِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي الْكُتُبِ الْمَجْلُودَةِ وَرَبَّمَا يَعْكُفُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِبِينَ

مِمَّنْ تَكَلَّفَ بِالنِّجَالِ مَذْهَبَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ يَرُومُ أَخَذَ فِقْهَهُمْ مِنْهَا وَمَذْهَبَهُمْ فَلَا
 يَخْلُو بَطَائِلَ وَيَصِيرُ إِلَى مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا عُدَّ بِهَذِهِ النِّجَالَةِ مِنْ
 أَهْلِ الْبِدْعِ بِنَقْلِهِ الْعِلْمَ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ غَيْرِ مِفْتَاحِ الْمُعَلِّمِينَ وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ
 بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى عُلُوِّ رُتْبَتِهِ فِي حَيْثُ أَحْدِيثٍ وَصَارَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الظَّاهِرِ وَمَهْرٍ فِيهِ
 بِاجْتِهَادِ زَعْمِهِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَخَالَفَ إِمَامَهُمْ دَاوُدَ وَتَعَرَّضَ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْأَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ
 فَفَقِمَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا مَذْهَبَهُ اسْتَهْجَانًا وَإِنْكَارًا وَتَلَقَّوْا كِتَابَهُ بِالْإِغْفَالِ وَالْتِرَاكِ
 حَتَّى إِذَا لِيُحْصِرُ بَيْعَهَا بِالْأَسْوَاقِ وَرُبَّمَا تَمَزَّقَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَذْهَبُ
 أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ . فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فَأَمَامُهُمُ الَّذِي
 اسْتَفْرَتَ عِنْدَهُ مَذَاهِبُهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ النَّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ وَمَقَامُهُ فِي النِّقْهِ لَا يَلْحَقُ شَهِدَ لَهُ
 بِذَلِكَ أَهْلُ جَلْدَتِهِ وَخُصُوصًا مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ فَكَانَ إِمَامَهُمْ مَالِكُ
 ابْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَعِيُّ إِمَامَ دَارِ النَّجْدَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكِ آخَرَ
 لِلْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمُدْرِكِ الْمَعْتَبَرَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ رَأَى
 أَنَّهُمْ فِيمَا يَنْفَسُونَ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مَتَابِعُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضَرُورَةٌ لِدِينِهِمْ وَأَقْدَائِهِمْ
 وَهَكَذَا إِلَى الْجَيْلِ الْمُبَاشِرِينَ لِنَعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَخْذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ
 وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ أَصُولِ الْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَظَنَّ كَثِيرٌ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ
 فَإِنْكَرَهُ لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ لَا يَخْصُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ سِوَاهُمْ بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ
 وَأَعْلَمُ أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ الْإِتْفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الدِّيْنِيِّ عَنِ اجْتِهَادِ وَمَالِكُ رَحِمَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى لَمْ يَعْتَبِرْ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا اعْتَبَرَهُ مِنْ حَيْثُ اتَّبَعَ الْجَيْلِ
 بِالْمَشَاهِدَةِ الْجَيْلِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَضَرُورَةٌ أَقْدَائِهِمْ
 بَعَيْنَ ذَلِكَ يَعْمُ الْعِلْمَةُ ذُكِرَتْ فِي بَابِ الْإِجْمَاعِ وَالْأَبْوَابِ بِهَا مِنْ حَيْثُ مَا فِيهَا مِنْ
 الْإِتْفَاقِ الْجَامِعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِجْمَاعِ إِلَّا أَنَّ اتْفَاقَ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ عَنْ نَظَرٍ وَاجْتِهَادٍ
 فِي الْأَدْلَةِ وَاتْفَاقِ هَوْلَاءِ فِي فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مُسْتَنْدِينَ إِلَى مَشَاهِدَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَوْ ذُكِرَتْ
 الْمَسْأَلَةُ فِي بَابِ فِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفْرِيهِ أَوْ مَعَ الْأَدْلَةِ الْمُخْتَلَفِ
 فِيهَا مِثْلَ مَذْهَبِ الصَّكَّابِيِّ وَشَرَعَ مِنْ قَبْلِنَا وَالْأَسْتِصْحَابِ لَكَانَ أَلْيَقُ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِ
 مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَدْرِيسَ الْمُطَّلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى رَحَلَ إِلَى الْعِرَاقِ

مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ وَتَقِي أَصْحَابَ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَمَزَجَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْحِجَازِ
 بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَخْتَصَّ بِمَذْهَبٍ وَخَالَفَ مَالِكًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ
 مَذْهَبِهِ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَانَ مِنْ عَلَيْهِ التَّحَدِّثِينَ وَقَرَأَ
 أَصْحَابُهُ عَلَى أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وَفُورِ بَضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ فَاخْتَصَمُوا بِمَذْهَبِ
 آخَرٍ وَوَقَفَ التَّقْلِيدُ فِي الْأَمْصَارِ عِنْدَهُمْ هُوَ لِأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ الْمُقَلِّدُونَ مِنْ سِوَاهُمْ وَسَدَّ
 النَّاسُ بَابَ الْخِلَافِ وَطَرِيقَهُ لَمَّا كَثُرَ تَشَعُّبُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ وَلَمَّا عَاقَ عَنِ
 الْوُصُولِ إِلَى رُتْبَةِ الْإِجْتِهَادِ وَلَمَّا خَشِيَ مِنْ اسْتِنَادِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُوقِفُ
 بِرَأْيِهِ وَلَا بِيَدَيْهِ فَصَرَّحُوا بِالْعَجْزِ وَالْإِعْوَازِ وَرَدُّوا النَّاسَ إِلَى تَقْلِيدِ هُوَ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ
 أَخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ وَحَظَرُوا أَنْ يُتَدَاوَلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلَاعُبِ وَلَمْ يَبْقَ
 إِلَّا نَقْلُ مَذَاهِبِهِمْ وَعَمِلَ كُلُّ مُقَلِّدٍ بِمَذْهَبٍ مِنْ قَلْدِهِ مِنْهُمْ بَعْدَ تَصْحِيحِ الْأَصُولِ
 وَاتَّصَلَ سَنَدُهَا بِالرِّوَايَةِ لِأَخْطُصُولِ الْيَوْمِ لِلْفِقْهِ غَيْرِ هَذَا وَمُدْعَى الْإِجْتِهَادِ لِهَذَا الْعَهْدِ
 مُرَدُّودٌ عَلَى عَقْبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ وَقَدْ صَارَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ عَلَى تَقْلِيدِ هُوَ لِأَنَّ
 الْأَيْمَةَ الْأَرْبَعَةَ فَأَمَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَمَقَلَّدَهُ قَلِيلٌ لِبُعْدِ مَذْهَبِهِ عَنِ الْإِجْتِهَادِ
 وَأَصَالَتِهِ فِي مُعَاذَةِ الرَّوَايَةِ وَالْأَخْبَارِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَأَكْثَرُهُمْ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ مِنْ
 بَعْدَادٍ وَنَوَاحِيهَا وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حَنِظًا لِلسَّنَةِ وَرَوَايَةِ الْحَدِيثِ وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَقَلَّدَهُ
 الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةُ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجْمِ كُلِّهَا لِمَا كَانَ
 مَذْهَبُهُ أَخْصَّ بِالْعِرَاقِ وَدَارِ السَّلَامِ وَكَانَ تَلْمِيزُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
 فَكَثُرَتْ تَأَلِيهِمْ وَمَنَاظَرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسُنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي الْخِلَافِيَّاتِ وَجَاءُوا
 مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظَرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَبِالْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ
 نَقَلَهُ إِلَيْهِ الْقَافِي بِنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَلَّاجِيُّ فِي رِحْلَتِهِمَا وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمَقَلَّدُوهُ
 بِمِصْرَ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ وَخِرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ
 وَقَاسَمُوا الْحَنَفِيَّةَ فِي التَّوَسُّلِ وَالتَّدْرِيسِ فِي جَدِيعِ الْأَمْصَارِ وَعَظَمَتْ مَجَالِسُ الْمُنَظَرَاتِ
 بَيْنَهُمْ وَتَحَنَّنَتْ كُتُبُ الْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ اسْتِدْلَالِهِمْ ثُمَّ دُرِسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ
 الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي
 عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ الْقَاسِمِ

وَأَبْنُ الْمَوَازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ الْحَارِسُ بْنُ مُسْكِينٍ وَبَنُوهُ ثُمَّ أَنْقَرَضَ فِيهِ أَهْلُ السَّنَةِ مِنْ مِصْرَ
 يَظْهَرُ دَوْلَةُ الرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا أَهْلُ الْبَيْتِ وَتَلَاشَى مِنْ سِوَاهُمْ إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ
 دَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ مِنَ الرَّافِضَةِ عَلَى بَدِّ صَاحِ الدِّينِ يُوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِيهِ
 الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابِيهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ فَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَنَفَقَتْ سِوَاهُ
 وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُجَنَّبِيُّ الدِّينِ النَّوَوِيُّ مِنَ الْحَلَبَةِ الَّتِي رَيْتَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ
 بِالشَّامِ وَعَزَّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ أَيْضًا ثُمَّ ابْنُ الرَّفْعَةِ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ الدِّينِ بْنُ
 دَقِيقِ الْعَيْدِ ثُمَّ تَقِيُّ الدِّينِ السَّبْكِيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنْ أَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ
 بِمِصْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ الدِّينِ الْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ الْيَوْمَ أَكْبَرُ الشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ
 الْعُلَمَاءِ بَلَّ أَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ وَأَمَّا مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَاخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ
 أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَقْلِدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي
 الْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رِحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى الْحِجَازِ وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ وَالْمَدِينَةَ يَوْمئِذٍ دَارُ
 الْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ الْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَأَقْتَصَرُوا عَنِ الْأَخْذِ عَنِ عُلَمَاءِ
 الْمَدِينَةِ وَشَيْخِهِمْ يَوْمئِذٍ وَإِمَامِهِمْ مَالِكٌ وَشِبُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتَلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَرَجَعَ
 إِلَيْهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَقَلَدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ وَأَيْضًا
 فَالْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَاوَنُونَ الْحِضَارَةَ الَّتِي
 لِأَهْلِ الْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ أَمِيلًا لِمُنَاسَبَةِ الْبِدَاوَةِ وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ الْمَذْهَبُ
 الْمَالِكِيُّ غَضًّا عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْفِيحُ الْحِضَارَةِ وَتَهْدِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ
 وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى
 الْأَحْتِيَادِ وَالْقِيَاسِ فَاحْتَأَجُوا إِلَى تَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ الْأَشْتِبَاكِ
 بَعْدَ الْأَسْتِنَادِ إِلَى الْأُصُولِ الْمَقْرُورَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى
 مَلَكَتٍ رَاسِخَةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّنْظِيرِ أَوْ التَّفْرِيقَةِ وَاتَّبَعَ مَذْهَبُ إِمَامِهِمْ
 فِيهِمَا مَا اسْتَطَاعُوا وَهَذِهِ الْمَلَكَتُ هِيَ عِلْمُ الْفَقْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ جَمِيعًا مُقْلِدُونَ
 لِمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ أَفْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ فَكَانَ بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ
 الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ابْنِ خُوَيْزَمَنْدَادَ وَأَبْنِ اللَّبَّانِ وَالْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ
 الْأَبْهَرِيِّ وَالْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ بْنِ الْقَصَّارِ وَالْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَانَ

بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وطبقتهم ورحل
من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك
في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتيبي من تلاميذه كتاب العتيبي
ورحل من أفريقية أسد بن الفرات نكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل
إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء إلى القيروان
بكتابه وسُمي الأسيدي نسبة إلى أسد بن الفرات فقرأ بها يخنون على أسد ثم ارتحل
إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسيدي فرجع عن كثير
منها وكتب سخنون مسألتها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب
سخنون فأنت من ذلك فترك الناس كتابه وأبعوا مدونه سخنون دلى ما كان فيها من
اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل
القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتيبي ثم اختصر ابن
أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضاً أبو سعيد
البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب وأعمده الشيخة من أهل
أفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك أعمد أهل الأندلس كتاب العتيبي
وهجر الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح
والإيضاح والجمع وكتب أهل أفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل
ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الأندلس
على العتيبي ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في
الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوار فاشتمل على جميع أقوال
المذاهب وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس مغممه في كتابه على
المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان
ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحارث
لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج
للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين وابن
المبشر وابن الأبهت وابن الرشيقي وابن شاس وكانت بالأندلس سكندرية في بني عوف

وَبْنِي سَنَدٍ وَأَبْنِ عَطَاءِ اللَّهِ وَلَمْ أَدْرِ عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرٍو وَبْنِ الْحَاجِبِ لَكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ
 الْفَرَّاضِ دَوْلَةَ الْعَبِيدِيِّينَ وَذَهَابَ فِيهِ أَهْلُ الْبَيْتِ وَظُهُورُ فَهَاءِ السَّنَةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ
 وَالْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ آخِرَ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ عَكَفَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ
 مِنْ طَلَبَةِ الْمَغْرِبِ وَخُصُوصًا أَهْلُ بَجَايَةِ لِمَا كَانَ كَبِيرُ مَسِيخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ
 الزَّوَاوِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مَخْتَصَرَهُ
 ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَأَنْتَشَرَ بِقَطْرِ بَجَايَةِ فِي تَلْمِيذِهِ وَمِنْهُمْ أَنْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ
 وَطَلَبَةَ الْفِقْهِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَا يُؤْتَرُ عَنِ الشَّيْخِ
 نَاصِرِ الدِّينِ مِنَ التَّرغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَأَبْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَأَبْنِ
 رُشْدٍ وَأَبْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقِ حَلْبَتِهِمْ فِي الْإِجَادَةِ فِي ذَلِكَ
 أَبْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ التَّهْدِيدِ فِي دُرُوسِهِمْ وَاللَّهُ يَهْدِي
 مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ الْوَرَاثَةِ وَتَصْحِيحِ سَهَامِ الْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصَحُّ بِأَعْتِبَارِ فُرُوضِهَا
 الْأَصُولُ أَوْ مَنَاسَخَتِهَا وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ الْوَرَثَةِ وَأَنْكَسَرَتْ سَهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ
 وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسَابِ تَصْحِيحِ الْفَرِيضَةِ الْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ الْفُرُوضِ
 جَمِيعًا فِي الْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجَزُّئِهِ وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ
 مِنْ وَاحِدٍ وَأَثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَكْثَرِ وَبِقَدْرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَذَلِكَ
 إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ مِثْلُ أَنْ يَفْرُقَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ بَوَارِثٍ وَيُنْكَرَهُ الْآخَرُ
 فَتُصَحَّحُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السَّهَامِ ثُمَّ تُقَسَّمُ التَّرَكَةُ عَلَى نِسَبِ سَهَامِ
 الْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ الْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى الْحِسَابِ وَكَانَ غَالِبًا فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنَاءً
 مُفْرَدًا وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ أَشْهُرُ مَا عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأَخَّرِي الْإِنْدَلَسِ
 كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْحَوْفِيِّ ثُمَّ الْجَعْدِيُّ وَمِنْ مُتَأَخَّرِي
 أَفْرِيْقِيَّةِ ابْنُ النَّعْرِ الطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمثالُهُمْ وَأَمَّا الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَفِيَّةُ وَالْحَمَالِيَّةُ فَلَهُمْ فِيهِ
 تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعِبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِاتِّسَاعِ الْبَلْعِ فِي الْفِقْهِ وَالْحِسَابِ

وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف
 لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة
 يقينية عند ما تجهل المحظوظ وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الأمصار بها
 عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج
 إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والأصرف في الجذور
 وأمثال ذلك فيملأون بها تاليفهم وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما
 يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد الميران وتمصيل المالكة في
 المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتاج إلا أكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث
 المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى وفي
 رواية نصف العلم خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناءً على أن المراد
 بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر أن هذا النحل بعيد وأن المراد بالفرائض
 إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها وبهذا المعنى
 يصح فيها النصفية والثالثية وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى
 علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص
 أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون
 والأصطلاحات ولم يكن صدر الإسلام يطابق على هذا إلا على عموميه مشتقاً من
 الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع
 الفروض كما قلناه وهي حقيقته الشرعية فلا ينبغي أن يحمل إلا على ما كان يحمل
 في عصرهم فهو اللفظ بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل التاسع

في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات

اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجتها قدراً وأكثرها فائدة
 وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتأليف وأصول
 الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عهد النبي
 صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تنلقى بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله

بِحَطَابِ شَفَاهِيٍّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ وَلَا إِلَى نَظَرٍ وَقِيَاسٍ وَمِنْ بَعْدِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ تَعَدَّرَ الْخُطَابُ الشَّفَاهِيَّ وَانْحَفَظَ الْقُرْآنُ بِالتَّوَاتُرِ وَأَمَّا السُّنَّةُ فَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ
رُضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْنَا مِنْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ
الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ وَتَعَيَّنَتْ دَلَالَةُ الشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هَذَا الْإِعْتِبَارُ
ثُمَّ يَنْزِلُ الْأَجْمَاعُ مِنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى النَّكْرِ عَلَى مَخَالِفِهِمْ وَلَا يَكُونُ
ذَلِكَ إِلَّا عَنِ مُسْتَنَدٍ لِأَنَّ مِثْلَهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ مَعَ شَهَادَةِ الْأَدَلَّةِ بَعْضُهُم
الْجَمَاعَةَ فَصَارَ الْأَجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ
الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هُمْ يَقِيسُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِنْهُمَا وَيَنْظُرُونَ
الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالِ بِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ وَسَلَامِهِمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ
الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَمْ تَنْدَرْجْ فِي النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ فَقَاسَوْهَا بِمَا
ثَبَتَ وَاحْتَوَاهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ تُصَحِّحُ تِلْكَ الْمَسَاوَةَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ
أَوْ الْمَثَلَيْنِ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاحِدٌ وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا
شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ وَهُوَ الْقِيَاسُ وَهُوَ رَابِعُ الْأَدَلَّةِ وَاتَّفَقَ جَمَاهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ
هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْأَدَلَّةِ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الْأَجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ إِلَّا أَنَّهُ شُدُوزٌ
وَالْحَقُّ بَعْضُهُمْ بِهِذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَدَلَّةٍ أُخْرَى لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا لِضَعْفِ مَدَارِكِهَا
وَشُدُوزِ الْقَوْلِ فِيهَا فَكَانَ أَوَّلُ مَبَاحِثِ هَذَا الْفَنِّ النَّظْرُ فِي كَوْنِ هَذِهِ أَدَلَّةٍ فَأَمَّا
الْكِتَابُ فَدَلِيلُهُ الْمُعْجِزَةُ الْقَاطِعَةُ فِي مَتْنِهِ وَالتَّوَاتُرُ فِي نَقْلِهِ فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَجَالٌ لِلِاحْتِمَالِ
وَأَمَّا السُّنَّةُ وَمَا نَقَلَ إِلَيْنَا مِنْهَا فَالْإِجْمَاعُ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا
مُعْتَصِدًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي حَيَاتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْثَاذِ الْكِتَابِ
وَالرُّسُلِ إِلَى النُّوَاحِي بِالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ أَمْرًا وَنَاهِيًا وَأَمَّا الْأَجْمَاعُ فَلِإِتِّفَاقِهِمْ
رُضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى إِنْكَارِ مَخَالِفَتِهِمْ مَعَ الْعِصْمَةِ الثَّابِتَةِ لِلْأَمَّةِ وَأَمَّا الْقِيَاسُ
فَبِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ هَذِهِ أَصُولُ الْأَدَلَّةِ ثُمَّ إِنَّ
الْمَنْقُولَ مِنَ السُّنَّةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَصْحِيحِ الْخَبَرِ بِالنَّظَرِ فِي طُرُقِ النَّقْلِ وَعَدَالَةِ النَّاقِلِينَ
لِتَسْمِيَةِ الْحَالَةِ الْمُحْصَلَةِ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّذِي هُوَ مَنْطِقُ وُجُوبِ الْعَمَلِ وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ
قَوَاعِدِ الْفَنِّ وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَطَلَبِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمَا

مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَسْخُوحِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيْضًا وَأَبْوَابِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ النَّظَرُ فِي
 دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ
 عَلَى الْإِطْلَاقِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً وَالْقَوَائِنِ
 اللَّسَانِيَّةِ فِي ذَلِكَ هِيَ عُلُومُ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ وَحِينَ كَانَ الْكَلَامُ مُلْكَةً
 لِأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَائِنَ وَلَمْ يَكُنْ الْفِقْهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جِبِلَّةٌ
 وَمَلِكَةٌ فَلَمَّا فَسَدَتْ الْمَلِكَةُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قَبْدَهَا الْجِبَالِيَّةُ أَلْتَجَرَّدُونَ لِذَلِكَ
 بِنَقْلِ صَحِيحٍ وَمَقَائِسٍ مُسْتَنْبَطَةٍ صَحِيحَةٍ وَصَارَتْ عُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْفَقِيهَ فِي مَعْرِفَةِ
 أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ اسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى خَاصَّةً مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهِيَ
 اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ أَدَائَتِهَا الْخَاصَّةِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ
 وَهُوَ الْفِقْهُ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ
 أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَاتُ الْخَاصَّةُ وَبِهَا اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ بِحَسَبِ مَا أَصَلَ
 أَهْلَ الشَّرْعِ وَجِبَالِيَّةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ قَوَائِنَ لِيَهْدِيَ الْاسْتِفَادَةَ مِثْلَ أَنَّ اللُّغَةَ
 لَا تُنْبِتُ قِيَاسًا وَالْمَشْتَرِكُ لَا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ مَعًا وَالْوَاوُ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَالْعَامُّ إِذَا
 أُخْرِجَتْ أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةٌ فِيمَا عَدَاهَا وَالْأَمْرُ لِلْوَجُوبِ أَوْ النَّدْبِ وَالْفُجُورُ
 أَوْ التَّرَاخِي وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي النَّسَادَ أَوْ الصَّحَّةَ وَالْمُطْلَقُ هَلْ يُحْمَلُ عَلَى الْمُقْبَدِ وَالنَّصُّ
 عَلَى الْعَلَّةِ كَأَنَّ فِي التَّعَدُّدِ أَمْ لَا وَمِثَالُ هَذِهِ فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ وَلَكُونَهَا
 مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ كَانَتْ لُغَوِيَّةً ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ لِأَنَّ
 فِيهِ تَحْقِيقَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا بَقِيَ وَمِثَالٌ مِنَ الْأَحْكَامِ وَيَنْفَتِحُ الْوَصْفُ الَّذِي
 يَعْطَبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ الْحُكْمَ عَلَيَّ بِهِ فِي الْأَصْلِ مِنْ تَبَيَّنَ أَوْصَافُ ذَلِكَ الْحَمَلِ أَوْ وُجُودُ
 ذَلِكَ الْوَصْفِ وَالْفَرْعِ مِنْ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلٍ أُخْرَى
 مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ كُلِّهَا قَوَاعِدُ لِيُذَا الْفَنِّ . (واعلم) أَنَّ هَذَا الْفَنِّ مِنَ الْفُنُونِ الْمُسْتَحْدَثَةِ
 فِي الْعِلْمِ وَكَانَ السَّالِفُ فِي غَيْبِهِ عَنْهُ بِمَا أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي مِنَ الْأَلْفَاظِ لَا يَحْتَاجُ
 فِيهَا إِلَى أَرْزِدٍ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَلِكَةِ اللَّسَانِيَّةِ وَأَمَّا الْقَوَائِنُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي
 اسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أُخِذَ مُعْظَمُهَا وَأَمَّا الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ
 إِلَى النَّظَرِ فِيهَا الْقُرْبِ الْعَصْرِ وَمَارَسَةِ الْقَلَّةِ وَخَبْرَتِهِمْ بِهِمْ فَلَمَّا انْقَرَضَ السَّالِفُ وَذَهَبَ

الصِدْرُ الْأَوَّلُ وَأَنْقَلَبَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَا مِنْ قَبْلِ احْتِاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُجْتَهِدِينَ
 إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْقَوَائِنِ وَالْقَوَاعِدِ لِاسْتِمَادَةِ الْأَحْكَامِ مِنَ الْأَدَلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنَأ
 قَائِمًا بِرَأْسِهِ سَمَوْهُ أُصُولَ الْفِقْهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِيهِ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
 أَمَلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي وَالْيَمَانَ وَالْخُبْرَ وَالنَّسْخَ
 وَحُكْمَ الْعَلَةِ الْمَنْصُوصَةِ مِنَ الْقِيَاسِ ثُمَّ كَتَبَ فُقَهَاءُ الْخِزْفِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ
 وَأَوْسَعُوا الْقَوْلَ فِيهَا وَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ أَيْضًا كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الْفُقَهَاءِ فِيهَا
 أَمَسٌ بِالْفِقْهِ وَالْيَقُوبِيُّ بِالْفُرُوعِ كَثْرَةُ الْأَمْثَلَةِ مِنْهَا وَالشَّوَاهِدُ وَبِنَاءُ الْمَسَائِلِ فِيهَا عَلَى
 النَّيِّكَاتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ صُرُورَ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَلَى الْفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى
 الْأَسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ مَا أَمَكْنَ لِأَنَّهُ عَابٌ فَنُوزِنَهُمْ وَمُقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الْخِزْفِيَّةِ
 فِيهَا أَيْدٍ الطُّوْلَى مِنَ الْعُرُوصِ عَلَى النَّيِّكَاتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالتَّلَقُّطِ هَذِهِ الْقَوَائِنِ مِنْ مَسَائِلِ
 الْفِقْهِ مَا أَمَكْنَ وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ الدَّبُوسِيُّ مِنْ أَيْمَتِهِمْ فَكَتَبَ فِي الْقِيَاسِ بِأَوْسَعِ مِنْ
 جَمِيعِهِمْ وَتَمَّ الْأَبْحَاثُ وَالشَّرُوطُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمَلَتْ صِنَاعَةُ أُصُولِ الْفِقْهِ
 بِكَمَالِهِ وَتَهَدَّتْ مَسَائِلُهُ وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعُيِيَ النَّاسُ بِطَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ وَكَانَ
 مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ كِتَابُ الْبَرْهَانَ لِإِمَامِ الْحَرَمِيِّ وَالْمُسْتَصَفَى
 لِلْغَزَالِيِّ وَهُمَا مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابُ الْعَهْدِ لِعَبْدِ الْجَبَّارِ وَشَرَحَهُ الْمُعْتَمِدُ لِأَيِّ الْحُسَيْنِ
 الْبَصْرِيِّ وَهُمَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَكَانَتِ الْأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هَذَا الْفَنِّ وَأَزْكَاهُ ثُمَّ تَلَخَّصَ هَذِهِ
 الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةَ فَحَلَّلَ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الْإِمَامُ فُخْرُ الدِّينِ بْنِ
 الْخَطِيبِ فِي كِتَابِ الْحَصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الْأَمِيدِيِّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ وَأَخْتَلَفَتْ
 طَرِيقَتُهُمَا فِي الْفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالْحِجَابِ فَأَبْنُ الْخَطِيبِ أَمِيلٌ إِلَى الْأَسْتِثْنَاءِ مِنْ
 الْأَدَلَّةِ وَالْأَحْتِجَاجِ وَالْأَمِيدِيُّ مَوْلِعٌ بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ وَأَمَّا كِتَابُ
 الْحَصُولِ فَأَخْتَصَرَهُ تَلْمِيزُ الْإِمَامِ سِرَاجِ الدِّينِ الْأَزْمُوعِيِّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَأَجَّ
 الدِّينِ الْأَزْمُوعِيُّ فِي كِتَابِ الْحَاصِلِ وَاقْتَطَفَتْ شَهَابُ الدِّينِ الْقُرَافِيُّ مِنْهُمَا مُقَدِّمَاتٍ
 وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابِ صَغِيرِ سَمَاءِ التَّنْقِيحَاتِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ الْمَنْهَاجِ
 وَعُيِيَ الْمُبْتَدِئُونَ بِهَيْدِينَ الْكُتُبَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا كِتَابُ الْأَحْكَامِ
 الْأَمِيدِيِّ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقًا فِي الْمَسَائِلِ فَلَخَّصَهُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْحَاجِبِ فِي كِتَابِهِ

المعروف بِالْمُخْتَصَرِ الْكَبِيرِ ثُمَّ اخْتَصَرَهُ فِي كِتَابٍ آخَرَ تَدَاوَلَهُ طَلَبَةُ الْعِلْمِ وَعِنِي أَهْلُ
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِهِ وَبِمَطَاعَتِهِ وَشَرَحَهُ وَحَصَلَتْ زُبْدَةٌ طَرِيقَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي
 هَذَا الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْمُخْتَصَرَاتِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْخُفْيَةِ فَكَتَبُوا فِيهَا كَثِيرًا وَكَانَ
 مِنْ أَحْسَنِ كِتَابَةٍ فِيهَا لِلْمُنْقَدِّ مِنْ تَأْلِيفِ أَبِي زَيْدِ الدَّبُوسِيِّ وَأَحْسَنِ كِتَابَةِ الْمَتَاخِرِينَ
 فِيهَا تَأْلِيفُ سَيْفِ الْإِسْلَامِ الْبَزْدَوِيِّ مِنْ أُمَّتِهِمْ وَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ وَجَاءَ ابْنُ السَّعَاقِيِّ
 مِنْ فُقَهَاءِ الْخُفْيَةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ الْإِحْكَامِ وَكِتَابِ الْبَزْدَوِيِّ فِي الطَّرِيقَتَيْنِ
 وَسَمَّى كِتَابَهُ بِالْبُدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعِهَا وَأَيُّمَةُ الْعُلَمَاءِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَهُ قِرَاءَةً وَبَحْثًا وَأَوْرَاعَ كَثِيرًا مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ بِشَرَحِهِ وَالْحَالُ عَلَى
 ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ هَذِهِ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعْدِيدُ التَّأْلِيفِ الْمَشْهُورَةِ
 لِهَذَا الْعَهْدِ فِيهِ وَاللَّهُ يَفْعَلُ بِالْعِلْمِ وَيَجْعَلُنَا مِنْ أَهْلِهِ بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 (وَأَمَّا الْخِلَافَاتُ) . فَأَعْلَمُ أَنَّ دَلِمَا الْفَقْهَ الْمُسْتَنْبَطَ مِنَ الْأَدَلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ كَثُرَ فِيهِ
 الْخِلَافُ بَيْنَ الْمُجْتَهِدِينَ بِاخْتِلَافِ مَدَارِكِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ خِلَافًا لِأَبَدٍ مِنْ وَقْتِهِ لِمَا
 قَدَّمَاهُ وَأَتَّسَعَ ذَلِكَ فِي الْمِلَّةِ اتِّسَاعًا عَظِيمًا وَكَانَ لِلْمُقَلِّدِينَ أَنْ يُقَالِدُوا مَنْ شَاءُوا
 مِنْهُمْ ثُمَّ لَمَّا أَتَتْ ذَلِكَ إِلَى الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ وَكَانُوا بِمَكَانٍ
 مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ أَقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ وَمَنْعُوا مِنْ تَقْلِيدِ سِوَاهُمْ لِذَهَابِ الْاجْتِهَادِ
 لِضَعْفِهِ وَشَعْبِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مَوَادُّهُ بِاتِّصَالِ الزَّمَانِ وَاقْتِفَادِ مَنْ يَقُومُ عَلَى سِوَى
 هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ فَأَقْبَمَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الْأَرْبَعَةُ أَصُولَ الْمِلَّةِ وَأُجْرِي الْخِلَافُ
 بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَالْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا مُجْرَى الْخِلَافِ فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ
 وَالْأَصُولِ الْفَقْهِيَّةِ وَجَرَتْ بَيْنَهُمُ الْمُنَازَعَاتُ فِي تَصْحِيحِ كُلِّ مِنْهُمْ مَذْهَبٍ أَمَامِهِ تَجْرِي
 عَلَى أَصُولٍ صَحِيحَةٍ وَطَرَائِقٍ قَوِيَّةٍ يَحْتَجُّ بِهَا كُلُّ عَلَى مَذْهَبِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ
 وَأُجْرِيَتْ فِي مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْفَقْهِ فَتَارَةً يَكُونُ الْخِلَافُ
 بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِي
 يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هَذِهِ
 الْمُنَازَعَاتِ بَيَانُ مَا خِذَ هُوَ لِأَيْمَةِ وَمَثَارَاتُ اخْتِلَافِهِمْ وَمَوَاقِعُ اجْتِهَادِهِمْ كَانَتْ هَذَا
 الصَّنْفُ مِنَ الْعِلْمِ يُسَمَّى بِالْخِلَافِيَّاتِ وَلَا بَدَأَ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا

إِلَى اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنَّ الْمُجْتَهِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِإِسْتِنْبَاطِ
وَصَاحِبِ الْخِلَافِيَّاتِ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمُسْتَنْطَقَةِ مِنْ أَنْ يَهْدِمَهَا الْمُخَالَفُ
بِأَدْلَتِهِ وَهُوَ لِعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلٌ الْفَائِدَةُ فِي مَعْرِفَةِ مَا خِذَ الْأئِمَّةُ وَأَدْلَتِهِمْ وَمَرَاتِ
الْمُطَالَعِينَ لَهُ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ وَتَأَلَّفُ الْخُنْفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَأَلَّفِ
الْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ الْقِيَاسَ عِنْدَ الْخُنْفِيَّةِ أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفْتِ
فَهُمْ لِذَلِكَ أَهْلُ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ . وَأَمَّا الْمَالِكِيَّةُ فَالْأَثَرُ أَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ
نَظَرٍ وَأَيْضًا فَأَكْثَرُهُمْ أَهْلُ الْعَرَبِ وَهُمْ بَادِيَةٌ غُزُلٌ مِنَ الصَّنَائِعِ الْإِي فِي الْأَوَّلِ وَالغَزَالِي
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ الْمَاخِذِ وَلِإِي زَيْدِ الدَّبُوسِيِّ كِتَابُ التَّعْلِيْقَةِ وَلِابْنِ الْقَصَّارِ
مِنْ شَيْوْخِ الْمَالِكِيَّةِ عِيُونُ الْأَدْلَةِ وَقَدْ جَمَعَ ابْنُ السَّعَاتِيِّ فِي مُخْتَصَرِهِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ
جَمِيعَ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهَا مِنَ الْفِقْهِ الْخِلَافِيِّ مُدْرَجًا فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهَا مِنَ الْخِلَافِيَّاتِ
(وَأَمَّا الْجِدَالُ) وَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَازَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ
وغيرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَازَرَةِ فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ مُتَسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَازِرِينَ
فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي الْإِحْتِجَاجِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا
يَكُونُ خَطَأً فَاحْتَاجَ الْأئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَفِئُ الْمُنَازِرَانِ عِنْدَ
حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَدَلِّ وَالْمُجِيبِ وَحَيْثُ يُسَوِّغُ لَهُ
أَنْ يَكُونَ مُسْتَدَلًّا وَكَيْفَ يَكُونُ مُخْضُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَعْلُ أَعْرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيُّ
يَجِبُ عَلَيْهِ السُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ
بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيِ وَهَدْمِهِ سَوَاءً
كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ الْبُرُودِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدْلَةِ
الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ وَطَرِيقَةُ الْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَةٌ فِي كُلِّ
دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيِّ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ اسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ الْمُنَاحِي الْحَسَنَةِ
وَالْمَعَالِطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا أَعْتَبَرْنَا النَّظَرَ الْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي الْغَالِبِ
أَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ الْمَعَالِطِيِّ وَالسُّوفِسْطَائِيِّ إِلَّا أَنَّ صُورَةَ الْأَدْلَةِ وَالْأَفِيسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ
مُرَاعَاةً تُجْرَى فِيهَا طَرِيقُ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ
فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَضَعُ الْكِتَابِ الْمُسَمَّى بِالْإِزْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مِنْ بَعْدِهِ

مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا عَلَىٰ أَنْزَرِهِ وَسَلَكُوا مَسَلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي
الطَّرِيقَةِ التَّالِيفُ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ الْحُجَاجَ عَنِ الْعُقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرَّدَّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ
الْمُنْجَرِفِينَ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَسِرِّ هَذِهِ الْعُقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ
هُوَ التَّوْحِيدُ فَلَنَقْدِمَ هُنَا لَطِيْفَةً فِي بُرْهَانِ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ
الطَّرِيقِ وَالْمَاخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيمَا يَنْظُرُ وَيُسِيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي الْمِلَّةِ
وَمَا دَعَا إِلَى وَضَعِهِ فَنَقُولُ إِنَّ الْحُودُوثَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ سِوَاهُ كَانَتْ مِنَ الذُّوَاتِ
أَوْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ الْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَفَعُّلٌ فِي
مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضًا فَلَا بُدَّ لَهُ
مِنْ أَسْبَابٍ أُخَرَ وَلَا تَرَالُ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ
وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ الْأَسْبَابُ فِي أَرْقَائِهَا تَنْفَسِحُ وَتَنْضَاعِفُ
طَوَلًا وَعَرْضًا وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا فَإِذَا لَا يَحْصِرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْحَقِيقُ سِيمَا
الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ
إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقُصْدِ إِلَيْهِ وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ
نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنِ تَصَوُّرَاتِ سَابِقَةٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتِلْكَ التَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ
قُصْدِ الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ
مِنَ التَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِيءِ الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى
تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءٌ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الذِّكْرِ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنِ
مَعْرِفَةِ مَبَادِيئِهَا وَغَايَاتِهَا وَإِنَّمَا يَحْصِلُ عِلْمًا فِي الْغَالِبِ بِالْإِسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ ظَاهِرَةٌ
وَيَقَعُ فِي مَدَارِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ مَحْضُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا وَأَمَّا
التَّصَوُّرَاتُ فَتَطَّافُهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ فَلَا تَدْرِكُ
الْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلًا عَنِ الْإِحَاطَةِ وَتَأَمَّلْ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ النَّظْرِ

إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَإِذْ يَهَيِّمُ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَحِلُّ مِنْهُ بَطَائِلٌ وَلَا يَطْفَرُ
 بِحَقِيقَةٍ قَالَ اللَّهُ ثُمَّ ذَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ فِي وُقُوفِهِ عَنِ الْأَرْقَاءِ إِلَى
 مَا قَوْفُهُ فَزَاتِ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَرَمَانِ وَالْخُسْرَانِ
 الْمَمِينِ وَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفَ أَوْ الرَّجُوعَ عَنْهُ فِي قُدْرَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْ
 يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصَبْغَةٌ تَسْتَحْكِمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْأَسْبَابِ عَلَى نَسْبَةٍ لَا نَعْلَمُهَا إِذْ لَوْ
 عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّرْنَا مِنْهَا فَلْتَحَرَّرَ مِنْ ذَلِكَ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْهَا جُمْلَةً وَأَيْضًا فَوْجَهُ تَأْتِيرُ
 هَذِهِ الْأَسْبَابِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ مُسَبِّبَاتِهَا مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْعَادَةِ لِاقْتِرَانِ
 الشَّاهِدِ بِالْأَسْتِنَادِ إِلَى الظَّاهِرِ وَحَقِيقَةِ التَّأْتِيرِ وَكَيْفِيَّتِهِ مَجْهُولَةٌ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ
 إِلَّا قَلِيلًا فَلِذَلِكَ أَمَرْنَا بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَالْغَائِثِ جُمْلَةً وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ
 كُلِّهَا وَقَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا لَتَرْسَخَ صِفَةُ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمْنَا الشَّارِعَ الَّذِي هُوَ
 أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِاطِّلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحَسِّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ
 فَقَدِ انْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَإِنْ سَجَّ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَابْتَحَثَ عَنْهَا وَعَنْ
 أَسْبَابِهَا وَتَأْتِيرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ قَاتِنًا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَبْعُدُ إِلَّا بِالْخُبِيَةِ فَلِذَلِكَ
 نَهَانَا الشَّارِعَ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ وَأَمَرْنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمَطْلُوقِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ
 الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَلَا نَتَقِنَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْكُفْرُ مِنْ
 أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْإِحْاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ وَسَفَهُ
 رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ وَعَلِمْنَا أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِيءِ رَأْيِهِ مُتَخَصِّرٌ فِي مَدَارِكِهِ
 لَا يَعْدُوها وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ أَلَّا تَرَى الْأَصَمَّ كَيْفَ
 يَتَخَصَّرُ الْوُجُودَ عِنْدَهُ فِي الْمَحْسُوسَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ
 صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى أَيْضًا يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْتَبَاتِ وَلَوْلَا مَا يَرُدُّهُمْ
 إِلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَالْكَافَّةِ لَمَا أَفْرَقُوا بِهِ لِكِنْتُمْ
 يَتَّبِعُونَ الْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ
 سَأَلَ الْحَيَوَانَ الْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكَرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِالْكُلَيْبَةِ
 فَإِذَا عَلِمَتْ هَذَا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْبًا مِنَ الْإِدْرَاكِ عَيْرِ مُدْرَكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَتِنَا مَخْلُوقَةٌ

مُحَدَّثَةٌ وَخَلَقَ اللهُ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَالْحَصْرُ مُجْهُولٌ وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ
ذَلِكَ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ فَأَتَيْتُمْ إِدْرَاكَكَ وَمُدْرَكَاتِكَ فِي الْحَصْرِ وَأَتَبِعَ مَا أَمَرَكَ
الشَّارِعُ بِهِ مِنْ اعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ
طَوْرٍ فَوْقَ إِدْرَاكَكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعٍ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ
وَمُدَارِكِهِ بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكَمُهُ بِقِيَّتِهِ لَا كَذِبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ
أَنْ تَزِنَ بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةِ وَحَقِيقَةَ النُّبُوَّةِ وَحَقَائِقَ الصِّفَاتِ الإِلَهِيَّةِ وَكُلَّ مَا
وَرَاءَ طَوْرِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مَحَالٍ وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ
بِهِ الذَّهَبُ فَطَمَعُ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْجِبَالَ وَهَذَا لَا يُدْرِكُ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَمِهِ غَيْرُ
صَادِقٍ لَكِنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِاللَّهِ
وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَاتِ الْوُجُودِ الْحَاصِلِ مِنْهُ وَتَنْظُرُ فِي هَذَا الْغَلَطِ وَمَنْ يَقْدِمُ
الْعَقْلَ عَلَى السَّمْعِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْقَضَايَا وَفُضِرَ فِهْمُهُ وَأَضْحَجَلَّ رَأْيُهُ فَقَدْ تَبَيَّنَ
لَكَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَعَلَّ الْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزْتَ فِي الْأَرْتِقَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكَكَ
وَوُجُودًا خَرَجْتَ عَنْ أَنْ تَكُونَ مُدْرِكَةً فَيُضِلُّ الْعَقْلُ فِي بَيْدَاءِ الْأَوْهَامِ وَتَحَارُ وَيَنْقَطِعُ
فَإِذَا التَّوْحِيدُ أَوْ الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَقْوِيضُ ذَلِكَ إِلَى
خَالِقِهَا الْمُحِيطِ بِهَا إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرَهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمِنَا بِهِ إِنَّمَا
هُوَ مِنْ حَيْثُ صُدُورُنَا عَنْهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا نَقَلَ عَنْ بَعْضِ الصِّدِّيقِينَ الْعَجْزُ عَنِ الْإِدْرَاكِ
إِدْرَاكِ ثُمَّ إِنَّ الْمَعْتَبَرَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ فَقَطُّ الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ
حُكْمِي فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ تَنْكِيْفُ
بِهَا النَّفْسِ كَمَا أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ أَيْضًا حُصُولُ مَلَكََةِ الطَّاعَةِ
وَالْإِنْفِيَادِ وَتَتَرَبُّعُ الْقَلْبِ عَنْ شَوَاغِلِ مَا سِوَى الْمَعْبُودِ حَتَّى يَتَقَلَّبَ الْمُرِيدُ السَّالِكُ
رَبَانِيًا وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالِ وَالْعِلْمِ فِي الْعَقَائِدِ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْإِتِّصَافِ وَشَرْحُهُ أَنَّ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا
وَيَقُولُ بِذَلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَا أَخَذَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ
مَسْكِينًا مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْتَضْعَفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَأَسْتَنْكَفَ أَنْ يَبْشُرَهُ فَضْلًا عَنِ التَّمَسُّحِ
عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَطْفِ وَالْحَنُونِ وَالصَّدَقَةِ فَهَذَا إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ

مِنْ رَحْمَةِ الْيَتِيمِ مَقَامَ الْعِلْمِ وَلَمْ يَحْضُرْ لَهُ مَقَامُ الْحَالِ وَالْإِتِّصَافِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ
 يَحْضُرُ لَهُ مَعَ مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمُسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
 مَقَامٌ آخَرَ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِتِّصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهَا فَمَتَى رَأَى يَتِيمًا
 أَوْ مُسْكِينًا بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَّ عَلَيْهِ وَالتَّمَسَّ التَّوَابَ فِي الشَّنْفَةِ عَلَيْهِ لَا يَكَادُ يَصْبِرُ عَنْ
 ذَلِكَ وَلَوْ دَفَعَهُ عَنْهُ ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عَلِمَكَ بِالتَّوْحِيدِ مَعَ
 اتِّصَافِكَ بِهِ وَالْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ ضَرُورَةً وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنَى مِنَ الْعِلْمِ الْحَاصِلِ
 قَبْلَ الْإِتِّصَافِ وَلَيْسَ الْإِتِّصَافُ بِحَاصِلٍ عَنِ مُجَرَّدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ الْعَمَلُ وَيَتَكَرَّرَ
 مِرَارًا غَيْرَ مُخْتَصِرَةٍ فَتَرْتَبِعُ الْمَلَكَةُ وَيَحْضُرُ الْإِتِّصَافُ وَالتَّحْقِيقُ وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الثَّانِي
 النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ الْمَجْرَدَ عَنِ الْإِتِّصَافِ قَلِيلُ الْجَدْوَى وَالنَّفْعُ وَهَذَا
 عِلْمٌ أَكْثَرُ النَّظَارِ وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَالِي النَّاشِئُ عَنِ الْعَادَةِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ
 الْكَمَالَ عِنْدَ الشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كَلَّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا فَمَا طَلِبَ اعْتِقَادُهُ
 فَأَلْكَمَالَ فِيهِ فِي الْعِلْمِ الثَّانِي الْحَاصِلِ عَنِ الْإِتِّصَافِ وَمَا طَلِبَ عَمَلُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ
 فَأَلْكَمَالَ فِيهَا فِي حُصُولِ الْإِتِّصَافِ وَالتَّحْقِيقِ بِهَا ثُمَّ إِنَّ الْأَقْبَالَ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالْمَوْظُفَةِ
 عَلَيْهَا هُوَ الْحُصُولُ لِهَذِهِ الثَّمَرَةِ الشَّرِيفَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَأْسِ الْعِبَادَاتِ
 جَعَلْتُ قُوَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ صَارَتْ لَهُ صِفَةً وَحَالًا يَجِدُ فِيهَا مُنْتَهَى لِدَاتِهِ
 وَقُوَّةَ عَيْنِهِ وَإِنَّ هَذَا مِنْ صَلَاةِ النَّاسِ وَمَنْ لَهْمُ فِيهَا فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
 سَاهُونَ اللَّهُمَّ وَفَقِّنَا وَاهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ فِي الذِّكْرِ الْيَفِ
 كُلِّهَا حُصُولُ مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ فِي النَّسِ يَحْضُرُ عَنْهَا عِلْمٌ أُضْطَرَّارِيٌّ لِلنَّسِ هُوَ التَّوْحِيدُ
 وَهُوَ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ وَهُوَ الَّذِي يَحْضُرُ بِهِ السَّعَادَةُ وَأَنَّ ذَلِكَ سَوَاءٌ فِي الذِّكْرِ الْيَفِ
 الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ وَيَنْفَعُهُ مِنْهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّكْلِيفِ وَيَنْبُوعُهَا هُوَ يَهْدِيهِ
 الْمَتَابَةِ ذُو مَرَاتِبٍ أَوْلَاهَا التَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ الدَّوَافِقُ لِلسَّانِ وَأَعْلَاهَا حُصُولُ كَيْفِيَّةٍ مِنْ
 ذَلِكَ الْأَعْتِقَادِ الْقَلْبِيِّ وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْعَمَلِ مُسْتَوْلِيَّةٌ عَلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَتْبِعُ الْجَوَارِحَ
 وَتَنْدَرُجُ فِي طَاعَتِهَا جَمِيعُ التَّصَرُّفَاتِ حَتَّى تَنْخَرِطَ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا فِي طَاعَةِ ذَلِكَ التَّصْدِيقِ
 الْإِيمَانِيِّ وَهَذَا أَرْفَعُ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يُقَارِفُ الدُّوْمُنُ

مَعَهُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِذْ حُصِلَ الْمَلَكَةُ وَرُسُوحُهَا مَانِعٌ مِنَ الْإِنْخِرَافِ عَنْ مَنَاهِجِهِ
 طَرَفَةَ عَيْنٍ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزِيحُنِي الزَّلَازِي حِينَ يَزِيحُنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَفِي حَدِيثِ
 هِرَقْلَ لَمَّا سَأَلَ أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْوَالِهِ فَقَالَ فِي
 أَحْسَابِهِ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سُخْطَةً لَدَيْهِ قَالَ لَا أَقَالَ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَخْلُطُ
 بِشَاسْتِهِ الْقُلُوبَ وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَكَةَ الْإِيمَانِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ عَسْرَ عَلَى النَّفْسِ مَخَالَفَتَهَا شَأْنَ
 الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثَابَةِ الْجِبِلَّةِ وَالْفِطْرَةِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الْعَالِيَةُ
 مِنَ الْإِيمَانِ وَهِيَ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعِصْمَةِ لِأَنَّ الْعِصْمَةَ وَاجِبَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَجُوبًا
 سَابِقًا وَهَذِهِ حَاصِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِيَّةِ حُصُولًا تَابِعًا لِأَعْمَالِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَبِهَذِهِ الْمَلَكَةُ
 وَرُسُوحُهَا يَقَعُ التَّفَاوُتُ فِي الْإِيمَانِ كَالَّذِي يُتَلَى عَلَيْكَ مِنْ أَقَابِلِ السَّلَفِ وَفِي تَرَاجِمِ
 الْبُخَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَابِ الْإِيمَانِ كَثِيرٌ مِنْهُ مِثْلُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَيَزِيدُ
 وَيَنْقُصُ وَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ تَطَوُّعَ رَمَضَانَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحَيَاءُ مِنَ
 الْإِيمَانِ وَالْمُرَادُ بِهِذَا كُلِّهِ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَإِلَى مَلَكَتِهِ وَهُوَ
 فِعْلِيٌّ وَأَمَّا التَّصْدِيقُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِبِهِ فَلَا تَفَاوُتَ فِيهِ فَمَنْ أَعْتَبَرَ أَوَائِلَ الْأَسْمَاءِ
 وَحَمَلَهُ عَلَى التَّصْدِيقِ مُنِعَ مِنَ التَّفَاوُتِ كَمَا قَالَ أئِمَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَمَنْ أَعْتَبَرَ أَوَاخِرَ
 الْأَسْمَاءِ وَحَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ ظَهَرَ لَهُ التَّفَاوُتُ وَلَيْسَ
 ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي اتِّحَادِ حَقِيقَتِهِ الْأُولَى الَّتِي هِيَ التَّصْدِيقُ إِذِ التَّصْدِيقُ مُوجِدٌ فِي جَمِيعِ
 رُتَبِهِ لِأَنَّهُ أَقَلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْخُلُصُ مِنْ عَهْدَةِ الْكُفْرِ وَالْفَيْصَلُ
 بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ فَلَا يَجْزِي أَقَلُّ مِنْهُ وَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاوُتُ وَإِنَّمَا
 التَّفَاوُتُ فِي الْحَالِ الْحَاصِلَةِ عَنِ الْأَعْمَالِ كَمَا قُلْنَا هُ فَا فَهَمُّ وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّارِعَ وَصَفَ
 لَنَا هَذَا الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ وَعَيْنٌ أُمُورًا مَخْصُوصَةً
 كَلَّفْنَا التَّصْدِيقَ بِهَا بِقُلُوبِنَا وَأَعْتَقَادَهَا فِي أَنْفُسِنَا مَعَ الْأَقْرَارِ بِالْسِّنَنِ وَهِيَ الْعَقَائِدُ الَّتِي
 تَفَرَّرَتْ فِي الدِّينِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُوْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَهَذِهِ هِيَ الْعَقَائِدُ
 الْإِيمَانِيَّةُ الْمَقْرَرَةُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ . وَلِنُشِرَ إِلَيْهَا مُجْمَلَةً لِتَتَبَيَّنَ لَكَ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ
 وَكَيْفِيَّةُ حُدُوثِهِ فَتَقُولُ . اَعْلَمُ أَنَّ الشَّارِعَ لَمَّا أَمَرْنَا بِالْإِيمَانِ بِهِذَا الْخَالِقِ الَّذِي رَدَّ

الْأَفْعَالِ كُلِّهَا إِلَيْهِ وَأَفْرَدَهُ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي هَذَا الْإِيمَانِ نَجَاتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ
 إِذَا حُضِرْنَا لَمْ يُعْرَفْنَا بِكُنْهٍ حَقِيقَةٍ هَذَا الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ مُتَعَدِّرٌ عَلَى إِدْرَاكِهَا
 وَمِنْ فَوْقِ طُورِنَا فَكَلَّفْنَا أَوَّلًا اعْتِقَادَ تَنْزِيهِهِ فِي ذَاتِهِ عَنِ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ وَالْإِلَهَ
 لِمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ لِعَدَمِ الْفَارِقِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنِ صِفَاتِ النَّقْصِ
 وَالْإِلَاشَابَةِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِالْإِتِّحَادِ وَالْإِلَهَ لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانَعِ ثُمَّ اعْتِقَادَ أَنَّهُ
 عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذَلِكَ نَتَمُّ الْأَفْعَالِ شَاهِدٌ قَضَيْتَهُ لِكِمَالِ الْإِتِّحَادِ وَالْخَلْقِ وَمُرِيدٌ وَالْإِلَهَ لَمْ
 يَخْصُصْ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَقْدِرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَالْإِلَهَ لِأَلَا إِرَادَةَ حَادِثَةً وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا
 بَعْدَ الْمَوْتِ تَكْمِيلًا لِعِبَانِيَّتِهِ بِالْإِتِّحَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرٍ فَإِنْ كَانَ عَشَاءً فَهُوَ لِلِقَاءِ السَّرْمَدِيِّ
 بَعْدَ الْمَوْتِ ثُمَّ اعْتِقَادَ بَعَثَةَ الرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شِقَاءِ هَذَا الْمَعَادِ لِأَخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ
 بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا فِي الْإِتْيَاءِ بِذَلِكَ وَيَسَانِ
 الطَّرِيقِينَ وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ هَذِهِ أَمَهَاتُ الْعُقَايِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدَلَّتِهَا
 الْعُقَايِدِ وَأَدَلَّتِهَا مِنَ الْكُتُبِ وَالسُّنَنِ كَثِيرٌ وَعَنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا السَّلْفُ وَأَرشَدَ
 إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا الْأَئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفْصِيلِ هَذِهِ الْعُقَايِدِ
 أَكْثَرَ مَثَارِهَا مِنَ الْآيِ الْمُشَابَهَةِ فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِصَامِ وَالنَّاطِرِ وَالْأَسْتِدْلَالِ
 بِالْعَقْلِ وَزِيَادَةِ إِلَى النُّقْلِ فُحِثَ بِذَلِكَ عِلْمُ الْكَلَامِ وَلِنُبَيِّنَ لَكَ تَفْصِيلَ هَذَا الْمُجْمَلِ
 وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَرَدَّ فِيهِ وَصْفُ الْمَعْبُودِ بِالتَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ
 تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا وَوَقَعَ فِي
 كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ثُمَّ
 وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ تُؤَمُّ التَّشْبِيهِ وَفَضُّوا بِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ
 فَآمَنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِيَحْتِ وَلَا تَأْوِيلَ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ أَفْرَأُوهَا
 كَمَا جَاءَتْ أَيُّ آمَنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَفْسِيرِهَا لِجَوَازِ أَنْ
 تَكُونَ أَبْتِلَاءً فَيَجِبُ الْوُفْقُ وَالْإِدْعَانُ لَهُ وَشَدَّ لِعَصْرِهِمْ مُبْتَدَعَةٌ اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنْ
 الْآيَاتِ وَتَوَعَّلُوا فِي التَّشْبِيهِ فَمَرِيقٌ أَشْبَهُوا فِي الذَّاتِ بِاعْتِقَادِ الْيَدِ وَالْقَدَمِ وَالْوَجْهِ عَمَلًا
 بِظَوَاهِرِ وَرَدَتْ بِذَلِكَ فَوَعَّلُوا فِي التَّجْسِيمِ الصَّرِيحِ وَمُخَالَفَتِهِ آيِ التَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الَّتِي
 هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدِ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِأَنَّ مَعْقُولِيَّةَ الْجِسْمِ تَقْتَضِي النَّقْصَ وَالْإِفْتِقَارَ وَتَغْلِبُ

آيَاتِ السُّلُوبِ فِي التَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٍ أَوْلَى مِنْ
 التَّعَلُّقِ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الَّتِي إِنَّمَا عَنَّا غَنِيَةً وَجَمَعَ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ بَتَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ يَفْرُونَ مِنْ شَتَاةِ
 ذَلِكَ يَقُولُهُمْ جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ وَجَمَعَ
 بَيْنَ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ إِنْ كَانَ بِالْمَعْقُولِيَّةِ وَاحِدَةً مِنَ الْجِسْمِ وَإِنْ خَالَفُوا بَيْنَهُمَا وَنَفَوْا
 الْمَعْقُولِيَّةَ الْمُتَعَارِفَةَ فَقَدَّ وَافَقُونَا فِي التَّنْزِيهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جَعْلُهُمْ لِنَظِّ الْجِسْمِ اسْمًا مِنْ
 أَسْمَائِهِ وَيَتَوَقَّفُ مِنْهُ عَلَى الْأُذُنِ وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى التَّشْبِيهِ فِي الصِّفَاتِ كَمَا ثَبَتَ
 الْجِهَةَ وَالِاسْتِوَاءَ وَالنُّزُولَ وَالصَّوْتِ وَالْحَرْفَ وَأَمثالِ ذَلِكَ وَال قَوْلُهُمْ إِلَى التَّجْسِيمِ
 فَتَزَعُّوا مِثْلَ الْأَوَّلِينَ إِلَى قَوْلِهِمْ صَوْتٌ لَا كَالصَّوْتِ جِهَةٌ لَا كَالجِهَاتِ نُزُولٌ لَا
 كَالنُّزُولِ يَعْنُونَ مِنَ الْأَجْسَامِ وَأَنْدَفَعُوا ذَلِكَ بِمَا أَنْدَفَعُوا بِهِ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذِهِ الظُّوَاهِرِ
 إِلَّا اعْتِقَادَاتُ السَّلَفِ وَمَذَاهِبُهُمْ وَالِإِيمَانُ بِهَا كَمَا هِيَ لِئَلَّا يَكْرَهُ النَّفْيُ ذَلِكَ بِمَعَانِيهَا بِنَفْيِهَا
 مَعَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَلِهَذَا تَنْظُرُ مَا تَرَاهُ فِي عَقِيدَةِ الرَّسَالَةِ لِأَبْنِ أَبِي زَيْدٍ
 وَكِتَابِ الْمُخْتَصَرِ لَهُ فِي كِتَابِ الْحَافِظِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ذَلِكَ هَذَا
 الْمَعْنَى وَلَا تَغْضُضُ عَيْنَكَ عَنْ الْقُرْآنِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ فِي غُضُونِ كَلَامِهِمْ ثُمَّ لَمَّا
 كَثُرَتْ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَوَلِعَ النَّاسُ بِالْبَدْوِيِّينَ وَابْتَحَثَ فِي سَائِرِ الْأَنْحَاءِ وَأَلْفَ
 الْمُتَكَلِّمِينَ فِي التَّنْزِيهِ حَدَّثَتْ بِدَعَا الْمُعْتَزَلِيَّةِ فِي تَعْمِيمِ هَذَا التَّنْزِيهِ فِي آيِ السُّلُوبِ
 فَقَضَوْا بِنَفْيِ صِفَاتِ الْمَعَانِي مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ زَائِدَةً عَلَى أَحْكَامِهَا
 لِمَا يَلْزَمُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَدُّدِ الْقَدِيمِ بِزَعْمِهِمْ وَهُوَ مُرَدُّودٌ بِأَنَّ الصِّفَاتِ لَيْسَتْ عَيْنَ الذَّاتِ
 وَلَا غَيْرَهَا وَقَضَوْا بِنَفْيِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لِكُونِهِمَا مِنْ عَوَارِضِ الْأَجْسَامِ وَهُوَ مُرَدُّودٌ
 لِعَدَمِ اشْتِرَاطِ الْبَيِّنَةِ فِي مَدْلُولِ هَذَا اللَّفْظِ وَإِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكُ الْمَسْمُوعِ أَوْ الْمَبْصَرِ
 وَقَضَوْا بِنَفْيِ الْكَلَامِ لِشَبْهِهِ مَا فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَلَمْ يَعْقِلُوا صِفَةَ الْكَلَامِ الَّتِي تَقُومُ
 بِالنَّفْسِ فَقَضَوْا بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ بِدَعَا صَرَحَ السَّلَفُ بِخِلَافِهَا وَعَظَّمُ ضَمَرٌ عَلَيْهِ الْبِدْعَةُ
 وَلَقَبْنَا بَعْضَ الْخُلَفَاءِ عَنْ أُمَّتِهِمْ تَحْمِلَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَخَالَفَهُمْ أُمَّةُ السَّلَفِ فَأَسْتَحَلَّ
 لِخِلَافِهِمْ إِسْرَاطُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِانْتِهَاضِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِالْأَدَلَّةِ
 الْعَتَلِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِدِ دَفْعًا فِي صُدُورِ هَذِهِ الْبِدْعِ وَقَامَ بِذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ
 الْأَشْعَرِيُّ إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَتَوَسَّطَ بَيْنَ الطَّرِيقِ وَنَفَى التَّشْبِيهِ وَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ

الْمَعْنَوِيَّةُ وَقَصَرَ النَّزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَشَهِدَتْ لَهُ الْأَدَلَّةُ الْخُصَّصَةُ لِعُمُومِهِ
 فَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعُ الْمَعْنَوِيَّةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ بِطَرِيقِ
 النَّقْلِ وَالْعَقْلِ وَرَدَّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهْدُوهُ لِهَيْدِهِ الْبِدْعِ
 مِنْ الْقَوْلِ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ وَالتَّحْسِينِ وَالتَّقْضِيعِ وَكَمَّلَ الْعُقَايِدَ فِي الْبُعْثَةِ وَأَحْوَالِ
 الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْحَقُّ بِذَلِكَ الْكَلَامِ فِي الْأِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ
 مِنْ بَدْعَةِ الْأِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ الْإِيْمَانِ وَإِنَّهُ يُجِبُ عَلَى النَّبِيِّ تَعْيِينَهَا
 وَأَخْرُوجَ عَنِ الْعَهْدَةِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذَلِكَ عَلَى الْأَمَّةِ وَقَضَارَى أَمْرِ الْأِمَامَةِ
 أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْلُحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تُلْحَقُ بِالْعُقَايِدِ فَلِذَلِكَ أَحَقُّوْهَا بِمَسَائِلِ هَذَا الْفَنِّ وَسَمَّوْا
 مَجْمُوعَةَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِمَامًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُنَاطَرَةِ عَلَى الْبِدْعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَتْ
 بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ وَإِمَامًا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَأَلْخُوضِ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي اثْبَاتِ الْكَلَامِ
 النَّفْسِيِّ وَكَثُرَ أَتْبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَأَقْنَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيزُهُ
 كَابُنِ مَجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِمْ
 وَهَدَّيَهَا وَوَضَعَ الْمَقْدِمَاتِ الْعُقَايِدَةَ الَّتِي تُتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْأَدَلَّةُ وَالْإِنْتَظَارُ وَذَلِكَ مِثْلُ اثْبَاتِ
 الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْخِلَاءِ وَأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرَضِ وَإِنَّهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ مِمَّا تُتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدْلَتُهُمْ وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعًا لِلْعُقَايِدِ الْإِيْمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ
 اعْتِقَادِهَا لِتَوَقَّفِ تِلْكَ الْأَدَلَّةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بَطْلَانَ الدَّلِيلِ يُؤْذَنُ بِبَطْلَانِ الْمَدْلُولِ
 وَجَمَلَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفُنُونِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الدِّيْنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ
 صُورَ الْأَدَلَّةِ تُعْتَبَرُ بِهَا الْأَقْبَسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي الْمِلَّةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا
 بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ الْمُتَكَلِّمُونَ لِامْتِلَاسَتِهَا لِلْعُلُومِ الْفَلْسَفِيَّةِ الْمُبَانِيَّةِ لِلْعُقَايِدِ
 الشَّرْعِيَّةِ بِالْجَمَلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ
 الْبَاقِلَانِيُّ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْعَالِي فَأَمَلَى فِي الطَّرِيقَةِ كِتَابَ الشَّامِلِ وَأَوْسَعَ الْقَوْلَ
 فِيهِ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَأَتَّخَذَهُ النَّاسُ إِمَامًا لِعُقَايِدِهِمْ ثُمَّ انْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ
 ذَلِكَ عُلُومُ الْمَنْطِقِ فِي الْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ النَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُومِ الْفَلْسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ
 قَانُونٌ وَمُعْيَارٌ لِلْأَدَلَّةِ فَقَطَّ يُسَبَّرُ بِهِ الْأَدَلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسَبَّرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ
 الْقَوَاعِدِ الْمَقْدِمَاتِ فِي فَنِّ الْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي

أَدَّتْ إِلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَّاسِفَةِ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ
وَالْإِلَهِيَّاتِ فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمَعْيَارِ الْمَنْطِقِ رَدَّهْمُ إِلَى ذَلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَعْتَقِدُوا بَطْلَانَ
الْمَدْلُولِ مِنْ بَطْلَانِ دَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي فَصَارَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ مِنْ مَصْطَلَحِهِمْ
مُبَايِنَةً لِلطَّرِيقَةِ الْأُولَى وَتُسَمَّى طَرِيقَةَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَرُبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْفَلَّاسِفَةِ
فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ الْعَقَائِدِ لِتَنَاسُبِ الْكَثِيرِ
مِنْ مَذَاهِبِ الْمُبْتَدِعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا النِّعْمَى
الغزالي رحمه الله وتبعه الإمامُ أَبُو الْخَطِيبِ وَجَمَاعَةٌ قَفَّوْا أثرَهُمْ وَأَعْتَمَدُوا تَقْلِيدَهُمْ
ثُمَّ تَوَعَّلَّ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي مَخَالَطَةِ كِتَابِ الْفَلَّاسِفَةِ وَالتَّبَسُّعِ عَلَيْهِمْ شَأْنُ الْمَوْضُوعِ
فِي الْعِلْمَيْنِ فَحَسِبُوهُ فِيهِمَا وَاحِدًا مِنْ أَشْبَاهِ الْمَسَائِلِ فِيهِمَا وَأَعْلَمَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ
أَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ بِالْكَائِنَاتِ وَأَحْوَالِهَا عَلَى وُجُودِ الْبَارِي وَصِفَاتِهِ
وَهُوَ نَوْعٌ اسْتَدْلَاهُمْ عَالِيًا وَالْجِسْمَ الطَّبِيعِيَّ يَنْظُرُ فِيهِ الْفَيْلَسُوفُ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَهُوَ
بَعْضٌ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ إِلَّا أَنَّ نَظْرَهُ فِيهَا مُخَالَفٌ لِنَظْرِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي
الْجِسْمِ مِنْ حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ وَالْمُتَكَلِّمُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ
وَكَذَا نَظَرَ الْفَيْلَسُوفُ فِي الْإِلَهِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ نَظْرٌ فِي الْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ لِنَاتِهِ
وَنَظَرَ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْوُجُودِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمَوْجُودِ وَبِالْجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ
الْكَلَامِ عِنْدَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هُوَ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرَضِهَا صَحِيحَةً مِنَ الشَّرْعِ مِنْ
حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَيْهَا بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ فترْفَعُ الْبِدْعُ وَتَزُولُ الشُّكُوكُ وَتَشْبِهُ
عَنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ الْفَنِّ فِي حَدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدَرَّجَ كَلَامُ النَّاسِ فِيهِ
صَدْرًا بَعْدَ صَدْرٍ وَكُلُّهُمْ يُفَرِّضُ الْعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهَضُ الْحُجُجَ وَالْأَدْلَةَ عَلِمْتَ
حِينَئِذٍ مَا قَرَّرْنَا لَكَ فِي مَوْضِعِ الْفَنِّ وَأَنَّهُ لَا يَعْدُوهُ وَلَقَدْ ائْتَمَلْتُ الطَّرِيقَتَيْنِ
عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالتَّبَسُّعُ الْمَسَائِلِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَّاسِفَةِ بِحَيْثُ لَا يَتَمَيَّزُ أَحَدُ
الْفَنِّينِ مِنَ الْآخَرِ وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كِتَابِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْبِيضَاوِيُّ فِي الطَّوَالِغِ
وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَأْلِيفِهِمْ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ قَدْ يُعْنَى بِهَا
بَعْضُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ لِلإِطْلَاعِ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالْإِعْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ الْحُجَاجِ لَوْفُورِ ذَلِكَ
فِيهَا وَآمًا مُحَادَاةً طَرِيقَةَ السَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ الْكَلَامِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ

لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا كِتَابُ الْإِنْشَادِ وَمَا حَدَا حَدْوَهُ وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ الرَّدِّ عَلَى
 الْفَلَاسِفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ بِكُتُبِ الْغَزَالِيِّ وَالْإِمَامِ ابْنِ أَلْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَتْ فِيهَا
 مُخَالَفَةٌ لِلْإِصْلَاحِ الْقَدِيمِ فَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِلَافِ فِي الْمَسَائِلِ وَالْأَلْتِبَاسِ فِي
 الْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ
 هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ إِذِ
 الْمُلْحِدَةُ وَالْمُبْتَدِعَةُ قَدْ أَنْقَرَضُوا وَالْأئِمَّةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كُنُونًا شَأْنُهُمْ فِيمَا كَتَبُوا
 وَدَوَّنُوا وَالْأَدَلَةُ الْعَقَلِيَّةُ إِنَّمَا اخْتَجَرُوا إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا وَمَا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا
 إِلَّا كَلَامٌ نَزَّهَ الْبَارِيُّ عَنْ كَثِيرِ إِهْمَامَاتِهِ وَإِطْلَافِهِ وَلَقَدْ سَأَلَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ
 قَوْمٍ مِنْهُمْ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ مَا هَؤُلَاءِ فَقِيلَ قَوْمٌ يُزَيِّهُونَ اللَّهَ
 بِالْأَدَلَةِ عَنْ صِفَاتِ الْخُدُوثِ وَسِمَاتِ النِّقْصِ فَقَالَ نَفِي الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ
 لَكِنْ فَائِدَتُهُ فِي أَحَادِ النَّاسِ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ السُّنَّةِ الْجَهْلُ
 بِالْحَجَجِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

الفصل الحادي عشر

في علم التصوف

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَادِثَةِ فِي السُّنَّةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
 لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةً الْحَقِّ
 وَالْهُدَايَةِ وَأَصْلُهَا الْعُكُوفُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِعْرَاضُ عَنْ
 زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَالزُّهْدُ فِيمَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَالْإِنْفِرَادُ
 عَنِ الْخَلْقِ فِي الْخُلُوعِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ فَلَمَّا فَشَا الْإِقْبَالُ
 عَلَى الدُّنْيَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَحَّ النَّاسُ إِلَى مَخَالَطَةِ الدُّنْيَا اخْتَصَّ الْمُقْبِلُونَ
 عَلَى الْعِبَادَةِ بِاسْمِ الصُّوفِيَّةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَقَالَ الْفُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَا يَشْهَدُ لِهَذَا الْأَسْمِ
 اشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ وَمَنْ قَالَ اشْتِقَاقُهُ مِنَ الصَّفَا
 أَوْ مِنَ الصِّفَةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ الْغَوِيِّ قَالَ وَكَذَلِكَ مِنَ الصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ
 يَخْتَصُّوا بِلَبْسِهِ قُلْتُ وَالْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِالِاشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ الصُّوفِ وَهُمْ فِي الْغَالِبِ
 مَخْتَصُونَ بِلَبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّاسِ فِي لَبْسِ فَخْرِ الثِّيَابِ إِلَى لَبْسِ الصُّوفِ

فَلَمَّا اخْتَصَّ هُوَ لِأَهْلِ مَذْهَبِ الزُّهْدِ وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ اخْتَصَّ
بِمَا خَدَّ مَدْرَكَةَ لَوْهَمٍ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ
بِالْإِدْرَاكِ وَالْإِدْرَاكُ نَوْعَانُ إِدْرَاكٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَالْوَهْمِ
وَالْإِدْرَاكُ لِلْأَحْوَالِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرْحِ وَالْحُزْنِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالرَّفْيِ وَالْغَضَبِ
وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَأَلْرُوحُ الْعَاقِلُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الْبَدَنِ تَنَشَأُ مِنْ
إِدْرَاكَاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَأَحْوَالٍ وَهِيَ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا الْإِنْسَانَ وَبَعْضُهَا يَنْشَأُ مِنْ بَعْضِ
كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْفَرْحِ وَالْحُزْنُ عَنِ إِدْرَاكِ الْمَوْلَمِ أَوْ الْمُتَلَذِّذِ بِهِ
وَالنَّشَاطُ عَنِ الْحَمَامِ وَالْكَسَلُ عَنِ الْإِعْيَاءِ وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي مُجَاهَدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا
يُدَّ وَأَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنِ كُلِّ مُجَاهَدَةٍ حَالٌ نَتِيجَةٌ تِلْكَ الْمُجَاهَدَةِ وَتِلْكَ الْحَالُ إِمَّا أَنْ
تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ فَتَرْسُخُ وَتَصِيرُ مَقَامًا لِلْمُرِيدِ وَإِمَّا أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً وَإِنَّمَا
تَكُونَ صِنْفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ كَسَلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْمَقَامَاتِ وَلَا يَزَالُ الْمُرِيدُ يَتَرَقَّى مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى التَّوْحِيدِ
وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْمَطْلُوبَةُ لِلسَّعَادَةِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ
أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَالْمُرِيدُ لَا بَدَلَةَ مِنَ التَّرَقِّي فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ وَأَصْلُهَا
كُلُّهَا الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ وَيَتَقَدَّمُهَا الْإِيمَانُ وَيُصَاحِبُهَا وَتَنَشَأُ عَنْهَا الْأَحْوَالُ وَالصِّفَاتُ
النَّبَاتِيَّةُ وَشَمَرَاتُهَا تَنْشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ وَإِذَا وَقَعَ
الْقَصِيرُ فِي النَّتِيجَةِ أَوْ خَلَلَ فَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا آتَى مِنْ قَبْلِ التَّقْصِيرِ فِي الَّذِي قَبْلَهُ وَكَذَلِكَ
فِي الْخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْوَارِدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ فَلِهَذَا يَحْتَاجُ الْمُرِيدُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي
سَائِرِ أَعْمَالِهِ وَيَنْظُرُ فِي حَقَائِقِهَا لِأَنَّ حُصُولَ النَّتِيجِ عَنِ الْأَعْمَالِ ضَرُورِيٌّ وَقُصُورُهَا
مِنْ الْخَلَلِ فِيهَا كَذَلِكَ وَالْمُرِيدُ يَجِدُ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ وَيَحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى سَبَابِهِ وَلَا يُشَارِكُهُمْ
فِي ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ عَنِ هَذَا كَانَتْهَا شَامِلَةً وَعَابَةَ أَهْلِ الْعِبَادَاتِ
إِذَا لَمْ يَنْتَهُوا إِلَى هَذَا النَّوعِ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِالطَّاعَاتِ مُخْلِصَةً مِنْ نَظَرِ الْفَقْهِ فِي الْأَجْزَاءِ
وَالْأَمْتَالِ وَهَوْلَاءِ يَبْحَثُونَ عَنْ نَتَائِجِهَا بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوْاجِدِ لِيَطَاعُوا عَلَى أَنَّهَا خَالِصَةٌ مِنْ
الْقَصِيرِ أَوْ لَا فَظَهَرَ أَنَّ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ كُلُّهَا مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالتَّرُوكِ
وَالكَلَامِ فِي هَذِهِ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوْاجِدِ الَّتِي تَخْضَلُ عَنِ الْمُجَاهَدَاتِ ثُمَّ تَسْتَقِرُّ لِلْمُرِيدِ

مقاماً يترقى منها إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آدابٌ مخصوصةٌ بهم وأصطلاحاتٌ في
 ألفاظٍ تدور بينهم إذ الأوضاعُ اللغويةُ إنما هي للمعاني المتعارفةِ فإذا عَرَضَ مِنَ
 المعاني ما هو غيرُ متعارفٍ اصطلاحاً عن التعبيرِ عنه بلفظٍ يتيسرُ فهمُهُ منه فهذا
 اختصَّ هؤلاءُ بهذا النوعِ من العلمِ الذي ليس لواحدٍ غيرهم من أهلِ الشريعةِ الكلامُ
 فيه وصارَ علمُ الشريعةِ على صنفينِ صنفٌ مخصوصٌ بالفقهاءِ وأهلِ الفتيا وهي الأحكامُ
 العامةُ في العباداتِ والعاداتِ والمعاملاتِ وصنفٌ مخصوصٌ بالقومِ في القيامِ بهذه
 المجاهدةِ ومحاسبةِ النفسِ عليها والكلامِ في الأدواقِ والمواجِدِ العارضةِ في طريقها
 وكيفيةِ الترتيِّقِ منها من ذوقٍ إلى ذوقٍ وشرحِ الاصطلاحاتِ التي تدورُ بينهم في
 ذلك فلما كتبتُ العلومُ ودونتُ وألفتُ الفقهاءِ في الفقهِ وأصوله والكلامِ والتفسيرِ
 وغيرِ ذلك كتبتُ رجالاً من أهلِ هذهِ الطريقةِ في طريقهم فمنهم من كتبَ في
 الورعِ ومحاسبةِ النفسِ على الإفتداءِ في الأخذِ والتتركِ كما فعله القشيريُّ في كتابِ
 الرِّسالةِ والسهرورديُّ في كتابِ عوارفِ المعارفِ وأمثالهم وجمع الغزاليُّ رحمه الله
 بين الأمرينِ في كتابِ الأحياءِ فدوّنَ فيه أحكامَ الورعِ والإفتداءِ ثم بين آدابَ
 القومِ وسانهم وشرحَ اصطلاحاتهم في عباراتهم وصارَ علمُ التصوِّفِ في الملةِ علماً
 مدوّناً بعد أن كانت الطريقةُ عبادةً فقط وكانت أحكامها إنما تلتقى من صدورِ
 الرِّجالِ كما وقعَ في سائرِ العلومِ التي دُوِّنتْ بالكتِّابِ من التفسيرِ والحديثِ والفقهِ
 والأصولِ وغيرِ ذلك ثم إن هذهِ المجاهدةِ والخلوةِ والذِّكْرَ يتبعها غالباً كشفُ
 حجابِ الحسِّ والإطلاعُ على عوالمٍ من أمرِ الله ليس لصاحبِ الحسِّ إدراكُ شيءٍ منها
 والرُّوحِ من تلكِ العوالمِ وسببُ هذا الكشفِ أن الرُّوحَ إذا رجعَ عن الحسِّ
 الظاهرِ إلى الباطنِ ضعفتْ أحوالُ الحسِّ وقويتْ أحوالُ الرُّوحِ وغلبَ سلطانهُ
 وتجددَ نشؤه وأعانَ على ذلك الذِّكْرُ فإنه كالغذاءِ لتنميةِ الرُّوحِ ولا يزالُ في نموِّ
 وتزويدٍ إلى أن يصيرَ شهوداً بعد أن كان علماً ويكشفُ حجابِ الحسِّ ويثمُّ وجودُ
 النفسِ الذي لها من ذاتها وهو عينُ الإدراكِ فيتعرضُ حينئذٍ للمواهبِ الربّانيةِ
 والعلومِ اللدنيّةِ والفتحِ الإلهيِّ وتقربُ ذاته في تحقيقِ حقيقتها من الأفقِ الأعلى
 أفقِ الملائكةِ وهذا الكشفُ كثيراً ما يعرضُ لأهلِ المجاهدةِ فيدركون من حقائقِ

الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيراً من الوافات قبل وقوعها ويتصرفون
 بهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم فالعظماء منهم
 لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالكلم
 فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك بحنة ويتعدون منه إذا هاجهم وقد كانت
 الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه الجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات
 أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي
 رضي الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة
 القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم ثم إن قومًا من المتأخرين
 أنصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق
 الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح
 العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها
 فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا
 ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش إلى الطش هكذا قال الغزالي
 رحمه الله في كتاب الأحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة ثم إن هذا الكشف
 لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة لأن الكشف قد
 يحصل لصاحب الجوع والخلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم
 من المرتاضين وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثله أن المرأة
 الصقيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة وحودي بها جهة المرئي فإنه يشكل فيه معوجاً
 على غير صورته وإن كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحاً فالاستقامة للنفس
 كالانسياط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع
 من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح
 والعرش والكرسي وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشار لهم في طريقهم عن
 فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم وليس
 البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً إذ هي من قبيل الوجدانيات وربما
 قصد بعض المصنفين بيان مذهبيهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتى بالاعمض

قَالَاغْمَضُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ وَالْعُلُومِ كَمَا فَعَلَ الْفَرَّغَانِيُّ شَارِحُ
 قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارُضِ فِي الدِّيْبَاجَةِ الَّتِي كَتَبَهَا فِي صَدْرِ ذَلِكَ الشَّرْحِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي
 صُدُورِ الْوُجُودِ عَنِ الْفَاعِلِ وَتَرْتِيبِهِ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ صَادِرٌ عَنِ صِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي
 هِيَ مَظْهَرُ الْأَحَدِيَّةِ وَهَمَّا مَعًا صَادِرَانِ عَنِ الذَّاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْوَحْدَةِ لَا
 غَيْرُ وَيُسَمَّوْنَ هَذَا الصُّدُورَ بِالْتَّجَلِّيِّ وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ التَّجَلِّيَّاتِ عِنْدَهُمْ تَجَلِّيُ الذَّاتِ عَلَى نَفْسِهِ
 وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْكَمَالَ بِإِفَاضَةِ الْإِبْجَادِ وَالظُّهُورِ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَتَنَاقَلُونَهُ
 كُنْتُ كَثْرًا مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُونِي وَهَذَا الْكَمَالَ فِي
 الْإِبْجَادِ الْمُتَنَزَّلِ فِي الْوُجُودِ وَتَفْصِيلِ الْحَقَائِقِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عَالَمُ الْمَعَانِي وَالْحَضْرَةِ
 الْكَمَالِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَفِيهَا حَقَائِقُ الصِّفَاتِ وَاللُّوْحِ وَالْقَلَمِ وَحَقَائِقُ الْأَنْبِيَاءِ
 وَالرُّسُلِ أَجْمَعِينَ وَالْكَمَلَ مِنْ أَهْلِ الْمَلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهَذَا كُلُّهُ تَفْصِيلُ الْحَقِيقَةِ
 الْمُحَمَّدِيَّةِ وَيَصْدُرُ عَنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ حَقَائِقُ أُخْرَى فِي الْحَضْرَةِ الْهَيْبَانِيَّةِ وَهِيَ مَرْتَبَةٌ
 الْمَثَالِ ثُمَّ عَنِ الْعَرْشِ ثُمَّ الْكَرْسِيِّ ثُمَّ الْأَفْلَاقِ ثُمَّ عَالَمِ الْعِنَاصِرِ ثُمَّ عَالَمِ التَّرْكِيبِ هَذَا
 فِي عَالَمِ الرَّتْقِ فَإِذَا تَجَلَّتْ فِيهِ فِي عَالَمِ الْفَتْقِ وَيُسَمَّى هَذَا الْمَذْهَبُ مَذْهَبُ أَهْلِ التَّجَلِّيِّ
 وَالْمَظَاهِرِ وَالْحَضْرَاتِ وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ أَهْلُ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِعُمُومِهِ
 وَاعْتِلَافِهِ وَبَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَلَامَ صَاحِبِ الْمَشَاهِدَةِ وَالْوُجْدَانِ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ وَرُبَّمَا
 انْكَرَبَ بظَاهِرِ الشَّرْحِ هَذَا التَّرْتِيبَ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ
 الْمَطْلُوقَةِ وَهُوَ رَأْيُ أَغْرَبُ مِنَ الْأَوَّلِ فِي تَعْقُلِهِ وَتَفَارِيعِهِ يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْوُجُودَ لَهُ
 قُوَى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُورُهَا وَمَوَادِّهَا وَالْعِنَاصِرُ إِنَّمَا كَانَتْ
 بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَكَذَلِكَ مَادَّتُهَا لَهَا فِي نَفْسِهَا قُوَّةٌ بِهَا كَانَ وُجُودُهَا ثُمَّ إِنَّ الْمَرْكَبَاتِ
 فِيهَا تِلْكَ الْقُوَى مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرْكِيبُ كَالْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَى
 الْعِنَاصِرِ بِهِيُولَاهَا وَزِيَادَةُ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةُ الْحَيَوَانِيَّةُ تَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ
 وَزِيَادَةُ قُوَّتِهَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَا الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ ثُمَّ الْفَلَكَ يَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ
 الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةَ وَكَذَا الذُّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَمَاعَةُ لِلْكَلِّ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلِ
 هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي أُبْنِتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كَلِمَةً وَجُزْئِيَّةً وَجَمَعْتَهَا وَأَحَاطَتْ
 بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ لَا مِنْ جِهَةِ الظُّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْخِنَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ

جِهَةِ الْمَادَّةِ فَالْكُلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بَسِيطَةٌ
 وَالْأَعْتِبَارُ هُوَ الْمَفْصَلُ لَهَا كَالْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ أَلَا تَرَى أَنَّهَا مُنْدَرِجَةٌ فِيهَا وَكَأَنَّهَا
 بَكُونُهَا فَتَارَةً يَمْتَلِئُهَا بِالْجِنْسِ مَعَ النَّوعِ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَا وَتَارَةً بِالْكُلِّ
 مَعَ الْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمِثَالِ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ يَفْرُونَ مِنَ التَّرْكِيبِ وَالْكَثْرَةِ بِوَجْهِ
 مِنَ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عِنْدَهُمُ الْوَهْمُ وَالْخَيَالُ وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ
 فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَذْمَبِ أَنَّ حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْوَحْدَةِ شَابِهُةٌ بِمَا نَقُولُهُ الْحُكْمَاءُ فِي
 الْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وُجُودَهَا مَشْرُوطٌ بِالضَّوِّ فَإِذَا عُدِمَ الضَّوُّ لَمْ تَكُنِ الْأَلْوَانُ مَوْجُودَةً
 بِوَجْهِهِ وَكَذَا عِنْدَهُمُ الْمَوْجُودَاتُ الْحَسُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْعَقْلِيِّ
 فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَفْصَلُ كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمُدْرِكِ
 الْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَفْصِيلُ الْوُجُودِ بَلْ هُوَ بَسِيطٌ وَاحِدٌ فَالْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَالصَّلَابَةُ
 وَاللِّينُ بَلْ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ وَالسَّمَاءُ وَالسَّكْوَاكِبُ إِنَّمَا وُجِدَتْ لِوُجُودِ الْحَوَاسِ
 الْمُدْرِكَةِ لَهَا لِمَا جُعِلَ فِي الْمُدْرِكِ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي
 الْمُدْرِكِ فَقَطْ فَإِذَا فُقِدَتِ الْمُدْرِكُ الْمَفْصَلَةُ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ
 أَنَا لَا غَيْرُهُ وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ النَّائِمِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَفُقِدَ الْحِسُّ الظَّاهِرُ فَقَدَ كُلَّ
 مَحْسُوسٍ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَّا مَا يَفْصَلُهُ لَهُ الْخَيَالُ قَالُوا فَكَيْفَا الْيَقِظَانُ إِنَّمَا يَعْتَبَرُ تِلْكَ
 الْمُدْرِكَاتُ كُلُّهَا عَلَى التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مُدْرِكِهِ الْبَشَرِيِّ وَلَوْ قَدِرَ فَقَدَ مُدْرِكِهِ فَقَدَ التَّفْصِيلَ
 وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمُ الْمَوْهُومُ لَا الْوَهْمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ هَذَا
 مُلْخَصٌ رَأَيْتُمْ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ السَّقُوطِ لِأَنَّ تَقْطَعُ بِوُجُودِ
 الْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ بَقِينَا مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ أَعْيُنِنَا وَبِوُجُودِ السَّمَاءِ الْمَظَلَّةِ
 وَالسَّكْوَاكِبِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا وَالْإِنْسَانَ قَاطِعُ بِذَلِكَ وَلَا يُكَابِرُ أَحَدٌ
 نَفْسَهُ فِي الْيَقِينِ مَعَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخَّرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ عِنْدَ
 الْكَشْفِ رُبَّمَا يَعْضُرُ لَهُ تَوَهُمٌ هَذِهِ الْوَحْدَةُ وَيَسْمَى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ ثُمَّ
 يَبْرُقِي عَنْهُ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْتَبِرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفَرْقِ وَهُوَ مَقَامُ
 الْعَارِفِ الْمُحَقِّقِ وَلَا بَدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُمْ مِنْ عَقَبَةِ الْجَمْعِ وَهِيَ عَقَبَةُ صَعْبَةٌ لِأَنَّهُ يُخْضِعُ
 عَلَى الْمُرِيدِ مِنْ وُقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخَسَّرُ صَفَقَتَهُ فَقَدْ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ثُمَّ

ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس
 توعدوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملاوا
 الصحن منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن
 سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والتجيم الإسرائيلي في قصائدهم وكان
 سلفهم مغالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول واليهية
 الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط
 كلامهم وتساوت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس
 العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه
 الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب
 الإشارات في فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد
 أو يطع عليه إلا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل
 شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما نقوله الرافضة ودأبوا به ثم قالوا
 بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى إنهم لما
 أسندوا لباس خرفة التصوف لجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليتهم رقعوه إلى علي رضي
 الله عنه وهو من هذا المعنى أيضاً ولا فعلي رضي الله عنه لم يخص من بين الصحابة
 بتخليته ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبوبكر وعمر رضي الله عنهما أزهد
 الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يخص أحد منهم
 في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهدة
 والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنا
 كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات وإنما هو
 مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومداهيهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق ثم إن
 كثيراً من النقباء وأهل النقباء اتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات
 وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم
 فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما
 يحصل من الأذواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الأعمال ليحصل تلك الأذواق التي

تَصِيرَ مَقَامًا وَيَتَرَفَّى مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا قُلْنَا وَثَانِيهَا الْكَلَامُ فِي الْكُشْفِ وَالْحَقِيقَةِ
 الْمُدْرَكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ مِثْلَ الصَّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ وَالْمَلَائِكَةِ
 وَالْوَحْيِ وَالنَّبُوءَةِ وَالرُّوحِ وَحَقَائِقِ كُلِّ مَوْجُودٍ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدٍ وَتَرْكِيبِ الْأَكْوَانِ فِي
 صُدُورِهَا عَنْ مَوْجُودِهَا وَتَكْوِينِهَا كَمَا مَرَّ وَثَالِثُهَا التَّصَرُّفَاتُ فِي الْعَوَالِمِ وَالْأَكْوَانِ بِأَنْوَاعِ
 الْكَرَامَاتِ وَرَابِعُهَا الْفَاطُ مَوْهَمَةُ الظَّاهِرِ صَدَرَتْ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ أُمَّةِ الْقَوْمِ يَعْبُرُونَ
 عَنْهَا فِي أَصْطِلَاحِهِمْ بِالشَّطْحَاتِ تُسْتَشْكَلُ ظَوَاهِرُهَا فَمُنْكَرٌ وَمُحْسِنٌ وَمَتَأَوَّلٌ فَأَمَّا الْكَلَامُ
 فِي السَّجَاهِدَاتِ وَالْمَقَامَاتِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ فِي تَنَائُجِهَا وَخُحَّاسَةِ النَّفْسِ
 عَلَى التَّقْصِيرِ فِي سَبَابِهَا فَأَمْرٌ لَا مَدْفَعَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَأَذْوَاقُهُمْ فِيهِ صَحِيحَةٌ وَالتَّحْقِيقُ بِهَا هُوَ
 عَيْنُ السَّعَادَةِ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي كَرَامَاتِ الْقَوْمِ وَأَخْبَارِهِمْ بِالْمَغِيبَاتِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي
 الْكَائِنَاتِ فَأَمْرٌ صَحِيحٌ غَيْرُ مُنْكَرٍ وَإِنْ مَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى انْكَارِهَا فَيَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ
 الْحَقِّ وَمَا أَحْتَجُّ بِهِ الْأُسْتَاذُ أَبُو سَمَاقٍ الْإِسْفَرَايِينِيَّ مِنَ أُمَّةِ الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى انْكَارِهَا
 لِالتَّبَاسُطِ بِالْمُعْجَزَةِ فَقَدْ فَرَّقَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بَيْنَهُمَا بِالْعَدِيدِ وَهُوَ دَعْوَى
 وَقُوعِ الْمُعْجَزَةِ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ قَالُوا ثُمَّ إِنَّ وَقُوعَهَا عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرُ
 مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجَزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ فَإِنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا التَّصَدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ
 الْكَاذِبِ لَتَبَدَّلَتْ صِفَةَ نَفْسِهَا وَهُوَ مُحَالٌ هَذَا مَعَ أَنَّ الوجودَ شَاهِدٌ بِوُقُوعِ الْكَثِيرِ
 مِنْ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ وَإِنْكَارُهَا نَوْعٌ مُكَابِرَةٌ وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ وَالْكَابِرِ السَّافِ كَثِيرٌ
 مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْكُشْفِ وَإِعْطَاءِ حَقَائِقِ الْعُلُوبَاتِ
 وَتَرْكِيبِ صُدُورِ الْكَائِنَاتِ فَأَكْثَرُ كَلَامِهِمْ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ لِمَا أَنَّهُ وَجِدَانِيٌّ
 عِنْدَهُمْ وَفَاقِدُ الوجودِ عِنْدَهُمْ بِمَعْزَلٍ عَنِ أَذْوَاقِهِمْ فِيهِ وَاللُّغَاتُ لَا تُعْطَى لَهُ دَلَالَةٌ عَلَى
 مُرَادِهِمْ مِنْهُ لِأَنَّهَا لَمْ تَوْضِعْ لِلْمُتَعَارِفِ وَأَكْثَرُهُ مِنَ الْخُحَّاسَاتِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْرَضَ
 لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ وَتَرَكُّهُ فِيمَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهَمَّ شَيْءٌ مِنْ
 هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَوْافِقِ لِظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَأَكْرَمَ بِهَا سَعَادَةً وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ
 الْمَوْهَمَةُ الَّتِي يَعْبُرُونَ عَنْهَا بِالشَّطْحَاتِ وَيُوَاطِّئُونَ بِهَا أَهْلَ الشَّرْعِ فَاعْلَمَنَّ أَنَّ
 الْأَنْصَافَ فِي شَأْنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ عَنِ الْحَسَنِ وَالْوَارِدَاتِ تَمَلُّكُهُمْ حَتَّى
 يَنْطَقُوا عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ وَصَاحِبُ الْغَيْبَةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ وَالْعَجْبُورُ مَعْدُورٌ فَمَنْ

عَلِمَ مِنْهُمْ فَضْلُهُ وَأَقْتَدَاوَهُ حُمِلَ عَلَى الْقَضَاءِ الْجَمِيلِ مِنْ هَذَا وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ
 الْمَوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِتُقَدَّرَ الْوَضْعَ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ وَأَمْثَالِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَضْلَهُ
 وَلَا اسْتَشْهَرَ فَمَوَازِدُهُ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَحْتَمِلُنَا عَلَى
 تَأْوِيلِ كَلَامِهِ وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ فَمَوَازِدُهُ
 أَيْضًا وَلِهَذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكْبَرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْحَلَّاجِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي حُضُورِ وَهُوَ مَالِكٌ
 لِحَالِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّسَالَةِ أَعْلَامُ الْمِلَّةِ الَّذِينَ أَشْرْنَا إِلَيْهِمْ
 مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَرِصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا
 هُمُ الْإِتْبَاعُ وَالْإِقْتِدَاءُ مَا اسْتَطَاعُوا وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ
 يَحْفَلْ بِهِ بَلْ يَفْرُونَ مِنْهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْحِجَابِ وَأَنَّهُ إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ
 النَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَتَخَصَّرُ فِي مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ وَعَلِمَ اللَّهُ أَوْسَعُ
 وَخَلَقَهُ أَكْبَرُ وَشَرِيعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكُ فَلَا يَنْطِقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُدْرِكُونَ بَلْ حَظَرُوا
 الْخُلُوصَ فِي ذَلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْحِجَابَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخُلُوصِ فِيهِ
 وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ
 الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْتِزَامِهَا وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ
 الْمُرِيدِ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الروايا

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتْ الْعُلُومُ صَنَائِعَ
 وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا وَأَمَّا الرُّوْيَا وَالتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّافِ كَمَا هُوَ فِي
 الْخُلْفِ وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ وَالْأَمَمِ مِنْ قَبْلِ الْإِلَّاهِ لَمْ يَصِلِ الْبِنَاءُ لِيَلَا كُنْفَاءَ فِيهِ
 بِكَلَامِ الْمُعْبَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَالرُّوْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
 وَلَا بَدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا فَلَقَدْ كَانَ يُوْسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّوْيَا كَمَا وَقَعَ
 فِي الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالرُّوْيَا مُدْرِكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّوْيَا
 الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتِّهِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ وَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّوْيَا

الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَاتِي الصُّبْحِ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَقْتَلَ مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ
 رُؤْيَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيَسْتَبَشِّرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ الدِّينِ وَإِعْزَازُهُ وَأَمَّا
 السَّبَبُ فِي كَوْنِ الرُّؤْيَا مُدْرِكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ وَهُوَ الْبَخَارُ اللَّطِيفُ الْمُنْبَعِثُ
 مِنْ تَجْوِيفِ الْقَلْبِ اللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي السَّرْيَانَاتِ وَمَعَ الدَّمِ فِي سَائِرِ الْبَدَنِ وَبِهِ
 تَكْمُلُ أَعْمَالُ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا فَإِذَا أَدْرَكَهُ الْمَلَالُ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فِي
 الْأَحْسَاسِ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ وَتَصَرُّفِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَغَشْيِ سَطْحِ الْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ
 مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ انْحَبَسَ الرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ الْقَلْبِيِّ فَيَسْتَحْمُ بِذَلِكَ
 لِمَعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ كُلُّهَا وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى النَّوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي
 أَوَّلِ الْكِتَابِ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ الْعَاقِلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالرُّوحُ
 الْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ بِذَاتِهِ إِذْ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ وَإِنَّمَا
 يَمْنَعُ مِنْ تَعَلُّقِهِ لِلْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حِجَابِ الْأَشْتِغَالِ بِالْبَدَنِ وَقُوَاهُ وَحَوَاسِهِ
 فَلَوْ قَدْ خَلَا مِنْ هَذَا الْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ فَيَعْمَلُ
 كُلَّ مُدْرِكٍ فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا خَفَّتْ شَوَاعِلُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِدْرَاكِ لِحَقِّهِ مِنْ عَالَمِهِ
 بِقَدْرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاعِلُ الْحِسِّ الظَّاهِرِ كُلِّهَا وَهِيَ الشَّغْلُ
 الْأَعْظَمُ فَاسْتَعَدَّ لِتَقْبُولِ مَا هُنَاكَ مِنَ الْمَدَارِكِ الْأَلْفَةِ مِنْ عَالَمِهِ وَإِذَا أَدْرَكَ مَا يُدْرِكُ
 مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ إِلَى بَدَنِهِ إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِيًّا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَّا
 بِالْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ الدَّمَاعِيَّةُ وَالْمَتَصَرِّفُ مِنْهَا
 هُوَ الْخَيَالُ فَإِنَّهُ يَنْزِعُ مِنَ الصُّورِ الْحَسُّوسَةِ صُورًا خَيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى الْحَافِظَةِ
 تَحْفَظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَكَذَلِكَ تَجَرَّدُ النَّفْسُ مِنْهَا
 صُورًا أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَفَّى التَّجَرُّدُ مِنَ الْحَسُّوسِ إِلَى الْمَعْقُولِ وَالْخَيَالِ
 وَاسِطَةً بَيْنَهُمَا وَذَلِكَ إِذَا أَدْرَكَتِ النَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ أَقْتَهُ إِلَى الْخَيَالِ
 فَيَصَوِّرُهُ بِالصُّورَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرِكِ فَيَرَاهُ النَّائِمُ كَأَنَّهُ حَسُّوسٌ
 فَيَتَنَزَّلُ الْمُدْرِكُ مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ إِلَى الْحِسِّيِّ وَالْخَيَالِ أَيْضًا وَاسِطَةً هَذِهِ حَقِيقَةُ

الرُّؤْيَا وَمِنْ هَذَا التَّعْبِيرِ يَظْهَرُ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ وَأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ
الْكَاذِبَةِ فَإِنَّهَا كَلَّمَا صُورَ فِي أُخْيَالِ حَالَةِ النُّومِ وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ الصُّورُ
مُنْتَزِلَةً مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ الْمُدْرِكِ فَهُوَ رُؤْيَا وَإِنْ كَانَتْ مَأْخُودَةً مِنَ الصُّورِ الَّتِي
فِي الْحَافِظَةِ الَّتِي كَانَتْ أُخْيَالُ أَوْدَعَهَا أَيَّهَا مُنْذُ الْبِقَظَةِ فَهِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَأَمَّا مَعْنَى
التَّعْبِيرِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الرُّوحَ الْعَقْلِيَّ إِذَا أَدْرَكَ مُدْرَكَهُ وَأَلْقَاهُ إِلَى أُخْيَالِ فَصُورَهُ فَإِنَّمَا
يُصَوِّرُهُ فِي الصُّورِ الْمُنَاسِبَةِ لِذَلِكَ الْمَعْنَى بَعْضُ الشَّيْءِ كَمَا يُدْرِكُ مَعْنَى السُّلْطَانِ
الْأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ أُخْيَالُ بِصُورَةِ الْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ الْعِدَاةَ فَيُصَوِّرُهَا أُخْيَالُ فِي صُورَةِ
الْحَيَّةِ فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى الْبَحْرَ أَوْ الْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ الْمَعْبُورَ
بِقُوَّةِ التَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ الْبَحْرَ صُورَةٌ مَحْسُوسَةٌ وَأَنَّ الْمُدْرَكَ وَرَاءَهَا وَهُوَ
يَهْتَدِي بِقَرَائِنِ أُخْرَى تَعَيَّنَ لَهُ الْمُدْرَكَ فَيَقُولُ مِثْلًا هُوَ السُّلْطَانُ لِأَنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ
يُنَاسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا السُّلْطَانُ وَكَذَلِكَ الْحَيَّةُ يُنَاسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِالْعَدُوِّ لِعَظَمِ ضَرَرِهَا
وَكَذَا الْأَوَانِي تُشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَةٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنْ الْمُرْتَبِي مَا يَكُونُ صَرِيحًا
لَا يَتَّقَرُّ إِلَى تَعْبِيرٍ لِجَلَالِهَا وَوُضُوحِهَا أَوْ لِقُرْبِ الشَّبَهِ فِيهَا بَيْنَ الْمُدْرَكَ وَشَبَّهِهِ وَلِهَذَا
وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ الرُّؤْيَا ثَلَاثُ رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلَكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ
فَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ اللَّهِ هِيَ الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا تَتَّقَرُّ إِلَى تَأْوِيلٍ وَالَّتِي مِنَ الْمَلَكِ هِيَ الرُّؤْيَا
الصَّادِقَةُ تَتَّقَرُّ إِلَى التَّعْبِيرِ وَالرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ هِيَ الْأَضْغَاثُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَخْيَالُ
إِذَا أَلْتَمَسَ إِلَيْهَا الرُّوحُ مُدْرَكَهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمَعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَكُنْ
الْحِسُّ أَدْرَكَهُ قَطُّ فَلَا يُصَوِّرُ فِيهِ فَلَا يَدْرِكُ مِنْ وَرْدِ أَعْمَى أَنْ يُصَوِّرَ لَهُ السُّلْطَانُ
بِالْبَحْرِ وَلَا الْعَدُوَّ بِالْحَيَّةِ وَلَا النِّسَاءَ بِالْأَوَانِي لِأَنَّهُ لَمْ يَدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَإِنَّمَا يُصَوِّرُ
لَهُ الْأَخْيَالُ أَمْثَالَ هَذِهِ فِي شَبَّهٍ وَمُنَاسِبَةٍ مِنْ جِنْسِ مَدَارِكِهِ الَّتِي هِيَ الْمَشْمُوعَاتُ
وَالْمَشْمُومَاتُ وَيَتَحَفَّظُ الْمَعْبُورُ مِنْ مِثْلِ هَذَا فَرُبَّمَا اخْتَلَطَ بِهِ التَّعْبِيرُ وَفَسَدَ قَانُونُهُ ثُمَّ إِنْ
عَلِمَ التَّعْبِيرُ عِلْمًا يَقْوَانِينَ كَلِمَةٍ بِنِي عَالِيهَا الْمَعْبُورَ عِبَارَةً مَا يَقْصُ عَلَيْهِ وَتَأْوِيلَهُ كَمَا
يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى السُّلْطَانِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْغَيْظِ وَفِي
مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْهَمِّ وَالْأَمْرِ الْفَالِحِ وَمِثْلُ مَا يَقُولُونَ الْحَيَّةُ تَدُلُّ
عَلَى الْعَدُوِّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ هِيَ كَاتِمٌ سِرٌّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ تَدُلُّ عَلَى

الْحَيَاةِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَيَحْفَظُ الْمَعْبَرُ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْكَلِمَةَ وَيَعْبُرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا
تَقْتَضِيهِ الْقَرَائِنُ الَّتِي تَعَيَّنُ مِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مَا هُوَ الْيَقِينُ بِالرُّؤْيَا وَتِلْكَ الْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي
الْبِقْطَةِ وَمِنْهَا فِي النَّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ الْمَعْبَرِ بِالْخَاصِصَةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلُّ
مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْعِلْمُ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ السَّافِّ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِيهِ
مِنْ أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْقَوَانِينُ وَتَنَاقَلَهَا النَّاسُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّفْ
الْكِرْمَانِي فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ أَلَفَ الْمُبَكِّكُونَ الْمَتَاخِرُونَ وَأَكْتَرُوا وَالْمُتَدَاوِلُ
بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ كُتِبَ ابْنُ أَبِي طَالِبِ الْفَيْرَوَانِي مِنْ عُلَمَاءِ الْفَيْرَوَانِ مِثْلَ
الْمُتَمِّعِ وَغَيْرِهِ وَكُتِبَ الْإِشَارَةُ لِلْسَّالِمِيِّ وَهُوَ عِلْمٌ مُفِيئٌ بِبُورِ النُّبُوَّةِ لِلْمُنَاسِبَةِ الَّتِي
يَنْبَغُهَا كَمَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّهُ عَلَامُ الْغُيُوبِ

الفصل الثالث عشر

في العلوم العقلية واصنافها

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلنَّاسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فِيهِ غَيْرُ
مُخْتَصَّةٍ بِعِلَّةٍ بَلْ يُوَجِّهُ النَّظْرَ فِيهَا إِلَى أَهْلِ الْمَلِكِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا
وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْذُ كَانَ عَمْرَانُ الْخَلِيقَةَ وَتَسَمَّى هَذِهِ الْعُلُومُ عُلُومَ
الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ الْأَوَّلُ عِلْمُ الْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ
الذِّهْنَ عَنِ الْخَطَا فِي اقْتِنَاصِ الْمَطَالِبِ الْمَجْبُولَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْخَاصَةِ الْعَامَّةِ وَفَائِدَتُهُ
تَمْيِيزُ الْخَطَا مِنَ الصَّوَابِ فِيمَا يَأْتِمِسُهُ النَّاطِرُ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا لِيَقِفَ عَلَى
تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي السَّكَائِنَاتِ بِدَيْتِهِ فِكْرُهُ ثُمَّ النَّظْرُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي الْمَحْسُوسَاتِ
مِنَ الْأَجْسَامِ الْعُنْصُرِيَّةِ وَالذَّمَكُونَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَالْأَجْسَامِ
الْفَلَائِكِيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالنَّفْسِ الَّتِي تَتَّبَعُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَيَسَمَّى
هَذَا الْفَنُّ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الثَّانِي مِنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّظْرُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ
الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمَّوْنَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْهَا وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ وَهُوَ
النَّاطِرُ فِي الْمَقَادِيرِ وَيَسْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتَسَمَّى التَّعَالِيمِ أَوَّلُهَا عِلْمُ الْمُنْدَسَّةِ وَهُوَ
النَّظْرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِمَّا الْمُنْفَصَلَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةٌ أَوْ الْمَتَّصَلَةِ
وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ السَّطْحُ أَوْ ذُو أبعادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ

الْجِسْمِ التَّعْلِيمِيِّ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْرِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ
 حَيْثُ نِسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَأْنِيهَا عِلْمُ الْأَرْتَمَاطِيْقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْرِضُ لِلْكَمِّ
 الْمُنْفَصِلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَارِضِ الْأَلْحَقَةِ وَتَأْتِيهَا عِلْمُ
 الْمَوْسِيقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ نِسْبِ الْأَصْوَاتِ وَالنَّغْمِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِالْعَدَدِ وَتَمَرُّنُهُ
 مَعْرِفَةُ تَلَاْحِيْنِ الْغِنَاءِ وَرَابِعُهَا عِلْمُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ الْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاكِ وَحَصْرُ أَوْضَاعِهَا
 وَتَعَدُّهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ السَّمَاوَةِ وَالْقِيَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْحَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ
 الْمَشَاهِدَةِ الْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا فَبِهَذِهِ
 أُصُولُ الْعُلُومِ الْفَلْسَافِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةُ الْمَنْطِقِ وَهُوَ الْمَقْدَمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ التَّعَالِيمُ فَالْأَرْتَمَاطِيْقِي
 أَوَّلَانِ الْمُهَنْدِسَةِ ثُمَّ الْهَيْئَةُ ثُمَّ الْمَوْسِيقِي ثُمَّ الطَّبِيعِيَّاتِ ثُمَّ الْإِلَهِيَّاتِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا
 فُرُوعٌ تُتَفَرَّعُ عَنْهُ فَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ الطَّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ الْعَدَدِ عِلْمُ الْحِسَابِ
 وَالْفَرَائِضِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ الْهَيْئَةِ الْأَزْيَاحُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحِسَابِ حَرَكَاتِ
 الْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قُصِدَ ذَلِكَ وَمِنْ فُرُوعِهَا النَّظَرُ فِي النُّجُومِ
 عَلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَتَحْنُ نَتِكْتُمْ عَلَيْهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا وَأَعْلَمُ
 أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ عُنِيَ بِهَا فِي الْأَجْيَالِ الَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ الْأَمْتَانِ الْعَظِيمَتَانِ فِي
 الدَّوْلَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَالرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقُ الْعُلُومِ نَاقِفَةً لَدَيْهِمْ عَلَى
 مَا بَلَّغْنَا لِمَا كَانَ الْعُمَرَانُ مَوْفُورًا فِيهِمْ وَالدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَعَصَرِهِ لَهُمْ
 فَكَانَ لَهُدِيهِ الْعُلُومُ بِحُورِ زَاخِرَةٍ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ وَكَانَ لِلْكِلْدَانِيَّيْنِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ
 مِنَ السَّرْيَانِيَّيْنِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْقُبْطِ عَنَابِيَّةً بِالسِّخْرِ وَالنَّجْمَةِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الطَّلَاسِمِ
 وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُمْ الْأُمَمُ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَأَخْضَصَ بِهَا الْقُبْطُ وَطَمَى بَجْرَهَا فِيهِمْ
 كَمَا وَقَعَ فِي الْمَتَلَوِّ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ السِّخْرِ وَمَا تَقَلَّهَ أَهْلُ الْعِلْمِ
 مِنْ شَأْنِ الْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مِصْرَ ثُمَّ تَنَابَعَتِ الْمَلَلُ بِحَظَرِ ذَلِكَ وَتَحْرِيْمِهِ فُدْرِسَتْ
 عُلُومُهُ وَبَطُلَتْ كَانَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَبَاقَلُهَا مُنْتَحِلُو هَذِهِ الصَّنَائِعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِصَحَّتِهَا مَعَ أَنَّ سُبُوفَ الشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنْ اخْتِبَارِهَا وَأَمَّا الْفَرَسُ
 فَكَانَ شَأْنُ هَذِهِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيمًا وَنَطَافُهَا مَتَسَعًا لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دُولُهُمْ
 مِنَ الضَّخَامَةِ وَاتِّصَالِ الْمَلِكِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ

حين قتل الإسكندر داراً وعلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم
 مما لا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتبت سعد
 ابن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتقليدها للمسلمين فكتب
 إليه عمر أن أطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن
 يكن ضللاً فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها
 عن أن تصل إلينا. وأما الروم فكانت الدولة منهم أيونان أولاً وكان لهذه العلوم
 بينهم مجال رحب وحباً وحداً مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم
 واختص فيها المشاهون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التليم كانوا يقرأون
 في رواق يظلمهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما
 يزعمون من لدن ثمان الحكيم في تلميذه بقرط الدين ثم إلى تلميذه أفلاطون ثم
 إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروديسي وتامسطيون وغيرهم
 وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم الذي غاب الفرس على ملكهم وانزع
 الملك من أيديهم وكان أرسطو في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيه صيتاً وكان يسمى
 المعلم الأول فطار له في العالم ذكر. ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقباصرة
 وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرايع فيها وبقيت
 في حفاها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم قد ملكوا الشام وكتب هذه العلوم
 باقية فيهم ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له وأبزوا الروم
 ملكهم فيما أبزوه للأمم وأبداً أمرهم بالسداجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا
 تبحر من السلطان والدولة وأخذ الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم
 وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا إلى الإطلاع على هذه العلوم الحكيمة بما
 سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما سمعوا إليه أفكار الإنسان
 فيها فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة
 فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون وأطاعوا على
 ما فيها وأزدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في
 العلم رغبة بما كان ينتهله فابعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم

فِي اسْتِغْرَاجِ عُلُومِ الْيُونَانِيِّينَ وَانْتِسَاحِهَا بِالْحِطِّ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ الْمُنْتَزِعِينَ لِنَيْلِكَ فَأَوْعَى
 مِنْهُ وَأَسْتَوْعَبَ وَعَكَفَ عَلَيْهَا النُّظَارُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَحَدَّثُوا فِي فُنُونِهَا وَأَنْتَهتْ إِلَى
 الْغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا وَخَالَفُوا كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَأَخْتَصَّوهُ بِالرَّدِّ وَالْقَبُولِ
 لَوْ قُوفِ الشُّهْرَةِ عِنْدَهُ وَدَوَّنُوا فِي ذَلِكَ الدَّوَاوِينَ وَأَرْبُوعًا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ
 وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِهِمْ فِي الْمَلَّةِ أَبُو نَصْرِ الْقَارَابِيُّ وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ سَيْنَا بِالْمَشْرِقِ وَالْقَاضِي
 أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ وَالْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْأَصَّغِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى آخِرِينَ بَلَّغُوا الْغَايَةَ
 فِي هَذِهِ الْعُلُومِ وَأَخْتَصَّ هَؤُلَاءِ بِالشُّهْرَةِ وَالذِّكْرِ وَأَقْتَصَرَ كَثِيرُونَ عَلَى اتِّخَالِ الْعُلَامِ
 وَمَا يَنْصَافُ إِلَيْهَا مِنْ عُلُومِ النُّجُومِ وَالسِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَوَقَفَتْ الشُّهْرَةُ فِي هَذَا الْمُنْتَحَلِ
 عَلَى مَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْحَجْرِيَّيَّ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَتَلْمِيزِهِ وَدَخَلَ عَلَى الْمَلَّةِ مِنْ
 هَذِهِ الْعُلُومِ وَأَهْلِهَا دَاخِلَةٌ وَأَسْتَهْوَتْ الْكَبِيرَ مِنَ النَّاسِ بِمَا جَنَحُوا إِلَيْهَا وَقَدَّوْا آرَاءَهَا
 وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ لِمَنْ أَرْتَكِبَهُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ثُمَّ إِنَّ الْمَغْرِبَ وَالْأَنْدَلُسَ لَمَّا
 رَكَدَتْ رَيْحُ الْعُمَرَانِ بِهِمَا وَتَنَاقَصَتِ الْعُلُومُ بِتَنَاقُصِهِ أَضْحَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمَا إِلَّا قَلِيلًا مِنْ
 رُسُومِهِمْ يَجِدُهَا فِي تَفَارِيقِ مِنَ النَّاسِ وَتَحْتَ رِقَبَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَيَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ أَنْ بَصَائِعَ هَذِهِ الْعُلُومِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُمْ مُؤَفَّرَةً وَخُصُوصًا فِي عِرَاقِ الْعَجَمِ وَمَا
 بَعْدَهُ فِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَأَنْتَهُمْ عَلَى بَيْحِ مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ لِتَوْفُرِ عُمَرَانِهِمْ وَأَسْتَحْكَمَ
 الْحَضَارَةَ فِيهِمْ وَقَدْ وَقَفَتْ بِمِصْرَ عَلَى تَالِيفِ مُتَعَدِّدَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ عِظَمَاءِ هِرَاةٍ مِنْ بِلَادِ
 خُرَّاسَانَ يُشَهَّرُ بِسَعْدِ الدِّينِ التَّفْتَازَانِيِّ مِنْهَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ وَالْبَيَانِ
 تَشْهَدُ بَأَنَّ لَهُ مَلَكَةً رَاسِخَةً فِي هَذِهِ الْعُلُومِ وَفِي أَثْنَائِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَطْلَاعًا عَلَى
 الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَقَدَّمَآ عَالِيَةً فِي سَائِرِ الْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ
 كَذَلِكَ بَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ الْفَلَسْفِيَّةَ بِبِلَادِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ مِنْ أَرْضِ رُومَةٍ وَمَا
 إِلَيْهَا مِنَ الْعُدُورِ السَّمَالِيَّةِ نَافِقَةٌ الْأَسْوَاقِ وَأَنَّ رُسُومَهَا هُنَاكَ مُتَجَدِّدَةٌ وَمَجَاسِسُ
 تَعْلِيمِهَا مُتَعَدِّدَةٌ وَدَوَّابِنَهَا جَامِعَةٌ مُتَوَفَّرَةٌ وَطَبَّتْهَا مُتَكَثِّرَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا هُنَاكَ
 وَهُوَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ

الفصل الرابع عشر

في العلوم العددية

وَأَوَّلُهَا الْأَزْتِمَاطِيْقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ التَّأْلِيفُ إِمَّا عَلَى التَّوَالِي
أَوْ بِالْتَّضْعِيفِ مِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بَعْدَ وَاحِدٍ فَإِنَّ جَمْعَ الطَّرْفَيْنِ مِنْهَا مُسَاوٍ
لِجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرْفَيْنِ بَعْدُ وَاحِدٍ وَمِثْلُ ضَعْفِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ
عَدَةً تِلْكَ الْأَعْدَادِ فَرَدًّا مِثْلُ الْأَفْرَادِ عَلَى تَوَالِيهَا وَالْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ
إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أَوَّلُهَا نِصْفُ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفُ ثَالِثِهَا الخ أَوْ يَكُونُ
أَوَّلُهَا ثُلْثُ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلْثُ ثَالِثِهَا الخ فَإِنَّ ضَرْبَ الطَّرْفَيْنِ أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ كَضَرْبِ
كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرْفَيْنِ بَعْدُ وَاحِدٍ أَحَدُهُمَا فِي الْآخِرِ وَمِثْلُ مَرْبَعِ الْوَاسِطَةِ
إِنْ كَانَتْ الْعِدَّةُ فَرَدًّا وَذَلِكَ مِثْلُ أَعْدَادِ زَوْجِ الزَّوْجِ الْمُتَوَالِيَةِ مِنْ اثْنَيْنِ فَارْبَعَةٌ
فَثَمَانِيَةٌ فَسِتَّةٌ عَشْرٌ وَمِثْلُ مَا يَحْدُثُ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ الْمَثَلَاتِ الْعَدَدِيَّةِ
وَالْمَرْبَعَاتِ وَالْمُخَمَّسَاتِ وَالْمَسَدَّسَاتِ إِذَا وُضِعَتْ مُتَتَالِيَةً فِي سَطْرِهَا بِأَنَّ يَجْمَعُ مِنَ
الْوَاحِدِ إِلَى الْعَدَدِ الْآخِرِ فَتَكُونُ مِثْلَةً وَتَتَوَالَى الْمَثَلَاتُ هَكَذَا فِي سَطْرِ تَحْتِ
الْأَضْلَاعِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مِثْلٍ ثُلْثَ الضَّاعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مَرْبَعَةً وَتَزِيدُ عَلَى
كُلِّ مَرْبَعٍ مِثْلَ الضَّاعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرًّا وَتَتَوَالَى الْأَشْكَالُ
عَلَى تَوَالِي الْأَضْلَاعِ وَيَحْدُثُ جَدْوَلٌ ذُو طُولٍ وَعَرْضٍ فِيهِ عَرْضُ الْأَعْدَادِ عَلَى تَوَالِيهَا
ثُمَّ الْمَثَلَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمَرْبَعَاتُ ثُمَّ الْمُخَمَّسَاتُ الخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ
بَالِغًا مَا بَلَغَ وَتَحْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ طُولًا وَعَرْضًا خَوَاصُّ غَرِيبَةٌ
أَسْتَقْرِيَتْ مِنْهَا وَتَقَرَّرَتْ فِي دَوَائِبِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَلِكَ مَا يَحْدُثُ لِلزَّوْجِ وَالْفَرْدِ وَزَوْجِ
الزَّوْجِ وَزَوْجِ الْفَرْدِ وَزَوْجِ الزَّوْجِ وَالْفَرْدِ فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْهَا خَوَاصًّا مُخْتَصَّةً بِهِ تَضَمَّنَهَا
هَذَا الْفَنُّ وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ وَهَذَا الْفَنُّ أَوَّلُ أَجْزَاءِ التَّعَالِيمِ وَأَثْبَتَهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ
الْحِسَابِ وَاللِّحْكَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمَتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَأْلِيفٌ وَأَكْثَرُهُمْ يَدْرَجُونَهُ فِي
التَّعَالِيمِ وَلَا يُفْرَدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ فَعَلَّ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاءِ وَغَيْرِهِ
مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَإِمَّا الْمَتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوِلٍ وَمَنْفَعَتُهُ فِي
الْبَرَاهِينِ لَا فِي الْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَمْتَلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي الْبَرَاهِينِ الْحِسَابِيَّةِ

كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ النَّبَاءِ فِي كِتَابِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . (ومن فروع
 علم العدد صناعة الحساب) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ الْأَعْدَادِ بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ
 فَأَلْضَمُّ يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ بِالْأَفْرَادِ وَهُوَ الْجَمْعُ وَبِالتَّضْعِيفِ تَضَاعُفٌ عَدَدًا بِأَحَادٍ عَدَدٍ
 آخَرَ وَهَذَا هُوَ الضَّرْبُ وَالتَّفْرِيقُ أَيْضًا يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ إِمَّا بِالْأَفْرَادِ مِثْلَ إِزَالَةِ عَدَدٍ
 مِنْ عَدَدٍ وَمَعْرِفَةِ الْبَاقِي وَهُوَ الطَّرْحُ أَوْ تَفْصِيلُ عَدَدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا
 مُحْصَلَةً وَهُوَ الْقِسْمَةُ وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْعَدَدِ أَوْ الْكَسْرِ
 وَمَعْنَى الْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدَدٍ إِلَى عَدَدٍ وَتِلْكَ النِّسْبَةُ تُسَمَّى كَسْرًا وَكَذَلِكَ يَكُونُ بِالضَّمِّ
 وَالتَّفْرِيقِ فِي الْجُذُورِ وَمَعْنَاهَا الْعَدَدُ الَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَدَدُ الْمُرَبَّعُ
 فَإِنَّ تِلْكَ الْجُذُورَ أَيْضًا يَدْخُلُهَا الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ حَادِثَةٌ أَحْتِجُ إِلَيْهَا
 لِلْحِسَابِ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَآلَفَ النَّاسُ فِيهَا كَثِيرًا وَتَدَاوَلُوهَا فِي الْأَمْصَارِ بِالتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ
 وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعْلِيمِ عِنْدَهُمُ الْإِتِّدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفٌ مُتَّصَةٌ وَبَرَاهِينٌ مُنْتَظِمَةٌ فَيُنشَأُ
 عَنْهَا فِي الْغَالِبِ عَقْلٌ مُضِيءٌ دَرَبٌ عَلَى الصَّوَابِ وَقَدْ يُقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَعْلِيمِ الْحِسَابِ
 أَوَّلَ أَمْرِهِ أَنَّهُ يُغْلِبُ عَلَيْهِ الصِّدْقُ لِمَا فِي الْحِسَابِ مِنْ صِحَّةِ الْمَبَانِي وَمُنَاقَشَةِ النَّفْسِ
 فَيَصِيرُ ذَلِكَ خُلُقًا وَيَتَعَوَّدُ الصِّدْقَ وَيَلْزَمُهُ مَذْهَبًا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّلَافِيهِ الْمَبْسُوطَةِ فِيهَا
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ كِتَابُ الْحِصَارِ الصَّغِيرِ لِابْنِ النَّبَاءِ الْمَرَاكِشِيِّ فِيهِ تَلْفِيضٌ ضَابِطٌ
 لِقَوَانِينِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابِ سَمَاءِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَعْلَقٌ عَلَى الْمُبْتَدِيَّةِ
 بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْوَثِيقَةِ الْمَبَانِي وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ الْقَدْرِ أَدْرَكْنَا الْمَسِيخَةَ تَعْظِيمَهُ
 وَهُوَ كِتَابٌ جَدِيدٌ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا جَاءَهُ الْأَسْتِغْلَاقُ مِنْ طَرِيقِ الْبُرْهَانِ بَيِّنَاتٍ عُلُومِ
 التَّعْلِيمِ لِأَنَّ مَسَائِلَهَا وَأَعْمَالَهَا وَاصِحَّةٌ كُلُّهَا وَإِذَا قُصِدَ شَرْحُهَا فَإِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ الْعِلَلِ
 فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْعُسْرِ عَلَى الْفَهْمِ مَا لَا يُوْجَدُ فِي أَعْمَالِ الْمَسَائِلِ فَتَأَمَّلْهُ
 وَاللَّهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ . (ومن فروع الجبر والمقابلة) . وَهِيَ
 صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا الْعَدَدُ الْجَهُولُ مِنْ قِبَلِ الْعُلُومِ الْمَفْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ
 تَقْتَضِي ذَلِكَ فَأَصْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ جَعَلُوا لِلْجَهُولَاتِ مَرَاتِبَ مِنْ طَرِيقِ التَّضْعِيفِ بِالضَّرْبِ
 أَوَّلَهَا الْعَدَدُ لِأَنَّهُ بِهِ يَتَعَيَّنُ الْمَطْلُوبُ الْجَهُولُ بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ الْجَهُولِ إِلَيْهِ وَتَأْتِيهَا
 الشَّيْءُ لِأَنَّ كُلَّ جَهُولٍ فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ إِبْهَامِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَيْضًا جُزْءٌ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ

فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَتَالِثَهَا الْمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مُبْهِمٌ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ الْأَسِّ فِي
 الْمَضْرُوبِينَ ثُمَّ يَقَعُ الْعَمَلُ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ
 أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ فَيُقَابِلُونَ بَعْضًا بِبَعْضٍ وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْكَسْرِ حَتَّى
 يَصِيرَ صَحِيحًا وَيَخْطُونَ الْمَرَاتِبَ إِلَى أَقْلِ الْأَسُوسِ إِنْ أَمَكْنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى الثَّلَاثَةِ
 الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجُبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ الْعَدَدُ وَالشَّيْءُ وَالْمَالُ فَإِنْ كَانَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ
 وَوَاحِدٍ تَعَيَّنَ فَالْمَالُ وَالْجُدْرُ يَزُولُ إِهْمَامُهُ بِمُعَادَلَةِ الْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ وَالْمَالُ وَإِنْ عَادَلَ
 الْجُدُورَ فَيَتَعَيَّنُ بِعِدَّتِهَا وَإِنْ كَانَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ أَخْرَجَهُ الْعَمَلُ الْمُهَنْدِسِيُّ
 مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ الضَّرْبِ فِي الْاِثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهِمَةٌ فَيُعِينُهَا ذَلِكَ الضَّرْبُ الْمُفْصَلُ وَلَا
 يُمَكِّنُ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَأَكْثَرَ مَا انْتَهَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ
 مَسَائِلَ لِأَنَّ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجُدْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةٍ أَوْ مُرَكَّبَةٍ تُجِيئُ سِتَّةَ وَأَوَّلَ مَنْ كَتَبَ
 فِي هَذَا الْفَنِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخُوَارِزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شَيْخُ بَنِي أَسْلَمَ وَجَاءَ النَّاسُ
 عَلَى آثَرِهِ فِيهِ وَكُتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ السِّتِّ مِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهِ وَشَرَحَهُ
 كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ الْفَرُّشِيِّ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ
 بَعْضَ أَيْمَةِ التَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنْهَى الْمُعَامَلَاتِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ السِّتَةِ
 الْأَجْنَاسِ وَبَلَّغَهَا إِلَى فَوْقِ الْعِشْرِينَ وَأَسْتَخْرِجَ لَهَا كُلَّهَا أَعْمَالًا وَاتَّبَعَهُ بِرَاهِنٍ هِنْدِسِيَّةٍ
 وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ سُجَّانَهُ وَتَعَالَى . (ومن فروعه أيضاً المعاملات) . وَهُوَ
 تَصْرِيْفُ الْحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ الْمَدِينِ فِي الْبِيَعَاتِ وَالْمَسَاحَاتِ وَالزَّكَاةِ وَالرَّكَاةِ وَالسَّارِ مَا
 يَعْرِضُ فِيهِ الْعَدَدُ مِنَ الْعُمَلَاتِ بِصَرْفٍ فِي صِنَاعَتِنَا ذَلِكَ الْحِسَابِ فِي الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ
 وَالْكَسْرِ وَالصَّحِيحِ وَالْجُدُورِ وَغَيْرِهَا وَالغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَسَائِلِ الْمَفْرُوضَةِ فِيهَا
 حُصُولُ الْمِرَانِ وَالذُّرْبَةِ بِتَكَرُّرِ الْعَمَلِ حَتَّى تَرْتَبِعَ الْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ
 وَلِأَهْلِ الصَّنَاعَةِ الْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ تَأْلِيفٌ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهُرِهَا مُعَامَلَاتُ
 الزُّهْرَاوِيِّ وَابْنِ السَّمْحِ وَأَبِي مُسْلِمِ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تَلْمِيزِ مَسْلَمَةَ الْعَجْرِيَّيْنِ وَأَمثالِهِمْ
 (ومن فروعه أيضاً الفرائض) . وَهِيَ صِنَاعَةُ حِسَابِيَّةٍ فِي تَصْحِيحِ السِّهَامِ لِذَوِي الْفُرُوضِ
 فِي الْوَرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّتْ وَهَلَكَ بَعْضُ الْوَارِثِينَ وَأَنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ
 زَادَتْ الْفُرُوضُ عِنْدَ اجْتِمَاعِهَا وَتَرَاحُمِهَا عَلَى أَعْمَالِ كُلِّهَا أَوْ كَانَ فِي الْفَرِيضَةِ إِقْرَارٌ

وَإِنْكَارٌ مِنْ بَعْضِ الْوَرَثَةِ فَمَتَّحَجٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى عَمَلٍ يُعَيِّنُ بِهِ سَهَامَ الْفَرِيضَةِ مِنْ
 كَمْ تَصِخُّ وَسَهَامُ الْوَرَثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصَحَّحًا حَتَّى تَكُونَ حَطُوطُ الْوَارِثِينَ مِنْ
 الْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سَهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سَهَامِ الْفَرِيضَةِ فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ جُزْءٌ
 كَبِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكَسْرُهُ وَجَذْرُهُ وَمَعْلُومُهُ وَجَهْوُهُ وَتُرْتَبُ عَلَيْهِ تَرْتِيبُ أَبْوَابِ الْفَرَائِضِ
 الْفَقْرِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْفِقْهِ وَهُوَ أَحْكَامُ الْوَرَاثَةِ
 مِنَ الْفَرُوضِ وَالْعَوْلِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ وَالْوَصَايَا وَالتَّوَدِيرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا
 وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ الْحِسَابِ وَهُوَ تَصْحِيحُ السُّهُمَانِ بِاعْتِبَارِ الْحُكْمِ الْفَقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجْلِ
 الْعُلُومِ وَقَدْ يُورِدُ أَهْلُهَا أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً تُشْهَدُ بِفَضْلِهَا مِثْلَ الْفَرَائِضِ ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ
 مَا يُرْفَعُ مِنَ الْعُلُومِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَعِنْدِي أَنَّ ظَوَاهِرَ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي
 الْفَرَائِضِ الْعَيْنِيَّةِ كَمَا نَقَدَمُ لَا فَرَائِضَ الْوَرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّتِهَا
 ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْفَرَائِضُ الْعَيْنِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلْفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْعِلْمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا
 وَأَوْعَبُوا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّلَافِيهِ فِيهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَتَخْتَصِرُ
 الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْحَوْفِيِّ وَكِتَابُ ابْنِ الْمُنَمَّرِ وَالْجَعْدِيِّ وَالصَّرْدِيِّ وَغَيْرِهِمْ لَكِنَّ
 الْفَضْلَ لِلْحَوْفِيِّ فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شَيْوِخِنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانُ
 الشُّطْبِيُّ كَبِيرُ مَسِيخَةِ فَاسٍ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ وَلَا يُمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَالِيفٌ عَلَى مَذْهَبِ
 الشَّافِعِيِّ تُشْهَدُ بِاتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي الْعُلُومِ وَرُسُوحِ قَدَمِهِ وَكَذَا لِلْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَمَقَامَاتُ
 النَّاسِ فِي الْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس عشر

في العلوم الهندسية

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا الْمَتَّصِلَةِ كَالْحَطِّ وَالسَّطْحِ وَالْجَسْمِ وَإِمَّا
 الْمُنْفَصِلَةِ كَالْأَعْدَادِ وَفِيمَا يَعْزُضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّائِبَةِ مِثْلَ أَنْ كُلُّ مِثْلٍ فَرَوَايَاهُ
 مِثْلُ قَائِمَتَيْنِ وَمِثْلَ أَنْ كُلَّ خَطِّينِ مُتَوَازِيَيْنِ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي وَجْهِهِ وَلَوْ خَرَجَا إِلَى غَيْرِ
 نِهَائِيَّةٍ وَمِثْلَ أَنْ كُلَّ خَطِّينِ مُتَقَاطِعَيْنِ فَالزَّاوِيَتَانِ الْمُتَقَابِلَتَانِ مِنْهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ وَمِثْلَ
 أَنْ الْأَرْبَعَةَ مَقَادِيرَ الْمُتَنَاسِبَةِ ضَرَبُ الْأَوَّلِ مِنْهَا فِي الثَّلَاثِ كَضَرْبِ الثَّانِي فِي الرَّابِعِ
 وَأَمثالُ ذَلِكَ وَالْكِتَابُ الْمَتْرَجِمُ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابُ أَوْفَلِيدِسَ وَيُسَمَّى

كِتَابُ الْأُصُولِ وَكِتَابُ الْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمُ
 مِنْ كِتَابِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ وَنُسَخُهُ مُخْتَلَفَةٌ بِاخْتِلَافِ
 الْمُتَرْجِمِينَ فَمِنْهَا لِحْنِيْنِ بْنِ إِسْحَاقَ وَثَلَاثَاتِ بْنِ قِرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ الْحُجَّاجِ وَبَسْتَمَلِ عَلَى
 خَمْسَ عَشْرَةَ مَقَالَةً أَرْبَعٌ فِي السُّطُوحِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْأَقْدَارِ الْمُنَاسِبَةِ وَأُخْرَى فِي
 نِسْبِ السُّطُوحِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٌ فِي الْعِدَدِ وَالْعَاشِرَةُ فِي الْمَنْطِقَاتِ وَالْقَوِي عَلَى
 الْمَنْطِقَاتِ وَمَعْنَاهُ الْجُدُورُ وَخَمْسٌ فِي الْجِسْمَاتِ وَقَدْ اخْتَصَرَهُ النَّاسُ اخْتِصَارَاتٍ كَثِيرَةً
 كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا اخْتَصَصَهُ بِهِ وَكَذَلِكَ ابْنُ الصَّلَاتِ
 فِي كِتَابِ الْأَفْتِنَارِ وَغَيْرِهِمْ وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحًا كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ الْعُلُومِ الْمُهَنْدِسِيَّةِ
 بِإِطْلَاقٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُهَنْدِسَةَ تَفِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَأَسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ
 بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيْنَةُ الْإِنْتِظَامِ جَلِيَّةُ التَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ الْعَلَطُ يَدْخُلُ أَفْسِتَهَا لِتَرْتِيبِهَا
 وَانْتِظَامِهَا فَيَعْبُدُ الْفِكْرُ بِمَارَسَتِهَا عَنِ الْخَطِإِ وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذَلِكَ الْمَهْنَعِ
 وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَنْدِسًا فَلَا يَدْخُلُ مَنْزِلَنَا
 وَكَانَ شَيْوَحْنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ مُمَارَسَةَ عِلْمِ الْمُهَنْدِسَةِ لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ الصَّابُونِ لِلثَّوْبِ
 الَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ الْأَقْدَارَ وَيَنْقِيهِ مِنَ الْأَوْضَارِ وَالْأَدْرَانِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ
 مِنْ تَرْتِيبِهِ وَانْتِظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المنصوصة بالاشكال الكروية
 والمخروطات) . أَمَّا الْأَشْكَالُ الْكُرْوِيَّةُ فِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ
 لِثَاوُدُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُسَ فِي سَطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَكِتَابُ ثَاوُدُوسِيُوسَ مُقَدَّمٌ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى
 كِتَابِ مِيلَاوُسَ لِتَوْقُفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ وَلَا بَدَّ مِنْهَا لِمَنْ يُرِيدُ التَّخَوُّضَ فِي عِلْمِ
 الْأَهْمِيَّةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ فَالْكَلَامُ فِي الْأَهْمِيَّةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي الْكُرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ
 وَمَا يَعْزُضُ فِيهَا مِنَ الْقُطُوعِ وَالِدَوَائِرِ بِأَسْبَابِ الْحَرَكَاتِ كَمَا نَذَكَّرُهُ فَقَدْ تَوَقَّفَ عَلَى
 أَحْكَامِ الْأَشْكَالِ الْكُرْوِيَّةِ سَطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَأَمَّا الْمَخْرُوطَاتُ فَهُوَ مِنْ فُرُوعِ الْمُهَنْدِسَةِ
 أَيْضًا وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيَمَا يَقَعُ فِي الْأَجْسَامِ الْمَخْرُوطَةِ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْقُطُوعِ وَيَبْرَهِنُ
 عَلَى مَا يَعْزُضُ لِذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينِ هَنْدِسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَفَائِدَتِهَا
 تَطَهَّرُ فِي الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي مَوَادُّهَا الْأَجْسَامُ مِثْلُ النِّجَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ
 التَّمَاثِيلُ الْغَرِيبَةُ وَالْهَيَاكِلُ النَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُحْمَلُ عَلَى جَرِّ الْأَثْقَالِ وَنَقْلِ الْهَيَاكِلِ

بِالْهِنْدَامِ وَالْمِخَالِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ أَفْرَدَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي هَذَا الْفَنِ كِتَابًا فِي الْحَيْلِ
 الْعَلَمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ وَالْحَيْلِ الْمُسْتَظْرَفَةِ كُلَّ عَجِيبَةٍ وَرَبِّمَا اسْتَعْلَقَ
 عَلَى النَّهْمِ الصُّعُوبَةَ بَرَاهِينَهُ الْهِنْدَسِيَّةَ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِيَدَيْ النَّاسِ يَنْسِبُونَهُ إِلَى نَبِيِّ شَاكِرٍ
 وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (ومن فروع الهندسة المساحة) وَهُوَ فَنٌّ يَخْتِجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ
 وَمَعْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مَقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ شِبْرٍ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهِمَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ
 مِنْ أَرْضٍ إِذْ قُوِيَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَيَخْتِجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْخُرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ
 وَالْقُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغَرَاةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرْضِي بَيْنَ الشَّرَكَاءِ أَوْ الْوَرَثَةِ وَأَمْثَالِ
 ذَلِكَ وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضِعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَاللَّهُ الْمُؤَوِّقُ لِلصَّوَابِ بِعَمَلِهِ وَكَرَمِهِ .
 (المناظرة من فروع الهندسة) وَهُوَ عِلْمٌ يَتَبَيَّنُ بِهِ أَسْبَابُ الْغَلَطِ فِي الْإِدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ
 بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ إِدْرَاكَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطٍ شَعَاعِي رَاسُهُ
 يَقْطَعُهُ الْبَاصِرُ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْتَبِيُّ ثُمَّ يَقَعُ الْغَلَطُ كَثِيرًا فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيرًا وَالْبَعِيدِ
 صَغِيرًا وَكَذَا رُؤْيَةِ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةِ
 الْمُنْقَطَةِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطًّا مُسْتَقِيمًا وَالسُّلْقَةَ دَائِرَةً وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَيَتَبَيَّنُ فِي هَذَا
 الْعِلْمِ أَسْبَابُ ذَلِكَ وَكَيْفِيَّاتُهُ بِالْبَرَاهِينِ الْهِنْدَسِيَّةِ وَيَتَبَيَّنُ بِهِ أَيْضًا اخْتِلَافُ الْمَنْظَرِ
 فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ الْعُرُوضِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهْلَةِ وَحُصُولِ الْكُسُوفَاتِ
 وَكَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا وَقَدْ أَلْفَ فِي هَذَا الْفَنِ كَثِيرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَشْهُرُهُمْ مِنْ أَلْفٍ
 فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ وَغَيْرُهُ أَيْضًا تَأَلَّفَ وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَفَارِعِهَا

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكُوكَبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُتَحَرِّكَةِ وَالْمُتَحَرِّزَةِ وَيَسْتَدِلُّ
 مِنْ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ لِلْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْهَا لِهَيْدِهِ الْحَرَكَاتِ الْمَحْسُوسَةِ
 بِطَرِيقِ هِنْدَسِيَّةٍ كَمَا يُبْرَهُنُ عَلَى أَنَّ مَرَكَزَ الْأَرْضِ مَبَايِنٌ لِمَرَكَزِ فَلَكَ الشَّمْسِ بِوُجُودِ
 حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ وَكَمَا يَسْتَدِلُّ بِالرُّجُوعِ وَالْإِسْتِقَامَةِ لِلْكَوَاكِبِ عَلَى وُجُودِ
 أَفْلَاقٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةٍ دَاخِلِ فَلَكَهَا الْأَعْظَمِ وَكَمَا يُبْرَهُنُ عَلَى وُجُودِ
 أَلْفَلَكِ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكُوكَبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبْرَهُنُ عَلَى تَعَدُّدِ الْأَفْلَاقِ لِلْكَوَاكِبِ

الْوَاحِدِ بِتَعْدَادِ الْحَيُولِ لَهُ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَإِدْرَاكُ الْمَوْجُودِ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا
 وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرَّصْدِ فَإِنَّا إِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْأَقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا
 تَرْكِيبُ الْأَفْلَاكِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا الرَّجُوعُ وَالْإِسْتِقَامَةُ وَأَمثالُ ذَلِكَ وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ
 يَعْتَنُونَ بِالرَّصْدِ كَثِيرًا وَيَتَّخِذُونَ لَهُ الْأَلَاتِ الَّتِي تَوْضَعُ لِرَّصْدِهَا حَرَكَةَ الْكَوْكَبِ
 الْمَعِينِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتَ الْحَلْقِي وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ
 حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ الْفَلَكِ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ وَأَهًا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ تَنْفَعْ بِهِ عِنَايَةُ الْإِلَهِ
 فِي الْقَلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ الْأَلَةَ الْمَعْرُوفَةَ لِلرَّصْدِ الْمَسْمُومَةَ
 ذَاتَ الْحَلْقِي وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأَغْفَلَ وَعَاطَمَدَ مِنْ بَعْدِهِ
 عَلَى الْأَرْصَادِ الْقَدِيمَةِ وَوَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَةٍ لِإِخْتِلَافِ الْحَرَكَاتِ بِاتِّصَالِ الْأَحْقَابِ وَأَنَّ
 مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ الْأَلَةِ لِلرَّصْدِ بِحَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْرِيبِ وَهَذِهِ
 الْهَيْئَةُ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ وَوَلَيْسَتْ عَلَى مَا يَفْهَمُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ السَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ
 الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ بِالْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ وَالْهَيْئَاتِ لِلْأَفْلَاكِ لَزِمَتْ
 عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّه لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ لِأَزْمًا لِمُخْتَلِفِينَ
 وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَرَكَاتِ لِأَزْمَةٍ فَهِيَ أَسْتِدْلَالٌ بِاللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ الْمَكْزُومِ وَلَا يُعْطِي
 الْحَقِيقَةَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ التَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ التَّلَايِفِ فِيهِ
 كِتَابُ الْمَحِيسْطِيِّ مَسْنُوبٌ لِإِبْطَلِيمُوسَ وَوَلَيْسَ مِنْ مَلُوكِ الْيُونَانِ الَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ بِطَلِيمُوسُ
 عَلَى مَا حَقَّقَهُ شَرَّاحُ الْكِتَابِ وَقَدْ اخْتَصَرَهُ الْأَيْمَةُ مِنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ
 ابْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ وَخَصَّهُ ابْنُ رُشْدٍ أَيْضًا مِنْ حُكَمَاءِ الْإِنْدَلُسِ
 وَابْنُ السَّمْعِ وَأَبْنُ الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الْإِفْتِصَارِ وَابْنُ الْفَرَزَغَانِي هَيْئَةٌ مُلَخَّصَةٌ قَرِيبًا
 وَحَدَفَ بَرَاهِينُهَا الْهَنْدَسِيَّةُ وَاللَّهُ عَالِمٌ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ . (ومن فروع علم الازياج) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينِ عَدِيدَةٍ فِيمَا
 يَخْصُ كُلَّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ الْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ
 وَبَطْءٍ وَاسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ
 وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قَبْلِ حِسَابِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ
 الْهَيْئَةِ وَلِهَذِهِ الصِّنَاعَةُ قَوَانِينُ كَالْمَقْدَمَاتِ وَالْأَصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ

والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف
 الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسميها على المتعلمين
 وتسمى الأزياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة
 تعديلاً وتقويماً وللناس فيه تاليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني^(١)
 وابن الكماد وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيغ منسوب لابن
 اسحق من مجي تونس في أول المائة السابعة ويزعمون أن ابن اسحاق عول فيه على
 الرصد وأن يهودياً كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعالم وكان قد عني بالرصد وكان
 يبعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك
 عنوا به لوثاقه مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج فوَلَعَ بِهِ
 الناس لما سهل من الأعمال فيه وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتنبئ
 عليها الأحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان
 من الملك والدول والمواليد البشرية كما نبئنه بعد ونوضح فيه أدلتهم إن شاء الله تعالى
 والله الموفق لما يحب ويرضاه لا معبود سواه

الفصل السابع عشر

في علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفية للماهيات والحجج
 المفيدة للتصديقات وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بأحواس
 الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز
 الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بأن يحصل في
 الخيال من الأشخاص المتفقه صورة منطقية على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي
 الكلية ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقه وأشخاص أخرى توافقها في
 بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقي في
 التجريد إلى الكل الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه فيكون لأجل ذلك بسيطاً
 وهذا مثل ما مجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطقية عليها ثم ينظر بينه

١ قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المناء كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر المهديين

وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ وَيَجْرُدُ صُورَةَ الْجِنْسِ الْمُنطِقَةِ عَلَيْهَا ثُمَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّبَاتِ إِلَى أَنْ
 يَنْتَهِيَ إِلَى الْجِنْسِ الْعَالِيِّ وَهُوَ الْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كَلِيًّا يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ الْعَقْلُ هُنَاكَ
 عَنْ التَّجْرِيدِ ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْفِكْرَ الَّذِي بِهِ يَدْرِكُ الْعُلُومَ وَالصَّنَائِعَ
 وَكَانَ الْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيَعْنِي بِهِ إِدْرَاكَ سَازِجٍ مِنْ غَيْرِ حَكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصَدِيقًا
 أَيَّ حَكْمًا بَشُوتِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ يَجْمَعَ
 تِلْكَ الْكَلِمَاتِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ التَّأْلِيفِ فَتَحْضُلُ صُورَةٌ فِي الذِّهْنِ كَلِمَةً مُنطِقَةً
 عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الذَّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ الْأَخْصَاصِ
 وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصَدِيقًا وَغَايَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ
 إِلَى التَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَايِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى
 الْعِلْمِ وَهَذَا السَّعْيُ مِنَ الْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ
 فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَمْيِيزَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْعَى بِهِ الْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ الْعِلْمِيَّةِ لِتَمْيِيزِ
 الصَّحِيحِ مِنَ الْفَاسِدِ فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونُ الْمُنْطِقِ وَتَكَلَّمَ فِيهِ الْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا
 بِهِ جَمَلًا وَجَمَلًا وَمُفْرَقًا وَلَمْ تَهْدَبْ طَرْفُهُ وَلَمْ يَجْمَعْ مَسْأَلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرْسَطُو
 فَهَدَّبَ مَبَاحِثَهُ وَرَتَّبَ مَسْأَلَهُ وَفُضِّلَهُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَفَاتَحَتَهَا وَلِلذَلِكَ
 يُسَمَّى بِالْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ وَكُتِبَتْهُ الْمُخْصُوصُ بِالْمُنْطِقِ يُسَمَّى النَّصَّ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَّةٍ
 كُتِبَ أَرْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ التَّصَدِيقِيَّةَ
 عَلَى أَشْخَاءٍ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْيَقِينُ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ
 الظَّنُّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبٍ فَيَنْظُرُ فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ الْمَطْلُوبُ الَّذِي يُفِيدُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ
 تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارِ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ الْعِلْمِ أَوْ مِنَ الظَّنِّ وَقَدْ
 يَنْظُرُ فِي الْقِيَاسِ لَا بِإِعْتِبَارِ مَطْلُوبٍ مُخْصُوصٍ بَلْ مِنْ جِهَةِ إِنتَاجِهِ خَاصَّةً وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ
 الْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الْمَادَّةُ وَتَعْنِي بِهِ الْمَادَّةُ الْمُنْتِجَةُ لِلْمَطْلُوبِ الْمُخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ
 أَوْ ظَنْنٍ وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ الثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ وَإِنْتِاجُ الْقِيَاسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ فَكَانَتْ
 لِذَلِكَ كُتُبُ الْمُنْطِقِ ثَمَانِيَّةً . الْأَوَّلُ فِي الْأَجْنَاسِ الْعَالِيَةِ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجْرِيدُ
 الْمُخْصُوسَاتِ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَيُسَمَّى كِتَابَ الْمَقُولَاتِ . وَالثَّانِي فِي الْقَضَايَا
 التَّصَدِيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ الْعِبَارَةِ . وَالثَّلَاثُ فِي الْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنتَاجِهِ عَلَى

الإِطْلَاقَ وَيَسَمَى كِتَابَ الْقِيَاسِ وَهَذَا آخِرُ النَّظَرِ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ ثُمَّ الرَّابِعُ كِتَابُ
 الْبُرْهَانِ وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْقِيَاسِ الْمُنْتَجِجِ لِلْيَقِينِ وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَقْدَمَاتُهُ يَقِينِيَّةً
 وَيُخْتَصُّ بِشُرُوطٍ أُخْرَى لِإِفَادَةِ الْيَقِينِ مَذْكَورَةٌ فِيهِ مِثْلُ كَوْنِهَا ذَاتِيَّةً وَأَوَّلِيَّةً وَغَيْرَ
 ذَلِكَ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ الْكَلَامُ فِي الْمَعْرِفَاتِ وَالْحُدُودِ إِذِ الْمَطْلُوبُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ
 الْيَقِينُ لَوْجُوبِ الْمَطَابَقَةِ بَيْنَ الْحَدِّ وَالْحُدُودِ لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَ مَا فَلِذَلِكَ اخْتَصَّتْ
 عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِهَذَا الْكِتَابِ . وَالْخَامِسُ كِتَابُ الْجَدَلِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الْمَفِيدُ قَطَعَ
 الْمَشَاغِبَ وَإِفْهَامَ الْخُصْمِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ وَيُخْتَصُّ أَيْضًا
 مِنْ جِهَةِ إِفَادَتِهِ لِهَذَا الْعَرَضِ بِشُرُوطٍ أُخْرَى مِنْ حَيْثُ إِفَادَتُهُ لِهَذَا الْعَرَضِ وَهِيَ
 مَذْكَورَةٌ هُنَاكَ وَفِي هَذَا الْكِتَابِ يُذَكَّرُ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا صَاحِبُ الْقِيَاسِ
 قِيَاسَهُ وَفِيهِ عُمُوسُ الْقَضَايَا . وَالسَّادِسُ كِتَابُ السَّفْسَطَةِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي يُفِيدُ
 خِلَافَ الْحَقِّ وَيُغَالِطُ بِهِ الْمُنَاطِرُ صَاحِبَهُ وَهُوَ فَاسِدٌ وَهَذَا إِنَّمَا كَتَبْتُ لِيُعْرَفَ بِهِ
 الْقِيَاسُ الْمَغَالِطِيُّ فَيُعَدُّ مِنْهُ . وَالسَّابِعُ كِتَابُ الْخِطَابَةِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الْمَفِيدُ تَرْغِيبَ
 الْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى الْمِرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالَاتِ . وَالثَّامِنُ
 كِتَابُ الشَّعْرِ وَهُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي يُفِيدُ التَّمَثِيلَ وَالنَّشِيهَ خَاصَّةً لِلِاقْبَالِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ
 النُّفُورِ عَنْهُ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْقَضَايَا الْخَيْلِيَّةِ هَذِهِ هِيَ كِتَابُ الْمَنْطِقِيِّ
 الثَّمَانِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ ثُمَّ إِنَّ حُكَمَاءَ الْيُونَانِيِّينَ بَعْدَ أَنْ تَهَدَّبَتِ الصَّنَاعَةُ وَرُبِّتَتْ
 رَأُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْكَلِمَاتِ الْخَمْسِ الْمَفِيدَةِ لِلتَّصَوُّرِ فَاسْتَدْرَكُوا فِيهَا
 مَقَالَةً يُخْتَصُّ بِهَا مَقْدَمَةٌ بَيْنَ يَدَيِ الْفَنِّ فَصَارَتْ تِسْعًا وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
 وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلِاسْفَةِ الْإِسْلَامِ بِالشَّرْحِ وَالتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ الْفَارَابِيُّ وَأَبْنُ سِينَا
 ثُمَّ ابْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلِاسْفَةِ الْأَنْدَلُسِ وَابْنُ سِينَا كِتَابُ الشِّفَاءِ اسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ
 السَّبْعَةِ كُلِّهَا ثُمَّ جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا أَصْطِلَاحَ الْمَنْطِقِيِّ وَالْحَقُوقَ بِالنَّظَرِ فِي الْكَلِمَاتِ
 الْخَمْسِ ثَمَرَتَهُ وَهِيَ الْكَلَامُ فِي الْحُدُودِ وَالرُّسُومِ نَقَلُوهَا مِنْ كِتَابِ الْبُرْهَانِ وَحَدِّقُوا
 كِتَابَ الْمَقُولَاتِ لِأَنَّ نَظَرَ الْمَنْطِقِيِّ فِيهِ بِالْعَرَضِ لَا بِالذَّاتِ وَالْحَقُوقَ فِي كِتَابِ الْعِبَارَةِ
 الْكَلَامِ فِي الْعَكْسِ لِأَنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ الْكَلَامِ فِي الْقَضَايَا بِبَعْضِ الْوُجُوهِ ثُمَّ تَكَلَّمُوا
 فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِتْجَاهُهُ لِلْمَطَالِبِ عَلَى الْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَدِّقُوا النَّظَرَ فِيهِ

بِحَسَبِ الْمَادَّةِ وَهِيَ الْكُتُبُ الْخَمْسَةُ الْبُرْهَانُ وَالْجُدَلُ وَالْحِطَابَةُ وَالشَّعْرُ وَالسَّفْسَفَةُ
وَرُبَّمَا يَلْمُ بَعْضُهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنْهَا الْمَامَا وَأَعْمَلُوهَا كَانَ لَمْ تَكُنْ هِيَ الْمَهْمُ الْمُعْتَمَدُ
فِي الْفَنِّ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِيهَا وَضَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا مُسْتَبْجِرًا وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ
قَدْ بَرَأَ سِوَهُ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلهُ لِلْعُلُومِ فَطَالَ الْكَلَامُ فِيهِ وَاتَّسَعَ وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ
ذَلِكَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ الْدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ وَمِنْ بَعْدِهِ أَفْضَلُ الدِّينِ الْخَوَنَسَرِيُّ وَعَلَى كُتُبِهِ
مُعْتَمَدُ الْمَشَارِقَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَهُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابُ كَشْفِ الْأَسْرَارِ وَهُوَ طَوِيلٌ
وَأَخْتَصَرَ فِيهَا مَخْتَصَرَ الْمَوْجِزِ وَهُوَ حَسَنٌ فِي التَّعْلِيمِ ثُمَّ مَخْتَصَرَ الْجَمَلِ فِي قَدْرِ أَرْبَعَةِ
أَوْزَاقٍ أَخَذَ بِجَمَاعِ الْفَنِّ وَأَصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ وَهَجَرَتْ
كُتُبُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَطَرَفُوهُمْ كَانَ لَمْ تَكُنْ وَهِيَ مُمْتَلِئَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ الْمُنْطِقِ وَقَائِدَتِهِ
كَمَا قَلْنَاهُ وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَبْتَغِي عَنِ الْجِسْمِ مِنْ جِهَةٍ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ فَيَنْظُرُ فِي
الْأَجْسَامِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مِنْ حَيَوَانَ وَإِنْسَانَ وَنَبَاتٍ وَمَعْدِنٍ وَمَا
يَتَكَوَّنُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعُيُونِ وَالزَّلَازِلِ وَفِي الْجَوْوِ مِنَ السَّحَابِ وَالْبُخَارِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ
وَالصَّوَاعِقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفِي مَبْدَأِ الْحَرَكَةِ لِلْأَجْسَامِ وَهُوَ عَلَى تَنَوُّعِهَا فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ
وَالنَّبَاتِ وَكُتِبَ أَرِسْطُو فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ تُرْجِمَتْ مَعَ مَا تُرْجِمُ مِنْ عُلُومِ
الْفَلَسَفَةِ أَيَّامَ الْمَامُونِ وَالْفَتْ النَّاسُ عَلَى حَذْوِهَا وَأَوْعِبَ مِنَ الْفَتْ فِي ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي
كِتَابِ الشِّفَاءِ جَمَعَ فِيهِ الْعُلُومَ السَّبْعَةَ لِلْفَلَسَفَةِ كَمَا قَدَّمْنَا ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ الذِّجَا وَفِي
كِتَابِ الْإِشَارَاتِ وَكَانَتْ يَخَالَفُ أَرِسْطُو فِي الْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِهَا وَيَقُولُ بِرَأْيِهِ فِيهَا
وَأَمَّا ابْنُ رُشْدٍ فَلَخَّصَ كُتُبَ أَرِسْطُو وَشَرَحَهَا مُتَّبِعًا لَهُ غَيْرَ مُخَالَفٍ وَالْفَتْ النَّاسُ فِي ذَلِكَ
كَثِيرًا لَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَالْمُعْتَبَرَةُ فِي الصَّنَاعَةِ وَلِأَهْلِ الْمَشْرِقِ عِنَايَةٌ
بِكِتَابِ الْإِشَارَاتِ لِابْنِ سِينَا وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ عَلَيْهِ شَرْحٌ حَسَنٌ وَكَذَا الْآمِدِيُّ
وَشَرَحَهُ أَيضًا نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ الْمَعْرُوفُ بِخَوَاجِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَبَحَثَ مَعَ
الْإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَبِحُجُوئِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل التاسع عشر

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ الطَّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرُضُ وَيَصِحُّ فَيُكَاوِلُ صَاحِبَهَا حِفْظَ الصِّحَّةِ وَبُرْءَ الْمَرَضِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْدِيَةِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْصُّ كُلَّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ وَأَسْبَابَ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَلْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَزْجَةِ الْأَدْوِيَةِ وَقُوَاهَا وَعَلَى الْمَرَضِ بِالْعَلَامَاتِ الْمُؤَدِّيَةِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ الدَّوَاءَ أَوَّلًا فِي السَّخِيَّةِ وَالْفَضَلَاتِ وَالنَّبْضِ مُحَازِينَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ فِي حَالَتِي الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَإِنَّمَا الطَّبِيبُ يُحَازِيهَا وَيُعِينُهَا بَعْضَ الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ وَالْفَضْلِ وَالسِّنِّ وَيُسَمَّى الْعِلْمُ الْجَامِعُ لِهَذَا كِلَيْهِ عِلْمُ الطَّبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ الْأَعْضَاءِ بِالْكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًّا كَالْعَيْنِ وَعِلَالِهَا وَكُنْهَالِهَا وَكَذَلِكَ الْحُقُوقُ بِالْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا الْمَنْفَعَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ الْحَيَوَانِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضِعِ عِلْمِ الطَّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِذَا هَذِهِ الصَّنَاعَةُ الَّتِي تُرِجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ الْأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصَقِيَّةٍ فِي سَبِيلِ نَعَابٍ وَهُطَاوَعَةٍ أَعْتَرَبَ وَتَأَلَّفَهُ فِيهَا هِيَ الْأَهْبَاتُ الَّتِي أَقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أئِمَّةٌ جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ الْغَالِيَةِ مِثْلَ الرَّازِيِّ وَالْحُجُومِيِّ وَأَبْنِ سِينَا وَمَنْ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ وَأَشْهَرُهُمْ أَبُو زُهْرٍ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمَدِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لَوْفُوفِ الْعُمُرَانِ وَتَنَاقَصِهِ وَهِيَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحِزَازَةُ وَالتَّرْفُ كَمَا نَبَّهَهُ بَعْدُ وَاللَّهَادِيَّةُ مِنَ أَهْلِ الْعُمُرَانِ طِبُّ بِنُونَةَ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ عَلَى تَجْرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ مُتَوَارِثًا عَنْ مَشَايخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ الْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونِ طَبِيعِيِّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ الدَّرَاجِ وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ هَذَا الطَّبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءٌ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ وَالطَّبُّ الْمَنْقُولُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيًّا لِلْعَرَبِ وَوَقَعَ فِي

ذَكَرَ أَحْوَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْعٍ ذَكَرَ أَحْوَالَ النَّبِيِّ هِيَ عَادَةٌ وَجِبَلَةٌ
لَا مِنْ جِهَةٍ أَنَّ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا
بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا الشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ الطَّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْعَادِيَّاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي
شَأْنِ تَلْفِيحِ النَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنْ
الطَّبِّ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ
اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمِلَ عَلَى جِهَةِ التَّبَرُّكِ وَصَدَقَ الْعَقْدُ الْإِيمَانِي فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ
عَظِيمٌ فِي النَّفْعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الطَّبِّ الْمَزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ الْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ
كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ الْمَبْطُونِ بِالْعَسَلِ وَاللَّهُ أَلْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العشرون

في الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ النَّظَرُ فِي النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَّتُهُ وَنُشُؤُهُ
بِالسَّقْفِيِّ وَالْعِلَاجِ وَتَعَدُّهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ النَّظَرُ
فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ
وَمَشَاكَلِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ وَالْمُهَيَّاكِلِ الْمُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ السِّخْرِ
فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَتُرْجِمَ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ الْفَلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ
مَنْسُوبَةٌ لِعُلَمَاءِ النَّبَطِ مُشْتَمَلَةٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ الْمِلَّةِ فِيمَا اشْتَمَلَ
عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ السِّخْرِ مَسْدُودًا وَالنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا فَأَقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى
الْكَلَامِ فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَعْزُرُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَدَفُوا الْكَلَامَ
فِي الْفَنِّ الْآخَرَ مِنْهُ جُمْلَةً وَأَخْتَصَرَ ابْنُ الْعَوَّامِ كِتَابَ الْفَلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ عَلَى هَذَا
الْمَنْهَاجِ وَبَقِيَ الْفَنُّ الْآخَرُ مِنْهُ مُقْفَلًا نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةٌ فِي كُتُبِهِ السِّخْرِيَّةِ أَهْمِيَّاتٍ مِنْ
مَسَائِلِهِ كَمَا نَذَرُوهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى السِّخْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَكُتِبَ الْمُنْتَخَرِينَ
فِي الْفَلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْذُونَ فِيهَا الْكَلَامُ فِي الْغَرَّاسِ وَالْعِلَاجِ وَحَفِظَ النَّبَاتِ مِنْ
حَوَائِجِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعْزُرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وهو علم ينظر في الوجود المطلق فأولاً في الأمور العامة للجسمانيات والرؤحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها رؤحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وأن ذلك عين السعادة في زعمهم وسبب الرذ عليهم وهو تال للطبيعات في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الأول فيه موجوداً بين أيدي الناس ولخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والتبعا وكذلك لخصه ابن رشد من حكماء الأندلس ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوها فذا واحداً قدموا الكلام في الأمور العامة ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالرؤحانيات وتوابعها إلى آخر العلم كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث المشرفية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كان الغرض من موضوعيهما ومسائلهما واحد والتبس ذلك على الناس وهو صواب لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه بمعنى أنها لا تثبت إلا به فإن العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرص صحيحة بالأدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لإتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية

فَهِىَ فَوْقَهَا وَحِيْطَةٌ بِهَا لِاسْتِمْدَادِهَا مِنَ الْاَنْوَارِ الْاِلَهِيَّةِ فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ قَانُونِ النَّظْرِ الضَّعِيْفِ وَالْمَدَارِكِ الْحَاظِ بِهَا فَاِذَا هَدَانَا الشَّارِعُ اِلَى مَدْرِكٍ فَيَنْبَغِيْ اَنْ نَّقْدِمَهُ عَلَى مَدَارِكِنَا وَنَتَّقِ بِهِ دُونَهَا وَلَا نَنْظُرَ فِي تَصْحِيْحِهِ مَدَارِكِ الْعَقْلِ وَلَوْ عَارِضَةً بَلْ نَعْتَمِدُ مَا اَمَرْنَا بِهِ اِعْتِقَادًا وَعِلْمًا وَنَسَكْتُ عَمَّا لَمْ نَفْهَمْ مِنْ ذَلِكَ وَنَتَوَضَّعُ اِلَى الشَّارِعِ وَنَعَزِلُ الْعَقْلَ عَنْهُ وَالْمَتَكَلِّمُونَ اِنَّمَا دَعَاؤُهُمْ اِلَى ذَلِكَ كَلَامُ اَهْلِ الْاِلْحَادِ فِي مُعَارَضَاتِ الْعُقَايِدِ السَّلْفِيَّةِ بِالْبِدْعِ النَّظْرِيَّةِ فَاحْتَاجُوا اِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مِنْ جِنْسِ مُعَارَضَاتِهِمْ وَاسْتَدْعَى ذَلِكَ الْحُجُجَ النَّظْرِيَّةَ وَتَحَاذَاةَ الْعُقَايِدِ السَّلْفِيَّةِ بِهَا وَاَمَّا النَّظْرُ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْاِلَهِيَّاتِ بِالْتَّصْحِيْحِ وَالْبُطْلَانِ فَيَلْسَنُ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَلَا مِنْ جِنْسِ اَنْظَارِ الْمَتَكَلِّمِينَ فَاَعْلَمُ ذَلِكَ لِتَمَيِّزِ بِهِ بَيْنَ الْفَنَيْنِ فَاِنَّهُمَا مُخْتَلِطَانِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْوَضْعِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْحَقِّ مُعَايِرَةٌ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالْمَسَائِلِ وَاِنَّمَا جَاءَ الْاَلْتِبَاسُ مِنْ اتِّحَادِ الْمَطَالِبِ عِنْدَ الْاِسْتِدْلَالِ وَصَارَ اِحْتِجَاجُ اَهْلِ الْكَلَامِ كَانَهُ اِنْشَاءً لَطَلَبِ الْاِعْتِدَادِ بِالِدَّلِيلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ اِنَّمَا هُوَ رُدٌّ عَلَى الْمُتَحِدِّينَ وَالْمَطْلُوبُ مَفْرُوضُ الصِّدْقِ مَعْلُومُهُ وَكَذَا جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ غَلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمَتَكَلِّمِينَ بِالْمَوْجِدِ اَيْضًا فَخَاطَبُوا مَسَائِلَ الْفَنَيْنِ بَيْنَهُمْ وَجَعَلُوا الْكَلَامَ وَاَحَدًا فِيهَا كَلِمًا مِثْلَ كَلَامِهِمْ فِي النُّبُوَّاتِ وَالْاِتِّحَادِ وَالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالْمَدَارِكُ فِي هَذِهِ الْفَنُونِ الثَّلَاثَةِ مُتَعَايِرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ وَاَبْعَدُهَا مِنْ جِنْسِ الْفَنُونِ وَالْعُلُومِ مَدَارِكُ الْمُتَصَوِّفَةِ لِاَنَّهُمْ يَدَّعُونَ فِيهَا الْوُجْدَانَ وَيَفْرُونَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْوُجْدَانَ بَعِيدٌ عَنِ الْمَدَارِكِ الْعِلْمِيَّةِ وَابْجَانُهَا وَتَوَابِعُهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ وَنَبِّدْنَاهُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ اِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ وَاللَّهُ اَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وَهِيَ عُلُومٌ بِكَيْفِيَّةِ اسْتِعْدَادَاتِ تَقْتَدِرُ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ بِهَا عَلَى التَّأَثِيرَاتِ فِي عَالَمِ الْعَنَاصِرِ اِمَّا بِغَيْرِ مَعِينٍ اَوْ بِمَعِينٍ مِنَ الْاُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْاَوَّلُ هُوَ السِّحْرُ وَالتَّانِي هُوَ الطَّلَسْمَاتُ وَاَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ مَهْجُورَةً عِنْدَ الشَّرَائِعِ لَمَّا فِيهَا مِنَ الضَّرَرِ وَلَا يَشْتَرِطُ فِيهَا مِنَ الْوُجُوبَةِ اِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ كَوْكَبٍ اَوْ غَيْرِهِ كَانَتْ كُتُبُهَا كَالْمَقْفُودَةِ بَيْنَ النَّاسِ

الْأَمَا وَجَدَ فِي كُتُبِ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ فِيمَا قَبَلَ نُبُوَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ النَّبِطِ
 وَالْكَلدَانِيِّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ أَدَّعَى مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَشْرَعُوا الشَّرَائِعَ وَلَا جَاءُوا بِالْأَحْكَامِ
 إِتْمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظَ وَتَوْحِيدًا لِلَّهِ وَتَدْكِيرًا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ
 فِي أَهْلِ بَابِلَ مِنَ السَّرْيَانِيِّينَ وَالْكَلدَانِيِّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرَ مِنَ الْقِبْطِ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ
 لَهُمْ فِيهَا التَّلَافُيفُ وَالْأَتَارُ وَلَمْ يَبْرَحْ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلَ الْفَلَاحَةِ
 النَّبْطِيَّةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِلَ فَأَخَذَ النَّاسُ مِنْهَا هَذَا الْعِلْمَ وَتَفَنَّنُوا فِيهِ وَوَضَعَتْ بَعْدَ
 ذَلِكَ الْأَوْضَاعُ مِثْلَ مَصَاحِفِ الْكُوكَبِ السَّبْعَةِ وَكِتَابِ طَمْطَمِ الْهِنْدِيِّ فِي صُورِ
 الدَّرَجِ وَالْكَوكَبِ وَغَيْرِهَا ثُمَّ ظَهَرَ بِالْمَشْرِقِ جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ كَبِيرُ السَّحْرَةِ فِي هَذِهِ
 الْعِلْمَةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ الْقَوْمِ وَاسْتَخْرَجَ الصَّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي زَبَدِهَا وَاسْتَحْرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا
 غَيْرَهَا مِنَ التَّلَافِيفِ وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي صِنَاعَةِ السِّمِّيَاءِ لِأَنَّهَا مِنْ تَوَاعِيهَا لِأَنَّ
 أَحَالَه الْأَجْسَامِ النَّوْعِيَّةِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى إِتْمَا يَكُونُ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ لَا بِالصَّنَاعَةِ
 الْعَمَلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ السَّحْرِ كَمَا نَدَّ كُرُهُ فِي مَوْضِعِهِ ثُمَّ جَاءَ مُسَلِّمَةُ بْنُ أَحْمَدَ
 السَّجَرِيُّ إِمَامُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي التَّعَالِيمِ وَالسَّحَرِيَّاتِ فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلْكَ الْكُتُبِ
 وَهَدَّيَهَا وَجَمَعَ طُرُقَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ الْحَكِيمِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هَذَا
 الْعِلْمِ بَعْدَهُ . وَلَقَدْ قَدَّمَ هُنَا مَقْدَمَةً يَبِينُ بِهَا حَقِيقَةَ السَّحْرِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ
 وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِّ وَهِيَ أَصْنَافُ كُلِّ صِنْفٍ مُخْتَصِّ
 بِخَاصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِالنَّوْعِ لَا تُوْجَدُ فِي الصَّنْفِ الْأُخْرَى وَصَارَتْ تِلْكَ الْخَوَاصُّ فِطْرَةً وَجِبَلَةً
 لَصِنْفِهَا فَنَفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهَا خَاصِيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ
 وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ وَمَا يَتَسَعُّ فِي ذَلِكَ
 مِنَ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَاسْتِخْلَابِ رُوحَانِيَّةِ الْكُوكَبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا وَالتَّأثيرِ
 بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ فَأَمَّا تَأثيرُ الْأَنْبِيَاءِ فَمَدَدُ الْهَيْبَةِ وَخَاصِيَّةُ رَبَّانِيَّةٍ وَنَفُوسُ
 الْكُهْنَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ الْأَطْلَاعِ عَلَى الْمَغْيِبَاتِ بِقُوَّةِ شَيْطَانِيَّةٍ وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ
 مُخْتَصِّ بِخَاصِيَّةٍ لَا تُوْجَدُ فِي الْأُخْرَى وَالتَّنفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ يَأْتِي شَرْحُهَا
 فَأُولَئِهَا الْمُؤَثَّرَةُ بِالْهَيْمَةِ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مَعِينٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْفَلَسَفَةُ
 السَّحْرَ وَالتَّأثيرَ بِمَعِينٍ مِنْ مَزَاجِ الْأَفْلَاقِ أَوِ الْعُنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِّ الْأَعْيَادِ وَيُسَمُّونَهُ

الطَّلَسَمَاتِ وَهُوَ أَوْضَعُ رُبَّمَا مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثُ تَأْثِيرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ يَعْمَدُ صَاحِبُ
 هَذَا التَّأْثِيرِ إِلَى الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعًا
 مِنَ الْخَيَالَاتِ وَالْمَحَاكَاةِ وَضُورًا مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْزِلُهَا إِلَى الْحَسِّ مِنَ الرَّائِبِينَ
 بِقُوَّةِ نَفْسِهِ الْمُؤَثَّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرَّائُونَ كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا
 يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرَى الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَيُسَمَّى
 هَذَا عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ السُّعُودَةَ أَوِ الشَّعْبَدَةَ . هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِمِهِ ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ تَكُونُ
 فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ شَأْنُ الْقُوَى الشَّرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إِلَى النُّعْلِ بِالرِّيَاضَةِ وَرِيَاضَةُ
 السِّحْرِ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ وَالشَّيَاطِينِ
 بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فَيُحْيِي لِذَلِكَ وَجْهَةً إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَسُجُودًا
 لَهُ وَالتَّوَجُّهَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرًا فَلِهَذَا كَانَ السِّحْرُ كُفْرًا وَالتَّكْفِيرُ مِنْ مَوَادِّهِ وَأَسْبَابِهِ
 كَمَا رَأَيْتَ وَلهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ لِكُفْرِهِ السَّابِقِ عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِمُتَصَرِّفِهِ
 بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْكُلُّ حَاصِلٌ مِنْهُ وَلَمَّا كَانَتْ
 الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السِّحْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ الْأَخِيرَةُ الثَّلَاثَةُ لَا حَقِيقَةَ
 لَهَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السِّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ
 نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّلَاثَةِ
 الْأَخِيرَةِ فَلَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ اسْتِبْطَائِهِ هَذِهِ
 الْمَرَاتِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ وُجُودَ السِّحْرِ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأْثِيرِ
 الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ
 النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ
 حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
 وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَسُحَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى
 كَانَ يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ وَجَعَلَ سِحْرَهُ فِي مِشْطٍ وَمِشَافَةٍ وَجَفَّتْ طَاعَةُ
 وَدُفِنَ فِي بَيْتِ زِرْوَانَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي الْمَعْوَدَتَيْنِ وَمِنْ سَرِّ النَّفَاثَاتِ فِي
 الْعُقَدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعُقَدِ الَّتِي سُحِّرَ فِيهَا
 إِلَّا انْحَلَّتْ وَمَا وُجُودَ السِّحْرِ فِي أَهْلِ بَابِلَ وَهُمْ الْكَلْدَانِيُّونَ مِنَ النَّبْطِ وَالسَّرْيَانِيُّونَ

فَكثِيرٌ وَنَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَجَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَكَانَ لِلسَّحْرِ فِي بَابِلَ وَمَصْرَ أَرْزَانِ بَعَثَهُ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْوَأَ نَافِقَةً وَلِهَذَا كَانَتْ مُعْجِزَةً مُوسَى مِنْ جِنْسٍ مَا يَدْعُونَ وَيَتَنَاعُونَ
فِيهِ وَيَقِي مِنْ آثَارِ ذَلِكَ فِي الْبَرَارِيِّ بِصَعِيدِ مَصْرَ شَوَاهِدٌ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَرَأَيْنَا بِالْعِيَانِ
مَنْ يَصُورُ صُورَةَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ بِمُخَوَّصِ أَشْيَاءٍ مُقَابِلَةً لِمَا نَوَاهُ وَحَاوَلَهُ مَوْجُودَةً
بِالْمَسْحُورِ وَأَمثالُ تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ أَسْمَاءِ وَصَفَاتٍ فِي التَّأْلِيفِ وَالتَّفْرِيقِ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ
عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي أَقَامَهَا مَقَامَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ عَيْنًا أَوْ مَعْنَى ثُمَّ يَنْفُثُ مِنْ رِيقِهِ
بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ فِيهِ بِتَكْرِيرِ مَخَارِجِ تِلْكَ الْحُرُوفِ مِنَ الْكَلَامِ السُّوءِ وَيَعْقُدُ عَلَى
ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي سَبَبِ أَعْدِهِ لِذَلِكَ تَفَاوُلًا بِالْعَقْدِ وَاللِّزَامِ وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ
بِهِ مِنَ الْجِنِّ فِي نَفْسِهِ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ اسْتِشْعَارًا لِلْعَزِيمَةِ بِالْعَزْمِ وَلِتِلْكَ الْبَيْتَةِ وَالْأَسْمَاءِ
السَّيِّئَةِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ تَخْرُجُ مِنْهُ مَعَ النَّفْثِ مُتَعَلِّقَةٌ بِرِيقِهِ أَخْرَاجَ مِنْ فِيهِ بِالْثَفْتِ فَتَنْزِلُ
عَنْهَا أَرْوَاحٌ خَبِيثَةٌ وَيَقَعُ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَسْحُورِ مَا يَحَاوِلُهُ السَّاحِرُ وَشَاهِدُنَا أَيْضًا مِنْ
الْمُنْتَحِلِينَ لِلسَّحْرِ وَعَمَلِهِ مِنْ يُشِيرُ إِلَى كِسَاءٍ أَوْ جِلْدٍ وَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ فَإِذَا
هُوَ مَقْطُوعٌ مُتَحَرِّقٌ وَيُشِيرُ إِلَى بَطُونِ الْعَنَمِ كَذَلِكَ فِي مَرَاعِيهَا بِالْبَعْجِ فَإِذَا أَمَعَاوَهَا سَاقِطَةٌ
مِنْ بَطُونِهَا إِلَى الْأَرْضِ وَسَمِعْنَا أَنَّ بَارِضَ الْهِنْدِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ يُشِيرُ إِلَى الْإِنْسَانِ فَيَمْتَحِتُ
قَلْبَهُ وَيَقَعُ مَيْتًا وَيَنْقَلِبُ عَنْ قَلْبِهِ فَلَا يُوْجَدُ فِي حَشَاهُ وَيُشِيرُ إِلَى الرُّمَانَةِ وَتَمْتَحُ فَلَا
يُوْجَدُ مِنْ جُوبِهَا شَيْءٌ وَكَذَلِكَ سَمِعْنَا أَنَّ بَارِضَ السُّودَانِ وَأَرْضَ التُّرْكِ مَنْ يَسْحَرُ
السَّحَابَ فَيَمْطُرُ الْأَرْضَ الْمَخْصُوصَةَ وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا مِنْ عَمَلِ الطَّلِسْمَاتِ عَجَابَ فِي
الْأَعْدَادِ الْمُتَحَابَّةِ وَهِيَ رَكْرَكُ رَفْدِ أَحَدِ الْعَدَدَيْنِ مَائَتَانِ وَعِشْرُونَ وَالْآخَرَ مَائَتَانِ
وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ وَمَعْنَى الْمُتَحَابَّةِ أَنَّ أَجْزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ الَّتِي فِيهِ مِنْ نِصْفِ وَثَلْثٍ
وَرُبْعٍ وَسُدُسٍ وَخُمْسٍ وَأَمثالُهَا إِذَا جُمِعَ كَانَتْ مُتَسَاوِيًا لِلْعَدَدِ الْآخَرَ صَاحِبِهِ فَتَسْمَى
لِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُتَحَابَّةِ وَقَالَ أَصْحَابُ الطَّلِسْمَاتِ أَنَّ لِتِلْكَ الْأَعْدَادِ اثْرًا فِي الْإِلْفَةِ بَيْنَ
الْمُتَحَابِّينَ وَاجْتِمَاعِهِمَا إِذَا وَضِعَ لِهَئِمَا مِثْلَانِ أَحَدُهُمَا بِطَالِعِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ فِي بَيْتِهَا أَوْ
شَرَفِهَا نَاطِرَةٌ إِلَى الْقَمَرِ نَظَرٌ مُودَّةٌ وَقَبُولٌ وَيَجْعَلُ طَالِعُ الثَّانِي سَابِعَ الْأَوَّلِ وَيَضَعُ عَلَى
أَحَدِ التَّمَثَلِينَ أَحَدَ الْعَدَدَيْنِ وَالْآخَرَ عَلَى الْآخَرَ وَيَقْصُدُ بِالْأَكْثَرِ الَّذِي يُرَادُ
الْمُتَلَفَهُ أَعْنَى الْمَحْبُوبِ مَا أَدْرِي الْأَكْثَرَ كَمِيَّةً أَوْ الْأَكْثَرَ أَجْزَاءً فَيَكُونُ لِذَلِكَ

مِنَ النَّائِفِ الْعَظِيمِ بَيْنَ الْمُحْتَابِينَ مَا لَا يَكَادُ يَنْتَكُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخِرِ قَالَ صَاحِبُ
 الْعَايَةِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجْرِبَةُ وَكَذَا طَابِعِ الْأَسَدِ وَيَسْمَى
 أَيْضًا طَابِعِ الْحُصَى وَهُوَ أَنْ يُرْسَمَ فِي قَالِبِ هِنْدٍ اصْبَعُ صُورَةَ أُسَدٍ شَائِلًا ذَنْبَهُ عَاضًا عَلَى
 حِصَاةٍ فَيُقَسَّمُهَا بِبَنَفَيْنِ وَيَبِينُ بِيَدَيْهِ صُورَةَ حَيَّةٍ مُنْسَابَةٍ مِنْ رِجَالِهِ إِلَى قِبَالَةِ وَجْهِهِ
 فَاغْرَزَهُ فَاكَمَا فِيهِ وَعَلَى ظَهْرِهِ صُورَةَ عَقْرَبٍ تَدْبُ وَيَتَحَيَّنُ بِرِسْمِهِ حُلُولِ الشَّمْسِ بِالْوَجْهِ
 الْأَوَّلِ أَوْ الثَّلَاثِ مِنَ الْأَسَدِ بِشَرَطِ صَلَاحِ النَّيْرَيْنِ وَسَلَامَتَيْهِمَا مِنَ النُّحُوسِ فَإِذَا
 وَجَدَ ذَلِكَ وَعَتَّرَ عَلَيْهِ طَبِيعَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مِقْدَارِ الْمِثْقَالِ فَمَا دُونَهُ مِنَ الذَّهَبِ
 وَغَمَسَ بَعْدُ فِي الزَّرْعَفَرَانِ مَحْمُولًا بِمَاءِ الْوَرْدِ وَرَفِيعَ فِي خَرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ فَإِنَّهُمْ يَزْعَمُونَ
 أَنْ لِمُسْكِهِ مِنَ الْعَزِّ عَلَى السَّلَاطِينِ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ وَخِدْمَتِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ لَهُ مَا لَا
 يُعْبَرُ وَكَذَلِكَ لِلْسَّلَاطِينِ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعَزِّ عَلَى مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ذَكَرَ ذَلِكَ
 أَيْضًا أَهْلُ هَذَا الشَّانِ فِي الْعَايَةِ وَغَيْرِهَا وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجْرِبَةُ وَكَذَلِكَ وَفَقِ الْمَسْدَسُ
 الْمُخْتَصَّ بِالشَّمْسِ ذَكَرُوا أَنَّهُ يُوضَعُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ فِي شَرْفِهَا وَسَلَامَتِهَا
 مِنَ النُّحُوسِ وَسَلَامَةِ الْقَمَرِ بِطَالِعِ مُلُوكِيٍّ يُعْتَبَرُ فِيهِ نَظَرُ صَاحِبِ الْعَاشِرِ لِصَاحِبِ
 الطَّالِعِ نَظَرُ مَوَدَّةٍ وَقَبُولٍ وَيَصْلُحُ فِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَوَالِيدِ الْمُلُوكِ مِنَ الْأَدَلَّةِ
 الشَّرِيفَةِ وَيُرْفَعُ فِي خَرْقَةٍ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ بَعْدَ أَنْ يُغَمَسَ فِي الطَّيِّبِ فزَعَمُوا أَنَّ لَهُ أَثَرَ فِي
 صَحَابَةِ الْمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ وَأَمثالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَكِتَابُ الْعَايَةِ لِمَسَامَةَ بْنِ
 أَحْمَدَ النَّجْرِيِّ هُوَ مَدُونَةٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَفِيهِ اسْتِنْفَاؤُهَا وَكَمَالُ مَسَائِلِهَا وَذَكَرَ لَنَا
 أَنَّ الْإِمَامَ النَّجَّارَ بْنَ الْحَطِيبِ وَضَعَ كِتَابًا فِي ذَلِكَ وَسَمَّاهُ بِالسَّرِّ الْمَكْنُونِ وَأَنَّهُ
 بِالْمَشْرِقِ يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُهُ وَتَحْنُ لَمْ تَقَفْ عَلَيْهِ وَالْإِمَامُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ
 فِيمَا نَظَنُّ وَلَعَلَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَبِالْمَغْرِبِ صَنَّفَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَلِّلِينَ لَهُدِيهِ
 الْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةَ يُعْرَفُونَ بِالْبَعَاجِينِ وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرْتُ أَوَّلًا أَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى
 الْكِسَاءِ أَوْ الْجِلْدِ فَيَتَخَرَّقُونَ وَيُشِيرُونَ إِلَى بَطُونِ الْغَنَمِ بِالْبَعْجِ فَتَبْعُجُ وَيَسْمَى أَحَدُهُمْ
 هَذَا الْعَبْدُ بِاسْمِ الْبَعَاجِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَجِلُ مِنَ السَّحَرِ بَعْجُ الْأَنْعَامِ يُرْهَبُ بِذَلِكَ
 أَهْلُهَا لِيُعْطَوْهُ مِنْ فِضَائِلِهَا وَهُمْ مُسْتَبْرُونَ بِذَلِكَ فِي الْعَايَةِ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَحْكَامِ
 لِقِيَتِ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَشَاهَدَتْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هَذِهِ بِذَلِكَ وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وَجْهَةً وَرِيَاضَةً

خَاصَّةٌ بِدَعْوَاتٍ كُفْرِيَّةٍ وَإِشْرَاكِ الرُّوحَانِيَّاتِ الْجِنِّ وَالْكُوكِبِ سَطَرَتْ فِيهَا صَحِيفَةٌ
 عِنْدَهُمْ تُسَمَّى الْخَزِيرِيَّةَ يَتَدَارَسُونَهَا وَأَنَّهُمْ بِهِدِيهِ الرِّيَاضَةِ وَالْوَجْهَةِ بِصَلُونِ إِلَى حُصُولِ هَذِهِ
 الْأَفْعَالِ لَهُمْ وَأَنَّ التَّأثيرَ الَّذِي لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِيهِمَا سِوَى الْإِنْسَانِ الْخَرُّ مِنَ الْمَتَاعِ
 وَالْجَيَّوَانِ وَالرَّقِيقِ وَيُعْبَرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَفَعَلُ فِيهِمَا تَمَشِي فِيهِ الدَّرَاهِمُ أَيَّ مَا
 يَمْلِكُ وَيَبَاعُ وَيَشْتَرِي مِنْ سَائِرِ الْمُتَمَلِّكَاتِ هَذَا مَا زَعَمُوهُ وَسَأَلْتُ بَعْضَهُمْ فَأَخْبَرَنِي
 بِهِ وَأَمَّا أفعالُهُمْ فَظَاهِرَةٌ مُوجِدَةٌ وَقَفْنَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنْهَا وَعَايَنْتُهَا مِنْ غَيْرِ رِيبةٍ فِي
 ذَلِكَ هَذَا شَأْنُ السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَأَثَرُهُمَا فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا الْفَلَّاسِفَةُ فَفَرَّقُوا بَيْنَ
 السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ بَعْدَ أَنْ اتَّبَعُوا أَنَّهُمَا جَمِيعًا أَثَرٌ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَسْتَدَلُّوا عَلَى
 وُجُودِ الْأَثَرِ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِأَنَّ لَهَا أَثَارًا فِي بَدَنِهَا عَلَى غَيْرِ الْمَجْرِي الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ
 الْجِسْمَانِيَّةِ بَلْ أَثَارُ عَارِضَةٌ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْأَرْوَاحِ تَارَةً كَالسُّخُونَةِ الْحَادِثَةِ عَنِ الْفَرَحِ
 وَالسُّرُورِ وَمِنْ جِهَةِ النُّصُورَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أُخْرَى كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ قَبْلِ التَّوَهُمِ فَإِنَّ
 الْمَاشِيَّ عَلَى حَرْفٍ حَائِطٍ أَوْ عَلَى حَبْلٍ مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُمُ السَّقُوطِ سَقَطَ بِلا
 شَكِّ وَهَذَا يَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعُودُونَ أَنفُسَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هَذَا الْوَهُمُ
 فَتَجِدُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى حَرْفِ الْحَائِطِ وَالْحَبْلِ الْمُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ السَّقُوطَ فَتَبَّتْ أَنَّ
 ذَلِكَ مِنْ أَثَارِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَصَوَّرَهَا لِلسَّقُوطِ مِنْ أَجْلِ الْوَهُمِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
 أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْجِسْمَانِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهَا
 مِثْلُ هَذَا الْأَثَرِ فِي غَيْرِ بَدَنِهَا إِذْ نَسَبْتُهَا إِلَى الْأَبْدَانِ فِي ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ
 وَاحِدَةٌ لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَةٍ فِي الْبَدَنِ وَلَا مَنْطِيعَةٍ فِيهِ فَتَبَّتْ أَنَّهَا مُؤَثَّرَةٌ فِي سَائِرِ الْأَجْسَامِ
 وَأَمَّا التَّفَرُّقَةُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ السِّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ فَهُوَ أَنَّ السِّحْرَ لَا يَحْتَاجُ السَّاحِرُ فِيهِ إِلَى
 مُعِينٍ وَصَاحِبِ الطَّلَسْمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ الْكُوكِبِ وَأَسْرَارِ الْأَعْدَادِ وَخَوَاصِ
 الْمَوْجُودَاتِ وَأَوْضَاعِ الْفَلَكَ الْمَوْثُورَةِ فِي عَالَمِ الْعُنَاصِرِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُخَيَّمُونَ وَيَقُولُونَ
 السِّحْرُ اتِّحَادُ رُوحِ بَرُوحٍ وَالطَّلَسْمُ اتِّحَادُ رُوحٍ بِجِسْمٍ وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ رَبْطُ الطَّبِيعِ
 الْعُلَوِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالطَّبِيعِ السُّفَلِيَّةِ وَالطَّبِيعِ الْعُلَوِيَّةِ هِيَ رُوحَانِيَّاتُ الْكُوكِبِ
 وَلِذَلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ بِاللَّجَامَةِ وَالسَّاحِرُ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُكْتَسِبِ لِسِحْرِ
 بَلْ هُوَ مَقْطُوعٌ عِنْدَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْجَبَالَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ وَالْفَرْقُ عِنْدَهُمْ

بَيْنَ الْمُحْجَرَةِ وَالسَّحْرِ أَنَّ الْمُعْجَزَةَ قُوَّةُ الْوَيْبَةِ تَبَعَتْ عَلَى النَّفْسِ ذَلِكَ النَّاتِرَ فَبُوَ مُؤَبَّدٌ
 بِرُوحِ اللَّهِ تَلَى عَلَيْهِ ذَلِكَ وَالسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ النَّفْسَانِيَّةِ
 وَبِإِمْدَادِ الشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا الْفَرْقُ فِي الْعَقُولِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ
 فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِيلُ نَحْنُ عَلَى التَّفَرُّقَةِ بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ وَجُودُ الْمُحْجَرَةِ
 لِصَاحِبِ الْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الْخَيْرِ وَالنَّفُوسِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِلْخَيْرِ وَالتَّعَدِّي بِهَا تَلَى دَعْوَى
 النَّبُوَّةِ وَالسَّحْرِ إِنَّمَا يُوْجَدُ لِصَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أَعْمَالِ الشَّرِّ فِي الْغَالِبِ مِنَ التَّخْرِيقِ بَيْنَ
 الرُّوحَيْنِ وَضَرَرِ الْأَعْدَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَالنَّفُوسِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِلشَّرِّ. هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا
 عِنْدَ الْحُكَمَاءِ الْأَلَوِيِّينَ وَقَدْ يُوْجَدُ لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ الْكِرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضًا
 فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُودًا مِنْ جِنْسِ السَّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالْإِمْدَادِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ
 وَنُحْلَتَهُمْ مِنْ أَثَارِ النَّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي الْمَدَدِ الْإِلَهِيِّ حِفْظٌ عَلَى قَدْرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ
 وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَإِذَا اقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَعْمَالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَّقِدٌ فِيمَا
 يَأْتِيهِ يَدْرُهُ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ فَمَا لَا يَقَعُ لَهُ فِيهِ إِلَّا ذُنُوبًا لَا يَأْتِيهِ بِوَجْهِهِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ
 عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَرُبَّمَا سَلَبَ حَالَهُ وَلَمَّا كَانَتْ الْمُعْجَزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ اللَّهِ وَالْقُوَى
 الْإِلَهِيَّةِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَبْعَثُهَا شَيْءٌ مِنَ السَّحْرِ وَأَنْظُرْ شَأْنَ سَجْرَةَ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي
 مُعْجَزَةِ الْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ يَأْكُونُونَ وَذَهَبَ سَجْرُهُمْ وَأَضْمَحَلَّ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ
 وَكَذَلِكَ لَمَّا أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَعْوَدَيْنِ وَمِنْ شَرِّ الثَّمَنَاتِ فِي
 الْعَقْدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَكَانَ لَا يَقْرَأُ مَا عَلَى عَقْدَةٍ مِنَ الْعَقْدِ الَّتِي سَجَرَ فِيهَا
 إِلَّا انْحَمَّتْ فَالسَّحْرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ نَقَلَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ زَكَرِيَّا
 كَلَّيَانَ وَهِيَ رَايَةٌ كَسَرَى كَانَ فِيهَا الْوُفُقُ الْمَيْيُ الْعَدْرِيُّ مَنْسُوجًا بِالذَّهَبِ فِي أَوْضَاعٍ
 فَلَكِيَّةٍ رُصِدَتْ لِنَدَا الْوُفُقِ وَوُجِدَتْ الرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسُومٌ بِالْأَقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلَى
 الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْهَزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزَعُمُ أَهْلُ الطَّلَسْمَاتِ وَالْأَوْفَاقِ
 مَخْضُوضٌ بِالْغَلَبِ فِي الْخُرُوبِ وَأَنَّ الرَّايَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصْلًا إِلَّا
 أَنَّ هُدَى عَارِضَهَا الْمَدَدُ الْإِلَهِيُّ مِنْ إِيْمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَأَنْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عَقْدِ سَجْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَلَمْ تَفْرُقْ بَيْنَ السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ بَابًا وَاحِدًا مَحْظُورًا

لَانَ الْأَفْعَالِ إِنَّمَا أَبَاحَ لَنَا الشَّارِعُ مِنْهَا مَا يَهْمُنَا فِي دِينِنَا الَّذِي فِيهِ صَلَاحُ آخِرَتِنَا
أَوْ فِي مَعَاشِنَا الَّذِي فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَانَا وَمَا لَا يَهْمُنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا فَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ
أَوْ نَوْعٌ ضَرَرٌ كَالسِّحْرِ الْخَاصِلِ ضَرَرُهُ بِالْوُقُوعِ وَيُلْحِقُ بِهِ الطَّلِسْمَاتُ لِأَنَّ أَثَرَهُمَا وَاحِدٌ
وَكَالْجِمَامَةِ الَّتِي فِيهَا نَوْعٌ ضَرَرٌ بِاعْتِقَادِ التَّأَثُّرِ فَتَفْسُدُ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِرَدِّ الْأُمُورِ
إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَكُونُ حِينئِذٍ ذَلِكَ الْفِعْلُ مَحْظُورًا عَلَى نَسْبَتِهِ فِي الضَّرَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمَا
عَلَيْنَا وَلَا فِيهِ ضَرَرٌ فَلَا أَقْلَ مِنْ تَرْكِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ فَإِنْ مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ
مَا لَا يَعْنِيهِ لَجَعَلَتِ الشَّرِيعَةُ بَابَ السِّحْرِ وَالطَّلِسْمَاتِ وَالشَّعْوَذَةِ بَابًا وَاحِدًا لِمَا فِيهَا مِنَ
الضَّرَرِ وَخَصَّتْهُ بِالْحُظْرِ وَالتَّحْرِيمِ وَأَمَّا الْفَرْقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسِّحْرِ فَالَّذِي
ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّحَدِّيِّ وَهُوَ دَعْوَى وَوُقُوعِهَا عَلَى وَفْقِ مَا أَدْعَاهُ
قَالُوا وَالسَّاحِرُ مَضْرُوفٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّحَدِّيِّ فَلَا يَقَعُ مِنْهُ وَوُقُوعُ الْمُعْجِزَةِ عَلَى وَفْقِ
دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقَلِيَّةٌ لِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا
التَّصَدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ الْكُذْبِ لَاسْتَحَالَ الصَّادِقُ كَازِبًا وَهُوَ مُحَالٌ فَإِذَا لَا نَفْعَ
لِلْمُعْجِزَةِ مَعَ الْكَاذِبِ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا الْحُكْمَاءُ فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ
فَرَقَ مَا بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي نِهَابَةِ الطَّرْفَيْنِ فَالسَّاحِرُ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ الْخَيْرُ وَلَا يَسْتَعْمِلُ
فِي أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَصَاحِبُ الْمُعْجِزَةِ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ الشَّرُّ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الشَّرِّ
وَكَانَهُمَا عَلَى طَرَفِي النَّقِيضِ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِمَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَمَنْ قَبِيلِ هَذِهِ التَّأَثُّرَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ وَهُوَ تَأَثُّرٌ
مِنْ نَفْسِ الْمُعْبِيَانِ عِنْدَمَا يَسْتَحْسِنُ بَعَيْنِهِ مُدْرِكًا مِنَ الذَّوَاتِ أَوْ الْأَحْوَالِ وَيُفْرِطُ فِي
اسْتِحْسَانِهِ وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْاسْتِحْسَانِ حِينئِذٍ أَنَّهُ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ الشَّيْءِ عَمَّنْ
اتَّصَفَ بِهِ فَيُؤَثِّرُ فَسَادَهُ وَهُوَ حِيلَةٌ فِطْرِيَّةٌ أَعْنِي هَذِهِ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا
وَبَيْنَ التَّأَثُّرَاتِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لَا يَكْتَسِبُ فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ فَاعِلِهَا
وَالْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةٌ صُدُورُهَا وَلِهَذَا قَالُوا الْقَاتِلُ بِالسِّحْرِ أَوْ بِالْكَرَامَةِ يَقْتُلُ وَالْقَاتِلُ
بِالْعَيْنِ لَا يَقْتُلُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ يَتْرُكُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُورٌ
فِي صُدُورِهِ عَنْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي الْغُيُوبِ وَمُطَّلَعٌ عَلَى مَا فِي السَّرَائِرِ

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وهو علمٌ يَنْظُرُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا كَوْنُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالصَّنَاعَةِ وَيَسْرَحُ الْعَمَلَ الَّذِي يُوصلُ إِلَى ذَلِكَ فَيَتَصَنَعُونَ الْمَكُونَاتِ كُلَّهَا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْرِ جِثْمِهَا وَقَوَاهَا لَعَلَّهُمْ يَعْذُرُونَ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعْدَّةِ لِذَلِكَ حَتَّى مِنَ الْعَضَلَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْعِظَامِ وَالرِّيشِ وَالْبَيْضِ وَالْعُذْرَاتِ فَضلاً عَنِ الْمَعَادِنِ ثُمَّ يَسْرَحُ الْأَعْمَالَ الَّتِي تَخْرُجُ بِهَا تِلْكَ الْمَادَّةُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ مِثْلَ حَلِّ الْأَجْسَامِ إِلَى أَجْزَائِهَا الطَّبِيعِيَّةِ بِالتَّصْعِيدِ وَالتَّقْطِيرِ وَجَمْدِ الذَّائِبِ مِنْهَا بِالتَّكْلِيسِ وَإِمْبَاءِ الصُّلبِ بِالقَهْرِ وَالصَّلَابَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَفِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِهَذِهِ الصَّنَاعَاتِ كُلَّهَا جِسْمٌ طَبِيعِيٌّ يُسَمُّوهُ الْأَكْسِيرَ وَأنَّهُ يَلْقَى مِنْهُ عَلَى الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ الْمُسْتَعْدِدِ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ بِالْإِسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ مِنَ الْفِعْلِ مِثْلَ الرِّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ وَالثَّحَاسِ بَعْدَ أَنْ يُحْمَى بِالنَّارِ فَيَعُودُ ذَهَباً أَوْ بَرِيزاً وَيَكُونُ عَنْ ذَلِكَ الْأَكْسِيرِ إِذَا الْغَرَوْا فِي أَصْطِلَاحَاتِهِمْ بِالرُّوحِ وَعَنِ الْجِسْمِ الَّذِي يَلْقَى عَلَيْهِ بِالْجَسَدِ فَسْرَحُ هَذِهِ الْأَصْطِلَاحَاتِ وَصُورَةُ هَذَا الْعَمَلِ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي يَقْبَلُ هَذِهِ الْأَجْسَادَ الْمُسْتَعْدَّةَ إِلَى صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ هُوَ عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ وَمَا زَالَ النَّاسُ يُؤَلِّفُونَ فِيهَا قَدِيماً وَحَدِيثاً وَرُبَّمَا يُعْزَى الْكَلَامُ فِيهَا إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا وَإِمَامُ الْمَدُونِيِّينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِنَّهُمْ يُخْصِمُونَهَا بِهِ فَيَسْمَوْنَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ رِسَالَةً كُلُّهَا شَبِيهَةٌ بِالْأَلْغَازِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ مَقْفَلَهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْماً بِجَمِيعِ مَا فِيهَا وَالطُّغْرَاءِيُّ مِنَ حُكَمَاءِ الْمَشْرِقِ الْمَتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَائِنٌ وَنَظَرَاتٌ مَعَ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْحُكَمَاءِ وَكَتَبَ فِيهَا مَسَلَمَةُ الْحَجْرِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ رُتْبَةً الْحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِيباً لِكِتَابِهِ الْآخِرِ فِي السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ الْحَكِيمِ وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَنَمْرَتَانِ لِلْعِلْمِ وَمَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ أَجْمَعِ وَكَلَامُهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ وَكَلَامُهُمْ أَجْمَعُ فِي تَأْلِيفِهِمْ هِيَ الْغَازُ يَتَعَدَّرُ فَهْمَهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَعَانَ أَصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي ذَلِكَ. وَنَحْنُ نَذْكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إِلَى هَذِهِ الرُّمُوزِ وَالْأَلْغَازِ وَلِابْنِ الْمُعْتَبِرِيِّ مِنَ أئِمَّةِ هَذَا الشَّانِ كَلِمَاتٌ شَعْرِيَّةٌ عَلَى حُرُوفِ الدُّجْمِ مِنْ أَدْبَعِ مَا يَبْحِي

فِي السَّعْرِ مَعُورَةٌ كُلُّهَا لُغَزُ الْأَحَاجِي وَالْمُعَايَاةِ فَلَا تَكَادُ تَفْهَمُ وَقَدْ يَنْسَبُونَ لِلْعَزَالِي
 رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْضُ التَّلَايِفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَكُنْ مَدَارِكُهُ الْعَالِيَةَ
 لَتَقَفَ عَنْ خَطَا مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ وَرُبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْأَقْوَالِ
 فِيهَا لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَيْبِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْبَيِّنِ أَنَّ خَالِدًا
 مِنْ أَلْجَلِيلِ الْعَرَبِيِّ وَالْبِدَاوَةَ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَ
 لَهُ بِصِنَاعَةِ عَرَبِيَّةٍ الْمُنْعَى مَبْنِيَّةً عَلَى مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَمْرٍ جِتْهَا وَكُتِبَ النَّاطِرِينَ
 فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالطَّبِّ لَمْ تَظْهَرْ بَعْدُ وَلَمْ تَنْزَجْهُمُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَالِدُ بْنُ
 يَزِيدَ آخِرَ مَنْ أَهْلِ الْمَدَارِكِ الصَّنَاعِيَّةِ تَشَبَّهُ بِاسْمِهِ فَمِمَّنْ كُنْ . وَأَنَا أَنْقُلُ لَكَ هُنَا
 رِسَالَةَ أَبِي بَكْرٍ بْنِ بَشْرُونَ لِأَبِي السَّمْحِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكِلَاهُمَا مِنْ تَلَامِيذِ مُسَلِّمَةَ
 فَيَسْتَدِلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ حَقُّهُ مِنَ التَّأَمُّلِ قَالَ
 ابْنُ بَشْرُونَ بَعْدَ صَدْرِ مِنَ الرَّسَالَةِ خَارِجٍ عَنِ الْفَرْضِ وَالْمَقْدَمَاتِ الَّتِي لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 الْكُرْمِيَّةِ قَدْ ذَكَرَهَا الْأَوَّلُونَ وَأَقْتَصَّ جَمِيعَهَا أَهْلُ الْفَلَسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ
 الْمَعَادِنِ وَتَخَلُّقِ الْأَجْحَارِ وَالْجُوهَرِ وَطَبَائِعِ الْقِنَاعِ وَالْأَمَّا كَيْفَ فَمَنْعَنَا أَشْتَبَاهَا مِنْ
 ذِكْرِهَا وَلَكِنْ أُبَيِّنُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنَعَةِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ تَبَدُّلاً بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا يَنْبَغِي
 لِطَلَّابِ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوَّلًا ثَلَاثَ خِصَالٍ أَوَّلُهَا هَلْ تَكُونُ وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ
 تَكُونُ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ أَيِّ كَيْفَ تَكُونُ فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ وَأَحْكَمَهَا فَقَدْ ظَفَرَ
 بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نَهَابَتَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَأَمَّا النَّبْحُ عَنْ وُجُودِهَا وَالِاسْتِدْلَالُ عَنْ تَكْوِينِهَا
 فَقَدْ كَفَيْتَاكَ مَا بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ الْأَكْسِيرِ وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ
 بِذَلِكَ النَّبْحَ عَنِ الْحَجَرِ الَّذِي يُمَكِّنُهُ الْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوجِباً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 بِالْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَزْجِجِ مِنْهَا تَرَكَّبَتْ أَبْتِدَاءً وَإِلَيْهَا تَرْجِعُ أَنْبَاءً وَلَكِنْ مِنْ
 الْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَذَلِكَ أَنَّ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا تَعَالُجٌ
 وَتَدْبُرٌ وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَالَّتِي لَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لَا تَعَالُجٌ وَلَا
 تَدْبُرٌ لِأَنَّهَا فِيهَا بِالْقُوَّةِ فَقَطُ وَإِنَّمَا لَمْ يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لِاسْتِعْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضِ
 وَفَضْلُ قُوَّةِ الْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى الصَّغِيرِ فَيَنْبَغِي لَكَ وَقَفَكَ اللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ الْأَجْحَارِ
 الْمُنْفَصِلَةِ الَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا الْعَمَلُ وَجِنْسُهُ وَقُوَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَمَا يَدْبُرُ مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ

والتنقية والتكليس والتنشيف والتقلب فإن من لم يعرف هذه الأصول التي هي
عماد هذه الصنعة لم ينبج ولم يظفر بخير أبداً وينبغي لك أن تعلم هل يمكن أن
يستعان عليه بغيره أو يكتفى به وحده وهل هو واحد في الإبتداء أو شاركه غيره
فصار في التدبير واحداً فسمي حجراً وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه
وآزمانه وكيف تركيب الروح فيه وإدخال النفس عليه وهل نقدر النار على تفصيلها
منه بعد تركيبها فإن لم نقدر فلاي علة وما السبب الموجب لذلك فإن هذا هو
المطلوب فأفهم وأعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت أنها المدبرة للجسد
والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات
وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره لأنه لا حياة فيه ولا نور وإنما
ذكرت الجسد والنفس لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه على
الغذاء والعشاء وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورية التي بها يفعل العظام والأشياء
المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها وإنما اتفعل الإنسان لاختلاف
تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه أسلمت من الأعراض والتضاد ولم تقدر النفس على
الخروج من بدنه ولكان خالداً باقياً فسبحان مديب الأشياء تعالى . وأعلم أن الطبائع
التي يتحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الإبتداء فيضيه محتاجة إلى الإنتهاء وليس
ليها إذا صارت في هذا الحد أن تستحيل إلى ما منه تركبت كما قلناه أنفاً في الإنسان
لأن طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً وصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس في قوتها
وفعلها وبالجسد في تركيبه ومجسسته بعد أن كانت طبائع مفردة بأعيانها فإعجاباً من
أفاعيل الطبائع إن القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتمامها
فلذلك قلت قوي وضعيف وإنما وقع التغيير والفناء في التركيب الأول للاختلاف
وعدم ذلك في الثاني للاتفاق . وقد قال بعض الأولين التفصيل والتقطيع في هذا
العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكيم
أراد بقوله حياة وبقاء خروجه من العدم إلى الوجود لأنه ما دام على تركيبه الأول
فهو فان لا محالة فإذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء والتركيب الثاني لا يكون إلا
بعد التفصيل والتقطيع فإذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة فإذا بقي الجسد

الْحَمُولُ أَنْبَسَ فِيهِ لِعَدَمِ الصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الَّتِي لَا صُورَةَ
 لَهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَرَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ
 أَنَّ اخْتِلَاطَ اللَّطِيفِ بِاللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْعَلِيظِ بِالْعَلِيظِ وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِذَلِكَ
 التَّمَاكُلَ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَنْصَلُّ بِأَشْكَالِهَا وَذِكْرُكَ لَكَ ذَلِكَ
 لَتَعْلَمَ أَنَّ الْعَمَلَ أَوْفَى وَأَبْسَرُ مِنَ الطَّبَائِعِ اللَّطَائِفِ الرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ الْعَالِيَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ
 وَقَدْ يَتَصَوَّرُ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْأَشْجَارَ أَقْوَى وَأَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى
 الذَّهَبَ وَالْحَدِيدَ وَالنَّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْكِبْرِيَّتِ وَالزُّبُقِ وَعَظِيمًا مِنَ الْأَرْوَاحِ
 فَأَقُولُ إِنَّ الْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي بَدَنِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ الْكَيْفَانِ قَلَبَهَا أَجْسَادًا
 لِرَجَاءِ غَلِيظَةٍ فَلَمْ تَقْدِرِ النَّارُ عَلَى أَكْلِهَا لِإِفْرَاطِ غَلِيظِهَا وَتَلَزُّجِهَا فَإِذَا أَفْرَطَتِ النَّارُ
 عَلَيْهَا صَبَّرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ خَلْقِهَا وَإِنَّ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ اللَّطِيفَةَ إِذَا أَصَابَتْهَا
 النَّارُ أَبْقَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَيْهَا فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَبَّرَ الْأَجْسَادَ فِي هَذِهِ
 الْحَالَةِ وَصَبَّرَ الْأَرْوَاحَ فِي هَذَا الْحَالِ فَبُهِوْ أَجَلُ مَا تَعْرِفُهُ أَقُولُ إِنَّمَا أَبْقَتْ تِلْكَ الْأَرْوَاحُ
 لِأَسْتَعَالِهَا وَلَطَافَتِهَا وَإِنَّمَا اسْتَعَلَّتْ لِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهَا وَإِنَّ النَّارَ إِذَا أَحْسَتْ بِالرُّطُوبَةِ
 تَعَلَّقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تَشَاكِلُ النَّارَ وَلَا تَزَالُ تَعْبُدِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْتَنَى وَكَذَلِكَ
 الْأَجْسَادُ إِذَا أَحْسَتْ بِوُضُوعِ النَّارِ إِلَيْهَا أَفَلَّتْ تَلَزُّجِهَا وَغَلِيظِهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ الْأَجْسَادُ
 لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ مِنْ أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى النَّارِ فَلَطِيفَةٌ مُتَّحِدَةٌ بِكَشْفِهِ لِطُولِ
 الطَّبَخِ الْأَبِينِ الْمَازِجِ لِلْأَشْيَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مِتْلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِالنَّارِ لِمُفَارَقَةِ
 لَطِيفِهِ مِنْ كَثْفِهِ وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ التَّحْلِيلِ وَالْمُؤَافَقَةِ فَصَارَ ذَلِكَ
 الْأَنْضَمَامُ وَالْتِمَادُخُلُ مُجَاوِرَةً لَا مُمَازِجَةً فَسَهَّلَ بِذَلِكَ أَفْتِرَاقَهُمَا كَالْمَاءِ وَالذَّهْنِ وَمَا
 أَشَبَّهُهُمَا وَإِنَّمَا وَصَفْتُ ذَلِكَ لِتَسْتَدِيلِ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ وَتَفَاقُلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ
 ذَلِكَ عَلِمًا شَافِيًّا فَقَدْ أَخَذْتَ حَظَّكَ مِنْهَا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاطَ الَّتِي هِيَ
 طَبَائِعُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مُؤَافَقَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ مُفْصَلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا نِظَامٌ وَاحِدٌ
 يَتَدَبَّرُ وَاحِدٌ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي الْكُلِّ كَمَا قَالَ الْفَيْلَسُوفُ
 أَنَّكَ إِذَا أَحْكَمْتَ تَدَبِيرَ الطَّبَائِعِ وَتَأَلَّفَهَا وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا غَرِيبًا فَقَدْ أَحْكَمْتَ مَا
 أَرَدْتَ إِحْكَامَهُ وَقَوْمَاهُ إِذِ الطَّبِيعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبَ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيبًا

فَقَدْ زَاغَ عَنْهَا وَوَقَعَ فِي الْخَطَايَا . وَأَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ إِذَا حَلَّ لَهَا جَسَدٌ مِنْ قَوَائِمِهَا
 عَلَى مَا يَتَّبِعِي فِي الْحَلِّ حَتَّى يَشَاكِلَهَا فِي الرِّقَّةِ وَاللَّطَافَةِ انْتَسَطَتْ فِيهِ وَجَرَتْ مَعَهُ حَيْشَمًا
 جَرَى لِأَنَّ الْأَجْسَادَ مَا دَامَتْ غَلِيظَةً حَافِيَةً لَا تَنْسِطُ وَلَا تَنْزَوِجُ وَحَلَّ الْأَجْسَادُ لَا يَكُونُ
 بَغَيْرِ الْأَرْوَاحِ فَأَفْقَهُمْ هَذَاكَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلُ وَأَعْلَمَ هَذَاكَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا الْحَلَّ فِي جَسَدِ الْحَيَوَانِ
 هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَضْمَحِلُّ وَلَا يَنْقُصُ وَهُوَ الَّذِي يَقْلِبُ الطَّبَائِعَ وَيُمْسِكُهَا وَيُظْهِرُ لَهَا
 الْوَأَانَ وَأَزْهَارًا عَجِيبَةً وَلَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ يَحُلُّ خِلَافَ هَذَا هُوَ الْحَلُّ النَّامُ لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْحَيَاةِ
 وَإِنَّمَا حُلُّهُ بِمَا يُؤَافِقُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ حَرَقُ النَّارِ حَتَّى يَزُولَ عَنِ الْعَاطِظِ وَتَنْقَلِبُ الطَّبَائِعُ
 عَنْ حَالِهَا إِلَى مَا لَهَا أَنْ تَنْقَلِبَ مِنَ اللَّطَافَةِ وَالْعَاطِظِ فَإِذَا بَلَغَتْ الْأَجْسَادُ مَهَابَتَهَا مِنْ
 التَّحْلِيلِ وَالتَّلَطُّفِ ظَهَرَتْ لَهَا هُنَاكَ قُوَّةٌ تُمْسِكُ وَتَعْوِصُ وَتَقْلِبُ وَتَنْفِذُ وَكُلُّ
 عَمَلٍ لَا يَرَى لَهُ مُصَدِّقًا فِي أَوَّلِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ . وَأَعْلَمَ أَنَّ الْبَارِدَ مِنَ الطَّبَائِعِ
 هُوَ يَبْسُ الْأَشْيَاءَ وَيَعْقِدُ رُطُوبَتَهَا وَالْحَارَّ مِنْهَا يُظْهِرُ رُطُوبَتَهَا وَيَعْقِدُ بَيْسَهَا وَإِنَّمَا أَفْرَدَتْ
 الْحَرُّ وَالْبُرْدُ لِأَنَّهُمَا فَاعِلَانِ وَالرُّطُوبَةُ وَالْيَبْسُ مُنْفَعِلَانِ وَعَلَى أَنْفِعَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
 لِمَا فِيهِ تَحَدُّثُ الْأَجْسَامِ وَتَنْكُونُ وَإِنْ كَانَ الْحَرُّ أَكْثَرَ فِعَالًا فِي ذَلِكَ مِنَ الْبُرْدِ لِأَنَّ
 الْبُرْدَ لَيْسَ لَهُ نُقْلُ الْأَشْيَاءِ وَلَا تَحْوُكُهَا وَالْحَرُّ هُوَ عِلَّةُ الْحَرَكَةِ وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ الْكُونِ
 وَهُوَ الْحَرَارَةُ لَمْ يَتِمَّ مِنْهَا شَيْءٌ أَبَدًا كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَتْ الْحَرَارَةُ عَلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَكُنْ
 تَمَّ بُرْدٌ أَحْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتَهُ فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ أَحْتِجُّ إِلَى الْبَارِدِ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ
 لِيَقْوَى بِهِ كُلُّ ضِدِّ عَلَى ضِدِّهِ وَيُدْفَعُ عَنْهُ حَرُّ النَّارِ وَلَمْ يَحْدِرِ الْفَلَسَافَةُ أَكْبَرَ شَيْءٍ إِلَّا
 مِنَ النَّيِّرَانِ الْحَعْرِقَةِ وَأَمَرَتْ بِتَطْهِيرِ الطَّبَائِعِ وَالْأَنْفَاسِ وَإِخْرَاجِ دَيْسِهَا وَرُطُوبَتِهَا
 وَتَقْيِ آفَاتِهَا وَأَوْسَاطِهَا عَنْهَا عَلَى ذَلِكَ اسْتِقَامَ رَأْيُهُمْ وَتَنْدَبِرُوهُمْ فَإِنَّمَا عَمَلُهُمْ إِنَّمَا هُوَ
 مَعَ النَّارِ أَوْلَى وَإِلَيْهَا يَصِيرُ آخِرًا فَلِذَلِكَ قَالُوا إِيَّاكُمْ وَالنَّيِّرَانَ الْحَعْرِقَاتِ وَإِنَّمَا أَرَادُوا
 بِذَلِكَ تَقْيِ الْآفَاتِ الَّتِي مَعَهَا فَتَجْمَعُ عَلَى الْجَسَدِ آفَتَيْنِ فَتَكُونُ أَسْرَعُ لَهُلَاكِهِ وَكَذَلِكَ
 كُلُّ شَيْءٍ إِذَا تَبَلَّشَى وَيَفْسُدُ مِنْ ذَاتِهِ لِنُضَادِّ طَبَائِعِهِ وَاخْتِلَافِهِ فَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ
 فَلَمْ يَحْدَمْ مَا يَقْوَى بِهِ وَيَعِينُهُ لِأَقْبَرَتِهِ الْآفَةُ وَأَهْلَكَتَهُ وَأَعْلَمَ أَنَّ الْحُكَمَاءَ كُلَّهُمْ ذَكَرَتْ
 تَرْدَادَ الْأَرْوَاحِ عَلَى الْأَجْسَادِ مَرَارًا لِيَكُونَ الزَّمُّ إِلَيْهَا وَأَقْوَى عَلَى قِتَالِ النَّارِ إِذَا هِيَ
 بَاشَرَتْهَا عِنْدَ الْإِيفَةِ أَعْنِي بِذَلِكَ النَّارَ الْعُنْصُرِيَّةَ فَأَعْلَمَهُ . وَلِنُقَلِّ الْآنَ عَلَى الْحَجَرِ الَّذِي

يُمْكِنُ مِنْهُ الْعَمَلُ عَلَى مَا ذَكَرْتَهُ الْفَلَّاسِقَةُ فَقَدْ اِخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي
الْحَيَوَانَ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي النَّبَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْمَعَادِنِ وَمِنْهُمْ مَنْ
زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْجَمِيعِ وَهَذِهِ الدَّعَاوِي لَيْسَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى اسْتِقْصَائِهَا وَمُنَاطَرَةٍ أَهْلِهَا عَلَيْهَا
لَأَنَّ الْكَلَامَ يَطُولُ جِدًّا وَقَدْ قُلْتُ فِيمَا نَقَدَّمُ أَنَّ الْعَمَلَ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ
لَأَنَّ الطَّبَائِعَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ كَذَلِكَ فَزَيْدٌ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ
الْعَمَلُ بِالْقُوَّةِ وَالْفِعْلُ فَتَقْصِدُ إِلَى مَا قَالَهُ الْحَرَّانِيُّ إِنَّ الصَّبْغَ كُلَّهُ أَحَدٌ صَبْغَيْنِ أَمَّا
صَبْغُ جَسَدِ كَلْبِ زَعْفَرَانَ فِي الثُّوبِ الْأَبْيَضِ حَتَّى يَحُولَ فِيهِ وَهُوَ مُضْجَعٌ مُنْتَقِضُ التَّرَكِيبِ
وَالصَّبْغُ الثَّانِي تَقَابِيضُ الْجَوْهَرِ مِنْ جَوْهَرِ نَفْسِهِ إِلَى جَوْهَرِ غَيْرِهِ وَلَوْ نَهَيْتُ تَقَابِيضَ
الشَّجَرِ بَلِ التُّرَابِ إِلَى نَفْسِهِ وَقَلْبِ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ التُّرَابُ نَبَاتًا
وَالنَّبَاتُ حَيَوَانًا وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّوحِ الْحَيِّ وَالسَّيَّانِ الْفَاعِلِ الَّذِي لَهُ تَوْلِيدُ
الْأَجْرَامِ وَقَلْبِ الْأَعْيَانِ فَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَتَقُولُ إِنَّ الْعَمَلَ لَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ أَمَّا
فِي الْحَيَوَانَ وَإِنَّمَا فِي النَّبَاتِ وَبُرْهَانُ ذَلِكَ أَنَّهَا مَطْبُوعَانِ عَلَى الْغِذَاءِ وَبِهِ قِيَامُهُمَا
وَتَمَامُهُمَا فَأَمَّا النَّبَاتُ فَلَيْسَ فِيهِ مَا فِي الْحَيَوَانَ مِنَ اللَّطَافَةِ وَالْقُوَّةِ وَلِذَلِكَ قَلَّ خَوْضُ
الْحُكَمَاءِ فِيهِ وَأَمَّا الْحَيَوَانَ فَهُوَ آخِرُ الْأَسْمَحَاتِ الثَّلَاثِ وَنَهَائَتُهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْدِنَ
يَسْتَحِيلُ نَبَاتًا وَالنَّبَاتَ يَسْتَحِيلُ حَيَوَانًا وَالْحَيَوَانَ لَا يَسْتَحِيلُ إِلَى شَيْءٍ هُوَ الْأَطْفُ مِنْهُ
إِلَّا أَنْ يَنْعَكِسَ رَاجِعًا إِلَى الْغَلْظِ وَأَنَّهُ أَيْضًا لَا يُوْجَدُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ تَعَلَّقَ فِيهِ الرُّوحُ
الْحَيَّةُ غَيْرُهُ وَالرُّوحُ الْأَطْفُ مَا فِي الْعَالَمِ وَلَمْ تَعَلَّقْ الرُّوحُ بِالْحَيَوَانَ إِلَّا بِمِثْلِ كَلْتِهِ
إِبَاهَا فَأَمَّا الرُّوحُ الَّتِي فِي النَّبَاتِ فَإِنَّهَا يَسِيرَةٌ فِيهَا غَلْظٌ وَكَثَافَةٌ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَعْرِفَةٌ
كَامَنَةٌ فِيهِ لِغَاظِهَا وَغَاظُ جَسَدِ النَّبَاتِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ لِغَاظِهِ وَغَلْظِ رُوحِهِ وَالرُّوحُ
الْمُتَحَرِّكَةُ الْأَطْفُ مِنَ الرُّوحِ الْكَامَنَةِ كَثِيرًا وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَحَرِّكَةَ لَهَا قَبُولُ الْغِذَاءِ
وَالنَّاقِلِ وَالنَّفْسِ وَلَيْسَ لِلْكَامَنَةِ غَيْرُ قَبُولِ الْغِذَاءِ وَحَدِّهِ وَلَا تَجَرِي إِذَا قَبِلَتْ بِالرُّوحِ
الْحَيَّةِ إِلَّا كَالْأَرْضِ عِنْدَ الْمَاءِ كَذَلِكَ النَّبَاتُ عِنْدَ الْحَيَوَانَ فَالْعَمَلُ فِي الْحَيَوَانَ أَعْلَى
وَأَرْفَعُ وَأَهْوَنُ وَأَيْسَرُ فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ أَنْ يُجَرِّبَ مَا كَانَ سَهْلًا وَيَتْرَكَ مَا
يَخْشَى فِيهِ عَسْرًا. وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحَيَوَانَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ يَنْقَسِمُ أَقْسَامًا مِنَ الْأَمْهَاتِ الَّتِي
هِيَ الطَّبَائِعُ وَالْحَدِيثَةُ الَّتِي هِيَ الْمَوَالِيدُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مُتَسَيِّرٌ الْفَهْمُ فَلِذَلِكَ قَسَمَتْ

الْحِكْمَاءُ الْعَنَاصِرُ وَالْمَوَالِيدُ أَقْسَامًا حَيَّةً وَأَقْسَامًا مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكٍ فَادِلًا حَيًّا وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولًا مَيِّتًا وَقَسَمُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَفِي الْأَجْسَادِ الدَّائِمَةِ وَفِي الْعَقَاقِيرِ الْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَوْا كُلَّ شَيْءٍ يَدُوبُ فِي النَّارِ وَيَطِيرُ وَيَشْتَعِلُ حَيًّا وَمَا كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ سَمَوْهُ مَيِّتًا فَأَمَّا الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتُ فَسَمَوْا كُلَّ مَا انفصلَ مِنْهَا طَبَائِعَ أَرْبَعًا حَيًّا وَمَا لَمْ يَنْفصلَ سَمَوْهُ مَيِّتًا ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْحَيَّةِ فَلَمْ يَجِدُوا لَوْفِقِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفصلُ فُضُولًا أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ الْحَجَرِ الَّذِي فِي الْحَيَوَانَ فَبَحِثُوا عَنْ جِنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَدَبَّرُوهُ فَكَيْفَ لَهُمْ مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا وَقَدْ يَتَكَيَّفُ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ الْعَقَاقِيرِ وَخَلَطَهَا ثُمَّ تَفَصَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأَمَّا النَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفصلُ بَعْضُ هَذِهِ الْفُضُولِ مِثْلُ الْأَشْنَانِ وَأَمَّا الْمَعَادِنُ فَفِيهَا أَجْسَادٌ وَأَرْوَاحٌ وَأَنْفَاسٌ إِذَا مَزُجَتْ وَدُبِّرَتْ كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ وَقَدْ دَبَّرْنَا كُلَّ ذَلِكَ فَكَانَ الْحَيَوَانَ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْزَعٌ وَتَدْبِيرُهُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ فَيَبْغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا هُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانَ وَطَرِيقُ وُجُودِهِ إِنَّا بَيْنَنَا أَنْ الْحَيَوَانَ أَرْزَعُ الْمَوَالِيدِ وَكَذَا مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ الْأَطْفُ مِنْهُ كَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّمَا كَانَ النَّبَاتُ الْأَطْفُ مِنَ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جَوْهَرِهِ وَالصَّافِي وَجَسَدِهِ اللَّطِيفِ فَوَجِبَ لَهُ بِذَلِكَ اللَّطَافَةِ وَالرَّفِيقَةِ وَكَذَا هَذَا الْحَجَرُ الْحَيَوَانِي بِمَنْزِلَةِ النَّبَاتِ فِي التُّرَابِ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانَ شَيْءٌ يَنْفصلُ طَبَائِعَ أَرْبَعًا غَيْرَهُ فَأَفْهَمَ هَذَا الْقَوْلُ فَإِنَّهُ لَا يَكْدُ يَنْفَعِي إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَمَاهِلَةِ وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَا هِيَ هَذَا الْحَجَرُ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنَا أَبِينُ لَكَ وَجْهَهُ تَدْبِيرَهُ حَتَّى يَكْمُلَ الَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ الْأَنْصَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

(التدبير على بركة الله) خُذِ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ فَأَوْدِعْهُ الْقُرْعَةَ وَالْإِنْبِيقَ وَفَصِّلْ طَبَائِعَهُ الْأَرْبَعِ الَّتِي هِيَ النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَهِيَ الْجَسَدُ وَالصَّبْغُ فَإِذَا عَزَلْتَ الْمَاءَ عَنِ التُّرَابِ وَالْهَوَاءَ عَنِ النَّارِ فَأَرْزَعِ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِبْنَانِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخُذِ الْهَابِطَ أَسْفَلَ الْإِنَاءِ وَهُوَ الثُّفْلُ فَأَعْصِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ حَتَّى تُذْهَبَ النَّارُ عَنْهُ سَوَادَةٌ وَيَزُولَ غَلْظُهُ وَجَبَاوُهُ وَيَبْضُهُ تَبْيِضًا مُحْكَمًا وَطَبِّرْ عَنْهُ فُضُولَ الرُّطُوبَاتِ الْمُسْتَحْبِجَةِ فِيهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءً أَيْضًا لَا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَضَادَ ثُمَّ أَعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الطَّبَائِعِ الْأَوَّلِ الصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَبِّرْهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّضَادِ وَكَرِّرْ عَلَيْهَا الْغَسْلَ وَالتَّصْعِيدَ

حَتَّى تَلَطَّفَ وَتَرَقَّ وَتَصَفَّوْا فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَايْدَا بِالْتَّرَكِيبِ الَّذِي
 عَلَيْهِ مَدَارُ الْعَمَلِ وَذَلِكَ أَنَّ التَّرَكِيبَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْتَّرْوِيجِ وَالتَّعْنِينِ فَأَمَّا التَّرْوِيجُ
 فَهُوَ اخْتِلَاطُ اللَّطِيفِ بِالْقَلِيظِ وَأَمَّا التَّعْنِينُ فَهُوَ التَّمَشُّيَةُ وَالتَّسْحُقُ حَتَّى يَخْتَلَطَ بَعْضُهُ
 بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ بِمَنْزِلَةِ الْأَمْتِزَاجِ بِالْمَاءِ فَعِنْدَ
 ذَلِكَ يَقْوَى الْقَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ وَالدَّيْبِ
 فِيهَا وَإِنَّمَا وَجِدَ ذَلِكَ بَعْدَ التَّرَكِيبِ لِأَنَّ الْجَسَدَ الْمَحْمُولَ لِمَا أَرْدَوْجَ بِالرُّوحِ مَازَجَهُ
 بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لِنِشَا كُلِّهَا فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا وَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ
 أَنْ يَعْزِضَ الرُّوحُ مِنَ الصَّلَاحِ وَالتَّسَادِ وَالتَّبَاقِ وَالتَّشْبُوتِ وَمَا يَعْزِضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ
 الْأَمْتِزَاجِ وَكَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا امْتَزَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا بِخِدْمَةِ التَّدْبِيرِ اخْتَلَطَتْ
 أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الْأَخْرَيْنِ أَعْنَى الرُّوحِ وَالجَسَدِ وَصَارَتْ هِيَ وَهُمَا شَيْئًا وَاحِدًا
 لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْجُزْءِ الْكُلِّيِّ الَّذِي سَلِمَتْ طَبَائِعُهُ وَتَفَقَّتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا
 أَتَى هَذَا الْمَرْكَبَ الْجَسَدَ الْمَحْمُولَ وَالْحَافِظَ عَلَيْهِ النَّارَ وَأَظْهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ عَلَى وَجْهِهِ
 ذَابَ فِي الْجَسَدِ الْمَحْمُولِ وَمِنْ شَأْنِ الرُّطُوبَةِ الْأَشْتِعَالُ وَتَعَلَّقَ النَّارُ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتْ
 النَّارُ التَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ بِالنَّفْسِ مِمَّا زَجَعَهُ الْمَاءُ لَهَا فَإِنَّ النَّارَ لَا تَتَّحِدُ بِالذَّهْنِ
 حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا وَكَذَلِكَ الْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ النُّفُورُ مِنَ النَّارِ فَإِذَا لَحَّتْ عَلَيْهِ النَّارُ وَأَرَادَتْ
 تَطْيِيرَهُ حَبَسَهُ الْجَسَدُ الْيَابِسُ الْمَمَازِجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنَعَهُ مِنَ الطَّيْرَانِ فَيَكُونُ الْجَسَدُ
 عِلَّةً لِإِمْسَاكِ الْمَاءِ وَالْمَاءُ عِلَّةً لِبَقَاءِ الذَّهْنِ وَالدَّهْنُ عِلَّةً لِتَبَاتِ الصَّبْغِ وَالصَّبْغُ عِلَّةً
 لظُهُورِ الذَّهْنِ وَإِظْهَارِ الدِّهْنِيَّةِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُظْلَمَةِ الَّتِي لَا نُورَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا فَهَذَا
 هُوَ الْجَسَدُ الْمُسْتَقِيمُ وَهَكَذَا يَكُونُ الْعَمَلُ وَهَذِهِ التَّصْفِيَّةُ الَّتِي سَأَلْتَ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي
 سَمَّيْتُهَا الْحُكْمَاءَ بِيضَةً وَآيَاهَا يَعْنُونَ لَا يَبِضَةُ الدَّجَاجِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَاءَ لَمْ تُسَمَّ بِهَا
 بِهَذَا الْإِسْمِ الْغَيْرِ مَعْنَى بَلْ أَشْبَهَتْهَا وَقَدْ سَأَلْتُ مُسَلِّمَةَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرِي
 فَقُلْتُ لَهُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّيْتَ الْحُكْمَاءَ مَرْكَبَ الْحَيَوَانَ
 بِيضَةً اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ أَمْ لِمَعْنَى دَعَاؤِهِ إِلَيْهِ فَقَالَ بَلْ لِمَعْنَى غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا
 الْحَكِيمُ وَمَا ظَنَرْتُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالْإِسْتِدْلَالِ عَلَى الصَّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُواهَا
 وَسَمَّوْهَا بِيضَةً فَقَالَ لِشَبَّهَهَا وَقَرَّبَتْهَا مِنَ الْمَرْكَبِ فَفَكَّرَ فِيهِ فَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ لَكَ مَعْنَاهُ

فَبَقِيَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْكَرًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَعْنَاهُ فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفِكَرِ
 وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخَذَ بَعْضِي وَهَزَنِي هَزَةً خَفِيَةً وَقَالَ لِي يَا أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ
 لِلنِّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَمِيَّةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَ امْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِفِهَا فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ انْحَبَتْ
 عَنِّي الظُّلْمَةُ وَأَضَاءَ لِي نُورٌ قَلْبِي وَقَوِيَ عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ فَهَضَمْتُ شَاكِرًا اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى
 مَنْزِلِي وَأَقَمْتُ عَلَى ذَلِكَ شَكْلًا هُنْدَسِيًّا يَرْهَنُ بِهِ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ مَسَلَمَةٌ وَأَنَا وَاضِعُهُ
 لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرْكَبَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ كَانَ نِسْبَةً مَا فِيهِ مِنْ
 طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ كِنِسْبَةِ مَا فِي الْمُرْكَبِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ
 وَكَذَلِكَ الطَّبِيعَتَانِ الْأَخْرَبَانِ الْأَرْضُ وَالْمَاءُ فَأَقُولُ إِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هَذِهِ
 الصِّفَةِ هُمَا مُتَشَابِهَانِ وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ الْبَيْضَةِ هُزُوحًا فَإِذَا أَرَدْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا
 نَأْخُذُ أَقْلَ طَّبَائِعِ الْمُرْكَبِ وَهِيَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ وَنُضِيفُ إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنْ طَبِيعَةِ الرُّطُوبَةِ
 وَنُدْبِرُهُمَا حَتَّى تَنْشِفَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ طَبِيعَةَ الرُّطُوبَةِ وَتُقْبَلَ قُوَّتُهَا وَكَانَ فِي هَذَا
 الْكَلَامِ زَمْرًا وَلَكِنَّهُ لَا يَحْفَى عَلَيْكَ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا مِثْلَيْهِمَا مِنَ الرُّوحِ
 وَهُوَ الْمَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ سِتَّةَ أَمْثَالٍ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَى الْجَمِيعِ بَعْدَ التَّدْبِيرِ مِثْلًا مِنْ
 طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ أَجْزَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ تِسْعَةَ أَمْثَالِ الْيُبُوسَةِ
 بِالْقُوَّةِ وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضَاعِعِينَ مِنَ الْمُرْكَبِ الَّذِي طَبِيعَتُهُ مَحِيطَةٌ بِسَطْحِ الْمُرْكَبِ
 طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أَوَّلًا الضَّاعِعِينَ الْمُحِيطِينَ بِسَطْحِهِ طَبِيعَةَ الْمَاءِ وَطَبِيعَةَ الْهَوَاءِ وَهَذَا ضَاعِعًا
 أَحَدٌ وَسَطْحُ الْجِدِّ وَكَذَلِكَ الضَّاعِعَانِ الْمُحِيطَانِ بِسَطْحِ الْبَيْضَةِ اللَّذَانِ هُمَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
 ضَاعِعًا هُزُوحًا فَأَقُولُ إِنَّ سَطْحَ الْجِدِّ يُشْبِهُ سَطْحَ هُزُوحِ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي تُسَمَّى نَفْسًا وَكَذَلِكَ
 يَجِيءُ مِنْ سَطْحِ الْمُرْكَبِ وَالْحِكْمَاءُ لَمْ تَسْمَعْ شَيْئًا بِاسْمِ شَيْءٍ إِلَّا لَشَبْهِهِ بِهِ وَالْكَلِمَاتُ
 الَّتِي سَأَلْتُ عَنْ شَرْحِهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ الْمُنْعَقَدَةُ مِنَ الطَّبَائِعِ الْعُلَوِيَّةِ وَالسَّنْبَلِيَّةِ
 وَالنُّحَاسُ هُوَ الَّذِي أُخْرِجَ سَوَادُهُ وَقُطِعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حُمِرَ بِالزَّاجِ حَتَّى صَارَ
 نُحَاسِيًّا وَالْمَغْنِيسِيًّا حَجْرُهُمُ الَّذِي تَجْمَدُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَتَخْرُجُهُ الطَّبِيعَةُ الْعُلَوِيَّةُ الَّتِي
 تَسْتَجِبُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ لِتُقَابَلَ عَلَيْهَا النَّارُ وَالْفَرْقَرَةُ لَوْ أَنَّ أَحْمَرَ قَانَ يُعَدُّهُ الْكَيَّانُ
 وَالرَّصَاصُ حَجْرٌ لَهُ ثَلَاثُ قُوَى مُخْتَلِفَةٌ الشُّخُوصُ وَلَكِنَّهَا مُتَشَاكِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ
 فَأَلْوَادُهُ رُوحَانِيَّةٌ نَبْرَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَالنَّائِنَةُ نَفْسَانِيَّةٌ وَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَّاسَةٌ

غَيْرَ أَنَّهَا أَغْظُ مِنَ الْأُولَى وَمَرَكَزُهَا دُونَ مَرَكَزِ الْأُولَى وَالثَّلَاثَةُ قُوَّةُ أَرْضِيَّةٍ
 حَاسَّةٍ قَابِضَةٌ مُعَكِّسَةٌ إِلَى مَرَكَزِ الْأَرْضِ لِثِقَلِهَا وَهِيَ الْمَاسِكَةُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالنَّفْسَانِيَّةُ
 جَمِيعًا وَالْمُحِيطَةُ بِهِمَا وَأَمَّا سَائِرُ الْبَاقِيَةِ فَمُبْتَدَعَةٌ وَخْتَرَعَةٌ الْبَاسَا عَلَى الْجَاهِلِ وَمَنْ
 عَرَفَ الْمَقْدَمَاتِ اسْتَعْنَى عَنْ غَيْرِهَا . فِهَذَا جَمِيعُ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ وَقَدْ بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْكَ
 مُفَسَّرًا وَتَرْجُومًا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ أَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ وَالسَّلَامَ أَنْتَهَى كَلَامُ ابْنِ بَشْرُونَ وَهُوَ مِنْ
 كِبَارِ تَلَامِيذِ مَسَلَمَةَ الْمَجْرِيطِيِّ شَيْخِ الْأَنْدَلُسِ فِي عُلُومِ الْكِيمِيَاءِ وَالسِّيَمِيَاءِ
 وَالسَّحْرِ فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ وَمَا بَعْدَهُ وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ صَرَفَ الْفَنَاءُ كُلَّهَا فِي الصَّنَاعَةِ
 إِلَى الرَّمْزِ وَاللِّغَازِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَبِينُ وَلَا تُعْرَفُ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِصَّنَاعَةٍ
 طَبِيعِيَّةٍ . وَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ فِي أَمْرِ الْكِيمِيَاءِ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي بَعْضُهُ الْوَاقِعُ نَهًا
 مِنْ حِنْسِ آثَارِ النُّفُوسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ إِمَّا مِنْ نَوْعِ الْكِرَامَةِ
 إِنْ كَانَتْ النُّفُوسُ خَيْرَةً أَوْ مِنْ نَوْعِ السَّحْرِ إِنْ كَانَتْ النُّفُوسُ شَرِّيرَةً فَاجْرَةً فَأَمَّا
 الْكِرَامَةُ فَظَاهِرَةٌ وَأَمَّا السَّحْرُ فَلَأَنَّ السَّاحِرَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَكَانٍ تَحْقِيقَهُ يَقْلِبُ الْأَعْيَانَ
 الْمَادِيَّةَ بِقُوَّتِهِ السَّحْرِيَّةِ وَلَا يَدُلُّهُ مَعَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَادَّةٍ يَقَعُ فِعْلُهُ السَّحْرِيُّ فِيهَا
 كَتَخْلِيقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ مَادَّةِ التُّرَابِ أَوْ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ وَبِالْجُمَّلَةِ مِنْ غَيْرِ
 مَادِيَّتِهَا الْخَصُوصَةَ بِهَا كَمَا وَقَعَ لِسَجْرَةِ فِرْعَوْنَ فِي الْحِبَالِ وَالْعَصِيِّ وَكَمَا يُنْقَلُ عَنْ
 سَحْرَةِ السُّودَانَ وَالْهُنُودِ فِي قَاصِيَةِ الْجَنُوبِ وَالتُّرْكِ فِي قَاصِيَةِ الشَّمَالِ أَنَّهُمْ يَسْحَرُونَ
 الْجُودَ لِلْأَمْطَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ تَخْلِيقًا لِلذَّهَبِ فِي غَيْرِ مَادَّتِهِ الْخَاصَةِ بِهِ
 كَانَ مِنْ قَبِيلِ السَّحْرِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ فِيهِ مِنْ أَعْلَامِ الْحُكَمَاءِ مِثْلَ جَابِرٍ وَمَسَلَمَةَ
 وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ حُكَمَاءِ الْأُمَّةِ . إِنَّمَا تَحْوَاهَذَا الْمُنْحَى وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِيهِ
 الْغَلَاظَ حَذَرًا عَلَيْهَا مِنْ إِنْكَارِ الشَّرَائِعِ عَلَى السَّحْرِ وَأَنْوَاعِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى
 الضَّنَانَةِ بِهَا كَمَا هُوَ رَأْيِي مَنْ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ وَأَنْظَرَ كَيْفَ سَمِيَ مَسَلَمَةُ
 كِتَابَهُ فِيهَا رُتْبَةَ الْحَكِيمِ وَسَمِيَ كِتَابَهُ فِي السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ غَايَةَ الْحَكِيمِ إِشَارَةً
 إِلَى عُمُومِ مَوْضُوعِ الْغَايَةِ وَخُصُوصِ مَوْضُوعِ هَذِهِ لِأَنَّ الْغَايَةَ أَعْلَى مِنَ الرُّتْبَةِ فَكَانَ
 مَسْأَلِ الرُّتْبَةِ بَعْضُ مِنْ مَسْأَلِ الْغَايَةِ وَتَشَارِكُهَا فِي الْمَوْضُوعَاتِ وَمَنْ كَلَامِهِ فِي الْفَنَيْنِ
 يَتَّبِعِينَ مَا قَلَّمَاهُ وَنَحْنُ نَبِينِ فِيمَا بَعْدُ غَلَطٌ مِنْ يَزْعُمُ أَنْ مَدَارِكَ هَذَا الْأَمْرِ بِالصَّنَاعَةِ

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هَذَا الْفَصْلُ وَمَا بَعْدَهُ مُهِمٌّ لِأَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ عَارِضَةٌ فِي الْعُمَرَانِ كَثِيرَةٌ فِي الْمَدِينِ
وَضَرَرُهَا فِي الدِّينِ كَثِيرٌ فَوَجِبَ أَنْ يُصَدَّعَ بِشَأْنِهَا وَيُكْشَفَ عَنِ الْمُعْتَقِدِ الْحَقِّ فِيهَا
وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ عَقَلَاءِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ الْحَسْبِيِّ مِنْهُ وَمَا وَرَاءَهُ
الْحَسْبِيِّ تُدْرِكُ أَدْوَانَهُ وَأَحْوَالَهُ بِأَسْبَابِهَا وَعِلَالِهَا بِالْأَنْظَارِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَفْسَسَةِ الْعَقْلِيَّةِ
وَأَنَّ تَصْحِيحَ الْعُقَايِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مِنْ قِبَلِ النَّظَرِ لِأَنَّ جِهَةَ السَّمْعِ فَإِنَّهَا بَعْضٌ مِنْ مَدَارِكِ
الْعَقْلِ وَهَوَالِئِهِ يَسْمُونَ فَلِاسْفَةِ جَمْعِ فَيْلَسُوفٍ وَهُوَ بِاللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ حُبُّ الْحِكْمَةِ
فَبَجَّحُوا عَنْ ذَلِكَ وَشَمَّرُوا لَهُ وَحَوَّضُوا عَلَى إِصَابَةِ الْغَرَضِ مِنْهُ وَوَضَعُوا قَانُونًا يَهْدِي بِهِ الْعَقْلُ
فِي نَظَرِهِ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَسَمَّوْهُ بِالْمَنْطِقِ وَحَصَلَ ذَلِكَ أَنَّ النَّظَرَ
الَّذِي يَفِيدُ تَمْيِيزَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذَّهْنِ فِي الْمَعَانِي الْمُنْتَزَعَةِ مِنَ
الْمَوْجُودَاتِ الشَّخْصِيَّةِ فَيَجْرَدُ مِنْهَا أَوْلَا صُورٌ مُنْطَبِقَةٌ لِدَى جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ كَمَا يَنْطَبِقُ
الطَّابِعُ عَلَى جَمِيعِ النُّقُوشِ الَّتِي تَرْتُمُّهَا فِي طِينٍ أَوْ شَمْعٍ وَهَذِهِ مُجْرَدَةٌ مِنَ الْحَسُوسَاتِ
تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلَاتِ ثُمَّ تَجْرَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ إِذَا كَانَتْ مُشْتَرَكَةً
مَعَ مَعَانٍ أُخْرَى وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عَنْهَا فِي الذَّهْنِ فَتَجْرَدُ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى وَهِيَ الَّتِي أَشْرَكَتْ
بِهَا ثُمَّ تَجْرَدُ ثَانِيًا إِنْ شَارَكَهَا غَيْرُهَا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ التَّجْرِيدُ إِلَى الْمَعَانِي الْبَسِيطَةِ
الْكُلِّيَّةِ الْمُنْطَبِقَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَعَانِي وَالْأَشْخَاصِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا تَجْرِيدٌ بَعْدَ هَذَا وَهِيَ
الْأَجْنِاسُ الْعَالِيَّةُ وَهَذِهِ الْمَجْرَدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيفُ
بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِيَّةِ فَإِذَا نَظَرَ الْفِكْرِيُّ فِي هَذِهِ
الْمَعْقُولَاتِ الْمَجْرَدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذَّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا
إِلَى بَعْضٍ وَتَنْفِي بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الْيَقِينِيِّ لِيُحْصَلَ تَصَوُّرُ الْوُجُودِ تَصَوُّرًا
صَحِيحًا مُطَابِقًا إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ وَصِنْفُ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ تِلْكَ
الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي النِّهَايَةِ وَالصَّوْرُ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ
فِي الْبِدْءَةِ وَالتَّعْلِيمِ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ النَّامَ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلَبِ الْإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا

التَّصَدِيقُ وَسَيْلَةٌ لَهُ وَمَا تَسَمَّعَهُ فِي كُتُبِ الْمُنْطَقِيِّينَ مِنْ نَقْدِ التَّصَوُّرِ وَتَوْفِيقِ
 التَّصَدِيقِ عَلَيْهِ فِيمَعْنَى الشُّعُورِ لَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ النَّامِ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ كَبِيرِهِمْ أَرِسْطُو
 ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي الْحَسِّ وَمَا وَرَاءَ الْحَسِّ
 بِهَذَا النَّظَرِ وَتِلْكَ الْبَرَاهِينُ وَحَاصِلُ مَذَارِكِهِمْ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَا آتَى إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي
 فَرَعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوَّلًا عَلَى الْجِسْمِ السُّفْلِيِّ بِحُكْمِ الشُّهُودِ وَالْحَسِّ ثُمَّ تَرَقَّى
 إِدْرَاكُهُمْ قَلْبًا لِأَشْعَرُوا بِوُجُودِ النَّفْسِ مِنْ قِبَلِ الْحَرَكَةِ وَالْحَسِّ فِي الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحْسَبُوا مِنْ
 قُوَى النَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ وَوَقَّتْ إِدْرَاكُهُمْ فَقَضُوا عَلَى الْجِسْمِ الْعَالِيِّ السَّمَاوِيِّ بَعْدَ مِنَ الْقَضَاءِ
 عَلَى أَمْرِ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَوَجَبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ عَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ
 أَنَّهُمْ ذَلِكَ نِهَايَةَ عَدَدِ الْأَحَادِ وَحِي الْعَشْرُ تِسْعَ مَفْصَلَةٍ دَوَانِهَا جُمْلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلٌ مُفْرَدٌ
 وَهُوَ الْعَاشِرُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ الْوُجُودِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْقَضَاءِ مَعَ
 تَهْدِيبِ النَّفْسِ وَتَخْلُقُهَا بِالْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُمَكِّنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَرِدْ شَرْعٌ لِتَمْيِيزِهِ
 بَيْنَ الْفَضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمِثْلِهِ إِلَى الْعَمُودِ مِنْهَا
 وَأَجْتَنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا الْبَهْجَةُ وَاللَّذَّةُ وَأَنَّ
 الْجَهْلَ بِذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ وَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى النِّعَمِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى
 حَبْطِ لَهُمْ فِي تَفَاصِيلِ ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كَلِمَاتِهِمْ وَإِمَامُ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الَّذِي حَصَلَ
 مَسَائِلُهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَّرَ حُجُجَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا فِي هَذِهِ الْأَحْقَابِ هُوَ أَرِسْطُو الْمَقْدُونِيُّ مِنْ
 أَهْلِ مَقْدُونِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونٍ وَهُوَ مُعَلِّمُ الْأَيْسْكَانْدَرِ وَيُسَمَّوْنَهُ
 الْمَعْلِمَ الْأَوَّلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَعْنُونَ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ إِذْ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مَهْدَبَةً
 وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَأَسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَأَقْدَمَ أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ الْقَانُونِ
 مَا شَاءَ لَوْ تَكْفَّلَ لَهُ بِقَضَائِهِمْ فِي الْإِلَهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ
 بِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَاتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ وَذَلِكَ أَنَّ كُتُبَ
 أُولَئِكَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرَجَّمَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنَ اللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ إِلَى اللِّسَانِ
 الْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمَةِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ مِنْ مُنْتَحَلِي
 الْعُلُومِ وَجَادَلُوا عَنْهَا وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ تَفَارِيعِهَا وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيُّ
 فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِزَامِ

الْمَلِكِ مِنْ بَنِي بُوَيْهٍ بِأَصْبَهَانَ وَعَبْرَهُمَا. وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بَاطِلٌ
 بِجَمِيعِ وَجْهِهِ فَأَمَّا اسْتِنَادُهُمُ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا إِلَى الْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَاسْتَفَادَتِهِمْ بِهِ فِي
 التَّرَقِّي إِلَى الْوَاجِبِ فَهُوَ قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُتَبِ خَلْقِ اللَّهِ فَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا
 مِنْ ذَلِكَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَكَانَتْهُمْ فِي اقْتِصَارِهِمْ عَلَى اثْبَاتِ الْعَقْلِ فَقَطُّ وَالْعَقْلُ عَمَّا
 وَرَاءَهُ بِمَثَابَةِ الطَّبِيعِيِّينَ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى اثْبَاتِ الْأَجْسَامِ خَاصَّةً الْمَعْرُضِينَ عَنِ النُّقْلِ
 وَالْعَقْلُ الْمُعْتَدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ شَيْءٌ وَأَمَّا الْبُرَاهِينَ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا
 عَلَى مَدْعِيَاتِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مَعْيَارِ الْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فِيهَا قَاصِرَةٌ وَغَيْرُ
 وَافِيَةٍ بِالْفَرَضِ أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الطَّبِيعِيَّ فَوَجْهٌ
 قُصُورِهِ أَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ التَّنَائِجِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِالْحُدُودِ وَالْأَفْسَسَةِ كَمَا
 فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي الْخَارِجِ غَيْرُ بَاقِيٍّ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامَ ذَهْنِيَّةٍ كَلِمَةٍ عَامَّةٍ
 وَالْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ مُتَشَخَّصَةٌ بِمَوَادِّهَا وَلَعَلَّ فِي الْمَوَادِّ مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ الذِّهْنِيِّ
 الْكُلِّيِّ لِلْخَارِجِيِّ الشَّخْصِيِّ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ الْحُسُّ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلُهُ شَهْرُهُ
 لَا تِلْكَ الْبُرَاهِينَ فَأَيْنَ الْيَقِينِ الَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ تَصَرُّفُ الذِّهْنِ أَيْضًا
 فِي الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ الْمُطَابَقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِالصُّورِ الْخَيَالِيَّةِ لَا فِي الْمَعْقُولَاتِ التَّوَاتِي
 الَّتِي تَجْرِي دَهْرًا فِي الرُّتَبَةِ الثَّانِيَةِ فَيَكُونُ الْحُكْمُ حِينَئِذٍ يَقِينًا بِمَثَابَةِ الْمَحْسُوسَاتِ إِذِ
 الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ الْخَارِجِ لِكَمَالِ الْأَنْطَبَاقِ فِيهَا فَسَلِّمُ لَهُمْ حِينَئِذٍ
 دَعَاؤَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يُنْبَغِي لَنَا الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ الْمُسْلِمِ
 إِمَّا لَا يَعْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ الطَّبِيعِيَّاتِ لَا تُهْمُنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجِبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا .
 وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وَرَاءَ الْحُسِّ وَهِيَ الرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ
 الْأِلَهِيَّ وَعَلِمَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّ ذَوَاتَهَا مَجْهُولَةٌ رَأْسًا وَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا
 الْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ الْمَعْقُولَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ
 مُمْكِنٌ فِيهَا هُوَ مُدْرِكٌ لَنَا وَنَحْنُ لَا نُدْرِكُ الذُّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى نَجْرِدَ مِنْهَا مَا هِيَ
 أُخْرَى بِحِجَابِ الْحُسِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأْتِي لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُدْرِكٌ لَنَا فِي اثْبَاتِ
 وُجُودِهَا عَلَى الْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنْبِنَا مِنْ أَمْرِ النَّسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا
 وَخُصُوصًا فِي الرُّؤْيَا الَّتِي هِيَ وَجِدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا

فَأَمْرٌ غَامِضٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَقِّقُهُمْ حَيْثُ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ
 مَا لَا مَادَّةَ لَهُ لَا يُمَكِّنُ الْبُرْهَانَ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدِّمَاتِ الْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِيَّاتٍ أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً
 وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفَلَا طُونَ إِنَّ الْأَلْهِيَّاتِ لَا يُوصَلُ فِيهَا إِلَى الْبَيْنِ وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالْإِخْتِاقِ
 وَالْأَوَّلَى يَعْنِي الظَّنَّ وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ النَّعْبِ وَالنَّصَبِ عَلَى الظَّنِّ فَقَطْ فَيَكْفِينَا
 الظَّنُّ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا نَأْيُ فَائِدَةٍ لِهَذِهِ الْعُلُومِ وَالِاشْتِغَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ
 اليَقِينِ فِيمَا وَرَاءَ الْحُسْنِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْأَفْكَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ
 وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي ادْرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الْبُرْهَانِ فَقَوْلُ
 مُزَيْفٍ مُرْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَرَكَّبٌ مِنْ جُزْءَيْنِ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِي وَالْآخَرُ
 رُوحَانِي مُمْتَرَجٌ بِهِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجُزْءَيْنِ مَدَارِكٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ وَالْمَدْرِكُ فِيهَا وَاحِدٌ
 وَهُوَ الْجُزْءُ الرُّوحَانِي يُدْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةً وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةً إِلَّا أَنَّ
 الْمَدَارِكَ الرُّوحَانِيَّةَ يُدْرِكُهَا بِذَاتِهِ بَغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَالْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةَ بِوَأَسْطَةِ الْآتِ
 الْجِسْمِ مِنَ الدِّمَاغِ وَالْحَوَاسِ وَكُلُّ مَدْرِكٍ فَلَهُ ابْتِهَاجٌ بِمَا يُدْرِكُهُ وَأَعْتَبَرَهُ بِحَالِ الصَّبِيِّ
 فِي أَوَّلِ مَدَارِكِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِوَأَسْطَةِ كَيْفٍ يَبْتَهِجُ بِمَا يُبْصِرُهُ مِنَ الضَّوِّ وَبِمَا
 يَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِبْتِهَاجَ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ
 وَاسِطَةٍ يَكُونُ أَشَدَّ وَالذِّقَالَةَ فَالْنَّفْسُ الرُّوحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ
 ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ حَصَلَ لَهَا ابْتِهَاجٌ وَلَذَلِكَ لَا يَعْبُرُ عَنْهُمَا وَهَذَا الْإِدْرَاكِ لَا يَحْصُلُ بِنَظَرٍ وَلَا
 عِلْمٍ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ الْحُسْنِ وَنَسِيَانِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ وَالْمُتَّصِقَةِ
 كَثِيرًا مَا يُعْنُونَ بِحُصُولِ هَذَا الْإِدْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحُصُولِ هَذِهِ النَّهْجَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالرَّيَاضَةِ
 إِهْمَانَةَ الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى الْفِكْرَ مِنَ الدِّمَاغِ وَيَحْصُلُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكِهَا الَّذِي
 لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ الشَّوَابِ وَالْمَوَانِعِ الْجِسْمَانِيَّةِ يَحْصُلُ لَهُمْ نَهْجَةٌ وَلَذَلِكَ لَا يَعْبُرُ
 عَنْهُمَا وَهَذَا الَّذِي رَعَمُوهُ بِتَقْدِيرِ صَحْنِهِ مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ وَافٍ بِمَقْصُودِهِمْ فَأَمَّا
 قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبُرْهَانَ وَالْأَدَلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ مُخْصَلَةٌ لِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْإِبْتِهَاجِ عَنْهُ فَبَاطِلٌ
 كَمَا رَأَيْتَهُ إِذِ الْبُرْهَانِ وَالْأَدَلَّةُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةِ لِأَنَّهَا بِالْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ
 مِنَ الْخِيَالِ وَالْفِكْرِ وَالذِّكْرِ وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَعْنِي بِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْإِدْرَاكِ
 إِهْمَانَةَ هَذِهِ الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا مُنَازَعَةٌ لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجِدُ الْمَاهِرَ مِنْهُمْ عَاكِفًا

عَلَى كِتَابِ الشَّفَاءِ وَالْإِشَارَاتِ وَالنَّجَاءِ وَتَلَاخِيصِ ابْنِ رُشْدٍ لِلْقَصِّ مِنْ تَأْلِيفِ أَرِسْطُو
 وَغَيْرِهِ يُعَبَّرُ أَوْرَاقَهَا وَيَتَوَقَّعُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هَذَا الْقِسْطَ مِنَ السَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا
 يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَوَانِعِ عَنْهَا وَمُسْتَنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ
 أَرِسْطُو وَالْفَارَابِيِّ وَأَبْنِ سِينَانَ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ وَاتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ
 فَقَدْ حَصَلَ حِظُّهُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ وَالْعَقْلُ الْفَعَّالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ
 عَنْهَا الْحُسْنُ مِنْ رُتْبِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ الْإِتِّصَالَ بِالْعَقْلِ الْفَعَّالِ عَلَى الْإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ
 وَقَدْ رَأَيْتُ فَسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرِسْطُو وَأَصْحَابُهُ بِذَلِكَ الْإِتِّصَالَ وَالْإِدْرَاكِ إِدْرَاكِ النَّفْسِ
 الَّتِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهُوَ لَا يَخْضَلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ الْحُسْنِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ
 إِنَّ الْمُبْهَجَةَ النَّاشِئَةَ عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضًا لِأَنَّ
 إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحُسْنِ مَدْرَكًا آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا يَتَّبِعُ
 بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ أَتْبَهَاجًا شَدِيدًا وَذَلِكَ لَا يُعَيَّنُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْآخِرُويَّةِ وَلَا بَدْ
 بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَادِّ الَّتِي لَتِلْكَ السَّعَادَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هَذِهِ
 الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدَّمْنَاهُ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنْ
 الْأَوْهَامِ وَالْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مَدْرَكٍ مُخْتَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيْنَا فَسَادَ
 ذَلِكَ وَإِنَّ الْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَبَ بِهِ أَوْ يُسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جِسْمَانِيًّا
 وَالَّذِي يَخْضَلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ الْقُوَى
 الْجِسْمَانِيَّةَ إِدْرَاكُ إِدْرَاكًا ذَاتِيًّا لَهُ مُخْتَصًّا بِصِنْفٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي
 أَحَاطَ بِهَا عِلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامِّ الْإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَخْصِرْ وَأَنَّهُ يَتَّبِعُ
 بِذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْإِدْرَاكِ أَتْبَهَاجًا شَدِيدًا كَمَا يَتَّبِعُ الصَّبِيَّ بِمَدَارِكِهِ الْحُسْنِيَّةِ فِي أَوَّلِ
 نُشُوئِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحُصُولِ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا
 بِهَا الشَّرَاعَ إِنْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ
 بِتَهْدِيبِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِالْبَاسَةِ الْحَمُودِ مِنَ الْخَلْقِ وَمُجَانِبَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى
 أَنَّ أَتْبَهَاجَ لِلنَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ
 الرِّذَائِلَ عَائِقَةُ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَخْضَلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ
 وَأَوْلِيَانِهَا وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالسَّقَاوَةِ مِنْ وَرَاءِ الْإِدْرَاكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ

فَهَذَا التَّهْدِيْبُ الَّذِي تَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِنَّمَا تَفْعُهُ فِي الْبَهْجَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْإِدْرَاكِ
 أَرْوَحَانِي فَقَطَّ الَّذِي هُوَ عَلَى مَقَائِدِسَ وَقَوَائِنَ وَأَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا
 بِهَا الشَّارِعُ عَلَى امْتِنَالِ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ فَأَمْرٌ لَا يُحِيطُ بِهِ مَدَارِكُ
 الْمُدْرِكِينَ وَقَدْ تَبَّهَ ذَلِكَ زَعِيمُهُمْ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ سِينَا فَقَالَ فِي كِتَابِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ
 مَا مَعْنَاهُ إِنَّ الْمَعَادِ أَرْوَحَانِي وَأَحْوَالَهُ هُوَ مَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبُرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَقَابِلِيسِ
 لِأَنَّهُ عَلَى نِسْبَةِ طَبِيعِيَّةٍ مَحْمُوظَةٍ وَوَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَنَا فِي الْبُرَاهِينِ عَلَيْهِ سَعَةٌ وَأَمَّا الْمَعَادِ
 الْجُسْمَانِي وَأَحْوَالُهُ فَلَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ بِالْبُرْهَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَدْ
 بَسَطَهُ لَنَا الشَّرِيعَةُ الْحَقَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فَلْيَنْظُرْ فِيهَا وَلْيَرْجِعْ فِي أَحْوَالِ إِلَيْهَا فَهَذَا الْعِلْمُ
 كَمَا رَأَيْتُهُ غَيْرَ وَافٍ بِمَقَادِيمِهَا الَّتِي حَرَمُوا عَلَيْهَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرَائِعِ وَظَوَاهِرِهَا
 وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا عِلْمٌ إِلَّا ثَمَرَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ شَحْدُ الذَّهْنِ فِي تَرْتِيبِ الْأَدَلَّةِ وَالْحُجُجِ
 لِتَحْصِيلِ مَلَكَتِهِ الْجُودَةِ وَالصَّوَابِ فِي الْبُرَاهِينِ وَذَلِكَ أَنْ نَنْظُمَ الْمُقَابِلِيسَ وَتَرَكِيبَهَا
 عَلَى وَجْهِ الْأَحْكَامِ وَالْإِنْفَانِ هُوَ كَمَا شَرَطُوهُ فِي صِنَاعَتِهِمُ الْمُنْطِقِيَّةِ وَقَوْلُهُمْ بِذَلِكَ
 فِي عُلُومِهِمُ الطَّبِيعِيَّةِ وَهُمْ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمَلُونَهَا فِي عُلُومِهِمُ الْحِكْمِيَّةِ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ
 وَالتَّعَالِيمِ وَمَا بَعْدَهَا فَيَسْتَوَلِي النَّظْرُ فِيهَا بِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ الْبُرَاهِينِ بِشَرُوطِهَا عَلَى
 مَلَكَتِهِ الْأَنْفَانِ وَالصَّرَابِ فِي الْحُجُجِ وَالْإِسْتِدْلَالَاتِ لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ وَافِيَّةٍ
 بِمَقْصُودِهِمْ فَهِيَ أَصَحُّ مَا عِلْمَانَهُ مِنْ قَوَائِنِ الْأَنْظَارِ هَذِهِ ثَمَرَةٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مَعَ
 الْأِطْلَاعِ عَلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَرَائِهِمْ وَمَضَارِيهَا مَا عَلِمْتَ فَلْيَكُنِ النَّظْرُ فِيهَا مَتَحَرِّزًا
 جَهْدُهُ مِنْ مَعَاظِبِهَا وَلْيَكُنْ نَظْرٌ مِنْ يَنْظُرُ فِيهَا بَعْدَ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى
 التَّفْسِيرِ وَالْفَقْهِ وَلَا يُكْبَنُ أَحَدٌ عَلَيْهَا وَهُوَ خُلُوٌّ مِنْ عُلُومِ الْمَلَّةِ فَقُلْ أَنْ يَسْلَمَ لِذَلِكَ مِنْ
 مَعَاظِبِهَا وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ وَالْحَقِّ وَالْهَادِي إِلَيْهِ وَمَا كُنَّا نَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ

الفصل الخامس والعشرون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ يَزْعُمُ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِهَا الْكَائِنَاتِ فِي عَالَمِ الْعُنَاصِرِ قَبْلَ حَدُوثِهَا
 مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ قُوَى الْكُوكُوبِ وَتَأْثِيرِهَا فِي الْمَوْلِدَاتِ الْعُنْصَرِيَّةِ مُفْرَدَةً وَجُمُوعَةً
 فَتَكُونُ لِذَلِكَ أَوْضَاعُ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ دَالَّةً عَلَى مَا سَيَحْدُثُ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ

الكائنات الكليّة والشخصيّة فالمتقدمون منهم يرون أنّ معرفة قوى الكواكب
 وتأثيراتها بالتجربة وهو أمرٌ نقص الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة
 إنّما تحصل في المرات المتعدّدة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظنّ وأدوار
 الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرّره إلى آحاد وأحباب متطوّلة
 يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفًا منهم إلى أنّ معرفة
 قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأيٌ فإلّ وقد كفونا مؤنة إبطاله
 ومن أوضح الأدلة فيه أنّ تعلم أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعده الناس عن
 الصنّاع وأنهم لا يتعرّضون للإخبار عن الغيب إلّا أنّ يكون عن الله فكيف
 يدعون استنباطه بالصنّاعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأمّا بطليمس ومن
 تبعه من المتأخّرين فيرون أنّ دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعيّة من قبل مزاج
 يحصل للكواكب في الكائنات العنصريّة قال لأنّ فعل التّيزين وأثرهما في العنصريّات
 ظاهر لا يسع أحدًا جمده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج التّمار
 والزّرع وغير ذلك وفعل القمر في الرّطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفّنة
 وفواكه الفناء وسائر أفعاله ثمّ قال ولنا فيما بعدها من الكواكب طريقان الأوّل التقليد
 لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصنّاعة إلّا أنّه غير مقنع للنفس الثّانية الحُدس والتّجربة
 بقياس كلّ واحدٍ منها إلى التّيز الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة
 فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في
 الطّبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثمّ إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركّبة وذلك
 عند تناظرها بأشكال التّثليث والتّربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع
 البروج بالقياس أيضًا إلى التّيز الأعظم وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فبهي
 مؤثّرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من
 المولّدات وتتخلّق به النّطف والبرز فتصير حالاً للبدن المتكوّن عنها وللنفس
 المتعلّقة به الفاضلة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال
 لأنّ كميّات البرزرة والنّطفه كميّات لما يتولد عنهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك
 ظنيّ وليس هو أيضًا من القضاء الإلهي يعني القدر إنّما هو من جملة الأسباب

الطَّبِيعَةِ لِلْكَائِنِ وَالْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ سَابِقُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هَذَا مُحْصَلُ كَلَامِ بَطْلِيمَسُ
 وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ مَنْصُوصٌ فِي كِتَابِهِ الْأَرْبَعِ وَغَيْرِهِ وَمِنْهُ يَتَبَيَّنُ ضَعْفُ مُدْرِكِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 وَذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ الْكَائِنَ أَوْ الظَّنَّ بِهِ إِنَّمَا يَحْصُلُ عَنِ الْعِلْمِ بِجُمْلَةٍ أَسْبَابِهِ مِنَ الْفَاعِلِ
 وَالْقَابِلِ وَالصُّورَةِ وَالغَايَةِ عَلَى مَا يَتَبَيَّنُ فِي مَوْضِعِهِ وَالْقُوَى النُّجُومِيَّةَ عَلَى مَا قَرَّرُوهُ
 إِنَّمَا هِيَ فَاعِلَةٌ فَقَطْ وَالْجُزْءُ الْعَنْصَرِيُّ هُوَ الْقَابِلُ ثُمَّ إِنَّ الْقُوَى النُّجُومِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفَاعِلُ
 بِجُمْلَتِهَا بَلْ هُنَاكَ قُوَى أُخْرَى فَاعِلَةٌ مَعَهَا فِي الْجُزْءِ الْمَادِيِّ مِثْلَ قُوَّةِ التَّوَلِيدِ لِلْأَبِ
 وَالنُّوعِ الَّتِي فِي النُّطْفَةِ وَقُوَى الْخَلِصَةِ الَّتِي تَمَيِّزُ بِهَا صِنْفٌ مِنَ النُّوعِ وَغَيْرَ ذَلِكَ فَالْقُوَى
 النُّجُومِيَّةُ إِذَا حَصَلَ كَمَا هِيَ وَحَصَلَ الْعِلْمُ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ
 الْفَاعِلَةِ لِلْكَائِنِ ثُمَّ إِنَّهُ يُشْتَرَطُ مَعَ الْعِلْمِ بِقُوَى الدُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا مَزِيدٌ حُدْسٌ وَتَخْمِينٌ
 وَحَيْثُ يُحْصَلُ عِنْدَهُ الظَّنُّ بِوُقُوعِ الْكَائِنِ وَالْحُدْسُ وَالتَّخْمِينُ قُوَى لِلنَّاطِرِ فِي فِكْرِهِ
 وَلَيْسَ مِنْ عِلَلِ الْكَائِنِ وَلَا مِنْ أَصُولِ الصَّنَاعَةِ فَإِذَا فُقِدَ هَذَا الْحُدْسُ وَالتَّخْمِينُ رُجِعَتْ
 أَدْرَاجُهَا عَنِ الظَّنِّ إِلَى الشَّكِّ إِذَا حَصَلَ الْعِلْمُ بِالْقُوَى النُّجُومِيَّةِ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ
 تَعَرَّضْهُ آفَةٌ وَهَذَا مُعَوِّزٌ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ حِسَابَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِتَعَرُّفِ
 بِهِ أَوْضَاعِهَا وَلِمَا أَنَّ اخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَمُدْرِكِ بَطْلِيمَسُ فِي
 اثْبَاتِ الْقُوَى لِلْكَوَاكِبِ الْخُمُسَةَ بِقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُدْرِكٌ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ
 غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ الْقُوَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوَلِيَةٌ عَلَيْهَا فَقُلَّ أَنْ يُشْعَرَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ
 النِّقْصَانِ مِنْهَا عِنْدَ الْمَقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ الْوَاقِعَةِ
 فِي عَالَمِ الْعُنَاصِرِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ ثُمَّ إِنَّ تَأْثِيرَ الْكَوَاكِبِ فِيهَا تَحْتَمُّهَا بِاطِّلٍ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ
 فِي بَابِ التَّوْحِيدِ أَنَّ لَافِعَالَ إِلَّا اللَّهُ بِطَرِيقِ اسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتَهُ وَأَحْتَجُّ لَهٗ أَهْلُ
 عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْبَيَانِ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبَّبَاتِ مَجْهُولُ
 الْكَيْفِيَّةِ وَالْعَقْلُ مِنْهُمْ عَلَى مَا يَقْضَى بِهِ فِيمَا يَظْهَرُ بِأَدْيِ الرَّأْيِ مِنَ التَّأْثِيرِ فَلَعَلَّ
 اسْتِدَادَهَا عَلَى غَيْرِ صُورَةِ التَّأْثِيرِ الْمُتَعَارَفِ وَالْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ رَابِطَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا
 رَبَطَتْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ عَلْوًا وَسَفْلًا سِيمَا وَالشَّرْعُ يَرُدُّ الْحَوَادِثَ كُلُّهَا إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ
 تَعَالَى وَيَبْرَأُ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ وَالتَّنْبُؤَاتُ أَيْضًا مِنْكَرَةٌ لِشَأْنِ النُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاسْتِقْرَاءُ
 الشَّرْعِيَّاتِ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا

لِحَاثِهِ وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا بِفَضْلِ اللَّهِ
وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا بِنُورِ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ
بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فَقَدْ بَانَ لَكَ بَطْلَانُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِنْ طَرِيقِ
الشَّرْعِ وَضَعْتُ مَدَارِكَهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْمَضَارِّ فِي الْعُمُرَانِ
الْإِنْسَانِيِّ تَمَا تَبَعَتْ مِنْ عَقَائِدِ الْعَوَامِّ مِنَ الْفَسَادِ إِذَا اتَّفَقَ الصِّدْقُ مِنْ أَحْكَامِهَا فِي
بَعْضِ الْأَحْيَانِ اتِّفَاقًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَعَايُلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيُلْهَجُ بِذَلِكَ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَبِظَنِّ
أَطْرَادِ الصِّدْقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَيَقَعُ فِي رَدِّ الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا ثُمَّ
مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي الدُّوَلِ مِنْ تَوْفَعِ الْقَوَاطِعِ وَمَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّوَفُّعُ مِنْ
تَطَاوُلِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُتَرَبِّصِينَ بِالِدَوْلَةِ إِلَى الْفَتْكِ وَالنُّوْرَةِ وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا
فَيَنْبَغِي أَنْ نَحْظَرَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَضَارِّ فِي
الدِّينِ وَالدُّوَلِ وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ كَوْنُ وَجُودِهَا طَبِيعِيًّا لِلبَشَرِ بِمَقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ
وَعُلُومِهِمْ فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ طَبِيعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْعَالَمِ لَا يُمَكِّنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ
التَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِ حُضُورِهِمَا فَيَتَعَيَّنُ السَّعْيُ فِي اكْتِسَابِ الْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ
أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِّ هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَفَاسِدَ هَذَا الْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ وَلِعَلَّامُ
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمَكِّنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ تَحْصِيلَ
عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتِهَا بَلْ إِنْ نَظَرَ فِيهَا نَظْرًا وَظَنَّ الْإِحَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ فِي
نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتْ النَّظَرَ فِيهَا فَقَدْ اجْتَمَعَ مِنْ أَهْلِ الْعُمُرَانِ لِقِرَاءَتِهَا
وَالْتَحَاقِ تَعْلِيمِهَا وَصَارَ الْمَوْلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَأَقْلُ مِنَ الْأَقْلِ إِنَّمَا يَطَالِعُ
كُتُبَهَا وَمَقَالَاتِهَا فِي كِسْرٍ يَبْتَنِيهِ مُنْسَرًّا عَنِ النَّاسِ وَتَحْتَ رُبْقَةِ الْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ
الصَّنَاعَةِ وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَأَعْتْيَابِهَا عَلَى الْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ وَنَحْنُ
نَجِدُ الْفَقْهَ الَّذِي عَمَّ نَعْنَعُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهَلَتْ مَا خِذَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالسُّنَنِ وَعَكَفَتْ
الْجُمْهُورُ عَلَى قِرَاءَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ التَّحْقِيقِ وَالتَّجْمِيعِ وَطُولِ الْمُدَارَسَةِ وَكَثْرَةِ الْجُلُوسِ
وَتَعَدُّهَا إِنَّمَا يَحْذُقُ فِيهِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَجْيَالِ فَكَيْفَ يُعَلِّمُ
مَجْهُورٌ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سُدَّ الْخَطَرَ وَالتَّخْرِيمِ مَكْتُومٌ عَنِ الْجُمْهُورِ صَعْبُ
الْمَاخِذِ مُخْتَاةٌ بَعْدَ الْمُمَارَسَةِ وَالتَّحْصِيلِ لِأَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ حَدْسٍ وَتَخْمِينِ

يَكْتَنِفَانِ بِهِ مِنَ النَّظَرِ فَأَبْنَى التَّخَصُّيلُ وَالْحِذْقُ فِيهِ مَعَ هِدْيِهِ كُلِّهَا وَمَدَعَى ذَلِكَ مِنَ
النَّاسِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُومُ بِذَلِكَ لِعِزَابَةِ الْفَنِّ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَقَلَّةِ
حَمَلَتِهِ فَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ حُجَّةٌ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ
أَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ عِنْدَمَا غَلَبَ الْعَرَبُ
عَسَاكِرَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحُسَيْنِ وَحَاصِرُوهُ بِالْقَيْرَوَانِ وَكَثُرَ إِزْجَافُ الْفَرِيقَيْنِ الْأَوْلِيَاءِ
وَالْأَعْدَاءِ وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ الرَّوحِيُّ مِنْ شِعْرَاءِ أَهْلِ تُونِسَ

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ حِينٍ قَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ وَالْهِنَاءُ
أَصْبَحُ فِي تُونِسٍ وَأَمْسِي وَالصُّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
أَلْخُوفُ وَالْجُوعُ وَالْمَنِيَا يُحَدِّثُهَا الْهَرْجُ وَالْوَبَاءُ
وَالنَّاسُ فِي مَرِيَّةٍ وَحَرْبٍ وَمَا عَسَى يَنْفَعُ الْمَرَاءُ
فَأَحْمَدِي يَرَى عَلِيًّا حَلَّ بِهِ الْهَلَاكُ وَالنَّوَاءُ
وَأَخْرَجَهُ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي بِهِ إِلَيْكُمْ صَبًا رَخَاءُ
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهَذَا يَقْضِي لِعَبْدِهِ مَا يَشَاءُ
يَا رَاصِدَ الْخَنَسِ الْجَوَارِي مَا فَعَلْتَ هَذِهِ السَّمَاءُ
مَطْلَمْتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ الْيَوْمَ أَمْلِيَاءُ
مَرَّ خَمِيسٌ عَلَى خَمِيسٍ وَجَاءَ سَبْتُ وَأَرْبَعَاءُ
وَنِصْفُ شَهْرٍ وَعِشْرُ ثَانٍ وَثَلَاثُ ضَمَّةُ الْقَضَاءُ
وَلَا تَرَى غَيْرَ زُورٍ قَوْلٍ أَذَلِكَ جَهْلٌ أَمْ أَزْدِرَاءُ
إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضَاءُ
رَضِيْتُ بِاللَّهِ لِي الْهَاءُ حَسْبُكُمْ الْبَدْرُ أَوْ ذِكَاةُ
مَا هَذِهِ الْأَنْجُمُ السُّوَارِي إِلَّا عَبَادِيدُ أَوْ إِمَاءُ
يُقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ نَقْضِي وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى أَقْضَاءُ
صَلَّتْ عَقُولُ تَرَى قَدِيمًا مَا شَأْنُهُ الْجُرْمُ وَالْفَنَاءُ
وَحَكَمَتْ فِي الْوُجُودِ طَبْعًا يُحَدِّثُهُ الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
لَمْ تَرَ حُلُومًا إِزَاءَ مَرٍّ تَغْدُوهُمْ تُرْبَةٌ وَمَاءُ

اللَّهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَدْرِي مَا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ وَالْخَلَاءُ
 وَلَا أَلْهَى أَلِي تَنَادِي مَا لِي عَنِ صُورَةِ عَرَاهِ
 وَلَا أُجُودُ وَلَا أُنْعَمُ وَلَا ثُبُوتٌ وَلَا انْتِفَاءُ
 وَالْكَسْبُ لَمْ أَدْرِ فِيهِ إِلَّا مَا جَلَبَ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ
 وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي مَا كَانَتْ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
 إِذْ لَا فُضُولٌ وَلَا أُصُولٌ وَلَا جِدَالٌ وَلَا رِيَاءُ
 مَا تَبِعَ الصَّدْرَ وَاقْتَفَيْنَا يَا حَبْدًا كَانَتْ الْأَقْفَاءُ
 كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ أَلْهَاءُ
 يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي أَتَعَرَّبِي الصَّبْفُ وَالشِّتَاءُ
 لَمْ أُجْزَ بِالشَّرِّ غَيْرَ شَرِّ وَالْخَيْرِ عَنِ مِثْلِهِ جَزَاءُ
 وَإِنِّي إِنْ أَكُنْ مُطِيعًا فَلَسْتُ أَعْصِي وَلِي رَجَاءُ
 وَإِنِّي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ أَطَاعَهُ الْعَرْشُ وَالْتِرَاءُ
 لَيْسَ أَنْتَصِرَ بِكُمْ وَلَكِنْ أَتَأَحَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ
 لَوْ حَدِيثَ الْأَشْعَرِيِّ عَمَّنْ لَهُ إِلَى رَأْيِهِ انْتِمَاءُ
 لَقَالَ أَخْبِرُهُم بِأَنِّي مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل السادس والعشرون

في انكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفساد عن انتحالها

إِعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنِ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هُدُو
 الصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوَجْهَهُ وَأَنَّ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
 وَاسْهَلُ عَلَى مُبْتَدِئِهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَاقِقِ وَمَعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعَسْفِ
 الْحُكْمِ وَخِسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي الْفَتَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى التَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَأَعْطَبَ آخِرًا
 إِذَا ظَهَرَ عَلَى خِيْبَةٍ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا وَإِنَّمَا أَطْعَمَهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَةَ أَنَّ
 الْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَتَقَلَّبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضِ الْمَادَّةِ الْمَشْتَرِكَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْعِلَاجِ
 صَيْرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا وَالنَّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسِبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمِ
 الطَّبِيعَةِ وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذَلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي التَّدْبِيرِ وَصُورَتِهِ

وَفِي الْمَادَّةِ الْمَوْضُوعَةِ عِنْدَهُمْ لِلْعِلَاجِ الْمَسْمُوعَةِ عِنْدَهُمْ بِالْحَجَرِ الْمَكْرَمِ هَلْ هِيَ
 الْعَذْرَةُ أَوْ الدَّمُ أَوْ الشَّعْرُ أَوْ الْبَيْضُ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مَا سِوَى ذَلِكَ وَجُمْلَةُ الدَّبِيرِ
 عِنْدَهُمْ بَعْدَ تَعْيِينِ الْمَادَّةِ أَنْ تَمْنَى بِالْقَهْرِ عَلَى حَجَرٍ صَلَدٍ أَمَلَسَ وَتَسْفَى أَثْنَاءَ إِهْمَانِهَا
 بِالْمَاءِ وَبَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ الْعُقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ مَا يَنَاسِبُ الْقَضْمَ مِنْهَا وَيُؤَثِّرُ فِي
 أَنْقِلَابِهَا إِلَى الْمَعْدِنِ الْمَطُوبِ ثُمَّ يُجَنَّبُ بِالسُّدَسِ مِنْ بَعْدِ السَّفَى أَوْ تُطْبَخُ بِاللَّارِ أَوْ
 تُصْعَدُ أَوْ تُكَلَّسُ لِاسْتِخْرَاجِ مَائِهَا أَوْ تَرَاهَا فَإِذَا رَضِيَ بِذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ عِلَاجِهَا وَتَمَّ
 تَدْبِيرُهُ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ أُصُولُ صَنَعَتِهِ حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ تَرَابٌ أَوْ مَائِعٌ يُسَدُّونَهُ
 الْأَكْسِيرَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ عَلَى الْفِضَّةِ الْحَمَامَةِ بِاللَّارِ عَادَتْ ذَدْبًا أَوْ النُّحَاسِ
 الْحَمَمِيِّ بِاللَّارِ عَادَ فِضَّةً عَلَى مَا قُصِدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ وَيَزْعُمُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ
 الْأَكْسِيرَ مَادَّةٌ مَرْكَبَةٌ مِنَ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ حَصَلَ فِيهَا بِذَلِكَ الْعِلَاجِ الْخِلَاصُ وَالنَّبْدِيرُ
 مِرْجُحٌ ذُو قُوَى طَبِيعِيَّةٍ تَصْرِفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَيْهَا وَتَقْلِبُهُ إِلَى صَوْرَتِهَا وَمِنْ أَجْبَابِهَا وَتَبَثُّ
 فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَالْقُوَى كَالْحَمِيرَةِ لِلْحَبْزِ تَقْلِبُ الْعَمِيمِينَ إِلَى ذَاتِهَا وَتَعْمَلُ
 فِيهِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الْإِنْفِشَاشِ وَالْمَشَاشَةِ لِيَحْسَنَ هَضْمَهُ فِي الْمَعْدَةِ وَيَسْتَحِيلَ سَرِيعًا
 إِلَى الْغَدَاءِ وَكَذَا إِكْسِيدُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِيمَا يَحْصَلُ فِيهِ مِنَ الْمَعَادِنِ يَصْرِفُهُ إِلَيْهِمَا
 وَيَقْلِبُهُ إِلَى صَوْرَتِهِمَا هَذَا مُحْصَلُ زَعْمِهِمْ عَلَى الْجُمْلَةِ فَجَدُّهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى هَذَا الْعِلَاجِ
 يَتَّبِعُونَ الرِّزْقَ وَالْمَعَاشَ فِيهِ وَيَتَنَاقَلُونَ أَحْكَامَهُ وَقَوَاعِدَهُ مِنْ كِتَابِ لِأَمَّةِ الصَّنَاعَةِ
 مِنْ قَبْلِهِمْ يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَتَنَاقَرُونَ فِي فِهْمِ لُغَزِهَا وَكَشَفِ أَسْرَارِهَا إِذْ هِيَ فِي
 الْأَكْثَرِ تُشْبِهُ الْمَعْمَى كَتَالَيفِ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ فِي رِسَالَتِهِ السَّبْعِينَ وَمَسْأَلَةِ الْحَجْرِيَّ
 فِي كِتَابَةِ رُتْبَةِ الْحَكِيمِ وَالطُّغْرَائِيِّ وَالْمَغْرِبِيِّ فِي قِصَائِدِهِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِجَادَةِ النِّظْمِ
 وَأَمْثَالِهَا وَلَا يَخْلُونَ مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ بِطَائِلٍ مِنْهَا . فَمَا وَضَعْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا أَبَا الْبَرَكَاتِ
 التَّلْفِيغِيَّ كَبِيرَ مَشِيخَةِ الْأَنْدَلُسِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَوَقَفْتُهُ عَلَى بَعْضِ التَّالِيفِ فِيهَا فَصَفَّحَهُ
 طَوِيلًا ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيَّ وَقَالَ لِي وَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى بَيْتِهِ إِلَّا بِالْحَاجَةِ ثُمَّ مِنْهُمْ
 مَنْ يَقْتَصِرُ فِي ذَلِكَ عَلَى الثَّلَاثَةِ فَقَطْ إِمَّا الظَّاهِرَةَ كَتَمُوهُ بِالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ أَوْ النُّحَاسِ
 بِالْفِضَّةِ أَوْ حَلَطَهَا عَلَى نِسْبَةِ جُزْءٍ أَوْ جُزْءَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ خَلِطَهَا كَالْقَاءِ الشَّيْبَةَ بَيْنَ
 الْمَعَادِنِ بِالصَّنَاعَةِ مِثْلَ تَبْيِضِ النُّحَاسِ وَتَلْبِيسِهِ بِالزُّرُقِ الْمُصْعَدِ فَيُحْيِي جِسْمًا مَعْدِنِيًّا

شَيْبًا بِالْفِضَّةِ وَيَخْفَى إِلَى أَعْلَى الْقَفَادِ الْمَهْرَةَ فَيَقْدِرُ أَصْحَابُ هَذِهِ الدُّسِّ مَعَ دُسْتِهِمْ
 هَذِهِ سَكَّةٌ يَسْرُبُونَهَا فِي النَّاسِ وَيَطْبَعُونَهَا بِطَاعِ السُّلْطَانِ تَمْوِيهَا عَلَى الْجُمْهُورِ بِالْخُلَاصِ
 وَهَوْلَاءُ أَحْسُ النَّاسِ حِرْفَةً وَأَسْوَأُهُمْ عَاقِبَةً لِيَتَلَبَّسَهُمْ بِسَرِقَةِ أَمْوَالِ النَّاسِ فَإِنَّ صَاحِبَ
 هَذِهِ الدُّلْسَةِ إِنَّمَا هُوَ يَدْفَعُ نَحَاسًا فِي الْفِضَّةِ وَفِضَّةً فِي الذَّهَبِ لِيَسْتَخْلِصَهَا لِنَفْسِهِ فَهُوَ
 سَارِقٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ السَّارِقِ وَمَعْظَمُ هَذَا الصَّنْفِ لَدَيْنَا بِالْمَغْرِبِ مِنْ طَبَقَةِ الْبَرَبْرِ الْمُتَمَبِّدِينَ
 بِأَطْرَافِ الْقِيَاعِ وَمَسَاكِنِ الْأَعْمَارِ يَاوُونَ إِلَى مَسَاجِدِ الْبَادِيَةِ وَبِمَوَاهُونَ عَلَى الْأَغْيَاءِ
 مِنْهُمْ يَأْنُ بِأَيْدِيهِمْ صِنَاعَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنَّفُوسُ مُوَاعَةٌ بِجُهِمَاهَا وَالْأَسْتِهْلَاكُ فِي
 طَلَبِهَا فَيَحْضُلُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَعَاشٍ ثُمَّ يَبْقَى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ تَحْتَ الْخَوْفِ وَالرَّقَبَةِ إِلَى
 أَنْ يَظْهَرَ الْعِجْزُ وَتَنْفَعِ الْفَضِيحَةُ فَيَفْرُتُونَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَسْتَجِدُونَ حَالًا أُخْرَى فِي
 اسْتِهْوَاءِ بَعْضِ أَهْلِ الدُّنْيَا بِأَطْمَاعِهِمْ فِيمَا لَدَيْهِمْ وَلَا يَزُولُنْ كَذَلِكَ فِي ابْتِغَاءِ مَعَاشِهِمْ
 وَهَذَا الصَّنْفُ لَا كَلَامَ مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا الْغَايَةَ فِي الْجَهْلِ وَالرَّدَاةِ وَالْإِحْتِرَافِ بِالسَّرِقَةِ
 وَلَا حَاسِمٍ لِعَالَتِهِمْ إِلَّا اشْتِدَادُ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ وَتَنَاوُلُهُمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ
 مَتَى ظَهَرُوا وَعَلَى شَأْنِهِمْ لِأَنَّ فِيهِ إِفْسَادًا لِلْسَكَّةِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا الْبَلُورَى وَهِيَ مَتَمُولُ النَّاسِ
 كَافَّةً وَالسُّلْطَانُ مُكَلَّفٌ بِإِصْلَاحِهَا وَالْإِحْتِيَاطِ عَلَيْهِمَا وَالْإشْتِدَادِ عَلَى مُفْسِدِيهَا وَأَمَّا
 مَنْ اتَّخَلَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ وَلَمْ يَرْضَ بِحَالِ الدُّلْسَةِ بَلْ اسْتَنكَفَ عَنْهَا وَتَزَهَّ نَفْسَهُ عَنِ إِفْسَادِ
 سَكَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَقْوَدِهِمْ وَإِنَّمَا يَطْلُبُ إِحَالََةَ الْفِضَّةِ لِلذَّهَبِ وَالرِّصَاصِ وَالنَّحَاسِ
 وَالْقَصْدِيرِ إِلَى الْفِضَّةِ بِذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعِلَاجِ وَبِالْإِكْسِيرِ الْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَمَّا مَعَ هَوْلَاءِ
 مُتَكَلِّمٌ وَبَحَثَ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَلِكَ مَعَ أَنَا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ تَمَّ لَهُ هَذَا
 الْغَرَضُ أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بَغْيَةٍ إِنَّمَا تَذَهَبُ أَعْمَارُهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْفَهْرِ وَالصَّلَابَةِ
 وَالتَّضْعِيدِ وَالتَّكْلِيسِ وَأَعْتِيَامِ الْأَخْطَارِ بِجَمْعِ الْعَقَاقِيرِ وَالتَّبَحُّثِ عَنْهَا وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَلِكَ
 حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لِعَبْرَتِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْغَرَضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ يَقْنَعُونَ بِاسْتِمَاعِهَا
 وَالْمُفَاوَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَسْتَرِيبُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ الْكُفَلِينَ الدَّغْرَمِينَ بُوَسَاوِسِ
 الْأَخْبَارِ فِيمَا يُكَلِّفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِالْمُعَابَنَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا إِنَّمَا
 تَمَعْنَا وَلَمْ نَرَهُ كَذَا شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَجِيلٍ وَأَعْلَمَ أَنَّ اتِّجَالَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ قَدِيمٌ
 فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فَلَنَنْقُلَ مَذَاهِبَهُمْ فِي ذَلِكَ

ثم تلاوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه فنقول إن مبنى الكلام
 في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرفة وهي الذهب
 والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين هل هي مختلفات بالفصول
 وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو إنها مختلفة بخصوص من الكيفيات وهي كلها أصناف
 لنوع واحد فالذي ذهب إليه أبو النضر الفارابي وتابعة عليه حكماء الأندلس أنها
 نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليوسسة واللين والصلابة
 والألوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي
 ذهب إليه ابن سينا وتابعة عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنواع
 متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الأنواع
 وبني أبو نضر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض
 لإمكان تبدل الأعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة
 الكيمياء عنده ممكنة سهلة المآخذ وبني أبو علي بن سينا على مذهبه في اختلافها
 بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجوبها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة
 إليه وإنما خلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق
 رأساً بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه
 الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وابداعه
 وإنما هو في إعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الأعداد من لدن خالقه
 وبارئه كما يفرض النور على الأجسام بالصلق والإمهاء ولا حاجة بنا في ذلك إلى
 تصوره ومعرفة فيه قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها
 مثل العقرب من التراب والنتن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره
 أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فطدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب
 من قرون ذوات الطلائ وتصويره سكرًا بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح
 للقرون فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فنتخذ مادة تضيفها
 للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحاويلها
 بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعناه وهو

الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ سِينَا صَحِيحٌ لَكِنَّ لَنَا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
مَا أَخَذَ آخِرَ تَبَيِّنٍ مِنْهُ اسْتِحْصَالَهُ وَجُودَهَا وَبَطْلَانُ مَرْمُومِهِمْ أَجْمَعِينَ لَا الطُّغْرَانِيُّ وَلَا ابْنُ
سِينَا وَذَلِكَ أَنَّ حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ بِالِاسْتِعْدَادِ
الْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا مَوْضِعًا وَيُحَاذُونَ فِي تَدْبِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَدْبِيرَ الطَّبِيعَةِ فِي الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ
حَتَّى أَحَالَتْهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً وَيُضَاعِفُونَ الْقُوَى الْفَاعِلَةَ وَالْمُنْعِلَةَ لِتَيْمُّ فِي زَمَانٍ أَقْصَرَ
لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ مَضَاعِفَةَ قُوَّةِ الْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الذَّهَبَ
إِنَّمَا يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفِ وَتَمَانِينَ مِنَ السِّنِينَ دَوْرَةَ الشَّمْسِ الْكُبْرَى فَإِذَا
تَضَاعَفَتِ الْقُوَى وَالْكَيفِيَّاتُ فِي الْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذَلِكَ ضَرْوْرَةً عَلَى
مَا قُلْنَا أَوْ يَتَحَرَّوْنَ بِعِلَاجِهِمْ ذَلِكَ حُصُولَ صُورَةٍ بِنِجَابَةِ تِلْكَ الْمَادَّةِ تُصَبِّرُهَا
كُلَّ خَمِيرَةٍ فَتَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ الْمَعَالِجَ الْأَفَاعِيلَ الْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْأَكْبَرُ
عَلَى مَا نَقَدَّمَ. وَعَلِمَ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ الْعُنْصُرِيَّةِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَجْتِمَاعِ
الْعُنْصُرِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي النِّسْبَةِ لِمَا تَمَّ امْتِزَاجُهَا
فَلَا بُدَّ مِنَ الْجُزْءِ الْغَالِبِ عَلَى الْكُلِّ وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ مُمْتَزَجٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ مِنْ
حَرَارَةٍ غَرِيزِيَّةٍ هِيَ الْفَاعِلَةُ لِكَوْنِهِ الْحَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلَا بُدَّ
مِنْ اخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَانْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ التَّكْوِينِ مِنْ طَوْرِ إِلَى طَوْرِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى
غَايَتِهِ وَيَنْظُرُ شَانَ الْإِنْسَانِ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ ثُمَّ الْعَاقِقَةِ ثُمَّ الْمَضْغَةِ ثُمَّ التَّصْوِيرِ ثُمَّ الْجَنِينِ
ثُمَّ الْمَوْلُودِ ثُمَّ الرُّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نَهَائِهِ وَنِسْبِ الْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرِ تَخْتَلِفُ فِي مَقَادِيرِهَا
وَكَيْفِيَّاتِهَا وَإِلَّا لَسَانَ الطَّوْرِ الْأَوَّلِ يَعِينُهُ هُوَ الْآخِرُ وَكَذَا الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ فِي كُلِّ
طَوْرِ مُخَالَفَةٌ لَهَا فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ فَانْظُرْ إِلَى الذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ فِي مَعْدِنِهِ مِنْ
الْأَطْوَارِ مِنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَتَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ صَاحِبَ الْكِيمِيَاءِ
إِلَى أَنْ يَسَاقِ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ وَيُحَاذِيَهُ بِتَدْبِيرِهِ وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَمِنْ
شَرْطِ الصَّنَاعَةِ أَيْدًا تَصَوُّرُ مَا يَقْصَدُ إِلَيْهِ بِالصَّنْعَةِ فَمِنْ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ لِلْحِكْمَاءِ أَوْلُ
الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَآخِرُ الْفِكْرَةِ أَوْلُ الْعَمَلِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَصَوُّرِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لِلذَّهَبِ
فِي أَحْوَالِهِ الْمُبْتَدِئَةِ وَنِسْبَتِهَا الْمَتَفَاوِتَةِ فِي كُلِّ طَوْرِ وَاخْتِلَافِ الْحَارِ الْغَرِيزِيِّ عِنْدَ
اخْتِلَافِهَا وَمَقْدَارِ الزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرِ وَمَا يَنْبُؤُ عَنْهُ مِنْ مَقْدَارِ الْقُوَى الْمَضَاعِفَةِ وَيَقُومُ

مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة
 مزاجية كصورة الخميرة للخبز وتعمل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها
 وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وإنما حال
 من يدعي حصره على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من
 المني ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه
 وعلم ذلك علماً موحلاً بتفصيله حتى لا يشد منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا
 الإنسان وإلى له ذلك ولتقرب هذا البرهان بالأخصار ليسهل فهمه فنقول حاصل
 صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي
 ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة
 مزاجية تعمل في الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره وتقبله إلى صورتها والفعل الصناعي مسوق
 بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساومتها أو محاذاتها أو فعل المادة
 ذات القوى فيها تصوراً منفصلاً واحدة بعد أخرى وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم
 البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان
 أو نبات هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة
 الفصول كما رأيت ولا من الطبيعة إنما هو من تعدد الإحاطة وقصور البشر عنها
 وما ذكره ابن سينا بمنزلة عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك
 أن حكمة الله في الحجريين وتدورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم
 فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجردهما حتى لا يحصل
 أحد من اقتنائهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك
 أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي
 الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها أو أقل زماناً لما تركت
 الطبيعة إلى طريقها الذي ساكتته في كون الفضة والذهب وتخليقهما وأما تشبيه
 الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لا مثاله في الطبيعة كالعقرب والتحلل
 والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدي إليه العثور كما زعم. وأما الكيمياء فلم
 ينقل عن أحد من أهل العالم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون

فِيهَا عَشْوَاءٌ إِلَى هَلْمٍ جَرًّا وَلَا يَظْفَرُونَ إِلَّا بِالْحِكَايَاتِ الْكَاذِبَةِ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ
 مِنْهُمْ لَحَفِظَهُ عَنْهُ أَوْلَادُهُ أَوْ نَلَمِيذُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتَنَوَّقَلُ فِي الْأَصْدِقَاءِ وَضَمَنَ تَصَدِيقَهُ صِحَّةُ
 الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ الْبِنَاءَ وَإِلَى غَيْرِنَا. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْأَكْسِيرَ بِمَثَابَةِ
 الْحَمِيرَةِ وَإِنَّهُ مُرْكَبٌ يُحْمَلُ مَا يُحْمَلُ فِيهِ وَيَقَابَلُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْحَمِيرَةَ إِنَّمَا
 نَقَلِبُ الْعَجِينَ وَتُعَدُّهُ لِلْيَضْمِ وَهُوَ فَسَادٌ وَالْفَسَادُ فِي الْمَوَادِّ سَهْلٌ يَقَعُ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنْ
 الْأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِكْسِيرِ قَلْبُ الْعَمَلِينَ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى
 فَهُوَ تَكْوِينٌ وَصَلَاحٌ وَالتَّكْوِينُ أَصْعَبُ مِنَ الْفَسَادِ نَلَا يَقَاسُ الْإِكْسِيرُ بِالْحَمِيرَةِ
 وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِيمِيَاءَ إِنْ صَحَّ وُجُودُهَا كَمَا تَزْعُمُ الْحُكَمَاءُ الَّتِي كَلَّمُونِ
 فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ النَّجْرِيَّيْنِ وَأَمْثَالِهِمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ
 الصَّنَاعِ الطَّبِيعِيَّةِ وَلَا نَتَمُّ بِأَمْرِ صِنَاعِيٍّ وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مِنْ مَتَعَى الطَّبِيعِيَّاتِ إِنَّمَا
 هُوَ مِنْ مَتَعَى كَلَامِهِمْ فِي الْأُمُورِ السَّخْرِيَّةِ وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلْحَلَّاجِ
 وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مَسْلَمَةَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ رُتْبَةِ
 الْحَكِيمِ مِنْ هَذَا الْمَتَعَى وَهَذَا كَلَامُ جَابِرٍ فِي رِسَالَتِهِ وَتَحْوُ كَلَامِهِمْ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا
 حَاجَةَ بِنَا إِلَى شَرْحِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَمْرُهُمَا عِنْدَهُمْ مِنْ كَلِمَاتِ الْمَوَادِّ أَخْرَاجَةَ عَنْ حُكْمِ
 الصَّنَائِعِ نَكَمًا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ وَالْحَيَوَانُ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشَبًا أَوْ حَيَوَانًا
 فِيمَا عَدَا تَجَرِي تَخْلِيْقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ ذَهَبٌ مِنْ مَادَّةِ الذَّهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا
 يَتَغَيَّرُ طَرِيقَ عَادَتِهِ إِلَّا بِإِزْفَادِ مَا وَرَاءَ عَالَمِ الطَّبَائِعِ وَعَمَلِ الصَّنَائِعِ نَكَذَلِكَ مَنْ
 طَلَبَ الْكِيمِيَاءَ طَلَبًا صِنَاعِيًّا ضَعَّفَ مَالَهُ وَعَمَلَهُ وَيُقَالُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الصِّنَاعِيِّ التَّدْبِيرُ
 الْعَقِيمُ لِأَنَّ نَيْلَهُ إِنْ كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ وَاقِعٌ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبَائِعِ وَالصَّنَائِعِ كَالشَيْءِ عَلَى
 الْمَاءِ وَامْتِطَاءِ الْهَوَاءِ وَالتَّفْوِزِ فِي كَثَائِفِ الْأَجْسَادِ وَتَحْوُ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ
 الْخَارِقَةِ الْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَخْلِيْقِ الطَّيْرِ وَتَحْوُهَا مِنْ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ تَعَالَى وَإِذْ تَخْلُقُ
 مِنَ الطِّينِ كَيْمِيَةَ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَعَلَى ذَلِكَ فَسَبِيلُ تَبْسِيرِهَا
 مُخْتَلَفٌ بِحَسَبِ حَالِ مَنْ يُؤْتَاهَا فَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتِيهَا غَيْرُهُ فَكَوْنُ عِنْدَهُ مَعَارَةً
 وَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلِكُ إِتْيَانَهَا فَلَا نَتَمُّ فِي يَدِ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَكُونُ
 عَمَلُهَا سَخْرِيًّا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَفْعَلُ بِتَأْثِيرَاتِ النُّفُوسِ وَخَوَارِقِ الْعَادَةِ أَمَّا مُعْجَزَةٌ أَوْ

سِعْرًا وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ الْحُكَمَاءِ كُلِّهِمْ فِيهَا إِعْزَازًا لَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا مَنْ خَاضَ لُجَّةَ
 مِنْ عِلْمِ السَّعْرِ وَأَطَّلَعَ عَلَى تَصَرُّفَاتِ النَّفْسِ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَأُمُورِ خَرَقِ الْعَادَةِ غَيْرِ
 مُتَّحِرَةٍ وَلَا يَقْصِدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى
 النَّمَاسِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَاتِّخَالُهَا هُوَ كَمَا قُلْنَا هُ الْعِزُّ عَنِ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْمَعَاشِ
 وَابْتِغَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ وَجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْفَلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَسْتَصْعِبُ الْعَاجِزُ
 ابْتِغَاءَهُ مِنْ هَذِهِ وَيَرُومُ الْحُصُولَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ دَفْعَةً بُوْجُوهٍ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ
 مِنَ الْكِيمِيَاءِ وَغَيْرِهَا وَأَكْثَرُ مَنْ يَعْنِي بِذَلِكَ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ حَتَّى فِي الْحُكَمَاءِ
 الْمُنْتَكَلِمِينَ فِي انْكَارِهَا وَاسْتِحَالَتِهَا فَإِنَّ ابْنَ سِيدِنَا الْقَائِلَ بِاسْتِحَالَتِهَا كَانَ عَلَيْهِ الْوُزْرَاءُ
 فَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ وَالنَّارِيَةِ الْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يُعَوِّزُهُمْ
 إِذْنِي بُلْغَةَ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ وَهَذِهِ تَهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ النَّفُوسِ الْمَوْلَعَةِ بِطَرْفِهَا
 وَاتِّخَالِهَا وَاللَّهُ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إِعْلَمَ أَنَّهُ مِمَّا أَضْرَبَ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُفُوفِ عَلَى غَايَاتِهِ كَثْرَةُ التَّأْلِيفِ
 وَاخْتِلَافُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَتَعَدُّ طُرُقِهَا ثُمَّ مَطَالَبَةُ الْمُتَعَلِّمِ وَالتَّلْمِيذِ بِاسْتِحْضَارِ
 ذَلِكَ وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ لَهُ مَنْصِبُ التَّحْصِيلِ فَيُحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِظِّهَا كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا
 وَمُرَاعَاةِ طُرُقِهَا وَلَا يَبِي عُمُرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقَعُ الْقُصُورُ وَلَا
 يَدُونُ رُتْبَةَ التَّحْصِيلِ وَيُمَثِّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْفِقْهِ فِي الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ بِالْكِتَابِ
 الْمَدُونَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُوحَاتِ الْفِقْهِيَّةِ مِثْلَ كِتَابِ ابْنِ يُونُسَ وَاللَّخْمِيِّ
 وَابْنِ بَشِيرٍ وَالتَّنْبِيْهَاتِ وَالْمَقْدَّمَاتِ وَالْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ وَكَذَلِكَ كِتَابُ ابْنِ
 الْحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَى تَمْيِيزِ الطَّرِيقَةِ الْقَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ الْقُرْطُوبِيَّةِ
 وَالبَغْدَادِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ وَطُرُقِ الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ وَالْإِحَاطَةَ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ
 لَهُ مَنْصِبُ الْفِتْيَانِ وَحِي كُلُّهَا مُتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَالتَّعَلُّمُ مُطَالَبٌ بِاسْتِحْضَارِ جَمِيعِهَا
 وَتَمْيِيزِ مَا بَيْنَهَا وَالتَّمَرُّمُ بِتَقْضِي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا وَلَوْ اقتصَرَ الْمُعَلِّمُونَ بِالمُعْتَلِمِينَ عَلَى
 الْمَسَائِلِ الْمَذْهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكَانَ الْأَمْرُ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ وَكَانَ التَّعَلُّمُ سَهْلًا وَمَا خَذَهُ

قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك كيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطعم أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بأبن هاشم ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن حنبل وأهل طبقتهم العظمى مآكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريجه وحسن تصرفه فيه ودل على أن الفضل ليس مختصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله بؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والأفاظ أظهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المولفة في العلوم مخلة بالتعليم ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأبحاث في العلوم يولعون بها ويدونون منها بزائجا مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلاً بالبلغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فأخصروها تقريباً الخنظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية وأخونفي في المنطق ومثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتديء بالقاء العايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار الغريبة للفهم بتراحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل

مِنْ بَيْنَهَا لِأَنَّ الْفَاطَ الْمُخْتَصِرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ صَعْمَةً عَوِيصَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حَظُّ
صَالِحٍ عَنِ الْوَقْتِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَالْمَلِكَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ التَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ الْمُخْتَصِرَاتِ إِذَا
تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقِبْهُ آفَةٌ فِيهِ مَلِكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَحْصُلُ مِنَ
الْمَوْضُوعَاتِ الْبَسِيطَةِ الْمَطْوَلَةِ بِكَرَّةٍ مَا يَقَعُ فِي تِلْكَ مِنَ التَّكْرَارِ وَالْإِحَالَةِ الْمَفِيدِينَ
لِحُصُولِ الْمَلِكَةِ التَّامَّةِ وَإِذَا أَقْتَصَرَ عَلَى التَّكْرَارِ قَصُرَتِ الْمَلِكَةُ لِقَلْتِهِ كَشَانِ
هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُخْتَصِرَةِ فَقَصَدُوا إِلَى تَسْمِيلِ الْخَفِظِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَعْبًا
يَقْطَعُهُمْ عَنِ تَحْصِيلِ الْمَلَكَاتِ النَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ
يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

اعْلَمَنَّ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مَفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى النَّدْرِ حَيْجٌ شَيْئًا
فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذَلِكَ الْبَابِ
وَيُقَرَّبُ لَهُ فِي سَرَحِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَيُرَاعَى فِي ذَلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَأَسْتَعْدَادُهُ لِقَبُولِ
مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلِكَةٌ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ
إِلَّا أَنَّهُا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَعَايَتُهَا أَنَّهُا هَيَأْتِيهَا لِفَهْمِ الْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ
إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي التَّلْقِينَ عَنِ تِلْكَ الرَّثْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ
وَالْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ الْإِجْمَالِ وَيَذْكَرُ لَهُ مَا هُنَاكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ
يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَيَجُودُ مَلِكَتُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مِنْهَا
وَلَا مَغْلَقًا إِلَّا وَضَحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مَقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَى مَلِكَتِهِ هَذَا
وَجْهَ التَّعْلِيمِ الْمَفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكَرُّرَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ
فِي أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَخْلُقُ لَهُ وَيَتَسَرَّرُ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ
لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي أَدْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ التَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيَحْضُرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ
تَعْلِيمِهِ الْمَسَائِلَ الْمُقْفَلَةَ مِنَ الْعِلْمِ وَيَطْلُبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذَهْنِهِ فِي حَالِهَا وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ
مِرَاتًا عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَعِي ذَلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلُطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يَقُونَ
لَهُ مِنْ غَايَاتِ الْفَنُونِ فِي مَبَادِيهَا وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنَّ قَبُولَ الْعِلْمِ وَالْإِسْتَعْدَادَاتِ

لَفَهْمِهِ تَنْشَأُ تَدْرِيجًا وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ أَوَّلَ الْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ
وَعَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالْإِجْمَالِ وَالْأَمْثَالِ الْحَسِيَّةِ ثُمَّ لَا يَزَالُ الْأَسْتِعْدَادُ فِيهِ
يَتَدَرَّجُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَكَرُّرِهَا عَلَيْهِ وَالْأَسْتِعْدَادُ ثُمَّ فِي
التَّخْصِيلِ وَيُحِيطُ هُوَ بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أُقْبِتَ عَلَيْهِ الْغَايَاتُ فِي الْبِدَائِءِ وَهُوَ حِينئِذٍ
عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَبَعِيدٌ عَنِ الْأَسْتِعْدَادِ لَهُ كُلُّ ذَهْنُهُ عَنْهَا وَحَسِبَ ذَلِكَ مِنْ
صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَكَاسَلَ عَنْهُ وَأَنْحَرَفَ عَنْ قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِي هُجْرَانِهِ وَإِنَّمَا آتَى
ذَلِكَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ وَلَا يَنْبَغِي لِلدَّعَلِمِ أَنْ يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ الَّذِي أَكَبَّ
عَلَى التَّعْلِيمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُتَمْتِعًا وَلَا يَخْطُ
مَسَائِلَ الْكِتَابِ بغيرِهَا حَتَّى يَبْعَثَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحْصِلُ أَغْرَاضَهُ وَيَسْتَوْلي مِنْهُ
عَلَى مَلَكَتِهَا بِغَيْرِهِ لِأَنَّ الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَلَ مَلَكَتَهُ مَا فِي عِلْمِهِ مِنَ الْعُلُومِ
أَسْتَعَدَّ بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ لُشَاطُ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ وَالنُّهُوسِ إِلَى مَا فَوْقَ حَتَّى
يَسْتَوْلي عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ وَإِذَا خَاطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ عَجِزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَدْرَكَهُ الْكِلَالُ
وَأَنْطَمَسَ فِكْرُهُ وَبَيْسَ مِنَ التَّخْصِيلِ وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَكَذَلِكَ
يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تُطَوَّلَ عَلَى الدَّعَلِمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ الْجِبَالِسِ وَتَقْطِيعِ مَا
بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى النَّسِيَانِ وَأَنْقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَعْسُرُ حُصُولُ
الْمَلَكَتِ بِتَفْرِيقِهَا وَإِذَا كَانَتْ أَوَائِلُ الْعِلْمِ وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الذِّكْرَةِ بِجَانِبَةِ
النَّسِيَانِ كَانَتْ الْمَلَكَتُ أَيْسَرُ حُصُولًا وَأَحْكَمَ أَرْبَابًا وَأَقْرَبَ صِغَةً لِأَنَّ الْمَلَكَاتِ
إِنَّمَا تَحْصُلُ بِتَتَابُعِ النُّعْلِ وَتَكَرُّرِهِ وَإِذَا تَوَسَّيَ النُّعْلُ تَوَسَّيَتِ الْمَلَكَتُ النَّاشِئَةَ عَنْهُ
وَاللَّهُ عَلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ وَمِنْ الدَّهَابِ الْجَمِيلَةِ وَالطَّرِيقِ الْوَاجِبَةِ فِي
التَّعْلِيمِ أَنْ لَا يَخْطُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا فَإِنَّهُ حِينئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا
فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ وَأَنْصِرَفِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفْهَمِ الْآخِرِ فَيَسْتَعْلِقَانِ مَعًا
وَيَسْتَصْعَبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَبِيَةِ وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِلتَّعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ
قَرَّبَمَا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ لِتَخْصِيلِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ وَأَعْلَمُ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ
أَنِّي أُخَفِّكَ بِقَائِدَةٍ فِي تَعْلَمِكَ فَإِنْ تَلَقَّيْتَهَا بِالْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا بِيَدِ الصَّنَاعَةِ ظَفَرْتَ
بِكَنْزٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ وَأَقْدَمُ لَكَ مُقَدِّمَةٌ تَعِينُكَ فِي فَهْمِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْفِكْرَ

الْإِنْسَانِيَّةَ طَبِيعَةً مُخْصُوصَةً فَطَرَهَا اللَّهُ كَمَا فَطَرَ سَائِرَ مُبْتَدِعَاتِهِ وَهُوَ وَجَدَانُ حَرَكَةِ لِلنَّفْسِ
 فِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ مِنَ الدِّمَاغِ تَارَةً يَكُونُ مَبْدَأًا لِلْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ
 وَتَارَةً يَكُونُ مَبْدَأًا لِإِعْلَامِ مَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَطْلُوبِ وَقَدْ يُصَوِّرُ طَرَفِيَّةً
 يَرُومُ نَفْسِيَّةً أَوْ إِثْبَاتَهُ فَيُؤَخِّرُ لَهُ الْوَسْطَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَسْرَعَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ إِنْ
 كَانَ وَاحِدًا أَوْ يَنْتَقِلُ إِلَى تَحْصِيلِ آخَرَ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّدًا وَيَصِيرُ إِلَى الظَّفَرِ بِمَطْلُوبِهِ
 هَذَا شَأْنُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا الْبَشَرُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ الصَّنَاعَةُ
 الْمَنْطِقِيَّةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ فِعْلِ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ تَصْنُهُ لِتَعْلَمَ سَدَادَةَ مِنْ خَطَائِهِ
 وَأَنْبَاءَ وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ لَهَا ذَاتِيًّا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ بَعِثَ لَهَا الْخَطَأَ فِي الْأَوَّلِ مِنْ تَصَوُّرِ
 الطَّرْفَيْنِ عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِمَا مِنْ أَشْتَبَاهِ الْهَيْئَاتِ فِي نِظْمِ الْقَضَايَا وَتَرْتِيبِهَا لِلنَّتَاجِ فَتُعِينُ
 الْمَنْطِقَ لِلتَّخْلُصِ مِنْ وَرْطَةِ هَذَا الْفَسَادِ إِذَا عَرَّضَ فَالْمَنْطِقُ إِذَا أَمَرَ صِنَاعِيًّا مُسَاقِمْ
 لِلطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَمَنْطِقٌ عَلَى صُورَةٍ فِعْلِيَّةٍ وَلِكُونِهِ أَمْرًا صِنَاعِيًّا اسْتغْنَى عَنْهُ فِي الْأَكْثَرِ
 وَأَلْذَلِكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ فِعُولِ النَّظَارِ فِي الْخَلِيقَةِ يَحْصُلُونَ عَلَى الْمَطْلَبِ فِي الْعُلُومِ دُونَ
 صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ وَلَا سِيَّامَا مَعَ صِدْقِ النِّيَّةِ وَالنَّعْزُضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مَعْنَى
 وَيَسْلُكُونَ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى سَدَادِهَا فَيُفْضِي بِالطَّبَعِ إِلَى حُصُولِ الْوَسْطِ وَالْعِلْمِ
 بِالْمَطْلُوبِ كَمَا فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ ثُمَّ مِنْ دُونِ هَذَا الْأَمْرِ الصِّنَاعِيِّ الَّذِي هُوَ الْمَنْطِقُ
 مُقَدِّمَةٌ أُخْرَى مِنَ التَّعْلَمِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتِهَا عَلَى الْمَعَانِي الذَّهْنِيَّةِ تَرُدُّهَا مِنْ
 مُشَافَهَةِ الرُّسُومِ بِالْكِتَابِ وَمُشَافَهَةِ اللِّسَانِ بِالْخَطِّابِ فَلَا بُدَّ أَيْهَا الْمُتَعَلِّمُ مِنْ مَجَاوَزَتِكَ
 هَذِهِ الْحُجْبَ كُلِّهَا إِلَى الْفِكْرِ فِي مَطْلُوبِكَ فَأَوْلَادُ دَلَالَةِ الْكِتَابَةِ الْمَرْسُومَةِ عَلَى الْأَلْفَاظِ
 الْمَقُولَةِ وَهِيَ أَخْفَاهُ ثُمَّ دَلَالَةُ الْأَلْفَاظِ الْمَقُولَةِ عَلَى الْمَعَانِي الْمَطْلُوبَةِ ثُمَّ الْقَوَائِدُ فِي تَرْتِيبِ
 الْمَعَانِي لِلِاسْتِدْلَالِ فِي قَوَائِمِهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ ثُمَّ تِلْكَ الْمَعَانِي مُجَرَّدَةٌ فِي
 الْفِكْرِ اشْتِرَاطًا يَقْتَضِي بِهَا الْمَطْلُوبُ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ بِالنَّعْزُضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَمَوَاهِبِهِ
 وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ بِسُرْعَةٍ وَلَا يَقْطَعُ هَذِهِ الْعَجَبَ فِي التَّعْلِيمِ بِسَهُولَةٍ
 بَلْ رُبَّمَا وَقَفَ الذَّهْنُ فِي حُجْبِ الْأَلْفَاظِ بِالْمُنَاقَشَاتِ أَوْ عَثَرَ فِي اشْتِرَاكِ الْأَدَلَّةِ بِشَغْبِ
 الْجِدَالِ وَالتُّشْبِهَاتِ وَقَعَدَ عَنْ تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ وَلَمْ يَكْدِ يَتَخَلَّصُ مِنْ تِلْكَ الْعَمْرَةِ إِلَّا
 قَلِيلٌ مِمَّنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِذَا أَبْتَلَيْتَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَعَرَّضَ لَكَ أَرْبَابَكَ فِي فَهْمِكَ أَوْ

تَشْعِيبُ بِالشُّبُهَاتِ فِي ذَهْنِكَ فَاطْرَحَ ذَلِكَ وَانْتَبَذَ حُجْبَ الْأَلْفَاظِ وَعَوَاقِقَ الشُّبُهَاتِ
وَأَتْرَكَ الْأَمْرَ الصَّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَأَخْلَصَ إِلَى فِضَاءِ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فُطِرَتْ عَلَيْهِ
وَسَرَّحَ نَظْرَكَ فِيهِ وَفَرَّغَ ذَهْنَكَ فِيهِ لِلْغَوْصِ عَلَى زَمَانِكَ مِنْهُ وَاضْعًا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا
أَكْبَرُ النَّظَارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ
بِالظَّفَرِ بِطُلُوبِكَ وَحَصَلَ الْإِمَامُ الْوَسْطُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُفْتَضِيَاتِ هَذَا الْفِكْرِ
وَنَظَرِهِ عَلَيْهِ كَمَا قُلْنَا وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ بِهِ إِلَى قَوَائِبِ الْأَدَلَّةِ وَصُورِهَا فَأَفْرِغْ فِيهَا
وَوَفِّهِ حَقَّهُ مِنَ الْقَانُونِ الصَّنَاعِيِّ ثُمَّ أَكْسَهُ صُورَ الْأَلْفَاظِ وَأَبْرَزَهُ إِلَى عَالَمِ الْخَطَابِ
وَالْمُشَافَهَةِ وَثَبِثَ الْعُرَى صَحِيحَ الْبَيَانِ. وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ الْمُنَاقَشَةِ وَالشُّبُهَةِ فِي الْأَدَلَّةِ
الصَّنَاعِيَّةِ وَتَمَحَّيَصِ صَوَابِهَا مِنْ خَطَائِهَا وَهَدْيِهِ أُمُورَ صِنَاعِيَّةٍ وَضَعِيَّةٍ تَسْتَوِي جِهَاتِهَا
الْمُتَعَدِّدَةَ وَتَشَابُهَ لِأَجْلِ الْوَضْعِ وَالْإِضْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةٌ الْحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةٌ
الْحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ إِذَا كَانَتْ بِالطَّبِيعِ فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ الشُّكِّ وَالْإِزْتِيَابِ وَتَسُدُّ
الْحُجْبَ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَتَقْعُدُ بِالنَّظَرِ عَنْ تَحْصِيلِهِ وَهَذَا شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ النَّظَارِ
وَالْمُتَأَخِّرِينَ سِيمَا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عُجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرَبَطَتْ عَنْ ذَهْنِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شُغْبٌ
بِالْقَانُونِ الْمُنْطَقِيِّ تَعَصَّبَ لَهُ فَأَعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ بِالطَّبِيعِ فَيَقَعُ فِي
الْحَبْرَةِ بَيْنَ شَبْهِ الْأَدَلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا وَالذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ
بِالطَّبِيعِ إِنَّمَا هُوَ الْفِكْرُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا قُلْنَا إِذَا جَرَّدَ عَنْ جَمِيعِ الْأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ لِلنَّظَرِ
فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الْمُنْطَقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِنَعْلِ هَذَا الْفِكْرِ فَيَسَاوِفُهُ
فِي الْأَكْثَرِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَاسْتَمِطِرْ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى مَتَى أَعُوذُكَ مِنْهُمْ الْمَسَائِلِ
تُشْرِقُ عَلَيْكَ أَنْوَارُهُ بِالْإِلْهَامِ إِلَى الصَّوَابِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الفصل الثلاثون

في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل
اعلم ان العلوم المتعارفة بين اهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات
كالتشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والالهيات

مِنَ الْفَلْسَفَةِ وَعُلُومٍ هِيَ وَسِيلَةٌ إِلَى هَذِهِ الْعُلُومِ كَالْعَرَبِيَّةِ وَالْحِسَابِ وَغَيْرِهِمَا لِشَرَعِيَّاتِ
 كَالْمَنْطِقِ لِلْفَلْسَفَةِ وَرُبَّمَا كَانَ اللَّهُ لِعِلْمِ الْكَلَامِ وَإِصُولِ الْفِقْهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَأَخَّرِينَ
 فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا وَتَضَرُّعِ الْمَسَائِلِ
 وَاسْتِكْشَافِ الْأَدَلَّةِ وَالْإِنظَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مَلَكَتِهِ وَإِيضًا حَافَا
 لِمَعَانِيهَا الْمَقْصُودَةِ وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ اللَّهُ لِغَيْرِهَا مِثْلَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهَا فَلَا
 يَنْبَغِي أَنْ يُنظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ اللَّهُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ وَلَا يَوْسَعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا
 تُفْرَعُ الْمَسَائِلُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرَجٌ لَهَا عَنِ الْمَقْصُودِ إِذَا الْمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ اللَّهُ لَهُ لَا غَيْرُ
 فَكَمَا خَرَجَتْ عَنِ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْمَقْصُودِ وَصَارَ الْأَشْغَالُ بِهَا لِعَوَامِّ مَعَ مَا فِيهِ
 مِنْ صُعُوبَةٍ أَحْصُولٌ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطُولِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنِ
 تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ لِطُولِ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهْمٌ وَالْعُمُرُ يَقْصُرُ عَنِ
 تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَيَكُونُ الْأَشْغَالُ بِهَذِهِ الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ تَضْيِعًا لِلْعُمُرِ
 وَشُغْلًا بِمَا لَا يَبْعِي وَهَذَا كَمَا فَعَلَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي صِنَاعَةِ النَّحْوِ وَصِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ وَأُصُولِ
 الْفِقْهِ لِأَنَّهُمْ أَوْسَعُوا دَائِرَةَ الْكَلَامِ فِيهَا وَكَثَرُوا مِنَ التَّفَارِيعِ وَالِاسْتِدْلالاتِ بِمَا
 أَخْرَجَهَا عَنِ كَوْنِهَا اللَّهُ وَصَيَّرَهَا مِنَ الْمَقَاصِدِ وَرُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا أَنْظَارٌ لَا حَاجَةَ بِهَا فِي
 الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ فِيهِ مِنْ نَوْعِ اللَّغْوِ وَهِيَ أَيْضًا مُضِرَّةٌ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِأَنَّ
 الْمُتَعَلِّمِينَ أَهْتَمَّامُهُمْ بِالْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْتَمَّامِهِمْ بِوَسَائِلِهَا فَإِذَا قَطَعُوا
 الْعُمُرَ فِي تَحْصِيلِ الْوَسَائِلِ فَحَتَّى يَنْظُرُونَ بِالْمَقَاصِدِ فَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ لِهَذِهِ
 الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ أَنْ لَا يَسْتَجِرُّوا فِي شَأْنِهَا وَيُنْبِهُوا الْمُتَعَلِّمَ عَلَى الْغَرَضِ مِنْهَا وَيَقْفُوا بِهِ عِنْدَهُ
 فَمَنْ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّوَعُّلِ فَلْيَبْرُقْ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَرَاقِي صَعْبًا
 أَوْ سَهْلًا وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ

الفصل الواحد والثلاثون

فِي تَعْلِيمِ الْوَالِدَانِ وَاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي طَرِيقِهِ
 اعْلَمْ أَنَّ تَعْلِيمَ الْوَالِدَانِ لِلْقُرْآنِ شِعَارُ الدِّينِ أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْمِلَّةِ وَدَرَجُوا عَلَيْهِ
 فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ لِمَا يَسْبِقُ فِيهِ إِلَى الْقُلُوبِ مِنْ رُسُوخِ الْإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِنْ
 آيَاتِ الْقُرْآنِ وَبَعْضِ مَتُونِ الْأَحَادِيثِ وَصَارَ الْقُرْآنُ أَصْلَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَيْهِ

مَا يَحْصُلُ بَعْدَ مِنَ الْمَمْلَكَاتِ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصَّغَرِ أَشَدُّ رُسُوحًا وَهُوَ
 أَصْلٌ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَمْلَكَاتِ وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ
 وَأَسَالِيهِ يَكُونُ حَالٌ مِنْ يَبْنِي عَلَيْهِ وَأَخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوِلْدَانِ
 بِأَخْتِلَافِهِمْ بِاعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَمْلَكَاتِ فَأَمَّا أَهْلُ الْمَغْرِبِ
 فَمَتَدَهَبُهُمْ فِي الْوِلْدَانِ الْأَفْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فَقَطُّ وَأَخَذَهُمْ أَثْنَاءَ الْمُدَارَسَةِ
 بِالرَّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَأَخْتِلَافِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلُطُونَ ذَلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ
 مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لِأَنَّ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فَهْمٍ وَلَا مِنْ شِعْرِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى أَنْ
 يَحْذِقَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ انْقِطَاعُهُ فِي الْغَالِبِ انْقِطَاعًا عَنِ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ وَهَذَا
 مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قَوْمِ الْبَرْبَرِ أُمَّةِ الْمَغْرِبِ فِي وِلْدَانِهِمْ
 إِلَى أَنْ يَجَاوِزُوا وَاحِدَ الْبُلُوغِ إِلَى الشَّيْبَةِ وَكَذَا فِي الْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ مُدَارَسَةَ الْقُرْآنِ
 بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عُمُرِهِ فَهُمْ لِنَاكَ أَقْوَمُ عَلَى رَسْمِ الْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ
 الْأَنْدَلُسِ فَمَتَدَهَبُهُمْ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرَاعُونَهُ فِي
 التَّعْلِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَصْلَ ذَلِكَ وَأَسَسَهُ وَمَنْبَعِ الدِّينِ وَالْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلًا
 فِي التَّعْلِيمِ فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَطُّ بَلْ يَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ الْوِلْدَانَ رِوَايَةَ الشَّعْرِ
 فِي الْغَالِبِ وَالتَّرْسُلَ وَأَخَذَهُمْ بِقَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَنْظِلِهَا وَتَجْوِيدِ الْخَطِّ وَالْكِتَابِ وَلَا
 تَخْتَصُّ عِنَايَتَهُمْ فِيهِ بِالْخَطِّ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِهَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْوَالِدُ مِنْ عُمُرِ الْبُلُوغِ إِلَى
 الشَّيْبَةِ وَقَدْ شَدَّ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالشَّعْرِ وَالْبَصْرِ بِهَيَا وَبَرَزَ فِي الْخَطِّ وَالْكِتَابِ
 وَتَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ الْعِلْمِ عَلَى الْجُمْلَةِ لَوْ كَانَ فِيهَا سَنَدُ تَعْلِيمِ الْعُلُومِ لَكِنَّهُمْ يَنْقَطِعُونَ عَنْ
 ذَلِكَ لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِي أَفَاقِهِمْ وَلَا يَحْصُلُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ
 التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَفِيهِ كِفَايَةُ لِمَنْ أَرشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَسْتَعْدَادُ إِذَا وَجِدَ الْمُعَلِّمَ وَأَمَّا
 أَهْلُ أَفْرِيْقِيَّةَ فَيَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ الْقُرْآنَ بِالْحَدِيثِ فِي الْغَالِبِ وَمُدَارَسَةَ قَوَانِينِ
 الْعُلُومِ وَتَلْقِينَ بَعْضَ مَسَائِلِهَا إِلَّا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِالْقُرْآنِ وَأَسْتَنْظَارَ الْوِلْدَانَ إِيَّاهُ وَوُقُوفَهُمْ
 عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِ وَقِرَاءَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهُ وَعِنَايَتَهُمْ بِالْخَطِّ تَبَعٌ لِذَلِكَ وَبِالْجُمْلَةِ
 فَطَرِيقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ أَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَسْتَقْرُوا ابْتُونَسَ وَعَنْهُمْ
 أَخَذَ وِلْدَانُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ فَيَخْلُطُونَ فِي التَّعْلِيمِ كَذَلِكَ عَلَى مَا بَلَّغْنَا

وَلَا أَدْرِي بِمَعْنَاهُمْ مِنْهَا وَالَّذِي يُقَالُ لَنَا أَنْ عَيَّاتِهِمْ بِدِرَاسَةِ الْقُرْآنِ وَصُحُفِ الْعِلْمِ
 وَقَوَائِنِهِ فِي زَمَنِ السَّبِيْبَةِ وَلَا يَخْلُطُونَ بِتَعْلِيمِ الْخَطِّ بَلْ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ عِنْدَهُمْ قَانُونٌ
 وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى انْفِرَادِهِ كَمَا تُتَعَلَّمُ سَائِرُ الصَّنَائِعِ وَلَا يَتَدَاوَلُونَهَا فِي مَكَاتِبِ الصَّبِيَّانِ وَإِذَا
 كَتَبُوا لَهُمُ الْأَلْوَاحَ فَيَخْطُطُ قَاصِرٍ عَنِ الْأَجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعَلَّمَ الْخَطَّ فَعَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَحِ
 لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْهَيْمَةِ فِي طَلَبِهِ وَبِتَغْيِيهِ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ
 فَأَادَهُمُ الْإِفْتِصَارُ عَلَى الْقُرْآنِ الْقُصُورَ عَنِ مَلَكَةِ اللِّسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا
 يَنْشَأُ عَنْهُ فِي الْعَالِبِ مَلَكَةٌ لِمَا أَنَّ الْبَشَرَ مَضْرُوفُونَ عَنِ الْإِيْتِيَانِ بِمِثْلِهِ فَهُمْ مَضْرُوفُونَ
 لِذَلِكَ عَنِ الْأَسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيْبِهِ وَالْإِحْتِدَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكَةٌ فِي غَيْرِ أَسَالِيْبِهِ
 فَلَا يَحْضُرُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحِظَةُ الْجُمُودِ فِي الْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ التَّصَرُّفِ
 فِي الْكَلَامِ وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيْقِيَّةَ فِي ذَلِكَ أَخْفَ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِمَا يَخْلُطُونَ
 فِي تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ الْعُلُومِ فِي قَوَائِنِهَا كَمَا قُلْنَا هُ فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ
 التَّصَرُّفِ وَمُحَادَاةِ الْمَثَلِ بِالْمَثَلِ إِلَّا أَنَّ مَا يَكْتُمُهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ كَمَا
 سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَأَادَهُمُ التَّفَنُّنُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ رَوَايَةِ الشِّعْرِ
 وَالتَّرْسُلِ وَمُدَارَسَةُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ الْعُمُرِ حُصُولَ مَلَكَةِ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَقَصَّرُوا فِي سَائِرِ الْعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ مُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ
 أَصْلُ الْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حِظٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقْصِرٍ عَلَى حَسَبِ مَا
 يَكُونُ التَّعْلِيمُ الثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الصَّبِيِّ وَقَدْ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي
 كِتَابِ رِحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةِ غَرِبِيَّةَ فِي وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ
 الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ قَالِ لِأَنَّ الشِّعْرَ دِيْوَانُ
 الْعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَفْدِيْمِهِ وَتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ضَرُورَةٌ فَسَادَ الْأَعْيُنُ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ
 إِلَى الْحِسَابِ فَيَتِمَّرَنَ فِيهِ حَتَّى يَرَى الْقَوَائِنَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرَسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَسَرَّرُ
 عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْمَقْدِمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفْلَةَ أَهْلِ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللَّهِ فِي
 أَوَامِرِهِ وَيَقْرَأَ مَا لَا يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِ أَهْمٌ مَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُولِ
 الدِّينِ ثُمَّ أُصُولِ الْفِقْهِ ثُمَّ الْجَدَلِ ثُمَّ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُطَ فِي التَّعْلِيمِ
 عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجُودَةِ الْفَهْمِ وَالنَّشَاطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي

أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ لِعَمْرِي مَذْهَبٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ لَا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَهِيَ أَمَّا كُ
 بِالْأَحْوَالِ وَوَجْهٌ مَا اخْتَصَّتْ بِهِ الْعَوَائِدُ مِنْ تَقَدُّمِ دَرَاةِ الْقُرْآنِ إِثَارًا لِلتَّبَرُّكِ وَالتَّوَابِ
 وَخَشْيَةِ مَا يَعْزُضُ لِلوَالِدِ فِي جُنُونِ الصَّبِيِّ مِنَ الْآفَاتِ وَالْقَوَاطِعِ عَنِ الْعِلْمِ فَيَقْوُهُ الْقُرْآنُ
 لِأَنَّهُ مَا دَامَ فِي الْحَجْرِ مُنْقَادًا لِلْحُكْمِ فَإِذَا تَجَاوَزَ الْبُلُوغَ وَأَخْلَجَ مِنْ رِبْقَةِ الْقَهْرِ قَرِيبًا
 عَصَفَتْ بِهِ رِيَاحُ الشَّبِيبَةِ فَأَلْقَتْهُ بِسَاحِلِ الْبَطَالَةِ فَيَعْتَمِدُونَ فِي زَمَانِ الْعَجْرِ وَرِبْقَةِ
 الْحُكْمِ تَحْصِيلَ الْقُرْآنِ لِمَلَأَ يَدَهُبَ خُلُوعًا مِنْهُ وَلَوْ حَصَلَ الْيَقِينُ بِاسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ
 الْعِلْمِ وَقَبُولِهِ التَّعْلِيمَ لَكَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَوَّلَى مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ
 الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُشَاءُ لَا مَعْجِبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضره بهم

وَذَلِكَ أَنَّ إِزْهَافَ الْحَدِّ بِالتَّعْلِيمِ مُضِرٌّ بِالتَّعْلِيمِ سِيمَا فِي أَصَاغِرِ الْوَالِدِ لِأَنَّهُ مِنْ سُوءِ
 الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِالْعَسْفِ وَالْقَهْرِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ أَوْ الْمَمَالِكِ أَوْ الْخَدَمِ
 سَطَا بِهِ الْقَهْرُ وَضَبَقَ عَنِ النَّفْسِ فِي انْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنَسَاطِهَا وَدَعَاهُ إِلَى الْكَسَلِ وَحَمَلَ
 عَلَى الْكُذْبِ وَالْحُبْثِ وَهُوَ التَّظَاهُرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفًا مِنْ انْبِسَاطِ الْأَيْدِي بِالْقَهْرِ
 عَلَيْهِ وَعِلْمُهُ الْمَكْرُ وَالْخُدَيْعَةُ لِذَلِكَ وَصَارَتْ لَهُ هَذِهِ عَادَةٌ وَخُلُقًا وَفَسَدَتْ مَعَانِي
 الْأَنْسَانِيَّةِ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ الْأَجْتِمَاعُ وَالتَّمَرُّنُ وَهِيَ الْحَمِيَّةُ وَالْمُدَافَعَةُ عَنِ نَفْسِهِ وَمَنْزِلُهُ
 وَصَارَ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ بَلْ وَكَسَلَتِ النَّفْسُ عَنِ اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَالْحُلُقِ
 الْجَمِيلِ فَأَنْقَبَضَتْ عَنْ عَايَشَتِهَا وَمَدَى انْسَانِيَّتِهَا فَارْتَكَسَ وَعَادَ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ وَهَكَذَا
 وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ فِي قَبْضَةِ الْقَهْرِ وَنَالَ مِنْهَا الْعَسْفُ وَاعْتَبِرَهُ فِي كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ
 أَمْرُهُ عَلَيْهِ وَلَا تَكُونُ الْمَلَائِكَةُ الْكَافِلَةَ لَهُ رَفِيقَةً بِهِ وَتَجِدُ ذَلِكَ فِيهِمْ اسْتِقْرَاءً
 وَانْظُرُهُ فِي الْيَهُودِ وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ السُّوءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُوصَفُونَ فِي كُلِّ
 أَفْقٍ وَعَصْرٍ بِالْحَرْجِ وَمَعْنَاهُ فِي الْأَصْطِلَاحِ الْمَشْهُورِ التَّخَابُثُ وَالْكَيدُ وَسَبَبُهُ مَا قُلْنَا
 فَيَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ فِي مُتَعَلِّمِهِ وَالْوَالِدِ فِي وَلَدِهِ أَنْ لَا يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِمَا فِي التَّأْدِيبِ وَقَدْ قَالَ
 مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَلْفَهُ فِي حُكْمِ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ لَا يَنْبَغِي
 لِمُؤَدِّبِ الصَّبِيَّانِ أَنْ يَزِيدَ فِي ضَرِّهِمْ إِذَا احْتَجَرُوا إِلَيْهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ شَيْئًا وَمِنْ

كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤد به الشرع لا أدبه الله حرصاً على صون النفوس
 عن مدلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملاك له فإنه أحلم
 بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشد لعالم ولديه محمد الأمين
 فقال يا أحمراً إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصبر يدك عليه
 مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن
 وعرفه الأخبار ورواه الأشعار وعلّمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدبه وامنعه
 من الضحك إلا في أوقاته وخذ به تعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع
 مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مفتنم فائدة تفيده
 أياها من غير أن تحزنه فتमित ذهنه ولا تمنع في مسأخته فيستجلي الفراغ ويألفه
 وقومه ما استطعت بالقرب واللاينة فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة انتهى

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم
 والسبب في ذلك ان البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من
 المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاءً وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة إلا أن
 حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر
 كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والأصطلاحات أيضاً في تعليم
 العلوم مخالطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا بدفع عنه
 ذلك إلا بمباشرة لا اختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ
 يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم
 أنها أمحاء تعليم وطرق توصل وتنض فواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان
 وتصح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما
 من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية
 فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة
 الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ النَّظَرَ الْفِكْرِيَّ وَالْعَوَظَ عَلَى الْمَعَانِي وَأَنْبِرَاعَهَا
 مِنَ الْمُحْسُوسَاتِ وَتَجَرِيدَهَا فِي الذِّهْنِ أُمُورًا كَلِيَّةً عَامَةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ الْعُمُومِ
 لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ
 ذَلِكَ الْكَلْبِيَّ عَلَى أَخْرَاجِيَّاتٍ وَأَبْضًا يَقَيِّسُونَ الْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا اعْتَادُوهُ
 مِنَ الْقِيَاسِ الْفَقْهِيِّ فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كَمَا فِي الذِّهْنِ وَلَا تُصِيرُ إِلَى
 الْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ النَّبْحِ وَالنَّظَرِ وَلَا تُصِيرُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى الْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا تَبْتَدِعُ
 مَا فِي أَخْرَاجِ عَمَّا فِي الذِّهْنِ مِنْ ذَلِكَ كَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا تُرْوَعُ عَمَّا فِي الْمُحْفُوظِ
 مِنْ أَدَلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتَطْلُبُ مُطَابَقَةَ مَا فِي أَخْرَاجِهَا لَهَا عَكْسُ الْأَنْظَارِ فِي الْعُلُومِ الْعُقَلْبِيَّةِ
 الَّتِي تَطْلُبُ فِي صِحَّتِهَا مُطَابَقَتَهَا فِي أَخْرَاجِهَا فِيهِمْ مُتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمُ الْأُمُورَ الذِّهْنِيَّةَ
 وَالْأَنْظَارَ الْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْزِفُونَ سِوَاهَا وَالسِّيَاسَةَ يَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي أَخْرَاجِهَا وَمَا
 يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَيَتَّبِعُهَا فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنَ الْحَاقِقِ شِبْهِهُ أَوْ
 مِثَالِ وَبِنَا فِي الْكَلْبِيَّ الَّذِي يُحَاوَلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا وَلَا يَقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ عَلَى
 الْآخِرِ كَمَا اسْتَبَيَّهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهُمَا اخْتَلَفَا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ الْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا
 تَعَوَّدُوهُ مِنْ تَعْمِيمِ الْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ الْأُمُورِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي السِّيَاسَةِ
 أَفْرَعُوا ذَلِكَ فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ اسْتِدْلَالِهِمْ فَيَقْعُونَ فِي الْغَلْطِ كَثِيرًا وَلَا
 يُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ الذِّكَاةِ وَالْكَيْسِ مِنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ لِأَنَّهُمْ يَنْزِعُونَ
 بِثَقُوبِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْعَوَظِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْقِيَاسِ وَالْمُحَاكَاةِ
 فَيَقْعُونَ فِي الْغَلْطِ وَالْعَاتِي السَّيِّمِ الطَّبَعِ الْمَتَوَسِّطِ الْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنِ ذَلِكَ
 وَعَدَمِ اعْتِيَادِهِ إِيَّاهُ بِقِتْصُرِ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَحْوَالِ
 وَالْأَشْخَاصِ عَلَى مَا أَخْصَصَ بِهِ وَلَا يَبْدِي الْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يَفَارِقُ فِي أَكْثَرِ
 نَظَرِهِ الْمَوَادَّ الْمُحْسُوسَةَ وَلَا يَجَاوِزُهَا فِي ذَهْنِهِ كَالسَّابِحِ لَا يَفَارِقُ الْبَرَّ عِنْدَ الْمَوْجِ
 قَالَ الشَّاعِرُ

فَلَا تُوعَلَنَّ إِذَا مَا سَبَّحْتَ مَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمَ النَّظَرِ فِي مَعَامَلَةِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ فَيَحْسُنُ
 مَعَاشَهُ وَتَدْفَعُ آفَاتُهُ وَمَصَارُهُ بِأَسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ
 أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ عَزِيزٌ مَأْمُونَةٌ الْغَلْطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْإِتْرَاعِ وَبُعْدِهَا عَنِ الْمَحْسُوسِ
 فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا مَا يَمْنَعُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا
 عِنْدَ مُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ الْيَقِينِي وَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ وَهِيَ الَّتِي تَجْرِي بِهَا قَرِيبٌ
 فَلَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُورُ الْمَحْسُوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤَدَّةٌ بِتَصْدِيقِ أَنْطَبَاقِهِ
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

مِنَ الْغَرِيبِ الْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمْ أَنْعَمٌ لَا مِنَ
 الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا مِنَ الْعُلُومِ الْعَقَلِيَّةِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيُّ فِي
 نِسْبَتِهِ فَهُوَ عَجَبِيٌّ فِي لُغَتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمُسْتَجَبِيٌّ مَعَ أَنَّ الْمِلَّةَ عَرَبِيَّةٌ وَصَاحِبُ شَرِيْعَتَيْهَا عَرَبِيٌّ
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِلَّةَ فِي أَوَّلِهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِلْمٌ وَلَا صِنَاعَةٌ لِمَقْتَضَى أَحْوَالِ
 السَّادَجَةِ وَالْبَدَاوَةِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُ الشَّرِيْعَةِ الَّتِي هِيَ أَوْامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ كَانَ الرِّجَالُ
 يَتَقَلَّبُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَا خَذَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوهُ مِنْ صَاحِبِ
 الشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ وَالْقَوْمُ يَوْمئِذٍ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ التَّعْلِيمِ وَالتَّلَافُفِ وَالتَّدْوِينِ وَلَا
 دَفَعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعَتَهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ وَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَكَانُوا
 يُسَمُّونَ الْمُخْتَصِنِينَ بِحَمَلِ ذَلِكَ وَنَقَلَهُ إِلَى الْقُرَاءِ أَيِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَيْسُوا أُمَّيِّينَ
 لِأَنَّ الْأُمَّيَّةَ يَوْمئِذٍ صِنْفٌ عَامَّةٌ فِي الصَّحَابَةِ بِمَا كَانُوا عَرَبًا فَبَقِيَ لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ يَوْمئِذٍ قُرَاءَةُ
 إِشَارَةٌ إِلَى هَذَا فَهُمْ قُرَاءَةُ لِكِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَّةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا
 الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرُهُ لَهُ وَشَرَحَهُ
 قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ
 وَسُنَّتِي فَلَمَّا بَعُدَ النُّقْلُ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ الرَّشِيدِ فَمَا بَعْدَ أَحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيَّةِ
 وَتَفْسِيرِ الْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ ثُمَّ أَحْتِيجَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَسَانِيدِ وَتَعْدِيلِ النَّاقِلِينَ لِلتَّحْمِيضِ
 بَيْنَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَسَانِيدِ وَمَا دُونَهُ ثُمَّ كَثُرَ اسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِ الْوَأَفِعَاتِ مِنَ

الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَسَدَ مَعَ ذَلِكَ اللِّسَانُ فَأَحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ وَصَارَتْ
 الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَلَكَاتٍ فِي الْأَسْتِنْبَاطَاتِ وَالْإِسْتِخْرَاجِ وَالتَّنْظِيرِ وَالْقِيَاسِ
 وَأَحْتَاجَتْ إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَهِيَ الْوَسَائِلُ لَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَوَانِينِ ذَلِكَ
 الْأَسْتِنْبَاطِ وَالْقِيَاسِ وَالذَّبِّ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ لِكَثْرَةِ الْبِدْعِ وَالْإِلْحَادِ
 فَصَارَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ كُلُّهَا عُلُومًا ذَاتَ مَلَكَاتٍ مُتَّجَةً إِلَى التَّعْلِيمِ فَأَنْدَرَجَتْ فِي جُمْلَةِ
 الصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ مِنْ مُنْتَحَلِ الْحَضَرِ وَأَنَّ الْعَرَبَ أَبَدًا النَّاسَ عَنِهَا
 فَصَارَتْ الْعُلُومُ لِذَلِكَ حَضَرِيَّةً وَبَعْدَ عَنِهَا الْعَرَبُ وَعَنْ سُوقِهَا وَالْحَضَرُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ هُمُ
 الْعَجْمُ أَوْ مَنْ هُمْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْمَوَالِي وَأَهْلُ الْخَوَاصِرِ الَّذِينَ هُمْ يَوْمئِذٍ تَبِعَ لِلْعَجْمِ فِي
 الْحِضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحَرْفِ لِأَنَّهُمْ أَقَوْمٌ عَلَى ذَلِكَ لِلْحِضَارَةِ الرَّاسِخَةِ فِيهِمْ
 مِنْدُ دَوْلَةِ الْفَرَسِ فَكَانَ صَاحِبُ صِنَاعَةِ النَّحْوِ سَيْبُوئِيهِ وَالْفَارِسِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَالزُّجَاجُ مِنْ
 بَعْدِهِمَا وَكُلُّهُمْ عَجْمٌ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنَّمَا رُبُّوا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَأَكْتَسَبُوهُ بِالْمَرْبِيِّ
 وَمُخَالَطَةِ الْعَرَبِ وَصَرُّهُ قَوَانِينِ وَفَنَاءُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَذَا حَمَلَةُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ حَضِرُوا عَنْ
 أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ عَجْمٌ أَوْ مُسْتَعْجِمُونَ بِاللُّغَةِ وَالْمَرْبِيِّ وَكَانَ عُلَمَاءُ أَصُولِ الْفِقْهِ
 كُلُّهُمْ عَجْمًا كَمَا يُعْرَفُ وَكَذَا حَمَلَةُ عِلْمِ الْكَلَامِ وَكَذَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَمْ يَقُمْ
 بِحِفْظِ الْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ إِلَّا الْأَعْجِمُ وَظَهَرَ مُصَدِّقُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ تَعَلَّقَ الْعِلْمُ
 بِأَكْثَرِ السَّمَاءِ لَنَالَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ فَارَسٍ وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هَذِهِ الْحِضَارَةَ
 وَسُوقَهَا وَخَرَجُوا إِلَيْهَا عَنِ الْبِدَاوَةِ فَشَغَلَتْهُمْ الرِّئَاسَةُ فِي الدَّوْلَةِ وَحَامِيَتِهَا وَأُولِي سِيَاسَتِهَا
 مَعَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْإِنْتِنَةِ عَنِ اتِّخَالِ الْعِلْمِ حِينَئِذٍ بِمَا صَارَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَالرُّؤُوسَاءِ
 أَبَدًا يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْمِهِنِ وَمَا يُجْرُ إِلَيْهَا وَدَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ مِنَ
 الْعَجْمِ وَالْمَوْلِدِينَ وَمَا زَالُوا يَرَوْنَ لَهُمْ حَقَّ الْقِيَامِ بِهِ فَإِنَّهُ دِينُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وَلَا يَحْتَقِرُونَ
 حَمَلَتَهَا كُلَّ الْأَحْتِقَارِ حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْعَرَبِ جُمْلَةً وَصَارَ لِلْعَجْمِ صَارَتْ الْعُلُومُ
 الشَّرْعِيَّةُ غَرِيبَةً النَّسَبِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَلِكِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ نَسَبِهَا وَأَمْتِنُ حَمَلَتَهَا
 بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بَعْدَاءُ عَنْهُمْ مُشْتَعَلِينَ بِمَا لَا يُغْنِي وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ فِي الْمَلِكِ وَالسِّيَاسَةِ
 كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي تَقْلِ الْمَرَاتِبِ الدِّيْنِيَّةِ فَبَدَا الَّذِي قَرَرْنَاهُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ حَمَلَةَ
 الشَّرِيعَةِ أَوْعَامَتْهُمْ مِنَ الْعَجْمِ وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقَلِيَّةُ أَيْضًا فَلَمْ تَظْهَرْ فِي الْمِلَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ

تَمَيَّزَ حَمَلَةَ الْعِلْمِ وَمَوْلَاهُ وَأَسْتَقَرَّ الْعِلْمُ كُلُّهُ صِنَاعَةً فَاخْتَصَّتْ بِالْعَجْمِ وَتَرَكْتَهَا الْعَرَبُ
وَأَنْصَرَفُوا عَنْ أَنْجَالِهَا فَلَمْ يَحْمِلْهَا إِلَّا الْمَعْرَبُونَ مِنَ الْعَجْمِ شَأْنِ الصَّنَائِعِ كَمَا فَلَنَاهَا أَوْلَا
فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ مَا دَامَتِ الْحِضَارَةُ فِي الْعَجْمِ وَبِلَادِهِمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَخِرَاسَانَ
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ فَلَمَّا خَرِبَتْ تِلْكَ الْأَمْصَارُ وَذَهَبَتْ مِنْهَا الْحِضَارَةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ اللَّهِ فِي
حُصُولِ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ ذَهَبَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَجْمِ جُمْلَةً لِمَا شَمَلَهُمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَاخْتَصَّ
الْعِلْمُ بِالْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْحِضَارَةَ وَلَا أَوْفَرَ الْيَوْمَ فِي الْحِضَارَةِ مِنْ مِصْرَ فَهِيَ أُمُّ الْعَالَمِ
وَإِيْوَانُ الْإِسْلَامِ وَيَبْشُرُ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ وَيَبْقَى بَعْضُ الْحِضَارَةِ فِي مَا وَرَاءَ النَّهْرِ لِمَا
هُنَاكَ مِنَ الْحِضَارَةِ بِالدَّوْلَةِ الَّتِي فِيهَا فَلَهُمْ بِذَلِكَ حِصَّةٌ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ لَا تُنْكَرُ
وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى ذَلِكَ كَلَامُ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مِنْ تَأْلِيفِ وَصَلَتِ الْيَتَا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَهُوَ
سَعْدُ الدِّينِ التَّفَنَزَانِيُّ وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْعَجْمِ فَلَمْ تَرَوْهُمْ مِنْ بَعْدِ الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ
وَأَصْبِرِ الدِّينِ الطُّوسِيَّ كَلَامًا يُعَوَّلُ عَلَى نَهَائِيهِ فِي الْإِصَابَةِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَتَأَمَّلْهُ تَرَجُّبًا
فِي أَحْوَالِ الْخَلْقَةِ وَاللَّهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أَنَّ كُنْهَ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ الْأَعْيُ وَالنَّحْوُ وَالْبَيَانُ وَالْأَدَبُ وَمَعْرِفَتُهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى أَهْلِ
الشَّرِيعَةِ إِذْ مَا خُذَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا مِنَ الْكُتُبِ وَالسُّنَنِ وَهِيَ بِالْعَرَبِ
وَنَقَلَتْهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَرَبٌ وَشَرَحَ مُشْكَلَاتِهَا مِنْ لُغَاتِهِمْ فَلَا بَدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا اللِّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الشَّرِيعَةِ وَتَفَاوُتِ فِي التَّأْكِيدِ بِتَفَاوُتِ
مَرَاتِبِهَا فِي التَّوْفِيقِ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ حَسْبَمَا يَتَّبِعُ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَنَّا فَنَّا وَالَّذِي
يَتَحَصَّلُ أَنَّ الْأَهْمَ الْمَقْدَمَ مِنْهَا هُوَ النَّحْوُ إِذْ بِهِ تَتَّبَعُ أَصُولُ الْمَقْاصِدِ بِاللِّدَالَةِ فَيَعْرِفُ
الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ وَلَوْلَا هَذَا لَجُهِلَ أَصْلُ الْإِفَادَةِ وَكَانَ مِنْ حَقِّ عِلْمِ
اللُّغَةِ التَّقْدِيمُ لَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ بَاقِيَةٌ فِي مَوْضِعَاتِهَا لَمْ تُتَغَيَّرْ بِخِلَافِ الْأَعْرَابِ
الَّذِينَ عَلَى الْإِسْنَادِ وَالْمُسْنَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ تَغَيَّرَتْ بِالْجُمْلَةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ فَذَلِكَ
كَانَ عِلْمُ النَّحْوِ أَهَمَّ مِنَ اللُّغَةِ إِذْ فِي جِهَلِهِ الْإِخْلَالُ بِالْتَّفَاهِمِ جُمْلَةً وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ

اللُّغَةُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ

علم النحو

إِعْلَمُ أَنَّ اللُّغَةَ فِي الْمُتَعَارِفِ هِيَ عِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِ عَنِ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ فِعْلٌ لِسَانِيٌّ فَلَا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرَّرَةً فِي الْعَضْوِ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ اللِّسَانُ وَهُوَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ أَصْطِلَاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ الْمَلَكَةُ الْخَاصَّةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ الْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةٌ عَنِ الْمَقَاصِدِ لِلدَّلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي مِنَ التَّجَرُّورِ أَعْنِي الْمَضَافِ وَمِثْلَ الْحُرُوفِ الَّتِي تُفْعَلُ بِالْأَفْعَالِ إِلَى الذَّوَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفِ الْفَظِّ أُخْرَى وَلَيْسَ يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنَى أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْفَظِّ مُخَصَّصٍ بِالدَّلَالَةِ وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَلَامَ الْعَجَمِ مِنْ مَخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا نَقْدِرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ وَأَخْضِرَ لِي الْكَلَامُ أَخْضَرًا فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ وَالْحُرُكَاتِ وَالْهَيْئَاتِ أَيِ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرِ مُتَكَلِّفِينَ فِيهِ لِصِنَاعَةِ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ فِي السِّنْتِيمِ بِأَخْذِهَا الْآخِرَ عَنِ الْأَوَّلِ كَمَا تَأْخُذُ صَبِيانًا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَاتِنَا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لَطَبَّ الْمَلِكُ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالذُّوُلِ وَخَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَةُ بِمَا أَلْفِي إِلَيْهَا السَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي لِلْمُسْتَعْرَبِينَ وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أَلْفِي إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِحُبُوحِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِيَادِ السَّمْعِ وَخَشِيَ أَهْلُ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ الْمَلَكَةُ رَأْسًا وَيَطُولَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَالِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنْ مَجَارِي كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَةِ مُطَرِّدَةً شَبَهَ الْكَلِمَاتِ وَالْقَوَاعِدَ يَقْبَسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيَلْحَقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولُ مَنْصُوبٌ وَالْمَبْتَدَأُ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغْيِيرَ الدَّلَالَةِ بِتَغْيِيرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَّتِهِ إِعْرَابًا وَتَسْمِيَّةِ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ التَّغْيِيرِ عَامِلًا وَمِثَالِ ذَلِكَ وَصَارَتْ كُلُّهَا أَصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَفَيَّدُوهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مُخْصُوصَةً وَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَّتِهَا بِعِلْمِ النَّحْوِ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَيَقَالُ بِإِشَارَةِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغْيِيرَ الْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهَا فَفَزِعَ إِلَى

ضَبَطَهَا بِالْقَوَائِنِ الْحَاضِرَةِ الْمُسْتَقْرَأَةِ ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنْ أَتَمَّتْ إِلَى
الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ الرَّشِيدِ وَكَانَ النَّاسُ أَوْجَحَ إِلَيْهَا لِذَهَابِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ
مِنَ الْعَرَبِ فَهَدَّبَ الصَّنَاعَةَ وَكَمَّلَ أَبُو بَاهَا وَأَخَذَهَا عَنْهُ سَبْيَوِيهٌ فَكَمَّلَ تَفَارِيعَهَا وَسَتَكَّرَ
مِنْ أَدَلَّتْهَا وَشَوَاهِدِهَا وَوَضَعَ فِيهَا كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ الَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كَتَبَ فِيهَا
مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ وَضَعَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الرَّجَّاجُ كِتَابًا مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَخْدُونَ
فِيهَا حَدْوَةَ الْإِمَامِ فِي كِتَابِهِ ثُمَّ طَالَ الْكَلَامُ فِي هِدْيَةِ الصَّنَاعَةِ وَحَدَّثَ الْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِهَا
فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمِصْرَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ وَكَثُرَتِ الْأَدَلَّةُ وَالْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ وَتَبَايَنَتِ
الطَّرِيقُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثُرَ الْأَخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ بِأَخْتِلَافِهِمْ فِي
تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ فِي الْأَخْتِصَارِ
فَأَخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ اسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا نَقَلَ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي
كِتَابِ التَّنْهِيلِ وَأَمثالِهِ أَوْ اقْتِصَارِهِمْ عَلَى الْمَبَادِيءِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ كَمَا فَعَلَهُ الرَّمَحْمَرِيُّ
فِي الْمِفْصَلِ وَابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمَقْدَمَةِ لَهُ وَرُبَّمَا نَظَمُوا ذَلِكَ نَظْمًا مِثْلَ ابْنِ مَالِكٍ فِي
الْأَرْجُوزَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَابْنُ مَعْطِيِّ فِي الْأَرْجُوزِ الْأَنْفِيَّةِ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَتَانَا لَيْفٌ
فِي هَذَا الْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطَرِيقُ التَّعْلِيمِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَطَرِيقَةُ
الْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لَطَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالْمَوْفُيُونَ وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ
وَالْأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلِفَةٌ طَرِيقُهُمْ كَذَلِكَ وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ تُؤْذَنُ بِالذَّهَابِ لِمَا
رَأَيْنَا مِنَ النِّقْصِ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتِنَاقُصِ الْعُمَرَانِ وَوَصَلَ الْيَنَابِئُ بِالْمَغْرِبِ
لِهَذِهِ الْعُصُورِ دِيْوَانٌ مِنْ مِصْرَ مَنَسُوبٌ إِلَى جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا اسْتَوْفَى
فِيهِ أَحْكَامَ الْأَعْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفَصَّلَةً وَتَبَكَّمَ عَلَى الْحُرُوفِ وَالْمَفْرَدَاتِ وَالْجُمْلِ
وَحَدَفَ مَا فِي الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَكْرَّرِ فِي أَكْثَرِ أَوْبَاهِهَا وَسَمَّاهُ بِالْمَغْنِيِّ فِي الْأَعْرَابِ
وَأَشَارَ إِلَى نِكْتِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا بِأَبْوَابٍ وَفُضُولٍ وَقَوَاعِدٍ أَنْتَظَمَ
سَائِرُهَا فَوْقَنَا مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ جَمٍّ يَشْهَدُ بَعْلُو قَدْرِهِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَوَفُورٍ بِضَاعَتِهِ
مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْحَاةَ أَهْلِ الْمَوْصِلِ الَّذِينَ اقْتَفَوْا أثرَ ابْنِ جَنِّيٍّ وَاتَّبَعُوا
مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ بَشْيٌ عَجِيبٌ دَالٌّ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ وَاللَّهُ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك انه لما فسدت مائة اللسان العربي
 في الحركات المستأقة عند أهل النحو بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما
 قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملاسة العجم ومخالطتهم حتى تآدى الفساد إلى
 موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلاً مع
 هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم الخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات
 اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما يتشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث
 فشر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبه في ذلك
 الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مر كبات حروف المعجم
 كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينبغي إليه التركيب في
 اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاضرة وذلك ان جملة الكلمات
 الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون
 نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة
 والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين
 كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون
 واحداً فتكون كلها أعداداً على التوالي أعداد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجتمع
 كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي لأن
 التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات
 فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفاً فتكون ثلاثية
 فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة
 وعشرون حرفاً بعد الثنائية فتجتمع من واحد إلى ستة وعشرين على التوالي العدد وتضرب
 فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج
 مجموع تركيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فأنحصرت له
 التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد
 فيه ترتيب الخارج فبدأ بحروف الخلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم

الشفة وجعل حروف العلة آخرًا وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين
 لأنه الأوفر منها فلذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية
 دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ثم
 بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة
 استعمال العرب له لثقله ولحق به الثاني لقلته دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي
 أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن التحليل ذلك كله في كتاب العين
 واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد
 بالأندلس في المائة الرابعة فأختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل
 كله وكثيراً من شواهد المستعمل وتخصه للحفاظ أحسن تلخيص وألفت الجوهري
 من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف للحروف المعجم فجعل البداية منها
 بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لأضرار الناس في
 الأكثر إلى آخر الكلام وحصر اللغة أفنداء بحصر التحليل ثم أتت فيها من الأندلسيين ابن
 سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب
 وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لأشتماقات الكلام وتصاريفها فجاء من
 أحسن الدواوين وتخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية
 بتونس وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلام وبناء التراجم
 عليها فكانا توأمي رحم وسليبي أبو هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك
 مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلام ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكلها إلا
 أن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكم كما رأيت ومن
 الكتب الموضوعية أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز بين فيه كل ما تجوزت
 به العرب من الألفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الإفادة
 ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً
 أخرى خاصة بها فوق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج إلى فقه في اللغة
 عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم أخذ ما فيه
 بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن النعم بالأمع حتى صار استعمال

الأيض في هذه كلها حتماً وخروجاً عن لسان العرب وأخص بالتأليف في هذا المعنى
 الثعالي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به الغوي نفسه
 أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الأول بكاف في الترتيب
 حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في قني
 نظميه ونثره حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها
 وهو أشد من اللحن في الأعراب والفحش وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ
 المشتركة وتكفل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب لئلاكثر
 وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن الخصوصة بالتداول من اللغة الكثير
 الاستعمال تسهيلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفتيح
 لثعلب وغيرهما وبعضها أقل لغة من بعض لإختلاف نظريهم في الأهم على الطالب
 للحفظ والله الخلاق العليم لا رب سواه

علم البيان

هذا العلم حادث في الأمة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم انسانية لأنه
 متعلق بالألفاظ وما تنبئه ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الأمور التي
 يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند
 إليها ويفضي بعضها إلى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال
 والحروف وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ويدل عليها بتغير الحركات
 من الأعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو وبقي من الأمور
 الممكنة بألواقع المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه
 حال الفعل وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة وإذا حصلت له تكلم
 فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام
 العرب فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الأعراب
 والابانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن
 المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن أهميته
 بالعبء قبل الشخص المسند إليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن أهميته بالشخص

قَبْلَ الْحُجِيِّ الْمُسْنَدِ وَكَذَا التَّبَعِيُّ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يَنَاسِبُ الْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ
 مِنْهُمْ أَوْ مَعْرِفَةٍ وَكَذَا تَأْكِيدُ الْأَسْنَادِ عَلَى الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدًا قَائِمٌ
 وَإِنْ زَيْدًا قَائِمٌ مُتَعَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنْ اسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْرَابِ فَإِنَّ
 الْأَوَّلَ الْعَارِيَّ عَنِ التَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخُلْيَ الْذَهْنَ وَالثَّانِي الْمَوْكَّدَ بَيِّنٌ يُفِيدُ
 الْمُرْتَدَّ وَالثَّلَاثَ يُفِيدُ الْمُنْكَرَ فِيهِ مُخْتَلِفَةٌ وَكَذَلِكَ نَقُولُ جَاءَ فِي الرَّجُلِ ثُمَّ نَقُولُ مَكَانَهُ
 بَعِيْنَهُ جَاءَ فِي رَجُلٍ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ التَّنْكِيرَ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنْ
 الرِّجَالِ ثُمَّ الْجُمْلَةُ لِأَسْنَادِيَّةِ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَهَا خَارِجٌ نَطَاقُهُ أَوْلاً وَإِنْشَائِيَّةً
 وَهِيَ الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ إِذَا
 كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْأَعْرَابِ فَيُشْرِكُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ التَّابِعِ الْمَفْرَدِ نَعْتًا وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا
 بِإِلَّا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ الْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْأَعْرَابِ ثُمَّ يَقْتَضِي الْمَحَلُّ
 الْأَطْنَابَ وَالْإِيْجَازَ فَيُورَدُ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَدْ يَدُلُّ بِاللَّفْظِ وَلَا يُرَادُ مَنْطِقُهُ
 وَيُرَادُ لِأَزْمِهِ إِنْ كَانَ مَفْرَدًا كَمَا نَقُولُ زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ الْأَسَدِ الْمَنْطُوقَةَ
 وَإِنَّمَا تُرِيدُ شِبَاعَتَهُ الْأَزْمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ اسْتِعَارَةً وَقَدْ تُرِيدُ بِاللَّفْظِ
 الْمُرْكَبِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا نَقُولُ زَيْدٌ كَثِيرُ الرَّمَادِ وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ
 مِنَ الْجُودِ وَقَرَى الضَّيْفِ لِأَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهَا فِيهِ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا
 دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْمَفْرَدِ وَالْمُرْكَبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالٌ الْوَاقِعَاتِ
 جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي الْأَلْفَاظِ كُلُّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَقَامُهُ فَاشْتَمَلَتْ
 هَذَا الْعِلْمُ الْمُسَمَّى بِالْبَيَانِ عَلَى النَّبْحِ عَنِ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ
 وَالْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ الْأَوَّلُ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ
 وَالْأَحْوَالِ الَّتِي نَطَاقُهَا بِاللَّفْظِ جَمِيعَ مَقْتَضِيَّاتِ الْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَلَاغَةِ وَالصَّنْفُ
 الثَّانِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَزْمِ اللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ الْإِسْتِعَارَةُ وَالْكِتَابَةُ كَمَا
 قُلْنَا وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَيَانِ وَالْحَقْوَاهِمَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَرْبِيْنِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ
 بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَمْعٍ بِفَصْلَةٍ أَوْ تَجْنِيسٍ بِشَابِهِ بَيْنَ الْأَفْظِ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ
 أَوْ تَوْرِيَّةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيْهَامٍ مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ لِإِشْرَاكِ الْلَفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمَ الْبَدِيعِ وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ اسْمُ

الْبَيَانُ وَهُوَ اسْمُ الصَّنْفِ الثَّانِي لِأَنَّ الْأَقْدَمِينَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ثُمَّ تَلَّاحَقَتْ مَسَائِلُ
 الْفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَكَتَبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَابْنُ جَعْفَرٍ وَابْنُ بَلْحَظُ وَقُدَامَةُ وَأَمْثَالُهُمْ إِمْلَاءَاتٍ
 غَيْرَ وَافِيَةٍ فِيهَا ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ الْفَنِّ تَكْمَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ نَحَصَّ السَّكَّاكِيُّ زُبْدَتَهُ
 وَهَدَّبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنْفَاءً مِنَ التَّرْتِيبِ وَأَلَّفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى
 بِالْمَفْتَاحِ فِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ فَيَجْعَلُ هَذَا الْفَنَّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ وَأَخَذَهُ
 الْمَتَأَخِّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَنَحَصُوا مِنْهُ أُمَّهَاتٍ هِيَ الْمَتَدَاوِلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ السَّكَّاكِيُّ
 فِي كِتَابِ التَّبَيَانِ وَأَبْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمَصْبَاحِ وَجَلَّالُ الدِّينِ الْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِ
 الْأَيضَاحِ وَالتَّلْخِصِ وَهُوَ أَصْغَرُ حِجْمًا مِنَ الْأَيضَاحِ وَالْعُنَايَةِ بِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ فِي الشَّرْحِ وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمَشَارَقَةُ عَلَى هَذَا
 الْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا لِيَ فِي الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ وَالصَّنَائِعِ
 الْكَمَالِيَّةِ تُوْجِدُ فِي الْعُمَرَانَ وَالْمَشْرِقِ أَوْفَرَ عُمَرَانًا مِنَ الْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْ
 نَقُولُ لِعُنَايَةِ الْعَجْمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ كَتَفْسِيرِ الرَّخْمَشِيرِيِّ وَهُوَ كَلْمٌ مَبْنِيٌّ عَلَى
 هَذَا الْفَنِّ وَهُوَ أَصْلُهُ وَإِنَّمَا اخْتَصَّ بِأَهْلِ الْمَغْرِبِ مِنْ أَضْوَافِهِ عِلْمُ الْبَدِيعِ خَاصَّةً
 وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ الْأَدَبِ الشَّعْرِيَّةِ وَفَرَعُوا لَهُ الْأَقْبَابَ وَعَدَدُوا أَبْوَابًا وَتَوَعَّوْا أَنْوَاعًا
 وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلْتُمْ عَلَى ذَلِكَ الْوَلُوعُ بِتَرْيِينِ الْأَلْفَاظِ
 وَأَنَّ عِلْمَ الْبَدِيعِ سَهْلُ الْمَأْخُذِ وَصَعِبَتْ عَلَيْهِمْ مَأْخُذُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا
 وَمُغْمُوسَ مَعَانِيهِمَا فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا وَمِمَّنْ أَلَّفَ فِي الْبَدِيعِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةِ ابْنُ رَشِيْقِ
 وَكِتَابُ الْعُمْدَةِ لَهُ مَشْهُورٌ وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنْحَاهُ وَأَعْلَمُ
 أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ الْإِعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي وَفَاءِ الدَّلَالَةِ
 مِنْهُ بِجَمْعِ مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةً وَمَفْهُومَةً وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَلَامِ مَعَ
 الْكَمَالِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأَلْفَاظِ فِي انْتِقَائِهَا وَجُودَةِ رَضْوَانِهَا وَتَرْكِيْبِهَا وَهَذَا هُوَ الْإِعْجَازُ
 الَّذِي نَقْصِرُ الْأَفْهَامَ عَنْ إِدْرَاكِهِ وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بَعْضَ الشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ
 بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيُدْرِكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ فَالْهَذَا كَانَتْ
 مَدَارِكُ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مَبْلَغِهِ أَعْلَى مَقَامًا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الْكَلَامِ
 وَجَهَابِدَتُهُ وَالذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مُوجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصْحَهُ وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى هَذَا

الْفَنِّ الْمَفْسُورُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ غُفِلَ عَنْهُ ظَهَرَ جَارُ اللَّهِ الزَّمْخَشَرِيُّ وَوَضَعَ
 كِتَابَهُ فِي التَّفْسِيرِ وَتَبَعَ آيَ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هَذَا الْفَنِّ بِمَا بِيَدِي الْبَعْضُ مِنْ
 إِعْجَازِهِ فَأَتَقَرَّدُ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ لَوْلَا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ الْبِدْعِ عِنْدَ
 أَقْتِبَاسِهَا مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهِ الْبَلَاغَةِ وَلِأَجْلِ هَذَا يَتَحَمَّاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مَعَ وَفُورِ
 بَضَاعَتِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ السُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هَذَا الْفَنِّ بَعْضَ الْمَشَارِكَةِ
 حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بَدْعٌ فَيُعْرَضُ عَلَيْهَا وَلَا تَقْصُرُ
 فِي مُعْتَقِدِهِ فَإِنَّهُ يَتَبَعِينَ عَلَيْهِ النَّظْرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلظَّفَرِ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَازِ مَعَ السَّلَامَةِ
 مِنَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ وَاللَّهِ الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ

علم الادب

هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي اثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ
 أَهْلِ اللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ عَلَى أَسَالِبِ الْعَرَبِ
 وَمَنَاجِيهِمْ فَيَجْمَعُونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ شِعْرِ
 عَالِي الطَّبَقَةِ وَسَجَّعَ مُتَسَاوٍ فِي الْإِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَبْثُوتَةٌ أَثْنَاءَ ذَلِكَ
 مَشْفَرَّةٌ يَسْتَقْرِي مِنْهَا النَّظْرُ فِي الْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَائِنِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ
 الْعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الْمُهَيَّبُ مِنَ الْأَنْسَابِ الشَّهِيرَةِ
 وَالْأَخْبَارِ الْعَامَّةِ وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى النَّظِيرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ
 وَأَسَالِبِهِمْ وَمَنَاجِيهِمْ بِالْإِعْتِمَادِ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ الْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ
 فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هَذَا الْفَنِّ
 قَالُوا الْآدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَالْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يَطْرَفُ يُرِيدُونَ
 مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ أَوْ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مَتَوْنُهَا فَقَطُّ وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ إِذْ لَا
 مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلْفِهِمْ
 بِصِنَاعَةِ الْبِدْعِ مِنَ التَّوْرِيَّةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِالْإِضْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَاحْتَاجَ
 صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى مَعْرِفَةِ أَضْطِلَاحَاتِ الْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا وَسَمْعِهَا
 مِنْ شَيْخُوخِنَا فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةٌ دَوَائِينَ وَهِيَ آدَبُ
 الْكِتَابِ لِابْنِ قَتَيْبَةَ وَكِتَابُ الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ الْبَيَانِ وَالْتَّبِينِ لِلجَاحِظِ

وَكِتَابُ النُّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ الْقَالِي الْبُغْدَادِيِّ وَمَا سَوَى هَذِهِ الْأَزْبَعَةِ فَتَمَعُ لَهَا وَفُرُوعُ
عَنْهَا وَكُتُبُ الْمُعْجِزِينَ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَانَ الْغِنَاءُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا
الْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشَّعْرِ إِذَا الْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ وَكَانَ الْكِتَابُ وَالْفَضْلَاءُ مِنْ
الْخَوَاصِّ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يَا خُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِبِ الشَّعْرِ
وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنْ اتِّخَالُهُ قَادِحًا فِي الْعَدَالَةِ وَالْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ الْقَاضِي أَبُو الْفَرَجِ
الْأَضْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي الْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَيَأْمَهُمْ
وَدَوْلَهُمْ وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى الْغِنَاءِ فِي الْمِائَةِ صَوْتًا الَّتِي اخْتَارَهَا الْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَاسْتَوْعَبَ
فِيهِ ذَلِكَ أَنْتُمْ اسْتَبْعَابٌ وَأَوْفَاهُ وَلَعْمَرِي إِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْبَاتِ الْمُحَاسِنِ
الَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الشَّعْرِ وَالتَّأْرِخِ وَالْغِنَاءِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَلَا
يُعَدُّ بِهِ كِتَابٌ فِي ذَلِكَ فِيمَا نَعَلَّمُهُ وَهُوَ الْعَايَةُ الَّتِي يَسْمُو الْإِنْبَاءُ الْأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا
وَأَنَّى لَهُ بِهَا وَنَحْنُ الْآنَ نَرْجِعُ بِالْتَّحْقِيقِ عَلَى الْإِجْمَالِ فِيمَا تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ
اللِّسَانِ وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إِعْلَمُ أَنَّ اللُّغَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي اللِّسَانِ
لِلْعِبَارَةِ عَنِ الْمَعْنَى وَجُودَتِهَا وَفُضِرَتْهَا بِحَسَبِ تِمَامِ الْمَلَكََةِ أَوْ نُقْصَانِهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ
بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّرَاكِبِ فَإِذَا حَصَّتِ الْمَلَكََةُ التَّامَّةُ
فِي تَرْكِيبِ الْأَفْئَظِ الْمَفْرَدَةِ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ التَّأْلِيفِ الَّذِي
يُطَبَّقُ الْكَلَامَ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ بَلَغَ الْمُتَكَلِّمُ حَيْثُئِذِ الْعَايَةُ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ
لِلسَّامِعِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْبَلَاغَةِ وَالْمَلَكَاتُ لَا تُحْضَلُ إِلَّا بِتَكَرُّرِ الْأَنْعَالِ لِأَنَّ النُّعْلَ
يَقَعُ أَوَّلًا وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِنْفٌ ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا وَمَعْنَى الْحَالِ أَنَّهَا صِنْفٌ
غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّكَرُّارُ فَتَكُونُ مَلَكََةً أَيْ صِنْفَةً رَاسِخَةً فَالْمُتَكَلِّمُ مِنْ
الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَتَهُ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مُوجُودَةً فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ
وَأَسَالِبِهِمْ فِي مَخَاطَبَتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الصَّبِيُّ اسْتِعْمَالَ
الْمَفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيَلْقَتُهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَاكِبَ بَعْدَهَا فَيَلْقِنُهَا كَذَلِكَ ثُمَّ لَا يَزَالُ

سَمِعَهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُنْكَتَمٍ وَأَسْتَعْمَالِهِ يَتَكَرَّرُ إِلَى أَنْ
يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكََةً وَصَفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ هَكَذَا تَصَيَّرَتِ الْأَلْسُنُ وَاللُّغَاتُ
مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا الْعَجَمُ وَالْأَطْفَالُ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ
اللُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِالطَّبَعِ أَيَّ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أَخَذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَنْ غَيْرِهِمْ
ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُضَرِّ بِمُخَالَطَتِهِمُ الْأَعَاجِمَ وَسَبَبُ فَسَادِهَا أَنَّ النَّاشِئَ
مِنْ الْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ أُخْرَى غَيْرَ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي
كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيَعْبُرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكَثْرَةِ الْمُخَالَطِينَ لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ
كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أَيْضًا فَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ فَاسْتَحَدَثَ مَلَكَةً
وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ الْأُولَى وَهَذَا مَعْنَى فَسَادِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ فُرَيْشٍ
أَفْصَحَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنِ بِلَادِ الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ثُمَّ مَنْ
اكتَنَفَهُمْ مِنْ تَقِيْفٍ وَهَذَبِلٍ وَخَزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ وَأَمَّا
مَنْ بَعْدَ عَنْهُمْ مِنْ رَيْبَعَةَ وَنَجْرٍ وَجُدَامٍ وَغَسَّانٍ وَإِيَادٍ وَفُضَاعَةَ وَعَرَبِ الْيَمَنِ الْجَوَارِينِ
لَأَمْرِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لِعُتْمِهِمْ تَامَةً الْمَلَكَةُ بِمُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ
وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ فُرَيْشٍ كَانَ الْاِحْتِجَاجُ بِأَعْيَانِهِمْ فِي الصَّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة معايرة لغة مضر وحمير

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُهَا فِي بَيَانِ الْمَقَاصِدِ وَالْوَفَاءِ بِالِدَّلَالَةِ عَلَى سُنَنِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ
وَلَمْ يَفْقَدْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةَ الْحُرُكَاتِ عَلَى تَعْيِينِ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَعْمُولِ فَأَعْتَاضُوا مِنْهَا بِالتَّقْدِيمِ
وَالتَّأخِيرِ وَبِقِرَائِنِ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ إِلَّا أَنَّ الْبَيَانَ وَالبَلَاغَةَ فِي اللِّسَانِ
الْمُضَرِّيِّ أَكْثَرُ وَأَعْرَفُ لِأَنَّ الْأَلْفَافِظَ بِأَعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي بِأَعْيَانِهَا وَبَقِيَ مَا
تَقْتَضِيهِ الْأَحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطِ الْأَحْوَالِ مُتَحْتَاجًا إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَكُلُّ مَعْنَى لَا بَدَأَ وَأَنَّ
تَكْتَفِيهِ أَحْوَالٌ مُخَصَّصَةٌ فَيَجِبُ أَنْ نَعْتَبِرَ تِلْكَ الْأَحْوَالِ فِي تَأْدِيَةِ الْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ
وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسِنِ أَكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِاللَّفَافِظِ مُخَصَّصًا بِالْوَضْعِ وَأَمَّا فِي
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِأَحْوَالٍ وَكَيْفِيَّاتٍ فِي تَرَكَيبِ الْأَلْفَافِظِ وَتَأْلِيفِهَا مِنْ

تقديم أو تأخير أو حذف أو حركه أعراب وقد يدل عليها بالحرُوف غير المُستقلّة
ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك
الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل الفاظاً وعبارةً
من جميع الألسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أو تبت جوامع الكلم وأختصر
لي الكلام اختصاراً واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض
الشعاع إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن
زيداً قائم والمعنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لإفادة الخالي الذهن من
قيام زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه والثالث لمن عرف بالأضرار على إنكاره
فأختلفت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب
ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة الشعاع أهل صناعة الإعراب
القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن
اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون
قوانينه وهي مقالة دسها الشيع في طباعهم والفاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن
نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد
والتعاون فيه بتفاوت الأمانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان
وقنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم
ومجامعهم والشاعر المفلح على أساليب لغتهم والدوق الصحيح والطبع السليم
شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر
الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهجعاً معروفاً وهو الإعراب
وهو بعض من أحكام اللسان وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم
الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته
على غير الصورة التي كانت أولاً فانقلب لغة أخرى وكان القرآن منزلاً به والحديث
النبوي منقولاً بلغته وهما أصلاً الدين والملة فحشي تناسيها وانغلاق الأفهام عنهما
بفقدان اللسان الذي نزل به فأحتجج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه وأسنباط
قوانينه وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهل العلم النحو وصناعة

الْعَرَبِيَّةَ فَأَصْبَحَ فَنَّا مَحْفُوظًا وَعِلْمًا مَكْتُوبًا وَسَلَامًا إِلَى فَنَمِ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ
 وَافِيًا وَلَعَلَّنَا لَوْ اعْتَنَيْنَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لَهَذَا الْعَهْدِ وَأَسْتَقْرَبْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَاضُ
 عَنِ الْحُرَكَاتِ الْأِعْرَابِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا بِأُمُورٍ أُخْرَى مَوْجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَائِمُ
 تَخْصُمُهَا وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي أَوَاخِرِهِ عَلَى غَيْرِ الْمُنْهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةٍ مُضَرٍّ فَلَيْسَتْ اللَّغَاتُ
 وَمَلَكَاتِهَا مِجَانًا وَلَقَدْ كَانَ اللِّسَانُ الْمُضَرِّيُّ مَعَ اللِّسَانِ الْحَمِيرِيِّ بِهَيْدِهِ الدُّثَابَةِ وَغَيْرِ
 عِنْدَ مُضَرٍّ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضِعَاتِ اللِّسَانِ الْحَمِيرِيِّ وَتَصَارِيفِ كَلِمَاتِهِ تَشْهَدُ بِذَلِكَ
 الْأَنْتِقَالَ الْمَوْجُودَةَ لَدَيْنَا خِلَافًا لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلَى أَنَّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَأْتِمَسُ إِجْرَاءُ
 اللُّغَةِ الْحَمِيرِيَّةِ عَلَى مَقَابِسِ اللُّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَقَوَائِمِهَا كَمَا يَزَعُمُ بَعْضُهُمْ فِي اسْتِنْقَاقِ
 الْقِيلِ فِي اللِّسَانِ الْحَمِيرِيِّ أَنَّهُ مِنْ الْقَوْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِ هَذَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ
 وَلُغَةُ حَمِيرٍ لُغَةٌ أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَحُرَكَاتِ
 إِعْرَابِهَا كَمَا هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرٍّ إِلَّا أَنَّ الْعِنَايَةَ بِلِسَانِ مُضَرٍّ مِنْ أَجْلِ
 الشَّرِيعَةِ كَمَا قُلْنَا هُ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى الْأَسْتِنْبَاطِ وَالْإِسْتِقْرَاءِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَا
 يَحْمِلُنَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَيَدْعُونَا إِلَيْهِ وَمِمَّا وَقَعَ فِي لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ حَيْثُ
 كَانُوا مِنَ الْأَقْطَارِ شَأْنُهُمْ فِي النَّطْقِ بِالْقَافِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ بِهَا مِنْ تَخْرُجِ الْقَافِ
 عِنْدَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ فِي كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ
 مِنَ الْخَنَكِ الْأَعْلَى وَمَا يَنْطِقُونَ بِهَا يَضًا مِنْ تَخْرُجِ الْكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ مَوْضِعِ
 الْقَافِ وَمَا بَلِيهِ مِنَ الْخَنَكِ الْأَعْلَى كَمَا هِيَ بَلْ يَجِيئُونَ بِهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْكَافِ وَالْقَافِ
 وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلْجِيلِ أَجْمَعَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَرْبٍ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عِلَامَةً عَلَيْهِمْ
 مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مُخْتَصًّا بِهِمْ لَا يُشَارِكُهُمْ بِهَا غَيْرُهُمْ حَتَّى إِنْ مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ
 وَالْإِنْتِسَابَ إِلَى الْجِيلِ وَالِدُخُولِ فِيهِ يُحَاكِمُهُمْ فِي النَّطْقِ بِهَا وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ
 الْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدَّخِيلِ فِي الْعَرُوبِيَّةِ وَالْحَضْرِيِّ بِالنَّطْقِ بِهَيْدِهِ الْقَافِ وَيَظْهَرُ بِذَلِكَ
 أَنَّهَا لُغَةٌ مُضَرٍّ بَعِينًا فَإِنَّ هَذَا الْجِيلَ الْبَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي ذُلْدِ
 مَنْصُورِ بْنِ عَمْرٍةَ بْنِ خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ
 ابْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هُوَازِنِ بْنِ مَنْصُورٍ وَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الْأُمَمِ
 فِي الْمَعْمُورِ وَأَغْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَعْقَابِ مُضَرٍّ وَسَائِرِ الْجِيلِ مِنْهُمْ فِي النَّطْقِ بِهَيْدِهِ الْقَافِ

أَسْوَةٌ وَهَذِهِ اللُّغَةُ لَمْ يَبْتَدِعْهَا هَذَا الْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارِثَةٌ فِيهِمْ مُتَعاقِبَةٌ وَيَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةٌ مُضَرُّ الأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَيْنَهَا قَدْ أَدْعَى ذَلِكَ فَقَهَاءُ أَهْلِ البَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أُمَّ القرآنِ إِهْدَانًا إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ بِغَيْرِ القَافِ الَّتِي لِهَذَا الجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَدْرُ مِنْ أَيِّ جَاءَ هَذَا قَانَ لُغَةً أَهْلُ الأَمْصَارِ أَيضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنِ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ لَمَّا نَزَلُوا الأَمْصَارَ مِنْ لَدُنِ الفَتْحِ وَأَهْلُ الجِيلِ أَيضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا إِلاَّ أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُحَاظَةِ الأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الأَمْصَارِ فَهَذَا يُرْجَعُ فِيمَا يُوجَدُ مِنَ اللُّغَةِ لِذِيهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ هَذَا مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي النُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الخَاصِيَّةُ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا العَرَبِيُّ مِنَ الأَجْنِبِينَ وَالْحَضَرِيِّ فَتَفَهَّمْ ذَلِكَ وَاللَّهُ الهَادِي المُبِينُ

الفصل التاسع والثلاثون

في ان لغة اهل الحضرة والامصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِعْلَمُ أَنَّ عَرَفَ التَّخَاطُبِ فِي الأَمْصَارِ وَبَيْنَ الحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةٍ مُضَرِّ القَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةِ أَهْلِ الجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنِ لُغَةِ مُضَرٍّ وَعَنِ لُغَةِ هَذَا الجِيلِ العَرَبِيِّ الَّذِي لَعِهْدْنَا وَهِيَ عَنِ لُغَةِ مُضَرٍّ أَبْعَدُ فَمَا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ التَّغَايُرِ الَّذِي يَعدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ النُّجُومِ لِحْنًا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الأَمْصَارِ فِي أَصْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ المَشْرِقِ مُبَايِنَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ لِللُّغَةِ أَهْلِ المَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلُّ مِنْهُمُ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَالأَيُّ بَانَةٌ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَهَذَا مَعْنَى اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ وَفَقْدَانُ الأَعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فِي لُغَةِ العَرَبِ لِهَذَا العَهْدِ وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ اللِّسَانِ الأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هَذَا الجِيلِ فَلَانَ البُعْدَ عَنِ اللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمِخَالِطَةِ العَجْمَةِ فَمَنْ خَالَطَ العَجْمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنِ ذَلِكَ اللِّسَانِ الأَصْلِيِّ أَبْعَدَ لِأَنَّ المَلَكَةَ أَنَّمَا تَحْصُلُ بِالتَّعْلِيمِ كَمَا قُلْنَا وَهَذِهِ مَلَكَةٌ مُتَمَرِّجَةٌ مِنَ المَلَكَةِ الأُولَى الَّتِي كَانَتْ العَرَبِ وَمِنَ المَلَكَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لِلعَجْمِ فَعَلَى مَقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ العَجْمِ وَيَرَوْنَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ المَلَكَةِ الأُولَى وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةِ وَالمَغْرِبِ وَالأَنْدَلُسِ وَالمَشْرِقِ أَمَا أَفْرِيقِيَّةُ وَالمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ العَرَبُ فِيهَا البَرَابِرَةَ مِنَ العَجْمِ يُوَفِّرُ عُمُرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُو عَنْهُمْ مُضَرُّ

وَلَا جِيلٌ فُغِلَتْ الْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى
مُتَمَرِّجَةً وَالْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فِيهِ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ أَعْبَدُ وَكَذَا الْمَشْرِقُ
لَمَّا غَلَبَ الْعَرَبُ عَلَى أُمَّهِ مِنْ فَارِسَ وَالتَّرْكِ نِفَالِطُومُ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي
الْأَكْرَةِ وَالْقَلَّاحِينَ وَالسُّبِّيِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ حَوْلًا وَدَايَاتٍ وَأَذَارًا وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ
لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى انْقَابَتْ لُغَةُ أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجْمِ الْجَلَالِقَةِ
وَالْأَفْرَنْجِيَّةِ وَصَارَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ كُلِّهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَهْلَ لُغَةٍ أُخْرَى تَخْصُوصَةً بِهِمْ
تُخَالِفُ لُغَةَ مُضَرَ وَيُخَالِفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذَرْنَا وَكَانَتْ لُغَةُ أُخْرَى لِاسْتِحْكَامِ
مَلَائِكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَاللَّهُ يُخَالِقُ مَا يَشَاءُ وَيَقْدِرُ

الفصل الرابعون

في تعليم اللسان المنفرد

إِعْلَمَنَّ أَنَّ مَلَائِكَةَ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ الْحَيْلِ
كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةُ أُخْرَى مِنْ أَمْزَاجِ الْعُجْمَةِ
بِهَا كَمَا قَدَّمَاهُ إِلَّا أَنَّ اللُّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَائِكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمَكِّنًا
شَأْنَ سَائِرِ الْمَلَائِكَاتِ وَوَجْهَ التَّعْلِيمِ لَعَنَ يَتَّبِعِي هَذِهِ الْمَلَائِكَةَ وَيَرُومُ تَخْصِيلَهَا أَنْ
يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمُ الْقَدِيمِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيْبِهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ
السَّالِفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي أَسْبَاجِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ الْمُؤَلَّدِينَ أَيْضًا فِي
سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِنِظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَنْزِلَةً مِنْ نَشَأِ
بَيْنَهُمْ وَلَقِنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ
عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحِنِظُهُ مِنْ أَسَالِيْبِهِمْ وَتَرْتِيبِ الْفَاقِظِهِمْ
فَتَحْصُلُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ بِهَذَا الْحِنِظِ وَالِاسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوحًا وَقُوَّةً
وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الطَّبَعِ وَالتَّفَهُّمِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيْبِهِمْ فِي
التَّرَاكِبِ وَمُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقْتَضِيَاتِ الْأَشْوَالِ وَالذُّوقِ يَشْهَدُ بِذَلِكَ وَهُوَ
يَشَأُ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَلَائِكَةِ وَالطَّبَعِ السَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذَرْنَا وَعَلَى قَدَرِ الْعَحْفُوظِ
وَكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَقُولِ الْمَصْنُوعِ نَظْمًا وَتَثْرًا وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ
الْمَلَائِكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةٍ مُضَرَ وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ بِالْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهَكَذَا يَنْبَغِي

أَنْ يَكُونَ تَعْلَمَهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي والاربعون

في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَائِنِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَمَقَابِلِهَا
خَاصَّةً فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ لَانْتِسِ كَيْفِيَّةِ فَلَيْسَتْ نَفْسُ الْمَلَكَةِ وَأِنَّمَا هِيَ بِمِثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ
صِنَاعَةَ مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْمًا وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلًا مِثْلَ أَنْ يَقُولَ بَصِيرٌ بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ
لِلْمَلَكَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ هِيَ أَنْ يُدْخَلَ الْخَيْطُ فِي خَزْتِ الْأَبْرَةِ
ثُمَّ يَغْرِزُهَا فِي لَفْقِي النَّوْبِ مُجْتَمِعِينَ وَيُخْرِجُهَا مِنْ الْجَانِبِ الْآخِرِ بِمِقْدَارِ كَذَا ثُمَّ
يُرُدُّهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَدَأَتْ وَيُخْرِجُهَا قَدَامَ مَنْفَذِهَا الْأَوَّلِ بِمَطْرَحٍ مَا بَيْنَ الثَّقَيْنِ
الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتِمَادَى عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي صُورَةَ الْحَبْكِ وَالتَّثْبِيتِ وَالتَّفْتِيحِ
وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا وَهُوَ إِذَا طُولَبَ أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ
شَيْئًا وَكَذَا لَوْ سُئِلَ عَالِمٌ بِالنَّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ الْخَشَبِ فَيَقُولُ هُوَ أَنْ تَضَعَ الْمِشَارَ عَلَى
رَأْسِ الْخَشْبَةِ وَتَمْسِكُ بَطْرَفِهِ وَآخَرَ قِبَالَتِكَ مُمْسِكٌ بَطْرَفِهِ الْآخَرَ وَتَتَعَابَقَانِ بَيْنَكُمَا
وَأَطْرَافُهُ الْمُضْرَسَةُ الْمُحَدَّدَةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَةً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى
آخِرِ الْخَشْبَةِ وَهُوَ لَوْ طُولَبَ بِهَذَا الْعَمَلِ أَوْ شَيْءٌ مِنْهُ لَمْ يُحْكِمْهُ وَمَكَذَا الْعِلْمُ بِقَوَائِنِ
الْإِعْرَابِ مَعَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ بِقَوَائِنِ الْإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ
بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلِلذَلِكَ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ جِهَابِذَةِ النُّحَاةِ وَالْمَهْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحِيطِينَ
عِلْمًا بِتِلْكَ الْقَوَائِنِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ شَكْوَى
ظُلَامَةٍ أَوْ قَصْدٍ مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ الصَّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يَجِدْ تَأْلِيفَ
الْكَلَامِ لِذَلِكَ وَالْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِبِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَكَذَا نَجِدُ كَثِيرًا
مِمَّنْ يُحْسِنُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيُجِدُّ النَّبْنَ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ إِعْرَابَ
الْفَاعِلِ مِنَ الْمَنْعُولِ وَلَا الْمَنْعُولِ مِنَ التَّجَرُّورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَائِنِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَعِن
هَذَا تَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَعْنِيَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَقَدْ
نَجِدُ بَعْضَ الْمَهْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ بِصِيرًا بِجَالِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفَاقِيٌّ
وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ لِلنُّحَاطِينَ لِكِتَابِ سَبْيَوِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَائِنِ الْإِعْرَابِ فَقَطُّ

بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ
 مِنْ تَعْلِيمِهِمْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ فَيَجِدُ الْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَالْمُحْصِلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظٍّ مِنْ كَلَامِ
 الْعَرَبِ وَانْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِينِهِ وَمَفَاصِلِ حَاجَاتِهِ وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ الْمَلَكَةِ فَاسْتَوْفَى
 تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أَبْلَغَ فِي الْإِفَادَةِ وَمِنْ هُوَ لِأَنَّ الْخَطَّاطِينَ لِكِتَابِ سَبْيُونِهِ مِنْ يَغْفَلُ عَنِ
 التَّفَطُّنِ لِهَذَا فَيَحْصِلُ عَلَى عِلْمِ اللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْصِلُ عَلَيْهِ مَلَكَةً وَأَمَّا الْخَطَّاطُونَ
 لِيَكْتُبَ الْمُتَأَخِّرِينَ الْعَرَابِيَّةَ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ الْقَوَائِنِ النَّحْوِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَشْعَارِ
 الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ فَقَلَّ مَا يَشْعُرُونَ لِذَلِكَ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ
 يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى رُبُوبِيَّةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ وَأَهْلُ صِنَاعَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ
 لِقِيَامِهِمْ فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالتَّفَقُّهُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّرَاكِبِ فِي مَجَالِسِ
 تَعْلِيمِهِمْ فَيَسْبِقُ إِلَى الْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ التَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ النَّفْسُ لَهَا
 وَتَسْتَعِدُّ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَتُجْزَأُ وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرُوا
 صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى الْعُلُومِ بَحْثًا وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنِ التَّفَقُّهِ فِي تَرَكَيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ
 إِلَّا إِنْ أَعْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَعُوا مَذْهَبًا مِنْ جِهَةِ الْإِقْتِضَاءِ الذِّهْنِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ مَحَامِلِ
 اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَائِنِ الْمَنْطِقِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ
 الْجَدَلِ وَبَعُدَتْ عَنِ مَنَاحِي اللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي
 شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيْبِهِ وَخَفَلْتِهِمْ عَنِ الْمِرَانِ فِي ذَلِكَ لِامْتِعَالِهِمْ فَبُورِ
 أَحْسَنَ مَا تَفِيدُهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ وَتِلْكَ الْقَوَائِنِ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلٌ لِلتَّعْلِيمِ لِكُنْهِمْ
 أَجْرُوهَا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا عِلْمًا بَحْثًا وَبَعْدُوا عَنِ تَمَرُّبِهَا وَتَعَلَّمُوا مِمَّا قَرَنَاهُ
 فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ حُصِلَ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ الْخِنِظِ مِنْ كَلَامِ
 الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ الْأَمْثَالُ الَّذِي تَسْجُوا عَلَيْهِ تَرَكَيبِهِمْ فَيَنْسَجُ هُوَ عَلَيْهِ
 وَيَتَنَزَّلُ بِذَلِكَ مَنَازِلَةً مَنْ نَشَأَ مَعَهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ
 الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقْرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ الْأُمُورِ كُلِّهَا
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل

للمستعربين من العجم

اعلم ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بنون البيان ومعناها حصول ملكة
 البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وانها مطابقة للكلام للمعنى من جميع وجوهه
 بخصوص نفع للتراكيب في افادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبلوغ فيه يتحرى
 الهيممة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك
 الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم
 الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه امر التراكيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحنى
 البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحنى وجهه ونبا عنه سمعه
 بأدنى فكر بل ويغير فكر الإيماء استناد من حصول هذه الملكة فإن الملكات
 اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجيلة لذلك المحل ولذلك يظن
 كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم
 اعراباً وبلاغة امر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي
 ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي انها
 جيلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره
 على السمع والتفطن لمخاوص تراكيبه وليست تحصل بعرفة القوانين العلمية في ذلك
 التي استنبطها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا
 تفيد حصول الملكة بالنعل في محالها وقد مر ذلك وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة
 في اللسان تهدي البلوغ إلى وجود النظم وحسن التراكيب الموافق لتراكيب العرب
 في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبل المعينة
 والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه
 إليه ملكته الراسخة عنده وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب
 وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ووجهه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين
 مارس كلامهم ورُبما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية

وَالْبَيَانِيَّةُ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْقَوَائِنِ الْمَفَادَةِ بِالِاسْتِقْرَاءِ وَهَذَا أَمْرٌ
وَجَدَانِي حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا
صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِّي فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيَحْكُمُ شَأْنَ الْأَعْرَابِ
وَالْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِي فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ
بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ وَكَذَلِكَ تَحْضُلُ هَذِهِ الْمَلَكََةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ
الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخَطَبِيَّتِهِمْ وَالْمَدَاوِمَةِ عَلَى ذَلِكَ بِحَيْثُ يُحْصِلُ الْمَلَكََةَ
وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِّي بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ وَالْقَوَائِنُ بِمَعْرُوفٍ عَنْ هَذَا
وَأَسْتَعِيرُ لِهَذِهِ الْمَلَكََةِ عِنْدَمَا تَرَسَّخَ وَتَسْتَقَرُّ أَسْمُ الدُّوْقِ الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ
صِنَاعَةِ الْبَيَانِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضِعٌ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ لَكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هَذِهِ الْمَلَكََةِ
فِي اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلامِ كَمَا هُوَ مَحَلُّ لِإِدْرَاكِ الطُّعُومِ اسْتَعِيرَ لَهَا اسْمُهُ
وَأَيْضًا فَهُوَ وَجَدَانِي اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ
ذَلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعْجِمَ الدَّخِيلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّبِينَ
إِلَى النُّطْقِ بِهِ اِحْتِطَاةً أَهْلُهُ كَالْفَرَسِ وَالزُّرُومِ وَالرُّكَّ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ
فَإِنَّهُ لَا يُحْصِلُ لَهُمْ هَذَا الدُّوْقَ لِقُصُورِ حِظِّهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكََةِ الَّتِي قَرَرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ
قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَعْمُرِ وَسَقَى مَلَكَةً أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَعْتَنُوا
بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مَضْرَبِ بَيْنَهُمْ فِي الْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُنْرَدٍ وَمُرْكَبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ
وَهَذِهِ الْمَلَكََةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعَدُوا عَنْهَا كَمَا نَقَدَمُ وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي
ذَلِكَ مَلَكَةٌ أُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةِ وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ الْمَلَكََةَ
مِنَ الْقَوَائِنِ الْمُسْطَرَّةِ فِي الْكُتُبِ فَايَسَ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَلَكََةِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا حَصَلَ
أَحْكَامُهَا كَمَا عَرَفْتَ وَإِنَّمَا تَحْضُلُ هَذِهِ الْمَلَكََةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالْإِعْتِيَادِ وَالتَّكْرُرِ
لِلْكَلامِ الْعَرَبِيِّ فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّ سَبِيحِيَّةً وَالْفَارِسِيَّةَ وَالزُّنْجَشَرِيَّةَ وَمِثَالَهُمْ
مِنْ فُرْسَانَ الْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ لَهُمْ فَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلِيكَ
الْقَوْمِ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي سَبِيحِهِمْ فَقَطُّ وَأَمَّا الْعَرَبِيُّ وَالنَّشَاءُ فَكَانَتْ
بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَأَسْتَوُوا بِذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ
عَلَى غَايَةِ لَأَشْيَاءٍ وَرَاءَهَا وَكَانَتْهُمْ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ

حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَهَمُّ وَإِنْ كَانُوا عَجْمًا فِي النَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ
 فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْمَلَمَةَ فِي عَنَوَانِهَا وَاللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبِ
 آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ
 الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوْوُوا عَلَى غَايَتِهِ وَالْيَوْمِ الْوَاحِدِ مِنَ الْعَجْمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ اللِّسَانِ
 الْعَرَبِيِّ بِالْأَمْصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُتَّحِيَةً
 الْآثَارَ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمْ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالَفَةً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
 ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحَفِظِ
 يَسْتَفِيدُ مَخْصِيَلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحْضَلَ لَهُ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ
 أُخْرَى فِي الْحَقْلِ فَلَا تَحْضُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً وَإِنْ فَرَضْنَا أَعْجَمِيًّا فِي النَّسَبِ سَلِمَ
 مِنْ مَخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجْمِيِّ بِالْكَلِمَةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْمُدَارَسَةِ
 فَرُبَّمَا يَحْضُلُ لَهُ ذَلِكَ لِكِنَّةٍ مِنَ الدُّورِ بَحِثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا نَقَرَّرَ وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ
 مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيِّنَاتِ حُصُولَ هَذَا الذُّوقِ لَهُ بِهَا وَدَوَّعَاطُ أَوْ مَخَالَطَةً وَإِنَّمَا
 حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْبَيِّنَاتِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ الْعِبَارَةِ فِي
 شَيْءٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق فاصرون في تحصيل هذه الملكة

اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن

اللسان العربي كان حصولها له اصعب واعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ الْمَطْلُوبَةِ
 بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْحَضْرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ الْعِجْمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا اللِّسَانُ عَنِ
 مَلَكَتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الْحَضَرِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْعُلَمَاءُ
 يَذْهَبُونَ إِلَى الْمَسَابِقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلوِلْدَانِ وَتَعْتَقِدُ النَّحَاةُ أَنَّ هَذِهِ الْمَسَابِقَةَ
 بِصِنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمَخَالَطَةِ اللِّسَانِ وَكَلَامِ
 الْعَرَبِ نَعْمَ صِنَاعَةٌ الْخَوْفُ أَقْرَبُ إِلَى مَخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ أُمَّاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَعْرَقَ
 فِي الْعِجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ مَضْرُوقًا بِصَاحِبِهِ عَنِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْمَضْرُوبَةِ وَحُصُولِ

مَلَكَتْهَا تَمَكَّنَ الْمُنَافَاةُ حِينَئِذٍ وَعَبَّرَ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَأَهْلُ أFRِيقَةَ وَالْمَغْرِبِ
 لَمَّا كَانُوا أَعْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامٌ فِي تَحْصِيلِ
 مَلَكَتْهُ بِالتَّعْلِيمِ وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرَّفِيقِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِ
 لَهُ يَا أَخِي وَمَنْ لَا عِدَمْتُ فَقَدَهُ أَعْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَامًا أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ
 تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقِفَنَا الْيَوْمَ قَلِمٌ يَتَهَيَّأُ لَنَا الْخُرُوجُ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكَلَابُ مِنْ
 أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَّبُوا هَذَا بَاطِلًا لَيْسَ مِنْ هَذَا حَرْفًا وَاحِدًا وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ
 إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهَكَذَا كَانَتْ مَلَكَتْهُمْ فِي اللِّسَانِ الْمُضْرِي شَبِيهٌ بِمَا ذَكَرْنَا
 وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَنْزَلْ كَذَلِكَ لِهَذَا
 الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيقَةَ مِنْ مَشَاهِيرِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا ابْنُ رَشِيقٍ وَأَبْنُ شَرْفٍ وَأَكْثَرُ
 مَا يَكُونُ فِيهَا الشُّعْرَاءُ طَارِئِينَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَنْزَلْ طَبَقَتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ حَتَّى الْآنَ مَائِلَةٌ إِلَى
 الْقُصُورِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ مُعَانَتِهِمْ
 وَأَمْتَلَائِهِمْ مِنَ الْمُحْفُوظَاتِ الْعُجُوبَةِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَكَانَ فِيهِمْ ابْنُ حَيَّانَ الْمُؤَرِّخُ إِمَامُ
 أَهْلِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَرَافِعُ الرَّايَةِ لَهُمْ فِيهَا وَأَبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقَسْطَلِيُّ
 وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ شُعْرَاءِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ لِمَا زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ اللِّسَانِ وَالْأَدَبِ وَتَدَاوَلُ
 ذَلِكَ فِيهِمْ مِثِينَ مِنَ السَّنِينَ حَتَّى كَانَ الْإِنْقِضَاؤُ وَالْجَلَاءُ أَيَّامَ تَغْلِبِ النُّصْرَانِيَّةِ وَشِعِلُوا
 عَنْ تَعْلَمِ ذَلِكَ وَتَنَاقَصَ الْعُمَرَانُ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَقَصَّرَتْ الْمَلَكَةُ
 فِيهِمْ عَنْ شَأْنِهَا حَتَّى بَلَغَتْ الْحُضِيضَ وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَمَالِكُ بْنُ
 مَرْحَلٍ مِنَ تَلَامِيذِ الطَّبَقَةِ الْأَشْبِيلِيَّةِ بِسَبْتَةِ وَكَتَابَ دَوْلَةَ ابْنِ الْأَحْمَرِ فِي أَوْلِيهَا
 وَأَلْقَتْ الْأَنْدَلُسُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلَاءِ إِلَى الْعُدُودِ لِعُدُودِ
 الْأَشْبِيلِيَّةِ إِلَى سَبْتَةِ وَمِنْ شَرَفِي الْأَنْدَلُسِ إِلَى أَفْرِيقَةَ وَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَى أَنْ نَقَرَضُوا وَأَنْقَطَعَ
 سِنْدُ تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِعَسْرِ قَبُولِ الْعُدُودِ لَهَا وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعُوجِ السَّنَتِيمِ
 وَرُسُوخِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا قَلِنَاهُ ثُمَّ عَادَتْ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ وَنَجَّمَ بِهَا ابْنُ بَشْرِينَ وَأَبْنُ جَابِرٍ وَأَبْنُ الْجِيَابِ وَطَبَقَتُهُمْ ثُمَّ
 إِبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطَّرِيعِيُّ وَطَبَقَتُهُ وَقَفَّاهُ ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ بَعْدِهِمُ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ
 شَهِيدًا بِسَعَايَةِ أَعْدَائِهِ وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ مَلَكَةٌ لِأَنْتَدْرِكَ وَأَتَبَعَ أَثَرَهُ تَلْمِيذُهُ وَبِالْجُمْلَةِ

فَشَأْنُ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعَلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا
 الْعَهْدِ كَمَا قَدَّمَاهُ مِنْ مَعَانَاةِ عُلُومِ اللِّسَانِ وَحِفَافَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ
 تَعَلِيمِهَا وَإِنَّ أَهْلَ اللِّسَانِ أَجْمَعِي الَّذِينَ تَفَسَّدُ مَلَكَتُهُمْ إِذَا هُمْ طَارُوا عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ
 عَجَبَتُهُمْ أَصْلًا لِغَلَّةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْبَرْبَرِ فِي هَذِهِ الْعُدُوةِ وَهُمْ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا
 إِلَّا فِي الْأَمْصَارِ فَقَطْ وَهُمْ فِيهَا مُنْعَمَسُونَ فِي بَعْضِ عَجْمَتِهِمْ وَرِطَانَتِهِمْ الْبَرْبَرِيَّةِ فَيَضَعُ
 عَلَيْهِمْ تَحْصِيلُ الْمَمْلُوكَةِ اللِّسَانِيَّةِ بِالتَّعَلِيمِ بِخِلَافِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَعْتَبَرْنَا ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ
 الْمَشْرِقِ عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأْنُهُمْ شَأْنَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ
 هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ وَإِجَادَتِهَا لِبُعْدِهِمْ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَنِ الْأَعَاجِمِ وَحِفَافَتِهِمْ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ
 فَكَانَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَابُ أَوْفَرَ
 لِتَوْفُرِ الْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَأَنْظَرْنَا مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْأَغَانِي مِنْ نَظْمِهِمْ
 وَتَرْجُمِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ الْعَرَبِ وَدِيُونُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ
 وَمِلَّتُهُمْ الْعَرَبِيَّةَ وَسِيرَتُهُمْ وَأَثَارُ خِلْفَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَعِنَاؤُهُمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ
 لَهُ فَلَا كِتَابَ أَوْعَبَ مِنْهُ لِأَحْوَالِ الْعَرَبِ وَبَقِيَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ مُسْتَحْكِمًا فِي الْمَشْرِقِ
 فِي الدَّوَلَتَيْنِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغُ مِنْ سِوَاهُمْ مِنْ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَدَّ كُرُهُ
 بَعْدُ حَتَّى تَلَأَشَى أَمْرُ الْعَرَبِ وَدُرِسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَأَنْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوَلَتُهُمْ
 وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْأَعَاجِمِ وَالْمَلِكُ فِي أَيْدِيهِمْ وَالتَّغَلُّبُ لَهُمْ وَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الدَّلِيمِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ
 وَخَالَطُوا أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَالْحَوَاضِرِ حَتَّى بَعَدُوا عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَلَكَتِهِ وَصَارَ
 مَتَعَلِّمًا مِنْهُمْ مُقْصِرًا عَنْ تَحْصِيلِهَا وَعَلَى ذَلِكَ نَجِدُ لِسَانَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ
 وَالْمَنْشُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِنْهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 عِلْمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبِّ سِوَاهُ

الفصل الرابع والاربعون

في انقسام الكلام الى في النظم والنثر

إِعْلَمُ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فِي الشُّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ
 الْمَوْزُونُ الْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ وَفِي
 النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ

فِي الْكَلَامِ فَأَمَّا الشَّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالنَّهْيُ وَالرِّثَاءُ وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ السَّجْعُ الَّذِي
 يُؤْتَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ
 وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يَقْطَعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ
 تَقْسِيمٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيْبِهِمْ وَأَمَّا
 الْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُنْتَوَرِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَابْتَسَى يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا
 وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلُ آيَاتِ بِنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعِ يَشْهَدُ الذُّوقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا
 ثُمَّ يَعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى بَعْدَهَا وَيَبْنَى مِنْ غَيْرِ التَّزَامِ حَرْفٌ يَكُونُ سَجْعًا
 وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ
 جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَقَالَ قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلٌ
 إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا التَّزَمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ وَأُطْلِقَ اسْمُ
 الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَأَخْتَصَّتْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلْبَةِ
 فِيهَا كَاللَّجَمِ لِلثَّرِيَابِ وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَأَنْظَرَ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمَفْسِرُونَ فِي تَعْلِيلِ
 تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَا . وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ
 النَّوْرِ سَائِلِبٌ يُخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخِرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ
 الْمُخْتَصِّ بِالشَّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ
 وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ سَائِلِبَ الشَّعْرِ وَمَوَازِينَ فِي الْمُنْتَوَرِ مِنْ كَثْرَةِ
 الْأَسْجَاعِ وَالتَّزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَعْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمُنْتَوَرُ إِذَا
 تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشَّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِ قَالًا إِلَّا فِي الْوِزْنِ وَأَسْتَمَرَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْكُتَّابِ
 عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَأَسْتَعْمَلُوهَا فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الْأَسْتَعْمَالَ فِي الْمُنْتَوَرِ
 كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي أَرْتَضُوهُ وَخَلَطُوا الْأَسَائِلِبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ
 وَخُصُوصًا أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَصَارَتِ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكُتَّابِ
 الْغَنَلِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا
 يُلَاحِظُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطَبِ وَهَذَا
 الْفَنُّ الْمُنْتَوَرُ الْمُقْتَضَى أَدْخَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ سَائِلِبَ الشَّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ نَنْزِعَ الْمُخَاطَبَاتِ
 السُّلْطَانِيَّةَ عَنْهُ إِذْ سَائِلِبُ الشَّعْرِ تَنَافَيْهَا اللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلَطَ الْجِدُّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابُ فِي

الْأَوْصَافِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةِ التَّشْبِيهَاتِ وَالْإِسْعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةً
 إِلَى ذَلِكَ فِي الْخُطَابِ وَالتَّرَامِ التَّقْفِيَةِ أَيْضًا مِنَ اللُّوْذَعَةِ وَالتَّرْيِينِ وَجَلَالِ الْمَلِكِ
 وَالسُّلْطَانِ وَخُطَابِ الْجُمْهُورِ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْتَرغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ يُنَافِي ذَلِكَ وَيُبَيِّنُهُ وَالنَّحْمُودُ
 فِي الْمَخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ الرَّسُلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيْعٍ
 إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسَلُهُ الْمَلِكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْثُفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ
 الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ
 يَخْصُهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِجْيَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِبَايَةِ
 وَاسْتِعَارَةٍ وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْمَخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا الذَّخْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِبِ
 الشَّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصْرِ إِلَّا اسْتِغْلَاةَ الْعُجْمَةِ عَلَى السِّنْتِيهِمْ وَقُصُورَهُمْ
 لِذَلِكَ عَنِ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ الْكَلَامِ
 الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمْدِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَانْفِسَاحِ خُطُوبِهِ وَوَلَعُوْهُ هَذَا الْمَسْجُوعَ يَلْفُقُونَ بِهِ مَا
 نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ وَيَجْعَلُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدْرَ
 مِنَ التَّرْيِينِ بِالْأَسْجَاعِ وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ وَيَغْفَلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ
 بِهِذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كِتَابُ الْمَشْرِقِ وَشِعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى
 أَنَّهُمْ لِيُغْلَوْنَ بِالْأَعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّصْرِيْفِ إِذَا دَخَلَتْ لُؤْسٌ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ
 مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرْجِحُونَ ذَلِكَ الصَّنْفَ مِنَ التَّجْنِيسِ وَيَدْعُونَ لِأَعْرَابِ وَيَفْسِدُونَ
 بِنِيَةِ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادَفُ التَّجْنِيسِ فَتَأْمَلُ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَ نَاهُ لَكَ نَقْفٌ عَلَى صِحِّهِ مَا
 ذَكَرْنَاهُ وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِيَمِينِهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الخامس والاربعون

فِي أَنَّهُ لَا يُنْفِقُ الْإِجَادَةَ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَعَ الْإِلَاقِ
 وَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مَلِكَةً فِي اللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّغَتْ إِلَى مَحَلِّهِ مَلِكَةً
 أُخْرَى قَصَّرَتْ بِالْمَحَلِّ عَنِ تَمَامِ الْمَلِكَةِ الْأَحْقَقَةِ لِأَنَّ تَمَامَ الْمَلِكَاتِ وَحُصُولَهَا
 لِلطَّبَائِعِ الَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلِكَةٌ أُخْرَى كَانَتْ
 مُنَازَعَةً لَهَا فِي الْمَادَةِ الْقَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنِ سُرْعَةِ الْقَبُولِ فَوَقَعَتِ الْمُنَافَاةُ وَتَعَدَّرَ التَّمَامُ
 فِي الْمَلِكَاتِ الصَّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَقَدْ بَرَهْنَا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوِ مِنْ هَذَا

الْبَرْهَانَ فَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الْأَعْيَانِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ اللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَاعَةِ وَأَنْظُرْ مَنْ
تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِرًا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَبَدًا فَلَا عَجْمِي الَّذِي
سَبَقَتْ لَهُ اللُّغَةُ الْفَارْسِيَّةُ لَا يَسْتَوِي عَلَى مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِرًا فِيهِ
وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ وَكَذَلِكَ الْبَرْبَرِيُّ وَالرُّومِيُّ وَالْأَفْرَنْجِيُّ قُلْ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْهُمْ مُحْكَمًا
لِمَلَكََةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى أَسْنَتِهِمْ مِنْ مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْآخَرَ
حَتَّى إِنْ طَلَبَ الْعِلْمَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسِنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ
مُقَصِّرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْعَالِيَةِ وَالْتَحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ اللِّسَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ
مَنْ قَبْلُ أَنَّ الْأَلْسِنَ وَاللُّغَاتِ شَدِيدَةٌ بِالصَّنَائِعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكََاتِهَا لَا
تَزْدَحِمُ وَإِنْ مِنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقُلْ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوِي فِيهَا عَلَى
الْعَالِيَةِ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه تعليمه

هَذَا النَّثْرُ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ
اللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّا الْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي الشَّعْرِ الَّذِي لِلْعَرَبِ فَإِنْ أَمْكَنْ أَنْ تَجِدَ فِيهِ
أَهْلُ الْأَلْسِنِ الْآخَرِي مَقْصُودُهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي الْبَلَاغَةِ
تَخْصُهُ وَهُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفْصَلٌ قِطْعًا
قِطْعًا مُتَسَاوِيَةٌ فِي الْوِزْنِ مُتَّحِدَةٌ فِي الْحَرْفِ الْآخِرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَاتِ
عِنْدَهُمْ بَيْتًا وَيُسَمَّى الْحَرْفُ الْآخِرُ الَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيًا وَقَافِيَةٌ وَيُسَمَّى جُمْلَةً
الْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةٌ وَكَلِمَةٌ وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَائِيهِ حَتَّى
كَانَهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ وَإِذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامًا فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ
أَوْ تَنْشِيبٍ أَوْ رِثَاءٍ فَيُحْرَصُ الشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ ثُمَّ
يَسْتَأْنِفُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ كَلَامًا آخَرَ كَذَلِكَ وَيَسْتَطِرِدُ لِلخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ
مَقْصُودِ إِلَى مَقْصُودٍ بَأَنْ يُوْطِئَ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ تَنَاسَبَ الْمَقْصُودُ الثَّانِي
وَيُبْعَدُ الْكَلَامَ عَنِ التَّنَافُرِ كَمَا يَسْتَطِرِدُ مِنَ التَّنْشِيبِ إِلَى الْمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ الْبَيْدَاءِ
وَالطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ الرِّكَابِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ الطَّيْفِ وَمِنْ وَصْفِ الْمَمْدُوحِ إِلَى وَصْفِ

قَوْمِهِ وَعَسَا كَرِهَ وَمِنْ التَّنَجُّعِ وَالْعَزَاءِ فِي الرِّثَاءِ إِلَى النَّائِثِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُرَاعَى فِيهِ
 اتِّفَاقُ الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي الْوِزْنِ الْوَاحِدِ حَدْرًا مِنْ أَنْ يَسْأَهَلَ الطَّبَعُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ
 وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ يُقَارَبُهُ فَقَدْ يَخْفَى ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَلِإِدْوِهِ
 الْمَوَازِينَ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضَمَّنَهَا عِلْمُ الْعَرُوضِ وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَنْفِقُ فِي الطَّبَعِ
 اسْتِعْمَلْتَهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مُخْصَّصَةٌ اسْمِيهَا أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ
 الْجَمُورُ وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ بَحْرًا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنْ
 الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ فَنَّ الشُّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ
 الْعَرَبِ وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ دِيْوَانَ عُلُوِّهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطَأِهِمْ وَأَصْلًا
 يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُوِّهِمْ وَحِكْمِهِمْ وَكَانَتْ مَلَكْتُهُ مُسْتَحْكَمَةً فِيهِمْ شَأْنُ
 الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا وَالْمَلَكَاتُ السَّائِيَةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكْتَسِبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْإِزْيَاضِ
 فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَحْصُلَ شَبَهُهُ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ وَالشُّعْرُ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ صَعْبُ الْمَأْخِذِ
 عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ
 بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌ فِي مَقْصُودِهِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَيُجْتَنَّبُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى
 نَوْعٍ تَلَطَّفَ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ حَتَّى يُفْرَغَ الْكَلَامُ الشُّعْرِيَّ فِي قَوْلِيهِ الَّتِي عُرِفَتْ
 لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيَبْرُزُهُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ
 كَذَلِكَ ثُمَّ يَبِيْتُ وَيَسْتَكْمِلُ الْفُنُونَ الْوَاقِيَةَ بِمَقْصُودِهِ ثُمَّ يَنْسَابُ بَيْنَ الْبَيْتِ فِي
 مُوَالَاةٍ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفُنُونَ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ وَلِصُعُوبَةِ مَنْحَاهُ
 وَغَرَابَةِ فَنِّهِ كَانَ مَحْكَمًا لِلْفَرَاحِ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيْبِهِ وَشَحْذِ الْأَفْكَارِ فِي
 تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِيهِ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَلَكَةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ
 يُجْتَنَّبُ بِمُخْصَّصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمُخَاوَلَةٍ فِي رِعَايَةِ الْأَسَالِيْبِ الَّتِي اخْتَصَّتْهَا الْعَرَبُ بِهَا وَأَسْتَعْمَلَهَا
 وَلِنَدْوِكُرْ هُنَا سُلُوكَ الْأَسْلُوبِ عِنْدَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَمَا يُرِيدُونَ بِهَا فِي إِطْلَاقِهِمْ
 فَأَعْلَمُ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عِنْدَهُمْ عَنِ الْمُنْوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ فِيهِ التَّرَاكِيْبُ أَوْ الْقَالِبُ الَّذِي يُفْرَعُ
 فِيهِ وَلَا يُرْجَعُ إِلَى الْكَلَامِ بِاعْتِبَارٍ إِفَادَتِهِ أَصْلَ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ وَظَيْفَةُ الْإِعْرَابِ
 وَلَا بِاعْتِبَارٍ إِفَادَتِهِ كَمَالَ الْمَعْنَى مِنْ خَوَاصِّ التَّرَاكِيْبِ الَّذِي هُوَ وَظَيْفَةُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ
 وَلَا بِاعْتِبَارِ الْوِزْنِ كَمَا اسْتِعْمَلَهُ الْعَرَبُ فِيهِ الَّذِي هُوَ وَظَيْفَةُ الْعَرُوضِ فَهَذِهِ الْعُلُومُ

الثَلَاثَةُ خَارِجَةٌ عَنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشَّعْرِيَّةِ وَإِنَّمَا يُرْجَعُ إِلَى صُورَةٍ ذَهَبِيَّةٍ لِلتَّرَاكِيِبِ
 الْمُنْتَظَمَةِ كَلِمِيَّةٍ بِاعْتِبَارِ انْتِطَابِقِهَا عَلَى تَرْكِيِبِ خَاصٍّ وَتِلْكَ الصُّورَةُ يَنْتَزِعُهَا الذَّهْنُ مِنْ
 أَعْيَانِ التَّرَاكِيِبِ وَأَشْغَاظِهَا وَيُصَيِّرُهَا فِي الْخِيَالِ كَالْقَالِبِ أَوْ الدِّنْوَالِ ثُمَّ يَنْتَقِي
 التَّرَاكِيِبَ الصَّحِيحَةَ عِنْدَ الْعَرَبِ بِاعْتِبَارِ الْأَعْرَابِ وَالْبَيَانَ فَيَرُدُّهَا فِيهِ رِصًا كَمَا يَنْعَاهُ
 الْبِنَاءُ فِي الْقَالِبِ أَوْ النَّسَاجِ فِي الدِّنْوَالِ حَتَّى يَتَسَّخَّ الْقَالِبُ بِحُصُولِ التَّرَاكِيِبِ الْوَاقِعَةِ بِمَقْصُودِ
 الْكَلَامِ وَيَقَعُ عَلَى الصُّورَةِ الصَّحِيحَةَ بِاعْتِبَارِ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِيهِ فَإِنَّ لِكُلِّ
 قَنْ مِنْ الْكَلَامِ أَسَالِيِبَ تَخْتَصُّ بِهِ وَتُوجَدُ فِيهِ عَلَى أَنْحَاءٍ مُخْتَلَفَةٍ فَسُؤَالُ الطُّلُولِ فِي
 الشَّعْرِ يَكُونُ بِخُطَابِ الطُّلُولِ كَقَوْلِهِ يَا دَارَ مِيَّةَ بِالْعِلْمَاءِ فَالْسِّنْدُ وَيَكُونُ بِاسْتِدْعَاءِ
 الصَّحْبِ لِلْوُفُوفِ وَالسُّؤَالِ كَقَوْلِهِ . فَمَا نَسَأَلُ الدَّارَ الَّتِي خَفَتْ أَهْلَهَا . أَوْ بِاسْتِكَاءِ الصَّحْبِ
 عَلَى الطَّلَلِ كَقَوْلِهِ . فَمَا نَبِكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ . أَوْ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنِ الْجَوَابِ
 لِمُخَاطَبِ غَيْرِهِ عَيْنِ كَقَوْلِهِ . أَلَمْ نَسَأَلْ فَتُخْبِرِكِ الرَّسُومُ . وَمِثْلُ نَحْمَةِ الطُّلُولِ بِالْأَمْرِ
 لِمُخَاطَبِ غَيْرِ مُعَيَّنٍ بِتَحِيَّتِهَا كَقَوْلِهِ . حَيِّ الدِّيَارِ بِجَانِبِ الْغَزْلِ . أَوْ بِالِدِّعَاءِ لَهَا
 بِالسَّقِيَا كَقَوْلِهِ

أَسْقَى طُلُوبَهُمْ أَحْشَى هَنِيمٍ وَعَدَّتْ عَلَيْهِمْ نُضْرَةً وَنَعِيمٍ

أَوْ سُؤَالِهِ السَّقِيَا لَهَا مِنَ الْبَرْقِ كَقَوْلِهِ

يَا بَرْقُ طَالِعِ مَنْزِلًا بِالْأَبْرِقِ وَأَحْدِ السَّحَابِ لَهَا حِدَاءً الْإِنْبِقِ

أَوْ مِثْلُ التَّفْجِعِ فِي الْجَزَعِ بِاسْتِدْعَاءِ الْبُكَاءِ كَقَوْلِهِ

كَذَا فَلْيَجَلِ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَذْرُ

أَوْ بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ كَقَوْلِهِ . أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ . أَوْ بِالِاسْتِجْلِ عَلَى
 الْأَسْكَوَانِ بِالْمُصِيبَةِ لِقَدَمِهِ كَقَوْلِهِ

مَنَابِتِ الْعُشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الرَّدَى بِطَوِيلِ الرَّشْخِ وَالْبَاعِ

أَوْ بِالِالْتِكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْفَجِعْ لَهُ مِنَ الْجَمَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَلَّارِ جِيَّةِ

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكٍ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيْقِهِ بِالرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ

الْفَى الرَّمَاحِ رِبِيعَةَ بَنِ نِزَارِ أَوْ دَى الرَّدَى بِفَرِيقِكَ الْمِعْوَارِ

وَأَمثالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ الْكَلَامِ وَمَدَاهِيهِ وَتَنْتَظِمُ التَّرَاكِبُ فِيهِ
 بِالْجَمَلِ وَغَيْرِ الْجَمَلِ إِشْأَائِيَّةٌ وَخَبْرِيَّةٌ إِسْمِيَّةٌ وَفِعْلِيَّةٌ مُتَّفِقَةٌ وَغَيْرُ مُتَّفِقَةٍ مَفْصُولَةٌ وَمَوْصُولَةٌ
 عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ التَّرَاكِبِ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْأُخْرَى يُعْرَفُ
 فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِالْأَرْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِنَ الْقَالِبِ الْكَلْبِيِّ الْمَجْرَدِ فِي الذِّهْنِ
 مِنَ التَّرَاكِبِ الْمَعِينَةِ الَّتِي يَنْظِقُ ذَلِكَ الْقَالِبُ عَلَى جَمِيعِهَا فَإِنَّ مَوْلَفَ الْكَلَامِ هُوَ
 كَالْبِنَاءِ أَوْ السَّجَّاحِ وَالصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ الْمُنْطَبِقَةُ كَالْقَالِبِ الَّذِي يُبْنَى فِيهِ أَوْ الْمُنْوَالِ
 الَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ فَإِنَّ خَرَجَ عَنِ الْقَالِبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ الْمُنْوَالِ فِي نَسْجِهِ كَانَ فَاسِدًا
 وَلَا تَقْوَانٌ إِنْ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ الْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِذَلِكَ لِأَنَّ تَقْوَالَ قَوَانِينِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ
 عِلْمِيَّةٌ قِيَاسِيَّةٌ تُفِيدُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ التَّرَاكِبِ عَلَى هَيْئَتِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقِيَاسِ وَهُوَ قِيَاسٌ
 عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَّرَدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ الْقَوَانِينِ الْإِعْرَابِيَّةِ وَهَذِهِ الْأَسَالِبُ الَّتِي نَحْنُ
 نَقَرُّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرَسَخُ فِي النَّفْسِ مِنْ تَتَبُّعِ التَّرَاكِبِ
 فِي شِعْرِ الْعَرَبِ لِحَرِيانِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتُهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا الْعَمَلُ عَلَى مِثَالِهَا
 وَالْإِحْتِدَاءُ بِهَا فِي كُلِّ تَرَكِيبٍ مِنَ الشَّعْرِ كَمَا قَدِمْنَا ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ وَإِنَّ
 الْقَوَانِينَ الْعِلْمِيَّةَ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَيِّنَ لَا يُفِيدُ تَعْلِيمَهُ بِوَجْهِهٍ وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَبْصَحُ فِي قِيَاسِ
 كَلَامِ الْعَرَبِ وَقَوَانِينِهِ الْعِلْمِيَّةِ اسْتَعْمَلُوهُ وَإِنَّمَا الْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْحَاءُ
 مَعْرُوفَةٌ يَطَّلِعُ عَلَيْهَا الْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرِجُ صُورَتُهَا تَحْتَ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْقِيَاسِيَّةِ
 فَإِذَا نَظَرَ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ وَبِهَذِهِ الْأَسَالِبِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي تُصِيرُ الْقَوَالِبَ
 كَانُ نَظْرًا فِي الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَاكِبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ الْقِيَاسُ وَلِهَذَا قُلْنَا إِنْ الْمَحْصَلُ
 لِهَذِهِ الْقَوَالِبِ فِي الذِّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ وَهَذِهِ الْقَوَالِبُ كَمَا
 تَكُونُ فِي الْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي الْمَثُورِ فَإِنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كَلَا الْفَنَيْنِ
 وَجَاءُوا بِهِ مَفْصَلًا فِي التَّوَعِينِ فِي الشَّعْرِ بِالنَّقِطِ الْمَوْزُونَةِ وَالْقَوَائِمِ الْمَقِيدَةِ
 وَاسْتِقْلَالَ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي الْمَثُورِ يُعْتَبَرُونَ الْمَوْازَنَةَ وَالنَّشَابَةَ
 بَيْنَ الْقِطْعِ غَالِبًا وَقَدْ يَقِيدُونَهُ بِالْأَسْجَاعِ وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ مَعْرُوفَةٌ
 فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَالْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُبْنَى مَوْلَفُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيفُهُ
 وَلَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذِهْنِهِ مِنَ الْقَوَالِبِ الْمَعِينَةِ الشَّخْصِيَّةِ

قَالَبُ كَلْبِي مُطْلَقٌ يَحْدُو حَدَّوهُ فِي التَّلَافِيهِ كَمَا يَحْدُو الْبِنَاءُ عَلَى الْقَالَابِ وَالْأَسَاجُ
 عَلَى الْمَنَوَالِ فَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مَفْرَدًا عَنْ نَظَرِ النَّحْوِيِّ وَالْبَيِّنَاتِي وَالْعَرُوضِيِّ
 نَعْمَ إِنْ مُرَاعَاةَ قَوَانِينِ هَذِهِ الْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لَا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا تَحَصَّاتِ هَذِهِ الصَّنَاعَاتُ
 كَلْمًا فِي الْكَلَامِ اخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لَطِيفٍ فِي هَذِهِ الْقَوَالِبِ الَّتِي يُسَوِّمُهَا أَسَالِيبُ
 وَلَا يَفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الْأَسَالِيبِ مَا هُوَ فَانْدَكُرُ
 بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْمًا لِلشَّعْرِ بِهِ تَفَهُمُ حَقِيقَتَهُ عَلَى صَعُوبِهِ هَذَا الْغَرَضُ فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ
 لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا رَأْيَانَهُ وَقَوْلِ الْعَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمَمُوزُونُ
 الْمَقْفِيُّ لَيْسَ بِحَدِّ لِهَذَا الشَّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدْرِهِ وَلَا رَسْمٌ لَهُ وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي
 الشَّعْرِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوِزْنِ وَالْقَوَالِبِ الْخَاصَّةِ فَلَا جَرَمَ إِنْ
 حَدَّهُمْ ذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفِ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ
 الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِغُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْأِسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ الْمَفْصَلِ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ
 فِي الْوِزْنِ وَالرَّوِيِّ مُسْتَقِيلٌ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي
 عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمُخْصُوصَةِ بِهِ فَقَوْلُنَا الْكَلَامُ الْبَلِغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمَبْنِيُّ عَلَى
 الْأِسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ فَضْلٌ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ لَيْسَ بِشَّعْرِ وَقَوْلُنَا
 الْمَفْصَلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ الْوِزْنِ وَالرَّوِيِّ فَضْلٌ لَهُ عَنِ الْكَلَامِ الْمَمُوزُونِ الَّذِي لَيْسَ
 بِشَّعْرِ عِنْدَ الْكَلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِيلٌ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ
 بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا تَكُونُ آيَاتُهُ إِلَّا كَذَلِكَ وَلَمْ يُفْصَلْ بِهِ شَيْءٌ وَقَوْلُنَا الْجَارِي
 عَلَى الْأَسَالِيبِ الْمُخْصُوصَةِ بِهِ فَضْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرُ مِنْهُ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفَةِ
 فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَهُ أَسَالِيبٌ مُخْصَةٌ لَا
 تَكُونُ لِلْمَمُوزُونِ وَكَذَا أَسَالِيبُ الْمَمُوزُونِ لَا تَكُونُ لِلشَّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا
 وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الْأَسَالِيبِ فَلَا يَكُونُ شِعْرًا وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارُ كَانَ الْكَثِيرُ مِنْ لِقِينَاهُ
 مِنْ شَيْوِخِنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَدَبِيَّةِ يَرُونَ أَنَّ نَظْمَ الْمَمُوزُونِ وَالْمَعْرُوفِ لَيْسَ هُوَ مِنَ
 الشَّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرُيَا عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَمْرِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشَّعْرَ
 يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ
 الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيبِ الْمُخْصُوصَةِ وَإِذَا قَدْ فَرَعْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشَّعْرِ فَلَنَرْجِعْ

إِلَى الْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ عَمَلِهِ فَنَقُولُ . اعْلَمْ أَنَّ لِعَمَلِ الشَّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا
 أَوَّلَهَا الْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ أَيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يَسْجُ
 عَلَى مَنَوَالِهَا وَيَخْتِيرُ الْمُحْفَظُ مِنَ الْخَرِّ النَّقِيَّ الْكَثِيرَ الْأَسَالِيْبَ وَهَذَا الْحِفْظُ الْمُخْتَارُ
 أَقْلُ مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ النُّحُولِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلِ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَثِيرٍ
 وَذِي الرِّثْمَةِ وَجَرِيرٍ وَأَبِي نُوَّاسٍ وَحَبِيبٍ وَابْنِ خَيْثَمٍ وَالرَّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ وَأَكْثَرُهُ
 شِعْرُ كِتَابِ الْأَعْيَانِ لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهِ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ
 الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْمُحْفَظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيٌّ وَلَا يُعْطِيهِ الرُّوْتَقَ وَالْحَلَاوَةَ
 إِلَّا كَثْرَةُ الْحِفْظِ فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ
 وَاجْتِنَابُ الشَّعْرِ أَوَّلِي يَمْنٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُحْفَظٌ ثُمَّ بَعْدَ الْأَمْتِلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَتَخَذَ الْقَرِيحَةُ
 لِلنَّسْجِ عَلَى الْمَنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَبِالْإِكْتِفَاءِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتَهُ وَتَرَسِّخُ
 وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانُ ذَلِكَ الْحِفْظِ لِتَحْتَمِلَ رُسُومُهُ الْخَرْفِيَّةَ الظَّاهِرَةَ إِذْ
 هِيَ صَادِرَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا بَعِيْنَهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ الْأَسْلُوبُ
 فِيهَا كَأَنَّهُ مَنَوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةً ثُمَّ لَا يَدُّ لَهُ
 مِنَ الْخَلْوَةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمُنْتَظَرِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا السَّمْعُ
 لِاسْتِمَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَنَشِيطِهَا بِمِلَازِمِ الشُّرُورِ ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ
 يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعٌ لَهُ وَأَنْشَطُ الْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمَنَوَالِ
 الَّذِي فِي حِفْظِهِ قَالُوا وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكْرِ عِنْدَ الْهَيُوبِ مِنَ النَّوْمِ
 وَفَرَاغِ الْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ الْجَمَامُ وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِنِهِ الْعِشْقُ
 وَالْإِنْتِشَاءُ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْفَرَدَ بِهِ
 الصَّنَاعَةَ وَإِعْطَاهُ حَقَّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَالُوا فَإِنْ اسْتَضَعَبَ
 عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرَكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يُكْرَهُ نَفْسُهُ عَلَيْهِ وَلَيْكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ
 عَلَى الْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْنِهِ وَسَجِّهِ بَعْضَهَا وَيَبْنِي الْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ
 عَنِ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعَبَ عَلَيْهِ وَضَعَهَا فِي مَحَلِّهَا فَرُبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةٌ فَلَقَّةٌ وَإِذَا سَمَّحَ
 الْخَطَرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يَنْسَبِ الَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتْرَكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلَّ
 بَيْتٍ مُسْتَقِلٌ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقِ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ

الْخُلَاصِ مِنْهُ بِالْتَّنْقِيحِ وَالنَّقْدِ وَلَا يَضُنُّ بِهِ عَلَى التَّرْكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ الْإِجَادَةَ فَإِنَّ
 الْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتُ فِكْرِهِ وَأَخْبِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمَلُ فِيهِ مِنْ
 الْكَلَامِ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكِبِ وَالْخُلَاصِ مِنَ الضَّرُورَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَيَمْهَجُرُهَا فَإِنَّمَا
 تَنْزِلُ بِالْكَلامِ عَنِ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ وَقَدْ حَظَرَ أئِمَّةُ اللِّسَانِ الْمُؤَلَّدُ مِنَ أَرْكَابِ
 الضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةِ مِنْهَا بِالْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ الْمَلَكَةِ وَيَجْتَنِبُ
 أَيْضًا الْمُعَقَّدَ مِنَ التَّرَاكِبِ جَهْدُهُ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ الْفَاطِلَةَ إِلَى
 الْفَهْمِ وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِي فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى الْفَهْمِ وَإِنَّمَا
 الْخُحْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ الْفَاطِلَةُ طَبَقًا عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْفَى فَإِنَّ كَانَتْ الْمَعَانِي كَثِيرَةً
 كَانَ حِشْوًا وَاسْتَعْمَلَ الذَّهْنَ بِالْغُوصِ عَلَيْهَا فَمَتَعَ الذُّوقَ عَنِ اسْتِيفَاءِ مُدْرَكِهِ مِنَ
 الْبَلَاغَةِ وَلَا يَكُونُ الشَّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ الْفَاطِلَةَ إِلَى الذَّهْنِ وَلِهَذَا
 كَانَ شَيْوَحْنَا رَجِمَهُمُ اللَّهُ يَعِيبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ ^(١) بِنِ خَفَاجَةَ شَاعِرِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ
 مَعَانِيهِ وَأَزْدَ حَامِيًا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعِيبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّئِيِّ وَالْمَعْرِيِّ بِعَدَمِ
 السَّجِّ عَلَى الْأَسَالِبِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَامًا مَنْظُومًا نَازِلًا عَنِ طَبَقَةِ
 الشَّعْرِ وَالْحَاكِمُ بِذَلِكَ هُوَ الذُّوقُ وَيَجْتَنِبُ الشَّاعِرُ أَيْضًا الْخَوْشِيَّ مِنَ الْأَلْفَاطِ وَالْمُقْصَرَ
 وَكَذَلِكَ السُّوقِيَّ الْمُبْتَدِلَ بِالتَّنَادُلِ بِالِاسْتِعْمَالِ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِالْكَلامِ عَنِ طَبَقَةِ
 الْبَلَاغَةِ أَيْضًا فَيَصِيرُ مُبْتَدَلًا وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ الْإِفَادَةِ كَقَوْلِهِمُ النَّارُ حَارَةٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقَنَا
 وَبِمِقْدَارِ مَا يَقْرُبُ مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ الْإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنِ رَتْبَةِ الْبَلَاغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ وَلِهَذَا
 كَانَ الشَّعْرُ فِي الرِّبَانِيَّاتِ وَالنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ الْإِجَادَةِ فِي الْعَالِبِ وَلَا يَخْتَدِقُ فِيهِ إِلَّا
 الْفُحُولُ وَفِي الْقَلِيلِ عَلَى الْعَشْرِ لِأَنَّ مَعَانِيهَا مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ مُبْتَدَلَةً لِدَلَالَتِهَا وَإِذَا
 تَعَدَّرَ الشَّعْرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيُرَاوِضْهُ وَيَعَاوِدْهُ فَإِنَّ الْقَرِيحَةَ مِثْلَ الضَّرْعِ يَدِرُّ بِالْإِمْتِرَاءِ
 وَيَحِفُّ بِالْتَّرْكِ وَالْإِهْمَالِ وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَعَلِمُهَا مُسْتَوْفَى فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ
 لِابْنِ رَشِيْقٍ وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرْنَا بِحَسْبِ الْجُهْدِ وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ
 بِذَلِكَ الْكِتَابِ فِيهِ الْبُعْيَةُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ نُبْدَةٌ كَافِيَةٌ وَاللَّهُ الْمَعِينُ وَقَدْ نَظَّمَ النَّاسُ
 فِي أَمْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الشَّعْرِيَّةِ مَا يَجِبُ فِيهَا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ وَأَخْذُهُ لِابْنِ رَشِيْقٍ

(١) قوله ابي بكر في نسخة ابي اسحاق الخ

لَعَنَ اللَّهُ صَنَعَةَ الشَّعْرِ مَاذَا مِنْ صُنُوفِ الْجُهَالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْتِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا كَانَ سَهْلًا لِلْسَّامِعِينَ مِينَا
وَيَزُونَ الْحَمَالَ مَعْنَى صَحِيحًا وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينًا
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْرُونَ رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سَوَانَا يُلَامُونَ نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعَذَّرُونَ
إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا يَنْسَبُ فِي النَّظْمِ م وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فَنُونًا
فَأَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمَتُونَا فَآتَى بَعْضُهُ يَشَاكُلُ بَعْضًا
كُلُّ مَعْنَى أَنَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَتَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ كَادَ حُسْنًا بَيْنَ النَّاطِرِينَا
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ مِنْهُ وَجُوهُ وَالْمَعَانِي رُكْبَيْنَ فِيهَا عِيُونَا
إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسَبُ الْأَمَانِي يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ الْمَشْدُونَا
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشَّعْرِ حُرًّا رُمْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ الْمُشْتَمِينَا
فَجَعَلْتَ السَّبَبَ سَهْلًا قَرِيبًا وَجَعَلْتَ الْمَدِيحَ صِدْقًا مِينَا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهْجَى فِي السَّمْعِ م وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَوْزُونًا
وَإِذَا مَا عَرَضْتَهُ بِهَجَاءٍ عَيْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ الْمُرْقَبِينَا
فَجَعَلْتَ الضَّرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً وَجَعَلْتَ التَّعْرِيفَ دَاءً دَفِينَا
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْعَالَمِ دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْنِ وَالطَّاعِنِينَا
حَلَّتْ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّتْ مَا كَامَ نَ مِنَ الدَّمْعِ فِي الْعِيُونِ مَصُونَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ عَاتِبًا جُنْتَ بِالْوَعْدِ وَعَيْدًا وَبِالصُّعُوبَةِ بَيْنَا
فَتَرَكْتَ الَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ حَدْرًا أَمِنًا عَزِيزًا مِينَا
وَأَصْحَ الْقَرِيضِ مَا قَارَبَ النَّظْمِ م وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا مُسْتَبِينَا
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ النَّاسَ طَرًّا وَإِذَا رِيمَ أَعْجَزَ الدُّهْجِ زِينَا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم

الشَّعْرُ مَا قَوْمَتْ رَبْعَ صُدُورِهِ وَشَدَدَتْ بِالْتَهْدِيدِ أَسَّ مَتُونِهِ
وَرَأَيْتَ بِالْإِدْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحَتْ بِالْإِيْجَارِ عُدَّ عِيُونِهِ

وَجَمَعَتْ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيْدِهِ
وَإِذَا مَدَحَتْ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا
أَصْفِيَتْهُ بِتَفَنُّشٍ وَرَضِيَتْهُ
فِيَكُونُ جَزَلًا فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَاهْلِهَا
وَإِذَا أَرَدْتَ كِنَايَةً عَنِ رَبِيَّةٍ
جَعَلْتَ سَامِعَةً يَشُوبُ شُكُوكَهُ
وَجَمَعَتْ بَيْنَ شَحْمِهِ وَمَعِينِهِ
وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دِيُونِهِ
وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
وَيَكُونُ سَهْلًا فِي اتِّفَاقِ فَنُونِهِ
أَجْرِيَتْ لِلْحَزُونِ مَاءَ شَوْوْنِهِ
بَابَتْ بَيْنَ ظَهْرِهِ وَبَطُونِهِ
بِشَبُوتِهِ وَظَنُونِهِ
بِيقِينِهِ

الفصل السابع والاربعون

في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

اعلم ان صناعة الكلام نظماً ونثراً انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما
المعاني تبع لها وهي اصل فالصانع الذي يحاول مملكة الكلام في النظم والنثر
انما يحاولها في الالفاظ يحفظ امثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريته
على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخاص من العجمة التي ربي عليها
في جيله ويفرض نفسه مثل وليد نشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها
الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك انا قدمنا ان لسان مملكة
من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي
في اللسان والنطق انما هو الالفاظ واما المعاني فهي في الضمائر وايضا فالمعاني
موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج
إلى صناعة وتاليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة
القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها انية الذهب
والفضة والصدف والزجاج والحزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني
المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في
الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد
والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتاليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة
اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض

وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفَقْدَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

الفصل الثامن والاربعون

في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ كَثْرَةِ الْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعْلَمَ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ وَعَلَى قَدْرِ
جُودَةِ الْمُحْفَظِ وَطَبَقْتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قَلْتِهِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَلِكَةِ الْخَاصَّةِ
عَنْهُ لِلْحَافِظِ فَمَنْ كَانَ مُحْفَظُهُ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوْ الْعَتَابِيِّ أَوْ ابْنِ الدُّعْتَزِيِّ أَوْ ابْنِ هَانِيٍّ أَوْ
الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ أَوْ رَسَائِلِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلِ ابْنِ هَارُونَ أَوْ ابْنِ الزِّيَّاتِ أَوْ الْبَدِيعِ
أَوْ الصَّائِيٍّ تَكُونُ مَلِكَتُهُ أَجُودَ وَأَعْلَى مَقَامًا وَرَتِبَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ابْنِ
سَهْلِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَوْ ابْنِ النَّبِيِّ أَوْ تَرْسُلِ الْبَيْسَانِيِّ أَوْ الْعِمَادِ الْأَصْبَهَانِيِّ لِلزُّوْلِ
طَبَقَةٍ هُوَ لِأَنَّ عَنْ أَوْلَئِكَ يَظْهَرُ ذَلِكَ لِلْبَصِيرِ النَّاقِدِ صَاحِبِ الذُّوقِ وَعَلَى مِقْدَارِ جُودَةِ
الْمُحْفَظِ أَوْ الْمَسْمُوعِ تَكُونُ جُودَةُ الْأَسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ الْمَلِكَةِ مِنْ
بَعْدِهِمَا فَيَا زِنْفَاءَ الْمُحْفَظِ فِي طَبَقْتِهِ مِنَ الْكَلَامِ تَرْتَقِي الْمَلِكَةُ الْخَاصَّةُ لِأَنَّ الطَّبِيعَ
إِنَّمَا يَنْسُجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَتَنْمُو قُوَى الْمَلِكَةِ بِتَعَدُّبِهَا وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي
جَبَلَتِهَا وَاحِدَةً بِالنُّوعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي الْبَشَرِ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ فِي الْإِدْرَاكَاتِ وَاخْتِلَافِهَا
إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ الْإِدْرَاكَاتِ وَالْمَلَكَاتِ وَالْأَلْوَانِ الَّتِي تُكَيِّفُهَا
مِنْ خَارِجٍ فَيَهْدِيهَا يَتِمُّ وَجُودُهَا وَتَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ صُورَتِهَا وَالْمَلَكَاتُ الَّتِي
تُحْصَلُ لَهَا إِنَّمَا تُحْصَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَالْمَلِكَةُ الشَّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ الشَّعْرِ
وَمَلِكَةُ الْكِتَابَةِ بِحِفْظِ الْأَسْبَاجِ وَالتَّرْسِيلِ وَالْعِلْمِيَّةُ بِخَالِطَةِ الْعُلُومِ وَالْإِدْرَاكَاتِ
وَالْأَبْحَاطِ وَالْأَنْظَارِ وَالْفَقْهِيَّةُ بِخَالِطَةِ الْفَقْهِ وَتَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ وَتَفْرِيْعِهَا وَتَخْرِيجِ الْفُرُوعِ
عَلَى الْأَصُولِ وَالتَّصَوُّفِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِالْعِبَادَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَتَعْلِيلِ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ
بِالْحُلُومِ وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى تُحْصَلَ لَهُ مَلِكَةُ الرَّجُوعِ إِلَى حِسَةِ الْبَاطِنِ
وَرُوحِهِ وَيَتَقَلَّبُ رَبَّانِيًّا وَكَذَا سَائِرُهَا وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْ أَنَّ تَكْيِيفَ بِهِ وَعَلَى
حَسَبِ مَا نَشَأَتْ الْمَلِكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلِكَةُ فِي نَفْسِهَا
فَمَلِكَةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ الطَّبَقَةِ فِي جِنْسِهَا إِنَّمَا تُحْصَلُ بِحِفْظِ الْعَالِيِ فِي طَبَقْتِهِ مِنْ
الْكَلَامِ وَهَذَا كَانَ الْفَقْهَاءُ وَأَهْلُ الْعُلُومِ كُلِّهِمْ قَاصِرِينَ فِي الْبَلَاغَةِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ

يَسْبِقُ إِلَى مَحْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِئُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفَقِيهَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ
 أُسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الطَّبَقَةِ لِأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حِظَّ لَهَا فِي
 الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ إِلَى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوَّتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتِ الْمَلِكَةُ
 النَّاشِئَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَتَمَحَّرَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ وَهَكَذَا
 تَمَحَّدُ شِعْرُ الْفُقَهَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالنُّظَّارِ وَعَبْرَهُمْ مَنْ لَمْ يَمْتَلِئْ مِنْ حِظِّ النَّقِيِّ
 الْحَرِّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ رُضْوَانَ كَاتِبُ الْعَلَمَةِ
 بِالدَّوْلَةِ الْمُرْنِيَّةِ قَالَ ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا الْعَبَّاسِ بْنِ شُعَيْبٍ كَاتِبَ السُّلْطَانِ
 أَبِي الْحَسَنِ وَكَانَ الْمَقْدَمِ فِي الْبَصْرِ بِاللِّسَانِ لِعَهْدِهِ فَأَنْشَدَتْهُ مُطَلِّعَ قَصِيدَةِ ابْنِ النَّحْوِيِّ
 وَلَمْ أَنْسِبْهَا لَهُ وَهُوَ هَذَا

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالْبَالِيِ
 فَقَالَ لِي عَلَى الْبَدِيهَةِ هَذَا شِعْرٌ فَقِيهِ فَقُلْتُ لَهُ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ فَقَالَ مِنْ قَوْلِهِ مَا
 الْفَرْقُ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَقُلْتُ لَهُ اللَّهُ أَبُوكَ
 إِنَّهُ ابْنُ النَّحْوِيِّ . وَوَأَمَّا الْكُتَّابُ وَالشُّعْرَاءُ فَلَيْسُوا كَذَلِكَ لِتَخْيُرِهِمْ فِي مَحْفُوظِهِمْ
 وَمَخَالَطَتِهِمْ كَلَامَ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي التَّرْسُلِ وَانْتِقَائِهِمْ لَهُمْ الْجَيِّدَ مِنَ الْكَلَامِ .
 ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَزَيْرَ الْمُلُوكِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ بَنِي
 الْأَحْمَرِ وَكَانَ الصِّدْرَ الْمَقْدَمِ فِي الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ فَقُلْتُ لَهُ أَجِدَ اسْتِصْعَابًا عَلَيَّ فِي
 نَظْمِ الشُّعْرِ مَتَى رَمْتُهُ مَعَ بَصْرِي بِهِ وَحِظِّي لِلْجَيِّدِ مِنَ الْكَلَامِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَفُنُونِ
 مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظِي قَلِيلًا وَإِنَّمَا آتَيْتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ قَبْلِ مَا حَصَلَ فِي
 حِظِّي مِنَ الْأَشْعَارِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ التَّالِيفِيَّةِ فَإِنِّي حِظَّنْتُ قَصِيدَتِي الشَّاطِبِيِّ الْكُبْرَى
 وَالصُّغْرَى فِي الْقِرَاءَاتِ وَتَدَارَسْتُ كِتَابِي ابْنَ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَالْأَصُولِ وَجَمَلَ
 الْخَوَاجِجِي فِي الْمَنْطِقِ وَبَعْضَ كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَكَثِيرًا مِنْ قَوَانِينِ الْعَلِيمِ فِي الْجَمَالِيسِ
 فَأَمْتَلًا مَحْفُوظِي مِنْ ذَلِكَ وَخُدِشَ وَجْهَ الْمَلِكَةِ الَّتِي اسْتَعَدَّتْ لَهَا بِالْمَحْفُوظِ الْجَيِّدِ مِنَ
 الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ تَعَاقُ الْقَرِيحَةَ عَنْ بُلُوغِهَا فَنَظَرَ إِلَيَّ سَاعَةً مُعْجِبًا ثُمَّ قَالَ
 لِلَّهِ أَنْتَ وَهَلْ يَقُولُ هَذَا إِلَّا مِثْلَكَ . وَيُظْهِرُ لَكَ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ وَمَا تَقَرَّرَ فِيهِ سِرٌّ آخَرُ
 وَهُوَ إِعْطَاءُ السَّبَبِ فِي أَنَّ كَلَامَ الْأَيْسَلَامِيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ أَعْلَى طَبَقَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ وَأَذْوَابِهَا

مِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَثْوَرِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ وَعُمَرَ بْنِ
 أَبِي رَبِيعَةَ وَالْحُطَيْئَةَ وَجَرِيرَ وَالْفَرَزْدَقَ وَنَضِيبَ وَغِيلَانَ ذِي الرُّمَّةِ وَالْأَحْوَصَ وَبِشَارَ
 ثُمَّ كَلَامِ السَّلَفِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَصَدْرًا مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي
 خُطْبِهِمْ وَتَرْسِيلِهِمْ وَمَحَاوِرَاتِهِمْ لِلْمَمْلُوكِ أَرْفَعَ طَبَقَةَ فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ وَعَنْدَرَةَ
 وَأَبْنِ كُلْثُومٍ وَزُهَيْرَ وَعَلْقَمَةَ بِنْتِ عَبْدِ وَطَرَفَةَ بِنْتِ عَبْدِ وَمِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَثْوَرِهِمْ
 وَمَحَاوِرَاتِهِمْ وَالطَّبَعُ السَّلِيمُ وَالذُّوقُ الصَّحِيحُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ لِلنَّاقِدِ الْبَصِيرِ بِالْبَلَاغَةِ وَالسَّبَبِ
 فِي ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ سَمِعُوا الطَّبَقَةَ الْعَالِيَةَ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ
 وَالْحَدِيثِ الَّذِينَ عَجَزَ الْبَشَرُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِمَا لِكُونِهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَشَتْ
 عَلَى أَسَالِبِهَا نَفْسُهُمْ. فَهَضَمَتْ طَبَاعَهُمْ وَأَرْزَقَتْ مَلَكَتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى
 مَلَكَاتٍ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا
 فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَتَرْهِيمِ أَحْسَنَ دِيبَاجَةً وَأَصْنَى رَوْنَقًا مِنْ أَوْلَيْكَ وَأَرْصَفَ
 مَبْنَى وَأَعْدَلَ تَنْقِيْفًا بِمَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَالِيِ الطَّبَقَةَ وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ يَشْهَدُ لَكَ
 بِهِ ذَوْقُكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الذُّوقِ وَالْبَصْرِ بِالْبَلَاغَةِ. وَلَقَدْ سَأَلْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا الشَّرِيفَ
 أَبَا الْقَاسِمِ قَاضِي غَرْنَاطَةَ لِعِدْنَا وَكَانَ شَيْخَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَخَذَ بِسَبْتَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ
 مَشِيخَتِنَا مِنْ تَلَامِيذِ السَّلَوِيْنَ وَأَسْتَجَبَرَ فِي عِلْمِ اللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْعَايَةِ فِيهِ فَسَأَلْتُهُ
 يَوْمًا مَا بَالُ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّينَ أَعْلَى طَبَقَةَ فِي الْبَلَاغَةِ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ وَلَمْ يَكُنْ
 لِيَسْتَنْبِرَ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي فَقُلْتُ أَعْرَضَ عَلَيْكَ
 شَيْئًا ظَهَرَ لِي فِي ذَلِكَ وَلَعَلَّهُ السَّبَبُ فِيهِ وَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُجِيبًا
 ثُمَّ قَالَ لِي يَا فُقَيْهَ هَذَا كَلَامٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا يُؤْتَرُ
 مَحَلِّي وَيُصَيِّخُ فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِالنَّبَاهَةِ فِي الْعُلُومِ وَاللَّهِ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ

الفصل التاسع والاربعون

في ترفع اهل المراتب عن التحال الشعر

إَعْلَمَنَّ أَنَّ الشُّعْرَ كَانَ دِيوَانًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحِكْمُهُمْ وَكَانَ رُؤْسَاءَ
 الْعَرَبِ مُنَافِسِينَ فِيهِ وَكَانُوا يَقْفُونَ بِسُوقِ عُكَاظٍ لِإِنْسَادِهِ وَعَرَضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

دِبَاجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّانِ وَأَهْلِ البَصْرِ لِتَمْيِيزِ حَوَالِهِ حَتَّى أَنْتَهَوْا إِلَى الْمَنَاعَاةِ فِي تَعْلِيقِ
 أَشْعَارِهِمْ بِأَزْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَوْضِعِ حَجَّتِهِمْ وَبَيْتِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ
 ابْنُ حَجْرٍ وَالنَّبِيعَةُ الذُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ وَطَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ
 وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ وَالْأَعَشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعْلَقَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ
 إِلَى تَعْلِيقِ الشَّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَمَكَانِهِ فِي مَضَرَّ عَلَى
 مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمُعْلَقَاتِ ثُمَّ أَنْصَرَفَ الْعَرَبُ عَنْ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ بِمَا
 شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالثَّبُوتِ وَالْوَحْيِ وَمَا أَدهَشَهُمْ مِنْ أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَنُظْمِهِ
 فَأَخْرَجُوا عَنْ ذَلِكَ وَسَكَنُوا عَنِ الْخُلُوصِ فِي النُّظْمِ وَالنَّثْرِ زَمَانًا ثُمَّ اسْتَقَرَّ ذَلِكَ وَأَوَّلَسَ
 الرُّشْدُ مِنَ الْمِلَّةِ وَلَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ الشَّعْرِ وَحِظْرِهِ وَسَمِعَهُ الذُّبْيَانِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى دِينِهِمْ مِنْهُ وَكَانَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ كَبِيرِ
 قُرَيْشٍ لِذَلِكَ الْعَهْدِ مَقَامَاتٌ فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مَرْتَفَعَةٌ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُعْرَضُ شِعْرُهُ عَلَى
 ابْنِ عَبَّاسٍ فَيَقِفُ لِاسْتِمَاعِهِ مُعْجِبًا بِهِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَالِدُ الْوَلَةِ الْعَزِيزَةُ
 وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمُ الْعَرَبُ بِأَشْعَارِهِمْ يَمْتَدِحُونَهُمْ بِهَا وَيُحِيزُهُمُ الْخُلَفَاءُ بِأَعْظَمِ الْجَوَائِزِ عَلَى
 نِسْبَةِ الْجُودَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِيهِمْ وَيَحْرُصُونَ عَلَى اسْتِهْدَاءِ أَشْعَارِهِمْ يَطْلَعُونَ
 مِنْهَا عَلَى الْأَنَارِ وَالْأَخْبَارِ وَاللُّغَةِ وَشَرَفِ اللِّسَانِ وَالْعَرَبُ يَطْلُبُونَ وَلدُهُمْ بِحِفْظِهَا وَلَمْ
 يَزَلْ هَذَا الشَّانُ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةٍ وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَنْظَرَ مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ الْعَهْدِ
 فِي مُسَامَرَةِ الرَّشِيدِ لِلْأَخْمَعِيِّ فِي بَابِ الشَّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ تَجِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّشِيدُ مِنَ
 الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ وَالرُّسُوخِ فِيهِ وَالْعِنَايَةِ بِالتَّحَالِهِ وَالتَّبَصُّرِ بِجَيِّدِ الْكَلَامِ وَرَدِّيَّتِهِ وَكَثْرَةِ
 حِفْظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جَاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ اللِّسَانُ لِسَانَهُمْ مِنْ أَجْلِ الْجُمُوعَةِ وَتَقْصِيرِهَا
 بِاللِّسَانِ وَإِنَّمَا تَعَلَّوْهُ صِنَاعَةً ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أُمَّرَاءَ الْعَجَمِ الَّذِينَ لَيْسَ اللِّسَانُ لَهُمْ
 طَالِبِينَ مَعْرُوفِهِمْ فَقَطَّ لَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَغْرَاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبٌ وَالتَّبَعْرِيُّ وَالمْتَنَبِيُّ
 وَابْنُ هَانِيٍّ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرًّا فَصَارَ غَرَضُ الشَّعْرِ فِي الْعَالِمِ إِنَّمَا هُوَ الْكُذْبُ
 وَالْاسْتِجْدَاءُ لِذَهَابِ الْمَنَافِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ لِلأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنْفَاءِ وَأَنْفٍ مِنْهُ لِلذَّكَاءِ
 أَهْلِ الْعَهْمِ وَالْمَرَاتِبِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَتَغْيِيرِ الْحَالِ وَأَصْبَحَ تَعَاطِيهِ هُجْنَةً فِي الرَّئِيسَةِ
 وَمَدْمَةً لِأَهْلِ الْمَنَاصِبِ الْكَبِيرَةِ وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

الفصل الخمسون

في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

اعلم ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية
 او عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكروا منهم ارسطو في كتاب
 المنطق او ميروس الشاعر واثنى عليه وكان في حدير ايضا شعراء متقدمون ولما قسد
 لسان مضر ولغتهم التي دوت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب
 ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت تحيل العرب بانفسهم لغة خالفت لغة سالفهم
 من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات
 وكذلك اخصر اهل الامصار نشأت فيهم لغة اخرى خالفت لسان مضر في الاعراب
 واكثر الاوضاع والتصارييف وخالفت ايضا لغة الجبل من العرب لهذا العهد
 واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات اهل الافاق فالاهل الشرق وامصاره لغة
 غير لغة اهل المغرب وامصاره وتخالفتها ايضا لغة اهل الاندلس وامصاره ثم لما
 كان الشعر موجودا بالطبع في اهل كل لسان لان الموازين على نسبة واحدة في
 اعداد المتحررات والسواكن ونقابليها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر
 بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا نخولة وفرسان ميدانه حسبا اشتهر
 بين اهل الخليقة بل كل جيل واهل كل لغة من العرب المستعجمين والخصر
 اهل الامصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورضف بنائه على مبيع كلامهم
 فاما العرب اهل هذا الجبل المستعجمون عن لغة سالفهم من مضر فيقرضون الشعر
 لهذا العهد في سائر الاعاريف على ما كان عليه سالفهم المستعربون ويأتون منه
 بالمطولات مشتملة على بدهاب الشعر واعراضه من التسيب والمدح والرتاء
 والهجاء ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام وربما هجموا على
 المقصود لأول كلامهم واكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك
 ينسبون فاهل امصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة الى
 الاصمعي راوية العرب في اشعارهم واهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من
 الشعر بالبدوي وربما يلخون فيه الخانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم

يَغْنُونُ بِهِ وَيَسْمُونَ الْغَنَاءَ بِهِ بِاسْمِ الْخُورَانِيِّ نِسْبَةً إِلَى خُورَانَ مِنْ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ
 وَالشَّامِ وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ وَمَسَاكِينِهِمْ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ. وَلَهُمْ فَنٌّ آخَرٌ كَثِيرٌ
 الدَّوَالِ فِي نَظْمِهِمْ يَجِيئُونَ بِهِ مَعْصَبًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ يُخَالِفُ آخِرُهَا الثَّلَاثَةَ فِي رُويِهِ
 وَيَلْتَزِمُونَ الْقَافِيَةَ الرَّابِعَةَ فِي كُلِّ بَيْتٍ إِلَى آخِرِ الْقَصِيدَةِ شَدِيدًا بِالْمُرْبَعِ وَالْمُخَمَّسِ
 الَّذِي أَحَدَتْهُ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنَ الْمُؤَلِّدِينَ وَإِلَهُؤَلَاءِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الشَّعْرِ بِلَاغَةٌ فَائِقَةٌ
 وَفِيهِمُ الْفُحُولُ وَالْمُتَأَخَّرُونَ وَالْكَثِيرُ مِنَ الْمُنتَحِلِينَ الْعُلُومَ لِهُذَا الْعَهْدِ وَخُصُوصًا عِلْمُ
 اللِّسَانِ يَسْتَنْكَرُ صَاحِبُهَا هَذِهِ الْفُنُونَ الَّتِي لَهُمْ إِذَا سَمِعَهَا وَيَجُوعُ نَظْمُهُمْ إِذَا أُشِيدَ وَيَعْتَقِدُ
 أَنَّ ذَوْقَهُ إِنَّمَا نَبَأَ عَنْهَا لِاسْتِحْجَانِهَا وَفَقْدَانِ الْإِعْرَابِ مِنْهَا وَهَذَا إِنَّمَا أَتَى مِنْ فَقْدَانِ
 الْمَلَكَةِ فِي لُغَتِهِمْ فَلَوْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِهِمْ لَشَهِدَ لَهُ طَبَعُهُ وَذَوْقُهُ بِبِلَاغَتِهَا
 إِنْ كَانَ سَلِيمًا مِنَ الْآفَاتِ فِي فِطْرَتِهِ وَنَظَرِهِ وَإِلَّا فَالْإِعْرَابُ لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْبِلَاغَةِ
 إِنَّمَا الْبِلَاغَةُ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَقْصُودِ وَلِمَقْتَضَى الْحَالِ مِنَ الْوُجُودِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ
 الرَّفْعُ دَالًّا عَلَى الْفَاعِلِ وَالنَّصْبُ دَالًّا عَلَى الْمَفْعُولِ أَوْ بِالْعَكْسِ وَإِنَّمَا يُدَلُّ عَلَى ذَلِكَ
 قِرَائِنُ الْكَلَامِ كَمَا هُوَ فِي لُغَتِهِمْ هَذِهِ فَالدَّلَالَةُ بِحَسَبِ مَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَلَكَةِ
 فَإِذَا عُرِفَ أَصْطِلَاحُ فِي مَلَكَةٍ وَاشْتَهَرَ صِحَّةُ الدَّلَالَةِ وَإِذَا طَاقَتْ تِلْكَ الدَّلَالَةُ
 الْمَقْصُودَ وَمَقْتَضَى الْحَالِ صَحَّتِ الْبِلَاغَةُ وَلَا عِبْرَةَ بِقَوَائِنِ النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ وَأَسَالِبُ الشَّعْرِ
 وَفُنُونُهُ مَوْجُودَةٌ فِي أَشْعَارِهِمْ هَذِهِ مَا عَدَا حَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ فِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَإِنَّ
 غَالِبَ كَلِمَاتِهِمْ مَوْفُوقَةٌ الْآخِرِ وَبِمَيَّزُ عِنْدَهُمُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ
 بِقِرَائِنِ الْكَلَامِ لَا بِحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ

(الموشحات والازجال للاندلس)

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشَّعْرُ فِي فِطْرِهِمْ وَتَهَدَّبَتْ مَنَاحِيهِ وَفُنُونُهُ وَبَلَغَ
 التَّنَمِيقُ فِيهِ الْعَاقِبَةُ اسْتَعْدَتْ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ فَنَاءً مِنْهُ سَمُوهُ بِالْمَوْشِحِ يَنْظُمُونَهُ أَسْمَاطًا
 أَسْمَاطًا وَأَعْصَانًا أَعْصَانًا يُكْثِرُونَ مِنْ أَعَارِضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَيَسْمُونَ الْمُتَعَدِّدَ مِنْهَا بَيْتًا
 وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قَوَائِنِ تِلْكَ الْأَعْصَانِ وَأَوْزَانِهَا مُتَالِيًا فِيمَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ
 وَأَكْثَرُ مَا تَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ آيَاتٍ وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَعْصَانٍ عَدَدِهَا
 بِحَسَبِ الْأَعْرَاسِ وَالْمَدَاهِبِ وَيَنْسَبُونَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ وَتَجَارُوا

فِي ذَلِكَ إِلَى الْعَايَةِ وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جُمْلَةً اخْتِصَافًا وَكَافَّةً لِسُهُولَةٍ تَنَاوَلَهُ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ وَكَانَ الْمُخْتَارُ لَهَا بِحُزْنٍ أَلَانْدُسُ مُقَدِّمَ بْنِ مُعَاوِرِ الْفَرِيرِيِّ مِنْ شُعْرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعَقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لِهَمَا مَعَ الْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مَوْشِحَاتُهُمَا فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عِبَادَةُ الْقُرَازِ شَاعِرِ الْمُعْتَصِمِ ابْنِ صَمَادِحِ صَاحِبِ الْمِرْيَةِ

بدر تم . شمس ضحا . غصن نقا . مسك شم

ما اتم . ما اوضحا . ما اورقا . ما انم

لا جرم . من لحما . قد عشقا . قد حرم

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَاحُّ مِنْ مُعَاوِرِيهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطَّوَائِفِ

وَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً

مِنَ الْوُشَّاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِأَشْبِيلَةَ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَصْطَنَعَ مَوْشِحَةً

وَتَأْتَقُ فِيهَا فَتَقْدَمُ الْأَعْمَى الطَّلِيطِيُّ لِلْإِنْسَادِ فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشِحَتَهُ الْمَشْهُورَةَ يَقُولُهُ

ضاحكٌ عن جُحَانٍ . سافرٌ عن دُرٍّ ضاقَ عنه الزَّمَانُ . وَحَوَاهُ صَدْرِي

صَرَفَ ابْنُ بَقِيٍّ مَوْشِحَتَهُ وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّوسِي أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ

مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحًا عَلَى قَوْلِ إِلَّا ابْنُ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يَلْحَقُ أَطْلَعُهُ الْغَرْبُ . فَأَرَانَا مِثْلَهُ بِأَمَشْرِقِ

وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ الْمَوْشِحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَيْضُ وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا أَيْضًا

الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ

أَنَّ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ابْنَ تَيْفَلُوتِ صَاحِبِ سِرْقَسْطَةَ فَأَتَى عَلَى بَعْضِ قِيَانَتِهِ مَوْشِحَتَهُ

جَرَّ الدَّبْلُ أَيَّمَا جَرٍّ وَصَلِ الشُّكْرُ مِنْكَ بِالشُّكْرِ

فَطَرَبَ الْمَمْدُوحُ لِذَلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةَ النَّصْرِ لِأَمِيرِ الْعِلَاءِ أَبِي بَكْرٍ

فَلَمَّا طَرَقَ ذَلِكَ التَّلَحُّينُ سَمِعَ ابْنَ تَيْفَلُوتِ صَاحِ وَاطْرَبَاهُ وَشَقَّ ثِيَابَهُ وَقَالَ مَا

أَحْسَنَ مَا بَدَأَتْ وَخَتَمَتْ وَحَلَفَتْ بِالْأَيْمَانِ الْمَغْلُظَةِ لَا يَمْسِي ابْنُ بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا

عَلَى الذَّمِّ فَخَافَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَأَحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ

وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنِ زُهَيْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ زُهَيْرٍ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ الْأَيْضِ
 الْوَشَّاحِ الْمَتَّقِمِ الذِّكْرُ فَعَصَّ مِنْهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَعَصُّ مِنْ مَنْ يَقُولُ
 مَا لَدِّي شَرَابٌ رَاحَ " عَلَى رِيَاضِ الْأَفَاحِ لَوْلَا هَضِيمُ الْوَشَّاحِ " إِذَا أَسَا فِي الصَّبَاحِ
 أَوْ فِي الْأَصِيلِ " أَضْعَى يَقُولُ مَا لِلشَّمُولِ " لَطَمْتَ خَدَيْهِ
 وَلِلشَّمَالِ " هَمَّتْ فَمَالِي عُصْنُ اعْتِدَالِ " ضَمَّةٌ بُرْدِيهِ
 مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا " يَمْشِي لِنَا مُسْتَرِيبَا يَا لِحِظَةِ رُدِّ ثُوبَا " وَيَا لِمَاهُ الشَّيْبَا
 بَرْدٌ غَالِيلٌ " صَبَّ عَلِيلٌ لَا يَسْتَحِيلُ " فِيهِ عَنِّ عَهْدِي
 وَلَا يَزَالُ فِي كُلِّ حَالٍ يَرْجُو الْوَصَالَ " وَهُوَ فِي الصَّدِّ
 وَاشْتَهَرَ بَعْدَ هُوَلَاءَ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرَفٍ قَالَ
 الْحَسَنُ بْنُ دَوِيدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الْإِفْتِيَاحِ

شمس قاربت بدرًا راح ونديم

وابن بهرودس الذي له باليلة الوصل والسعود بالله عودي

وَأَبْنُ مُوَهَّلٍ الَّذِي لَهُ مَا أَلْعِيدِي فِي حَالَةٍ وَطَاقٍ . وَشَمَّ وَطَيْبٌ . وَإِنَّمَا الْعِيدِي فِي التَّلَاقِي . مَعَ الْحَبِيبِ
 وَأَبُو اسْحَاقَ الرَّوَيْنِيُّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى
 ابْنِ زُهَيْرٍ وَقَدَّاسَنَ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحَضْنِ سَبْتَةَ فَلَمَّ يَعْرِفُهُ
 فَجَلَسَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَجَرَّتِ الْمُحَاضِرَةُ فَأَنشَدَ لِنَفْسِهِ مَوْشِحَةً وَقَعَ فِيهَا

كُحُلُ الدُّجَى يَجْرِي " مِنْ مَقَلَّةِ الْفَجْرِ " عَلَى الصَّبَاحِ

وَمَعْصَمُ النَّهْرِ " فِي حُلِّ خَضِرٍ . مِنْ الْبِطَاحِ

فَتَحَرَّكَ ابْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا قَالَ اخْتَبِرْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَفَهُ فَقَالَ أَرْتَفَعُ
 فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْخَلْبَةِ الَّذِي أَدْرَكَ هُوَلَاءَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ زُهَيْرٍ
 وَقَدَّ شَرَفَتْ مَوْشِحَاتُهُ وَغَرَبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ
 زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعُ وَأَرْفَعُ مَا وَقَعَ لَكَ فِي النَّوْشِيعِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ

مَا لِلْمَوْهَلِ مِنْ سَكْرِهِ لَا يَفِيقُ . يَالَهُ سَكْرَانِ . مِنْ غَيْرِ خَمَرٍ . مَا لِلْكَيْبِ الْمَشُوقِ . يَنْدُبُ الْاِوْطَانَ

هل تستعاد . ياأمانا بالخليج . وليالينا

او نستفاد . من النسيم الاربج . مسك دارينا

واد يكاد . حُسْنُ الْمَكَانِ الْبَيْحُ . ان يُحِينَا

مَهْرُ الظِّلَّةِ . دَوْحٌ عَلَيْهِ أُنَيْقٌ . مُورِقٌ فَيَنَانٌ . وَالْمَاءُ يَجْرِي . وَعَائِمٌ وَعَرِيقٌ . مِنْ جَنَى الرَّيْحَانِ
وَمِنْ مَحَاسِنِ الْمَوْشِحَاتِ لِلْمَتَأَخِرِينَ مَوْشِحَةٌ أَيْ سَهْلٌ شَاعِرٌ أَشْبِلِيَّةٌ وَسَبْتَةٌ مِنْ
بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ

هَلْ دَرِي ظَنِّي الْحَمِي أَنْ قَدْ حَمَى
فَهُوَ فِي نَارٍ وَخَفِي مِثْلَ مَا
وَقَدْ لَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا الْوَزِيرُ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْخَطِيبِ شَاعِرُ الْأَنْدَلُسِ
وَالْمَغْرِبِ لِعَضْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى
لَمْ يَكُنْ وَصْلَكَ إِلَّا حُلْمًا
إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمَنَى
زَمْرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثَنَا
وَأَلْحِيَا قَدْ جَلَّ الرَّوْضَ سَنَى
وَرَوَى النِّعْمَانُ عَنِ مَاءِ السَّمَاءِ
فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْبًا مُعَلَّمًا
فِي لِبَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الْهَوَى
مَالَ نَجْمِ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبِ سَوَى
حِينَ لَدَّ النَّوْمُ مَنَا أَوْ كَمَا
غَارَتْ الشُّهُبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا
أَيُّ شَيْءٍ لَأَمْرِي قَدْ خَلَصَا
تَهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرْصَا
فَإِذَا الْمَاءُ يُنَاجِي وَالْحَصَا
تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرِمَا
وَتَرَى الْأَسَّ لَيْبًا فِهِمَا

يَا زَمَانَ الْوَصْلُ بِالْأَنْدَلُسِ
فِي الْكُرَى أَوْ خِلْسَةَ الْعُخْلَسِ
يَنْقُلُ الْخَطُوبَ عَلَى مَا يَرَسِمُ
مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوُفُودَ الْمَوْسِمُ
فَتَغُورُ الزُّهْرُ فِيهِ تَبَسِّمُ
كَيْفَ يَرُوي مَالِكٌ عَنِ أَنَسِ
يَزِدْهِ مِنْهُ بِأَبَى مَلْبَسِ
بِالدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرْرِ
مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعَدَ الْأَثَرِ
أَنَّهُ مَرَّ كَلْمَجِ الْبَصْرِ
هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومَ الْحَرَسِ
أَثَرَتْ فِينَا عَيُونُ النَّرْجِسِ
فِيكُونُ الرَّوْضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
أَمَنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا ثَقِيهِ
وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
يَسْرِقُ الدَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسِ

يَا أَهْيَلَ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْغَضَا
ضَاقَ عَن وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْفَضَا
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أَنَسٍ قَدْ مَضَى
وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
وَيَقْلِبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبُ
فَمَرًّا أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ
سَاحِرُ الْمُقَلَّةِ مَعْسُولُ اللَّحْمَى
سَدَدَ السَّيِّئِمْ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى
إِنْ يَكُنْ جَارٌ وَحَابٌ الْأَمَلُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوَّلُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَمَلُ
حَكَمَ اللَّحْظُ بِهَا فَأَحْتَكَمَا
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا
مَا لِقَابِي كُلَّمَا هَبَتْ صَبَا
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا
جَلَبَ اللَّهُمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا
لَا عَجْ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرِمَا
لَمْ يَدْعُ مِنْ مُهَجِّي إِلَّا الدَّمَا
سَلِمِي يَا نَفْسَ فِي حُكِّ الْقَضَا
وَأَتْرَكِي ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى
وَأَصْرِي فِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرَّضَى
الْكُرَيْمِ الْمُنْتَهَى وَالْمُنْتَهَى
يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا

وَيَقْلِبِي مَسْكِرٌ أَنْتُمْ بِهِ
لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
تُنْقِدُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسِ
أَفْتَرِضُونَ خَرَابَ الْحَبْسِ
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ
شَقْوَةَ الْمَغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدُ
جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالَ النَّفْسِ
بِفُؤَادِي نَبْلَةَ الْمَفْتَرِسِ
وَفُؤَادِ الصَّبِّ بِالشَّوْقِ يَدُوبُ
لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِحُبُّوبِ ذُنُوبِ
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبِ
لَمْ يَرَأَقِبْ فِي ضِعَافِ الْأَنْفَسِ
وَيَجَازِي الْبَرَّ مِنْهَا وَالْمَسِي
عَادَهُ عِيدُهُ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ
قَوْلُهُ إِنْ عَدَابِي لَشَدِيدُ
فَهُوَ لِلْأَسْتِجَانِ فِي جَهْدِ جِهْدِ
فَهِيَ نَارٌ فِي هَسِيمِ الْيَلْبَسِ
كِبْقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الْعَاسِ
وَأَعْبُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابِ
بَيْنَ عَتِي قَدْ نَفَضْتُ وَعَتَابِ
مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ
أَسَدِ السَّرْجِ وَبَدْرِ الْحَجَاسِ
يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدْسِ

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تُحْصَلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ اللُّغَةَ وَكَثُرَ
 اسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحْصَلَ مَا كَتَبْنَا كَمَا قُلْنَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
 فَلَا الْإِنْدَاءُ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَا الْمَغْرِبِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ
 أَهْلِ الْإِنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ وَلَا الْمَشْرِقِيُّ بِالْبَلَاغَةِ الَّتِي فِي شِعْرِ الْإِنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّ
 اللِّسَانَ الْخَضْرِيَّ وَتَرَائِيهَ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ
 لِمَحَاسِنِ الشِّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ السِّنْتِكُمْ
 وَأَلْوَانِكُمْ آيَاتٌ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرُجُ عَنِ الْغَرَضِ وَلِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ فِي
 هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ وَمَا يَعْرُضُ فِيهِ وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ
 مَا حَسَبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مِنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِنْ يَأْتِي بِرُؤْيُ اللَّهِ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعَلِمَ مِنْ بَيْنِ بَعْضِ
 مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرِ مَا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْبِطِ الْفَنِّ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ
 تَعْيِينُ مَوْضِعِ الْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُصُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَالْمَتَأَخَّرُونَ يُلْحِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ
 بَعْدِهِ شَبْهُاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ يَكْمَلَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قال مؤلف الكتاب عفي الله عنه اتمت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل النسخ
 والتهذيب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعائة ثم نحتته بعد
 ذلك وهذبتة والحقت به تواريح الام كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند
 الله العزيز الحكيم

لقد تم بحوله تعالى طبع هذا الكتاب طبعة ثالثة في المطبعة الادبية وعلى نفقتها نزهة
 الى طلبة اللغة العربية الشريفة تحفة كريمة من تحف المتقدمين نهديه للناشرين مثلاً يقتدى
 به ومنوالاً يسبقون عليه وقد عني بشكله جناب الكاتب البليغ رشيد افندي عطيه احد
 محرري جريدة لسان الحال ثم نظر فيه وصحح ما احالته عن اصله ايدي النساخ والطباع
 جناب العالم المدقق واللغوي المحقق الكاتب البليغ العلم عبد الله افندي البستاني متوخياً
 بذلك خدمة خالصة للعلم والادب نسأله تعالى ان يثيبه على هذه الخدمة النافعة وينفعنا
 بمعارفه وقد جعلنا ثمن النسخة من هذا الكتاب خمسة وعشرين غرشاً تسهيلاً لاقتمائه ولا
 سيما لتلامذة المدارس ومن طلب منه كمية تفوق الخمسين نسخة جعلنا له اسقاطاً لقاء اهتمامه
 نسأله تعالى ان يوفقنا الى ما فيه خدمة الدولة العلية والوطن



